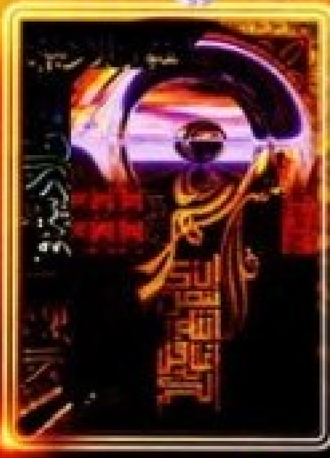
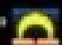


د. سجيع الجبيلي
د. قصي الحسين





دار ومكتبة الهلال
بيروت

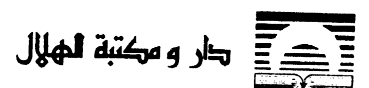
الفنون الأدبية
في العصر الأموي

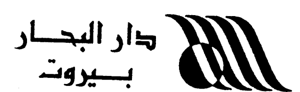

بسم الله الرحمن الرحيم

الفنون الأدبية
في العصر الأموي

الدكتور
سجيع الجبيلي
استاذ في الجامعة اللبنانية
كلية الآداب

الدكتور
قصي الحسين
استاذ في الجامعة اللبنانية
كلية الآداب





ISBN 9953-75-119-6

المتعهد الوحيد لتوزيع منشوراتنا:

دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر
جادة هادي نصرالله - بناية برج الضاحية - ملك دار ومكتبة الهلال
تلفون: 540891 1 961 00 فاكس: 540892 1 961 00
ص.ب.: 15 / 5003 الرمز البريدي 2010 - 1101 البسطا - بيروت لبنان
http:\\www.darelhilal.com E-mail: info@darelhilal.com

مقدمة

تكاد الحركة الأدبية في أي عصر من العصور، وفي أي مصر من الأمصار، تقترن بعاملين أساسيين يساهمان مساهمة قويّة في نموّها وتطورها: العامل السياسيّ من جهة، والعامل الاقتصادي من جهة أخرى. أما العامل البيئي الذي يتحدّث عنه الكثيرون من النقّاد والباحثين، فهو الذي يطبع الأدب بطابع مميّز ويجعله يتصف بلون من الألوان، يمتاز به عن غيره من أنواع الأدب الأخرى التي تعرف في سائر البيئات والأقاليم.

والحركة الأدبية في العصر الأمويّ لا تشذّ عن حركة الأدب بعامة في عوامل نموها وتلوينها، بل ربما كانت أكثر الحركات الأدبية التي شهدتها العصور الأدبية تأثراً بهذه العوامل. فقد وافتها، والعرب في ذروة مدّهم السياسيّ وغناهم الاقتصادي، وتوسعهم في الأمصار والأقطار، نتيجة بلواهم في حروب الثغور وأعمال الفتوح، فتحقق لهم ما جعل أمير الشعراء أحمد شوقي يقول فيهم بعد حين:

بنو أمية للأنباء ما فتحوا ... وللأحاديث ما سادوا وما دانوا

كانوا ملوكاً، سرير الشرق تحتهم ... فهل سألت سرير الغرب: ما كانوا[1]؟

العاملان الاقتصادي والسياسي

فقد تأثرت الحركة الأدبية في العصر الأموي بقوة العامل السياسي، كما تأثرت أيضاً بقوة العامل الاقتصادي. وتدفق الناس في الأمصار المفتتحة شرقاً وغرباً

---

(١) شوقي، أحمد، الديوان، دار الكتاب العربي. بيروت، مجلد أول، جزء ٢، ص١٠٠، والأبيات من قصيدة «دمشق». ومطلعها:

قم ناج جلّق، وأنشد رسم من بانوا ... مشت على الرّسم أحداث وأزمان

وغرسوا في تربتها، أدبهم: شعراً ونثراً. فكان لهذا الأدب أن تجري في انساغه ماء تلك البيئات، فتخضّل عروقه وأوراقه، وتينع قطوفه وثماره، وتكثر في حقوله أزاهير الشعر وفنونه وأغراضه، كما تعظم بين أفيائه ومناحيه أسئلة النثر الفنّي، كتابة وخطابة، وأحاديث مرسلة بين الندّام والخلاّن، تروى في المقاصير أو تخطب فوق المنابر، أو ترسل في الدواوين كأثر من آثار حضارة اتصل ماء جداولها الجاري بينبوعه الصافي، فصار يصدر عن تالد وعن ماجد معاً في آن.

حقاً لقد حفل العصر الأموي بحركة ناشطة على جميع المستويات السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والثقافية والدينية والعلميّة. ولم يبق هناك ماء إلا وسبح فيه الناس بقوة حتى وصل إلى أصلابهم وأرحامهم. ولم يبق هناك هواء إلا واصطفقت به أشرعتهم وأبوابهم، ودخل ماء الحياة ملء رئاتهم، يغذي دماءهم بألوان من الأدب قزحية، ولا عهد لهم بها من قبل، وربما جعلهم يندفعون في تجديد آداب أمتهم وتجديد شبابها، حتى يكون بمقدورهم اللّحاق بالتقدم الذي تحقق لهم غلى سائر المستويات، فيصحّ آنئذ قانون المعادلة بين ازدهار الحياة المادّية وازدهار الحياة العلمية والفنية، وتعتدل بذلك حركة حياتهم ويتحقق النمو الكامل والشامل على شتى الصعد وفي جميع الميادين.

فقد شهد العصر الأموي حركة امتزاج بين العرب وسائر الشعوب المحيطة بهم، من خلال توغلهم في أعمال الفتوح في بلاد الشام، وبلاد العراقين، وأرض الكنانة وبلاد المغرب العربي، والأندلس، بالإضافة إلى بلاد الترك وصولاً إلى تخوم الصين.

و كانت تواكب حركة الناس في الأمصار، حركة أخرى من النوع الثقافي، إذ انتشر اللسان العربي بين أقوام لم يكن لهم عهد به من قبل. فكان من أثر ذلك أن تقلّصت الفارسية والتركية والنبطية والأرامية والرومية والسريانية والبربرية والعبرية واللاتينية، أمام امتداد العربية. وكانت هذه اللغات تخلي بيئاتها، لتحلّ العربيّة محلّها.

وبسبب امتزاج اللسان العربي بألسنة الأقوام الأخرى، وجد العرب ضرورة لتبسيط لسانهم باستخدام تعبيرات مبسّطة، حتى يفهم الأعاجم لغتهم فلا يحجمون

لتلجلجها في صدورهم. كما وجدوا ضرورة أخرى في أخذ كثير من الكلمات والمفردات من اللغات الأعجمية لاستعمالها في لغاتهم، بسبب اتصالها بجدة الحياة عليهم[١].

وقد تأثرت العربيّة بهذه اللغات في لكنتها وحروفها وأجراسها، خصوصاً وقد استعاض بها الأعاجم عن لغاتهم القديمة التي هجروها، كما أنشد الكثيرون من الموالي الشعر فيها ودبّجوا الرسائل ورووا الأحاديث، فكان ذلك سبباً في ازدياد النشاط الأدبي، شعراً ونثراً.

وكان للإسلام أثره القوي على حركة الشعر في العصر الأموي. فقد تغلغل في أوساط الناس قاطبة من عرب وموال، فترك بصماته القوية على حياتهم وأخلاقهم وآدابهم. وقد تأثر به الشعراء أيما تأثر، إذ ترامت أحاديث الوعاظ والنساك إلى نفوسهم متصلة بالقرآن الكريم وأحاديث الرسول وأقوال الصحابة، فانعكست في أشعارهم، مما جعل شعرهم يتجدّد بها، ويقع تحت تأثيرها.

فقد تأثر الغزل بالإسلام، حيث ظهر مثلاً الغزل العذري البريء على يد جميل بثينة وأصحابه، كما ظهر الغزل البدوي الرقيق، على يد ذي الرّمة وأقرانه. وظهر إلى ذلك، جيل من الشعراء استظلوا بظلال القرآن، فنفدت المعاني الدينية السامية إلى قلوبهم، فكانوا أن أبدعوا في شعر الوعظ والنُسك، وحدّثوا الناس شعراً، عن شؤون الدنيا والآخرة، فشكلوا بذلك طبقة من الشعراء الوعاظ.

وربما انعكست هذه المعاني الدينية في سائر طبقات الشعراء، فلامست أشعارهم بقوة، وأسهمت في تغذيتها ونمائها، وجعلتها تقع، من حيث يدري أصحابها أو من حيث لا يدورن، تحت تأثيرها. فنحن نجد كيف انعكست الأفكار الإسلامية في أشعار الشعراء جميعاً، فشاعت مثلاً. أفكار العفو والغفران، والإثم والمغفرة، والثواب والعذاب والضراعة. في شعر ابن أبي ربيعة والأخطل والفرزدق وجرير والراعي النميريّ وغيرهم من شعراء العصر الأموي.

واشتدّ العصف السياسيّ في العصر الأموي اشتداداً قوياً، بسبب الصراع على

---

(١) أسماء الأطعمة والأدوات المختلفة.

الخلافة بين الأمويين والهاشميين والزبيريين، وما انشق عنهم من أحزاب سياسيّة وفرق دينية. وكان منها من يوالي. وكان منها من يعارض. وقد تركت هذه الأحزاب وهذه الفرق الموالية أو المعارضة آثارها القوية على حركة الشعر في العصر الأموي، فظهرت طبقة من الشعراء السياسيين الموالين أو المعارضين، كشعراء الحزب الأموي، وشعراء الحزب الزبيري، وشعراء الشيعة والخوارج، وغيرهم من الأحزاب السياسيّة والفرق الدينية.

وكلّما كان يقوى العصف السياسيّ كان يشتدّ أوار العمل العسكري، كما كانت تقوى حركة الشعر والشعراء بين الناس، فتستمر المعارك على المنابر وداخل الحوزات والخلوات، ولو كانت إلى هدوء أو همود على الجبهات.

وكانت أفكار الحزبيين والسياسيين وأصحاب الفرق الدينية، تطغى على شعر شعرائهم. إذ سارع هؤلاء إلى نظم هذه الأفكار والمعتقدات في أشعارهم من أجل إحكام البيان في دعاويهم، ومن أجل تعبئة النفوس بين صفوة جماهيرهم مما أجج جذوة الشعر في الصدور وجعلها لا تهدأ قبل أن تحقق غايتها.

فإذا كانت هذه الانقسامات السياسية قد أصابت صفوف الأمة في عصر بني أميّة بالضعف والوهن، بسبب ما جرّت إلى الناس من شغبٍ وتقاتل وتطاحن؛ جعلتها تنشغل بفتن وحروب داخلية. فقد كان لها آثارها القويّة على جبهة الشعر، إذ سرعان ما ألهبت النفوس وأذكت القرائح وجعلت الناس جميعاً يندفعون في قول الشعر، تماماً كما يندفعون في خوض المعارك. وربما كانت معركة الشعر السياسيّ أطول من المعركة العسكرية، لأن الحملة السياسيّة أو الإعلامية ما كان لها أن تهدأ في نفوس الشعراء، ولو هدأت على جبهات القتال.

إلى ذلك، فقد شهد العصر الأموي بزوغ حياة حضريّة جديدة على العرب لم يعهدوها من قبل، بسبب انفتاح جزيرتهم على أمصار العالم القديم كافة. إذ وصلت إليها القبائل العربيّة مع حملات الفتوح، وتمصروا فيها. وكانوا ينزلون أيضاً في المدن والدور والقصور نفسها، التي كانت قبل الفتوح، تتنفّس الحضارة اليونانية الرومانية والحضارة الفارسيّة، وقد أسهم ذلك في سرعة تحضرهم، خصوصاً وقد أخذت تسيل على دمشق حاضرة الدولة، سيول الذهب والفضّة، فتوزع على الناس من أهل الشام، كما توزّع أيضاً على أهل الحجاز.

ومثلما عمل الخلفاء والأمراء على بناء الدور والقصور التي تزدان بالطنافس وتلمع على جدرانها الفسيفساء وصفائح الذهب، وتترامى في أفنيتها النافورات، فقد عملوا أيضاً وبالمقدار نفسه، على بناء المساجد والجوامع وجعلوا عمارتها تضاهي أعظم العمائر التي عرفوها في ذلك العصر. فكانت عمارة المسجد الأقصى وقبته التي تعدّ من أعظم القباب. وكان بناء المسجد الحرام بمكة.

ودخل الناس في طور من الحضارة، اتصلت بحياتهم المدنيّة والدينية، وبأسلوب لباسهم ومعاشهم، فنافسوا بذلك أصحاب الحضارات القديمة، وربما تفوقوا عليهم، وجعلوهم يندهشون مما يبتكرون من أساليب التحضر والرفاه التي فاقت أساليبهم القديمة بدرجات عظيمة.

ووقع الشعر والشعراء تحت تأثيرات هذه الضروب المختلفة من أفانين الحضارة المنفتحة على الأفاق، فامتزج الفن بالفنّ واتصل العلم بالعلم، وألمّ الشعر العربي من كل شيء بطرف، فبلغ بذلك أسباباً من الرُقة والأناقة واللياقة والتحضر ما لا عهد له بها من قبل.

ولا أذل على ذلك من ظهور طبقة من الشعراء الحضريين وفي طليعتهم عمر بن أبي ربيعة، الذي جاء شعره شاهداً على مبلغ الترف والتأنق والتحضر الذي بلغه عرب الحجاز داخل حجازهم... فما بالك بالناس في الشام والعراق وفارس والفسطاط والأندلس. وما بالك بشعراء المقطعات والموشحات والأزجال، الذين تفننوا في قول الشعر عصر ذاك أيما تفنن! وقد جاءت هذه الأشعار وغيرها، متأثرة بحضارة ذلك العصر. فطوعت القوافي الصعبة وذللت البحور الشعريّة. وألانت المفردات المستوحشة، ورقصت المعاني والمقاطع على إيقاع الدفوف وتمايل الخصور ورقة النصوص وشوق النفوس.

يروي أبو الفرج الأصفهاني فيقول: إن عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوج عبد الملك بن مروان استأذنته في الحج فقال لها: «ارفعي حوائجك واستظهري، فإن عائشة بنت طلحة تحجُّ. ففعلت. وجاءت بهيئة جهدت فيها. فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها وفرّق جماعتها. فقالت: أرى هذه عائشة بنت طلحة. فسألت عنها، فقالوا: هذه خازنتها. ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك.

فقالوا: عائشة، فضغطهم، فسألت عنه، فقالوا: هذه ماشطتها. ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة إلى سننها. ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة، عليها القباب والهوادج، فقالت عاتكة، ما عند الله خير وأبقى»[١].

وإذا أوغلنا في تحليل الأسباب الدنيّة والقصيّة التي أسهمت في ازدهار حركة النشاط الأدبي عند العرب في العصر الأموي، فعلينا ألا نغفل دور الثقافة الفكرية والدينية والعلمية التي كانت تتفتح أذهان الناس عليها كما تتفتح أجراس السنابل على أشعة الشمس الذهبيّة، فتأخذ منها لونها، ويحلوا بها طعمها، وتشتد عافية وتكثر غلالاً.

ورغم نأي الشعراء العرب عن جزيرتهم، منبت شعرهم وموئل وحيهم، ظلّ هذا الرافد التراثي العريق في حياتهم يوافيهم في أمصارهم الجديدة المفتتحة ويدفق في شرايينهم حمّى الشعر العربي الأصيل، الصادر عن ثقافة القوم في حياتهم المبكرة من الجاهلية والإسلام. فكثرت أنواع القصيد وأفرعت عن أرومة حيّة قوية، بعيدة الجذور. ومارت الأشعار بأنواع المديح والهجاء والفخر والحماسة، واتقدت العصبيات، واستعيدت ذكرى الأيام التي تلهب النفوس حماسة، وتحضّ على قول الشعر.

كذلك كان للرافد الإسلامي أثره العظيم على النفوس، بعدما ظهرت طبقات القراء والمفسرين والشرّاح والوعّاظ. وبعدما نهض الفقهاء والعلماء، يأخذون مواقعهم من الحياة الثقافية والدينيّة والاجتماعية والأخلاقية. وكانت دوحتهم تعظم، فينبسط ظلها وارفاً على الأدباء والشعراء، كلما كانت دوحة الإسلام ودولته تنبسطان في الأمصار الجديدة.

وقد أتيح لهذين الرافدين أن تختلط أمواههما خارج الجزيرة العربية، بأمواه الروافد الثقافية من فارسية وهيلينيّة وأوروبية مختلفة. وكانت مدارس جنديسابور والرها ونصيبين وأنطاكية وقنسرين وحرّان والإسكندرية، تغذي الثقافة العربيّة في جيل الشعراء والأدباء، فتجعل آدابهم تصدر عن معين مختلف، فيه من أصالة التراث العربي الإسلامي، ما فيه من حداثة علوم الأمم الجديدة.

(١) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني: ١١/ ١٨٨.

وقد مضى العرب يطلبون الوقوف على ما عند القوم من وجوه الاستدلال المنطقي، حتى يستعينوا على دحض الشبه ويدعموا جدالهم بالحجج القاطعة. وينبغي أن نلاحظ أيضاً، أن كثيرين من حملة الثقافة الهيلينية المتشعبة، أسلموا، وتحولوا يدافعون عن الإسلام ويردّون عن خصومه، كما نهض فريق من العلماء المسلمين والنصارى واليهود، فعكفوا على جميع العلوم، ينقلونها إلى العربية. ويروى عن خالد بن يزيد بن معاوية، أنه استعان براهب رومي يسمى ماريانس، ليعلّمه الكيمياء، كما استعان بأصطفن القديم[١]. ويقول الجاحظ: «هو أول من ترجمت له كتب النجوم والطب والكيمياء»[٢]. أما عمر بن عبد العزيز، الخليفة الأموي، فقد أمر ماسرجويه البصري، أن يترجم من السريانية إلى العربية، كتاباً في الطب للقس أهرن بن أعين[٣].

وكان من أثر ذلك، أن صدر شعر كثير وعليه طوابع الفلسفة اليونانية والحكمة الفارسية، وقد ذكر الشاعر الأموي الحكم بن عبدل الكوفي القس أهرن وطبّه في بعض شعره[٤]، مما يدل على إفادة الشعر العربي من الكنوز العلمية والفكرية التي أصابها المسلمون بعد أعمال الفتوح في الأمصار.

ولعلّ أثر الثقافة اليونانية على وجه الخصوص، كان عظيماً للغاية في شعر الفرق الإسلامية فكما احتاجت عقائدها للحجاج الفكري والفلسفي، فقد وقع من ذلك بعض الآثار في شعر شعرائهم ورجز رجّازهم وأدب أدبائهم.

وفي أخبار الخوارج والشيعة وسائر الفرق الإسلامية، ما يدل على وقوع مناظرات كثيرة استتبعت جدالاً عظيماً بين الأئمة والقادة. ويشيد المبرّد، بقدرة الخوارج مثلاً على الجدال واستظهار الأدلة والبراهين، مما جعلهم يختلفون ويتوزعون فرقاً من أزارقة ونجدية وصفرية إباضية. وقد شكا زيد بن جندب من هذا الاختلاف بينهم فأنشد يقول:

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، (ترجمة خالد بن يزيد بن معاوية) طبعة ديلان: ١/٢٤٦.
(٢) الجاحظ، البيان والتبيين. تحقيق هارون، دار المعارف بمصر ١٩٧٩: ١/٢٢٩.
(٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٩: ١/١٦٣.
(٤) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٩: ٤/٦٢.

كـنـا أنـاسـاً عـلـى ديـن فـفـرقـنـا طـول الـجـدال وخـلـطُ الـجـد بـالـلـعـب

مـا كـان أغـنـى رجـالاً ضـل سـعـيـهـم عـن الـجـدال وأغـنـاهـم عـن الـخـطـب

وكذلك فعل الشيعة، فجادلوا ونافحوا عن عقيدتهم. كما اختلفوا فيما بينهم، وجادل بعضهم بعضاً. وممن اشتهر بإحسانه للجدال من الشيعة، زيد بن علي بن الحسين، مؤسس مذهب الزيدية الشيعي، وقد تحوّل شاعره الكُميّت، بأشعاره الملقبة بالهاشميات، إلى تقرير نظرية هذا المذهب، وكأننا لا نقرأ شعراً، وإنما نقرأ مقالة في المذهب الزيدي، تبسط أصوله وتدافع عنه بالحجج والبراهين(١).

وهناك أشعار كثيرة تتصل بمذاهب الفرق الأخرى، أو تجادلها وتردّ عليها. كما نجد أيضاً الكثير من الخطب والرسائل التي اصطبغت بصبغتها، فبدت متأثرة بصنوف العقائد، وألوان الآراء والأحكام، تعوّل في قليل أو كثير على أساليب الفلاسفة وتفيد من سبلهم في الجدال المؤسس على المنطق.

وبرأينا أن جميع الروافد الثقافية التي اجتمعت للعقل العربي في عصر بني أميّة، تركت بصماتها القوية على الأشعار والخطب والرسائل، إذ كان أصحابها مندمجين في الفرق السياسيّة والعقيدية. وقد نشبت بينها المجادلات، مما جعل جوّ المجادلة يشيع أيضاً في ساحة الشعر بين ذي الرُمة ورؤبة بن العجّاج الراجز في القدر، وكان الأول قدريا وّالثاني جبرياً، وكلاهما من المرجئة. كما حمي الجدال بين جرير والفرزدق وبين جرير والأخطل، مما أسهم في ظهور فن النقائض.

وإلى هذه الروافد الثقافية والأجنبية ممثلة بأنواع المدارس الفكرية والدينية والأدبيّة واللغوية، والتي كانت تنمو سريعاً في مدن الأقطار والأمصار، يمكن أن نرجع أعمال الشعراء الذين ذهبوا في أشعارهم إلى غايات تعليمية. فنحن نلاحظ كيف ظهر في ذلك العصر عدد من الشعراء والرجاز المعلمين، أمثال الكميت والطرماح والعجّاج ورؤبة بن العجّاج(٢)، يعملون على تدوين أوابد اللغة وشواردها في اشعارهم، ويعينون الناشئة على معرفتها وتعلّمها مما جعل الأدب والشعر

---

(١) ضيف، د. شوقي، التطور والتجديد في الشعر الأموي. دار المعارف بمصر ١٩٥٩: ص١٧٠ حيث تجد فصلاً كاملاً عن هاشميات الكميت.

(٢) أنظر دواوين هؤلاء الشعراء، المليئة بالشوهد الدّالة على ذلك.

يزدهران على هذا الصعيد ويطرقان أبواباً جديدة غير معروفة عند الشعراء السابقين.

وبالإضافة إلى العوامل السابقة التي كانت سبباً مباشراً في كثرة الشعر وكثرة ألوانه في العصر الأموي، فإننا نجد أن ازدهار الحياة الاقتصادية في زمن الأمويين، كانت له آثاره العظيمة أيضاً، على انتعاش حركة الأدب والشعر.

فقد عرف الناس في هذا العصر ألواناً من الثراء لم يعهدوه من قبل، إذ كانت أموال الفتوح شرقاً وغرباً تتدفق على دمشق عاصمة الخلافة الأموية، كما كان الأمويون بالتالي يعجلون في ضخها إلى سائر مدن الأقطار بغية تهدئة الخواطر وصرف الأنظار عن طلب الخلافة.

وكانت سياسة بني أمية، تجاه أبناء الصحابة بالحجاز وغيره، تعين على ازدياد ثراء هذه الطبقة وترفهم، حتى طعم وشرب بعضهم في أواني الذهب والفضّة، ولبسوا الخزّ والديباج، والحلل الموشاة وغالوا في ذلك كثيراً.

وأغرق الأمويون سادات قريش وعظماءها، أبناء المهاجرين والأنصار بالأموال العظيمة والنعم الوافرة، وكانوا ينثرون لهم المال نثراً، ليلهوهم بذلك عن التفكير في السياسة. وإذا ما قرنا ذلك بما أصاب الناس سابقاً من أموال في عهدي عمر وعثمان، عرفنا مقدار الثراء الذي توافر للمسلمين العرب على وجه الخصوص في ظل الدولة الأموية.

وقد بلغ من وفرة هذه الأموال في بيت مال المسلمين في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما جعله يقول: «لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف: ألفاً يجعلها الرجل في أهله، وألفاً يزودها معه، وألفاً يتجهز بها، وألفاً يترفّق بها»(١). أما في زمن عثمان، فقد بلغ من صور اكتظاظ المال بين المسلمين، ما جعل الذهبي يقول في خبر الفتوح في عهده: «ولما كثرت الفتوح في هذا العام (٣٠هـ)، وأتى الخراج من كل ناحية، اتخذ عثمان له الخزائن، ثم قسمها، وكان يأمر للرجل بمائة ألف»(٢).

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٧٥: ٤/ ١٦٢.
(٢) الذهبي، أبو عبد الله الحافظ، العبر في خير من غير، طبعة الكويت ١٩٦٠: ١/ ٣١.

وإذا أخذنا ننظر في حياة الشعراء في العصر الأموي، وجدنا للاقتصاد أثره العميق في اتجاهاتهم، فشيوع الغزل المادي الصريح، برأينا، وانتشار الغزل العذري العفيف، مردهما إلى نعومة العيش، والثراء العريض وعملهما في النفوس، وكذلك الأمر بالنسبة لشيوع شعر المديح في العراق وخراسان ودمشق، حيث كان القادة الأمويون يفرقون الأموال الباهظة على الشعراء ويكرمونهم أي إكرام.

وقد ظهرت بين جنبات الدولة الأموية، طبقة ضخمة من الأثرياء، كانت أخلاطاً من الحكام الذين أداروا شؤون الدولة في الخراج وغير الخراج، ومن الأغنياء الذين ملكوا الإقطاعات. وكان هؤلاء جميعاً مقصد الشعراء ومعقد آمالهم في الثراء. وإلى ذلك يشير ذو الرمة شاعر العصر الأموي، بقوله:

نجائب ليست من مهور أشابة[1] ولا دية كانت ولا كسب مأثم
ولكن عطاء الله من كل رحلة إلى كل محجوب السرادق خضرم

وبما تأدّى أيضاً عن هذا الثراء العريض الذي كان يصيب الناس في جميع مدن الأقطار والأمصار، وخصوصاً في أواخر العصر الأموي، ذيوع شعر الخمر والمجون وانتشاره. وقد قوّى حركة هذا اللون من الشعر، اختلاط العرب بالأعاجم، وممازجتهم لهم في الكثير من عاداتهم وتقاليدهم، وتردد الشعراء على الأديرة والحانات والمنتجعات، مما كان يوفر لشعر الخمر والمجون الأسباب المادية للظهور، متصلاً بما كان يشيع أيضاً من شعر اللهو والطرب والغناء.

ومن جهة أخرى بدت حركة الموالي المتصلة بحركة الاستعراب في ذلك العصر، شديدة التأثير على الحركة الثقافية، إذ أسهمت إسهاماً قوياً في نمو الحركة الأدبية وتطورها في العصر الأموي.

ولم تكن العلاقة بين العرب والموالي في زمن الأمويين تسير على نهج واحد، إذ كانت تشهد أحياناً، كثيراً من التوتر، كما كانت تشهد أحياناً أخرى كثيراً من التآزر والتآصر. وكان ذلك كله يتم على ضوء علاقتهم بالولاة الأمويين سلباً أم إيجاباً. غير أن كل ذلك كان يصب في النهاية لمصلحة الشعر، ويقوي بالتالي الحركة الأدبية ويجعلها تدخل في طور من الازدهار لم تشهده من قبل.

---

(١) ذو الرمة، الديوان ٢/ ١٨٣، والبيتان من قصيدة مطلعها:
ألا أيّهذا المنزل الدارس أسلم وأُسْقيتَ صوب الباكرِ المتغيِّمِ

فحين كان يمضي ولاة الأمويين وجباتهم في العراق وخراسان، يحملون على الموالي ويعتصرونهم بفرض ضرائب استثنائية كثيرة، مما يملأ عليهم القلوب غيظاً وحنقاً، والنفوس سخطاً ووجداً، كانت الأصوات ترتفع، تطالب بالأمانة في الحكم، وأخذ الناس بالحسنى، لا في عهد بني أمية وحسب، وإنما في عهد الزبيريين أيضاً. فهذا ابن همام السلولي، ينظم قصيدة، وجّه فيها لابن الزبير شكوى عنيفة من عماله في العراق:

يا ابن الزبير أمير المؤمنين ألم ... يبلغك ما فعل العمال بالعمل
باعوا النجار طعام الأرض واقتسموا ... صلب الخراج شحاحاً قسمة النَّفَل[1]

وفي خلافة عمر بن عبد العزيز الذي أمر برفع المظالم عن الموالي وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية، وبحط الجزية عمن أسلم منهم، ظلت الشكوى قائمة. وقد وقف كعب الأشقري يناديه من خراسان:

إن كنت تحفظ ما يليك فإنما ... عمال أرضك بالبلاد ذئاب
لن يستجيبوا للذي تدعو له ... حتى تجلّد بالسيوف رقاب[2]

وإذا كانت الدولة الأموية تأخذ الموالي في بعض الأحيان بالشدة والعسف، فإن العرب ظلوا يراعون لهم إخوتهم في الإسلام. ولهذا نجد الشاعر الكبير الفرزدق كثيراً ما تغطرس على بعض الخلفاء الأمويين، يمدح عبد الله بن عبد الأعلى[3]، مولى خالد بن الوليد، ومسلمة بن سنان[4]، مولى بني مسمع، وكثير بن سيار[5] مولى بني سعد، ومسلم بن المسيب[6] مولى بني بجيلة. وكذلك فعل جرير حين فخر بالموالي وذكر أنهم ينتسبون إلى إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام[7]:

أنا ابن الثرى أدعو قضاعة ناصري ... وآل نزارٍ ما أعزَّ وأكثرا
وأبناء إسحاق الليوثَ إذا ارتدوا ... محامل موتٍ، لابسين السنورا

---

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، تحقيق س. غويتين، القدس ١٩٣٦: ٥/ ١٩١.
(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون: ٣/ ٣٥٨.
(٣) الفرزدق: الديوان، طبعة الصاوي، القاهرة ١٩٦٥: ص٢.
(٤) المرجع نفسه، ص١٠٦.
(٥) المرجع نفسه، ص٢٨٧.
(٦) المرجع نفسه، ص٨٨٧.
(٧) جرير، الديوان، طبعة الصاوي، القاهرة ١٩٦٣: ص٢٤٢.

فيوماً سرابيل الحديد عليهم ويوماً ترى خزاً وعضباً منيراً
إذا افتخروا عدو الصَّبَهْبَذ منهم وكسرى وآل الهُرمزان وقيصرا

كذلك كان بعض الخلفاء الأمويين يتقربون من الموالي، وكانوا يتخذون منهم في كثير من الأحيان قادة لجيوشهم، وبعثاتهم. وقد اشتهر من بينهم غير قائد في خراسان، مثل حُريث بن قتيبة وأخيه ثابت، وحيَّان النبطي وابنه مقاتل. ومن قوادهم المشهورين في الغرب أيضاً، طارق بن زياد فاتح الأندلس، الذي تنسب إليه تلك الخطبة العربية المشهورة والتي تعتبر درة من درر النثر العربي ومطلعها: «أيها الناس، البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر». وقد أنشدها طارق في جيشه، بعد نزوله على البرّ الأندلسي، وإحراق سفنه، لئلا يفكر أحد منهم بالعودة عن القتال والرجوع إلى إفريقيا.

والحق أن الموالي كانوا قد استشعروا بقوة انتمائهم للعروبة والإسلام. ولذلك نجد كيف أحسن بعضهم قول الشعر والنثر على حد سواء. وقد برز من الموالي شعراء كثيرون تعصبوا لولائهم العربي. كما نجد منهم من تعصب لقومه من الفرس، مثل إسماعيل بن يسار النسائي، الذي نظم أشعاراً تمجد الفرس، ربما كانت رداً على محاولات الغمز من نسبه والغض من قومه، سيما وأن الأمويين، كانوا يتعصبون للعرب، على الأمم الأخرى.

فالعلاقة بين العرب والموالي في عصر الأمويين، كانت قد مهدت لنهوض عظيم في أبواب الأدب واللغة والعلوم الدينية كافة. وكان الموالي في كثير من الأحيان يبزون العرب، بعدما أصبحت الكثرة الكاثرة، من علماء الدين ودارسيه، هي من الموالي. وقد شاركوا في الحياة العربية لهذا العصر، مشاركة قوية، إذ كانوا يعدون فعلاً عرباً، وقد أخذوا ينهضون بالأدب العربي، على أنه أدبهم، فهجروا آدابهم المختلفة من فارسية وغير فارسية، وأخذوا يعبرون عن عواطفهم ومشاعرهم، بلغة القرآن الكريم.

فإلى هذه الأسباب جميعاً، يمكن أن نرد ازدهار حركة الأدب في العصر الأموي. فهذا العصر الذي وصلت فيه أعمال الفتوح إلى أقصى الأرض، وصلت فيه أيضاً الأعمال الأدبية والعلمية، إلى أبواب، لم يطرقها العرب بمثل هذه القوة من

قبل، مما يشهد بالتالي على شدة الارتباط بين عجلتي الحكم والنظم، إذ حيث كان يقوى الحكم ويشتد، كان يقوى النظم ويزدهر ويمتد.

أحداث التاريخ

إلى ذلك يمكن أن تقدم الدراسات التاريخية للأدب فائدة جلى، إذا ما طبقت على دواوين الشعراء والخطباء في العصر الأموي. بحيث يمكن تفسير أكثر المفاهيم التي أداها هذا الأدب، والإتجاهات التي اندفع إليها، كما يتأتى إدراك غير قليل من خصائصه الفنية.

إن خضوع الشعر العربي في مختلف أدوار حياته لتطور حياة الأمة العربية، في النواحي: السياسة، والإجتماعية والثقافية، والحضارية، والاقتصادية أيضاً، هي التي رسمت له مجراه واتجاهاته، ومن هنا تعددت أطواره، وتبدلت موضوعاته وصوره، وألفاظه، وأساليبه، وكثيراً ما ارتاد حقولا جديدة من المعاني، أو غلبت عليه صياغات لم تكن مألوفة.

فقد تغير وجه الحياة كثيراً في الدولة الإسلامية خلال حكم الأمويين، عما كان عليه في عصر النبوة والراشدين، لتعدد أوجه الخلاف بين العصرين، وتوفر دواعيه، في السياسة، والفكر والثقافة، والحضارة، ونظم الاجتماع.

فالثابت أن أسس الحكم التي سار عليها النبي ﷺ والراشدون من بعده، تختلف عن نظم الحكم الملكى في ظل دولة الأمويين، التي تشبه في مظهرها ونظامها نظم الحكم الملكي في دولتي الفرس والروم، وإن انضوت تحت لواء الإسلام(١).

ومن أهم ما يبرز في الحياة السياسية في العصر الأموي، ذلك الصدع الخطير الذي ألم بحياة الجماعة الإسلامية، وأثر تأثيراً بعيداً في تطور الأحداث فيها، وأنتج فيها أحزاباً متناحرة، وشيعا متنافرة.

فمنذ ابتداء خلافة الإمام عليّ (رضى) بدأت المواجهة، بينه وبين معاوية والي

---

(١) جرجي زيدان: تاريخ الآداب العربية: ١/ ١٩٩.

الشام. وقد استنفر معاوية في هذه الخصومة عرب الشام، فاستجابوا له والتفوا حوله. أما أهل العراق، فقد بايعوا عليا، وبخاصة أهل الكوفة، التي اتخذها عليّ (رض) عاصمة لخلافته، ومركزا لتجمع أنصاره، وبذلك أتيحت الفرصة لإحياء المنافسة القديمة بين عرب الشام، الذين كانوا يحاربون غالبا في صفوف الروم، وعرب العراق، الذين كانوا تحت لواء الفرس ضد الروم، قبل الإسلام[١]. ولعل مما يصور هذه المنافسة، التي أحياها هذا الصراع بين الإقليمين، قول كعب بن جعيل التغلبي[٢]، الذي كان هواه وهوى قومه تغلب في معاوية[٣]:

أرى الشام تكره ملك العراق ... وأهل العراق لهم كارهينا

وكلا لصاحبه مبغضا ... يرى كل ما كان من ذاك دينا

إذا ما رمونا رميناهم ... ودناهم مثل ما يقرضونا

فقالوا: علي إمام لنا ... فقلنا رضينا ابن هند رضينا

وقالوا: نرى أن تدينوا له ... فقلنا: ألا لا نرى أن ندينا

ومن دون ذلك خرط القتاد ... وضرب وطعن يقر العيونا

كما يصورها من الجانب الآخر النجاشي صاحب عليّ وشاعره[٤]:

دعاً يا معاوي ما لن يكونا ... فقد حقق الله ما تحذرونا

أتاكم علي بأهل العراق ... وأهل الحجاز فما تصنعونا؟!

ومما زاد من حدة هذا الصراع، وأدى إلى تطوره تطورا سريعا إلى صراع حربي، إصرار علي على خلع معاوية من ولاية الشام، وعدم قبوله أساليب السياسة والمداهنة في هذا الأمر، ورفضه القاطع لكل نصح قدم إليه ليعالج أمر معاوية بالحيلة. فقد أشار عليه المغيرة بن شعبة بإقرار معاوية وعبد الله بن عامر، وسائر العمال، على أعمالهم حتى تأتيه طاعتهم، وطاعت جندهم، ثم يستبدل بعد ذلك أو يترك، ولكن عليا رفض قائلا: والله لا أداهن في ديني، ولا أعطي الرياء في أمري،

---

(١) التطور والتجديد للدكتور شوقي ضيف ٣٩.

(٢) من بنى عمر وبن غنم بن تغلب، شاعر مفلق قديم في أول الإسلام، جعله ابن سلام في الطبقة الثالثة من فحول الإسلام، ابن سلام، طبقات فحول الشعراء ٤٨٥.

(٣) الكامل للمبرد، ٢٣٠/١.

(٤) الكامل المبرد، ٢٣٣/١ (الأزهرية).

فأشار عليه المغيرة أن ينزل من شاء من العمال على أن يبقي على معاوية، لأن معاوية جراءة، وهو في أهل الشام مسموع منه، وذكر له أن عنده الحجة في إثباته، فإن عمر ولاه الشام كلها، غير أن عليا أجابه بقوله: لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبداً[١].

لم يكن بد إذن من أن يحشد معاوية أنصاره للقتال، وأن يفعل علي مثل ذلك، وهنا يبدو الانقسام واضحا في صفوف الأمة الإسلامية، وتبلور هذا الانقسام في صورة حزبين: حزب علي، وحزب معاوية، أو فلنقل: شيعة علي، وشيعة معاوية.

والتقى الفريقان في وقعة صفين الشهيرة، التي كان من نتائجها البارزة انتصار الشام يمثله معاوية على العراق ممثلا في علي.

وقد تمخضت هذه الحرب عن ظهور حزب جديد، هو حزب الخوارج الثوري وكان السبب المباشر لمولد هذا الحزب مسألة التحكيم في إبان معركة صفين[٢].

يتضح من ظروف مولد حزب الخوارج، أنه لم ينشأ عن عصبية للعروبة، بل عن عصبية للإسلام، إذ كان هدفه تقرير الأمور العامة للمسلمين ـ كمسألة الخلافة، وقتال البغاة ـ وفقا لأوامر الله ونواهيه، وهذا الحزب الجديد كان خارجا على المسلمين من الفريقين، يعد دارهم دار حرب، ولذا تجب مجاهدتهم، واستمر هذا الجهاد طوال عصر بني أمية.

في هذه الفترة كان شعور كثير من المسلمين متعاطفاً مع عليّ، مؤيداً لأمره، وهؤلاء هم الذين كانوا يرون أن تكون الخلافة في بيت النبي ﷺ، وأقرب الناس إليه حينئذ عمه العبّاس بن عبد المطلب، وابن عمه عليّ بن أبي طالب، «ولكن العباس لم يكن من السابقين إلى الإسلام، فقد حضر غزوة بدر مع المشركين، ولم يسلم إلا آخراً، فأولى الناس من قرابة النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب، وهو أول الناس إسلاماً، وزوج فاطمة بنت النبي ﷺ، وجهاده وفضله وعلمه لا ينكر[٣].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٣٦٤ (السعادة).
(٢) مروج الذهب ٢/ ٤٠٠.
(٣) أحمد أمين، فجر الإسلام، ١/ ٢٩٧.

وكان من بين هؤلاء عدد غير قليل من الصحابة، من المهاجرين والأنصار، نذكر منهم سلمان الفارسي، وأبا ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وأبا التيهان، والفضل بن العباس، وأخاه الحبر عبد الله بن العباس، وأبا أيوب الأنصاري. . . وغيرهم(١).

وهؤلاء وأمثالهم، ممن التفوا حول عليّ، وآزروا أمره، ضد معاوية، كانوا يرونه جائراً، منحرفاً عن الحق، طامعاً فيما لا يستحق، لأنه لم يعتنق الإسلام إلا بعد الفتح. نقول: هؤلاء يمكن أن نعدهم نواة التشيع، بمعناه العاطفي والسياسي، لا بمفهومه المذهبي العقدي. بيد أن هذا التشيع العاطفي، لم يلبث أن تطور بعد مقتل على (سنة ٤٠هـ)(٢)، إلى عقيدة مذهبية دينية وسياسية، تدور حول إمامة المسلمين، وحق آل البيت فيها، بحيث صارت دعوى هذا الحق شعاراً لحزب يقوم على أسس مذهبية دينية وسياسية محدّدة.

بعد مقتل عليّ، لم تبق أمام معاوية، لكي يستتب له الأمر، إلا مناوشات يسيرة مع الحسن الابن الأكبر لعلي، الذي أدرك بعد تجربة يسيرة في محاولة مجاهدة معاوية بالقوة، تخاذل أنصاره، واستهانتهم بأمره، مما اضطره إلى المهادنة، التي انتهت بقبول الصلح، والتنازل عن الأمر لمعاوية(٣).

استقرت الخلافة لمعاوية، واهتدى إلى مبدأ الوارثة في الحكم، بالعهد لابنه يزيد، وأخذ يمهد لهذه البيعة بذكاء(٤)، فكان يستميل كثيراً من خصومه، ومنهم بعض بنى هاشم(٥)، أما رؤوس البيت الأموي، فقد عاملهم بحذر متبصر حكيم، خشية أن يصبحوا خطراً عليه وعلى ابنه.

وكان لشخصية يزيد بن معاوية أثر كبير في شيوع السخط بين المسلمين(٦)، إذ

---

(١) أصل الشيعة وأصولها ٨٦.
(٢) العبر للذهبي ٤٦/١.
(٣) المسعودي: مروج الذهب ٥٣/٢.
(٤) القالي: الأمالي ٣٠٨/٢.
(٥) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ١٤٨/١.
(٦) بويع يزيد ولياً للعهد سنة ٥٦هـ، وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٠هـ، تاريخ الطبري ١٦٨/٦، ١٨٨.

كان - فيما يقول ابن جرير الطبري - «متهماً برقة الدين، وشرب الخمر، والإقبال على اللهو، ومجالس الغناء، ومنادمة الفساق»[١]، ويطلق عليه الجاحظ «الخليع»[٢].

وقد خلع هذه الأوصاف أيضاً على يزيد جماعة من أشراف المدينة، كانوا قد وفدوا عليه فأكرمهم، وأعظم جوائزهم، فلما عادوا إلى المدينة، أخذوا يسبونه، قائلين «إنا قادمون من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير، ويضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسامر الخُرَّاب والفتيان...»[٣] وفيه يقول موسى شهوات[٤]:

لست منا وليس خالك منا   يا مضيع الصلاة بالشهوات

ولم يكد يزيد يتولى الخلافة حتى شاع السخط، وغلا الغضب في صدور الغالبية من أهل الحجاز والعراق، واتجهت أنظار الساخطين إلى الحسين بن علي الذي رفض أن يجيب معاوية إلى بيعة يزيد بولاية العهد، حين قدم معاوية إلى المدينة[٥].

والتجأ الحسين إلى مكة بعد موت معاوية فدعاه أهل الكوفة ليخرج بهم على يزيد، وبعثوا إليه بالرسائل، متوسلين أن يجيبهم إلى الثورة[٦]. وقد مالت نفس الحسين إلى تلبية هذه الدعوة الملحة، ولكنه آثر أن يبعث أولاً بابن عمه مسلم بن عقيل، ليعد الناس لمقدمه، فأرسل مسلم كتاباً إلى الحسين يخبره بهذه البيعة، ويدعوه إلى القدوم.

خرج الحسين من مكة في ذي الحجة سنة ٦٠هـ، فتقدم إليه المخلصون ينصحونه بالعدول، منهم: عبد الله بن عباس، الذي قال له: أبن عم بلغني أنك تريد العراق، وإنهم أهل غدر... فلا تعجل، وإن أبيت إلا محاربة هذا الجبار.. فأشخص إلى اليمن في عزله ولك فيها أنصار وإخوان، فأقم بها وبث دعاتك، واكتب إلى أهل

---

(١) تاريخ الطبري ٧/ ٤.
(٢) رسائل الجاحظ ٢/ ١١.
(٣) أمالي الزجاجي (المدني) ٦٩.
(٤) هو أبو محمد موسى بن يسار مولى بني سهم القرشيين، وهو أخو إسماعيل بن يسار الشاعر الأموي المعروف، وشهوات لقب له، وتفسير لقبه، وما رويناه من شعره، الأغاني ٣/ ١١٤.
(٥) القالي: النوادر ١٧٧ - ١٧٩، وتاريخ الطبري ٦/ ١٧٠.
(٦) الخوارج والشيعة ١٦٠، وتاريخ الطبري ٦/ ١٩٧.

الكوفة، وأنصارك بالعراق، فيخرجوا أميرهم، فإن قووا على ذلك.. ولم يكن بها أحد يعاديك أتيتهم، وما أنا بغدرهم بآمن.. كما نصحه أبو بكر بن الحارث بن هشام الأموي بنحو من ذلك، ولكنه الحسين احتج بأن مسلماً كتب إليه بأجتماع أهل المصر (الكوفة) على بيعته ونصرته، وأنه عازم على المسير إليهم[١].

فسارع يزيد إلى عزل النعمان بن بشير الأنصاري من ولاية الكوفة، وولى مكانه واليا أقل ورعاً هو عبيد الله بن زياد، الذي أسرع إلى الكوفة، وقضى على مسلم بن عقيل، بعد أن انفض عنه أهل الكوفة خوفاً من عبيد الله، الذي هدد كل من يأويه أو ينصره.

سار الحسين حتى لقي خيل عبيد الله بن زياد عليها عمرو بن سعد بن أبي وقاص، فعدل إلى كربلاء قريباً من الفرات، وقام عمرو بن سعيد بينه وبين الماء ثلاثة أيام حتى أخذ العطش منه وممن معه.

وفي العاشر من محرم (سنة ٦١هـ) استعد الفريقان للقتال، ومع الحسين اثنان وثلاثون فارساً، وأربعون راجلاً، بينهم ثمانية عشر من أبناء عمومته، وودع أصحاب الحسين صاحبهم على موعد لقاء في الجنة، قبل أن يدخل كل منهم المعركة الواحدة بعد الآخر، وكذا فعل أبناء عمومته حتى قتلوا جميعاً، واستطاع شمر بن ذي الجوش ومعه فرقة من الجند، أن يبعدوا الحسين عن معسكر النساء والأطفال، ثم انقضوا عليه طعناً وضرباً حتى أصابوه بثلاث وثلاثين طعنة وأربع وثلاثين ضربة. وسلبوه سراويله وقطيفته، ونعليه وسيفه.. ثم مالوا على نساء الحسين ومتاعه حتى كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه[٢].

لقد ألهبت مأساة الحسين وآل بيته، عواطف المسلمين وضمائرهم، فهبوا من كل صقع يستنكرون هذه المذبحة المروعة، التي راح ضحيتها حفيد الرسول ﷺ وسباب آل بيته، وعلت الأصوات تندد بالأمويين السفاحين القتلة، وتهافت الناس ينضوون تحت لواء آل البيت، ويتشيعون لهم، ويهددون بطلب ثأر الحسين، فتعاظم

---

(١) مروج الذهب (البهية) ٢/ ٨٦ ـ ٨٧، والخوارج والشيعة ١٦٠ وم بعدها.
(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٢٦٠.

أمر حزب الشيعة، وازداد خطره، واكتسب أنصاراً جداً، ممن كانوا يتخذون موقف الحياد من الأحزاب السياسية المتناحرة، إلى جانب كثير من الموالي، وخاصة بالعراق، وعلى الأخص بالكوفة، حيث كان الموالي يؤلفون أكثر من نصف سكانها[١]. ولعل ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي، خير مثل يعكس مدى ما بلغه التشييع لآل البيت من ازدهار وقوة، وكثرة أنصار، عقب مقتل الحسين، وكان شعار هذه الثورة «يا لثارات الحسين»[٢].

وكان الموالي يمثلون كثرة عظيمة بين أنصار هذه الثورة، وكان المختار يوليهم معظم ثقته، ويقربهم إليه كل القرب[٣]، وتحمس الموالي لإظهار تشيعهم، فقد حانت الفرصة لأن ينتعش أملهم في التخلص من الولاء من ناحية، وللنجاة من تعنّت الأمويين واضطهادهم من ناحية أخرى، إذ كان الأمويون يرون كبح جماح هذه الأجناس غير العربية، وتذكيرهم دائماً بنفوذ الدولة العربية وسيطرتها على دولتهم السابقة.

أما في الحجاز خرج عبد الله بن الزبير على يزيد بن معاوية)سنة٦١هـ) بمكة، وسرعان ما خلعت المدينة طاعة يزيد، وأخرجوا عامله عليها، وحصروا بني أمية ومواليهم في دار مروان بن الحكم، حتى كتبوا إلى يزيد يستغيثون به، فوجه إليهم مسلم بن عقبة المري[٤]. في أثني عشر ألفاً من جند الشام، لقتال أهل المدينة أتباع ابن الزبير، فأوقع بهم في الحرة بالمدينة، وقتل منهم مقتلة عظيمة[٥]، وأباح المدينة لجنده ثلاثاً يقتلون الناس، ويأخذون المتاع والأموال[٦].

بعد موقعة الحرة اتجه مسلم بن عقبة إلى قتال ابن الزبير بمكة، فلما بلغ قديداً مات، واستخلف على الجيش الحصين بن نمير، فسار الحصين حتى أتى مكة

---

(١) أصل الشيعة وأصولها ١١٨ ـ ١١٩.
(٢) ابن الأثير، بيروت ٤/٢١٨ و٢٢١.
(٣) انظر: الخوارج والشيعة ٢١٢.
(٤) يقال: إنه قدم المدينة وشهد وقعة الحرة وهو شيخ مريض في محفة، ثم توفي بعد قليل في أوائل سنة ٦٤هـ: العبر للذهبي ١/٦٦.
(٥) كانت وقعة الحرة لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ٦٣هـ، وفيها قتل من أبناء المهاجرين والأنصار ثلاثمائة وستة، وعدد من الصحابة، وقيل: بل ثلاثة آلاف من قريش والأنصار، العبر للذهبي: ١/٦٧.
(٦) ابن الأثير ٤/١١٧.

وحاصرها، ولما احتمى ابن الزبير بالكعبة، ضربها الحصين بالمجانيق والعرَّادات، وحرق أستارها[١].

في خلال ذلك مات يزيد بن معاوية)بعد بضع وسبعين يوماً من موقعة الحرة في منتصف ربيع الأول سنة ٦٤هـ) فعاد جيشه إلى الشام، ونصبّ عبد الله بن الزبير خليفة، وأطلق على نفسه «العائذ بالبيت والمستجير بالرب»[٢].

واستوثق الأمر لابن الزبير، وانتشرت دعوته في كثير من الأمصار الإسلامية، حتى كادت الأمة تجتمع عليه[٣]، فقد أخذت له البيعة بالشام، وخطب له على سائر منابر الإسلام، إلا منبر طبرية من بلاد الأردن[٤].

ولكن مروان بن الحكم سرعان ما استخلص الشام من أيدي ابن الزبير بعد موقعة «مرج راهط»[٥]، التي قتل فيها الضحاك بن قيس الفهري زعيم القيسية، ووالي ابن الزبير على دمشق، بفضل انضواء اليمانية وبواديها تحت لوائه، وهُزمت القيسية، وقتل منها مقتلة عظيمة. ثم لم يلبث ابنه عبد الملك بن مروان أن قضى على دعوة ابن الزبير في العراق، بقتل أخيه مصعب بن الزبير، واليه على العراق[٦].

كما قضى الحجاج بن يوسف الثقفي قائد عبد الملك بن مروان، على ابن الزبير ودعوته بالحجاز، بعد أن حاصر مكة، وضرب الكعبة بالمنجنيقات، حينما احتمى بها ابن الزبير فاحترقت، وانتهت بذلك دعوة ابن الزبير (سنة ٧٢هـ)[٧].

وهكذا لم تمض سنوات قليلة من حكم الأمويين، حتى اجتمع في الحجاز،

---

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ١/ ٥٥.
(٢) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٩٩.
(٣) العبر للذهبي ١/ ٧٠.
(٤) مروج الذهب (البهية) ٢/ ١٠٤.
(٥) موضع على أميال من دمشق، وكانت هذه الوقعة في المحرم سنة ٦٥هـ، وقيل: في آخر سنة ٦٤هـ، ابن الأثير (بيروت) ٤/ ١٥٠.
(٦) كان مقتله سنة ٧٢هـ لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى.
(٧) قيل: بايع أهل الحرمين ابن الزبير سنة ٦٤هـ، وقتل بمكة سنة ٧٣هـ، ابن الأثير (بيروت) ٤/ ٢٣٢ ـ ٣٢٨ ـ ٣٥٧، والمسعودي: مروج الذهب (البهية) ٢/ ١١٨ ـ ١٢٥.

والعراق أحزاب ثلاثة، كانت تعارض دولة بني أمية، وتعمل جاهدة على تقويض ملكهم، وإزالة دولتهم، وهي: الشيعة، والخوارج، والزبيريون، فإذا أضيف إليهم حزب الأمويين، اتضح لنا مدى التصدع الذي أصاب وحدة الأمة العربية في هذا العصر.

وتنافست الأحزاب في اصطناع الشعراء، واتخاذ الشعر سلاحاً قوياً لنشر دعوة كل حزب وآراءه، والإشادة بسياسته، وإظهار تأييده ونصرته، ومناهضة خصومه، وأخذ الشعراء ينظمون شعرهم معبرين عن نظريات سياسية جديدة، وأفكار ومبادىء موروثة ومستحدثه، فأثروا في الشعر العربي من هذه الناحية، تأثيراً كبيراً، إذ وجهوه ناحية الحزبية والنشاط السياسي.

وما من شك في أن صراع الأحزاب السياسية المعارضة مع الدولة، وصراعها فيما بينها، الذي ساد عصر بني أمية، كان يشكل ظاهرة من أخطر الظواهر الفكرية والإجتماعية والأدبية. وإذا كان عصر بني أمية العصر السياسي من عصور الأدب العربي، فإن شعر الأحزاب المعارضة يكون بهذا الفهم أهم ظاهرة أدبية في العصر الأموي. وقد سبقه الشعر الذي راج عن الفتوح الإسلامية في عصر صدر الإسلام. حيث ظهر بجلاء أثر الانقلاب الذي أحدثه الإسلام عن طريق الارتقاء بالنوازع الوجدانية الضيقة الحدود سواء أكانت قبلية أم فردية إلى وجدان متوحد انطلق بالعرب من ضلال وضعف وتخبط في عمايات الفتن والتناحر إلى إيمان وقوة وشعور متوثب لا يقنع بالانطواء على ما تأجج في صدورهم من دفء العقيدة ونور الإيمان ولذلك اندفع شعراء الفتوح يسيحون في أرجاء الأرض يهدون أممها الضالة إلى طريق الحق واليقين.

وإذ كان شعر الفتوح مرآة اتضحت خلالها جوانب الحياة الإسلامية جميعها، في صدر الإسلام، فإن شعر الأحزاب والفرق الإسلامية في العصر الأموي كان بالمماثل مرآة نستطيع أن نجتلى خلالها مناحى الحياة الإسلامية كلها في ملك بني أمية الذي لم ينجم على حين غرة حينما ولى معاوية أمر الخلافة الإسلامية عام الجماعة وإنما أخذت دعائم هذا الملك في النهوض خلال السنوات الأخيرة من عهد عثمان بن عفان.

وعلى الباحث الجاد أن يدرس ثلاثة جوانب:

١ ـ الفرق الإسلامية التي نشأت في العصر الأموي من حيث كونها وعاء نضج فيه هذا الشعر، كما تتمثل في التاريخ والأخبار والعقائد والأشعار.

٢ ـ شعر الفرق الإسلامية من حيث هو نتاجها الفني المعبر عن مبادئها ومقالاتها وأفكارها وعقائدها، في ضوء الخصائص والطوابع الفنية التي تميز شعرها وتسمه بميسمها.

٣ ـ شعراء تلك الفرق على اختلافها، وعلى اختلافهم، ودراسة نماذج مختلفة من شعراء الفرق، يرصد فيها ما قد يكون لهؤلاء الشعراء من خصائص شخصية مميزة من ناحية، وما قد يكون بينهم وبين بعضهم الآخر من فروق مذهبية وفردية من ناحية أخرى.

إن دراسة أدب الأحزاب والفرق الإسلامية يجب أن تكون دراسة للظاهرة، ودراسة للشعر، ودراسة للشعراء، فدراسة أدب الشيعة هي التأريخ للفرقة، ومراحل نشاطها السياسي في مقاومة الدولة، ومتابعة حركتها المختلفة وما أصاب اتجاهها من انقسام إلى فرق لكل منها مقالتها ونشاطها وحركتها الخاصة.

وقد يتطلب الأمر تناول عقائدها المختلفة بالدرس والتحليل والمقارنة والتعرف على أصول الأفكار والمبادىء التي تقوم عليها العقيدة، والمصادر الأساسية التي تأثرتها هذه الأفكار عربية كانت أو إسلامية أو أجنبية.

والأمر نفسه ينطبق على الخوارج، و الزبيريين مع عناية خاصة بحركة العصبيات القبلية واختلاطها بالسياسة، وفرق المتكلمين ومع عناية بما ثقفه العقل العربي من ثقافات مختلفة في ذلك العصر.

إن دراسة شعر الشيعة مثلاً هو على ثلاثة محاور:

١ ـ عرض لتمثيل الشعر لأحداث الشيعة ومدى مواكبته لحركات المتشيعين.

٢ ـ ودراسة لموضوعات هذا الشعر وأغراضه وما طرأ عليها من تطور أو تجديد.

٣ ـ استخلاص المقومات والخصائص والطوابع المميزة لهذا الشعر. كذلك الأمر في دراسة شعر الفرق الأخرى، مثل شعر الخوارج، وشعر الزبيريين وشعر المتكلمين.

أما دراسة شعراء الفرق فهي لرسم صورة لكل فرقة من خلال نماذجها المتنوعة: مثلاً شعراء الشيعة وكثرتهم وتمايزهم، وعرضٍ نموذجي للشاعر الشيعي بالمعنى الواسع ودراسة نموذجين لشاعرين مذهبيين يلتزم أولهما وهو كثير بن عبد الرحمن بعقيدة الكيسانية بينما يلتزم الثاني وهو الكميت بن زيد بعقيدة الزيدية، وهما العقيدتان اللتان كان لهما الذيوع والأهمية في العصر الأموي. كذلك الأمر بالنسبة إلى شعراء الخوارج وكثرتهم وتشابه شخصياتهم الفنية. فهناك ثلاثة نماذج: قطرى بن الفجاءة شاعر الطائفة المتشددة في إيمانها وجهادها والتي ترى الجهاد شرطا لتمام الإيمان، وعمران بن قحطان شاعر الطائفة المتشددة في إيمانها، القاعدة عن الجهاد ولا ترى الثاني شرطاً للأول، والطرماح بن حكيم وهو شاعر تلك الطائفة التي لا تتشدد لا في إيمانها ولا في وجودها وإنما شأنها شأن عامة الناس وإن مالت إلى عقيدة الخوارج وتعلقت بها تعلقاً ما.

أما شعراء الزبيريين فقد مثلهم شاعرهم المؤمن بنظريتهم عن عقيدة صادقة: عبيد الله بن قيس الرقيات. كذلك فإن شعراء المتكلمين بفكرهم الجديد وثقافتهم العقلية الواسعة مثلهم قطنة شاعر المرجئة ويعتبر نموذجاً لهم.

ولا شك أن على الدارس ان ينتبه لما يعتور شعر الفرق هذا من مشاكل الانتحال والاضطهاد. والانتحال سلاح خطير من أسلحة الصراع السياسي والديني، وقد لجأ إليه كثير من الفرق في صراعها مع الدولة وفيما كان بينها وبين غيرها من الفرق وهذا الشعر لحقه من صنوف الاضطهاد والعدوان ومن التضييع والنكران ما ليس يخفى على أحد، وذلك لما كان بين أصحابه والدولة من صراع مرير، وهم يمثلون بعقائدهم المتطرفة خروجاً وتمرداً على الجماعة.

إن إلحاق الأدب بالعصور السياسية في بدئها ونهايتها لا يخلو من تجوّز، ولا يسلم من حنيف، لأن الأدب ليس شارة يسهل على الناس تغييرها بقيام دولة وسقوط دولة، وإنما هو ثمار النفوس، ونتاج للعواطف والعقول، فلا بد من أن تمر عليها حقبة من الزمن؛ لتنسلخ من ماضيها، أو لينسلخ عنها ماضيها، وتتقمص ثوب حاضرها، وتتشكل لمستقبلها. ولقد يتأبى الماضي على أن ينسلخ كله، فتبقى منه آثار ورواسب ومظاهر، تبدو في إنتاج الأدباء، عن قصد، وعن غير قصد.

فدراسة الأدب السياسي في العصر الأموي لا تعني أنه لجم على حين غرة، منذ ولى معاوية أمر الأمة، ولا تعني أنه غرب فجأة حينما تولى بنو العباس وإنما تعني أن أدب السياسة استكمل مقوماته في عصر بني أمية، إذ قامت الأحزاب السياسية الخالصة، والفرق الدينية التي ساهمت في السياسة بقدر، وكان الصراع الحزبي في هذه الحقبة أشد عنفاً، وأطول مدى، وأبرز في الأدب مظهراً، من الصراع الشبيه بالحزبي في أخريات صدر الإسلام، ومن الصراع الحزبي في عصر بني العباس.

ثم إن العصر الأموي شهد الأحزاب كلها، وعاصر صراعتها، ورأى مصرع اثنين منها، لأن قوة الزبيريين قد تحطمت في منتصف العصر، وامحى أثرهم، وأسلحة الخوارج قد تثلمت قبيل نهايته، ثم خبا نجمهم، فلما قامت الدولة العباسية لم يكن هناك إلا أنصار بني أمية يستخفون أو يفرون، وشيعة قد انقسموا على أنفسهم، فصار بعضهم عباسياً، وبقي بعضهم علوياً.

وقد نجح الصراع السياسي الناشب، في ابراز عواطف المتشيعين لهذا الحزب أو ذاك، وبلائه في الدعاية والتأييد والتكثير، وفي التشهير والتجريح والتنفير، وما كان نصيبه في الميدان السياسي الآخر: النزاع القبلي، أو النزاع الجنسي أو الشعوبي.

فدراسة مفصلة للأحزاب السياسية في العصر الأموي. هي في غاية الأهمية خصوصاً إذا كانت تتناول نشأتها ومذاهبها وغاياتها، ليتكشف أدبها في ضوء بواعثه وأهدافه.

كذلك فإن دراسة الأدب من نصوص شتى، وتحليلها في تفصيل تارة، وفي إجمال تارة، لنستنبط منها رأينا في الأدب وأحكامنا عليه، قد تضطر إلى مخالفة أحكام سابقة، وآراء شائعة. ولذلك من الضروري الإستعانة بالتاريخ كما ذكرنا، لجلاء بعض الأحداث وتوضيح جوانب عديدة، كان النص الأدبي يقع حتماً تحت وطأتها.

البيت السفياني/ المؤسس

ويعتبر البيت السفياني من أبرز البيوت العربية التي يمكن أن تسلط الأضواء عليها، وذلك لما فيه من رجال مشهود لهم بالقيادة والحلم إلى جانب الفصاحة والبلاغة والأدب. وخلال الصراع الحاد والاضطرابات الداخلية العنيفة كان دور ذلك البيت قوياً في جمع الكلمة ورأب الصدع على الرغم من أنه هزّ العالم الإسلامي بتشبثه بالسلطة. وبسببه كادت تنحرف الخلافة عن مفهومها الديني وتصبح تعصباً سياسياً فتسقط بذلك الخلافة الراشدة وتنتعش المبادىء التي سبقت الإسلام بكل ما فيها من عصبية وبطش وقهر. فصاحب كل جاه يفرض سلطانه السياسي على الآخرين بقوة السيف. وتدور معارك رهيبة يظهر فيها السفيانيون ما هو جدير بالإعجاب والتقدير والدراسة والتحليل.

فالتحولات الطارئة التي شاركت فيها عناصر أجنبية أذنت بحياة جديدة تتصادم فيها الرغبات والآمال العائدة للطامعين في الخلافة والذين وجدوا أن مصلحتهم تكمن في إثارة المتاعب في وجه السلطة بإثارة الناس وإعطائهم راية يقاتلون حولها. وظهر البيت السفياني في خضم تلك الأحداث، يقيم دولة عربية، ملبياً حاجات مؤيديه، الذين آزروه وأعانوه في صراعه وساعدته في ذلك قدرته على التكيف في الاستجابة للضرورات السياسية والفكرية والاجتماعية.

والمتأمل في تلك الحياة الإسلامية المضطربة يقف وبوضوح على الدور الذي لعبه هذا البيت في تاريخ الخلافة العربية إذ لم يتوان عن استغلال تلك الأحداث لمصلحته. فهو صاحب زعامة قبل الإسلام باعتباره من البيوتات الأرستقراطية القائمة على امتياز الجاه و المال والقوة.

ولم يستطع الشعر أن يسكت عن الأحداث أو أن يكن في منأى عنها بل أضحى صورة صادقة للصراع السياسي الحاد الذي ساده وكان بمجمله شعراً سياسياً تاريخياً لذلك العصر بمختلف وجوهه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية. وقد نجح السفيانيون في خلق سوق رائجة للشعر فنما وازدهر. ذلك أن دولتهم قامت على كره بعض المسلمين ولا سيما الحجازيون فكانت بحاجة إلى استمالة

الشعراء الذين دلوا وعزوا واندفعوا بكل ما يملكون من مواهب وطاقات إزاء تلك الفرصة الذهبية في تحقيق آمالهم في الغنى والشهرة.

وخطا الأدب بعيداً في التعبير عن أفكار تلك الفرق والإنقسامات الحادة التي سارت عليها. وأصبح للشعراء رفعة وشأن فاضطروا إلى التملق والتزلف وألبسوا الباطل شعار الحق، وسنوا سنة الكذب، وعظموا ممدوحيهم وأنزلوهم منازل الربوبية. ولا شك أن الأدب العربي وبصورة خاصة الشعر السياسي قد أثبت دوره وأصالته من جهة التزامه بالصراع السياسي. سواء في الدعاية والتأييد أو التشهير والتحقير.

ولما كان الشعر الأموي ثمرة من ثمار الثقافة فقد تبلورت فيه طائفة من المشاعر والأفكار والمبادىء التي تضافرت على صياغة حياة ذلك البيت وتمثيلها أصدق تمثيل، إذ جاء تفسيراً أو تعليلاً لكثير من الحوادث التاريخية والظواهر الاجتماعية والحركات السياسية والأحزاب الدينية، وفي مقدمة ذلك العصبية القبلية التي أشعلت الثورات في مختلف أرجاء الدولة وتركت آثارها على مختلف مظاهر الحياة فيها.

فالبيت السفياني بكل ما أثير حوله من شكوك وبكل ما اتت به الكتب القديمة وبعضها المستحدث من براهين يظل جديراً بالدراسة. فالمجتمع العربي بنهضته الإجتماعية مدين إلى جهود أبنائه الذين استوعبوا معطيات تلك الحضارة وتمثلوها. فلولا جهودهم الخيرة لتأخرت الحضارة قروناً عدة. إذ ليس من السهل الفصل بين الدين والدولة في زمن قريب كان السلطان فيه موظفاً لصالح القرآن، فأعادوا إلى الأمة العربية الإسلامية ثقتها بنفسها ودفعوها في ركب المدنية أشواطاً بعيدة.

وإذا كان الأدب الأموي قد استحوذ على دراسات مستفيضة قديمة وحديثة، فإن هناك كثيراً من الاضطراب في تقدير الجهود التي بذلها السفيانيون في نهضة الشعر وفي اعتمادهم إياه للتعبير عن حياتهم التي انحسرت فيها الطوابع البدوية. فهم لم يفردوا لهذا البيت دراسة مستقلة تستجلي مآثره في معظم مناحي الحياة. فوجود شخصيات قوية الشكيمة مثل معاوية ويزيد والمغيرة وزياد هو الذي أثبت في الأذهان

نظرياً وعملياً قواعد الحكومة المركزية. فمن الضروري التأكيد أن السلطان السفياني كان سلطان أمير المؤمنين وكان الجند جنده والجيش جيش الخليفة.

أما البيت السفياني وما يمثله من صراع للقيم الإنسانية والأفكار العقائدية الدينية والإحن الجاهلية، فقد أظهر قابلية ومرونة في التكيف مع المتطلبات الحضارية في مختلف ميادين الحياة. إنه بمثابة الصخرة الصلبة التي عليها تم الإمتزاج الحضاري مع تباين التيارات واشتباك المصالح. وقد كان لهذا البيت فضل كبير في تهيئة عوامل الثراء والغنى لأبناء الأمة العربية.

في مصادر الدراسة

إن شمولية الموضوع وخصوبته ساهمتا في تعدد مصادر البحث وتنوعه. فبعضها قديم وبعضها الآخر جديد وتأتي في مقدمة المصادر الدواوين الشعرية لكل من الفرزدق وجرير ومسكين الدارمي وأبي الأسود الدؤلي وحسان بن ثابت الأنصاري ويزيد بن مفرغ الحميري والعجاج ودعبل الخزامي والطرماح بن حكيم والرقيات وكثير عزة وحميد بن ثور الهلالي وكعب بن جعيل وليلى الأخيلية وشعر النعمان بن بشير الأنصاري وشعر الأخطل وشعر المتوكل الليثي وهاشميات الكميت إلى جانب المجاميع الشعرية مثل ديوان الحماسة لأبي تمام وسمط اللآلىء ونثر الدر للآبي ولباب الألباب وثمر الألباب فهذه الكتب قدمت لنا فائدة عظيمة لا غنى للباحث عنها.

وقد اعتمدنا الكتب الأدبية والنقدية مثل كتاب الموشح للمرزباني الذي أرخ شعرياً للحدث التاريخي. وكذلك كتاب الكامل للمبرد الذي يروي مجموعة كبيرة من الشعر السياسي هي في غاية الأهمية وخصوصاً ما جاء فيه من أخبار عن الأمويين. وأهميته تتركز حول حفظه الكثير من كتابات المؤرخين السابقين. أمّا كتاب الأغاني للأصفهاني والعمدة لابن رشيق والبيان والتبيين ورسائل الجاحظ وعيون الأخبار والعقد الفريد وأمالي القالي، ففيها الكثير من النماذج الشعرية المختلفة المواضيع والملاحظات النقدية التي تعبر عن تجارب البيت الأدبية. فهي بتحليلها لبعض الآثار الأدبية الشعرية تساهم في الكشف عن الكثير من الأمور الغامضة والدوافع الكامنة وراءها. ولا يمكن أن نغفل كتابي التوحيدي: الإمتاع

والمؤانسة والبصائر والذخائر في إغناء البحث ببعض القصائد النادرة والملاحظات الطريفة المتعلقة بوجهة نظر السفيانيين الأدبية والفكرية معاً. إذ تفرّد التوحيدي بالحديث عن الحزب السفياني.

وإذا كان كتاب الأغاني ينطلق عن علاقة الفن بالمجتمع فإنه يعرض لنا جوانب مهمة من الحياة الاجتماعية وهو بذلك يعتبر من أفضل المصادر التي تناولت العلاقة المتبادلة بين الأدب والمجتمع. إنه المصدر الرئيسي الذي تزدحم فيه أخبار الأمويين الاجتماعية وخصوصاً مجون يزيد بن معاوية، وإن تعمد أحياناً حذف القصائد المؤيدة للأمويين. وبالمقابل نجد فيه النصوص الأدبية اللازمة والضرورية والأكثر شمولية والأكثر عمقاً والتي استطعنا على ضوئها تحديد بعض الحقائق المتعلقة بالموضوع. فالنصوص التي اعتمدت كمنطلق للبحث انطوت على وصف كامل لجوهر البيت السفياني خصوصاً والبيت الأموي عموماً وعلى تبريرات معقولة سواء في تبرير تصرف الأمويين أو تحميلهم المسؤولية. فالشعراء بإحساسهم المرهف لم يستطيعوا تجاهل الواقع أثناء عملية الخلق الأدبي، التي ارتبطت بمبادىء وأفكار يؤمنون بها. وطالما أن معظم المذكورين حزبيون فلقد جاء شعرهم حزبياً ملتزماً بمبادىء معينة إلا فيما ندر وهو بذلك يخضع لمفاهيم معينة لأنهم لم يكونوا في عزلة عن الأحداث.

كذلك شكلت كتب التراجم مثل الشعر والشعراء والأغاني والمؤتلف والمختلف ومعجم الشعراء للمرزباني وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر معيناً لا ينضب في الحصول على الشواهد الأدبية النادرة وخصوصاً بالنسبة للشعراء الذين لم يحالفنا الحظ في الاطلاع على آثارهم إما لندرتها مع عدم توفرها وإما لكونها ما تزال مخطوطة. وكونت هذه الطائفة من المصادر رافداً مهما في استكمال مضمون الشعر الذي تناول الأمويين.

ويتميز كتاب اليعقوبي وتاريخ الطبري في كونهما أقدم مصدرين عربيين في هذا الاتجاه غير أن سمة الإسهاب طاغية عليهما لأن الخبر الواحد كان يروى بأسانيد مختلفة وبروايات متعددة، الأمر الذي يدفعنا إلى الشك والاحتياط في الأخذ والإفادة إلا ما كان مؤيداً بالشاهد الأدبي. وتميزت الطبقات الكبرى لابن سعد في دقة

الإسناد وإن كان فيها بعض الشطط والاضطرابات أحياناً علماً بأن أخباره الحجازية محدودة جداً. أما الاستيعاب في معرفة الأصحاب فكان أفضل معين في فهم الأحداث التاريخية من الزاوية الأدبية الفنية وخصوصاً فيما يخص مقتل عثمان. فقد أورد طائفة من الأشعار كشواهد أدبية مرتبطة بالأحداث التاريخية الكبرى. وما يقال عن صاحب كتاب الطبقات ينطبق أيضاً على مؤرخ آخر هو الذهبي في كتابه تاريخ الإسلام الذي اختص بإيضاح بعض الجوانب الغامضة المحركة للأحداث السياسية في العصر الأموي.

أما الدينوري في الأخبار الطوال فهو يتميز بالوضوح والبساطة لكونه اعتمد استقراء الأدب في ذكر الحوادث التاريخية. والكامل في التاريخ لابن الأثير كان الرافد الخصب، إذ كان مؤلفه لا يتهيب عن قول كلمة الحق وذكر الحادثة دون تحريف أو تغيير وذلك إيماناً بحرية الكلمة وتمشياً مع طبيعة المؤرخ الفقيه وخصوصاً في النواحي السياسية والعسكرية مؤكداً على الدور المهم الذي لعبه الخلفاء السفيانيون والمروانيون فيما بعد، فكان غير معين لما حفظه من معلومات ثمينة. وهذا الكتاب يلتقي في منهجيته مع كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي في تسليط الأضواء على الأحداث البارزة وعلى مشاهير الرجال. أما المسعودي في كتابه مروج الذهب وبالرغم من تشيعه فإنه كان لا يتحامل على الأمويين إذ أورد معلومات مهمّة حول الأسرة السفيانية كما انفرد برواية طائفة من الأخبار حول شخصية ابن الزبير.

أما كتاب أنساب الأشراف للبلاذري فهو مهم للغاية إذ أن ترتيب الكتاب على أساس الأسر وشخصياتها البارزة قد وفر علينا جهداً كبيراً فسهل علينا الحصول على أخبار هذه الأسرة وغيرها من الأسر المرتبطة معها. كما أنه بإشارته إلى الأحوال السياسية والاجتماعية قد كشف لنا تفاصيل عدة.

وهناك كتاب نسب قريش وكتاب جمهرة أنساب العرب إلى جانب المصادر العربية القديمة فالدراسات المستفيضة لعدد من المستشرقين الذين فتحوا أمامنا نوافذ عديدة أهمها اعتماد أسس البحث العلمي الدقيق ـ فهي تتمثل فيما كتبه فلهوزن في كتابه الخوارج والشيعة. وقد ركز البحث فيه على التاريخ السياسي والنشاط الحزبي للخوارج. كذلك دراسات بروكلمان وبلاشير ونالينو واستودارد في كتابه حاضر العالم الإسلامي، فهي جميعاً تلقي الضوء على بعض النواحي الأدبية والسياسية

نتيجة تحليلاتها العلمية. وتصل بتلك الدراسات إلى القمة. ويعتبر الأب لامنس أغزر من كتب عن البيت السفياني قديماً وحديثاً. إذ وضع عدة مؤلفات فيهم وفي عصرهم فأجلى الغموض عن كل لبس.

وهناك أيضاً الدراسات والبحوث العربية التي تركزت بمجملها على دراسة الشعر السياسي والديني والحياة الأدبية بشكل عام وأهم تلك االدراسات تاريخ الشعر السياسي وتاريخ النقائض في الشعر العربي للأستاذ أحمد الشايب الذي عرض للشعر في مراحله الإسلامية الأولى وخصوصاً الذي تناول الحرب الأهلية بين علي ومعاوية. وقد أمدتنا كتب شوقي ضيف، وكذلك فجر الإسلام لأحمد أمين بصورة وافية عن الحياة الاجتماعية والحياة العقلية. وكان لكتاب «شعر الخوارج» الذي جمعه إحسان عباس فضل كبير في توفير الجهد للبحث عن أشعار الخوارج وكذلك الحال بالنسبة لكتاب أدب السياسة في العصر الأموي للحوفي وكتاب العصبية القبلية لإحسان النص والظاهرة الأدبية لإحسان سركيس وقصيدة المديح لوهب رومية ومظاهر الشعوبية لمحمد نجيب حجاب.

إن تعصب بعض المراجع القديمة وتحاملها على الأمويين وقد أدى إلى ضباع الكثير من أخبارهم الأدبية والاجتماعية والفكرية. فالدكتور جبرائيل جبور يشير مثلاً إلى وجود ديوان شعر ليزيد بن معاوية، فلم توفق في الإطلاع عليه لا في مكتبات الباعة ولا في المكتبات العامة في بيروت أو في دمشق، مما سبب لنا مأزقاً حرجاً ودفعنا إلى التساؤل عن سبب الغموض إذا كان مقصوداً أم لا؟ وهل يزيد الفاسق الماجن العابث القاسي هو عينه أم أن المراجع متحاملة عليه لدرجة شوهت معها الحقيقة؟ ولو قدر لنا الإطلاع على ذلك الديوان لسدت نصوصه كافة احتياجاتنا بشأن تقويم تلك الشخصية على اعتبار أن الشعر هو صورة البيئة وصورة حياة الشاعر فيها وكذلك القول بالنسبة لسائر عظماء هذا البيت «معاوية ومعاوية بن يزيد وخالد بن يزيد» لذلك حاولنا تتبع المقطوعات المبعثرة في مختلف الأسفار باعتبارها الأكثر تعبيراً عن تجارب أصحابها وأحاسيسهم وانفعالاتهم. فالبيت السفياني غني جداً بالدراسات التي تفرض علينا عند تناوله الوضوح والدقة الشديدين في كل ما تقول حتى لا تقع في الإطالة أو التردد.

إن الدراسة التي نقدمها بشكلها العام تقوم على أساس من الموازنة والمقارنة بين النصوص المؤيدة والمعارضة. ذلك أن تلك الفترة كانت من أزهى وأخصب مراحل الإنتاج الأدبي، وأحداثها كانت من الخطورة لكونها داخلية ويحركها عاملان: عامل التحدي السفياني أولاً والمرواني ثانياً على تسلم السلطة، وعامل رفض التحدي والمتمثل في إصرار المعارضين على مناهضة هذا البيت، الأمر الذي أغرق البلاد في صراع دموي وأدبي. ولقد توخينا إعطاء الأحكام الدقيقة والصادقة دون تحامل أو مجاملة تمشياً مع جوهر الدراسة وغايتها. ونظراً لاتساع الموضوع وتشابك الأحداث فيه وتداخلها فيما بينها وظهور الفرق الدينية بمعتقاتها الحزبية المختلفة وما تشعب عنها من مواضيع فرعية، ورغبة في عدم تكرار الفكرة الواحدة مرات عديدة لدى الشعراء المختلفين اعتمدنا في معالجتنا لكل فكرة شاهداً أدبياً يشكل أنموذجاً عليها.

والدراسة الفنية تتناول الجانب الجمالي والسياسي والكلامي من الشعر والأدب وهي تفيدنا في احتجاج لهذا البيت أو التنديد به، والتحريض عليه لما أهملناها في هذا البحث ليتسنى لنا الجهد في الوصول إلى الهدف المنشود إذ الغاية عندنا متعددة الجوانب والوجوه.

فنحن لم نهمل إظهار المزايا السياسية للسفيانيين الذين برزوا على مسرح الأحداث، منطلقين في بدايتها من خلافة عثمان وما أحاط بتلك الخلافة من عوامل انشقاق وتباعد بين المسلمين بسبب تهافت أوليائه على الخيرات والنزوات. واستغلالهم لسياسة اللين التي اعتمدها وخصوصاً في السنين الست الأواخر من حكمه، الأمر الذي أدى إلى لظهور البيت السفياني كأقوى بيت عربي وأنشطه في قطف ثمار الأحداث، سواء عن طريق الرشوة والاستغلال، أو عن طريق الجدارة التي أهلته لاستلام زمام الأمور بشخص معاوية بن أبي سفيان.

كذلك فإن تعليل تلك الأحداث التاريخية المتلاحقة التي تمثلت في السير بالخلافة الإسلامية عن مبدأ الشورى إلى مبدأ التوريث والولاية الذي ابتدعه معاوية حين عهد بولاية العهد من بعده لابنه يزيد، الأمر الذي أدى إلى سلسلة من المآسي والأحزان وخصوصاً في كربلاء والحرة والمدينة. كذلك فإن البيت الأموي في حياته

الأدبية ودور ذلك البيت في دفع حركة الأدب وخصوصاً الشعر في مسار التطور والازدهار، كان عظيماً للغاية.

فالأمويون بعامة، أمراء بلاغة يجيدون الأدب أضف إلى صفاء الذهن لديهم ودقة النقد وإعطاء الأحكام المعللة، هذا إلى جانب الإشارة إلى حمايتهم للشعر ورعايتهم للشعراء إذ غالوا في دفع الهبات والسخاء عليهم، كما كانوا يطربون للشعر الجيد ويعفون عن الشاعر المسيء الذي يعلن التوبة ويقبلون بشفاعة الشعراء. فهم كانوا يرون في الشعراء رأينا في الصحافة اليوم. وبفضلهم أضحت دمشق موطناً للثقافة الأدبية إذ نعم شعراؤها بالرخاء وطيب الأكرام.

وفي الحياة الاجتماعية، كان لزاماً علينا أن ندرس هذه الحياة من جوانبها المختلفة وأن نتوقف عند عملية الإمتزاج الحضاري واشتباك المصالح وموقف الشعر من تلك التطورات، دون إغفال لتأثيرات النظام الطبقي، والتكوين الاجتماعي في بلاد الشام وخصوصاً العصبية القبلية وتأثيراتها على سير الأحداث وبعثها للشعر القبلي في أغراضه التقليدية من مدح وهجاء وفخر ورثاء وما اتصل بذلك من عادات وأعراف تتصل بمختلف طبقات المجتمع وأخص بالذكر المجتمع المسيحي الذي تمتع أبناؤه بنفوذ عريض وتوطدت صلاته بالبيت السفياني ثم بالبيت المرواني إن من حيث الولاء أو السخط على الأعداء، فضلاً عن صلات المصاهرة.

ومن الضروري الحديث عمّا عرفه البلاط السفياني من مظاهر الخدم والحشم والحجابة فضلاً عن الجانب العمراني وما رافقه من إنشاء القصور والحدائق وانتشار عادة اتخاذ الحلى والتأنق في الملبس والمأكل والمشرب وانتشار دور المغنين وإقبال الخلفاء على ارتياد تلك الدور لما فيها من مظاهر حضارية لم يعهدها المسلمون.

ولا شك أن محور الدراسة هو الشعر الحزب الأموي، وقوامها التحليل والمقارنة والاستنتاج. فهناك شعر الحزب الأموي والمتشيعين لهم وما ساقوه من معاني الإحتجاج والتأييد والإشادة بفضل الأمويين وحقهم في الحفاظ على الخلافة بتثبيت ولاية العهد وأخذ البيعة ليزيد وفضح أعدائهم وإثارة الشكوك حول دعواتهم ورد انتقاداتهم إلى جانب التحريض عليهم.

كذلك هناك شعر الخصوم السياسيين من أنصار وخوارج وشيعة وزبيريين وهذا الشعر يقدم فكرة واضحة من وجهة نظر المعارضين بحيث يرسم صورة مستقلة له من خلال شعر كل فرقة إلا ما ندر. وذلك لجلاء بعض اللبس والغموض والوقوف على بعض الأسس التي تقوم عليها عقائد تلك الفرق المعادية للأمويين على وجه العموم.



الفصل الأول

العصر الأموي والمؤثرات العامة

إن حب المعرفة يحدونا دائماً للكشف عن بواعث الأحداث التاريخية وإيجاد التفسير المقبول للحقائق. ذلك أن التاريخ قصة تعرض حياة الأشخاص مجردة عن كل شائبة وكتب التاريخ من أوفر المصادر وأصدقها في تصوير ملامح الشخصية في مجالها العسكري والسياسي. وطالما أن المؤرخين قد عجزوا عن الإلتزام بالموضوعية التاريخية، فإنه من الأجدر لنا الإعتماد على الأدب في معطياته للأحداث كسند إضافي يزيدنا صدقاً وحقيقة، لأنه من المستحيل التخلص من الميول الشخصية التي تفرض على المؤرخ نوعاً من الولاء أو التعاطف مع طبقة معينة أو فئة معينة. وليس هناك شك في أن العاطفة الدينية والعصبية الطبقية والعنصرية، تقوم عند أصحابها على الرغم من ظاهرها الوجداني على أسس تبدو لهم عقلية ومنطقية. ولهذا فإن حذر المؤرخين منها أمر غير متوقع لأنها تبدو لمعتنقها في مجال المنطق الطبيعي للأشياء[١].

بالإضافة إلى ذلك فإن كثيراً من المؤرخين العرب كانوا يميلون إلى عرض الروايات المختلفة وأحياناً المتعارضة المتعلقة بالحدث التاريخي الواحد، لكنهم كانوا يحجمون عن إعطاء أي رأي فيه تاركين الحكم النهائي معلقاً، وعلى القارىء أن يستدركه. إلى جانب ميلهم إلى مجاراة الحكام. إنهم في الواقع أسرى عصبية قوية ظلت مسيطرة ردحاً من الزمن بعد أن انتقلت إلى ميدان السياسة الحزبية.

(١) عفت محمد الشرقاوي: أدب التاريخ عند العرب ـ دار العودة ـ بيروت ـ لا. ط. لا. تا، ص٤٨.

فالكتابات التاريخية العربية تعوزها الدقة والصراحة والنظرة الواقعية، وإلا لماذا ذكر الروايات المختلفة للحدث الواحد[١].

والحديث عن البيت السفياني المؤسس للدولة الأموية يستدعي بالضرورة الحديث عن ماضي تلك الأسرة، الذي هيأ لمعاوية أسباب السيادة، بكوْن آبائه أنداداً للهاشميين وأقرب للرياسة من غيرهم. وكان من البيوت التي عرفها التاريخ، وسيرته من أبرز السير، نظراً للدور الرئيسي الذي لعبه في تاريخ الدولة العربية الإسلامية. ووجه الخطورة في ذلك أن المصادر والمراجع المتوافرة لدينا قد كتبت في عهد متأخر، كما أنها قد دونت على أيدي أناس حاقدين على الأمويين، عقائديين معظمهم يدين بالولاء للشيعة أمثال الأصفهاني وابن الأثير والمسعودي وغيرهم[٢].

تلافياً للشك رأينا الأنسب أن نتناول تاريخ تلك الحقبة من خلال أدبنا العربي الذي التزم بها وعبر عنها أفضل تعبير وأصدقه فكشف لنا عن الأسباب التي حالت دون بقاء نظام الخلافة شورى فصارت ملكاً عضوضاً يتوارثه الأبناء عن الآباء.

إن هذا الحدث الخطير لم يولد فجأة وبسهولة كذلك كان سبباً رئيسياً في إغراق العالم الإسلامي في أحداث جسام، وصراعات حادة وحروب أهلية طاحنة، ما نزال حتى يومنا هذا نعاني من نتائجها. يضاف إلى ذلك ما وقع في سقيفة[٣] بني ساعدة بين المهاجرين والأنصار ومن ثم انتخاب أبي بكر مروراً بمقتل الخليفة عمر بن الخطاب على يد أبي لؤلؤة الفارسي وانتهاء بالتنافس الشديد بين بني هاشم وبني أمية وما سبب ذلك من تنابذ وتناحر وحروب أهلية استتبعه انقسام حاد بين العرب أنفسهم شرذمتهم إلى تكتلات سياسية. فقد ذهبت كل فرقة تعمل على محاربة السلطة القائمة وعلى اضطراب حبل الأمن في مختلف أرجاء الخلافة، وقد اتخذت من الخلافة هدفاً أسمى لمآربها الشخصية محللة بعض المحرمات في سلوكها عاملة على شد أزرها بدافع العصبية الممقوتة.

---

(١) ابن رشيق القيرواني، العمدة: الجزء الأول ص٢٧ دار الجيل الطبعة الرابعة ١٩٧٣.

(٢) محمد كامل سليمان: الإيديولوجيا الشيعية في رثاء الحسين ـ دار الكتاب اللبناني ـ الطبعة الأولى ١٩٨١، ص٢٧.

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي الجزء الثاني ص٨٢، دار الفكر، بيروت ١٩٥٦.
ابن الأثير، الكامل في التاريخ ـ دار صادر ودار بيروت ١٩٦٥، الجزء الثالث، ص١٨٤.

عثمان/الخليفة الأموي الأول

ونظراً لشمولية الموضوع وتشابك الأحداث الجانبية الكثيرة وتداخلها رأينا أنه من الأنسب أن نبدأ بالخليفة عثمان بن عفان(١) لأن خلافته تشكل مدخلاً لوصول البيت السفياني إلى الخلافة ولأن الأمويين جعلوا من خلافة عثمان سبيلاً إلى تملكهم فانتهزوا في عثمان صلته بهم، وأقحموا أنفسهم في خلافته إقحاماً.

وعلى الرغم من انتهاجه سياسة جديدة مغايرة لسياسة سلفه تمشياً مع متطلبات الظروف المستجدة على الساحة، فإن كل ذلك تمخض عن فتنة مريرة استنفدت معظم طاقات الأمة في باكورة شبابها ووعيها وانبعاثها، تلك الفتنة التي أطلت على الناس وأطاحت برأس الخليفة. إنها لتمثل اعتداء على أعلى وأسمى مركزإسلامي «الخلافة» إنها لا شك تفجرت نتيجة أوضاع سياسية صعبة داخلية وخارجية لم يألفها العرب ولم يستطيعوا القضاء عليها في مهدها.

وإذا كان من مبرر للتنافس على الخلافة فهو مادي وذلك أن العرب قد عرفوا الفيء والضرائب وهذا ما جعلهم يرون الخلافة مغنماً ويسوغون كل أمر في الحصول عليها فبدأت الفرقة تدب في صفوف المسلمين كما بدأت الولايات تعبر عن استيائها بوسائل شتى، فعثمان بن عفان عبشمي أموي ورث عن أبيه مالاً عظيماً وتجارة واسعة وضرب المثل بكرمه وكان محبوباً جداً في قومه لدرجة أن المرأة في قريش كانت ترقص ولدها وهي تقول(٢):

أُحِبُّكَ والرَّحمنِ حُبَّ قُرَيشٍ لِعُثمانِ

أضف إلى كونه صهر رسول الله كما يتضح من أقوال سعدى(٣) بنت كريز:

وأنكحه المبعوث خير بناته فكان كبدر مازج الشمس في الأفق

وإذْ استجاب عمر لنداء السيدة عائشة بأن جمع المهاجرين الأولين وخطب

---

(١) هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف يلتقي هو ورسول الله عند عبد مناف.
ابن جرير الطبري تاريخ الأمم والملوك الجزء الخامس ص١٤٧ المطبعة الحسينية، ط١.

(٢) محمود شلبي: حياة عثمان، دار الجيل الطبعة الأولى ١٩٨١، ص١٣.

(٣) عباس محمود العقاد، عثمان بن عفان دار الهلال، ص٣٦، لاط لاتا.

فيهم راسماً طريق الخلافة من بعده مخافة الشقاق والنفاق والفرقة بأن جعلها شورى بين ستة أنفار توفى رسول الله وهو عنهم راض. فأرسل إليهم فجمعهم وكان طلحة غائباً وعهد إليهم بالخلافة من بعده[١] فعمر قد جنب المسلمين الفراغ عقب موت الخليفة لكنه حصرها وقيدها وفتح أمام المسلمين باب الإجتهاد في أحقيتها إذ داخل رجال الشورى كلا منهم الأمل في الخلافة والإيمان بصلاحيته لولايتها فانفتح فيهم باب التنافس على مصراعيه.

وما كاد وجه عمر يغيب حتى بدت تباشير الفتنة تلوح في الأفق، ولكن سرعة المفاوضات التي أجراها عبد الرحمن بن عوف بتفويض من رجال الشورى قد حسمت الموقف لصالح عثمان ذلك أن الكثرة الغالبة من الناس رغبوا عن ابن أبي طالب مخافة أن يحملهم على ما كان عمر يحملهم عليه من البطش والشدة، كما طغت دعاية الأمويين لكونهم أكثر عدداً وأسخى يداً وأوفر مالاً فمالت الكثرة الكبرى إلى ناحية عثمان.

أصبح عثمان خليفة بالاعتماد على مبدأي الشورى والمبايعة حين رفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان وقال: «إني خلعت ما في رقبتي من ذلك وجعلته في رقبة عثمان» وبايعه[٢]. عندئذ أقبل من في المسجد يتزاحمون ويبايعون عثمان. لقد كانت الكثرة تشبه الإجماع واضحة في جنب عثمان بالرغم من أن العرب كانت تخشى استخلاف بني أمية لأنه إذا ما آلت الخلافة إليهم لم يكن يسيراً بعدئذ دفعهم عنها.

وكانت آفة عثمان أنه لم يخل من الأموية بالرغم من كونه رجلاً صالحاً ليناً حسن المعاشرة فاغتبط المسلمون بخلافته وخصوصاً عندما سمح لكبار الصحابة بالخروج إلى الأقاليم وامتلاك الصنيع فيها وترك للأغنياء أمر الزكاة يدفعونها كما يشاؤون[٣] وأدى ذلك إلى إفراغ الحجاز من ثقله الديني والإقتصادي والسياسي.

---

(١) اليعقوبي - تاريخ الجزء الثاني، ص١١١.
الطبري، تاريخ الأمم والملوك الجزء الخامس، ص١٧.

(٢) اليعقوبي - تاريخ الجزء الثاني، ص١١٣.
الطبري - تاريخ الأمم والملوك، الجزء الخامس، ص٤١.

(٣) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، الجزء الأول، ص٣٥٥، الطبعة السابقة، ١٩٦٤.

وكانت هذه بمثابة الضربة الأولى التي توجه إلى مركز النبوة في حين أن عمر[١] كان يحجز على الصحابة في المدينة فلا يسمح لهم أن يبارحوها إلا بأذن ولأجل.

وتغيرت حالة الدولة الإجتماعية والاقتصادية إذ تدفقت الأموال على المدينة وأغرت السكان بالإستمتاع بها استمتاعاً دفع بعضهم إلى حياة البذخ والترف وارتفعت أسعار الحاجيات والأراضي والخيول ارتفاعاً جنونياً حتى أن الفرس كان يشترى بمائة ألف... وحتى كان البستان يباع في المدينة بأربعماية ألف درهم[٢].

وانتشر في المدينة بعض أنواع اللهو فاضطر عثمان إلى الضرب على أيدي أصحابها[٣] وكبح جماحهم بنفي بعضهم عن المدينة[٤] فتذمروا وتذمر ذووهم وذوو فريق من الصحابة كعبد الله بن مسعود وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر. كما كره ولايته نفر من أصحاب رسول الله إذ كثيراً ما يولي بني أمية ممن لم يكن له مع رسول الله صحبة وخصوصاً في السنين الستة الأواخر من حكمه ولم تأخذه في سبيلهم ملامة اللائمين ولا ثورات الثائرين وقد استباح في صلاتهم مخالفات كثيرة لأدلة الكتاب والسنن المقدسة والسيرة.

فالشعراء لم يكونوا بمعزل عن تلك الأحداث أو بعيدين عنها وعن التأثر بها بل كانت آثارهم سجلاً لها ولكافة دقائقها السياسية فهذا عبد الرحمن بن حنبل يفضح عثمان في سلوكه ويعتبره مسؤولاً عن كل ما لحق بالمسلمين من شقاق وقتال كما يحمله مسؤولية الفتنة وتبذير أموال المسلمين، وفي معرض تعنيفه لسياسة عثمان وما رافق حكمه من انتشار للظلم وإغراق للبلاد في الفوضى وإحياء للإحن. يقول[٥]:

أحلف بالله جهد اليمين ... ما ترك الله أمراً سدى

---

(١) الشيخ محمد الخضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الجزء الثاني، ص٤٤، الكتب التجارية بمصر ١٩٦٩.

(٢) الديار بكري، تاريخ الخميس، الجزء الثاني، ص٢٥٨.

(٣) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الجزء الأول، ص٣٥٥.

(٤) أبو ذر هو الصحابي الجليل جندب بن جنادة أسلم على يدي الرسول صحبه في غزواته. نفاه عثمان إلى الربذة فمات فيها، الآبي ـ نثر الدر، الجزء الثاني، ص٧٥.

(٥) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية، الجزء السادس، ص٢٦٨.

ولكن خلقت لنا فتنة لكي نبتلى فيك أو تبتلى
دعوت الطريد[١] فأدنيته خلافاً لسنة من قد مضى
وأعطيت[٢] مروان خمس العباد ظلماً لهم وحميت الحمى
ومالاً أتاك به الأشعري من الفيء أعطيته من دنا

وأحدث هذا الأمر في الشعب انقساماً هائلاً وهياجاً شعبياً عارماً إذ كان عثمان أبعد ما يكون عن الشر وأحرص ما يكون على الأمن ولكن الذين حوله هم الذين بدلوا عليه وغيروا وهيأوا الناس لأن يلقوا عثمان على شر. فاستيقظت الفتنة وتحرك ما كان كامناً في نفوس القوم من العداوة القديمة الجاهلية. وتبرم الناس من عثمان وأنصاره وانتشرت الجمعيات السرية التي تدعو إلى خلع الخليفة وتولية غيره[٣].

وهكذا تضافرت الأسباب الدينية والدنيوية التي مهدت للثورة وخصوصاً حين استلف من بيت المال مالاً وقال[٤]: «إن أبا بكر وعمر تركا هذا المال وإني آخذه فأصل به ذوي رحمي فأنكر الناس ذلك عليه».

وهكذا وجهت إليه تهم التحيز لأقربائه والمحاباة في الحكم وعمد ثلاثة من الطامعين في الحكم إلى إشاعة السخط بين الناس وكان هؤلاء الثلاثة من قريش وفي طليعتهم علي أما الآخران فطلحة بن عبد الله والزبير بن العوام[٥].

وتعالت الصيحات من هنا وهناك تحرض الناس على عثمان. وكان لعثمان من

---

(١) الطريد هنا هو الحكم بن العاص حيث كتب عثمان إليه أن يقدم عليه وكان طريد رسول الله فأنكر الناس أذنه له ـ اليعقوبي ـ تاريخ الجزء الثاني، ص١١٥.

(٢) جاء في اليعقوبي أن عثمان زوج ابنته من مروان بن الحكم أمر له بخمس غنائم الفيء عند فتح أفريقيا ـ اليعقوبي ـ تاريخ الجزء الثاني، ص١١٦.

(٣) عبد الحسيب طه حميدة، أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، ص١٤، مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الثانية ١٩٦٨.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، القسم الرابع، الجزء الأول ٥٥١ تحقيق إحسان عباس ـ دار النشر فراش شتايز بغيستادن بيروت ١٩٧٩.

وفي هذا المعنى جاء اليعقوبي الجزء الثاني، ص١٢٢: ونقم الناس عليه وقالوا آثر الغرباء وحمى الحمى وابتنى الدار واتخذ الضياع والأموال بمال الله والمسلمين.

(٥) فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، الجزء الثاني، ص٢٧ ـ دار الثقافة الطبعة الثانية ١٩٢٧.

قبل هنات فهو الذي أمر بنفي أبي ذر إلى الربذة لأنه كانت له آراء اشتراكية يدعو إليها وذلك حين بلغه أن أبا ذر يقع منه ويذكر ما غير وما بدل[١]. فأغضب بذلك بني غفار وأحلامها وكانت بنو مخزوم قد حنقت عليه لأجل عمار بن ياسر وأهل[٢] مصر يشكون عبد الله بن أبي سعد بن أبي سرح حين ولاه عليهم فلم ينهج فيهم مناهج العدل.

واشتعلت الثورة وانقسم الناس ما بين ثائر ومؤيد ومعتزل. فهذا حنظلة يصور حال الشعب وانقسام الرأي حول الخلافة وهو يتحير من أمر الداعين إلى هدمها. لأن في زوالها زوالاً للخير وينبه إلى مغبة الإنزلاق في مسالك الفساد والضياع كما ضاع من قبل اليهود والنصارى. يقول[٣]:

عجبت لما يخوض الناس فيه ... يرومون الخلافة أن تزولا
ولو زالت لزال الخير عنهم ... ولاقوا بعدها ذلاً ذليلاً
وكانوا كاليهود أو النصارى ... سواء كلهم ضلوا السبيلا

فهذه الخلافة هي التي أدت إلى شعور الناس باستعلاء فئة تمثلت في سيطرة القرشيين على أغلب مناصب الدولة مما سبب الإضطراب في النظام الإداري ومن نتائجه انفراط عقد النظام السياسي وذلك عندما انحرفت الخلافة عن مفهوم رعاية أمور الدين والدنيا كما يفهم من الثائرين المنادين بعزل بعض عمال عثمان. وزاد الثورة اشتعالاً تصرف مروان بن الحكم حين زوّر صحيفة باسم عثمان إلى خليفته عبد الله بن سعد يقول فيها:)إذا أقدم عليك النفر... الثائرين... فاقطع أيديهم وأرجلهم[٤] وحين سئل عثمان حلف أنه ما فعل ذلك ولا أمر به واغتنم الناس ذلك

---

(١) التوحيدي، البصائر والذخائر المجلة الأولى، ص٩٢، الجزء الأول والثاني والثالث. تحقيق إبراهيم الكيلاني مطبعة الإشناء دمشق ٩٦٤ والجزء السابق تحقيق وداد القاضي الدار العربية للكتاب - ليبا - الطبعة الأولى ١٩٧٨.

(٢) محمد بن عبد ربه الأندلسي، كتاب العقد الفريد شرح أحمد أمين وإبراهيم الأنباري، الجزء الرابع، ص٢٩٥، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة ١٩٥٥.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك الجزء الخامس، ص١٣٧.
النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب الجزء التاسع عشر، ص٤٩٣، القاهرة ١٩٧٥.

(٤) اليعقوبي، تاريخ الجزء الثاني، ص١٢٣.

فحاصروا عثمان في داره واتسع باب الانتقاد ووجد الطغاة مكاناً ذا سعة وقالوا[(١)] خليفة يؤخذ خاتمه ويدلس كتاب باسمه لعامله يأمره فيه بالقتل ويرسل عبده على بعيره ولا يدري. هذا هو الإهمال المبين.

وبدأت مواكب الثوار سيرها من الأمصار الإسلامية وأشهرها موكب ثائري مصر وموكب ثائري البصرة واقتربوا من المدينة وكانوا يعلنون أنهم جاؤوا للحج.

ولكن السؤال الواضح هو كيف استطاع هؤلاء الثائرون أن ينظموا تحركهم ويسيروا في وقت واحد وعدد واحد وجهة واحدة لو لم تكن هناك وفي الخفاء قيادة تدبر وتصدر الأوامر؟ لا شك أنها ثورة مسلحة ضد خلافة عثمان تسير وفق تكتيك ونظام معينين. وحين سأل الثوار الخليفة عثمان أن يعتزل أبى وقال[(٢)]: لا أنزع سربالاً سربلنيه الله «وأحس عثمان بتقاعس أهل المدينةوتشتت رأيهم، أما نصرته للخلافة فقد أدى إلى تعقيد الموقف وتطور الأمر إلى قتله[(٣)] على يد كنانة بن بسر النخعي في ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥ هـ تنفيذاً لفكرة التسور التي اقترحها محمد بن أبي بكر».

وأصبح قتل عثمان مطروقاً محلياً في الحجاز وخارجياً في سائر الأقطار الإسلامية وخصوصاً في الشام وأصبح التعبير عن ذلك الحادث الجلل من اختصاص الأدب الذي ساهم في خلق جو جديد. يقول أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي وكان عثمانياً[(٤)]:

تَعَاقَدَ الذَّابِحُو عُثْمَانَ ... فَأَيَّ ذَبْحٍ حَرَامٍ وَيحهم ذَبَحُوا
ضَحَّوْا بِعُثْمان في الشَّهرِ الحَرَامِ وَلَمْ ... يَخْشَوْا عَلَى مَطْمَحِ الكُفرِ الذي طَمَحُوا

ويستدل من قول الفرزدق أن قتله كان يوم الأضحى[(٥)]:

---

(١) الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك الجزء الخامس، ص١١٩.
(٢) الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك، الجزء الخامس، ص١١٧.
(٣) اليعقوبي ـ تاريخ الجزء الثاني، ص١٢٤.
الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الخامس، ص١٣١.
(٤) علي بن الحسين بن علي المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٢٥٣، دار التراث، بيروت ٩٦٨.
(٥) الفرزدق ـ الديوان ـ دار صادر ودار بيروت، المجلد الأول، ص٢٥٣، طبعة ١٩٦٦.

عُـثْـمَـانَ إِذْ ظَـلَـمُـوهُ وانْـتَـهَـكُـوا   دَمَـهُ صَـبِـيـحَـةَ لَـيْـلَـةِ الـنَّـحْـرِ

فتلك البلبلة التي خضعت لصراع الطبقات المتمثل في مطامع أولياء الأمر والناظرين إلى الحدث على أنه تغيير في شخص الخليفة(١) وتغيير في تنظيم المجتمع، وتغيير في نظم الدولة القائمة والمعتبرين عثمان بشخص الخلافة هو محور الحدث التاريخي. فالذين تهاونوا في إنقاذه من أيدي الثائرين هم فعلاً شركاء في العملية النكراء ومساهمون في عملية الاغتيال لذا جاء شعر تلك المرحلة تقريرياً في سياق اجتماعي إنساني. ومن الملاحظ أن عثمان لم يقاوم ولم يشأ أن يجابه الثوار لاعتقاده بأن شخصيته ومكانته الدينية قادرتان على تليين مواقفهم وإعطاء الضمان لهم بإجراء الإصلاحات والتطلعات التي يرونها ضرورية يقول كعب بن جعيل(٢):

فَـكَـفَّ يَـدَيْـهِ ثُـمَّ أَغْـلَـقَ بَـابَـهُ   وَأَيْـقَـنَ أَنَّ اللهَ لَـيْـسَ بِـغَـافِـلِ

وَقَـالَ لِـمَـنْ فـي دَارِهِ لا تُـقَـاتِـلُـوا   عَـفَـا الـلـهُ عَـنْ كُـلِّ امْـرِئٍ لَـمْ يُـقَـاتِـلِ

وهذا ما جاء موافقاً لما أورده الطبري بأن عثمان قد منع أحداً أن يقاتل الثائرين بقوله(٣): «إني لا آمر أحداً يقاتلكم فمن قاتل دوني فإنما قاتل بغير أمري».

وكان قتل عثمان من أبشع الصور وتفرق الناس وظهر أهل البدع والفجور وكثرت الأحاديث في تحمل مسؤولية قتل الخليفة ولنذكر جواب عمرو بن العاص وهو يحدد المسؤولية في ذلك(٤) «وإني أخبرك أنه قتل بسيف سلته عائشة وصقله طلحة وسنه علي بن أبي طالب» وسكت الزبير وأشار بيده ورضينا نحن، ولو شئنا دفعنا عنه، ولكن عثمان غيّر وتغيّر وأحسن وأساء. فإن كنا قد أحسنا فقد أحسنا وإن كنا قد أسأنا نستغفر الله».

---

(١) الخليفة، هو الذي يخلف النبي في أمته وينوب عنه في حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وإمامة والقائم به خليفة وإماماً، فأما تسمسيته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة في أتباعه والاقتداء به.
مقدمة ابن خلدون، دار القلم، الطبعة الرابعة، ١٩٨١، ص١٩١.

(٢) كعب بن جعيل الأنصاري، الديوان، سامي مكي الطائي، ص٢٦٤، منشوررات مكتبة النهضة ببغداد، الطبعة الأولى ١٩٦٦.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك الجزء الخامس، ص١٣١.

(٤) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، الجزء الأول، ص٤٨، تحقيق طه محمد الزين دار المعرفة للطباعة، بيروت ١٩٦٧.

وهكذا انتهت تلك الخلافة التي قابلها الناس منذ مبايعتها مقابلة رضا واطمئنان إلى خلافة جحدها الناس واستنكروها فأزاحوها بأبشع صور الجرائم إذ فتكت أيديهم بخليفة زاهد ورع كان يقول إذا جاءه الأذان في الصلاة[(١)]:

يَا مَرْحَباً بِالقَائِلِينَ عَدْلا وبِالصَّلاَةِ مَرْحَباً وَأَهْلا

وقد علت الصيحات في العالم الإسلامي منددة بالقتلة الخونة مرددة أنَّ خليفة قتل مظلوماً ومن قتله كان ظالماً ومن خذله كان معذوراً[(٢)].

وكان صوت زوجته نائلة بنت الفرافصة مدوياً، إنه يصور حالة الشعب الذي أصيب في دينه بعدما بطر في دنياه وتلذذ من خيرات الخليفة فهي تعلن أن الشر باتَ على الأبواب إذ تقول[(٣)]:

أَلاَ إنَّ خَيْرَ النَّاسْ بَعْدَ ثَلاثَةٍ قَتيلُ[(٤)] التُّجْيبِيِّ الذِي جَاءَ مِن مِصْرِ
وَمَالِيَ لاَ أَبْكِي وَتَبْكِي قَرابَتِي وَقَدْ غَيِّبُوا عَنْ فُضُولِ أَبي عَمْرِو

وهكذا فحادث القتل عمل إجرام وكان على أهل المدينة أن يمنعوا وقوعه بأي سبب مَن الأسباب لكنهم لم يدركوا عواقبه السيئة إلا بعد فوات الأوان.

وكان قتل الخليفة عثمان مؤشراً لدخول البيت السفياني المعترك السياسي من بابه العريض، وأصبح معاوية الشخص المناسب لملء الفراغ الذي أحدثه غياب الخليفة الأموي، كما يفهم من قول ليلى الأخيلية، وهي تحث معاوية مستنهضة همته لأخذ الثأر وجمع الأمة ورأب الصدع قبل أن يتشتت أمر المسلمين وتزيغ عن رشدها، كما أنها تعلن مبايعتها له دون وجل حين تدعوه بأمير المؤمنين. تقول[(٥)]:

---

(١) محمد عمران بن موسى المرزباني، معجم الشعراء، ص٨٨، تحقيق عبد الستار أحمد فراج دار إحياء الكتب العربية طبعة ١٩٦٠.

(٢) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد، الجزء الرابع، ص٢٨٧.

(٣) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعاون الجوهر، الجزء الثاني، ص٣٥٥، تحقيق محمد محيي الدين عبد المجيد، مطبعة السعادة بمصر.

(٤) قتيل التجيبي، هو كنانة بن بشر التجني الذي ضربه بعمود على جبهته، الطبري تاريخ الأمم والملوك، الجزء الخامس، ص١٣٠.
المسعودي، مروج الذهب الجزء الثاني، ص٣٥٥.

(٥) ليلى الأخيلية، الديوان، ص٩٢.
النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء التاسع عشر، ص٥١٣.

قُتِلَ ابنُ عَفَّانَ الإمَا ... مُ وَضَاعَ أَمْرُ المُسْلِمِينَا
وَتَشَتَّتَتْ سُبُلُ الرَّشَا ... دِ لِصَادِرِينَ وَوَارِدِينَا
فَانْهَضْ مُعَاوِيَ نَهْضَةً ... تَشْفِي بِهَا الدَّاءَ الدَّفِينَا
أَنْتَ الَّذِي مِنْ بَعْدِهِ ... تُدْعَى أَمِيرَ المُؤْمِنِينَا

وقد أذكى عوامل التفجير توقف الفتوح مما أدى إلى قلة موارد رجال القبائل من الغنائم واقتصار رزقهم على العطاء فدفعهم ذلك إلى التفكير في شؤون الدولة وأوضاعها، بعد أن كانوا لا يبالون بما تفعله بأموال الفيء وريع الأراضي كما أنهم شعروا بأهميتهم لما كان لهم من دور بارز في عملية الفتوح. وفتح الناس على أنفسهم بقتل عثمان باب فتنة لا ينغلق عنهم.

طموح البيت السفياني

إن تزعم قريش قبائل الجزيرة العربية كرس لها شرعية مطلقة، وأورثها امتيازاً لا حدود له كما أمَّن لها السيادة على شبه الجزيرة العربية والتي توحدت ولأول مرة في ظلال الإسلام. وتمتعت قريش بالمكانة الدينية والرفعة السياسية العالية بين القبائل قبل الإسلام واستمرت في ذلك بسبب كونها قبيلة الرسول وساعدها هذا على احتلال موقع فوق تنافس القبائل وخصوماتها حين خصها الرسول بالنص بقوله: «قدموا قريشاً ولا تقدموها»[١].

وثمة موقف واحد من كافة الخلفاء الراشدين إذ هم ينطلقون من مبدأ عام في تثبيت السلطة في قريش وقد اعتبرت ضمن قيادة قرشية خوفاً من الوقوع في الفراغ[٢].

ولما كان أمية بن عبد شمس بن عبد مناف سيداً من سادات قريش في الجاهلية يعادل في الشرف والرفعة عمه هاشم بن عبد مناف فإنهما كانا يتنافسان

---

(١) الماوردي أبو الحسن بن محمد بن حبيب البصري البغدادي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٧٨، ص٦.

(٢) علي: فقد طالب بإبعاد غير المهاجرين في اختيار الخليفة ولا يتعارض هذا مع الشورى، وأبو بكر: رأى في قريش أوسط إنساناً ورفعة أو أمة وسطاً أو عشيرة الرسول، وعمر: رفض مداورة الخلافة بين الأنصار والمهاجرين رغم صيغة الشورى المفتلعة التي رافقت بيعه السقيفة ـ الطبري الجزء الخامس عشر، ص١٩٠.

رياسة قريش وكانت أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية، أجلي على أثرها أمية من مكة إلى الشام وأقام فيها عشر سنين تنفيذاً لبنود منافرة حصلت بينهما[١]. وأمية هذا كان يرى الأولاد والمال من أكبر أسباب السيادة فلما جاءت النبوة وما فيها من دفن للأحقاد اجتمعت قريش لحرب رسول الله برياسة أبي سفيان الذي قال لأصحاب اللواء من بني عبد الدار يحرضهم بذلك على القتال»[٢] يا بني عبد الدار: «إنكم وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، ولنا يؤتى الناس من فتل راياتهم فإذا زالت زالوا فأما أن تكفوا لواءنا وأما أن تخلوا بيننا وبينهم.

لا شك أن هذا القول يكشف عما يراود قائله من مفاهيم سياسية حول نظام الحكم في الدولة الإسلامية. ونستشف من قول كعب بن جعيل أن أبا سفيان حين حرض قريشاً في غزوة السويق كان قائداً للمشركين ورجلاً وجيهاً من رجال العرب المشهود لهم بالسيادة والوجاهة. بحيث أوكل إليه أمر مقارعة الرسول والحؤول دون سيادة الدين يقول[٣]: وقد كنى عن الجيش بجيش ابن حرب.

تَلَهَّفُ أُمَّ المُسَبَّحِينَ عَلَى جَيْشِ ابْنِ حَرْبٍ بِالحَرَّةِ الفَشَلِ
إذ يُطْرَحُونَ مِنْ سَنَمِ الطَيْرِ تَرْقَى لِقُنَّةِ الجَبَلِ

وهكذا تستفيق الشخصية الأموية الأولى ممثلة بأبي سفيان[٤] من غفلتها وتحارب النبي سنين طويلة وتحمل لواء قريش في معارضتها للرسالة المحمدية تحرضهم على القتال فلما أصيبت قريش في يوم بدر قال أبو سفيان: «يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بالمال على حربه لعلنا أن ندرك ثأراً ممن أصيب بنا» ففعلوا فاجتمعت قريش لحرب رسول الله[٥] وافتخرت هند بانتصارها يوم بدر وقالت في قتل حمزة عم النبي[٦].

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، الجزء الأول، ص٧٦.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب المصرية، الجزء السادس، ص٣٤١.

(٣) كعب بن جعيل، الديوان، ص٢٥١.

(٤) أبو سفيان، هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف كان سيداً من سادات قريش في الجاهلية ورأساً من رؤوس الأحزاب على رسول الله في حياته وكهفاً للمنافقين في أيامه أسلم يوم الفتح. الأغاني، دار الكتب، الجزء السادس، ص٣٤١. توفي سنة إحدى وثلاثين ـ اليعقوبي، تاريخ الجزء الثاني، ص١١٨ و٣٤٣.

(٥) الأغاني، دار الكتب الجزء الخامس عصشر، ص١٨٠.

(٦) ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي، ثمرات الأوراق فيما طالب من نوادر الأدب وراق ـ المطبعة الخيرية، الجزء الأول، ص٩٢.

نَحنُ خَزَيْنَاكُمْ بِيَوْمِ بَدْرِ وَالْحَرْبُ بَعْدَ الحَرْبِ ذَاتُ عُسْرِ
مَا كانَ لِي مِن عَتْبَةٍ مِن صَبْرِ وَلا أخي وَعَمِّهُ وَبَكْرِ
سَكَّنْتَ وَحْشِياً غَلِيلَ صَدْرِي فَشُكْرُ وَحْشِي عَلَى دَهْرِي
حَتَّى تَرِمّ أَعْظُمِي فِي قَبْرِي

ويتضح من هذا أن هند الهنود زوجة أبي سفيان كانت ممن يعتد بهن من النساء، أنها تمثل حرباً على المسلمين. إننا نراها تشارك في الحياة السياسية والعسكرية الأمر الذي جعلها معدودة من بين من أمر الرسول بقتلهم وقتلهن. فأخبارها قبل إسلامها مشهورة فها هي تؤلب على المسلمين يوم أحد[١]، إنها ولا شك امرأة لها إمرْة وسياسة لذلك لم تستطع أن تقف على الحياد. إذ نراها تقول:

نَحنُ بَنَاتُ طَارِقْ نَمْشِي عَلَى النَّمَارِقْ
إنْ تُقْبِلُوا نُعَانِقْ أو تُدْبِرُوا نُفَارِقْ
فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقْ

ولما حل الوئام محل الخصام عمد النبي وبطرف خفي إلى تشريف الشخصية الأموية البارزة إذ نادى المنادي في الجيش الإسلامي الفاتح بلاغ رسول الله «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[٢].

ويرجع سبب هذا التشريف دون ريب إلى شخصية أبي سفيان وما فيها من مميزات وراثية عن شخصية أبيه أمية بن عبد شمس ولم تغفل عين عمر بن الخطاب عن ملاحظة امتياز الأمويين فولى[٣] يزيد بن أبي سفيان جهة في سوريا وعتبة[٤] بن أبي سفيان على كنانة واستعمل[٥] على نجران سفيان بن حرب.

ويبدو أن هذا الأمر لم يكن ليرضي الأمويين وظلت عينهم على الخلافة

(١) الأصفهاني، الأغاني ـ دار الكتب الجزء الخامس، ص١٩٠.
(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص١٦٤.
محمد حسن جواد، محرر الرقيق سليمان بن عبد الملك الأموي ص١٧.
(٣) اليعقوبي، تاريخ الجزء الثاني، ص٨٢.
سؤال في معاوية بن أبي سفيان، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد الطبعة الأولى بيروت ١٩٧٩، ص٢٤.
(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ـ الجزء الخامس، ص٢٩.
(٥) اليعقوبي، تاريخ الجزء الثاني، ص٨٢.

وعملوا على ارتقاء سلمها درجة درجة وتقرب أبو سفيان من علي بن أبي طالب ودعوته له باستلام الخلافة وبأنها لا تصح إلا عليه إلى جانب اعترافه بولائه وشد أزره ولو اضطره الأمر إلى إعداد الجيوش وتسريح الخيول فها هو تخلف عن بيعة أبي بكر وقال أرضيتم يا بني عبد مناف أن يلي هذا الأمر عليكم غيركم وقال لعلي(١).

بَنِي هَاشِم لاَ تُطْمِعُوا النَاسَ فيكُمُ ... وَلا سِيَّما تَيْمُ بنُ مُرَّةَ أو عَدِي
فَما الأَمْرُ إلا فيكُمْ وإليكُمُ ... وَلَيْسَ لَهَا إلاَّ أَبُو حَسَنٍ عَلِي
أَبَا حَسَنٍ فَاشْدُدْ بِها كَفَّ حَازِمٍ ... فَإنَّكَ بالأمْرِ الذَّي يُرْتَجَى جَلي
وأَنَّ امْرءاً يَرْمي قُصَيَّا وَرَاؤه ... عَزِيْزُ الحِمَى والنَّاسُ مِن غالبٍ قُصي

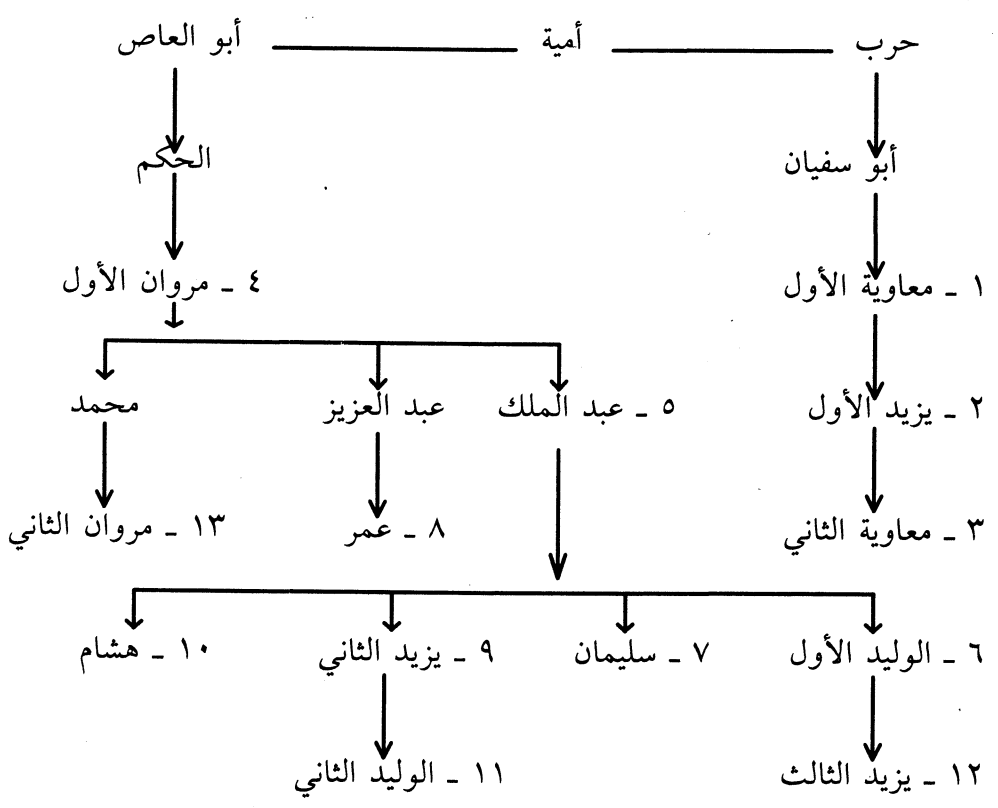
وهكذا يعلن صراحة عدم قبوله بخلافة أبي بكر ويرى فيها مجلبة للذل والوضاعة وانتهاكاً للكرامة علماً بأن أبا بكر قد قيد سلطاته بإقامة شعائر الدين ونشر الإسلام عند مبايعته وبضرورة إقامة العدل غير أن أبا سقيان كان ينظر إلى خلافته نظرة عدائية متمثلة في سيادة تيم على قريش أي سيادة عصبية لا دينية وكان يردد كثيراً(٢):

وَأضحَتْ قُرَيشٌ بَعْدَ عِزٍّ وَمَنْعَةٍ ... خُضُوعاً لِتَيمٍ لا بِضَرْبِ القَوَاضِبِ
فَيا لَهْفَ نَفْسِي للذي ظَفِرَتْ بِهِ ... وَمَا زَالَ مِنْها فائِزاً بالرَّغائب

غير أن خطة النبي التي نجحت في استمالة هذا البيت القرشي قد كسبت زعيمه مع المحافظة على ماء وجهه، ودون إذلاله. وكانت نقطة تحول في مفاهيم الزعيم القرشي حين أدرك أنه لا مفر من الإسلام إذا أراد السيادة فحمل أولاده على أن يتفانوا في حمل الرسالة المحمدية للتعويض عما فاتهم من سبق الدخول في الإسلام ولقد أعادهم أبو عبيدة إلى الواجهة عندما استخلف(٣) ابنه يزيد على دمشق وكلفه فتح مدنها الساحلية صيدا وعرقة وجبيل وبيروت، وكان أخوه معاوية على مقدمة جيشه ففتحها فتحاً يسيراً.

(١) اليعقوبي، تاريخ الجزء الثاني، ص٨٤، دار صادر - بيروت.
(٢) الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب الجزء السادس، ص٣٥٦.
(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء الثاني، ص٤٣١.

وهكذا فالبيت السفياني قد انتقل من سيادة في الجاهلية إلى سيادة في الإسلام فاتصلت به السيادتان وقد قال رسول الله[١] «الناس معادن فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا». واستطاع هذا البيت نيل الشهرة عن طريق انحسار الخلافة بين أبنائه بفرعيه. فرع حرب بن أمية وفرع العاص بن أمية والشكل التالي يوضح لنا الشخصيات البارزة في كل فرع[٢].



وكان أبو سفيان يعتبر خلافة عثمان خلافة أمية، لذلك لم يثر ولم يغضب حين حجبه أمير المؤمنين لما وفد عليه، بل ربط جأشه وهو[٣]، المشهور بطول الأناة وبعد النظر ويقظة الرأي وأجاب جواب السياسي اللبق المرن لمن عاب عليه ذلك: «ولا عدمت من قومي، من إذا شاء حجبني»[٤].

---

(١) محمد الخضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، ص٩٨.
(٢) نقلاً عن محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الجزء الثاني، ص٩٩، ملاحظة: الترقيم يمثل تسلسل الخلفاء؟
(٣) التوحيدي، البصائر والذخائر، الجزء الثاني، ص٨١٠.
(٤) الآبي، نثر الدر ـ الجزء الثاني، ص١٦٦.

وكان بين الحين والآخر يدخل على الخليفة شاداً أزره محاولاً رسم الخطوط العريضة لسياسته العامة ضارباً عرض الحائط ما وعد به الرسول من جنات أعدت للمؤمنين قائلاً له[١] «يا معشر بني أمية إن الخلافة صارت في تيم[٢] وعدي[٣] حتى طمعت فيها وقد صارت إليكم فتلقفوها بينكم تلقف الكرة، فوالله ما من جنة ولا نار، هذا أو نحوه فصاح به عثمان قم عني».

فأبو سفيان يلوح لعثمان بضرورة الالتفاف حول هذا المنصب والتمسك به، وحصره في بني أمية مستغلاً قرابته من عثمان أسوأ استغلال، معتبراً رياسته لهم مشيراً عليه، ومدلياً برأيه بصراحة في خلافته، على أنها استرداد لبعض ما كان لهم من سلطان في الجاهلية، وخصوصاً حين اتخذ عثمان ابن عمه مروان بن الحكم كاتباً في المدينة وترك له الأمر فملأ مروان مناصب الدولة بأهل قرابته.

وكشف الأمويون القناع عن حقيقة نواياهم عندما قتل عثمان، وما الطلب بدمه إلا سلم ارتقاه معاوية لتحقيق مآربه وأطماعه. مع العلم أن عثمان قد نال حتفه بيده، وهو تبعاً لذلك يتحمل وحده مسؤولية القتل ولقد جاء في تاريخ الإسلام للذهبي[٤]، أنه دعا أناساً من الصحابة بينهم عمار بن ياسر فقال: «إني سائلكم وأحب أن تصدقوني، نشدتكم الله، أتعلمون أن الرسول كان يؤثر قريش على سائر الناس ويؤثر بني هاشم على سائر قريش فسكتوا فقال: «لو أن بيدي مفاتيح الجنة لأعطيتها بني أمية حتى يدخلوها» ففهم أن رأيه مستقر على ضرورة إحلال بني أمية مركز الصدارة وأن تكون الواجهة لهم.

وكانت السياسة الأموية بشكل عام تقوم بالقضاء على المنافسين مهما كانت مكانتهم فلما قتل عثمان، انسل الأمويون من أطراف البلاد، واجتمعوا بمكة بعددهم وعددهم، وما حملوا من أعمالهم من أموال ينفخون في الشر، ويحرضون على

---

(١) الأصفهاني، الأغاني ـ دار الكتب المصرية، الجزء السادس، ص٣٥٦.

(٢) تيم: هو تيم بن مرة به سميت القبيلة التي ينتسب إليها أبو بكر الصديق، الأغاني، دار الكتب، الجزء السادس، ص٣٥٦.

(٣) عدي، هو عدي بن كعب بن لؤي بن غالب به سميت القبيلة التي ينتسب إليها عمر بن الخطاب، الأصفهاني، الأغاني دار الكتب، الجزء السادس، ص٣٥٦.

(٤) الذهبي، تاريخ الإسلام، ص١٢٢.

الطلب بدم عثمان[١] فتعالت الصيحات من مختلف أرجاء العالم الإسلامي مندّدة بالقتلة وبالمجرمين وانصرفت السيدة عائشة إلى مكة وهي تقول: «قتل والله عثمان مظلوماً والله لأطلبن بدمه» علماً بأنها هي التي أطلقت الصيحات الحادة ضده في حياته إذ كان بينه وبينها منافرة[٢]، وقد أثر قولها: هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته[٣]. اقتلوا نعثلا فقد كفر[٤]، فاتحة بذلك باب المنافسة على أسس الدين. وقد اتهمها علانية ابن أم كلاب بتهييج الناس على عثمان حتى إذا قتل واجتمع الناس على بيعة علي قامت مطالبة بدمه وتؤجج الصراعات السياسية التي ارتبطت بشخصيتها ارتباطاً وثيقاً وقد اعتبرت مصدر تلك الصيحات. يقول[٥]:

مِنْكِ البِدَاءُ ومِنْكِ الغِيَرْ	ومنك الرِيَاحُ ومنكِ المَطَرْ
وأَنْتِ أَمَرْتِ بِقَتْلِ الإمام	وَقُلْتِ لنا إنَّه قَدْ كَفَرْ
فَهَبْنَا اَطَعْنَاكِ في قتله	وقاتِلُه عندَنا مَنْ أَمَر
وَلَمْ يسقُط السَقْفُ من فوقَنَا	وَلَمْ يَنكَسِفْ شَمْسُنَا والْقَمر
وقَدْ بَايَعَ النَاسُ ذا تَدْرُؤٍ	يُزيلُ الشَّيَا ويُقيمُ الصَعَر
ويَلْبسُ للحَرْبِ أثْوَابَها	وَمَا مَنْ وَفَى مِثْلَ مَنْ قَد غَدَر

هذه الأبيات مؤشر لغياب حياة عاشها الإسلام وتحضير لحياة جديدة تتصادم فيها النزعات والآلام والرغبات. ويفهم من قوله أن شعارات السيدة عائشة كانت وراء تصدع العالم الإسلامي فهي التي تعمل على نخر المجتمع من الداخل وتبعاً لذلك تقع عليها المسؤولية.

وبلغ الأمر معاتبتها على تقاعسها عن بيعة الإمام علي وحمل لواء المعارضة السياسية على أساس الدين معلناً أن اجتماع الكلمة لعلي من شأنه أن يقوم الإعوجاج ويهدي سواء السبيل.

وحاول رجال السنة تبرئة عثمان وكانوا يقولون إنه كان مصيباً في أفعاله، قتله

(١) سعيد الأفغاني، عائشة والسياسة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧١، ص٢٤٥.
(٢) ذلك أن عثمان قد حرمها مما كان يعطيها عمر بن الخطاب ـ اليعقوبيا ـ تاريخ الجزء الثاني، ص١٢٣.
(٣) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص١٢٣.
(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ الجزء الثالث، ص٢٠٦.
(٥) محمد محمد حسين، الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام دار لنهضة العربية الطبعة الثالثة ١٩٧١، ص٤٥.

قاتلوه ظلماً وعدواناً، كما قال قاتلوه بخلاف ذلك وهذا اختلاف بين الناس إلى اليوم[١].

وبقيت المدينة بعد مقتل عثمان خمسة أيام وأميرها الغافقي بن حرب وكان الثوار أثناء ذلك يلتمسون من يجيبهم للقيام بالأمر فلا يجدونه فهم كانوا مجتمعين على قتل عثمان ومختلفين فيمن يهوون. وهذه النزعة التنافسية عند مختلف الأطراف كان لها انعكاسات سيئة على الساحة الإسلامية، كما أغرقت هذه الساحة بمشاكل داخلية مستعصية، منها بروز مناطق نفوذ جديدة في الأطراف على حساب الحجاز وثقله المركزي. ومن هنا يمكننا القول إن سقوط الحجاز سياسياً قد اقترن بسقوط الخليفة، الذي عجز عن تحقيق بعض التوازن المطلوب، بين الاتجاهات السياسية المتجاذبة حول السلطة. ولكن صراع النفوذ سرعان ما تم حسمه من قبل أولئك العابثين بالقانون الذين كلموا علياً في البيعة له فامتنع قليلاً ثم جْاب إلى ذلك[٢]. واختلف الناس في أمره فمن بين منكر لأمامته ومن بين قاعد، ومن بين قائل بإمامته معتقد بخلافته[٣]، على اعتبار أنه لم يكن قد بقي من أهل الشورى إلا ثلاثة علي وطلحة والزبير بعد موت عبد الرحمن بن عوف، واعتكاف سعد بن أبي وقاص، وكان واضحاً رغم التنافس المبطن، أن علياً سيقع عليه الإختيار الصعب ويقطف ثمرة تلك الفعلة المحملة بالبلاء.

وحاول الأمويون استرجاع سلطتهم وراحوا يجهرون بمناوأتهم للهاشميين إذ اتهموهم بالإحجام عن إنقاذ عثمان والإسهام في قتله كما يتضح من قول الوليد بن عقبة حين بلغه أن علياً قد أخذ ما في دار أخيه لأمه من السلاح وإبل الصدقة بعد هلاكه. يقول[٤]:

بَـنـي هَـاشـم رُدُّوا سِـلاَحَ ابـنِ أختـكُـم ولاَ تَـنـهَـبُـوهُ لاَ تَـحِـلُّ مَـنَـاهِـبُـهْ

---

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص٣.
(٢) الخضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الجزء الثاني، ص٤٨.
(٣) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص٣.
(٤) الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب المصري، الجزء الخامس، ص١٧٦٤.
البصري، الحماسة البصرية، الجزء الأول، ص١٩٧.

بَني هَاشم كيفَ التَعَاقُدُ بَيْنَنا ... وَعِنْدَ عَلِيٍّ سَيْفُه وحَرائِبُهْ
هُمْ قَتَلوه كي يَكونُوا مكانَه ... كَمَا غَدَرَتْ يوماً بكِسْرَى مَرازِبُهْ

وهذه إشارة بإلقاء مسؤولية القتل على بني هاشم، لغاية في أنفسهم علماً بأن معظم الصحابة قد خرج بعضهم من المدينة، حتى ينفوا عن أنفسهم تهمة التدخل في الفتنة ولا تذكر المصادر شيئاً واضحاً أو أكيداً عن الدور الذي لعبه علي بن أبي طالب في الساعات القليلة التي سبقت مقتل الخليفة وما إذا كان له جهد واضح في سبيل إنقاذ حياة الخليفة المحصور. وبالمقابل فإن هناك إجماعاً من مختلف المصادر يشير إلى إن عثمان قد طلب[١] نصرة معاوية بن أبي سفيان، فأبطأ في نجدته وتثاقل عنه وكأنه أحب قتله[٢] وهل يعقل أن يكون غير طموح معاوية للخلافة، هو الدافع الوحيد وراء استبطائه في نجدته علماً بأنه أصبح رجل الأمويين القوي والوريث المطروح كقريب الخليفة وخصوصاً عندما أرسلت إليه زوجته نائلة بنت[٣] الفرافصة الكلبية، قميصه الملطخ بالدماء وإصبعه المقطوع، مع النعمان بن بشير الأنصاري. وكأن هذا ليس إلا تفويضاً مطلقاً من آل عثمان بأخذ الثأر. وزاد الحالة اضطراباً، تأجيج العصبية القبلية التي دأب الإسلام على محاربتها، تلك التي عادت تستعر ويشتد أوارها من جديد إذ انقسمت القبائل فيما بينها إلى أمد طويل كما يتضح من قول الحباب بن يزيد المجاشعي عم الفرزدق. يقول[٤]:

لَعَمْرُ أبيكَ فَلاَ تَكْذِبَنْ ... لَقَدْ ذَهَبَ الخَيْرُ إلاَّ قَلِيْلاَ
لَقَدْ سَفَهَ النَاسُ في دَينِهِم ... وَخَلّى ابنُ عُثْمَانَ شَرًّا طَوِيلا

فقتل عثمان أيقظ الفتنة[٥] من مضجعها، وصار النزاع عليها إلى السيف أميل، وأحدث ذلك انقساماً خطيراً في العالم الإسلامي إذ ظهر على الساحة العامة، علي

(١) جاء في الطبري، الجزء الخامس، ص١١٥.. بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فإن أهل المدينة قد كفروا أخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث التي من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب ذلول. فلما جاء معاوية الكتاب تربص به وكره إظهار مخالفه.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، القسم الرابع، الجزء الأول، ص٩٥.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الخامس، ص٢٣٥.

(٤) يوسف عبد الله الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ص١٠٥٢.

(٥) الفتنة هو ما يقع بين طبقات الأمم من الهيج والاقتتال أو التعصب الوطني أو العنصري وهو مذموم عند ذوي الألباب، كتاب الأعلام بمناقب الإسلام، ص١٥٦.

بظهر الكوفة، وطلحة والزبير بالبصرة ومعاوية بالشام، وفرقة بالحجاز[١] وهكذا تفرقت الجماعة شيعاً وأحزاباً كما عظمت المنافسات السياسية والدينية واستيقظت العصبية القبلية من جديد بين القرشيين والأنصار أو بين المضرية واليمانية أو بين العدنانية والقحطانية، علماً أن بداية التصدع كانت قد بدأت عقب مقتل الفاروق بين بني أمية وبني هاشم عندما ثار بالمسجد عشية الإنتخاب عمار بن ياسر، فدعا علياً. وأيده المقداد بن الأسود وقام عبد الله بن سعد بن أبي سرح فدعا لعثمان وأيده عبد الله بن أبي ربيعة وتكلم بنو هاشم وبنو أمية واحتج عمار بأن آل البيت أحق بألا يصرف عنهم الأمر كما يتضح من قول عتبة بن أبي لهب حين قال[٢] وقد ذكر أن هذه الأشعار هي لأبي سفيان[٣].

مَا كُنتُ أَحْسِبُ أَنَّ الأَمْرَ مُنْصَرِفٌ ... عَن هَاشِم ثُمَّ مِنْها عن أبي الحَسَنِ
عَنْ أَوَّلِ النَّاسِ إيماناً وَسابِقَةً ... واَعْلَم النّاسِ بالقُرْآنِ والسُّنَنِ
وآخِرِ الناس عَهْداً بالنَّبيّ وَمَنْ ... جِبْريلُ عَوْنٌ له في الغَسْلِ والكَفَنِ
مَنْ فِيْه مَا فِيهِمْ لا يَمْتَرُونَ بِهِ ... وَلَيْسَ فِي القَوْمِ ما فيه مِنَ الحَسَنِ

ولا يسعنا أن نغفل الدور الهام الذي قام به البيت السفياني في إذكاء وقود هذه الحرب الشعواء، حتى يؤمن لنفسه الجاه والرفعة اللذين فقدهما في ظل الإسلام. وتعددت الفرق السياسية وراحت كل واحدة منها تؤيد الحزب الذي يناهض القبيلة التي تعاديها وهكذا فالمأساة التي وضعت حداً بشكل دام لعهد عثمان فتحت عصر الحروب المدنية وأثارت أكبر عقبة في وجه عمل التأريخ العربي الملتزم بتسجيل سلسلة الشكاوى التي أثارها خصوم عثمان، هو نظام حكمه.

وكانت الثغرة في خلافة علي ليس افتقاده إلى البيعة الجماعية فحسب ولكن[٤] غياب التغطية القرشية سواء من المهاجرين أو من المكيين وقد أصبحت مدينتهم أول الأمر مركز المعارضة العلنية ضد الخليفة الجديد على اعتبار أن مجيئه إلى السلطة سيضع حداً لمصالح هذه البيوتات التي انتعشت زمن عثمان بن عفان[٥].

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الخامس، ص١٥١.
(٢) اليعقوبي، تاريخ الجزء الثاني، ص١٣٤.
(٣) رسائل الجاحظ، ص٢٥٢.
(٤) B.I Levde - Paris, I, 1077.
(٥) إبراهيم بيضون، إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية ١٨٤.

وأدى ذلك إلى إحياء الصراع القديم وامداد الشعراء والأدباء بروافد جديدة استطاعوا بواسطتها معالجة مجمل القضايا الطارئة من سياسية ودينية واجتماعية فتفجرت قرائحهم وسطروا أدباً غزيراً كماً ونوعاً، ما يزال حتى أيامنا هذه، الزاد والينبوع الغزير الذي ينهل منه أدباؤنا، إلى جانب تفجير الأمور السياسية وتهيئة الجو الملائم أمام الزعيم السفياني الرابض في دمشق والذي يحرك الأمور في الخفاء.

الخلافة الأموية

استغل الأمويون مقتل الخليفة عثمان أفضل استغلال إذ ما كادت الأنباء تعلن وتذاع حتى انسل[١] بنو أمية من أطراف البلاد واجتمعوا بمكة وعلت أصوات الشعراء داعية إياهم إلى تحمل مسؤولياتهم كسادة وكزعماء فأبو العباس الأعمى يتحسر على قرابتهم ويعلن أنهم بخسوا حقهم في الخلافة، ولأنهم الأجدر بها، لأنهم سادة أقوياء كرماء، يثبتون حين يشتد القتال ويسألون عن الفقير المحتاج ويواسونه، إنهم ساسة أذكياء خطباء يحرصون على وحدة الأمة وسلامتها. يقول[٢]:

وَلَمْ أَرَحَيّاً مِثْلَ حَيٍّ تَحَمَّلُوا ... إلى الشامِ مَظْلُومِينَ مِنذُ بَرِيتُ

أَعَزُّ وأمضَى حَينَ تِشْتَجِرُ القَنَا ... وأَعْلَمُ بالمسكينِ حيثُ يَبِيتُ

وَأَرْمَق بالدُّنْيا بأولى سياسةٍ ... إذا كادَ أَمْرُ المسلمين يَفُوتُ

إذا ماتَ مِنْهُمْ سيدٌ قامَ سَيدٌ ... بَصِيرٌ بِعَوْرَاتِ الكَلامِ زَمِيتُ

وراحوا ينفخون الشر ويحرضون على الطلب بدم عثمان ويستغلون أهواء كل من أحسوا منه كرهاً لعلي أو منافساً له وأظهروا ذلك كله وأضمروا من ورائه أمراً آخر. قتل طلحة والزبير ورؤوس الناس من سواهم وودوا أن يقتل[٣] غيرهم عائشة[٤]، ليخلص لهم الأمر ويرجع في بني أمية وقد خلت الأرض من منافس لهم. وكان معاوية خلال هذه الأحداث المتسارعة محتجباً وملتزماً بحدوده كوالٍ

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الخامس، ص١٦٠.

(٢) حسين عطوان، شعراء الدولتين الأموية والعباسية، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١، ص٣٩.

(٣) لأنه ورد على لسان عائشة قولها، إن معاوية لا يصلح للخلافة.
الآبي، نثر الدر، الجزء الأول، ص٣٣٠.

(٤) سعيد الأفغاني، عائشة والسياسة، ص٣٤٥.

منتظراً الفرصة المؤاتية لشق طريقه ولتحقيق طموحاته في الوصول إلى الخلافة ولكن موقف الخليفة الجديد «علي» غير الودي من معاوية حمل هذا الأخير على التراجع إلى الصفوف المعادية، مع الكتمان الشديد على إخفاء أغراضه الخاصة. من أجل ذلك كان حرياً بنا أن نفهم هذه الشخصية فهماً كافياً لنتوقف على مدى قدرتها السياسية في التصدي لمجريات الأمور والتحكم في نتائجها وكسب فوائدها.

معاوية بن أبي سفيان قبل الخلافة:

هو معاوية[١] بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، ويجتمع نسبه ونسب رسول الله في عبد مناف بن قصي وقد جمع المجد من طرفيه فوالده[٢] شريف سيد حازم ووالدته كذلك وتربى تربية عسكرية قوامها الدهاء والحنكة والحلم والطموح وكان يتوسم فيه وهو صغير ملامح السيادة. أما عن إسلامه فلندعه يتكلم[٣]، «أسلمت عام عمرة القضية ولقيت رسول الله ﷺ ووضعت إسلامي عنده وقبل مني» والأرجح أنه أسلم[٤] يوم الفتح ولكنه كان لا يتجرأ على إظهار إسلامه من والديه. وهذا ما ثبت لأن معاوية بحسب إجماع المصادر من الطلقاء[٥] الذين أسلموا بعد فتح مكة. وما لبث اسم معاوية أن بدأ بالظهور على مسرح الأحداث منذ اشتراكه مع أشراف الكتاب الذين كتبوا الوحي. وكان معاوية يكتب للنبي فيما بينه وبين العرب أي من وحي وغيره. وكان حسن[٦] الكتابة فصيحاً حليماً. استرعى انتباه رسول الله إذ قال عنه[٧] «اللهم علمه الكتاب والحساب ووقه

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السادس، ص١٨٣.
ابن سعد، الطبقات الكبرى، الجزء السابع، ص٤٠٦.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، القسم الرابع الجزء الأول، ص٧.

(٣) الزبيري، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله، كتاب نسب قرش، تحقيق اليفي برونفسال، دار المعارف، الطبعة الرابعة ١٩٧٧، ص١٢٤.

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، الجزء السابع، ص٤٠٦.

(٥) الطلقاء الذين أسلموا بعد فتح مكة وكان هؤلاء وغيرهم مما حسن إسلامهم باتفاق المسلمين ولم يتهم أحد منهم بعد ذلك بنفاق.

(٦) إبراهيم الأبياري، سلسلة أعلام العرب، معاوية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر لاط، لاتا، ص١١٨.

(٧) ابن تيمية، سؤال في معاوية بن أبي سفيان، ص٢١.

العذاب» وبلغت به الكتابة، وبغير شأوًا بعيدًا في السياسة والسيادة. ولما هلك يزيد بن أبي سفيان قائد جيش المسلمين إلى الشام[١] أقر عمر معاوية على عمل يزيد ولم يزل والياً لعمر حتى قتل فلما ولي عثمان أقر معاوية وجمع له الشام كلها وكانت ولايته على الشام[٢] عشرين سنة أميراً. وكان خلالها درع الدولة الإسلامية في الشام والحصن المنيع في وجه أعدائها البيزنطيين فقام بواجبه خير قيام. وبهذا استطاع معاوية أن يخرج إلى الميدان. ففي سنة عشرين سار إلى قيسارية[٣] بناء لطلب من عمر فحصر أهلها فجعلوا يزاحفونه وهو يهزمهم ويردهم إلى حصنهم حتى زاحموه آخر ذلك مستميتين. واستأذن عمر[٤] في ركوب البحر فسار غازياً بالمسلمين إلى قبرص كما وصل في غزواته سنة اثنتين وثلاثين[٥] إلى مضيق القسطنطينية ومع زوجته فاختة بنت قرظة وخصوصاً عندما صير[٦] عثمان إليه، غزو الروم على أن يوجه من رأى على الصائفة.

ومن البديهي أن تعكس نتائج هذه الحروب وهذه المهمات، أهمية الشام وثقله السياسي والعسكري. وأن تظهر بالتالي قدرة معاوية كقائد من قواد الفتح وكرجل سياسي محنك. ووظف دهاءه في تدعيم علاقاته بالقبائل الشامية دون الاستهانة بالجهد المبذول في إيجاد قضية مشتركة مع هذه القبائل كما أنه وضع يده على كافة المرافق العامة دون أن يثير حساسية أعوانه فانقادوا إليه، وهم لا يفقهون. فلا هو يخدعهم ولا هم يخدعونه. ومهد معاوية للإدارة المركزية واعتبرها سبيلاً إلى الاستقراء وذلك حين طلب من الخليفة عثمان أن يرخص له زرع الأراضي التي تركها أصحابها وهاجروا إلى بلاد الروم فأجابه[٧] إلى طلبه.

---

(١) اليعقوبي، تاريخ الجزء الثاني، ص١٠٤.
ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء الثاني، ص٥٦٠.
(٢) ابن سعد ـ الطبقات الكبرى، الجزء السابع، ص٤٠٦.
الطبقات الكبرى، الجزء السابع، ص٤٠٦.
(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء الثاني، ص٤٩٣.
(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الخامس، ص٢٨.
الزبيري، نسب قريش، ص١٢٤.
(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء الثالث، ص١٣١.
(٦) اليعقوبي، تاريخ الجزء الثاني، ص١١٨.
(٧) عباس محمود العقاد، معاوية بن أبي سفيان في الميزان، دار الهلال، الطبعة الأولى، ص٣٥.

وهكذا ارتبطت تلك الإدارة المركزية بروابط مادية متوفرة كانت وقفاً على رجال مخلصين للبيت السفياني كافأهم معاوية بإعطائهم قسطاً كبيراً من الحرية في إدارة أقاليمهم. ولقد تنبأ معاوية سلفاً بوقوع الكارثة حين راح يهدد الصحابة وهو في دارهم عندما كثر الإنكار على عثمان، فقدم من الشام وأتى مجلساً فيه علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاض وعبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر وقال لهم[1]. يا معشر الصحابة، أوصيكم بشيخي هذا خيراً، فوالله لئن قتل بين أظهركم لأملأنَّها عليكم خيلاً ورجالاً. ثم أقبل على عمار بن ياسر فقال: يا عمار إنَّ الشام مئة ألف فارس، كل يأخذ العطاء لا يعرفون علياً ولا قرابته ولا عماراً ولا سابقته ولا الزبير ولا صحابته، ولا طلحة ولا هجرته، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله، ولا يتقون سعداً ولا دعوته. فإياك يا عمار أن تقعد غداً في فتنة تنجلي فيقال هذا قاتل عثمان، وهذا قاتل علي».

وهكذا استطاع معاوية أن يبلور تطلعاته السياسية في طائفة من الصفات والنعوت واسماً بها معشر الصحابة ولو لم يكن معاوية واثقاً من كلامه لماكشف في خطابه ضرورة بقاء الخلافة في عثمان مهدداً باستعمال القوة إذا حلَّت بعثمان نائبة، الأمر الذي سيؤدي إلى رجحان كفته. كذلك فهو يلفت الجميع على أنه سيكون الشخص الأول المطالب بالثأر ويحملهم المسؤولية وعواقبها. فمعاوية يظهر أهميته ومقدرة الشام على حماية الخلافة مع أنه يحيلها إلى مبدأ القوة حين عرض إمكانياته العسكرية التي تكفل له النصر، وتغنيه عن قوة الدولة وحراسها وذلك حين ألقى على مسامع الخليفة استعداده فراسل بعض جند الشام لإقامتهم بين ظهراني المدينة احتياطاً لنائبة أو استعداداً لحادث مفاجىء قد يقع. علماً أن عثمان قد رفض مثل هذا العرض وقال[2] أنا أقتر على جيران رسول الله والأرزاق بجند أساكنهم. فقال معاوية: يا أمير المؤمنين والله لتقاتلن ولتغزين: قال حسبي الله ونعم الوكيل.

وكانت الأحداث تتسابق، وكان معاوية يسخرها لمصلحته، بلباقة السياسي

---

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص٣٢.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الخامس، ص١٠١.
الذهبي، تاريخ الإسلام، ص١٢٤.

المحنك ويزداد بذلك قوة وجرأة. وقد أغرى الزبير وطلحة بالخلافة. هذا في الظاهر أما في الخفي فإنه كان يرمي من وراء تحريضه ذلك على شق الصف الإسلامي والقضاء على منافسيه بضرب الواحد بالآخر، حتى إذا ضعفت كافة الأطراف انقض على الجميع وتخلص منهم وبوأ نفسه مركز الصدارة.

وكان معاوية ذا حيلة ودهاء ومكر سياسي، ويكفي أن نذكر في هذا المجال ما قاله عبد الله بن عباس في مجلس معاوية[١] «أما أنت يا معاوية فزينت له ما صنع، حتى إذا حصر طلب نصرك، فأبطأت عنه وتثاقلت وأحببت قتله وتربصت لتنال ما نلت».

أما موقف طلحة والزبير وعائشة ومطالبتهم بالثأر من قتل عثمان فهو خير تعبير عن اتجاهاتهم السياسية المتجاذبة حول السلطة إذ كانوا من أكبر المحرضين ضده. وقد أنكروا بيعتهم لعلي بعد أن كانوا قد بايعوه. وما كان معاوية ليحجب يده عن اليد التي فتحت له ولعشيرته باب التقدم والوجاهة فزاحموا الناس بمناكبهم في زمنه، وتقدموا حتى صارت مكانتهم مرموقة. أعني بذلك عثمان بن عفان[٢]، بل نراه يسارع لحمل راية الثأر لعثمان.

وعندما قتل عثمان وبويع علي بالخلافة بالمدينة رأى معاوية ألا يبايعه واتهمه بالهوادة في أمر عثمان وإيوائه قتلته. وبالمقابل بايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان[٣] كما يتضح من قول حسان في رثاء عثمان بن عفان[٤].

مَنْ سَرَّهُ المَوْتُ صِرْفاً لاَ مِزَاجَ لَهُ ... فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً فِي دَارِ عُثْمَانَا

بَلْ لَيْتَ شِعْرِي ولَيْتَ الطَّيْرَ تُخْبِرُنِي ... مَا كَانَ شَأْنُ عَلِيٍّ وَابنِ عَفَّانَا

ضَحَّوْا بأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحاً وقُرْآنَا

لَتَسْمَعَنَّ وَشِيكاً فِي دِيَارِهِمُ ... اللهُ أكْبَرُ يَا ثَارَاتِ عُثْمَانَا

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، القسم الرابع، الجزء الأول، ص٩٥.

(٢) B.I. Leyde Paris III, 1079.

(٣) محمد الخضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، ج التالي، ص١٠٠.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، الجزء الثالث، ص٢٨٥.
حسان بن ثابت الأنصاري، الديوان، ص٢٤٨، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٧٤.

وهكذا علت الصيحات منددة بالقتلة محملة أهل المدينة المسؤولية، معلنة الولاء لطالب الثأر «معاوية» باعتباره زعيم أهل الشام والقادر على تحمل أمر الطلب بدم الخليفة المقتول.

إن مثل هذه الملاحظات لا تعني إلا شيئاً واحداً وهو أن الغليان كان مشتعلاً، وأن الثورة كانت منطلقة، وأن مطالب الثوار كانت تصل إلى مسامع الخليفة ومسامع معاوية، ولكن يبدو أن معاوية كان يخطط لخطة معينة، يبغي من ورائها إفراغ الحجاز من ثقله السياسي والديني. ورسم من حيث لا يدري مؤشراً واضحاً لنهجه السياسي حيث قرن سقوط الحجاز بسقوط الخليفة. بالإضافة إلى تفريغ الخلافة من دورها الأساسي كسلطة مركزية، غير أن السرعة التي تمت بها الثورة على عثمان والبيعة لعلي أدت إلى بلورة الاتجاهات السياسية في الدولة وكانت التفرقة وعدم الإجماع على الخليفة من أولى مظاهر الثورة. وأخفق علي في الحصول على مبايعة زميليه في الشورى طلحة والزبير كما تخلف عن مبايعته كثير من الأنصار وفي مقدمتهم حسان بن ثابت والنعمان بن بشير وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وكان هؤلاء عثمانية. وذهبوا إلى أبعد من ذلك إذ حملوا علياً مسؤولية قتل عثمان حين قال كعب بن مالك[(١)]:

فـكَـفَّ يَـدَيْـهِ ثـم أَغْـلَـقَ بَـابَـهُ ... وَأَيْـقَـنَ أن الله لَـيْـسَ بـغَـافِـلِ

فكـيـفَ رَأيْـتَ الـلـهَ صَـبَّ عَـلَـيْـهِـمُ الـ ... ـعَـدَاوَةَ والـبَـغْـضَـاءَ بَـعـد الـتَـواصُـلِ

وهكذا أفرغت خلافة علي من ثقلها القرشي إلى جانب الغالبية العظمى من الأنصار وتكتلت وحدة قريش هذه، وإن حاول المغيرة بن شعبة الثقفي نصحه مراراً بشأن معاوية وعدم التعرض له حتى استقرار الأمر وحتى يلزمه طاعته. لكن جواب علي كان الرفض القاطع إذ قال له لا والله. لا يراني الله أستعين به ما دام على حاله أبداً، ولكني أدعوه إلى ما عرفته فإن أجاب، وإلا حاكمته إلى الله فانصرف المغيرة مغضباً وقال[(٢)]:

(١) الأنصاري، كعب بن مالك، الديوان، ص٧٦.
الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب الجزء السادس عشر، ص٢٣٣.
(٢) المسعودي، مروج الذهب، المجلد الثاني، ٣٨٢.

نَصَحْتُ عَلِيّاً في ابنِ هِنْدٍ مَقَالَةً فَرُدَّتْ، فَلاَ يَسْمَعْ لَهَا الدَّهرَ ثَانِيهْ
وَقُلْتُ له: أرسِلْ إليه بِعَهْدِه على الشام، حتى يَستَقِرَّ معاوِيَهْ
وَيَعْلَمُ أهْلُ الشام أنْ قَدْ مَلَكْتَه وأمُّ ابن هِنْدٍ عِنْدَ ذلك هاوِيَهْ
فَلَمْ يَقبلِ النُّصْحَ الذي جِئتُهُ وَكانَتْ لَهُ تِلكَ النَّصِيحَةُ كافِيَهْ

وكيف يختار ذلك وهو محاط بجند يفضلونه على أنفسهم ويرونه أليق للإمارة عليهم ولم ير لعلي[1] بيعة توجب عليه طاعة يضطر إليها اضطراراً. وهذا ما حمل معاوية على محاربته بحنكته السياسية المعهودة وفي دهائه عندما صارحه بأمر أوقعه في ورطة حين خيّره بين أمرين أحلاهما مر[2]:

١ ـ إما أن يعاقب القاتلين.

٢ ـ أو أن يقر ضمناً بالتواطؤ معهم والاقتصاص من القاتلين. وكان هذا مما لا يقدم علي عليه بل لا يقوى عليه.

وفشل علي في تحقيق دعم معنوي لقضيته في الحجاز بعد أن رفض المعتزلون من شخصياته البارزة التعاطف معه أمثال سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة وكانوا من القاعدين الذين اعتزلوا الفتنة وذلك كما يتضح من جواب سعد لعلي حين نادى في الناس بالتأهب للمسير إلى العراق بقوله[3] «أعطني سيفاً يعرف المسلم من الكافر حتى أقاتل به معك».

واستبان لأهل الشام كما استبان لأهل العراق أن ليس من الحرب بد وما كادت نتائج موقعة الجمل تظهر للملأ حتى علت الأصوات والإحتجاجات فهذا النجاشيُّ يحرض علياً على المسير إلى الشام بقوله[4]:

قُلْ لِهذَا الإمَامِ قَدْ خَبَتِ الحَرْ بُ، وتَمَّتْ بِذَلِكَ النَّعْمَاءُ
وَفَرَغْنَا مِنْ حَرْبِ مَنْ نَكَثَ العَهْ دَ، وبِالشَّامِ حَيَّةٌ صَمَّاءُ
تَنْفُثُ السُّمَّ، مَا لِمَنْ نَهَشَتْهُ فَارِمِهَا، قَبْلَ أنْ تَعَضَّ شِفَاءُ

---

(١) محمد الخضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الجزء الثاني، ص٥٢.
(٢) فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، الجزء الثاني، ص٣١.
(٣) أحمد بن داود الدينوري، الأخبار الطوال، عفيف عبد المنعم عامر، طبع مكتبة المتنبي بغداد ١٩٥٩، ص١٤٣.
(٤) الدينوري، الأخبار الطول، ص١٥٢.

وحمل معاوية لواء المعارضة وطالب بدم الإمام القتيل بعد أن انتقل إليه من كان من العثمانية بالبصرة والكوفة ونزلوا في الجزيرة من سلطانه. ووصل به الأمر في أن يقول لرسول علي في بعض مراحل المفاوضات «أقاتله على دم عثمان وأنه آوى قتلته، فسله أن يسلم إلينا قتلته وأنا أول من يبايعه من أهل الشام»(١).

ولقد استفاد معاوية كثيراً من ذلك ليكسب مودة رعيته وليقيم في الشام خلال عشرين سنة التي دامت إدارته بها ولاية نموذجية هي أكثر الولايات تنظيماً وهي أفضل جيوش الإمبراطورية الفتية تدريباً. وإذا لم يكن في مقدوره ولا هو يريد أن يمنع مصرع عثمان فقد عرف بلباقة أن ينتحل مهمة الإنتقام له وقد أفضت به إلى الخلافة ووضعته في نزاع مكشوف مع علي(٢) وذلك حين نصب قميص عثمان على المنبر وأبكى أهل الشام. كذلك دون أن يتعجل مهاجمته وترك خصمه يستنفد قواه ونفوذه وسط الحروب الأهلية وفي صراعات عقيمة ضد المنشقين العثمانيين وغيرهم الذين كانوا يقولون بتواطؤه في اغتيال عثمان(٣).

ومعاوية لم يحرم المواهب الخطابية ولا الحنكة السياسية التي تؤثر في النفوس فتستهويها، وتضرب على وترها الحساس فتجتذبها وذلك ما فصله في رسالة إلى مندوب علي من أسباب دعته إلى عدم مبايعته وتشكل هذه الأسباب أساس المبادئ العثمانية إذ يقول(٤): «أما بعد فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا. وأما الطاعة لصاحبكم فلا نراها. إن صاحبكم قتل خليفتنا، وفرقِ جماعتنا ومنع ثأرنا وآوى قتلتنا. وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله، فنحن لا نرى ذلك. أرأيتم قتلة صاحبنا؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم إلينا، فلنقتلهم به ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة».

وهكذا تفرقت الأمة وخيم شبح الحرب على الجميع، وراح كل واحد يعد

---

(١) نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص٥٢.
(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الخامس، ص١٣٠.
الآبي، نثر الدر، الجزء الثاني، ص٨١.
(٣) B.I. Leyde - Paris, T. III. p 659.
(٤) أنيس زكريا، الدولة الأموية في الشام، ص١٣.
محمد الخضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الجزء الثاني، ص٦٢.

العدة لصاحبه، بعد أن عبأ جماعته. فأهل العراق ومن معهم من المهاجرين والأنصار يرون أن كثرة المسلمين الضخمة قد بايعت علياً في الحرمين والمصريين في مصر أيضاً فأصبحت طاعته واجبة، وأصبح أهل الشام طائفة باغية يجب أن تقاتل حتى تفيء إلى أمر الله[١]. وسار علي من الكوفة إلى جهة معاوية، وقدم عليه عبد الله بن عباس، ومن معه من أهل البصرة فقال بذلك علي رضي الله عنه[٢].

لأُصْبَحَنَّ العَاصَ وابنَ العَاصي ... سَبْعِينَ أَلفاً عَاقِدِي النَّواصِي

في حين ذكر رجل من أصحاب علي في كتاب إلى معاوية[٣].

أُثبتْ مَعَاوِي قَدْ أَتَاكَ الحَافِلُ ... تِسْعُونَ ألفاً كُلُّهُم مُقَاتِلُ

عَمَّا قليلٍ يَضْمَحِلُّ البَاطِلُ

أما جيش معاوية والمتفق عليه من الجميع فهو خمسة وثمانون ألفاً وسار معاوية من دمشق بأهل الشام واجتمعت الجموع بصفين.

كما علت أصوات الشعراء من هذا الفريق وذاك مندذة بخصمها فهذا نابغة بني جعدة يخرج مع علي إلى صفين قائلا[٤]:

قَدْ عَلِمَ المِصْرَانِ والعِرَاقُ ... أَنَّ عَلِيًّا فَحْلُهَا العُتَاقُ

لَهُم سِيَاقٌ ... قَدْ عَلِمَتْ ذَلِكُم الرِّفَاقُ

سُقْتُمْ إلى نَهْجِ الهُدَى وَسَاقُوا ... إلى التي ليسَ لَها عِرَاقٌ

فِي مِلَّةٍ عَادَتُها النِّفَاقٌ

ولم يكن أنصار معاوية أقل تمسكاً من علي بما يرونه حقاً وديناً فقد كان شعارهم[٥] نحن عباد الله ـ حقاً حقاً لثارات عثمان. ولقد بالغ أنصار معاوية ودون ريب في ولائهم له. وبالمقابل كان معاوية يحسن سياستهم فاتخذهم دون أدنى شك وعن عمد شيعة له وأنصاراً. وكانوا يرون الطلب بثأر عثمان حقاً لهم لذلك لم يستطيعوا الامتناع عن تأييده. وهبوا إلى نجدته والقتال إلى جانبه يوم صفين وكان

(١) طه حسين، علي وبنوه، الفتنة الكبرى، القاهرة ١٩٥٣، ص٧٠.
(٢) عماد الدين إسماعيل أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة بيروت، الجزء الأول، ص١٧٥.
(٣) المسعودي، مروج الذهب، الجزء الثاني، ص٣٨٤.
(٤) الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب، الجزء الخامس، ص١٦٧٤.
(٥) نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص٦٨.

معاوية قد عقد لعمرو بن العاص على جميع جنده فصفهم هذا الأخير خمسة صفوف ووقف أمامهم يرتجز(١).

يَا أَيُّهَا الجَيْشُ الصَّلِيبُ الأَيْمَانْ ... قُومُوا قِيَاماً، فَاسْتَعِينُوا الرَّحْمَنْ

إِنِّي أَتَانِي خَبَرٌ فَأَبْكَانْ ... أَنَّ عَلِيًّا قَتَلَ ابْنَ عَفَّانْ

رُدّوا عَلَيْنَا شَيْخَنَا كَمَا كَانْ

فأهل الشام يقاتلون طلباً للثأر معتبرين أن علياً هو القاتل معتمدين إثارة الحمية الجاهلية بين الجيوش مستغلين إخلاص أهل الشام ووفاءهم.

وابتدأت الحرب سجالاً بين الفريقين بعد عدة مراسلات ولكن دفة الحرب سرعان ما مالت لصالح علي وهنا استنجد معاوية(٢) بعمرو بن العاص بقوله له: هلم مخبآتك يا ابن العاص فقد هلكنا وتذكر ولاية مصر ولكن جواب ابن العاص تمثل بقوله(٣):

مُعَاوِيَ لاَ أُعطِيكَ دِينِي ولَمْ أَنَلْ ... به مِنْكَ دُنْيَا فَانْظُرَنْ كَيْفَ تَصْنَعُ؟

وَلَكِنَّنِي أُعطِيكَ هَذَا وَإِنَّنِي ... لأَخْدَعُ نَفْسِي، والمُخَادِعُ يُخْدَعُ

وَمَا الدِّينُ والدُّنيا سَوَاءٌ وإنَّنِي ... لآَخُذُ مَا تُعْطِي ورأسي مُقَنَّعُ

فَإِنْ تُعْطِنِي مِصْراً فأَرْبَحَ صَفْقَةً ... أَخَذْتَ بِهَا شَيْخاً يَضُرُّ وَيَنْفَعُ

فمصر غدت طعمة لابن العاص وكان طبيعياً أن يقدم الثمن الذي تستحقه فلجأ إلى حيله المعهودة وصاح في الناس: «أيها الناس من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه» فكثر في الجيش رفع المصاحف وارتفعت الضجّة وفي ذلك يقول النجاشي(٤):

فَأَصْبَحَ أَهْلُ الشَّامِ قَدْ رَفَعُوا القَنَا ... عَلَيْهَا كِتَابُ الله قُرَانِ

وَنَادُوا عَلِيًّا يا ابنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ ... أما تَتَّقِي أنْ يَهْلِكَ الثَّقَلاَنِ

---

(١) الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٨٠.

(٢) جاء في الطبري أن عمرو بن العاص كان قد صالح معاوية حين بايعه على قتال علي بن أبي طالب على أنّ له مصر طعمة ما بقي، الجزء الخامس، ص٥٦.

(٣) اليعقوبي، تاريخ الجزء الثاني، ص١٣٢.
ابن عبد ربه، العقد الفريد، الجزء الرابع، ص٣٤٥.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السادس، ص٢٦.
المسعودي، مروج الذهب، الجزء الثاني، ص٤٠٠.

ولما رأى كثير من أهل العراق ذلك قالوا[١] نجيب إلى كتاب الله.

وأحب القوم الموادعة ورضخ علي مدفوعاً بضغط من رفاقه في السلاح على القبول بالتحكيم الذي اقترحه معاوية.

وهكذا طرح معاوية هذه الفكرة كمخرج من الحرب الأهلية الطاحنة وكمقدمة لهزيمة أكيدة لاحقة بالأمويين، وأدى هذا التحول في نوعية المنازعات إل صراع سياسي. كان من أولى نتائجها تمزيق وحدة الصف في جيش علي وتأليب حلفاء الأمس إلى أعداء اليوم فهذا فروة بن نوفل الأشجعي يذكر أمر التحكيم وفراقهم لعلي. يقول[٢]:

كَرِهْنَا أَنْ نُرِيقَ دماً حلالاً ... وَهَيْهَاتِ الحَرَامُ مِن الحَلاَلِ
نُقَاتِلُ مَنْ يُقَاتِلُنَا ونَرْضَى ... بِحُكْمِ الله لا حُكْمِ الرِّجَالِ
وَفَارَقْنَا أَبَا حَسَنٍ عليّاً ... فَمَا مِنْ رَجْعَةٍ أُخرى الليالي
فحكَّمَ في كتاب الله عمراً ... وذاكَ الأَشْعَرِيَّ أَخَا الضَّلالِ

والمسألة تجاوزت الإعتبارات الشخصية إلى مركز الزعامة في العالم الإسلامي هل يكون في العراق أو في الشام أو في مدينة الكوفة أو في مدينة دمشق، أما المدينة المنورة فلم تكن في الحسبان ذلك لأن الفتوحات أحالت العاصمة الدينية إلى مقام فرعي[٣].

ومارس معاوية سياسة الإغراء في كسب ولاء أبي موسى الأشعري فكتب إليه قبل بدء التحكيم قائلاً[٤]: «أما بعد فإن عمرو بن العاص قد بايعني على ما أريد وأقسم بالله، لئن بايعتني على الذي بايعني عليه لأستعملن أحد بنيك على الكوفة والآخر على البصرة، ولا يغلق دونك وتفضي دونك حاجة، وقد كتبت إليك بخط يدي فاكتب إليّ بخط يدك».

اتبع معاوية سياسة الإغراء بالمال والإقطاع لجذب المناصرين، وقد أراد بهذه

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السادس، ص٢٧.
(٢) إحسان عباس، شعر الخوارج، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٤، ص٤٣.
(٣) فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان، الجزء الثاني، ص٣٢.
(٤) الذهبي، تاريخ الإسلام، ص٢٥٨.

السياسة زعزعة الصف المعادي وجمع الأنصار والموالي حول البيت السفياني كذلك حاول معاوية إغراء قيس بن سعد حين كتب إليه أيضاً[١]: «وإن استطعت يا قيس أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل تابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين إذا ظهرت ما حييت، ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان وسلني غير هذا مما تحب فإنك لا تسألني شيئاً إلا أوتيته واكتب إليّ برأيك فيما كتبت به إليك والسلام».

واتبع معاوية هذه السياسة في كسب المؤيدين لصفه بإغرائهم بالمناصب العالية وفي تأليب أتباع علي وزرع الشك في نفوسهم بتحميله مسؤولية القتل.

هذا لا يعني أن العالم الإسلامي قد انقسم قسمين بين علي ومعاوية بل إن هناك غالبية من الناس اعتزلت القتال ولم تنفع معهم سياسة معاوية في الإغراء. فهذا معاوية يجعل لأيمن بن حزيم ناحية من فلسطين على أن يبايعه فيأبى ويقول[٢]:

لَسْتُ بِقَاتِلٍ رَجُلاً يُصَلِّي ... عَلَى سُلْطَانِ آخَرَ مِنْ قُرَيْشِ

لَهُ سُلْطَانُهُ وَعَلَيَّ إِثْمِي ... مَعَاذَ اللهِ مِنْ سَفَهٍ وَطَيْشِ

أَأَقْتُلُ مُسْلِماً فِي غَيْرِ حَقٍّ ... فَلَيْسَ بِنَافِعِي مَا عِشْتُ عَيْشِي

فمعاوية دون ريب كان في نفسه عظيماً من عظماء قريش، وحق له الوقوف أمام علي موقف الند للند. فمسألة التحكيم وضعت علياً في قفص الاتهام فالتحكيم ساوى بين الرجلين. ولاح لمعاوية أمل الانتصار وأشرقت علامات الفرح على وجهه عندما علم تحكيم عمرو بن العاص فقال له على سبيل النصح والإرشاد: «يا عمرو إنّ أهل العراق قد أكرهوا على أبي موسى فأجد الحز وطبق المفصل ولا تلقه برأيك كله»[٣]. وبدأت المفاوضات بين الحكمين واستدرج عمرو أبا موسى إلى الإفصاح عن رأيه بقوله[٤]: «أرى أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا. فقال عمرو الرأي ما رأيت».

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الخامس، ص٢٣٨.

(٢) الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٩٤.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الأول، ص١٧٢.

المسعودي، مروج الذهب، الجزء الثاني، ص٤٠٩.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء الثالث، ص٣٣٢.

الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السادس، ص٣٢.

واتفق على اجتماع الحكمين في دومة الجندل[١] «يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة ٣٧هـ على أن يوافي على موقع الحكمين بدومة الجندل في شهر رمضان عليّ ومعاوية ومع كل واحد منهما أربعمائة من أصحابه وإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا في العام القادم بأذرح»[٢]:

رَضِينَا بِحُكْمِ اللهِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ ... وَعَمْرٌو وَعَبْدُ اللهِ مُخْتَلِفَانِ

ولَيْسَ بِهَادِي أُمَّةٍ مِنْ ضَلاَلَةٍ ... بِدَوْمَةَ، شَيْخَا فِتْنَةٍ عَمِيَانِ

بَكَتْ عينُ مَنْ يَبْكي ابنَ عَفَّانَ بَعْدَما ... نَفَا وَرقُ الفُرقَانِ كُلَّ مَكَانِ

ثَوَى تَارِكاً لِلْحقِّ مُتَّبَعِ الهَوَى ... وَأَوْرَثَ حُزْناً لاَحِقاً بِطِعَانِ

كِلاَ الفِتْنَتينِ كَانَ حَيًّا وَمَيِّتاً ... يَكَادان لَوْلاَ القَتْلُ يَشْتَبِهَانِ

ويميل المؤرخون إلى الاعتقاد أن الذي جرى هو أن كلا من الحكمين خلع كلا الزعيمين[٣] وهذا مؤداه أنَّ علياً وحده هو الذي خلع إذ لم يكن معاوية خليفة بعد. فقرار الحكمين أزال علياً عن منصب فعلي، في حين أنه أقصى معاوية عن ادعاء وهمي لم يكن قد تجاسر على المجاهرة به.

لم يرض علي بالحكم الذي تأكد له أنه مخالف للكتاب وللسنة، اللذين عهد بهما إلى الحكمين أن يحكما بموجبهما. ورضي به معاوية طبعاً لأنه أقل ما في الحكم أنه ليس الأمر لعلي وصار الأمر للناس يولون من شاؤوا وعنده جند عظيم يختارونه ولا يفضلون عليه أحداً[٤].

---

(١) دوحة الجندل، قرية تقع في مكان متوسط بين الكوفة ودمشق وعلى بعد متساو من علي ومعاوية، ياقوت: معجم البلدان.

(٢) أذرح، هي في الشام وليست متوسطة بين الفريقين وبينها وبين دومة الجندل تسع فراسخ، معجم البلدان المادة نفسها.

(٣) فيليب حتي، تاريخ سوريا، الجزء الثاني، ص٣٣.

(٤) محمد الخضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الجزء الثاني، ص٧٣.



الفصل الثاني

معاوية أول الخلفاء الأمويين

التمزق والتشرذم في الأمة الإسلامية كانا نتيجة أولية للتحكيم. إذ راح كل من الخصمين يعمل على تحاشي التصدع في صفوف مؤيديه ولا يسلم أحدهما الأمر للآخر. وعند ذلك بدأ أمر معاوية يقوى، وأمر علي يضعف، وخصوصاً عندما اعتزلته الخوارج، ولما دعاهم إلى الحق امتنعوا، وقتلوا كل من أرسله إليهم، فاضطر إلى قتالهم، وهم بزعامة عبد الله بن ذهب الراسبي، ولما رجع إلى الكوفة حض الناس على المسير إلى قتال معاوية فتقاعدوا وقالوا نستريح ونصلح عدتنا[١] غير أن هذه الظروف المستجدة انعكست إيجاباً على جيش معاوية الذي لملم أشلاءه، واستجمع قواه وراح معاوية يوطىء لنفسه طريق الخلافة. فعمد إلى التغرير برؤساء القبائل وأغدق عليهم الأموال الطائلة.

وكذلك فعل بأولياء الأمر في الحجاز فمال هؤلاء إلى اللهو والمجون[٢] وهدف معاوية من ذلك واضح وجلي وهوتحقيق أطماعه وطموحاته إذ كان يردد كثيراً[٣] كما جاء في أطروحة إشكالية العلاقة (ما زلت أطمع في الخلافة منذ قال رسول الله: يا معاوية إذا ملكت فاسجح) فراح يتربص بعلي ويستغل الفرص المؤاتية للإيقاع به ولزرع الشقاق في صفوفه وتتابعت غاراته على أرض علي فجهز عمرو بن

---

(١) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، الجزء الأول، ص١٧٨.

(٢) إيليا حاوي، فن الخطابة وتطوره عند العرب، دار الثقافة بيروت، لاط، لاتا، ص١٧٧.

(٣) إبراهيم بيضون، إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية، ص٢١٠.

العاص بعسكر إلى مصر، تنفيذاً لبنود الاتفاقية المعقودة بينهما فقاتل أصحاب محمد بن أبي بكر فهزمهم وتفرق عن محمد جماعته واستأثر عمرو بخيرات مصر وحين كتب معاوية إلى عمرو يسأله أن يعطيه بعض خراج مصر لأن زوار أهل العراق قد كثروا عليه رفض ابن العاص وأجابه بقوله[1]:

مُعَاوِيَ إنْ تُدْرِكْكَ نَفْسٌ شَحِيحَةٌ ... فَمَا وَرَّثَتْنِي مِصْرَ أُمِّي وَلاَ أَبِي

وَمَا نِلْتُهَا عَفْواً وَلَكِنْ شَرَطْتُهَا ... وَقَدْ دَارَتِ الحَرْبُ العَوانُ عَلَى قُطْبِ

وَلَوْلاَ دِفَاعِي الأشْعَرِيَّ وَصَحْبَه ... لأَلْفَيْتَهَا تَرْغُو كَرَاغِيَةِ السَّقْبِ

وهذا دليل قاطع على أن الحيلة وحدها هي التي أوصلت كلا الرجلين عمرو ومعاوية إلى تلك المنزلة الرفيعة وجعلتهما على عتبة المجد والسؤدد وهكذا دخل عمرو مصر وبايع أهلها لمعاوية كما بعث معاوية النعمان بن بشير الأنصاري إلى عين التمر وسفيان بن عوف إلى هيت والأنبار والمدائن وعبد الله بن مسعده الزراري إلى الحجاز. وكانت أهداف هذه الغارات القتل والنهب[2] وهي أشبه بالإبر المسمومة تنخر في جسم دولة علي بن أبي طالب وتثبط همته وتحول دون بناء قوته العسكرية.

ولم تكن الحالة الاجتماعية أقل اضطراباً من الحالة السياسية. فالعصبية القبلية عادت تستعر ويشتد أوارها من جديد. فهذا معاوية يضطر إلى أن يترضى أهل اليمن ويرضخ لمطالبهم وينزع عنهم من أمرهم عليهم من الحضريين بناء على خطاب عبد الله بن الحارث السكوني الذي قال[3]:

مُعَاوِيَ أَحيَيتَ فِينا الأحنْ ... وأحدثتَ في الشَّام مَا لَمْ يَكُنْ

عَقَدْتَ لبُسْرٍ وأَصحابِه ... وَمَا النَاسُ حَوْلَكَ إلا اليَمَنْ

فلا تَخْلِطَنَّ بِنَّا غيرَنا ... كما شِيبَ بالماء مَحْضُ اللَّبَن

وإلا فَدَعْنَا عَلَى مالِنَا ... وإنَّا إذا لَمْ تَهَنْ

وواضح من قوله أن جند معاوية كانوا من اليمنيين الذين تقززوا من قيادة بسر

---

(١) الدينوري، الأخبار الطوال، ص٢٢٢.

(٢) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، الجزء الأول، ص١٧٩.

(٣) إحسان النص العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٩٧٣، ص٢٠٩.

وأصحابه وحملوا معاوية على النزول والأخذ برأيهم. أما القبائل فقد انقسمت قبل ذلك في صفين وحمي الصراع فيما بينها كل واحدة منها تؤيد الحزب الذي يناهض القبيلة التي تعاديها. كما يتضح من قول علي بن أبي طالب في همدان وذكر نصرهم له يوم صفين. يقول[١]:

ولـمَّـا رأيـتُ تُـرْجِـمُ بـالـقَـنَـا نـواصـيُـهـا حُـمْـرُ الـنُـحـور دَوَامـي

ونـادى ابـنُ هـنـدٍ فـي الـكـلاَعِ وحـمْـيـر وكِـنْـدَة فـي لَـخْـمٍ وحـيِّ جِـذَام

تـيَّـمَـمْـتُ هَـمْـدَان الـذيـن هـمُ هـمُ إذا نـابَ دهـرٌ جُـنَّـتـي وسِـهـامِـي

وتتسارع الأحداث ويقتل الإمام علي في شهر رمضان يوم الجمعة لسبع عشرة خلت منه سنة أربعين للهجرة وبايع[٢] الناس ابنه الحسن الذي رأى أنه لا يستطيع الوقوف أمام معاوية لخذل العراقيين إياه. ولقوةِ الأمويين ودهائهم[٣]. فالحسن استقبل عالماً لا ينقاد إلى زعيم ومن المعلوم أن لا قوة معنوية[٤] لجيش فيه آلاف من الرجال يحملون الآلاف من المطامع والغايات. أمَّا الأسباب التي دعت الحسن إلى التنازل والتي جعلت الوفود تأتي إلى دمشق بأبناء علي والهاشميين وابن الزبير والأنصار وخصوم آخرين لمعاوية من المدينة وتعقد اجتماعاتها في أذرحِ فقد أتت بالبيعة الرسمية من الحسن بن علي. وأصبح معاوية صاحب السلطان في الأقاليم الإسلامية كلها وسمي ذلك العام بعام الجماعة[٥]. وكانت خلافة معاوية بداية عهد جديد عاشت الدولة العربية ما يقارب العشرين عاماً من السلام والازدهار في الداخل والانتصارات الحربية في الخارج. كان خلالها لا يعدم سمات الرجل الموهوب، موهبة حقيقية في الكلام، وله تقرير رفيع في الورطات وذهن خصب في مخارجه، قادر على توقع المستقبل وكماله ضمير على نصيب من السعة. لا يتراجع عن استعمال الحيلة في التخلص من أعدائه.

(١) القيرواني، العمدة الجزء الأول، ص٣٤.
(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السادس، ص٩٢.
(٣) اليعقوبي: تاريخه الجزء الثاني، ص١٥٦.
(٤) محمد جواد مغنية: الشيعة والحاكمون، ص٦١٦.
(٥) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السادس، ص١٨١.
ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ص٢٥٤.

وكان هم معاوية منذ تسلم سدة الخلافة أن يوطد أركان دولته ويدعم النظام والاستقرار والولاء للجماعة فعني بوضع أركان حزب سياسي قوامه الشعراء يغدق عليهم العطاء[١]، وأحسن اختيار ولاته من أصحاب الحزم ثم أطلق يدهم في أقاليمهم إلا فيما يمس السياسة العامة. وانطوت سياسة الأمويين على استغلال الروح القبلية فعادت العصبية قوية لجهة عنيفة. وكان لانبعاثها[٢] أثر في الاختلاف بين الأمويين والهاشميين أولاً ثم الاختلاف بين الخوارج وغيرهم ثانياً.

ومنذ ذلك التاريخ اعتبرت الخلافة السبب الرئيسي في تغيير القلوب إذ فرقت الأمة حين خرج علي بأهل العراق لملاقاة معاوية ومن معه من أهل الشام يوم صفين. فالخلاف بين الخصمين استحال إلى كفاح ونزاع أهلي داخلي بين أهل العراق وأهل الشام فهذا كعب بن جعيل نظم قصيدة وأرسلها إلى علي لما خيره هذا الأخير عبر رسوله جرير بن عبد الله بين البيعة والدخول في طاعته أو الإيذان بالحرب يقول[٣]:

أرَى الشَّام تكرهُ مُلْكَ العِرَاق ... وأهلُ العِراقِ لهُمْ كارِهُونَا

وكُلٍّ لِصَاحبِهِ مُبغضٌ ... يرى كُلَّ ما كان مِنْ ذاكَ دِينَا

إذا ما رَمونا رميْناهُم ... وَدِنَّاهُم مِثْلَ ما يقْرِضُونَا

وقالُوا عَلِيٌّ إمامٌ لَنَا ... فقُلْنَا رَضِينا ابن هندٍ رَضِينا

ومنذ أن اتخذ علي الكوفة حاضرة لخلافته والعراق يقوم بالدور الرئيسي المعارض للحكم الأموي. فعلى أرضه ومن أبنائه انبعث الحزب الشيعي وحزب الخوارج، ولم يندمج هؤلاء في وحدة الدولة الإسلامية التي التأمت من جديد بفضل جهود معاوية إلاّ كارهين مرغمين وكانوا ينظرون إلى الفترة القصيرة التي كانت فيها الكوفة لا دمشق حاضرة الإسلام وفيها من مال المسلمين ما يجعلها المثل الأعلى.

مبدأ الوراثة

إن أهم موضوع واجه معاوية في حياته السياسية هو موضوع السلطة فمنذ

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، الجزء الأول، ص١٣٩.
(٢) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب، الإسلامية، ص٢٠.
(٣) الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٦٠.

استئثاره بالخلافة اختط لنفسه منهجاً سياسياً معيناً في إدارة شؤون دولته. فقد ابتعد عن النهج القديم، الذي سار عليه الخلفاء الراشدون باعتماد الشورى قاعدة لاختيار الخليفة، ومال إلى نظام التوريث، وفي هذا النظام مخالفة علنية للقانون العربي بشأن انتقال السلطة، الذي حدد بقاء السلطة وسط ذرية أو قبيلة ولكن ليس في الأسرة الواحدة ودون أن يمر الانتقال من الأب إلى الابن.

وبحسب الإسلام لا ينبغي أن تؤلف السلطة[1] نوعاً من الملكية الإنسانية التي كان من الجائر أن يدعي بمطامع وراثية. كما أن لا أحد بإمكانه أن يجهل طائفة من المبادىء المتوارثة في المجتمع والمتمثلة في عدد من المفاهيم القبلية الإيجابية المتمكنة في النفوس، والتي طورتها الدعوة الإسلامية الجديدة وفق مبدأي الشورى والبيعة. وقد رأى معاوية أن مصلحته الشخصية تكمن في جوهرها في التآمر على المسلمين وحملهم على القبول بما أعده لهم من جعل الخلافة ملكاً.

ولجأ معاوية إلى استعمال كافة الطرق الدبلوماسية اللبقة في توطيد أركان دولته فأبقى النظم الإدارية في إمارته كما كانت أيام البيزنطيين بموظفيها وباتخاذه أحد نصارى الشام مستشاراً له، إلى جانب عنايته بمظاهر الأبهة التي يتمتع بها الملوك والقادة. فاستعان بأسرته، وبالقبائل المقيمة في بلاد الشام، وكان لا يتورّع عن استبدال أخلص ولاته بأحد أفراد أسرته المقيمة، إذ سرعان ما عزل عنبسة بن أبي سفيان واليه على الطائف وعين مكانه عتبة بن أبي سفيان وفي ذلك يقول[2] عنبسة مفتخراً بوالدته، معلناً أنها من نسلٍ كريمٍ وأنها تساوي هنداً حسباً ونسباً:

كُنَّا لحَرْبٍ صالِحاً ذاتَ بيْننا ... جميعاً فأمسَتْ فرَّقتْ بيْننا هِندُ
فإنْ تكُ هِندٌ لمْ تلِدْني فإنَّني ... لبيضاءَ يُشجِبْها غطارفةٌ مجْدُ
أبُوها أبُو الأضيافِ في كلِّ شتوةٍ ... ومأوى ضِعافٍ قدْ أضرَّ بها الجهْدُ

وسار معاوية بخطى وئيدة وبمنتهى الحيطة والدراية في سبيل توطيد (فكرة التوريث)، بأن أوصى إلى جميع عماله أن يمهدوا السبل لأخذ البيعة ليزيد متذرعاً بما في النظام الوراثي من حقن الدماء ودفن للفتنة واتقاء للنزاع الذي لا بد من أن

(١) LAMMENS YAZID pre. P.92.
(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، القسم الرابع، الجزء الأول، ص٤٠.

يحدث عند اختيار الخليفة، دون أن يأخذ بالاعتبار خرقه للعهد الذي قطعه على نفسه مع الحسن بن علي في أن تكون الخلافة شورى بعده. ولكن موت الحسن أزاح من أمام معاوية عقبة رئيسية وجعله في حل مما قطعه على نفسه من وعد(١).

واستعمل معاوية لتقرير سلطانه وتثبيت ملكه قوة سلاحه ودهائه، وقوة ماله في خلافته. وسلك مسلكاً مغايراً للخلفاء الراشدين إذ اتخذ من عادات الفرس وتقاليد الروم بعض أساليب الحكم ونهج منهجهم في أشكال السيادة والإدارة. ورغبة منه بصبغ هذه المبايعة بصبغة الشورى، أوعز إلى الخطباء والشعراء والولاة بأن يعلنوا أمر هذه البيعة في كافة المحافل على الملأ. ومن طريف تلك الخطب أن قام رجل من ذي الكلاع في دار معاوية والناس متحلقون حوله فقال(٢) هذا أمير المؤمنين، فإن مات فهذا وأشار إلى يزيد فمن أبى فهذا وأشار إلى السيف ثم قال:

مُعاويةُ الخليفةُ لا تُماري ... فإنَّ تهلكْ فسائِسُنا يزيدُ
فمن غلب الشقاءُ عليهِ جهْلاً ... تحكَّمَ في مفارقه الحديدُ

ولقد حدد ابن خلدون المسوغات التي دعت معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه بقوله(٣): «إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية. إذ بنو أمية يومذاك لا يرضون بسواهم وهم عصابة قريش وأهل الملة وأهل الغلب فيهم.

عمل معاوية بكل جهد للتمهيد لابنه يزيد بالولاية من بعده وللضغط على الرافضين لقبول الأمر الواقع. وتناسى مبدأ الشورى وعندما جلس بين أصحابه وأذن للوفود فدخلوا عليه. وقد تقدم إلى أصحابه أن يقولوا في يزيد فكان أول من تكلم الضحاك بن قيس فقال(٤): يا أمير المؤمنين إنه لا بد للناس من وال بعدك،

---

(١) العقاد، معاوية في الميزان، ص٥٧.
(٢) القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم، كتاب الأمالي، دار الكتب العلمية، بيروت طبعة ١٩٧٨، الجزء الأول، ص١٦٢.
وابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر، الجزء الأول، ص٣١.
(٣) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت الطبعة الرابعة ١٩٨١، ص٢١٠.
(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، الجزء الرابع، ص٣٧٠.

والأنفس يُغدى عليها ويراح وإن الله قال: «كل يوم هو في شأن» ولا ندري ما يختلف به العصران، ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن معدنه وقصد سيرته واستقامتها ومن أفضلنا حلماً وأحكمنا علماً، فولّه عندك واجعله لنا علماً بعدك وإنّا قد بلونا الجماعة والألفة فوجدناه أحقن للدماء وآمن للسبل وخيراً في العاجلة والآجلة».

وفي معرض التوطئة للمبايعة جيش الأدباء الموالين واستخدم كل إمكانياته المادية والمعنوية. وأضحى الأديب في ذلك العصر أشبه ما يكون بموظف دعاية وهو بحاجة إلى أن يشبع رغباته في إرجاء هذا العالم المادي المحسوس فتسارعت وفود الشعراء إلى معاوية معلنة رضاها عن بيعة يزيد وأطنبوا في القول رغبة في الحظوة لدى الخليفة.

انقسم المسلمون على أنفسهم فريقين كبيرين راضين بالبيعة وساخطين عليها[١].

١ ـ أما الذين ارتضوها فهم سكان الشام لإيثار معاوية لهم ولأنهم كانوا قد ألفوا النظام الملكي الوراثي ولأن النظام الجديد يكفل لهم بقاء الحكم في ديارهم ويعيد إلى إقليمهم سيادته على نفسه ويصيرهم سادة العالم الإسلامي.

٢ ـ أما الذين سخطوها فهم جمهور المسلمين وبخاصة أهل الحجاز وأهل العراق. ففي الحجاز قرشيون أولى بالخلافة من يزيد وأنصار يؤثرون علياً ويشايعونه، وبالعراق متمردون على بني أمية من خوارج وشيعة.

ووسط هذا الجو المحموم، لم يجد معاوية بديلاً عن الرضوخ لتنفيذ مطالب بعض وجهاء الناس الذين ضاقوا ذرعاً بتآمر يزيد بن معاوية عليهم بالرغم من مجونه وفسقه. وبلغت الجرأة بسعيد بن عثمان أن دخل على معاوية[٢] معاتباً ولائماً إياه على هذا التوريث معتبراً نفسه أحق منه حسباً ونسباً وأولى بالخلافة منه. فما كان من معاوية إلا أن ترضاه[٣] بالحسنى واللين وأقنعه بصحة ما ادعاه بشأن الولاية وبأنه كان سيفهم البتار في طلب الثأر.

---

(١) القيرواني، أدب السياسة في العصر الأموي، ص٢٢.
(٢) الأغاني، الجزء الثامن عشر، ص٢٦١.
(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السادس، ص١٧١.

وإزاء هذا الرفض الصريح والمعلن لم تفت عزيمة معاوية بل بقيت صامدة. وخرست كافة أصوات المعارضة إذ تابع معركته واستغل في سبيل ذلك نظام الدين ليعطي لدعوته زخماً قوياً، بحجة المحافظة على وحدة الجماعة. غير أن ذلك الإسناد في ولاية العهد لم يلاق إلاّ رفضاً قاسياً وخصوصاً من كبار الصحابة[١] مثل: الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن أبي بكر.

وعلت الصيحات من هنا وهناك منددة بولاية يزيد ساخرة منها واتسعت ثورة الغضب حتى شملت معظم الناس وخصوصاً أبناء الطبقة الأرستقراطية الذين لم يرضوا بالتنازل عن حقوقهم عن طيب خاطر واضطروا إلى خوض الكفاح المسلح لإثبات حقوقهم.

فها هو عبد الرحمن بن أبي بكر يرفض المبايعة علناً مجيباً رداً على خطاب مروان في المدينة قائلا[٢] له: لا تحدثوا علينا سنة الروم كلما مات هرقل قام مكانه هرقل.

وهذا هو عبد الله بن همام السلولي لا يجد غضاضة في تصوير المذهب الذي ابتدعه معاوية تصويراً شنيعاً حاملاً على البيعة حملة شعواء يقول[٣]:

فإن تأتوا برَملة أو بهندٍ ... نبايعها أميرة مؤمنينا
إذا مَا مات كِسرى ... نعدُّ ثلاثة مُتناسِقينا
أيا لهفا لو أنَّ لنا رِجالاً ... ولكنَّا نعودُ كَمَا عَنينا
إذاً لضُربتُم حتَّى تعُودوا ... بمكَّةَ تلعقُون بها السَّجينا
حُشينا الغيْظَ حتى لو شرِبْنا ... دمَاء بني أميَّةَ مَا رَوينَا

وأصبح هؤلاء هم الرافضون على الانتقال الخلافة وفق المبدأ الوراثي كالقيصرية أو الكسروية[٤]. أي الانتقال إلى حكم زمني متأثر بأسباب دنيوية ومطبوع بالعظمة وحب الذات بدل الاحتفاظ بتقوى النبي.

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السادس، ص١٧٠.
(٢) القالي، النوادر، ص١٧٨.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، القسم الرابه، الجزء الأول، ص٦٤.
(٤) القيصرية والكسروية رمزان لنوع الحكومات عند الروم والفرس وقت ظهور الإسلام.

وأثار هذا الأمر أيضاً حفيظة عبد الله بن الزبير إذ راح يستعد للمعارضة العسكرية وساعده في ذلك سياسة الأمويين إذ كانت عربية[1] وقد أثارت في نفوس الموالي سخطاً عليهم وتربصاً فيهم حتى ساعدوا القيسيّة على إسقاط الأمويين. وتجاه أولئك ناضل معاوية بمختلف الوسائل المادية والمعنوية المتوافرة لديه وشكل بكرمه وعطائه حزباً سياسياً قوياً قوامه الشعراء للدفاع عن شرعية البيعة وجمع الأنصار حول سلطة الخلافة المركزية والدعاية لها والهجوم على خصومهم من أجل إفشال مخططاتهم الرامية إلى إسقاط النظم الداعية إليها وتفريق الموالين عنهم قبل أن يستفحل أمرهم ويشكلوا خطراً حقيقياً يتهدد سلامة الدولة. وكون الحجاز الأرض الصلبة لتجمعات الخصوم المناوئين للساسة السفيانيين لأسباب عدة منها:

١ ـ فقده زعامته السياسية منذ وصول السفيانيين إلى السلطة ورغبته في جمع قيادة الأمة الإسلامية والدينية والزمنية إليه.

٢ ـ بعده عن أعين الرقباء وعن مركز القوة العسكرية المتنامية وبالتالي فالفرصة مهيأة أمام أبنائه لتشكيل تكتلات أو أحزاب في منأى عن أعين السلطة.

٣ ـ لكون أكثر الصحابة الطامحين إلى السلطة مقيمين على أرضه

وعمل معاوية على امتصاص نقمة بقية القبائل المعارضة للحكم الأموي بأن ضرب بعضها ببعض، موقعاً بينها الخلاف بتحريك عصبيتها القبلية، كما أغدق على أصحاب الرأي النافذ في الإسلام من أهل الكوفة والبصرة والحجاز الأموال الطائلة محاولاً أنْ يصرفهم عن السياسة أو يخفت صوتهم فيها، فحين سأل عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يوم وفد إليه (كم[2] دينك يا ابن جعفر؟ فقال ألف ألف درهم. فقال معاوية: يا سعد أقضها عنه). فغضبت قريش وقالت تظن معاوية هائباً لابن جعفر فقال معاوية مبرراً عمله:

تقولُ قريشٌ حين خفَّتْ حُلُومها ... تظُنُّ ابن هندٍ هائباً لابن جعفرِ
... فقلت دعوا لي لا أباً لأبيكُمْ ... فما منكم فيضي له غير أعْورِ

---

(١) أحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسي، ص١٦٢.
(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تراجم حرف العين (عبد الله بن جابر، وعبد الله بن الزبير)، ص٣٥.

أَلَيس فتى البطحاءِ ما تنكرونَه وأولُ منْ أثْنى بتقواهُ خِنْصري؟
وكان أبوهُ جعفرٌ سادَ قومَهُ ولم يكُ في الحرب العوانِ بحيدرِ
فما ألفُ ألفٍ فاسْكتوا لابن جعفرٍ كثيرٌ ولا أمثالها لي بمنكرِ

وهكذا هيأ معاوية سبل النجاح لولاية العهد ولنسمعه في وصيته لابنه يقول: «لقد مهدت لك الأمر ولم يبق أحد لم يبايعك إلا هؤلاء الأربعة[1]. فأما عبد الرحمن بن عوف فرجل كبير. إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم وليس له همة إلا في النساء واللهو. وأما الحسين فله قرابة من رسول الله فإن ظفرت به فاصفح عنه فإن له رحماً وحقاً عظيماً. وأما ابن الزبير فإن ظفرت به فقطعه إرباً إرباً».

وبيعة هؤلاء كانت شغل يزيد الشاغل، وهمه الأكبر وقد رأى في قرارة نفسه أن الحكم يحتاج إلى الدهاء والقوة أكثر مما يحتاج إلى الورع والتقوى. فلم يقبل منهم المسايرة والمداورة فكتب[2] إلى عامله على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان يأمره أن يأخذهم بالبيعة شديداً لا رخصة فيه. وذلك مخافة أن يظهر الخلاف ويستفحل أمرهم فيصبحوا خطراً عليه وعلى سلطته وهذا ما دفعنا إلى التعرف على الشخصية السفيانية التالية، التي أثير حولها الكثير من الشكوك في عدم صلاحيتها للخلافة ـ أعني شخصية يزيد بن معاوية.

خلافة يزيد بن معاوية:

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان... ولد سنة ٢٦ هجرية من أم مسيحية هي ميسون[3] بنت بحدل بن أنيف بن دلجة بن قنانة بن عدي بن زهير بن حارثة بن جناب وكانت سيدة بدوية لم تحتمل عيشة المدن والحضارة، إذ طلبت من معاوية أن يردها إلى البادية ففعل وبها ربت ابنها تربية بدوية خالصة إذ تعلم الفصاحة[4] ونظم الشعر هناك في بادية بني تغلب في الشام. فنشأ فتيان قريش فصيحاً[5]

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السادس، ص١٧٩.
(٢) الدينوري، الأخبار الطوال، ص٢٢٧.
(٣) المصعب الزبير، نسب قريش، ص١٢٧.
(٤) التوحيدي، البصائر والزخائر، الجزء الرابع، ص٢٦٦.
(٥) طلس، عصر الإتساق، ص٣٢.

قوياً وشاعراً بارعاً وكان له ذوق موسيقي إذ كان يحب الغناء ويطرب للموسيقى، وقد طلب المغنين من المدينة فذهبت[١] إليه عزة الميلاء. وكان أول[٢]، من سن الملاهي في الإسلام من الخلفاء وأدنى المغنين، وأظهر الفتك وشرب الخمر وكان ينادم عليها سرجون مولاه والأخطل.

ومن أخبار مجونه أنه لما وضع في خلافة أبيه جلس في المدينة على شراب فاستأذن[٣] عليه عبد الله بن عباس والحسين بن علي فلما دخلا وفدتْ عليهما رائحة الطيب فسأله الحسين: مما هذا يا ابن معاوية. فقال يا أبا عبد الله هو طيب يصنع لنا بالشام، ثم دعا بقدح فشربه، ثم دعا بقدح آخر فقال: وأسق أبا عبد الله يا غلام. فقال الحسين لا عين عليك مني فشرب وقال:

أَلاَ يَـا صَـاحِ لِـلْـعَـجَـبِ ... دَعَـوْتُـكَ ثـمَّ لَـمْ تُـجِـبِ

إلـى الـفـتـيـان والـلَّـذَا ... تِ والـصَّـهْـبَـاءِ والـطَّـرَبِ

وَبَـاطِـيَـةِ مُـكَـلَّـلَـةْ ... عَـلَـيْـهـا سَـادَةُ الـعَـرَبِ

ومن أخبار طربه للغناء أن سائب خائر كان يقيم عنده فيخلع عليه ويصله وحين غناه[٤]:

يـا لَـلرِّجـال لـمظلـوم بِـضَـاعَـتُـه ... بِـبَـطْـنِ مَـكَّـةَ نَـأْيُ الـدَارِ والـنَـفْـرِ

إنَّ الـحَـرَامَ لِـمَـنْ تَـمَّـتْ حَـرَامَـتُـهُ ... وَلاَ حَـرَامَ لِـثَـوْبَـيْ لاَبِـسِ الـغَـدْرِ

فاعترته أريحية، فرقص حتى سقط، ثم قال اخلعوا عليه خلعاً، يغيب فيها حتى لا يرى منه شيء، فطرحت عليه الثياب والجبات والمطارف والخز حتى غاب فيها.

فهذه المزايا التي كان يتمتع بها يزيد هي صورة صارخة من مظاهر الفسق والفجور التي تعدم صاحبها الهيبة والوقار، إلى جانب كونها عوامل هدامة وبالرغم من هذه الخلال التي لا تؤهل للملك ولا حتى للرياسة فإن معاوية ما كان ليتردد في

---

(١) شوقي ضيف، الشعر والغناء، المدينة ومكة لعصر بني أمية دار المعارف، الطبعة الثالثة ١٩٧٦، ص١١٠.
(٢) LAMMENS. YAZID per, p.451.
(٣) الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب، الجزء الخامس عشر، ص٢٩٢.
(٤) الأصفهاني، الأغاني، الجزء السابع عشر، ص٣٠٠.

دفع يزيد إلى الواجهة وإظهاره على الساحة الإسلامية كقائد ورع من قواد الفتح والجهاد، وخصوصاً بعد تحول السلطة المركزية إلى الشام. وحين وجهه لغزو الروم أقام بدير سمعان ووجه الجنود وكانت غزوة الطوانة وهي بلد بثغور المصيصة فأصابهم الوباء فقال يزيد بن معاوية[١]:

أَهْونْ عَلَيَّ بِمَا لاقَتْ جُمُوعُهُم ... يَوْمَ الطُّوَانَّةِ مِنْ حُمَّى وَمِنْ مُوم
إذا اتَّكَأْتُ على الأَنْمَاطِ مُرْتَفِقاً ... بِدَيْرِ سِمعَانَ عِنْدِي أُمُّ كلْثُومِ[٢]

وولاه الحج مرتين وأرسله[٣] في الجيش الذي غزا القسطنطينية لأول مرة وكان معه في بعض غزواته أبو العيال وأصيب في تلك الغزوة جماعة من المسلمين من رؤسائهم وحماتهم وكانت شوكة الروم شديدة فكتب أبو العيال الهذلي إلى معاوية قصيدة قرأها وقرئت على الناس فبكى الناس وبكى معاوية بكاء شديداً لما جاء بها[٤]:

مِنْ أبي العِيَالِ أَخِي هُذَيْلٍ فَاعْلَمُوا ... قَوْلِي وَلاَ تَتَجَمْجَمُوا مَا أَرْسِلُ
أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بْنَ صَخْر آيَةً ... يَهْوِي إليه بِهَا البَرِيدُ الأَعْجَلُ
.. وَتَرَى النِّبَالَ تَصِيرُ في أَقْطَارِنَا ... شُمْساً كَأَنَّ نِصَالَهُنّ السُّنْبُلُ
وَتَرَى الرِمَاحَ كَأَنَّما هيَ بَيْنَنَا ... أَشْطَانُ بِئْرٍ يُوغَلُونَ وَنُوغَلُ

وأثار اختيار يزيد للخلافة سخطاً شديداً في أوساط المسلمين نظراً لسيرته السيئة وسلوكه المشين وقد وصفه وفد من أهل المدينة بأنه رجل ليس له دين يشرب الخمر ويعزف بالطنابير ويضرب عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسامر الفتيان وقد هجاه الشاعر ابن غدارة السعدي بعد موته بقوله[٥]:

---

(١) المصعب الزبيري، نسب قريش، ص١٢٩.
(٢) أم كلثوم هي بنت عبد الله بن عامر كانت تحت يزيد بن معاوية.
اليعقوبي، تاريخ، الجزء الثاني، ص١٦٦.
(٣) اليعقوبي، تاريخ، الجزء الثاني، ص١٦٦.
ابن حزم الأندلس جمهورة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف ١٩٧٧، ص١١٢.
(٤) الأصفهاني، الأغاني، لجنة نشر الأغاني، الجزء الرابع والعشرون، ص١٩٨.
(٥) البلاذري، أنساب الأشراف، القسم الرابع، الجزء الأول، ص٣٥٥.

أَبَنِي أُمَيَّةَ إِنَّ آخِرَ مُلْكِكُم جَسَدٌ بِحَوَّارِينَ ثَم مُقِيمُ
طَرَقَتْ مَنِيَّتُهُ وَعِنْدَ وَسَادِهِ كُوبٌ وَزِقٌّ رَاعِفٌ مَرْثُومُ

وكان هم يزيد حين ارتقى سدة الخلافة أن يأخذ البيعة من النفر الذين رفضوا مبايعته زمن والده وانتهج كأبيه سياسة الكرم في تملك الرعية بالعطاء وأورد على لسانه بشأن إكرام الزعماء الحجازيين لواليه[1]: «فإن أقروا بالطاعة ونزعوا عن غيهم، فلهم عليّ عهد الله وميثاقه. إن لهم عطاءين في كل عام ما لا أفعله بأحد من الناس طول حياتي عطاء في الشتاء وعطاء في الصيف ولهم عليّ عهد أن أجعل الحنطة عندهم كسعر الحنطة عندنا. والعطاء الذي يذكرونه أنه احتبس عنهم في زمان معاوية فهو عليّ إذ أخرجه إليهم وافراً كاملاً».

وحين لم يُجْدِهِ ذلك لجأ إلى الشدة والقسوة عوضاً عن اللين والرفق فنفرت منه النفوس حتى شيعة أبيه وبطانته، حاشا شرذمة من الخلعاء وأهل القصف والعزف ومعاقرة الخمور ومثل هؤلاء لا يقوم[2] بهم ملك ولا يعتز بهم مالك. فنتج عن ذلك النتائج المشهورة بل المصائب العظيمة والبلايا المؤلمة والتي تمثلت في مآس ثلاث: حادثة كربلاء ووقعة الحرة وحرق الكعبة.

حادثة كربلاء

أول محاولة جدية ضد الإستئثار الأموي بالسلطة كانت من قبل الحسين بن علي الذي رفض المبدأ الوراثي في الخلافة. والتقى موقفه الرافض لقضية الأستخلاف مع الاتجاه الثوري في العراق. فورد على الحسين مكاتبات أهل الكوفة يحثونه على السير إليهم ليبايعوه وذلك حين اجتمعت الشيعة في منزل كبيرهم سليمان[3] بن صرد الخزاعي الذي وصف بأنه سيد أهل العراق ورأسهم. وكان يزيد بالمرصاد لكل تحركاته إذ سرعان ما استبق الأمور حين بلغه عن النعمان بن بشير ما لا يرضيه بأن عزله وولى على الكوفة عبد الله بن زياد أمير البصرة الذي بطش بكل مؤيد للحسين.

---

(١) أنيس زكريا النصولي، الدولة الأموية في الشام، ص٦٨.
(٢) الحصيني، منتخبات التواريخ لدمشق، الجزء الأول، ص١٠٩.
(٣) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، الجزء الأول، ص١٨٩.

واحتاط كثيراً لقدوم الحسين إلى العراق وراح يحول دون وصوله إلى الكوفة والاتصال بشيعته وأنصاره وتتسارع الأحداث بسرعة مذهلة ولم يوافق ابن زياد على عرض[١] الحسين إذ سرعان ما نشبت المعركة بين الطرفين في الطف من أرض كربلاء في العاشر من محرم سنة ٦١هـ، فقتل أصحاب الحسين جميعاً دون أن يراعي في ذلك حسبهم ولا نسبهم وحز[٢] سنان بن أنس النخعي رأس الحسين وانطلق به إلى عبد الله بن زياد وهو يقول:

أوقِــز رِكــابِــي فِــضّــةً وذَهــبــاً ... فَـقَـدْ قَـتَـلْـتُ الـمَـلِـكَ الـمُـحَـجّـبَـا

قَـتَـلْـتُ خـيـرَ الـنّـاسِ أُمّـاً وأبـا ... وَخَـيـرَهُـم إذ يُـنْـسَـبُـونَ نَـسَـبَـا

ولطخت هذه الحادثة تاريخ يزيد بالسواد وأفسحت المجال أمام أولئك الساخطين عليه وعلى السلطة عندما تحقق لديهم أن يزيد هو الذي كتب إلى ابن زياد كما جاء في نسب قريش[٣]، «بلغني أن حسيناً سار إلى الكوفة وقد ابتلى به بلدك من بين البلدان وابتليت من بين العمال. وفيها تعتق أو تعود عبداً كما تعتبد العبيد» وبذلك ألبسوه تهمة القتل وعدوه في عداد المجرمين سفاكي الدماء. وفضحهم شعر المتوكل الليثي حين أبرز بشكل واضح فائدتهم في التخلص منه ومراوغتهم في التأسف عليه. حيث يحملهم تبعة المسؤولية إذ يقول[٤]:

قَـتَـلُـوا حُـسَـيـنـاً ثُـمّ هُـم يَـنْـعُـونَـهُ ... إنَّ الـزّمـانَ بِـأهـلِـهِ أطـوارُ

لا تَـبْـعَـدَنَ بـالـطـفّ قـتـلَـى ضُـيِّـعَـت ... وسَـقَـى مـسَـاكِـنَ هَـامِـهَـا الأمـطَـارُ

فالشكل المأساوي الذي انتهت إليه هذه الحادثة وحدت صفوف الشيعة وكثرت الحاقدين على الأمويين فكان هذا الحادث من أكبر العوامل في دكّ عرش الأمويين وتقويض دولتهم إذ ارتفعت على أثره الأصوات المنددة بضلالة آل حرب وسوء فعلهم وقبح سياستهم وجور سلطانهم. وسجل ذلك الشعر في صراحة وعنف تلك الأصوات وبصدق وأمانة أشار إلى مواقعها وتفاصيلها مصوراً مروق الأمويين وانتهاكهم لحرم الله كقول أبي دهبل[٥].

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السادس، ص٢٣٠.
(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السادس، ص٢٢٠.
(٣) المصعب الزبيري، نسب قريش، ص١٢٧.
(٤) المتوكل الليثي، ص٢٥٤.
(٥) الأغاني، دار الكتب، الجزء السابع، ص١٣٨.

تَـبِـيـتُ سُـكَـارَى مِـنْ أُمـيّـة نُـوَّمـاً وبـالـطَّـفّ قـتـلَـى مـا يَـنَـامُ حَـمِـيـمُـهـا
مَـا أفـسَـدَ الإسـلامُ إلاّ عـصـابـةٌ تـأمَّـرَ نَـوْكـاهَـا ودَامَ نَـعِـيـمُـهـا
فـصَـارتْ قَـنـاةُ الـديـن فـي كَـفِّ ظَـالِـمِ إذا اعْـوجَّ مـنـهـا جَـانِـبٌ لا يُـقِـيـمُـهـا

ولكن هذه الحادثة ما كانت لتمر بسلام إذ سرعان ما ثارت ثائرة الحجازيين وغيرهم من القبائل الذين وجدوا في رياسة قريش عليهم تسلطاً وإبادة لامتيازاتها الجاهلية التي كانت لها، كما فجرت في داخلها الأحقاد القبلية فأحسوا برغبة ملحة في التخلص من هذا الاستئثار بالأمور وترجموا نقمتهم عملياً في الإلتفاف حول ابن الزبير باعتباره أحد الشخصيات القادرة على الثأر وعلى وضع حد للأطماع السفيانية نظراً لما يتمتع به من صفات تؤهله للقيام بهذا الدور والإستجابة للضرورات الإجتماعية والسياسية[١].

وقعة الحرة

أخطر ما تعرض له الأمويون من الخصوم المنافسين من عبد الله بن الزبير الذي كانت دعوته أقرب إلى مفهوم الخلافة أيام الراشدين، إذ استحالت عنده القضايا السياسية إلى قضايا دينية وأخذ يحرض الناس بالمدينة على بني أمية وبلغ به الأمر أن[٢] قام بمكة خالعاً يزيد ثم دعا إلى نفسه وأخرج عامل يزيد.

والسبب في خلع أهل المدينة لبيعة يزيد، هو أن يزيد أسرف في المعاصي على حد قول عبد الله بن حنظلة بن الغسيل بقوله[٣]: «والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء. إنه رجل ينكح أمهات الأولاد والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة».

واستغل ابن الزبير ارتباك الأمويين على أثر مقتل الحسين فأخرج كافة بني أمية من المدينة وراح يستعد للقتال عندئذ أدرك يزيد أنه لا بد من القوة وأن سياسة اللين والموادعة قد فشلت في ترويض ابن الزبير. وجهّز لحرب أهل المدينة اثني عشر ألفاً

(١) التوحيدي، البصائر والذخائر، الجزء الثاني، ص٤٦٦.
(٢) اليعقوبي، تاريخ، الجزء الثاني، ص١٧٨.
(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٠٩.

وعلى رأسهم مسلم بن عقبة وأنشد يقول والرايات تمر وقد علا على نشر من الأرض وأحاطت به الجنود وراح يتفرس في وجوه جنوده حاثاً إياهم على الفتك بالملحد المنكر الذي خرج عن الجماعة وشق عصا الطاعة بقوله[١]:

أبْـلِـغْ أبـا بَـكْـرٍ إذا الأمـرُ انـبَـرَى ... وانـحـطَّـتِ الـرّايـاتُ مِـن وادي الـقِـرى
أَجَـمْـعَ سـكْـرانَ مـن الـقـوم تَـرى ... أم جَـمْـعَ يـقـظـان نَـفَـى عَـنـهُ الـكـرَى
يـا عَـجَـبـاً مِـن مُـلـحِـدٍ يـا عَـجَـبَـاً ... مُـخـادعٌ فـي الـديـنِ يَـقْـضُـو بِـالـقَـرَى

وأوصى[٢] حنظلة القائد العام للحملة بقوله: إن حدث لك حادث فاستخلف الحصين بن نمير السكوني. وقال له: ادع القوم ثلاثاً فإن أجابوك، وإلا تقاتلهم فإذا ظهرت عليهم فانتهبهم ثلاثاً، فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند فإذا مضت الثلاث فأكفف عن الناس.

وحين استبان لأهل الحجاز عزم يزيد على الإيقاع بهم راحوا يستعدون للمعركة. وكانت قد توصلت إلى تكتيل مختلف فئاتها في جبهة واحدة وذلك[٣] تحت شعار الدعوى إلى الشورى. واحتفر أهل المدينة خندق رسول الله الذي كان حفره يوم الأحزاب وشكوا[٤] المدينة بالحيطان[٥]، فقال شاعرهم مخاطباً يزيد مرمياً إياه بالضلالة والكفر وارتياب المعصيات والمنكرات:

إنّ فـي الـخَـنـدقِ الـمُـكَـلّـلِ بـالـمَـجـ ... ـدِ لَـضَـرْبـاً يـفُـورُ بـالـسَّـنـواتِ
لـسـتَ مـنّـا، ولـيـسَ خـالُـكَ مِـنّـا ... يـا مُـضِـيـعَ الـصّـلاةِ لـلـشَّـهَـواتِ
فـإذا مَـا قَـتَـلْـتَـنَـا فَـتَـنَـصّـرْ ... واشـرَبِ الـخَـمـرَ واتـركِ الـجُـمـعـاتِ

وهكذا استمد ابن الزبير شرعية ثورية من عصبية الحجازيين وعلى الأخص من المهاجرين. وحاصر مسلم المدينة من جهة الحرة من ظاهر المدينة وفتحها بعد معركة عنيفة فقتل خلق كثير وانتهكت بها الحرمات ونهبت الأموال ومات فيها الجم

---

(١) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٢٦٣.
(٢) الدينوري، الأخبار الطوال، ص٢٦٥.
(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السابع، ص١٢.
(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السابع، ص١٣.
(٥) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٢٦٣.

الغفيرمن الصحابة[١] وبايع من بقي من أهلها على أنهم[٢] «قِنٌّ» ليزيد وقد قطع رأس كل شخص كان يرفض الاعتراف على أنه عبد يزيد.

وعقب دخول بني أمية المدينة لم يبق دار إلا انتهبت إلا دار أسامة بن زيد بن حارثة، مولى رسول الله، فإن كلباً حمتها ودار امرأة من حمير فإن حمير حمتها. وكان أهل الشام يقاتلون أهل المدينة ويقولون يا يهود[٣].

واستبيحت المدينة ثلاثة أيام ونكل بأهلها. يقول عبد الله بن قيس الرقيات مصوّراً فواجع أهل المدينة[٤].

إنَّ الحَوادثَ بالمدينةِ قَد ... أوجَعتنِي وَقَرَعنَ مَروَتِيَهْ
والله أبرَحُ في مُقَدَّمَةٍ ... أهْدي الجُيُوشَ عَلَيَّ شِكَّيتَهْ
حتّى أُفَجّعَهُمْ بِإخْوَتِهِم ... وأسُوقَ نِسْوَتَهُم بِنِسْوَتِيَه

واعتبر دوزي في كتابه تاريخ إسبانيا أن وقعة الحرة قامت بسبب ثورة الأفكار الجاهلية على الأفكار الإسلامية وأن أهل الشام كانوا يريدون أن يثأروا من أهل المدينة الذين قتلوا آباءهم يوم بدر وغيرها. إنها ثورة الأرستقراطية الجاهلية المشركة على الأرستقراطية الإسلامية المؤمنة[٥] ولقد ظهرت هذه النزعة جلية في قول يزيد بن معاوية حين بلغه خبر وقعة الحرة فقد تمثل[٦] وهو يتأسف أن لا يكون مشركو قريش المقتولون يوم بدر شهدوا هزيمة المسلمين يوم أحد:

لَيتَ أشياخِي بِبدرٍ شَهِدُوا ... جَزعَ الخَزرجِ مِن وَقعِ الأَسَلْ
حِينَ ألقتْ بِقُباءٍ بَرْكَهَا ... واسْتَحَرَّ القتلُ في عَبدِ الأشَلِ
وقَتَلنَا الضِعفَ مِن أشرَافِهِم ... وأقَمنا مَيلَ بَدرٍ فاعْتَدَلْ

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السابع، ص١٣.
(٢) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٢٦٥.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، الجزء الأول، ص٣٢٧.
(٤) ديوان عبد الله بن قيس الرقيات، ص٩٨.
(٥) طلس، عصر الإتساق، ص٤٢.
(٦) البلاذري، أنساب الأشراف، القسم الرابع، الجزء الأول، ص٣٣.

حرق الكعبة ونهاية يزيد:

وعلى أثر النقمة العارمة في الحجاز من جراء وقعة الحرة وسياسة يزيد الجائرة التف أهالي الحجاز حول ابن الزبير أملاً في استعادة الخلافة إلى ديارهم واشتد طابع الصراع بين يزيد في صراع تثبيت نفوذ وإحقاق حقوق شرعية. فأمر[١] يزيد قائده مسلم بن عقبة بالسير إلى مكة فمات مسلم في الطريق فتولى قيادة الجند الحصين بن نمير السكوني.

والتهبت صدور الحجازيين بالحماس لابن الزبير واعتبروا بيعته كبادرة على استمراره في تحدِّي الخليفة الأموي. وفرض ذلك على سكان مكة أن يتحملوا حصاراً[٢] شديداً دام أربعين يوماً. أضف إلى أن آلات الحرب أمطرت وابلاً من الحجارة على الكعبة[٣] ومع الحجارة ناراً وقاراً ومشاقات لاهبة وانهارت الكعبة والتهم الحريق البناية المقدسة وفي هذه الأثناء وافت المنية[٤] يزيد فلما بلغ المقاتلين نعيه توقف القتال.

ومات يزيد تاركاً من الأولاد الكثيرين من أمهات شتى أنجبهم[٥]: عبد الله وعمرو وأمهما أم كلثوم بنت عبد الله بن عباس، إذ كان عبد الله ولده ناسكاً وولده خالد عالماً ولم يكن في بني أمية أزهد من ذاك ولا أعلم من هذا.

وإن كان لا بد من كلمة تقوم سيرة يزيد وعهد حكمه فنحن نقول إنه لم يكن بالأمير الطائش والملك اللامبالي، كما يتحدّث مؤرخو الوقائع الذين يستوحون أحقاد الشيعة. وبأنه قبيح الأثر في الإسلام. لا شك أن تلك الأحكام مبنية على الآثار السيئة التي خلفها، إذ أغرقت العالم الإسلامي في سلسلة من المآسي[٦]. لذلك لم يأسف المسلمون عليه. ويشهد على ذلك هذا البيت الذي أنشده بدوي على قبره وقال[٧]:

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السابع، ص١٤.
(٢) المرجع السابق، ص١٦.
(٣) LAMMENS. Le chantre des omayades P.118.
(٤) المسعودي، أنساب الأشراف، القسم الرابع، الجزء الأول، ص٣٥٤.
(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد، الجزء الرابع، ص٣٧٥.
(٦) اليعقوبي، تاريخ، الجزء الثاني، ص١٨٤.
(٧) المسعودي، مروج الذهب، الجزء الثالث، ص٦٣.

يـا أيُّـهـا الـقَـبْـرُ بـحـوارِيـنَـا ضَـمَـمْـتَ شرَّ الـنـاسِ أجْـمَـعِـيـنَـا

وبلغوا في ذلك حد اللعنة والسباب فكانوا يقولون عنه: هذا الملعون هذا الخليع قاتل الحسين حفيد رسول الله.

ولكن لامنس[١] يرد الاعتبار له لكونه صديقاً للخمر والشعر إذ ينبغي أن يقدر الشاعر الغنائي في مجتمع بلاد ما بين النهرين.

لا شك أن شخصية يزيد السياسية قد ظهرت على حقيقتها في تصديه للأحداث المتسارعة على الساحة وعدم ارتضائه بأنصاف الحلول. همه الأول الإحتفاظ بالخلافة وإقرارها في البيت السفياني. فقتل الحسين وضرب الكعبة وإحراق المدينة، وتورطه في العبث والمجون واستئثاره بالفيء، كل ذلك فرض على المسلمين موقفاً سلبياً من الحكم الأموي عموماً والهيمنة السفيانية خصوصاً فاستحلوا دماء بعضهم بعضاً ورمى كل فريق الآخر بالكفر والانقياد لأوامر الشيطان. وهكذا تضافرت عدة أسباب، عملت على شق الجماعة الإسلامية وحتى أبناء الحزب الواحد كما يتضح من موقف معاوية بن يزيد من خلافة أبيه وجده حيث اعتبر الأمر في غاية الحرج فآثر السلامة وتنازل عنها.

خلافة معاوية بن يزيد

إن قذف المدينة ورمي الكعبة بالمنجنيق أثار الحنق على يزيد فشكلت هذه الأحداث بداية نهاية الخلافة السفيانية لذلك ما كاد خبر وفاته يعلن على الملأ حتى سارت الأمور لصالح ابن الزبير ففترت حماسة أهل الشام لأنه لم يعد لهم إمام يقاتلون من أجله. ذلك أن يزيد مات دون أخذ البيعة منهم لأحد بعده. وصعب على الأمويين هذا الانهيار المفاجىء الذي أصابهم فاستجمعوا قواهم وولوا على أنفسهم أصلح فتيان بني أمية وهو معاوية[٢] بن يزيد وله يقول عبد الله بن همام السلولي محرضاً إياه على تسلم الخلافة بعد وفاة يزيد وقال[٣]:

---

(١) LAMMENS. Le chantre des omayades P.118.

(٢) هو معاوية بن يزيد بن معاوية... ويكنى أبا ليلى وأمه أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة، المصعب الزبيري، نسب قريش، ص١٢٨.

(٣) المصدر نفسه، ص١٢٩.

تَـلَـقَّـفَـهـا يَـزِيـدٌ عَـن أبـيـهِ فَـخُـذهَـا يَـا مُـعَـاويَ عَـن يَـزِيـدَا
فَـإن دُنْـيـاكُـم بِـكُـمْ اطـمـأنّـت فَـأولُـوا أهـلَـهـا خُـلْـقـاً سَـدِيـدا

ولي معاوية عهد أبيه[١] فبويع الخلافة في الرابع عشر من ربيع الأول لسنة أربع وستين وكان يزيد قد عقد له البيعة سلفاً وألزمه الفقهاء والرواة وصرف إليه وفود العرب فكان عند حسن ظن الوالد فأصبح مضرب مثل في الفصاحة والبلاغة[٢]. قال عنه ابن عباس «ما رأينا شاباً أصبح وجهاً ولا أفصح لساناً ولا أمد قامة من معاوية بن يزيد كما يروى أيضاً أنه لم يكن أحد من بني أمية يعدل بمعاوية بن يزيد في زمانه نبلاً ونسكاً»[٣].

وكان اختياره كارثة على الأمويين عامة وعلى السفيانيين خاصة إذ سرعان ما أظهر اعتراضه على مبدأ الوراثة وطالب بإعادة الخلافة شورى بين المسلمين ذلك أنه لما حضرته الوفاة قيل له. لو عهدت إلى رجل من أهل بيتك واستخلفت خليفة قال[٤]: «لم أنتفع بها حياً فلا أقلدها ميتاً. لا يذهب بنو أمية بحلاوتها واتجرع مرارتها. ولكن إذا مت فليصل علي الوليد بن عتبة وليصل الناس الضحاك بن قيس حتى يختار الناس لأنفسهم».

واحتج عليه بنو أمية وفي طليعتهم والدته عندما رفض استخلاف أحد من بني أمية بقولها له[٥]: «إني لوددت أنني حيضة» قال: أنا والله وددت ذلك.

والملاحظ أن اختيار المدرسة الحنيفية لمعاوية الثاني كان لغاية في أنفسهم حتى يفضح السفيانيين، ويحتج على بدعهم ولا سيما بعد أيام يزيد المشؤومة «جلاد أهل البيت»[٦].

---

(١) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، الجزء الأول، ص١٤٣.
(٢) المصعب الزبيري، نسب قريش، ص١٢٩.
(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق تراجم حرف العين، (عبد الله بن جابر وعبد الله بن زيد)، ص٢١٥.
(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السابع، ص٢٤.
(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد، الجزء الرابع، ص٣٩١.
(٦) طلس، عصر الإتساق، ص٤٩.

وسعى الحزب الأموي لاغتياله، وتضاربت الآراء في كيفية وفاته فقال[١] بعضهم دس إليه فسقي سما. وقال غيرهم أنه طعن. وقد مات لا عقب[٢] له وخلف البلاد في فوضى استمرت حوالي[٣] عشر سنين وأصبحت على شفير حرب أهلية مدمرة كما نستشف من قول أحد الشعراء[٤].

إنـي أرى فـتـنـة تـغـلـي مـراجـلـهـا　　والـمـلـك بـعـد أبـي لـيـلـى لـمـن غـلـبـا

فتوفي في دمشق ودفن بها وبذلك أسدل الستار على حياة السفيانيين السياسية إذ انتقلت الخلافة إلى البيت المرواني الذي قطع الطريق على بقية أبناء السفيانية الطامعين إليها والمتطلعين بكل جدارة إلى توليها وخصوصاً خالد بن يزيد.

خالد بن يزيد ونهاية البيت السفياني

أسدلت خلافة معاوية الثاني على العالم الإسلامي ستاراً كثيفاً من الغموض، إذ على أثر وفاته اجتمع بنو أمية ومن يميل إليهم من رؤساء الشام فتشاوروا في عقد الأمر لخالد[٥] بن يزيد. وأبى آخرون إلا أن يعقد الأمر لمروان إذ كان خالد صبياً[٦]. واتفق الناس[٧] عندما رأوا أن يبايعوا الكبير «مروان بن الحكم» ويتشبثوا بالصغير «خالد بن يزيد بن معاوية».

وحسم الخلاف الأموي بعقد مؤتمر في الجابية بين دمشق وطبرية فأجمعوا على البيعة لمروان ثم لخالد بن يزيد من بعده، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص بعد خالد على أن إمارة دمشق لعمرو بن سعيد، وإمارة حمص لخالد بن يزيد، وكان

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السابع، ص٣٥.
(٢) ابن حزم الأندلسي جمهرة أنساب العرب، ص١١٢.
(٣) محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، مؤسسة الطبعة الثانية ١٩٨١، ص٤٦.
(٤) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٢٦٥.
(٥) خالد بن يزيد بن معاوية بن سفيان... توفي سنة ٨٥هـ وكان أول من عني بعلوم الفلسفة، وله معرفة بالكيمياء والطب وفنون كثيرة من العلم وله معرفة كبيرة في الصنائع. ألف رسائل حسنية في ذلك وله كتاب الجرارات وكتاب الصحيفة الكبير والصغير. وجمع مكتبة عظيمة في دمشق أخذ الصنعة عن رومي. توفي وعمره خمس وأربعون سنة. ودفن خارج باب الصغير بالجامع الأموي، الحصني، منتخبات التواريخ لدمشق، الجزء الثاني، ص٤٤٢.
(٦) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٢٦٦.
(٧) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السابع، ص٣٨.

طامعاً بالخلافة بعد وفاة أخيه معاوية الثاني، فغلبه على ذلك عبد الملك بن مروان[١]. وكان علامة من أئمة اللغة والشعر وربما قال الشعر. ومن قوله[٢]:

هَلْ أنتَ مُنْتَفِعٌ بِعِلْمِكَ مَرَّةً والعِلْمُ نَافِعْ

ويبدو أن رجل العلم غير مرغوب فيه في السياسة إذ تعوزه الحنكة السياسية وحلم معاوية وبطش يزيد. ذلك أن البلاد كانت بحاجة إلى رجل داهية قادر على لم شملها. وتوحيد أجزائها وإخضاعها لسلطة مركزية واحدة. لذا أحجم الناس عن بيعة هذا العالم واستطاع عبد الملك بدهائه ومكره السيطرة على مجريات الأمور، ونيل الحظوة عند أولياء الأمر. وبذلك انتقلت الخلافة من البيت السفياني إلى البيت المرواني، علماً بأن خالداً هو الذي وضع ذكر السفيانيين وكثره، وأراد أن يكون للناس فيه طمع، حين غلبه مروان بن الحكم على الملك.

وهكذا انتهت الخلافة السفيانية والفوضى السياسية على أشدها وانقسمت البلاد أحزاباً وشيعاً متعددة. الأمويون في الشام والشيعة بالكوفة والخوارج بالبصرة والزبيريون بالحجاز وكل حزب يريد التغلب على الآخر ليسوس الناس. أما السفيانيون فإنهم اضطروا إلى التسليم لمروان وجعلت تلك الأحداث ابن ذا السلطان «خالد» كأحد الزعماء السفيانيين.

وإن كان في النهاية لا بد من كلمة تقييم للساسة السفيانيين الذين استطاعوا بما اجتمعت لهم من صفات رئاسية أن ينشئوا دولة عصرية، لأن مثل هذا القول يتوقف على معرفة خصال السفيانيين السياسية التي فرضت عليهم مواقف لم تكن لدى الأعراب من قبل.

خصال السفيانيين السياسية

إن طموح أبي سفيان للسيادة ومن بعده ابنه معاوية وأحفاده، كان هدفاً أسمى في تاريخ السلالة السفيانية نظراً لما يتمتعون به من منزلة شريفة، ومجدٍ عريق، وفضل واسع، وخبرة في شؤون الحكم والإدارة. وقد استطاع معاوية وبمقدرة فائقة

---

(١) محمد جواد حسن، محرر الرقيق، ص٢٩.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، الجزء الثاني، ص٢٣٢، والقصيدة بكاملها.

ضبط أمور دولته وإرساء قواعدها المتينة والسير بها من ورع الخلافة إلى أبهة الهرقلية والكسروية. إذ استحدث نظام الوراثة في الخلافة وما فيها من مخالفة علنية للمبدأ الإسلامي وبفضل السلسلة الذهبية من النفقات والهبات السخية خلص الرئيس «معاوية» إلى قيادة ألد أعدائه. فعندما كان أفراد بطانته يتحيرون في حضرته من فداحة بعض عطاياه كان يجيب «بأن الحرب تكلف أكثر من هذا للغاية تلك»[١]. وتتحدّث كتب المصادر والمراجع عن كرم السفيانيين وجودهم. وكانت عطاياهم حجة دامغة على كرمهم فقالوا[٢] إن معاوية أول رجل في الأرض وهب ألف درهم، وابنه يزيد أول من ضاعف ذلك.

ولم يكن الخليفة معاوية يعدم الفكر الواعي والذهن المتفتح القادر على مواجهة التحديات، ورد هجمات الخصوم بمختلف الوسائل الكفيلة بردعهم ولنسمعه على لسان الشعبي يحدد كيفية حصوله عل الخلافة بقوله[٣] فإن كان هذا الأمر بالرضى والجماعة دون القرابة فلا أرى القرابة أثبتت حقاً ولا أسست ملكاً. . . ولكننا نقول: أحق قريش بها من بسط الناس أيديهم بالبيعة عليها، ونقلوا أقدامهم إليه للرغبة، وطارت إليه أهواؤهم للثقة، وقاتل عنها بحقها فأدركها من وجهها.

وإذا كانت الخلافة قد أصبحت زمن الأمويين ملكاً دنيوياً فلا بد لها من أصل ترجع إليه وقد أوضح ذلك الفرزدق حين قال[٤]:

تُـرَاثَ عُـثـمـانَ كـانُـوا الأولِـيـاءَ لـهُ، سِـرْبـالَ مُـلـكٍ عـلَـيـهِـم غَـيـرَ مَـسـلُـوبِ

يَـحـمِـي، إذا لـبـسـوا، الـمـاذيُّ مُـلـكَـهُـمُ مِـثـلَ الـقُـرُومِ تَـسَـامَـى لـلـمَـصَـاعِـيـبِ

قَـومٌ أبُـوهُـم، أبـو الـعـاصِـي أجـادَ بِـهِـم قَـرمٌ نَـجِـيـبٌ لِـحُـرّابٍ مَـنَـاجِـيـبِ

وطالت دولة معاوية الذي كان[٥] ملكاً مهيباً شجاعاً حليماً سيداً كأنما خلق للملك، يعد من افراد الملوك وكان نقش خاتمه«لكل عمل ثواب». واعتمد معاوية في إرادة ملكه على سياسة الذهب والسيف، فسلط السيف على رقاب الخارجين

---

(١) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، الجزء الأول، ص٩٥.
(٢) الجاحظ رسائل الجاحظ، ص١٧.
(٣) ابن قتيبة عيون الأخبار المجلد الأول، ص٥.
(٤) ديوان الفرزدق، المجلد الأول، ص٢٥.
(٥) تاريخ الخميس، الجزء الثاني، ص٢٩٧.

عليه في العراق إذ استطاع على أثر حملة صاعقة ٦٦١ هـ على العراق، حين وقف العراقيون بجانب الحسن واعتبروه الخلف الشرعي الوحيد لوالده، أن يحصل من منافسه على تخل صريح عن جميع مطالبه مقابل عطاء[١] سنوي، أقره الحسن بنفسه حيث تحول بعد تلك الفترة إلى المدينة وعاش فيها حياة رغد ورفاهية إلى أن ذهب ضحية الاغتيال. وكذلك سلط سلاح الذهب على أهل الحجاز، فلما قدم المدينة منصرفاً من مكة بعث إلى الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن صفوان بن أمية بهدايا من كسي وطيب، ثم قال لمرسله ليحفظ كل رجل منكم ما يرى ويسمع من الرد

وكان معاوية غالباً ما يفخر بنفسه وبمقدرته إذ روي عنه أنه كان يقول[٢]: «أنا ابن هند أعلم بقريش من قريش». وبهذه السياسة استطاع معاوية أن يبعد الخلافة عن كافة ارتباطاتها بالدين ويقطع كافة الصلات بينها وبينه ويقترب بها من الملك الدنيوي، القائم على أساليب الحكم المستوحاة من الدهاء والحيل العملية. واستطاع في فترة وجيزة تحويل الخلافة)الحكم الديني - إلى ملك (حكم وراثي) واعتبره المؤرخون السياسيون والفقهاء أول ملك في الإسلام[٣].

وكانت هذه الفكرة قد راودت السفيانيين، عندما حاول أبو سفيان بن أمية وهو في رياسة قريش إثارة العصبية حين أدرك أن الموقف تحول نهائياً لصالح النبي. وقد كان يفهم أمر النبي على أنه ملك وليس هو رسالة ودين وقد قال يوم فتح مكة للعباس: «والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك النواة عظيماً[٤]. وهكذا أقام معاوية سياسته على خلائق أموية اشتهرت بها سلالته وهي التي أرجحت ميزان القوى لصالحه إبان صراعه العسكري مع علي وغيره.

فطموحه إلى الزعامة كان بادياً في مسلكه مذ كان كاتباً وأميراً على الشام إذ أوضح هو ما بنفسه حين قال: لا زلت أطمع في الخلافة منذ قال لي[٥] رسول

(١) فيليب حتي تاريخ سورية، الجزء الثاني، ص٣٦.
(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، الجزء الثالث، ص٤٠.
(٣) فيليب حتي، تاريخ سوريا، الجزء الثاني، ص٤٣.
(٤) الحوفي، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة، ص١١٧.
(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد، الجزء الثالث، ص٣٦٤.

الله ﷺ: يا معاوية إذا ملكت فأحسن. وإذا أردنا النظر في سياسته الإدارية[١] وعلاقاته بمساعديه يفيدنا البيهقي إن معاوية على مثال عمر أقام من يراقب حكامه عن كثب ونظم مصلحة للتجسس. وكان يؤمن أنه إزاء أقربائه ملزم بأقل من ذلك من التكلفات، على الرغم من التصرفات المستقلة التي قام بها بعض الأمويين، إلا أنه كان يشعر بأنه متأكد من ولائهم ومن النظر إليهم ينتظمون حول العرش كلما كانت مصلحة السلالة في معرض الرهان[٢].

وأظهر معاوية مرونة وخبرة سياسية، فقد كان يتخوف من الحجاز وأهله ويريد أن يبقيهم على الطاعة ولا يثورون عليه وهو مركز الثقل الديني. لذلك كان يختار بنفسه ولاته، فكان يستعمل مروان بن الحكم على المدينة سنة ويستعمل سعيد بن العاص سنة، فكانت ولاية مروان شديدة يهرب فيها أهل الدعارة والفسوق وولاية سعيد لينة يرجعون إليها[٣]. أما بقية القطاعات فلم يكن يجد حرجاً فيها ما دامت على الطاعة باقية. وبلغ به التسامح حداً لدرجة أنه عين طبيبه المسيحي ابن آثال عاملاً على ولاية حمص[٤].

وأبرز مزايا معاوية ما وصفه به مؤرخوه من الحلم، تلك اللباقة السياسية التي مكنته من أن يقوم بالعمل المناسب في الوقت المناسب. وقد عرف هو بنفسه هذه السياسة حين قال[٥]: «لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ولو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا مدوها خليتها وإذا خلّوها مددتها». فهذا المبدأ في سياسة الرعية كان مثار إعجاب الصديق والعدو. إن هذه السياسة القائمة على الملاينة أكسبت معاوية شهرة سياسية وجعلته ملكاً نموذجياً، قيل فيه[٦] إن معاوية مربي دول وسائس أمم وراعي ممالك.

إن الصفح علامة بارزة في سياسته. همه الأول والأكبر كسب الرعية بالرفق

---

(١) اليعقوبي، تاريخ، الجزء الثاني، ص١٦٩.
(٢) LAMMENS. Calife omayade MOAWIA per. P.64.
(٣) الأصفهاني، الأغاني، المجلد السابع عشر، ص٢٧٧.
(٤) اليعقوبي، تاريخ، الجزء الثاني، ص١٦٢.
(٥) اليعقوبي، تاريخ الجزء الثاني، ص١٧٢.
(٦) التوحيدي، البصائر والذخائر الجزء الرابع، ص٦٢٨.

واللين لا أخذها بالشدة والغلبة إلا حينما تدعو الحاجة إلى ذلك وتغلق كافة أبواب الموادعة. فهو في كتابه إلى زياد يحدد مبدأه في سياسة الرعية بقوله له[١]: ليس ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة لكن إذا هرب هارب من باب وجد باباً يدخله والسلام. فسياسته لم تسر على نهج واضح ونمط معين ومحدد بل كان هدفه إقرار العدل والأمانة في مختلف الأمصار التابعة له.

وهكذا قلما نعثر في الأدب العربي التاريخي، على مجموعات لم تخصص مقطعاً لكي تشيد بمآثر معاوية السياسية. ويكفي تلك الشخصية فخراً ما حققته في مجالات الإدارة بإدخال أساليب الحكم في الدول الراقية واعتمادها في دولته كأسس قوية من ركائز الدولة الحديثة إذ هو[٢] من دهاة الرجال ومؤسسي الممالك. فكان أول من اتخذ ديوان الخاتم وأمر بهدايا النيروز والمرجان واتخذ المقاصير في الجوامع، وأول من أقام على رأسه حرساً وأول من قيد بين يديه النجائب وأول من اتخذ الخصيان في الإسلام.

فهو لا يدع فرصة تمر إلا ويقتنصها حباً في التخلص من منافسيه، كلما أحس بخلل في مركزه وزعزعة في سلطانه. فبسلاح الذهب والدهاء تمكن من إحكام الطوق حول أعناق الحجازيين الطامعين بالخلافة حين انتزع اعتراف الواحد منهم تلو الآخر بشرعية خلافته، واضعاً الأرضية الصلبة لتقبل كافة آرائه السياسية، موجهاً سهمه إلى هدف أبعد وأخطر أعني توريث يزيد ابنه.

وتميز الطابع العام للخلافة السفيانية بالطابع السياسي إذ لم يخلص لهم الأمر منذ قيام خلافتهم بسهولة بل كانت أصوات المعارضين تنطلق من هنا وهناك، منددة بهم وبحكمهم الجائر المستبد، وسرعان ما تشكلت وتنظمت تلك الأصوات في شكل تكتلات حزبية الأمر الذي دفع بني أمية إلى اللجوء إلى حماية دولتهم من الأعداء الخارجيين المجاورين في الخارج، ومن أحزاب المعارضة في الداخل بإنشاء حزب سياسي يضربون به أحزاب المعارضة.

---

(١) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، الجزء الأول، ص١٠٣.
(٢) طلس، عصر الإتساق، ص٢١.

كما اتخذوا لهم قوة حربية منظمة في قلب الدولة وعلى أطرافها، وكانوا يستعينون بها دائماً لإخماد كل فتنة. لذلك كان من المفيد جداً ألا نتجاهل بقية الخلائق الأموية المميزة التي أعانتهم على تثبيت ملكهم والقضاء على من ينازعهم أو يغضبهم. والتي أسفرت عن قيام دولة قوية لهم.

وارتكز دهاء معاوية على سياسة التفرقة وتشتيت الرعية إذ كان لا يستطيع أن يرى اثنين من رجال السيادة على وفاق خوفاً منهم وقد استطاع أن يجعل من كل والٍ من ولاته حزباً وقائداً لغيره من رجال الدولة. وكانت خطة التفرقة عامة عنده، لا يقصرها على الخصوم ليضرب بعضهم ببعض ويتقي شر فريق بشر فريق آخر. ففي كتبه إلى كل من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم يأمر كل واحد منهما، إن يهدم دار الآخر، فسياسته في إقرار الأمن والسلامة قائمة على إقرار أو اعتماد التفرقة.

وأظهر ما في دهائه هو إلغاء الشبهة بين خصومه. كما كان له من الحيل ما مكنه من السيطرة على مجريات الأحداث في دولته وتحويل المواقف لصالحه بالتخلص من كافة خصومه بدءاً بذريعة تحميل علي مسؤولية قتل عثمان، وانتهاء بقتل الأشتر بن مالك. وكان للنجاح الذي حققه معاوية في مختلف حياته العملية السبب في حمل السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء على القول[١]: «كان معاوية من الموصوفين بالدهاء والحلم».

فكل هذه النبذ التي تطري في معاوية الشاب الفضيلة وسمو الاستعداد حملت الأب لامنس على القول: معاوية الصالح أو معاوية من صالحي القوم أو معاوية شاب صالح[٢].

وإذا ما انتقلنا إلى الشخصية السفيانية الثانية الفاعلة على مسرح الأحداث، أعني شخصية يزيد بن معاوية، نرى الشخصية التي لم تكن على حزمها السياسي، تحسن اصطناع الحيل في التخلص في المواقف الحرجة، بل كانت على صرامة جاهلية تذكرنا بخلال جده أبي سفيان بن حرب. فمثلاً تشبيب عبد الرحمن بن

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٩٤.

(٢) LAMMENS. Etudes sur le siecle des omayades .178.

حسان برملة قد أغاظه جداً بل تفجر نقمة عليه وعلى جماعة الأنصار. وتفجر حقده على الدين الذي يمثلونه وغضب غضباً شديداً، وراح يستطلع الشعراء عن أشعرهم إفحاشاً للرد عليه، والأخذ بثأره منه إلى أن وفق بالاتصال بالأخطل وحمله على هجاء الأنصار بعد أن أمنه على نفسه فلم يصبر يزيد عليه صبر أبيه ويحلم حلمه ويغض عنهم إغضاءه. فكانت خلافته أكثر إحياء للروح الجاهلية وأشد تأثراً بها واعتماداً عليها[1] فها هو يرى في وقعة الحرة، ونكبة الأنصار فيها انتقاماً لقتلى قريش في بدر فيردد قول ابن الزبعرى[2]:

لَيتَ أشياخِي بِبدرٍ شَهِدُوا ... جَزعَ الخَزرجِ مِن وَقعِ الأَسَلْ
حِينَ ألقَتْ بِقُباءٍ بَرْكَهَا ... واسْتَحَرَّ القتلُ في عَبدِ الأَشَلِ
وقَتَلنَا الضِعفَ مِن أشرَافِهِم ... وأقَمنا مَيْلَ بَدرٍ فاعْتَدَلْ[3]

وزاد عليها صاحب العقد الفريد[4]:

لأهَلُّوا واستَهلُّوا فَرَحاً ... وَلَقالُوا لِيَزِيدَ: لاَ فَشَل

ومع خلافة يزيد نلمس الإجماع الذي شهدته الأمة الإسلامية ضد سيادته إلى جانب التطرف في موقف يزيد لإثبات وجوده ودفع تهمة الضعف والانحلال الخلقي عنه، التي كانت وراء تشجيع المعارضة على الثورة ضده. ولعل الإستجابة التي وقعت في المدينة عقب انتصار مسلم في معركة الحرة تفسر لنا بوضوح شخصية القائد المنطوية على الشراسة والبداوة. ولقد بدا ذلك القائد الشامي بأنه يتمتع بصلاحيات غير محددة من الخليفة القائد الأعلى في دمشق والحاكم العام إزاء العناصر الرافضة لحكمه. وأفضل دليل على تلك النفس الموتورة وأخلاقها السفيهة الجافة هي رسالة الخليفة نفسه إلى أهل المدينة يقول[5]:

---

(١) حسين عطوان: شعراء الدولتين، ص٢٦.

(٢) عبد الله بن الزبعري بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم بن عمر بن خصيص بن كعب بن لؤي. هو آخر شعراء قريش المعدودين وكان يهجو المسلمين ويحرض عليهم كفار قريش، البكري، سمط اللآلئ تصحيح عبد العزيز الميمني مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦، ص٣٨٧.

(٣) الزبعرى، عبد الله، شعر، الطبعة الثانية ١٩٨١، مؤسسة الرسالة، ص٤٢.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، الجزء الرابع، ص٣٩٠.

(٥) ابن قتيبة، عيون الأخبار المجلد الأول، ص٢٠٢.

«أما بعد فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال. إني والله قد لبستكم فأخلقتكم ورفعت بكم فاخترقتكم ثم وضعتكم على رأسي ثم على عيني ثم على فمي ثم على بطني.

وأيم الله لئن وضعتكم تحت قدمي لأطأنكم وطأة أقل بها عدوكم وأذل غابركم وأتركم أحاديث تنسخ بها أخباركم مع أخبار عاد وثمود». ثم تمثل:

لَعَلَّ الحِلمَ دَلَّ عَلَيَّ قَومي وَقَدْ يُسْتَضعَفُ الرَّجُلُ الحَلِيمُ
ومَارَستُ الرّجالَ ومَارَسُونِي فَمعوَجٌّ عَلَيَّ ومُسْتَقِيمُ

ولكن التاريخ لم يحرم يزيد بن معاوية بعض الإنصاف في المجال السياسي، وخصوصاً عندما صوره«بأنه سياسي لبق ذو دهاء وعقل برغم ما وسم به من ظلم وتفظيع، عندما عمد وهو أمير إلى معرفة أثر ترشيحه للخلافة بعد أبيه في نفوس الناس فأوعز إلى الشاعر مسكين الدارمي أن يشير إلى هذا الأمر في مجلس معاوية بقوله[١]:

إذا المِنْبرُ الغَربِيُّ خَلاّهُ ربُّهُ فإنَّ أمِيرَ المُؤمِنِينَ يَزِيدُ

كما يفيدنا أيضاً الضحاك بن قيس الفهري بقوله: «يزيد ابن أمير المؤمنين في حسن معدته، وقصد سيرته، من أفضلنا حلماً وأحكمنا علماً». ويعطينا صورة حية عن تلك الشخصية عمرو بن سعيد أحد رجالات الدولة وهو يخاطب قومه من بني أمية[٢] «إن يزيد بن معاوية أمل تأملونه، وأجل تأمنونه، أن استضعفتم إلى حلمه وسعكم، وأن احتجتم إلى رأيه، رشدكم. وإن افترقتم إلى ذات يده أغناكم».

إن هذه النبذ المذكورة سلفاً لا شك تصحح بعض الأجحاف المتوارث بحق هذه الشخصية ذلك الأجحاف المتمثل في أنه ذو شخصية ماجنة لاهية فاسقة. ويبدو أن خلافة يزيد قد اتخذت طابعها الملكي إذ خضعت لوصاية الكلبيين التي أسهمت وبنوع خاص في إثارة العصبية الإقليمية والقبلية وربما العائلة أيضاً ضد[٣] سياسة هذا الخليفة التي لم تكن ودية حتى مع بعض أقاربه من البيت الأموي.

---

(١) مسكين الدارمي، الديوان، ص٣٢.
(٢) التوحيدي، البصائر والذخائر، الجزء الثاني، المجلد الثاني، ص٧٣٤.
(٣) إبراهيم بيضون، إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية، ص٣٦٧.

وإذا كانت المآخذ متعددة على خلافة يزيد باعتبار حكمه كان داعياً للفتنة والتفرقة بين المسلمين أضف إلى سلوكه المشين وحكمه المستبد، فإن حلم السفيانيين لم يغب عن طبعه. فعندما أغاظه[١] هانىء بن قبيصة عندما راح يرسم له النهج الذي عليه أن يسيُر فيه ويملي على مسامعه بعض ملاحظاته النقدية اللاذعة حول سلوكه وبعض تصرفاته نراه يغضب ولكنه سرعان ما يحلم فيقول له[٢]: «والله لولا أن أسن بالشام سنة العراق لأقمت أودك». ثم انصرف وما هاجه بشيء وأذن له ولم تتغير منزلته عنده إنه يغضب ساعة الغضب ويشتد عند الشدة ويحلم في موضع العفو فهو وإن لم يكن من الصحابة بل كان[٣] ثاني ملوك بني أمية المشهورين.

وقد تغير التاريخ السياسي لهذه الأسرة عقب وصول معاوية بن يزيد إلى سدة الخلافة. فقد عاشت الدولة أياماً عصيبة نتيجة انشقاق الرأي في البيت السفياني وظهور التكتلات المعادية التي أطلت برأسها. فكان الأمر بمثابة انقلاب على نظام الخليفة وعلى سلطته. ولم يستطع معاوية أن يقبض بيد حازمة على مجريات الأمور في الإمبراطورية الإسلامية لا بل لم يحاول ذلك، لأن نزعته الإسلامية هي الغالبة عليه، والموجهة لأعماله. فلم يقم ركائز حكم قوي بل آثر السلامة والابتعاد عن السياسة إذ كان شاباً زاهداً صالحاً رأى جده معاوية قد سلب حق علي بن أبي طالب، وإن أباه لم يكن الأكفأ لمن تولى أمر المسلمين. وقد صرح بذلك من فوق منبر دمشق ورفض الإبقاء في الحكم وآثر أن تكون الخلافة شورى بين المسلمين فقال: «وما أنا بالمتقلد ولا بالمحتمل تبعاتكم، فشأنكم وأمركم، والله لئن كانت الدنيا خيراً فلقد نلنا منها حظاً ولئن كانت شراً، فكفى ذرية أبي سفيان ما أصابوا منها». ورفض أن يولي أخاه خالداً أو يعهد إلى أحد ولزم بيته فمات بعد أيام[٤]. هذا الخليفة الذي لم يصرف أي جهد في معالجة المسائل السياسية نراه يعزل نفسه نتيجة قناعة شخصية فكأنه ليس من سلالة أبي سفيان. وكان عهده إيذاناً بنهاية خلافتهم وسقوطها في أيدي المروانيين.

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ص١٦٢.
(٢) رسائل الجاحظ، ص١٦٢.
(٣) البصري، الحماسة البصرية، الجزء الثاني، ص٣٩١.
(٤) نعمان القاضي، الفرق الإسلامية، ص٢٤٢.

فالبيت السفياني كان يصطدم على مسرح الأحداث بعقبات ناشئة عن مبدأ السيادة. هذا المبدأ كان غالباً يصطدم بدوره بعنف مع أكثر الرغبات المشروعة، مما فجّر بذلك نبعاً دائماً من المنازعات والمشاحنات السياسية والعسكرية[١]. وتتجلى مآثر ذلك البيت في خطبة معاوية بن يزيد وهي أفضل ما قيل في هذا المجال لأنها نابعة من ذات شخصية معنية بالبحث وقد ذكر جده معاوية في نزاع الأمر«الخلافة مع من كان أولى به منه ومن غيره»، ثم ذكر أباه يزيد وخلافته، وذكر سوء فعله وإسرافه على نفسه وكونه غير خليق للخلافة على أمة محمد، وإقدامه على ما أقدم من جرأته على الله بغية واستحلاله حرمة أولاد رسول الله[٢].

ولم يغفل الجاحظ عن إيراد بعض أقوال عبد الملك بن مروان في تعليقه على حكم السفيانيين وعلى إدارتهم للدولة الإسلامية في خطبة له يقول[٣] فيها «إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف ـ يعني عثمان بن عفان رحمه الله ولا أنا بالخليفة المداهن ـ يعني معاوية ـ ولا أنا بالخليفة المأبون يعني يزيد بن معاوية».

وهكذا فالشعر في العهد السفياني كان معنياً بتسجيل أطر الحوادث الداخلية الصغيرة والكبيرة تسجيلاً سياسياً شاملاً. من مقتل عثمان إلى نهاية الحكم السفياني وما رافق ذلك من قتل وحروب. وقد بدا المسلمون منشقين، وكان احتجاجهم إلى قوة السلاح أميل وأرغب. إذ غرقت البلاد في حروب أهلية ومنازعات سياسية لعب الشعر فيها دور المسجل الأمين الصادق. والمصدر الأكثر دقة في الفترة التي سبقت التدوين واشتهار الكتابة. فمن خلال تتبعنا لأحداث التاريخ استطعنا أن نكشف عن طابع تلك الشخصية السفيانية بملامحها البطولية كالإقدام والجرأة والشجاعة. فتاريخ هؤلاء القادة هو تاريخ الأمة الإسلامية في طبقاتها المختلفة.

---

(١) LAMMENS YAZID per, P.90.

(٢) الديار بكري، تاريخ الخميس، الجزء الثاني، ص٢٠٢.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الثاني، ص٢٤٥.

الفصل الثالث

السياسة والمجتمع

١ ـ في تجديد المشروع الأموي

إذا كان معاوية بن أبي سفيان، هو صاحب أول مشروع سياسي أموي في الإسلام، فإن أمية، جد معاوية لأبيه، ومن ثم سفيان بن حرب، والد معاوية، هما بنظرنا المؤسسان التاريخيان لهذا المشروع السياسي الذي همد نبضه مع بداية الدولة الإسلامية عقب سقوط مكة، ثم عادت إليه أنفاسه وإستعاد حراكه مع تسلم الخليفة الراشدي عثمان بن عفان سدّة الحكم، وإندفع قوياً هادراً عقب قتل الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب.

فأمية شرع بمباشرة الحياة السياسية، حين كان يعمل على السيطرة على وظائف الكعبة في مكة التي ورثها عن جده قصي بن كلاب مؤسس دار الندوة. وقد دعا عمه هاشم ـ جد النبي لأبيه ـ إلى المنافرة على عادت العرب، بالإحتكام إلى الكهان، غير أنه فشل في إقناعه للحصول عليها. مما جعله يخرج من مكة إلى بلاد الشام، طاوياً في نفسه عقدة السياسية من هاشم وأبنائه فيما بعد.

وقد أسفر هذا الصراع السياسي بين أمية وهاشم، عن ظهور أول عداوة بين هذين البيتين العربيين. واستمر إلى زمن حرب بن أمية وعبد المطلب بن هشام.

ويبدو أن الأمور تبدلت في زمن سفيان بن حرب المسمى أيضاً صخراً، وهو والد معاوية. إذ كانت أمية قد استعادت زعامتها الفعلية في مكة وذلك قبيل ظهور الإسلام بقليل. وكان سفيان نفسه، يشرف على زمام تجارتها، وعنده اللواء أو الراية

وهي إحدى وظائف الكعبة الهامة، يأخذها من يُناط به قيادة قريش وحراسة قوافلها.

وقد عرف سفيان بن حرب في زمن الرسول ﷺ بأبي سفيان. وكان من أشد المعرضين للنبي الهاشمي، حتى لا يعود فيخسر مشروع أمية السياسي أمام مشروع هاشم، ولا يتخلى عن زعامة قريش، بفعل مدّ بني هاشم وظهور نجمهم السياسي بظهور الرسول محمد ودعوته الإسلامية.

لهذا كان أبو سفيان يقود حملات قريش الوثنية في مكة، لمواجهة دعوة الرسول الإسلامية، التي كان يعتبرها مشروعاً سياسياً لهاشم لا أكثر ولا أقل. ولم يتخلّ عن مشروعه السياسي إلا حين أيقن الخسارة الأكيدة، أمام تعاظم مدّ الحركة الإسلامية التي يقودها النبي بنفسه، والتي بلغت ذروتها السياسية في الانتصار على مشروع أمية السياسي على يد أحد أعظم أحفاد هاشم يوم فتح مكة المشهود.

وكانت حصيلة هذا الفتح العسكري والسياسي الاستسلام التام من قبل أبي سفيان عبر إشهار ابنه معاوية إسلامه يوم الفتح، وكذلك إشهار إسلام زوجته هند، التي كانت قد مثلت بحمزة عمّ النبي في وقعة أحد، بعدما كان قد أصاب من رجال أقاربها مقاتل عظيمة.

وترتب على ذلك النتائج التالية:

١ ـ القضاء على سلطة أمية وعلى مشروعهم السياسي، إلى حين، ودون أن يتم محق الجذور السياسية والسلطوية في نفوسهم بالكامل.

٢ ـ أفاد أبو سفيان من معاملة الرسول الكريم له معاملة كريمة، واستمالته له بطرق شتى، كما برز ذلك في الإعلان عن أن من يدخل دار أبي سفيان فهو آمن.

٣ ـ تحول النظر عن أبي سفيان باعتباره زعيماً عربياً مواجهاً ومناوئاً للسلطة الإسلامية. وأصبح ينظر إليه كزعيم إسلامي حسن الإسلام.

٤ ـ طيّ الزعامة الأموية المتمثلة في بني حرب بن أمية، في السلطة الإسلامية الهاشمية، وذلك من خلال إشراك أبي سفيان نفسه في بعض مغازي الرسول. وقد ذهبت عينه في إحداها.

٥ ـ إن تزوج الرسول من ابنة أبي سفيان أم حبيبة زاد هذا الأخير اقتراباً من السلطة الإسلامية، حتى أصبح بالإمكان اعتباره ركناً من أركانها.

٦ ـ تزامن فشل مشروع أمية السياسي مع انتصار المشروع الإسلامي، مما سهّل على أبي سفيان وأبناء حرب الأمويين السرعة في استبدال رايتهم بالراية الإسلامية. وهذا ما سمح لهم بحق نصبها، فحافظوا بذلك على مكسبهم التاريخي، بأنهم من أصحاب الراية المنصوبة دائماً. ونحن نستطيع أن نفهم عمق هذه المسألة الملازمة لتاريخهم السياسي، حين نجد الخليفة الإسلامي عبد الملك بن مروان وهو من أعظم ملوك بني أمية ومن أعظم الخلفاء المسلمين، يصرح فيقول: «إنا لنحتمل كل لعبة إلا ثلاث: إنتحال دعوة ونصب راية وصعود منبر».

٧ ـ دخول ابن أبي سفيان نفسه، معاوية، وسائر أبناء حرب، في بنية السلطة الإسلامية. فقد استخدم معاوية في الكتابة، واستعمل عدد كبير من أفراد البيت الأموي على الصدقات، وتولى بعضهم الأعمال في الأقطاع والأمصار.

٨ ـ رسوخ السلطة الأموية في تقاليد السلطة الإسلامية، من خلال التحالفات التي أخذت تظهر بين سادات العرب المسلمين.

وكانت تجري استمالة الأمويين من خلال إسناد مناصب الدولة إلى أبنائهم. وقد أسند الخليفة الراشدي الأول أبو بكر الصديق عمالة ما بين الحجاز ونجران إلى أبي سفيان. وولى ابنه يزيد على أحد الجيوش الرئيسية في الشام.

كما أقر الخليفة الراشدي الثاني، عمر بن الخطاب سياسة أبي بكر في المحافظة على التحالف مع البيت السفياني ومن خلاله ومع أمية. ويمكن تلمس ذلك من خلال إقرار يزيد في منصبه السياسي والعسكري في قيادة جيش الشام وتوليته بعض أجزائها. ومن خلال استعمال معاوية على مكة ثم على فلسطين.

٩ ـ سرعان ما أصبح لأمية الإمرة في الحرب، خصوصاً بعدما حارب يزيد في مواقع الشام المعروفة. وكان والده أبو سفيان نفسه، بين قادة جيشه. وكان شديد الحماسة في خوض غمار الحرب ونصب الراية. ويقال إنه كان يبلي في المعارك البلاء الحسن. وقد شهد معركة اليرموك، وذهبت عينه الأخرى فيها. أما ولده معاوية، فقد تسنى له افتتاح بعض مدن ساحل الشام، خصوصاً عسقلان وقيسارية، بأمر من عمر بن الخطاب نفسه. وعندما توفى قادة الفتوح، ومن بينهم يزيد شقيق معاوية، سارع عمر بن الخطاب فجعل معاوية أميراً على بلاد الشام جميعاً. ومعلوم أن يزيد توفى في طاعون عمواس الشهير عام ١٨هـ/ ٦٣٩م.

وبرأينا أن بني أمية، كان قد عظم حظهم في الإسلام، منذ أن تمّ اختيار عثمان بن عفان، وهو أحد أركانهم، خليفة على المسلمين. فقد اعتبر عثمان ممثلاً للحزب الأموي، تماماً كما اعتبر علي بن أبي طالب ممثلاً لبني هاشم. وربما قد اتخذ التنافس على سدّة الخلافة الإسلامية بعد عملية اغتيال عمر بن الخطاب، طابع الصراع التقليدي بين أمية وهاشم، الذي استطاع النبي الكريم بسياسيته المعهودة إخماد أواره إلى حين، ثم عاد فابتعث قوياً من جديد بعد موته، خصوصاً في برهة الشورى في تعيين خليفة له على المسلمين.

ولا شك أن الأمويين أفادوا كثيراً من خلافة عثمان بن عفان، في تدعيم مشروعهم في الاستئثار بالسلطة. فعلى الرغم من أنه قد أخذت على عثمان المواثيق والعهود قبل توليته الخلافة، ألا يحمل بني أمية على رقاب الناس، فإنه جعلهم أوتاد خلافته.

وقد أقر عثمان بن عفان معاوية بن أبي سفيان على بلاد الشام، وهو الذي سيصبح فيما بعد قائد الحملة على بني هاشم لوقوفهم في وجه مشروع أميّة السياسي، من خلال وصول أحد أبنائهم، علي بن أبي طالب إلى سدّة الخلافة الإسلامية.

ثم جمع عثمان لمعاوية، في خطوة لتعزيز سلطته، على بلاد الشام، الجزيرة كلها وذلك في ٢٥هـ/ ٦٤٥م. وعين أقرباءه في بعض الأمصار. وهكذا غدا للأمويين في أواخر خلافة عثمان حضور سياسي قوي يؤهلهم للإعلان عن مشروعهم السياسي، الذي في رأس أولوياته وصولهم إلى الحكم، بقواهم العصبية والحزبية، كما كانوا يفعلون قبل الإسلام، وليس بقوة الشورى بين القادة وأصحاب الرأي من المسلمين.

ولا شك أن ولاية معاوية على بلاد الشام، وانضواء أهلها تحت سلطته، والوقوف إلى جانبه بمقاييس عصبية وحزبية، وليس بمقاييس إسلامية، يتصل بماضي العلاقة التي كانت قائمة بين أمية وأهل الشام قبل الإسلام. فحين كانت أمية تضيق ذرعاً بسلطة بني هاشم في مكة، نراها تؤثر اللجوء إلى أرض الشام، مما جعل لها هناك منازل كثيرة على مدى العصور السياسية المتلاحقة، وحلفاء كثيرين من القبائل اليمانية التي تنتشر فيها.

وهذه العلاقة الأموية الشامية، كانت تتجدّد باستمرار، في الإطار التحالفي بتجدد صراع الأمويين التاريخي مع بني هاشم بصورة خاصة، أو مع أيٍّ من خصومهم السياسيين الآخرين.

بدأت خطة معاوية ـ رأس الأمويين ـ في الوصول إلى الحكم وتسلم سلطة الخلافة، تظهر بوضوح لجميع المراقبين والمحللين لمجريات الأحداث خصوصاً في الفترة الزمنية الواقعة قبيل مصرع الخليفة عثمان وبعيد ذلك بقليل. . .

ومن المؤكد أنَّ حكم معاوية في بلاد الشام خصوصاً في أواخر أيام خلافة عثمان، قد مكنه من بسط سلطته ومدّ تحالفاته وادخار المال اللازم والوافر، من خلال السعي لتولية أنصاره وأقربائه مناصب هامة في الأمصار، وإقطاعهم الأراضي وإعطائهم الجباية المالية لبيت مال المسلمين، الذي اتهم الخليفة عثمان بتبديده، وضعف حيلته ورأيه في الحفاظ على أموال المسلمين المودعة فيه.

والحملة السياسية التي اشتدت على عثمان في أواخر أيامه، لم تكن بسبب بذخه وترفه وقلة حرصه على بيت المال، بل تعدّت ذلك إلى تسلط أهله وأقربائه من بني أمية، على شؤون المسلمين وتوزيعه الأعمال والإمارات بين أهل بيته وأنسبائه وكأنه يحضرهم ويحرضهم لاستلام شؤون الخلافة، وربما سدَّتها من بعده.

وكان علي بن أبي طالب قد خاطب عثمان في أمر استعماله أقاربه، وطريقة تصرفهم بأمور الناس وإدارتهم لها، بشكل يثير الريبة ويبعث على القلق. وضرب مثلاً بمعاوية. فأجابه عثمان (هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها؟ فقد وليته) فأجابه علي بأن معاوية يتصرف بالأمور دون الرجوع إليك ويقول: (هذا أمر عثمان، فيبلغك ولا تغير على معاوية)[١].

إلى ذلك برزت في عهد عثمان، مشكلة رجال القبائل الذين كانوا قد هاجروا في حملات الفتوح من الجزيرة واستقروا في الأمصار واتخذوها مراكز جديدة مع أهلهم وأسرهم، ونقلوا إليها مصالحهم، كما جرى في تمصير الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان وأمصار سوريا ومدن خراسان. وكان لهذه المراكز السكنية

---

(١) تاريخ الطبري، ٣٣٧/٤ ـ ٣٣٨.

الجديدة، الشيء الكثير من الفعالية الاقتصادية للدولة العربية الإسلامية الفتية، إذ تدفقت الأموال على هذه المراكز بسبب اشتغال سكانها بالتجارة والأعمال المتعلقة بالجيش من تموين وتسليح، هذا فضلاً عن امتلاك البعض للأرض، وإفادة عامتهم من الغنائم التي حصلت لهم بنتيجة اشتراكهم في عمليات الفتوح.

وبعد توقف حركة الفتوح، نضبت موارد رجال القبائل من الغنائم، ولم توزع الأراضي على الفاتحين، واعتبرت ملكاً لبيت المال، وتركت بيد أصحابها الأول ليستغلوها ويؤدون عنها الخراج. وبعد أن كانت الدولة تعيش من يد المقاتلة من رجال القبائل، لم يعد لهؤلاء إلاّ عطاءات الدولة التي عليهم أن يعيشوا منها، مما سهل لهم تألبهم على سياسة عثمان، لأن حكومته قد غلبتهم على حقوقهم وعرتهم من أموالهم، ونادوا بأن مال الخراج هو مال المسلمين، وتمسكوا بدعوى أن أموال الفيء يجب أن تقسم وثاروا في الأمصار وفي بعض الأحيان عمدوا إلى نهب بيوت المال فيها[١].

وربما استترت رغبة معاوية في الوصول إلى الحكم بتلك العجاجة الغبراء التي خلفتها وراءها حركات الناقمين من أمثال علي وعبد الله بن عوف وأبي ذر الغفاري وثورات الثائرين في الأمصار، فغرز سلاحه في عنق صاحبه غيلة. فعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، الذين كانوا على رأس الناقمين على عثمان، لم يشاؤوا أن يسفروا في عدائهم للخليفة، أو أن يكتلوا أهل المدينة في ثورة ضده. بل تركوا الأمور تجري على رسلها، خصوصاً في الأمصار، اعتقاداً منهم أن ذلك يؤول إلى تحسين أداء عثمان السياسي فيمتثل لعزل الولاة الذين كثرت شكاوى أهل الأمصار منهم، وهم من المحسوبين على معاوية، أمثال سعيد بن العاص وعمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبي سرح.

واندلعت ثورة مالك بن الأشتر عام ٣٤هـ في الكوفة ونادت بعزل سعيد ابن العاص عن ولايتها، فأذعن عثمان لذلك وعزل سعيداً وولاّها أبا موسى الأشعري، فهدأت ثورة الكوفيين[٢].

---

(١) يوليوس فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية، (ترجمة أبو ريدة)، سلسلة الألف كتاب، ص٤١.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦.

وإذا كانت حركة الإحتجاج في الكوفة شديدة الشفافية، فإن حركة الاحتجاج في مصر، داخلتها ملابسات كثيرة، اتصلت بعزل عمرو بن العاص وتعيين ابن عمه عبد الله بن سعد بن أبي سرح، المعروف بسمعته السيئة. فاعتبرها عمرو بن العاص فرصة سانحة للتشنيع على عثمان والدعاية ضده. واستطاع أن يؤلب أكثر من خمسمائة رجل، توجهوا إلى المدينة، وهدّدوا عثمان باستعمال القوة إذا لم يرضخ إلى مطالبهم. وكلما كان عثمان يعمل على تهدئة الخواطر ويستجيب لمطالب الوفود الثائرة، كلما كانت تحاك الدسائس وتكثر الأحابيل، مما يرجِّح لنا ضلوع معاوية في التآمر عليه والتسبب بمصرعه[١].

ففي الحصار الأول لدار عثمان بالمدينة، وقف علي إلى جانبه وتعهد باسمه لهم أن تزال أسباب شكواهم، وضمن ذلك في كتاب، وشهد عليه الزبير وطلحة من كبار الصحابة وأرَّخ في ذي القعدة عام ٣٥هـ. وأخذ المصريون يعدون العدة للرجوع إلى بلدهم، لولا مكيدة مروان بن الحكم وهو ممن يتصل بمعاوية وعمرو بن العاص وينهج نهجهم في التعجيل بتقصير عمر الخليفة والخلافة، بسبب الخسائر التي لحقت بهم جراء الإصلاحات التي نفذها عثمان على الأرض أو وعد بتنفيذها. وضمن ذلك علي بن أبي طالب.

لعب مروان بن الحكم لعبة قذرة، إذ زور رسالة على لسان عثمان وأرسلها إلى عامل الخليفة في مصر يأمره فيها بقتل وجلد وحبس المتمردين. وهذا ما أثار حفيظة المصريين ودفعهم إلى محاصرته من جديد. وقطعوا عنه الماء والطعام حتى يخلع نفسه. ولم تنفعه براءته من هذه التهمة التي أنكرها عليٌّ أيضاً. إذ احتجوا عليه، بأن جهله بما يصدر باسمه من أوامر، لهو جريمة أشدّ.

واعتصم عثمان بداره يتلو القرآن، وتتالت الكتب التي تصدر باسمه تستنجد بالأمصار. ثم كان لهذه اللعبة أن تحكم حبكتها بعدما استطاعت الشائعات أن تفعل فعلها في نفوس المحاصرين. إذ تسوّر بعضهم عليه، وتسلل من بينهم من دخل بيته وقتله على الرغم من الوقوف عليه وهو يقرأ القرآن. وحجبت الأنظار عن جميع

---

(١) البلاذري أنساب الأشراف: ٥/ ٦٤.

المساعي التي قام بها علي بن أبي طالب لمنع الفتنة من أن تستكمل فصولها، بمثل هذه المأساوية. وكأن المقصود بذلك إتاحة الفرص أمام الشائعات التي كان يروج لها المخططون، حتى تأخذ أبعادها وتصل إلى أغراضها في النيل من حياة عثمان ومن سمعة علي في آن.

لعلَّ الفتنة التي كانت تريد هزّ سلطة الخلافة في زمن عثمان لإسقاطها، كانت تمهّد لإعلان النيَّات من مشروع الأمويين السياسيّ في الوصول إلى الحكم. فنحن نجد كيف أن الثورات التي أفضت إلى قتل عثمان في سنة ٣٢٥هـ/٦٥٦م[١]، ترافقت مع انفراد معاوية بالشام وتزعمه عصبة بني أمية في المطالبة بدم عثمان من علي بن أبي طالب رأس البيت الهاشمي والذي أفضت الخلافة إليه بإجماع النَّاس على بيعته، حيث شارك في ذلك المهاجرون والأنصار وغيرهم من الناس، وكان لطلحة والزبير دور رئيسي وفعال فيها[٢].

وقد تحدث المؤرخون عن أن معاوية كان يدبر شؤون الفتنة والأزمة السياسية الناتجة عنها، ليجعلها تصب في هدف واحد، أوحد، يتمثل في وصوله شخصياً إلى سدة الخلافة الإسلامية، حتى ولو أدّى ذلك إلى الاصطدام بشرعية علي وجميع القوى الإسلامية التي صعدته إلى الخلافة.

فعندما أخذ علي يرسل الكتب إلى الأقاليم والأمصار، يشرح فيها ظروف توليه السلطة ويطلب البيعة من الحكام والناس[٣]، كان معاوية في الشام، يسير في الاتجاه المعاكس، محرضاً على الخليفة الجديد وداعياً لإسقاطه بالتنسيق مع الأمويين المعادين لبيعة علي في مكة، ومع سائر القوى التي وقفت من خلافته موقف المعارضة، أمثال سعد بن أبي وقاص وابن عمر وصهيب وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد، وطلحة والزبير[٤].

وعندما بادر عمال الأمصار إلى مبايعة عليّ والإذعان لأوامره، نفر معاوية والي

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: ٥/٩٧.
(٢) الطبري: ٤/٤٢٧ ـ ٤٢٨.
(٣) نفسه: ٤/٤٤٣.
(٤) نفسه: ٤/٤٣١.

الشام، وامتنع عن مبايعته والانصياع لأوامره. وقد سجل أول احتكاك سياسي وعسكري بينهما، حين بعث الخليفة الجديد في مطلع عام ٣٦هـ سهل بن حنيف عاملاً على الشام. إذ ما كاد يصل سهل إلى تبوك حتى واجهته خيل أهل الشام، فردوه إلى علي. وقد مثل ذلك أول رفض شامي لسلطة علي، بأوامر مباشرة من معاوية. وهذا ما يعيد إلى الذاكرة الصراع السياسي القديم الذي كان يدور بين الهاشميين والأمويين، فيبادر هؤلاء الآخرون للاستعانة بأهل الشام والاستقواء بهم، من أجل ترجيح كفة الصراع لصالحهم. وقد أشرنا إلى ذلك في مطلع هذا البحث، وكيف أن أمية استقوى بأهل الشام على عمه هاشم واعتصم بهم، حين لم يجاره بالمنافرة عن طريق الاحتكام إلى الكهان[١].

واتصل معاوية أيضاً بنائلة بنت الفرافصة زوج الخليفة المغدور عثمان، فأرسلت إليه قميصه الملطخ بالدم[٢] وأصابعها المقطوعة. ويقال إن النعمان بن بشير، هو الذي حمل قميص عثمان إلى معاوية مع أصابع نائلة المقطوعة[٣]. وقد عمد معاوية إلى وضع القميص على المنبر، وكتب بالخبر إلى الأحبار. وقد ظل مدة سنة كاملة، يعرض القميص والأصابع في المسجد إثارة لنفوس الناس وتحريضاً على الخليفة علي بن أبي طالب، حتى لا يتسنى له وأد الفتنة المفتعلة بسهولة والقضاء على نتائجها السلبية في إباحة دماء المسلمين. وكانت سياسة معاوية ترمي إلى إغراق الأمصار والديار في حروب أهلية لا تنتهي إلا بزوال سلطة بني هاشم المتصلة بعليّ، واستعادة سلطة أمية بوصول معاوية مباشرةً إلى الحكم، بدلاً من عثمان.

إن موقف معاوية على مسافة من زوايا الأزمة السياسية بعد مصرع عثمان، يدل بالتأكيد، على أنه كان صاحب مشروع سياسي للوصول إلى السلطة. وهو يتعقب القتلة لجني الثمار السياسية بعدما قطعوا جذع الخلافة، ولا يهمه كثيراً الوصول إليهم وإنزال العقوبة بهم وجعل أمرِ الخلافة لشورى الأمة. فالمراسلات التي جرت بين معاوية وعليّ، كانت تدور حول أحقية كل منهما في قيادة الجماعة الإسلامية،

---

(١) المقريزي: النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبني هاشم. (تحقيق خوس). ليدن ١٨٨٨: ص٨، فما بعد. وأيضاً الطبقات الكبرى لابن سعد: ١/٤٣ ـ ٤٤.
(٢) الأصفهاني، الأغاني: ١٦/٣٢٥ (ط. دار الكتب).
(٣) الطبري: ٤/٥٦٢.

وليس فيها ما يدل على إخلاصه لعثمانيته ورغبته في إلقاء القبض على القتلة المجرمين[١].

إضافة إلى ذلك، يمكن لنا تسليط الأضواء على الموقف الذي كان يقفه مروان بن الحكم من معركة الجمل التي دارت بين علي بن أبي طالب من جهة وطلحة والزبير وعائشة من جهة أخرى عام ٣٦هـ، خصوصاً بعد احتدام القتال وتزعزع صف التحالف بتراجع الزبير ومن ثم طلحة وخروجهما من المعركة. فكان مقتل الأول بمكيدة من الأحنف بن قيس، كما كان مصرع الثاني بسهم مباشر أصابه به مروان بن الحكم[٢]، وهو أحد أركان معاوية في مشروعه السياسي.

وبعد الفراغ من معركة الجمل ووصول جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية من قبل علي، يخيره بين المبايعة أو الحرب، اختار معاوية المناورة، متذرعاً باستشارة أهل الشام، وكتب إلى عمرو بن العاص يدعوه للاجتماع من أجل تنسيق الموقف، مراهناً على طمع عمرو بمصر التي أخرجه منها علي، فيدخل المعركة السياسية إلى جانبه بعد اعتزاله الفتنة في فلسطين[٣].

وهكذا استطاع معاوية أن يجعل أمية تلتف حول مشروعه السياسي، بجميع أركانها من مروان بن الحكم إلى عمرو بن العاص وعتبة بن أبي سفيان، وأخذ يستنهض جميع القوى التي يمكن لها أن تتحالف معه في حرب المواجهة مع علي، بعدما أيقن أن هذا الأخير يتجه إلى الحسم العسكري، حين يفشل الحسم السياسي.

ولم يتورع معاوية عن الاتصال بالبيزنطيين لتحسين علاقته بهم، فكتب إليهم يريد مسالمتهم وعقد الصلح معهم. وبادر إلى إطلاق أسراهم[٤]. ودعا أهل الشام إلى السير خلفه لمواجهة أهل العراق، إذا ما قرر علي الزحف نحوه. وهذا ما حصل بالفعل حين استكمل علي عدته وأمر مناديه أن ينادي بالخروج إلى المعسكر بالنخيلة، قرب الكوفة على طريق الشام.

(١) الدينوري، الأخبار الطوال القاهرة ١٩٦٠: ص١٤١.
(٢) نفسه: ص١٤٨، وأيضاً الطبري: ٥٠٨/٤ و٥٠٩.
(٣) الأخبار الطوال، ص١٥٧.
(٤) نبيه عاقل، الإمبراطورية البيزنطية، بيروت ١٩٧٠، ص١٠٦.

إن تيقن معاوية بأن علياً قرر أن يحسم المعركة عسكرياً، دفعه لمواجهة ذلك بجيش قوامه أهل الشام. وقد كان في عداده عمرو بن العاص ورجاله، حيث اتجها إلى صفين، وهي قرية خراب من بناء الروم، وتتمتع بموقعها القريب جداً من نهر الفرات، وهي تحجز بين جيش علي وبين الماء.

وقد جسّ معاوية قوة جيش خصمه، حين لم يستطع الحؤول دون وصوله إلى الماء، وأيقن أنه لا بدّ من المناورة من أجل الفوز.

ولذلك ما إن ابتدأ القتال في أول صفر من عام ٣٧هـ ولاح النصر لجيش علي، حتى تدارك الداهيتان: عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان الأمر بالحيلة، وكانت مكيدة رفع المصاحف، تحكيماً لكتاب الله بين الطرفين[١].

وقد نجحت مكيدة الداهيتين في شق صف خصومهم، ووقعت الفتنة الثانية التي حصدت نتائج الفتنة الأولى التي رتبت قتل عثمان وهزّت جذع الخلافة. وانقسم الناس إلى شيع وأحزاب في أمر القبول بالتحكيم أو رفضه. وقد ترتب عن ذلك النتائج التالية:

١ ـ تراجع جيش علي إلى الكوفة.

٢ ـ تراجع جيش معاوية إلى الشام.

٣ ـ خروج اثني عشر ألفاً من القراء وغيرهم من جيش عليّ فعسكروا في حروراء وكان شعارهم لا حكم إلا لله.

٤ ـ ثبات الحرورية على موقفها بعدما أرسل علي أبا موسى الأشعري لحضور جلسة التحكيم، وانتخاب عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي ومبايعته في العاشر من شوال عام ٣٧هـ.

٥ ـ عسكرت هذه الفرقة في النهروان على دجلة وواجهت علياً هناك وقد تشكلت منها النواة الأولى لفرقة الخوارج، التي غدت شوكة في حلق الدولة طيلة حكم علي ومن بعده الأمويين والعباسيين.

---

(١) الطبري: ٥٦٩/٤، والأخبار الطوال، ص١٦٧.

٦ - أسفر التحكيم عن خلع علي من الخلافة ومبايعة معاوية.

٧ - رفض علي النتائج واستمر في الخلافة.

٨ - غدا العالم الإسلامي عصر ذاك يشهد ملكاً على الشام هو معاوية، وخليفة في العراق هو علي بن أبي طالب. وقد استمر الأمر كذلك حتى تمكن الخوارج من قتل علي في الخامس عشر من شهر رمضان عام ٤٠هـ، على يد عبد الرحمن بن ملجم.

٩ - إن مصرع علي بن أبي طالب أخلى الساحة السياسية الإسلامية من المنافس الذي يعتبره معاوية المنافس العنيد والوحيد لمشروعه السياسي.

١٠ - استبد معاوية بالحسن بن علي الذي بويع بالخلافة بعد مصرع أبيه وأرسل إليه المغيرة بن شعبة ليفاوضه فأوعز للجراح بن سنان أن يكمن له. فجرحه بمعول ولوى لحيته، فحمل إلى المدائن وهو ينزف، حيث قدم هناك تنازله عن الخلافة إلى معاوية، خصوصاً وقد تخلى قائد عسكره عبد الله بن عباس عنه والتحق بمعاوية[1].

١١ - تحقيق حلم معاوية بالوصول إلى الخلافة، وانتصار المشروع الأموي باستعادة ملك ظلت عين أمية عليه طيلة الفترة التي تباعد بين أمية المؤسس في الجاهلية الذي جابهه هاشم في حينه فأخرجه إلى الشام، وبين معاوية المؤسس في الإسلام الذي جابهه علي ومعه الهاشميون. فقد ظفر بهم واقتنص الخلافة منهم بأناته وحيلته وشدة دهائه.

ويتجلى لنا، أن معاوية بن أبي سفيان، كان يعمل سراً وعلانية على تحقيق مشروع أمية الأول السياسي، في الظفر بالسلطة كملك عضوض لهم، يقاومون به نفوذ بني هاشم. وقد أفاد معاوية من علاقات الأمويين التاريخية بأهل الشام، فعمل طيلة فترة حكمة كوالٍ، على تأكيد سلطته عليها، حتى أنه لم يظهر فيها ممتعض ضد حكمه[2]، على نقيض ما حدث في سائر الأمصار الإسلامية. وهذا ما جعله

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري، ص٢١٦ - ٢١٨، وتاريخ اليعقوبي، ٢/ ٢١٤ - ٢١٥ (دار صادر، بيروت ١٩٦٠).
(٢) تاريخ ابن الأثير: ٣/ ٧٥ (طبعة مصر).

ينشىء جيشاً قوياً ينازل به جيش الخليفة علي بن أبي طالب في صفين، ويرغمه على عقد صحيفة التحكيم في أذرح[١]، من أجل لم شمل الأمة الإسلامية وإصلاحها، على أساس ما ورد في كتاب الله وسنة نبيه. فكان قبول علي للتحكيم هو أول الوهن والتراجع أمام المشروع الأموي. إذ أعلن في أذرح عام ٣٨هـ/ ٦٥٨م، خلع عليّ من الخلافة وتوليتها معاوية الذي سرعان ما استولى على مصر، وأثار الاضطرابات في العراق والحجاز. وبعد اغتيال علي بن أبي طالب، صار الخليفة الأقوى على المسلمين. وسارع إلى تتميم فوزه السياسي فأعلن الخلافة لنفسه في بيت المقدس، وإن كانت له يوم التحكيم[٢]. وبذلك أمكن الحديث عن طي صفحة الزعامة الهاشمية في النصوص الرسمية لتراجعها أمام مشروع الدولة الأموية، وإن ظلت هذه الزعامة قوية في نفوس العرب والمسلمين.

ويمكن أن نؤرخ لذلك بتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية عام ٤١هـ، بعدما لمس تخاذل العراقيين عن الحرب، فكان له شعوره الخاص بتفضيل مصلحة المسلمين العامة على مصلحته الخاصة. وحصل معاوية على مبايعة أهل الكوفة التي دخلها ذلك العام، فسمي عام الجماعة وذلك لاجتماع المسلمين على مبايعته. فمنهم من بايعه عن رغبة مخلصة وهم أهل الشام، ومنهم من بايعه مكرهاً وكارهاً وهم أهل العراق. وقد ظل لهم موقفهم المعادي للدولة الأموية طيلة حياة هذه الدولة، التي بدأت بمعاوية وانتصار أهل الشام، وانتهت بمقتل مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين، وانتصار أهل العراق. فقد عاد هؤلاء واسترجعوا مركزهم الذي فقدوه عندما فقدوا علي بن أبي طالب، وانتقلت عاصمة الخلافة الإسلامية من الكوفة إلى دمشق. وها هي تعود مع انتصار الدعوة العباسية وخروج الأمويين من السلطة، إلى بغداد في العراق من جديد.

٢ ـ الحركة الأدبية عشية العصر الأموي

عشية ظهور الدولة الأموية، ،لم يكن قد مضى على الدولة الاسلامية أكثر من

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان: مادة أذرح: ٥/ ٣٧٠.
(٢) تاريخ ابن الأثير: ٣/ ١٧٨.

ستة وثلاثين عاماً أو أقل بثماني سنوات، بحسب الرأي الذي يعتبر أن تاريخ تأسيس الدولة الاسلامية على يد النبي العربي لم يبدأ بالسنة الأولى من هجرته من مكة إلى المدينة، بل بالسنة الثامنة للهجرة، حين عاد إلى مكة ودخلها فاتحاً..

أما انتهاء هذه التجربة الاسلامية في بناء الدولة، فمنهم من يؤرخ له برفض معاوية بيعة علي حتى بعد موقعة الجمل، وتقبل بيعة عمرو بن العاص سنة ٣٦هـ، ومنهم من يجعله عام ٤٠هـ بعد اغتيال عليّ في رمضان من ذلك العام.

وهذه التجربة الاسلامية في الحكم، بقدر ما كانت شديدة الوضوح على المستوى الديني، فقد كانت بالتالي شديدة الغموض على المستوى السياسي. أما الحركة الأدبية التي كانت تهدر بين جنبات المجتمع العربي عصر ذاك، فقد كانت تقع تحت التأثير الديني، تماماً كما تقع تحت التأثير السياسي.. ولهذا فقد بدت تمور بكل إحداثيات هذه الوقائع مهما كانت درجاتها تبلغ من الفجاجة أو النضج.

الآثار السياسية

فمنذ ظهور الاسلام، انشغل العرب على مدى ثلاثين سنة ونيف، في أثناء حياة الرسول، ومعظم أيام الخلفاء الراشدين، بالفتوح والجهاد والاسفار. وكان لنزول القرآن الكريم وانتشار الحديث النبوي الشريف بينهم آثار عظيمة الوقع على قلوبهم وأذهنهم، مما أحدث تغييراً هاماً في عاداتهم وسلوكهم وأخلاقهم، كانت له انعكاساته القوية على علومهم وآدابهم.

ولا شك أن الإسلام، كان قد أخرج العرب من ظلمات الحياة الجاهلية الوثنية المادية إلى رحاب الحياة الروحية السماوية، حيث لا تعنو الوجوه إلا لبارئها الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وبعث برسالته السماوية التي تنطوي على فروض وواجبات دينية من مثل الإيمان بالله واليوم الآخر والحج والزكاة والصوم في رمضان وإقامة الصلاة في أوقاتها المحدّدة. ولقد حرَّمت الحياة الإسلامية جميع الفواحش ما ظهر منها وما بطن، مثل الزنا والخمر، وحثت على العمل الصالح، وجعلت الانسان مكلفاً. فهو بإزاء أعماله، فمن عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها. وحذرت وانذرت، ورغبت ورهبت، ووعدت وتوعدت، أخذاً بهدي القرآن الكريم، وعملاً على تنفيذ تعاليمه. فوراء هذه الحياة الدنيا، حياة أخرى، يحشر فيها

الناس ليحاسبوا على أعمالهم، فيعاقبوا أو يثابوا عليها. فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره. فالأبرار لهم الجنة والنعيم، والعصاة لهم نار الجحيم. والدعوة إلى الخير قوية، وذلك بر الفقراء والمساكين ووصل ذي القربى ومدّ يد العون لأبناء السبيل.

وقد كان «لهذه الحياة الدينية الجديدة أثرها البعيد في العرب، وخاصة في صحابة الرسول من المهاجرين والانصار. فقد امتلأت قلوبهم بالإيمان، وانتصبت أمام أبصارهم الجنة والنار»[1]. فكان منهم من يراقب الله في كل ما يأتي، ويخشى عقابه ويرجو ثوابه. مما كان يفضي به إلى قلق روحيّ عظيم في كثير من الأحيان. فكان يبدو مثلاً، خائفاً وجلاً من سلطان أعلى يسيطر على الكون والناس، حدّد حريته، فلم تعد حرية مطلقة، لأن الدين الجديد قيدها بأوامره ونواهيه.

وهكذا بدأت أعمال النهب والسلب والتفاخر بالأنساب والأحساب، تخفُ كثيراً بين أبناء المجتمع الاسلامي الجديد، فبدت وكأنها تأخذ طريقها إلى الزوال. وأخذ الناس بأسباب الإئتلاف والتعاون. وحلت الوحدة محل الفرقة. وبدأت الدولة الإسلامية تبسط سلطانها على أسس الشريعة الجديدة التي تقوم على العدالة والإخاء والتعاون والرحمة فيما بين الأفراد والجماعات، فلم يعد مسموحاً نهش الأعراض أو أكل لحم الأخ ميتاً أم حياً. والتفّ جميع المسلمين تقريباً حول راية الإسلام، ينشدون في ظلها الفأل والخير والأمل بالمستقبل، واكتفوا بدولتها مرجعية وحيدة تنظر في شؤونهم ومصالحهم وتدافع عن حقوقهم، وتحفظ لهم وحدتهم وتآزرهم.

كل ذلك كان يجري بحكم الضوابط الإدارية والعسكرية والتنظيمية التي كانت ترعاها سلطة الخلافة الراشدة بهدي من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. وعلى هذا المستوى من الحياة الاجتماعية، كان يسود الهدوء والإطمئنان، إلى جانب أعمال الفتوح التي كانت تشق الأمصار وترفع رايات الاسلام في المشرق والمغرب.

وعلى المستوى الآخر من الحياة الإسلامية، ورغم الضوابط الإدارية والعسكرية والتنظيمية التي كانت ترعاها السلطة الراشدة، كان يشعر الناس بين الحين

---

(١) ضيف، شوقي، التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص١١.

والآخر، ببعض الاهتزازات السياسية، خصوصاً في الأوقات العصيبة، حيث تثور العصبيات، وتشتد الإحن، وتلتفّ القبائل حول أحزاب تجد نفسها فجأة في صراع مرير وشديد على سلطة الخلافة.

هذا ما حصل فعلاً عقب وفاة الرسول، حين تداعت القبائل لاختيار الخليفة الأول. فظهر المهاجرون وظهر الانصار. وظهر مؤيدو أبي بكر، وظهر مؤيدو علي.

وكلما كان المسلمون يتقدمون في السلطة، كلما كان يشتد النزاع بينهم، وتشتدّ أسبابه. فنرى الفرقة تقصف بينهم فتجعلهم تيارات وأحزاب متصارعة، يحاول بعضها أن يأكل البعض الآخر.

هذا ما جرى أيضاً بعد وفاة أبي بكر. وعقب مقتل عمر وعثمان وعليّ. تشغر سدّة الخلافة، فتهب الأحزاب والتيارات والزعامات للإمساك بها.

كل يحاول تلقفها مثل الكرة، ويخشى أن تسقط في أيدي غيره. وما تكاد المعارك بينها تنجلي في العلن عن حسم سياسي لمصلحة هذا الفريق أو ذاك، حتى كان يشتد أوارها في الخفاء، فيبدأ التخطيط لقتل القادة والتخلص من مزاحمتهم السياسية.. وتبدأ مع ذلك أعمال التفسير والتأويل للنصوص والأحاديث. وتعظم الاجتهادات في هذا السبيل، وتكثر المواقف، وتشتد وتقوى، ويصبح لها اتباع وملل ونحل لا تقع تحت حصر. تأخذ بالتفسخ شيئاً فشيئاً كلما تقدم بها الزمن، وكلما شعر الطامحون للسدّة، أنهم بحاجة إلى بيان ولجان..

ومع ظهور الحزب الأموي على الحزب العلوي بعد معركة المصاحف في صفين، وعقب مقتل الإمام علي على يد الخوارج، كان بالإمكان النظر بوضوح إلى اللوحة السياسية الاسلامية، ورؤية عمق الإنشقاقات الحزبية فيها.

فقد أخذت تظهر في صفوف الأشراف من أبناء كبار الصحابة، معارضة حادة لأخذ معاوية البيعة لنفسه، ومن ثم لابنه يزيد بولاية العهد واستخلافه على المسلمين. من بعده. كما أخذت الأحزاب والتيارات السياسية، تقوى وتشتد، مما جعل الدولة التي اسسها معاوية، تحزم أمرها بسرعة لتضرب هذه القوى والتيارات السياسية المعارضة، قبل ان يستغل أمرها فتصبح كأداء يصعب حلُّها كلّما تقدم بها الزمن.

فقد كان على الدولة الأموية منذ تأسيسها، أن تحسن السباحة والعوم في البحر السياسي الهادر الذي تتلاطم فيه أمواج السنة والجماعة مع أمواج الشيعة والخوارج والمرجئة والزبيريين وسائر الحركات السياسية التي كانت تنتفض على الأمويين في طول الامبراطورية الاسلامية وعرضها، في مشارق الأرض ومغاربها. وكثيراً ما كانت الأمور تحتاج إلى حسم عسكري في كربلاء ومكة والمدينة والحرة والكوفة ومرج راهط من أجل تثبيت دعائم الحكم الأموي، ومن أجل القضاء على الثورات الاسلاميّة المعارضة والمناوئة، مثل ثورة المختار الثقفي وثورة عبيد الله بن الحر، وثورة ابن الزبير، وثورة الخوارج المتمثلة بحركة النجدية والازارقة والصفرية والإباضية. وثورة البهلول وثورات الموالي وثورة مطرف بن المغيرة بن شعبة وثورة عبد الرحمن بن الأشعث وثورة يزيد بن المهلّب وثورة عبد الله بن معاوية. بالإضافة إلى مواقف الرفض ونقض الولاء، التي وقفها بعض الولاة في الأمصار وحركة التوابين في العراق وحركة الضعفاء التي بلغت أوجها في ثورة زيد بن علي.

الآثار الحضاريّة:

حين ألقت قوافل الفتوح رحالها في الأمصار الشاميّة والعراقية والمصرية والمغربية، وجدت أمامها حضارات الدول السالفة التي كانت تغطي جميع الميادين العمرانية والزراعية والعلمية والعسكرية والفنية بأنظمتها الدقيقة وخططها الشاملة. فاستطاعت ان تهضمها بسرعة عجيبة وان تتمثلها في حياتها الحضارية المقبلة. فكان الإقبال على تعريب الدواوين التي يلزم تعريبها، وعلى وضع المصكوكات اللازمة من أجل تسيير عجلة الإقتصاد، وعلى حض العلماء والخبراء والفنانين من أجل الإنكباب على نبش العلوم للوصول إلى كنوز المعرفة بأي سبيل. مما دفع الباحثين الغربيين المحدثين للتعجب من تلك الإرادة العربية القوية التي تقبل على الحياة العلمية بنهم وشراهة، حتى قال ريسلر: عجبت لذلك البدوي الأميّ، كيف كان ينزل عن صهوة جواده فيقايض بكل ما في حوزته من مال ليدفع ثمن مخطوطة، يضعها بين أيدي العلماء من أبناء أمته[١].

---

(١) ريسلر: الحضارة العربية، ص.

وهذه الارادة الشعبية والرسمية التي كانت تلح على طلب ألوان المعارف العلمية للوقوف على كنه الحضارات في الأمصار المفتتحة، استطاعت ان تقطع أشواطاً عظيمة في هذا المضمار بزمن قصير. إذ لم تمضِ عشرات السنوات حتى نجد العرب قادرين على تمثل معظم، ان لم نقل جميع، الألوان الحضارية، لدى الروم والفرس، وغيرهم من ممالك ذلك العصر.

والأهم من ذلك، ان العرب كانوا يقومون بنقل جميع ألوان هذه المعارف والعلوم والفنون الحضارية إلى قلب الجزيرة العربية.

ولا غرو، فرغم انتقال الخلافة إلى الكوفة ثم إلى دمشق، فقد استطاعت مدن الحجاز، وخاصة مكة والمدينة ان تحتفظ بمكانتها الدينية والأدبية والعلمية، وأن تكون بالتالي مستقراً لأكثر طوائف المجتمع العربي غنىً وجاهاً وورعاً وتديناً.

ولقد أسهمت في ذلك عوامل مختلفة، منها الثراء الواسع الذي أصاب أبناءها من خلال إغداق أموال الفتوح عليهم، ومنها أيضاً دخول عناصر أجنبية لهم باع طولى في العلوم والفنون على شتى الصعد.

فكنا نرى كيف تعيش المدينة مثلاً عيشة دل ورخاء، حيث ترتفع القصور ويبالغ في تجميلها وتزيينها، ويقوم على خدمة أهلها الرقيق الأجنبي الذي اجتلبوه، وقد كان من الكثرة العظيمة بمكان، بحيث روي ان الزبير بن العوام خلّف وحده ألف عبد وأمة[١].

وكان أهل المدينة ينعمون بألوان الطعام المختلفة، ويرفلون بالحلل الحريرية والأكسية الدمشقية والدبيقية، ويتخذون صنوف الحلي والجواهر لنسائهم. وكانوا يتعطرون بالمسك وغيره من أنواع الطيب. أمّا طبقة الموالي فكانت تهيء للعرب جميع الأسباب لينعموا بكل ألوان الترف إذ اكتظت بهم قصورهم. يقول ابن خلدون: «لما ملك العرب فارس والروم، استخدموا بناتهم وأبناءهم، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة. فقد حكي أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعاً، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى، فاستعملوه في عجينهم. فلما

---

(١) المسعودي: مروج الذهب: ٤/ ٢٥٤.

استعبدوا أهل الدول قبلهم، واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم، واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليه، أفادوهم في علاج ذلك، والقيام على عملهم والتفنن في أحوالهم، فبلغوا من ذلك، وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال». واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية، وسائر الماعون والخُرثيّ، فأتوا من ذلك وراء الغاية»[١].

وطبيعي كما يقول الدكتور شوقي ضيف، «أن يكثر في هذا المجتمع المتحضر المترف الشباب العاطل الذي يريد أن يقطع أوقات فراغه الطويل في لهو برىء، وسرعان ما كان يقدم له الرقيق الأجنبي ما يريد من هذا اللهو، إذ عني عناية بالغة بالغناء، عناية استحدث في اثنائها نظرية الغناء العربية التي نقرأ رقمها في كتاب الأغاني تالية الأدوار»[٢].

ولا نريد الاسترسال في الحديث عن النبوغ العربي في فن الغناء والذي تأثر تأثراً عظيماً بألحان الروم والفرس، بل نريد أن نشير إلى أن كبار المغنين العرب في ذلك العصر، كانوا قد اشتهروا بالمدينة، نذكر منهم مثلاً طويس الذي يعتبر أول من تغنى بالغناء المتقن،[٣] وسائب خاثر مولى ابن جعفر، وهو ممن نقلوا ألحان الفرس إلى الغناء العربي، ومعبد، وابن عائشة ومالك الطائي وعطّرد ويونس الكاتب، بالإضافة إلى ثلة من أشهر المغنيات، أمثال عزة الميلاء وجميلة وسلامة القس، وحبابة وسلامة الزرقاء.

واللافت انه انتشرت في المدينة دور كانت مخصصة للسماع، وقد وفدت هذه العادة من بلاد الشام وفارس. فأقبل عليها الشباب اللاهي الذي كان يعيش على ضواحي وريف السياسة الأموية، مما جعاها تقوى وتنتشر حتى بلغ عددها العشرات في المدينة وحدها. وأشهر هذه الدور، دار جميلة التي يقص أبو الفرج الكثير من أخبارها، فيذكر أن جميلة كانت تقوم أحياناً باستعراض كبير يضمّ أشهر المغنين والمغنيات، لا في المدينة فقط، بل أيضاً في مكة، ويذكر أنها حين أرادت الحج،

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص١٢١.
(٢) ضيف: العصر الإسلامي، ص١٤٠.
(٣) الأصفهاني، الأغاني: ٣/ ٢٩.

خرجت في مهرجان ضخم من المغنين والمغنيات، ضمّ نحو عشرين مغنياً وخمسين قينة(١).

وفي مكة، كانت الحياة شبيهة كل الشبه بحياة المدينة، إذ غرقت مثلها في الثراء المتعدد الروافد. وربما كانت أكثر الأموال تعود إلى التجارة المزدهرة التي كانت تقوم بها قريش سابقاً، خصوصاً وأن قوافل مكة كانت تحل محل قناة السويس في عصرنا، إذ كانت تنقل السلع بين حوض المحيط الهندي وحوض البحر المتوسط، وقد أضيف إلى هذا الرافد المالي، رافد اموال الفتوح الاسلامية ورافد الأعطيات ورواتب الجند وما قسم الأمويون لهم من أموال، بالإضافة إلى رافد الحج الذي كان يفىء عليهم كل عامٍ، مما جعل اقتصادها في مستوى عالٍ من الانتعاش الدائم.

ولا ننسى أنّ الأمويين كانوا قد شيّدوا فيها قصوراً عظيمة، مما كان يستدعي إنفاق الأموال الباهظة التي تفي بحاجات البناء الآخاذ من الناحية المادية. ويقال إن معاوية، مؤسس الدولة الأمويّة، كان قد بنى لنفسه في مكة دوراً عظيمة عرفت بالرّقط وذلك لاختلاف ألوان حجارتها السوداء والبيضاء والقرمذيّة. وقد أحضر المهندسين المعماريين الذين كلفهم القيام بمشروعه هذا، من بلاد فارس. ويبدو أن دور معاوية، لم تكن أعظم من الدور التي بناها الصحابة في مكة، بدليل أن معاوية، كان إذا حج وقف مبهوتاً إزاء بعض قصورها الأخرى(٢).

وفي ذلك العصر، التفت الناس إلى استنباط العيون في مكة وجوارها، وغرسوا النخيل في ضواحيها، مما كان يساهم في توفير المال والرفاه لأبنائها. ويروي اليعقوبي ان عامل مكة خالد القسري صنع بركة في أصل جبل «ثبير»، بحجارة منقوشة، وأسال منها الماء إلى المسجد الحرام في قصب من رصاص، انتهى بفوّارة تسكب الماء في نافورة رخام بين الركن وزمزم(٣).

وفي ظل الأمويين، كانت مكة تغرق إلى آذانها في الترف والنعيم. فكان من

---

(١) نفسه: ٨/٣٠٩.
(٢) الأغاني: ١/٢١١.
(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/٣٥١.

أهلها من يأكل ويشرب في صحاف الذهب والفضة[١]. كما كان منهم من يلبس الأكسية المطرزة بالخز والسندس والديباج، ويتشح بالحلل الموشاة بالألوان المختلفة، ويتطيب بأنواع العطور الغالية الأثمان.

بالإضافة إلى ذلك، فقد كان مجتمع مكة، غنياً بدور اللهو والغناء، وذلك لتزايد عدد الرقيق الأجنبي فيها. فقد نهض هؤلاء بحاجات أهلها في مطاعمهم ومشاربهم وتوفير كل أدوات ترفهم. حتى أننا نحس ضرباً من التعاون الوثيق بين أصحاب هذا الفن في مكة، وأصحابه في المدينة. مما جعل مكة تبدو وكأن مجتمعها على غرار مجتمع المدينة حضارة وترفاً ومرحاً ورقة وغناء.

وإذا كانت هذه هي حال مدن وحواضر الحجاز، فإن الأمور كانت مختلفة تماماً في نجد وبوادي الحجاز. إذ ظلت حضارة المدن بمنأى عنها.

فالقبائل ظلت تعيش على الرعي، وكأنها تحافظ على نمط الحياة التي عرفه أسلافها. بل ربما قست ظروف الحياة فيها إبان العصر الاسلامي، فجعلتها تعاني مرّ العيش أكثر من السابق. وفي ظل هذه الحياة الشظفة، كانت تكثر المنافسات على المراعي، فتتربص القبائل مثلاً ببعضها البعض. وكثيراً ما كان ولاة الدولة الإسلامية، يضطرون للزج ببعض الأفراد في السجون وذلك لوضع حدّ للشجار الدامي على مرعى والذي سرعان ما يستفحل بين القبائل، حتى تبدو وكأنها عادت إلى حياة الجاهلية.

ونحن نذكر ان كثيراً من العرب المتبدين، كانوا قد ارتدوا عن الإسلام عقب وفاة الرسول ﷺ. ولم يعد إليه إلاّ بعدما حمل عليهم أبو بكر بقسوة. وربما أسهمت الحملة الإسلاميّة الشديدة على البوادي، في جعل القبائل تتخلص إلى حدّ كبير من عاداتها الجاهلية مثل الثأر وإذكاء العصبيات، وإن لم يكن بالإمكان مغادرة هذه العادات كلياً بسبب ظروف الحياة الموضوعيّة التي تعيشها القبائل في البوادي.

ويفسر كثير من الباحثين، تراجع شعر الفخر والهجاء في البوادي، بسبب نزع الاسلام لفتيل الحروب الثأرية والعصبيّة، خصوصاً في البوادي. وقد ترك ذلك فراغاً

---

(١) الأغاني: ٥/٦٦.

عظيماً في نفوس شعراء البوادي فحاولوا ان يملأوه بشعر الغزل فنجوا نجاحاً عظيماً. فتكاثر شعراؤه كثرة مفرطة، وتكاثرت قصص الشعر الغراميّة خصوصاً في قبيلتي بني عذرة وبني عامر، ولمع في سماء هذا النوع من الشعر المستنجد في حياة العرب اسماء شعراء هاموا في البوادي وراء محبوباتهم مثل جميل وعروة بن حزام وقيس بن ذريح وقيس بن الملوّح، وكأنما أفرغوا فيه صور البطولة التي خسروها في النزاعات العصبيّة والتي كانت تنشب أظفارها فيما بينهم في ظل حيلتهم الجاهلية السابقة.

أما الحياة في أطراف الجزيرة الغربيّة الشماليّة، والتي تحاذي بلاد الشام، فكانت تشهد نزاعات مروعة بين العشائر القيسيّة والعشائر اليمنية، بسبب اصطدام المصالح السياسيّة فيما بينها أولاً، ثم بسبب اصطدام المصالح الاقتصادية والتنازع على المراعي والمضارب ثانياً. فقد وقفت كلب واخواتها اليمنية تؤيد وتناصر وتوالي بني أميّة، وكذلك فعلت تغلب، أما قيس فقد وقفت في الصفوف المواجهة والمعادية لها على الدوام، وإن كانت تناور دائماً في سياستها مع الأمويين، حين تثور أو تهادن.

ويمكن للباحث ان يسجل حدوث اعنف المعارك العسكرية بين القبائل العربية في ظل الاسلام والدولة الأموية، وذلك عشية وفاة يزيد بن معاوية وانتقال الخلافة إلى مروان بن الحكم. فكانت وقعة مرج راهط التي انهزمت فيها قيس في الشام امام كلب وقضاعة وتغلب، وقتل فيها الضحاك زعيم قيس. ثم كانت مواقع حربيّة عديدة، بين قيس في الجزيرة وبني كلب وتغلب، قتل فيها عمير زعيم قيس أيضاً والذي ثأر له زفر بن الحارث الكلابي في موقعة مرْج الكحيل، ففتك بتغلب فتكاً عظيماً. أما الحديث عن امتداد هذه الثورات داخل العراق، وكثرتها كثرة عظيمة، فقد أشرنا إلى ذلك في مكان آخر، ولا داعي للعودة إليه مرّة أخرى، رغم تأكيدنا على الفصول الدامية التي كانت تشهدها الكثير من الأمصار الناقمة أو الثائرة على الإدارة الأموية وحكم الأمويين، مما جعل حياة المسلمين تتضرّج بدمائهم، نتيجة طبيعة للإحن والضغائن التي كانت تستبد بنفوسهم.

ويبدو أنه كان لكل من الكوفة والبصرة تأثيرهما البالغ على مجريات الأحداث

التي طبعت الحياة الإسلامية المبكرة بطابعها الخاص. فقد خططت هاتان المصران بناء لطلب الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب. ونزلت قبائل العرب في خططها التي خصصت لها، فشكلت بذلك مادة الجيوش المحاربة طيلة العقدين الأولين من حياة الدولة الإسلامية. ثم سرعان ما عصفت السياسة بقبائلها، وجعلتها تدخل في تحالفات انغمست في الصراع المرير الذي كان ينشب على سدّة الخلافة، كلما دنا موعدها. فالكوفة كانت حاضرة الإمام علي، أما البصرة فقد كانت حاضرة خصومه السياسيين عائشة وطلحة والزبير، وبينهما كانت وقعة الجمل، حيث انتصر علي فيها، ودخلت البصرة في عهد الكوفة، إلى أن جاءها معاوية بعد وقعة صفين، فاستقلت البصرة له، ودخلت الكوفة في عهدها.

وظلت الكوفة والبصرة، مصدر جميع النزعات السياسية في الإسلام لحقبة طويلة من عمر الخلافة الأموية. ولربما تركت بصماتها القوية على جميع العهود السياسية التي أتت على حياة المسلمين، وجعلتهم نهب الأهواء الغادرة والفرقة القاتلة.

إلى هذا، نذكر أن الكوفة كانت تكتنفها من الشرق الزروع والنخيل والأشجار، ويسقيها نهر الفرات، أما من الغرب، فكانت الحيرة والنجف والخورنق والسدير والغريّان، ومنتزهات وأديرة كثيرة[١]. وكان ينزل فيها مع العرب جميع رقيق الحروب التي خاضوها، كما أخذ يتوافد إليها الكثير من النبط والصناع والتجار.

أما البصرة التي خططت معسكراً للجيوش المقاتلة في الشرق، فقد كانت تقع على مقربة من مصب نهر دجلة، في إقليم البطائح وشاطىء خليج العرب، وبالتالي على حافة البادية. وقد نزلها أيضاً مع العرب الرقيق الفارسي، ونفر من الهنود الذين عرفوا بالزط والسيابجة والإندغار، وكذلك جماعة من الأصبهانيين وأخرى من الحبش[٢]. وقد ازدهرت في البصرة زراعة النخيل بفضل العديد من النهيرات التي تفرعت من دجلة، كما عرفت تجارة عظيمة وذلك لوقوعها على الخليج. وقد

---

(١) ياقوت، معجم البلدان: مادة الكوفة.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٤١، وتاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٥.

شهدت هذه المدينة مثل الكوفة صراعات دامية بين الأحزاب والتيارات السياسية الإسلامية التي فرقت صفوف قبائل العرب فيها، ونخرت حياتهم من الداخل، وشهدت على تاريخ ثورات مريرة وقاسية، كانت تخوضها القبائل بقسوة، فأثرت على حياتها، كما أثرت على مستقبل الحياة الإسلامية ودولة الإسلام فيما بعد.

أمّا في الشام، فقد ورث العرب المدن هناك ولم يمصروا الأمصار. وأقبلوا على حياة الدعة والرفاه، في ظل المدن الشامية التي كانت تتنفس الحضارة اليونانية والرومانية. وهذا ما كان سبباً في تسريع عجلة النماء والازدهار لدى عرب الشام، خصوصاً وقد تحولت دمشق إلى عاصمة الدولة، فكانت سيول الذهب والفضة تنهال على فئاتها وشرائحها الاجتماعية المختلفة، مما جعل معاوية يقول (إننا تمرغنا في نعيم الدنيا تمرغاً)[1]. ولا شك أن أثر هذا النعيم الزائد عن حدّه لبلوغه سقف التهتك والاستهتار، كان قد ظهر بكل قوة في سيرة حياة ابن معاوية (يزيد)، فكان يشرب الخمر (يعزف بالطنابير وتضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب).

فإذا ما انتقل الملك إلى مروان بن الحكم وخلفائه، نجد كيف أحاط هؤلاء أنفسهم بالعظمة والأبهة، داخل قصورهم التي كانت تزدان بالطنافس وتلمع حيطانها بالفسيفساء البديعة أما خارج هذه القصور، فقد عملوا على بناء المساجد والقباب وتزيينها، بما يجعل منها تحفاً معمارية رائعة تضاهي العمارة الدينية البيزنطية والفارسية، ضخامة وتتفوق عليها هندسة وتنافسها جمالاً وروعة.

وما من شك أن الأمويين بوجه عام ومعظم العرب الموالين لهم، والعدد الجم أو الغفير من الحاشية والبطانة، كانوا قد أترفوا بشكل تجاوز حدود المعقول، وقد انعكس أثر ذلك على حياتهم، إذ قيل عن الوليد بن يزيد بن عبد الملك أنه كان يلبس حول عنقه قلائد ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة. وكان يغيّرها في اليوم مراراً كما تغير الثياب شغفاً[2].

وما كان يجري على أهل الحكم في دمشق ومكة والمدينة وحتى في البصرة

(١) الطبري: ٤/ ٢٤٧.
(٢) الأغاني: ٧/ ٥٩.

والكوفة، كان يجري أيضاً على أهل الحكم في الفسطاط والقيروان والأندلس، وقد كانت الكثرة الكاثرة منهم، عرباً شاميين نالوا قسطهم وتأثرهم بها منذ زمن قديم. وربما لا مست هذه الحياة الحضرية نفراً من الأتقياء، فلبسوا الديباج والقلانس، وقد كنوا عن هذا التحول في حياتهم، بأنهم طعموا الجرْدق ولبسوا النمرق. وعنوا في ثنايا هذه الحياة الرغدة بأسباب اللهو المختلفة مثل سباق الخيل والصيد والقنص ولعبة الشطرنج والنرد.

وفي خراسان نال العرب حظهم من الأموال وفيء الغنائم، وكانت تبلغ درجات خياليّة. ويروي الجهشياري قال: سئل عبد الرحمن بن زياد الذي ولاّه معاوية أعمال خراسان، عمّا صار إليه من أموال في أثناء ولايته، فقال: (إني قدّرت ما عندي لمائة سنة، فإذا هو يبلغ في كل يوم ألف درهم)[١].

ويروى أن الإصبهبذ في طبرستان، كان قد صالح يزيد بن المهلب في بعض حروبه هناك، على سبعمائة رجل، على كل رجل بُرْنس، وعلى البرنس طيلسان ولجام وفضة وسرقة (شقة حرير)[٢].

وكان الأمراء والدهّاقون يقدمون على ولاة خراسان بالهدايا النفيسة، وقد قومت إحدى هداياهم لأسد بن عبد الله القسري بألف ألف، وكانت قصرين: قصراً من فضة وقصراً من ذهب، وأباريق وصحافاً من ذهب وفضة)[٣]. ويروى أن هدية نصر بن سيّار التي أعدها للوليد بن يزيد، كانت من الجواري والبرازين الفارهة، وأباريق الذهب والفضة، وتماثيل الظباء والسباع، ويقال إنه أرسل له الكثير من آلات الطرب التي شغفته كثيراً[٤].

حقاً، فقد أترف العرب في خراسان ترفاً عظيماً، بسبب ما كانوا يحظون فيها من أموال، وربما كان لذلك أثره السيء على نفوسهم حتى لنرى بعض الولاة يقول: (إن فيء خراسان لا يفي بمطبخي)[٥]. ونحن نقع في نصوص كثيرة على مدى ما

---

(١) الجهشياري، ص٢٩.
(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٩٥.
(٣) نفسه: ٥/ ٤٦٥.
(٤) نفسه: ٥/ ٥٣٣.
(٥) الأغاني: ١٤/ ٢٨١.

بلغوا من بذخ وترف. فيزيد بن المهلب، كان يتخذ ألف خوان يطعم عليها الناس. وكان هؤلاء الناس يحتفلون بعيد النيروز والمهرجات ويختلفون إلى حوانيت الشراب ودور الغناء واللهو.

وبدأت النساء العربيات بالميل إلى اتخاذ الزينة والتفنن بذلك تفنناً واسعاً، خصوصاً حين شعرن بمزاحمة الجواري لهن في قلوب الرجال. وقد روى لنا الأصفهاني في خبر حج عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان، أنها جاءت بهيئة جهدت فيها، لأن عائشة بنت طلحة خرجت تحج. ويذكر لنا كيف كانت تصادف مواكب خازنتها وماشطتها، إلى أن أقبلت عائشة بكوكبةٍ فيها ثلاثمائة راحلة، عليها القباب والهوادج[١].

الآثار الثقافية:

تأسيساً على ما تمّ الإحاطة به من آثار سياسيّة وحضارية، كانت تسود طبيعة الحياة العربيّة عشية ظهور الدولة الأموية، يمكن ان نرى بكل وضوح ثلاثة روافد ثقافية كانت شديدة التأثير على مجرى الحركة الأدبية التي عاشت في ظل الدولة الأموية، فاغتذت بمائها وتفيأت بظلالها، ونهضت بحوافز منها، أقله ذلك الحافز السياسي، الذي كان شديد التأثير على تفجرها بالقوة التي تفجّرت به، في مواضيع الفخر والمديح والهجاء والغزل والسياسة والرثاء، وربما الوصف أيضاً.

وبرأينا ان الرافد الأول كان يتمثل في مورث هذه الحركة الأدبية وموروث أمتها من حياة العرب في العصر الجاهلي. فمن موروثاتها الفنية، تقاليد القصيدة العربيّة بفنونها المعروفة، وذلك السجل الحافل من تاريخ العرب السياسي والعسكري، الماثل في أيامها المشهورة، وانسابها المعلومة والمحفوظة. ونحن نرى كيف كان العرب في العقد الأول من الاسلام، ينصرفون للعبّ من هذا الرافد وقد كان يمدّهم بموروثهم الذي يشكل أقوى مظان حياتهم الماضية: الشعر والأيام ومعرفة الانساب.

ونحن نرى كيف كان العرب يراجعون رواية الشعر الجاهلي، ويحاولون

---

(١) نفسه: ١١/١٨٨.

التخصص بالأنساب ويكثرون من الإحاطة بأخبار حياة القبائل في الجاهلية، ومعرفة أيامها التي كانت لهم فيها. وقد لمع اسم عُبيد بن شريّة كراوية لأخبار القبائل اليمنية، كما لمع اسم دغفل بن حنظلة كواحد من أشهر النسابة العرب. ونضيف إلى هذا وذلك النخار بن أوس العُذري وزيد بن الكيس النمري، وشهاب بن مذعور، وبني الكواء.

أمل الرافد الثاني، فهو الرافد الإسلامي. فقد أفاد العرب من نزول القرآن الكريم بينهم، تماماً كما أفادوا من حديث النبيّ ﷺ وسيرته وغزواته. وبدأت تظهر طبقة من الصحابة، الذين اختصوا بعلوم القرآن وشرحه وتفسيره. وبتاريخ نزوله وتدوينه، وكنا نرى منهم من يختص أيضاً بعلم الحديث وتدوينه. ناهيك عن الاهتمام بتاريخ الفتوح الاسلاميّة وأحداثها وما اتصل يها من حروب مختلفة ومن تنازع على سلطة الخلافة، وقد انسرب هذا الرافد الاسلامي في شعبيتين كبيرتين: «شعبة تاريخية تعنى بتاريخ الاسلام على نحو ما يصور لنا ذلك أبان بن عثمان بن عفان وعروة بنْ الزبير، في اهتمامها بمغازي الرسول، وكان هناك من عنوا بجمع أخبار أهل الكتب السماوية، مثل وهب بن منبه. وشعبة دينية، تُعنى بقراءات القرآن والحديث النبوي وما يتصل بهما من تشريع وفقه. وقد ألف أصحاب هذه الشعبة في كل بلد إسلامي، مدرسة كبيرة، يأخذ فيها الخلف عن السلف، واشتهر من بينهم بمكة تلاميذ ابن عباس، وعلى رأسهم عطاء وعكرمة. وبالمدينة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، ومولاه نافع، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وعروة بن أذينة والزهري، وباليمن طاورس، وبالكوفة تلاميذ ابن مسعود وعلى رأسهم الشعبي، وسعيد بن جبير وشريح بن الحارث القاضي، وبالبصرة ابن سيرين والحسن البصري وقتادة وإياس بن معاوية، ومالك بن دينار، وبخراسان الضحاك بن مزاهِم، وبالشام شهر بن حوشب ومكحول والأوزاعي، وبمصر الصابحي ويزيد بن عبد الله البربي[١].

بالإضافة إلى ذلك فقد ظهرت طبقة من المعلمين، كانت تعلم الناشئين علوم القرآن والحديث، وترويهم الشعر. وكنا نرى من يختص منهم بتعليم اولاد الخلفاء

(١) ضيف، شوقي العصر الإسلامي، ص٢٠٠.

والأمراء والولاة والقادة. كما أنشئت دور الكتاتيب في القرى، وذلك لتعليم أبناء العامة.

ومثلما كانت تغتذي الثقافة العربية من هذين الرافدين: الجاهلي والإسلامي. في العقد الأول من حياة الدولة الاسلامية، فقد كانت تغتذي أيضاً من رافد ثالث، هو رافد الثقافة والعلوم والآداب الاجنبية التي كانت توافي العرب من خلال ملابستهم للأمم والشعوب التي عاصرتهم.

فقد اندفع العرب «يطلبون كل ما لدى هذه الأمم من معارف تطبيقية نافعة، فتعرفوا على تخطيط المدن وعمارة المباني، وطريقة استغلال الأرض وشق التُرع والقنوات. كما تعرفوا على طرق جباية الخراج وضبط الدواوين، ونقلوا في ذلك عن الفرس والروم كثيراً. وكانوا في أول الأمر يستعينون بالأولين في دواوين العراق وفارس وخراسان، وبالآخرين في دواوين مصر والشام. وظلوا على ذلك إلى عصر عبد الملك، إذ عُربت تلك الدواوين. وقد دفعتهم حروبهم مع الروم، لإنشاء الأساطيل، واقتباس بعض أساليبهم الحربيّة» ويتابع الدكتور شوقي ضيف قائلاً: «ولم يقف العرب في تأثرهم بالأجانب عند المعارف التطبيقية النافعة، فقد تحولوا إلى المعارف النظرية البحتة يدرسونها. وكانت تنتشر في البلاد التي فتحوها الثقافة الهيلينية، وهي مزيج من الثقافة اليونانية وثقافات شرقية مختلفة دينية وغير دينية. وكانت تعنى بهذه الثقافة مدرسة جُند يسابور في إيران، ومدارس أخرى في الرُها ونصبين وأنطاكية وقنسرين وحرّان والاسكندرية. كما كانت تعنى بها بعض الأديرة في العراق والشام ومصر. وكان المعلمون في هذه الأديرة والمدارس، يعتمدون غالباً على مصادر سريانية ويونانية. وممن اشتهر في هذا العصر«سيويرس سيبوخت» اسقف قنسرين وتلميذه يعقوب الرهاوي، وجورجيس اسقف حوران، وكانوا جميعاً يعنون بالمنطق الأرسطي والفلسفة اليونانية»[1].

ولا شك أنه كان لهذه الروافد الثقافية الثلاث، بما حملته من مواد وعناصر علميّة، أثرها البارز على حركة نهوض العقل العربي من جهة وعلى حركة نمو

---

(١) ضيف، العصر الإسلامي، ص٢٠٢، الذي عاد إلى مقالة مايرهوف «من الإسكندرية إلى بغداد» في التراث اليوناني لعبد الرحمن البدوي، ٥٣ وما بعدها.

المناخات العلمية والأدبية واتساع ظلالها من جهة أخرى. فنحن نرى مثلاً كيف كانت العلوم الاسلامية تأخذ طريقها إلى الازدهار، وذلك بظهور التخصصات في جميع ميادينها، مثل علوم الفقه وعلوم التفسير وعلوم الحديث. وكثرت المناظرات السياسية والدينية بين الجماعات والاحزاب، وكانت كل فئة من هؤلاء يثيرون الجدال في كل مكان.

وبالعودة إلى أخبار الخوارج مثلاً نرى كيف كانوا يجادلون علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس. ومما يروى في هذا المجال، ان عبد الملك بن مروان استمع إلى رجل من الخوارج وهو ينافح عن عقيدته، فجعل يبسط له من قولهم ويزين له من مذهبهم بلسان طلق وألفاظ بينة ومعانٍ قريبة، حتى قال عبد الملك: لقد كاد يوقع في خاطري ان الجنّة خلقت لهم، وأني أولى بالجهاد منهم.. ثم رجعت إلى ما ثبت الله عليّ من الحجة وقرر في قلبي من الحق[١].

أما الشيعة، فقد دخلوا في جدال طويل، مع جميع أصحاب الفرق التي كانت تعاصرهم، وكان أقدرهم على الجدال زيد بن علي بن الحسين مؤسس مذهب الزيدية الشيعي. وكان تأثيره قوياً على الكميت الشاعر المعروف، الذي لقبت أشعاره بالهاشميات، بحيث نظم أو كاد، العقيدة الزيدية شعراً.

أما الفقهاء فقد طال جدالهم في المسائل الفقهية، خصوصاً حين كانوا يحضرون مجالس الخلفاء أو الوزراء، أو حين يقفون في مجالسهم الخاصة أو العامة في المساجد ودور الوراقين.

ومن ذلك، المناظرة التي جرت في مجلس سليمان بن عبد الملك بين قتادة والزهري، أو بين ابن شبرمة وإياس بن معاوية، وقد تناولا فيها نحو سبعين مسألة[٢]. وقد كان الجدال في مسائل العقيدة طويلاً للغاية، مما استدعى ظهور علم الكلام بمذاهبه الأربعة المعروفة: القدرية والجبرية والمرجئة والمعتزلة.

وبرأينا إن أهم المسائل التي كانت عرضة للجدال والنقاش الحاد، هي مسألة

---

(١) المبرد، الكامل: ص٥٧٣.
(٢) ابن سعد، الطبقات: ٥/٧.

حرية الإرادة، وما إذا كان الإنسان حراً في إختيار أفعاله، أو أنه مجبر عليها، مسير في قبولها. وقد دافع الحسن البصرى رأس الفرقة القدرية عن مسألة حرية الإرادة. أما أصحاب مذهب الجبر، فقد دافعوا عن مذهبهم وقالوا إن كل شيء بقضاء وقدر.

أما «المرجئة» فمنها من انبثق عن الجبرية، ومنها من انبثق عن القدرية. وقد فصل أصحابها بين الإيمان والعمل، فالمؤمن مسلم وان لم يؤد الفروض الدينية، لأن الأيمان في القلب. ورأوا ترك الحكم على أعمال الإنسان وإرجائه إلى الله، فهو الذي ينظر فيه. واتصل ذلك بقولهم في ضرورة إرجاء الحكم على عثمان وعلي ومعاوية، حتى يحكم الله فيهم.

ومن مذهب القدرية انبثق مذهب جديد هو مذهب الاعتزال. وقد عالج هؤلاء مشكلة مرتكب الكبيرة. فهو بنظر الخوارج كافر، بينما وجدت المرجئة أنه مؤمن، أما الحسن البصري فيراه مؤمناً فاسقاً. وقد رأت المعتزلة وعلى رأسها واصل بن عطاء، بأن مرتكب الكبيرة لا هو فاسق ولا هو مؤمن، بل هو في منزلة بين المنزلتين.

وقد كان لجميع هذه الفرق الدينية المجادلة، أراء هامة، استطاعت أن تجذب كثيراً من الأتباع والدعاة. وقد انكبت جميعها على دراسة آي القرآن الكريم دراسة مستفيضة، وحاول أصحابها استنباط اسس ومفاهيم تدعم رأيهم وتقوي مواقفهم على المستويين السياسي والديني معاً.

وهكذا بإمكاننا القول، ان العقل العربي عشيّة تأسيس الدولة الأموية بدمشق، كان قد أمدّته روافد وعناصر ثقافية وحضارية مختلفة، عظيمة في اختلافها، عملت على تفتحه وتنويره ودعمه. فغدا قادراً على الإبداع وإثبات حضوره الثقافي والأدبي الأصيل، الذي يفيد من التجارب السابقة لدى شعب الجزيرة العربيّة وسائر شعوب الدول الأخرى التي تم فتحها وتمصيرها، دون ان يكل أو يملّ عن تطوير هذه التجارب ودفعها بقوة إلى الأمام، حتى تكون قادرة على الإئتلاف مع روح العصر العربي الجديد الذي يؤسس للمستقبل.

وقد كان لكل ذلك آثار بعيدة على حياة الحركة الأدبيّة التي كانت تمور بها الأمبراطورية الاموية، خصوصاً لدى الشعراء الذين تأثروا تأثراً بالغاً بجميع هذه

المسارات السياسية والعسكرية والحضارية والثقافية، فجعلتهم مثلاً يندمجون في الفرق السياسية والعقيدية، أو يعتزلونها، وجعلت بعضهم مؤيداً للسلطة الأموية أو مخاصماً لها. وربما حملت الكثيرين من الشعراء على اعتزال الحياة السياسية والهروب إلى مناخات الصحراء التي يكثر فيها الشوق والحنين والهيام، تحاشياً للانخراط في صراع سياسي مع السلطة أو ضدها، أو مع هذه الفرقة الدينية أو تلك.. فكان لكل ذلك مثل تلك الآثار الإيجابية أو السلبية، على نمو الحركة الأدبية في العصر الأموي الذي أقبل بقوة فيما بعد.



الفصل الرابع

بواعث النشاط الأدبي

تمهيد

تعود جذور الشعر السياسي الذي عرفه العصر الأموي إلى المرحلتين السابقتين من حياة العرب السياسية، الجاهليّة وصدر الإسلام. فقد عرف بعض شعراء الجاهليّة، اللون السياسي في أشعارهم وقصائدهم، خصوصاً لدى فريق من الشعراء الذين كانوا يزورون بلاطات المناذرة واالغساسنة في الحيرة ودمشق، فعرفوا بشعراء التكسّب، مثل النابغة الذبياني والأعشى. وهناك من يعدّ الحارث بن حلزّة وعمرو بن كلثوم وزهير بن أبي سلمى، من شعراء السياسة في العصر الجاهلي، لأنهم كانوا يقفون في قصائدهم التي اختصت بألوان المديح والفخر والهجاء، مواقف سياسيّة، تؤيد ممدوحهم وتدعم سياسته وتذيع أخباره وتعلي من شأنه ومن شأن قبيلته. كما أنها بالمماثل، كانت تعارض مهجوهم، وتندد بسياسته وتذمه وتذم قبيلته.

وهؤلاء الشعراء الجاهليون، هم المؤسسون الأوائل لما عرف عند العرب من الشعر السياسي. فقد وضعوا اللبنات الأولى للإذاعة الموالية والإذاعة المعارضة، واسهموا في وضع الأسس والمعايير الأخلاقية والاجتماعية التي أمكنت أن تشكّل مدحة أو مذمة.

وفي العصر الإسلامي الأوّل، تطور الشعر السياسي بتطور المعيار الذي بدأ يستعمله الشعراء المسلمون في قصائدهم السياسيّة. وفي حين حارب الإسلام العصبيات وقذف الأعراض وهجاء الأفراد والقبائل لأسباب تتصل بالثارات

والتنازعات على الماء والمرعى، غير أنه شجع على هجاء الكفار وذمهم، ودعوتهم جهاراً إلى نبذ الوثنية والدخول في الإسلام. وبذلك أضيف معيار جديد إلى الشعر السياسي وهو المعيار الديني. ولهذا نجد كيف بدأ الصراع السياسيّ يدور بين شعراء النبيّ وشعراء قريش. وقد اكتسب هذا الشعر نوعاً جديداً، وهو الهجاء السياسيّ، هجاءٌ مرّ مقذع أليم كان بين شعراء الفريقين.

فشعراء قريش وأحزابها، أخذوا يهجون النبيّ هجاءً مراً ويسفهون رسالته ويسخرون منها، ويعيرون تابعيه الأنصار والمهاجرين. فاضطر النبي لمقابلتهم بسلاحهم، وهو سلاح الشعر الذي كان له تأثير قوي في نفوس قبائل العرب. وقد عرف من شعراء قريش والأحزاب أربعة شعراء، هاجوا النبيّ وقاوموا شعراءه وهم: عبد الله بن الزِّبعرى، وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاص وضرار بن الخطاب. غير أنه لم يصل إلينا شيء من شعرهم يستحق الذكر، إلاَّ ما هو يسير لا غناء فيه، وذلك لأنه طمس فيما بعد، خصوصاً حين أسلمت قريش، وساد الإسلام جميع مناطق الجزيرة العربية. فامتنع الرواة المسلمون عن رواية الأشعار التي تثير الحزازات وتنبه كوامن الأحقاد وتعرّض بالنبي وأصحابه، وعفّوا عليها ومحوا آثارها.

أما شعراء النبي الذين واجهوا [شعر اء] قريش، فهم ثلاثة نفر من الأنصار: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وقد كانوا يقومون بمعارضة شعراء قريش بمثل أقوالهم ويفاخرونهم بالوقائع والأيام والمآثر ويذكروهم بمثالبهم، واختص عبد الله بن رواحة بتعييرهم بالكفر.

ويبدو أن شعراء السياسة في العصر الأموي أفاد من جميع سابقيه، جاهليين وإسلاميين، محازبين للإسلام ومعارضين له. إذ سرعان ما تعدّدت الأحزاب، فكان منها من يوالي سلطة الخلافة ومن يعارضها، وظهر شعراء غير مسلمين كانت لهم ملاحيات مع شعراء المسلمين. وعنفت المواقف واشتدت الفتنة، ولم يعد الإسلام بنظر الكثيرين إلاَّ سلطة، يحاول نهبها واحتلالها أي فريق كان. وسنحاول في هذا الفصل الحديث بشكل أكثر تفصيلاً عن ثلة من شعراء السياسة في العصر الأموي الذين استحالوا إلى رموزاً مشهورة، نكشف عن وجوهها الشخصية والأدبيّة والسياسية، لعلمنا أن كل ذلك عادة، يتصل بالفن ويؤسس له.

الانبعاث السياسي:

وقبل الحديث عن بعض رموز شعراء السياسة في العصر الأموي، لا بدّ من الوقوف عند جملة العناصر الأساسيّة التي أسهمت في جعل الحياة السياسية تشتعل من جديد مع وصول الأمويين إلى سدة الخلافة، بعدما كاد الناس يتناسون عصبيتهم الجاهلية في الصدر الأوّل للإسلام، وما كان بين قبائلهم من منافرات وخصومات، فينصرف الجميع إلى القرآن والجهاد. غير أن برهة قتل الخليفة عثمان بن عفان، سرعان ما أيقظت الفتنة بين القبائل من جديد، «فاعصوصب الشرّ، وتفرّقت الجماعة شيعاً وأحزاباً، وجرت الدماء أنهاراً بين عليّ وخصوم علي. ثم استقر الأمر في بني أميّة على كره من أعدائهم، فقبضوا على ناصية الملك بيدٍ من حديد، وشدّدوا النكير على مناوئيهم، فأصلوهم حرباً عواناً، فقاتلوا الشيعيين، وقاتلوا الخوارج، وقاتلوا الزبيريين، حتى وطدوا دعائم دولتهم بشفار السيوف»[١].

ومن الصعب تفهم حقيقة الشعر السياسي في العصر الأموي، إذا لم نتفهم جملة العناصر الأساسية التي أذلته وعملت على بعث أواره.

فعقب وفاة النبيّ العربي، بدر الأنصار للقول لقريش: «منّا أمير ومنكم أمير». خصوصاً وأن الأنصار يرون أن لهم الحق في الخلافة، مثل قريش. فبسيوفهم انتصر الرسول وأصحابه من المهاجرين، على جميع المشركين. ومن ديارهم انطلقت مغازي الرسول وسراياه، مما عرّض موطنهم للأهوال في سبيل الدعوة الإسلامية.

أما جواب القريشيين فكان بالرفض، إذا أبوا عليهم هذا الحق واستأثروا بالخلافة، بدعوى أن النبي من قريش. «ثم أراد الأنصار أن تحصر الخلافة في بني هاشم لأنهم أهل النبيّ الأدنون، ودعوا إلى مبايعة علي بن أبي طالب، فأبت قريش ذلك، وأخفق الأنصار في دعوتهم، فنبّه هذا الاستئثار روحاً عصبياً جديداً بين القريشيين والأنصار، أو بين المضريّة واليمانية أو بين العدنانية والقحطانية[٢].

وبعد مقتل عثمان اشتدّ الصراع بين القريشيين والأنصار، ولم يكن ذلك إلاّ

---

(١) البستاني، بطرس: أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام: ص٣٠٩.
(٢) م.ن، ص٣٠٩.

مظهراً من مظاهر النزاع بين المضريّة واليمانية، لأن الأنصار اليمانيين، كانوا قد أيدوا بني هاشم وحازبوهم على قريش. ثم ظهر حزب الشيعة في الكوفة، وأكثره يماني من الأنصار. وكان ينادي بأن تكون الخلافة في أبناء هاشم وأبناء علي وأسباط الرسول وأبناء عمه.

أما حزب الخوارج فكان ينادي في الجزيرة بجعل الخلافة شورى بين المسلمين، فلا تحصر في قبيلة دون غيرها، واتهم الأحزاب الأخرى بالمروق والكفر.

أمّا قريش، فسرعان ما انشقت على نفسها بعد مناداة معاوية بنفسه خليفة للمسلمين وطلب البيعة لابنه يزيد من بعده. فنهض الزبيريون وعلى رأسهم عبد الله بن الزبير في مكة، يجاهد الأمويين ويطالب بالخلافة، فبايعه بها أهل الحجاز في خلافة يزيد بن معاوية، ثم بايعه أهل العراق واليمن ومصر. أمّا دمشق، فثبتت على ولائها للأمويين، فبايعت معاوية بعد موت أبيه يزيد، ثم بايعت مروان بن الحكم، فقاتل الزبيريين وفتح مصر، ثم بايعت عبد الملك بن مروان فافتتح العراق بعد مقتل مصعب بن الزبير أخي عبد الله، وأرسل الحجّاج بن يوسف في جيش عظيم إلى الحجاز، فكانت بينه وبين أصحاب ابن الزبير وقائع كثيرة. وحاصر الحجّاج مكة سبعة أشهر ورماها بالمنجنيق، فظل عبد الله يقاتل حتى قتل في سنة ٧٣/ ٦٩٣م، فدخل أهل الحجاز واليمن في مبايعة عبد الملك بن مروان، وانتهى الحزب الزبيري.

وهكذا بدأ الحزب الأموي/ حزب السلطة والخلافة في مواجهة الأحزاب المعارضة الثلاثة: الشيعة والخوارج والزبيريين. ذلك أنهم كانوا حملة قميص عثمان الأموي في البداية، نهضوا للمطالبة بدمه أولاً، ثم لاستعادة ملكه المهدور ثانياً.

وإذا كان الصراع بين الحزب الأموي وسائر الأحزاب المعارضة، يتجسد بالمعارك العسكريّة في مواقع وأيام كثيرة، فإنه سرعان ما كان يتخذ كل حزب من هذه الأحزاب فريقاً من الشعراء ينادون ـ بمبادئه وقيمه، ويناهضون الخصوم مبادئهم وقيمهم ويناصبونهم العداء.

ويبدو أن شعراء الحزب الأموي، كانوا أكثر عدداً وأبعد صوتاً، «لأن الخلفاء

الأمويين بسطوا لهم الأكفّ، وأغدقوا عليهم النعم. وساعدهم على البذل، ما في بيت المال من فيء وفير، فأقبلت عليهم طوائف الشعراء تمدحهم وتؤيد حقهم بالخلافة، غير هيابةٍ جانب خصومهم. وأمّا شعراء المعارضة، فكانت أصواتهم تقوى بقوة أحزابهم، وتضعف بضعفها، فعبيد الله بن قيس الرُّقَيّات القرشي، كان زبيرياً، يكره الأمويين ويهجوهم، فلما قتل مصعب بن الزبير وأخوه عبد الله، انحاز إلى عبد الملك بن مروان، فمدحه خائفاً، فأمنه على حياته. والفرزدق، كان يتشيع لعليّ وأبناء عليّ، ولكنه لم يستنكف من مدح خلفاء بني أمية وعمالهم رهبة منهم، أو رغبة في نوالهم. وكذلك فعل الكميت لما أمر هشام بن عبد الملك بقطع لسانه من أجل قصيدة رثى بها زيد بن علي. والنعمان بن بشير كان أنصارياً من الخزرج، ولكنه ساير معاوية، فشهد معه واقعة صفين، وقد اجتذبه معاوية بسخائه ودهائه. ولما أفضت الخلافة إلى مروان بن الحكم، كان النعمان على حمص فدعا أهلها إلى مبايعة عبد الله بن الزبير، فلم يجيبوه، فهرب منهم، فتبعوه وأدركوه وقتلوه»[١].

وتعتبر القصيدة التي تركها لنا النعمان بن بشير الأنصاريّ، خير دليل على اشتداد العصبيّة السياسيّة في مطلع العصر الأموي من جهة، وعلى عنف الخصومة بين الأنصار وقريش/ اليمانية والقحطانية والعدنانية من جهة أخرى. وهي تسجل لظهور أول قصيدة سياسية في العصر الأموي.

استهل النعمان قصيدته متوعداً معاوية، مذكراً إياه بهجاء الأخطل للأنصار، بناءً لطلب من ابنه يزيد:

ذهبت قريش بالمكارم كلها ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

وقد جهد في قصيدته ألاّ تكون رداً على مشاعر تغلب، بل أن تتحول إلى رسالة تهديد للخليفة الأموي. وعمل النعمان أيضاً على الافتخار بيوم بدر، وما فعلت الأنصار بقريش. وختم ضارباً على الوتر الحساس الذي يُرجف وقعه قلب السياسة الأموية، وهو أن الخلافة حق لهاشم، فهم أولى بها.

وهكذا فقد شرحت لنا قصيدة النعمان بن بشير سياسة الأنصار ورأيها في

(١) البستاني، بطرس: أدباء العرب في الجاهلية والإسلام: ص٣١١.

الخلافة، وسخطهم على الأمويين بعد أن استأثروا بها، وأظهرت لنا بشكل خاص للغاية، سياسة النعمان في مصانعته معاوية وأبناء معاوية يقول النعمان بن بشير:

معاوي إلاَّ تُعطنا الحقَّ تعترفْ لحي الأزْد مشدوداً عليها العمائمُ
أيشتُمنا عبدُ الأراقمِ ضِلّةً! وماذا الذي تُجدي عليك الأراقمُ
فما لي ثأر دون قطع لسانه، فدونك من يرضيه عنك الدراهم
فإن كنت لم تشهد ببدْرٍ وقيعةً أذلّت قريشاً والأنوف رواغم
وإني لأُغضي عن أمور كثيرة سترقى بها يوماً إليك السَّلالم
أصانعُ فيها عبد شمسٍ وإنني لتلك التي في النفس مني أكاتمُ
فما أنت والأمر الذي لست أهله ولكن وليّ الحقِ والأمر هاشِمُ
بهم شرع الله الهدى فاهتدى بهم ومنهم له هادٍ: إمام وخاتمُ

وهذه القصيدة بما امتلأت به أبياتها وجوانبها من تهديد ووعيد وفخر وإنذار ظلت تشف عن ألم الأنصار لإخفاقهم في الحياة السياسية بعد استبداد قريش بالخلافة، مما زاد سخط الأنصار عليهم، مستثنين بني هاشم لأنهم آل البيت.

غير أن جديد هذه القصيدة يتمثل في «جرأة الشاعر على الخليفة، ومخاطبته إياه بتلك اللهجة الشديدة التي لا تليق بالملوك، ولا يسلم من يخاطبهم بها، مهما عظم خطره. أجل إن جرأة النعمان عجيبة غير مألوفة، ولكن أعجب منها حلم معاوية وأناته، بل سياسته ودهاؤه»[١]، وبهذه الصفات التي اتصف بها، تمكن من تأسيس عرش بني أمية وتوطيده.

وبهذه القصيدة للنعمان بن بشير انفتح باب الشعر السياسي على مصراعيه في العصر الأموي. وظهر الشعراء بألاعيبهم السياسية والفنيّة، وكان على رأس هؤلاء جميعاً، الشاعر التغلبي المضري الأخطل، الخصم اللدود للنعمان بن بشير الشاعر القيسيّ، والذي كانت بينهما مواقف سياسية شديدة الخصومة.

بعد المراقبة الشديدة للشعر والشعراء في العصر الراشدي، صار الخلفاء، وزعماء الأحزاب في العصر الأموي يتملقون الشعراء، ويجزلون العطاء لهم، رغبة

(١) م.ن: ص٣١٧.

فيما يقومون به من دعاية لمذاهبهم، ودفاعاً عن وجهات نظرهم، فانفتح باب هذا اللون من الشعر، أمام الشعراء، على مصراعيه وتدفقت الدماء في شرايين الشعر بعد أن كادت تجف، في عصر الراشدين، وعاود الشعراء شياطينُهم، فنهض الشعر من عقاله، ونفض عن مناكبه غبار الزمن.

وينبغي أن نخص كل حزب من هذه الأحزاب بعرض موجز، حتى يتسنى لنا فهم نصوص الشعر التي دار مضمونها حول هذه الأحزاب، ولنقف على ما تعكسه مثل هذه النصوص من عناصر متطورة أو جديدة في حقل الفن الشعري لهذا العصر الزاخر بالشعر والشعر، والحافل بالأدب والأدباء.

حزب الشيعة:

التشيع لعلي في حياته، لُحمتُه وسداه حب آل بيت رسول الله ﷺ[١]، وقد ظلّ كذلك إلى أيام عليّ، حيث نادى عبد الله بن سبأ ـ الذي كان يهودياً ثم أسلم[٢] ـ بأن علياً فيه طبيعة إلهية.

ومن الجلي أن هذا الغلو في عليّ ليس إسلامياً، ولا يقره الإسلام، وإنما هو دخيل على العقيدة الإسلامية، متسرب من بعض الديانات السابقة على الإسلام، فما ذهب إليه ابن سبأ في عليّ، يشبه ما ذهبت إليه بعض الطوائف الدينية، من أن للمسيح طبيعتين: إحداهما إلهية، والأخرى بشرية: لاهوتية وناسوتية[٣].

ولما وصلت مقالة ابن سبأ إلى مسامع عليّ أنكرها أشد الإنكار، وغضب على ابن سبأ غضباً جعله ينفيه إلى ساباط المدائن[٤]، واستتاب بعض أتباعه من غلاة الكوفة، ولكنهم لم يتوبوا فأحرقهم في حفرتين، وفي ذلك يقول أحد الشعراء[٥]:

---

(١) يذهب بعض الشيعة إلى أن التشيع لعلي يرجع في نشأته إلى أيام النبي ﷺ وأنه ﷺ هو واضع بذرة التشيع في حقل الإسلام، مع بذرة الإسلام. فالتشيع لعلي كان موجوداً في حياة النبي ﷺ وشيعة علي آنذاك هم الذين لازموه، وجعلوه إماماً كمبلغ عن الرسول، وشارح ومفسر لتعاليمه. أصل الشيعة وأصولها ١٠٩ وما بعدها، ١١٢.

(٢) انظر الفرق بين الفرق ٢٢٥.

(٣) عقيدة الشيعة ٥٩.

(٤) الفرق بني الفرق ١٥.

(٥) الفرق بين الفرق ٢٣٣.

لِتَرِمِ بي الحوادثُ حيث شاءت إذا لم ترمِ بي في الحفرتين

وبعد مقتل عليّ نادى ابن سبأ برجعته، وأنه لم يمت. إلى غير ذلك من العقائد المتطرفة، فكان بذلك رأس فرقة عرفت في تاريخ التشيع بالسبئية، نسبة إليه. وكانت آراؤها من الأسس التي قامت عليها بعض الفرق الغالية[١] من الشيعة كالكيسانية[٢] أتباع محمد بن الحنفية[٣] (التي تنسب بعلي وذريته علماً لدُنيا فوق الطبيعة البشرية، به تنكشف بواطن الوحي الإلهي)[٤].

وعمدة مقالة الكيسانية، أن الدين طاعة رجل، يعتقدون فيه الإحاطة بالعلوم كلها، ومعرفة الأسرار، من علم التأويل والباطن وغيرهما.

وإلى جانب هاتين الفرقتين الغاليتين، قامت فرق أخرى معتدلة في تشيعها لعليّ وآل بيته، من اشهرها، فرقة الزيدية، أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي.

وأكثرية فرق الزيدية، المعاصرين للدولة الأموية، لا يحبون تسلسل الإمامة من أب إلى ابن بطريق الوراثة المباشرة، في أبناء علي والحسن، والحسين، وابن الحنفية، وإنما يعترفون بإمامة كل علويّ ـ دون مراعاة لانتسابه لواحد من أبناء علي الثلاثة ـ له من الاستعداد الروحي للرياسة الدينية، ما يعنيه على إظهار مواهبه في نضاله من أجل الغاية المقدسة، وهي إرجاع الحق لآل البيت العلوي.

وهم يقولون أيضاً بامتياز الأئمة في فقه الدين، والمعرفة بالله، لأخذهم عن جدّهم النبي ﷺ الأخذ عن الله. وإمام الزيدية يأخذ صورة واقعية للإمام، الذي يعمل في الحياة، في نضال مكشوف، ويكون على رأس الجماعة الإسلامية حاكماً وفقيهاً، ومن ثم يؤمن هذا الفريق من الشيعة بالتقية، أو العمل السري.

وهم يشاركون غيرهم من الشيعة المتطرفة في لعن أبي بكر وعمر وعثمان

(١) الملل والنحل ٢/ ١١.

(٢) يذهب فلهوزن في كتابه الخوارج والشيعة ٢٣٩ إلى أن السبئية يسمون أيضاً الكيسانية، ولعله يعني أن الفرقتين اندمجتا في فرقة واحدة.

(٣) هو أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب، وكانت أمه من بني حنيفة فنسب إليها، وكانت شيعته تلقبه بالمهدي، وتزعم أنه لم يمت، وأنه مختف بجبل رضوي، توفي عن تسعة وستين عاماً سنة ٨١هـ.

(٤) الملل والنحل ١/ ١٩٦.

والبراءة منهم، ومن سائر الصحابة الذين بايعوهم، ولكنهم يأخذون عليهم عدم إدراكهم للمواهب الفذة، التي امتاز بها عليّ، وجعلته يفضلُ هؤلاء جميعاً، دون أن يحملوهم وزر هذا الخطأ في التقدير، بإقامة المفضول إماماً، مع وجود الفاضل، ولذا لا نجدهم ينظرون إلى الخلفاء الثلاثة الأول نظرة القاهرين الغاصبين[١].

ولهذا يمكن أن يعد الشيعة الزيدية، الفرقة الشيعية المعتدلة حيال أهل السنة.

فالتشيع لعليّ وآل بيته لم يأخذ طابع المذهبية، القائمة على أسس، ومبادىء، وعقائد بعد وفاة علي بن أبي طالب. وأهم العقائد والنظريات الدينية والسياسية، التي تكاد تجمع عليها فرق الشيعة هي ما يلي:

١ ـ يتفق الشيعة مع أبي حنيفة، وأكثر المرجئة في أن الإمامة[٢] لا تجوز إلاّ في قريش، لقول النبي ﷺ: (الإمامة في قريش)[٣] وقوله: (قدموا قريشاً ولا تقدّموها) وأدلة أخرى عديدة، يوردونها من النص والعقل[٤]، ثم يخالفون كل الفرق والمذاهب في الإمامة.

٢ ـ الإمامة ركن من أركان الإسلام، لا يجوز للرسول ﷺ إغفاله، وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة[٥]؛ لأنها منصب إلهي كالنبوة، فكما أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة، فكذلك يختار للإمامة من يشاء، ويأمر نبيه بالنص عليه، إماماً للناس من بعده، للقيام بالوظائف التي كان على النبي أن يقول بها، غير أن الإمام لا يوحى إليه كالنبي[٦].

فالإمامة إذن، ركن من أركان الإسلام، ولا تكون إلا بالنص، من النبي ﷺ. ورسوله علي عين الإمام، واسمه، وصفاته، وفي سائر الأعصار لاتخلو الناس من حجة الله فيهم (الإمام) ظاهراً وباطناً، على حسب استعماله التقية، والخوف على

(١) مقالات الإسلاميين ١/١٣٨، والعقيدة والشريعة في الإسلام ٢١١.
(٢) العقيدة والشريعة ١٧٥.
(٣) الفرق بين الفرق ١٣.
(٤) مروج الذهب (البهية) ٢/١٩٢.
(٥) الملل والنحل ١/١٩٥.
(٦) عقائد الإمامية٧١.

نفسه. فلم يعتمدوا في القول بإمامة علي وأبنائه على حق القرابة والإرث وحدهما؛ لأنهما لا ينهضان بهذا الحق، وإلاّ كان العباس عم النبي ﷺ صاحب الحق وحده ـ بعد النبي ـ لأنه عمه، وعلي ابن عم، وهو محجوب الإرث في حالة وجود العم.

٣ ـ إمامة علي بن أبي طالب نص عليها الرسول ﷺ، وأوصى له بها. فعليٌّ هو صاحب الحق في الإمامة بالنص والوصية. ويقولون إن النبي ﷺ قال لعلي في غزوة تبوك: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، وأنه أخذ البيعة له بإمرأة المؤمنين يوم«غدير خُمّ» فقال: «ألا من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار»[١].

ويرى الشيعة أن علياً أوصى بالإمامة إلى ولده الحسن، ونص عليه بعد أن طعنه ابن ملجم، وأن الحسن أوصى للحسين، ويقال: بل أن علياً نص عليهما، لأنهما شريكاه في آية التطهير[٢].

٤ ـ تتسلسل الإمامة في ذرية علي من بعده، منهم بنص الإمام السابق على لاحقه، ووصيته، ولا تخرج عنهم إلى سواهم، وإن كانت فرق الشيعة قد اختلفت في تعيين الأئمة من ذرية عليّ، أهم من نسل الحسن؟ أم الحسين؟ أم هي بعدهما في أخيهما لأبيهما محمد بن الحنفية؟

٥ ـ على المسلمين أن يولوا عليهم صاحب النص والوصية في كل عصر، وكل من يمنعه حقه، في الإمامة مخطىء عند معتدلى الشيعة ـ كالزيدية ـ وكافر عند الغلاة منهم، يتبرّأون منه؛ ولذا حكم غُلاة الشيعة بكفر الصحابة جميعا.

٦ ـ الإمام هو المصدر الشرعي الوحيد للتوجيه والإشارد الديني في الجماعة الإسلامية لأنه وحده قد خول له ووكل إليه تعليم جماعة المسلمين، وتوجيههم، في كافة شؤونهم.

---

(١) انظر: أصل الشيعة وأصولها ١١٣.
(٢) عقيدة الشيعة ١٠٠.

وإذن، فوجود إمام لكل عصر أمر ضروري لا غنى عنه؛ لأن الغاية من التشريع السماويّ، والتوجيه الإلهي. الإمام أعلم الخلق؛ لأنه يقيم حدود الله، وإلا وضع أحكام الله في غير مواضعها[١].

وعلم الإمام يتلقاه من طريق النبي أو الإمام من قبله، وإذا استجد شيء لا بد أن يعلمه من طريق الإلهام بالقوة القدسية التي أودعها الله تعالى فيه، فإن توجه إلى شيء، وشاء أن يعلمه علمه على وجهه الحقيقي، لا يخطىء فيه ولا يشتبه. فقوة الإلهام عند الإمام قوة قدسية، تبلغ الكمال في أعلى درجاته، وغلاة الشيعة يثبتون العلم للإمام إرثا، بغيرحاجة إلى تعلم، وقد توارث العلويون هذه العلوم[٢].

٧ ـ الأئمة كالأنبياء معصومون وجوباً من الكبائر والصغائر، ومن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، من سنّ الطفولة إلى الموت، عمداً، أو سهواً كما أنهم معصومون من السهو والخطأ والنسيان، لأن الأئمة حفظة الشرع، والقوامون عليه، حالهم في ذلك حال النبي[٣].

٨ ـ التقية: وهي الحيطة والحذر، وعند الشيعة: مكاتمة المخالفين لهم، وترك مظاهرتهم، وستر اعتقاداتهم، وأعمالهم المختصة بهم عنهم. وهذا يعني أن للشيعي أن يظهر الولاء والموافقة لذوي السلطان. المخالفين لعقيدتهم، وستر ما يؤمنون به عنهم، حفاظاً عل سلامة الحياة والمال والعرض. وبمقتضى عقيدة التقية، لم يكن الشيعي «يستطيع فحسب أن يخفي مذهبه، وأن يتكتم على عقيدته، بل يجب عليه أن يفعل ذلك، وأن يبالغ في الإخفاء والكتمان، وعليه في البلد التي يسودها خصومه أن يتكلم وأن يعمل كما لو كان واحداً منهم؛ حتى لا يجلب الخطر، والاضطهاد لأصحابه»[٤]، على أن لعقيدة التقية جانباً آخر حيث تمكن الشيعة من العمل في الخفاء ضد أعدائهم، فتكون بذلك ضرباً من التعمية على أصحاب السلطان، إلى أن تؤتى الفرصة للوثوب عليهم، والشيعة بهذا الاعتبار

---

(١) مروج الذهب ٢/ ٩٢.
(٢) مقالات الإسلاميين ١/ ١١٧.
(٣) عقيدة الشيعة ٣١٥.
(٤) العقيدة والشريعة ١٨٠.

يأخذون طابع الجماعات السرية، ولكنهم ينفون عن أنفسهم أن يكون هذا الطابع بقصد الهدم والتخريب، وإشاعة الفوضى، بل فيه استصلاح لحالهم، وجمع لكلمتهم، وإقامة لدينهم.

٩ ـ المهدية، والرجعة: هما عقيدتان من العقائد الجوهرية في نظرية الإمامة لدى الغالبية العظمى لفرق الشيعة، والمهدية: نسبة إلى عقيدة المهدي المنتظر، ويطلق عليه أحياناً، قائم الزمان، أو إمام الوقت(١)، وهو الإمام الذي يظهر، أو يعود، فيقوض ملك الظالمين، ويملأ الأرض عدلاً، كما ملئت جوراً، وهو عند بعض الشيعة إمام من آل البيت حي لم يمت، ولكنه اختفى من وجه الظلم. وهو يظل مختفياً إلى أن تتاح له الفرصة للظهور واسترداد الحق، وإقامة العدل(٢)، وعند بعضهم هو إمام يبعثه الله بعد فترة من موته في الدنيا، ليملأ الأرض عدلاً، ويخلصها من الغاصبين الظالمين وتختلف فرق الشيعة في تعيين هذا المهدي، فالسبئية ترى أنه الإمام عليّ، وأنه سيرجع؛ لأنه حي لم يمت(٣)، ولن يموت حتى يملأ الأرض عدلاً.

والكيسانية تعتقد أن محمد بن علي (ابن الحنفية) هو المهدي، فهو حي مقيم بجبل رضوى، وسيرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلاً(٤).

وقد كثر الحديث في عقيدة المهدية، وطال نقاش المسلمين فيها، ورويت عن النبي ﷺ أخبار تتحدث عن هذا المهدي المنتظر من آل البيت. وهي تصور صفاته على وجه الدقة(٥). ومن الطريف أن بريق هذه العقيدة قد دفع بعض أنصار البيت السفياني من الأمويين إلى القول بمهدي من بني سفيان بن حرب بن أمية.

فقد أورد أبو الفرج الأصفهاني رواية تذهب إلى أن خالد بن يزيد بن معاوية ـ وكان يوصف بالعلم ـ هو الذي وضع خبر السفياني، وكبره، وأراد أن يكون للناس فيه طمع، حين غلبه مروان بن الحكم على الملك، وتزوج أمه؛ إمعاناً في إذلاله.

---

(١) العقيدة والشريعة ١٩٦، ١٩٧.
(٢) عقيدة الإمامية ٨٢.
(٣) راجع: مقالات الإسلاميين ١/ ٨٥.
(٤) مروج الذهب (البهية) ٢/ ١٠١.
(٥) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٦/ ٤٨٤.

فقد ظهرت الحاجة إلى مهدي سفياني، بعد أن ثُلّ عرش بني أمية أيضاً، إحياء للأمل في استعادة السلطان للبيت الأموي، من يد العباسيين، وظلت هذه الفكرة تتراءى للسفيانيين من حين لآخر. فيقال: إنه تعرض للمأمون في عهده رجل من الشام، وقال له: يا أمير انظر لعرب الشام، كما نظرت إلى عجم أهل خراسان، فكان مما أجابه به المأمون، مبيناً اتجاهات الولاء عند قبائل العرب بالنسبة له: «وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه»[١]. ولقد كان لعقيدة المهدي صدى قوياً في شعر الشيعة، وفي شعر الأمويين ـ تأثراً ببريق هذه العقيدة الشيعية.

الحزب الأموي

كان المتشيعون لآل البيت، قد أعانتهم قرابة الأئمة وخصوصاً علي من الرسول ﷺ ومحاولة صبغ دعاواهم بهذه الصبغة الدينية الشرعية أما بنو أمية فلم يتهيء لهم، أن يقيموا دعوى خلفائهم في حق الخلافة على أدلة تستند إلى نص من شرع، أو رأى من دين. فدعاواهم السياسية، لم تقم على شيء من هذا على خلاف ما رأينا عند الشيعة، لذا كان الأمويون«يضعون نصب أعينهم المصلحة الدنيوية للحكومة الإسلامية، ويجعلونها في المحل الأول»[٢]؛ ولذا غلب على حكومتهم الطابع الملكي، لا الديني.

وقامت الخلافة الأموية على القوة والبطش والسياسة. وأبى أنصار بني أمية، والمروجون لدعاواهم في حق الخلافة إلا أن يضفوا على خلافتهم صبغة دينية، رددها كثير من شعرائهم، وتتلخص هذه الصبغة، فيما يلي:

١ ـ أنهم خلفاء الله ورسوله في الأرض، اختارهم الله، واصطفاهم لولاية أمر المسلمين، وليس بعد اختيار الله اختيار، ولا فوق إرادته إرادة، فهم يتخذون من واقع أمرهم، دليلاً على حقهم فيها، يستمد شرعيته من إرادة الله العادلة، وقضائه الذي لا يرد.

---

(١) تولى ابن خلدون الرد على فكرة المهدية، والأخبار المروية فيها. انظر: مقدمة ابن خلدون٣١١.
(٢) العقيدة والشريعة ١٧٦.

ولأن الله قيض الخلافة لهم، واختارهم لها، فقد وفق الأمة إلى أن تبسط يدها إليهم بالبيعة، رغبة فيهم، وهوى إليهم، كما وفقهم إلى القتال دونها طلباً لحقهم بها، فأدركوها[١].

٢ ـ ولهذا إن طاعتهم واجبة ونصرتهم مفروضة على الأمة؛ لأن طاعتهم من طاعة الله الذي اختارهم، واصطفاهم لولاية الأمر، عملاً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[٢]، وطاعة خصومهم من طاعة الشيطان.

٣ ـ الخارجون عليهم، والنابذون لطاعتهم عصاة، منشقون على الجماعة، بغاة، تجب مجاهدتهم، ويحل قتالهم وقتلهم، بل قد يحكمون بكفرهم.

٤ ـ وقد يضيفون إلى هذا، دعوى حقهم في وراثة الخليفة عثمان بن عفان الأموي، لمحل قرابتهم منه.

ناظر معاوية بن أبي سفيان، عبد الله بن عباس، حول دعوى آل البيت هذا الحق، فقال[٣]: يا بني هاشم، ألا تحدثوني عن ادعائكم الخلافة دون قريش، بم تكون لكم؟ أبالرضا بكم؟ أم بالإجتماع عليكم دون القرابة؟ أم بالقرابة دون الجماعة؟ أم بهما جميعاً؟ فإن كان هذا الأمر بالرضا والجماعة دون القرابة، فلا أرى القرابة أثبتت حقاً، ولا أسست ملكاً، وإن كان بالقرابة، دون الجماعة والرضا، فما منع العباس عم النبي ﷺ وارث النبي ﷺ وساقي الحجيج، وضامن الأيتام، أن يطلبها؟ وقد ضمن له أبو سفيان بني عبد مناف. وإن كانت الخلافة بالرضا والجماعة والقرابة جميعاً، فإن القرابة خصلة من خصال الإمامة، لا تكون الإمامة بها وحدها، وأنتم تدعونها بها وحدها.

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٥.

(٢) سورة النساء، ٤/ ٥٩.

(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ١/ ٥ ـ ٦.

حزب الخوارج[١]:

من أقدم الفرق الدينية والسياسية في تاريخ الإسلام، ومن حيث التأثير البارز في أحداث هذا التاريخ، بخاصة في العصر الأموي.

وكان جماع أمر الخوارج: العودة إلى الكلمة الأصيلة للدين، كما يعبر عنها، دستوره الأول، وكتابه المقدس، وهو القرآن الكريم، دون تأويل أو ترخص بل بتشدد في الفهم لا يقبل المساومة والالتواء. فهم دعاة الطاعة العمياء لكل ما جاء به القرآن، وعبر عنه، وما أتى به الإسلام من قواعد وأحكام، وطرائق سلوك ـ أي أنهم يتمسكون بعمود الدين ضد جميع التيارات، والفرق والأحزاب، التي تبدو لهم ـ وقد انحرفت عنه، أو تأولت، أو ابتدعت فيه، ولذا كان مذهب الخوارج مغايراً لكل المذاهب الأخرى. وقد اشتهر من الخوارج فرعان[٢]:

فرع بالعراق وما حولها، كان أهم مركز لهم (البطائح) بالقرب من البصرة، وهؤلاء استولوا على كرمان وبلاد فارس، وهددوا البصرة، وتولى قتالهم المهلب بن أبي صفرة ـ القائد الأموي المشهور ـ وعانى في قتالهم الشدائد والأهوال سنين طوال، وأشهر زعمائهم: نافع بن الأزرق، وقطريّ بن الفجُاءة.

وفرع بالجزيرة العربية، استولوا على اليمامة، وحضر موت، والطائف، ومن اشهر زعمائهم: أبو طالوت، ونجدة بن عامر الحنفي، وابو فديك.

أما فرقهم في هذا العصر الذي نتحدث عنه، فأشهرها أربع: [٣].

الأزارقة: أتباع نافع بن الأزرق، وهؤلاء أكثر فرق الخوارج تشدداً، إذ يكفرون من عداهم، فلا يقبل منه الإسلام(إما القول بمقالتهم) أو السيف. كما يستحلون قتل نساء مخالفهم وأطفاله، ويبيحون الغدر بأعدائهم، ويكفرون القعدة[٤] عن القتال مع قدرتهم عليه.

---

(١) قيل: سموا بذلك؛ لخروجهم على إمامهم عليّ الذي بايعوه، وقيل: بل لخروجهم على الجماعة، لتكفيرهم من سواهم من فرق المسلمين، واعتبار دارهم دار حرب، وذهب الشهرستاني في: الملل والنحل (١/ ١٥٥) إلى أن هذه التسمية تطلق على كل من خرج علة الإمام الحق، الذي اتفقت الجماعة عليه في كل زمان.

(٢) فجر الإسلام ١/ ٣٠٢.

(٣) الملل والنحل ١/ ١٥٤.

(٤) القعدة: جمع قاعد، وهو عند الخوارج: كل خارجي يقعد ن قتال المخالفين مع قدرته عليه.

الصُفرية: أتباع زياد بن الأصفر، وهم أقل غلوا وتشددوا في عقائدهم وآرائهم من الأزارقة، وإن اتفقوا معهم في كثير من آرائهم المتطرفة.

النجدات: أتباع نجدة بن عامر الحنفي، وهم معتدلون في آرائهم، يعذرون المجتهد المخطىء، وإن استحل محرماً، أو أحل حراماً، خلافاً لغيرهم من فرق الخوارج.

الأباضية: أتباع عبد الله بن يحيى بن أباض التيميمي، وهؤلاء لا يغالون في الحكم على مخاليفهم كالأزارقة.

فالفرقتان الأوليتان متطرفتان متشددتان في عقائدهما وأفكارهما، ومواقفهما من المخالفين، والأخريان معتدلتان في كل ذلك.

وهذه الفرق الأربع هي الأصل الذي تفرعت منه كل فرق الخوارج فيما بعد. وكانت لهذه الفرق جولات حامية، ولقاءات دموية مع كل من العلويين والزبيريين كما دوخوا جيوش بني أمية، وظلوا شوكة في جنب الدولة الأموية، حتى أوشكوا أن يقوضوا أركان ملك بني أمية.

معتقدات نظريات الخوارج

١ - إن الخلافة ليست حقاً مقصوراً على قريش، ولا على العرب، وإنما هي اختيار من الأمة، وحق لكل مسلم، يتولاها من المسلمين خيرهم تقوى، وورعا، وعلما، وزهدا[١]...

ونظرية الخوارج في الخلافة تخالف - كما نرى - نظرية الشيعة القائلة بانحصار الإمامة في بيت النبي، عليّ وآله، كما تخالف مذهب أهل السنة القائل بقصرها على قريش[٢].

٢ - وجوب الخروج على السلطان الجائز وعزله، فإن امتنع جاز قتاله وقتله، ومن هنا تميز الخوارج في العصر الأموي بنزعة حربية، جعلتهم في صراع دائم، وجهاد يكاد يكون مستمراً مع بني أمية طوال عصر حكمهم.

---

(١) العقيدة والشريعة ١٧١، ومقالات الإسلاميين ١/١٨٩.
(٢) الفرق بين الفرق١٣.

٣ ـ الخليفة الشرعي هو الذي يختاره المسلمون عن طريق الشورى، والاختيار الحر، أياً كانت أسرته، أو قبيلته، أو جنسه.

٤ ـ ليس للخليفة الذي يختاره المسلمون، أن يتنازل عن الخلافة لأحد، وله أن يعتزل بعد اختياره إن قام له عذر يقتضى ذلك، دون أن يعهد لأحد، أو يتنازل له عنها.

٥ ـ الخوارج جميعاً يثبتون خلافة أبي بكر وعمر رضى الله عنهما، ويؤمنون بشرعيتها، كما يصححون خلافة عثمان رضى الله عنه في السموات الست الأولى من خلافته، ويكفرونه بعدها[١]، للأحداث التي أحدثها، وخالف بها سيرة أبي بكر وعمر. ويقولون بإمامة عليّ قبل قبوله التحكيم، ويحكمون بكفره، وكفر أتباعه بعد التحكيم؛ أما معاوية وأنصاره فهم كفار عندهم؛ لأنهم بغاة، يجب قتالهم، ويحل قتلهم، أي أنهم ذهبوا إلى تكفير من عداهم من المسلمين، لقبولهم التحكيم، سواء عليّ وأنصاره ومعاوية وأتباعه، فهم جميعاً مشركون «السيرة فيهم، السيرة في أهل حرب رسول الله ﷺ الذين حاربوه من المشركين»[٢].

٦ ـ العمل جزء من الإيمان، فالذي ينطق بالشهادتين، ثم لا يؤدي فرائض الإسلام كافر. وقد تركت هذه العقيدة أثرها القوى على سلوك الخوارج، فكانت «العلامة المميزة لهم كل التمييز، هي الترجمة عن إيمانهم بالأفعال، وامتشاق السيف في سبيل إقرارها، كلما اجتمع اثنان من رأي واحد»[٣].

٧ ـ تجمع فرق الخوارج على كفر مرتكب الكبيرة، وإن لم يصر عليها، إلا النجدات منهم[٤].

٨ ـ التشدد في الاستمساك بظاهر النص القرآني، والعمل بأحكامه؛ ولذا تجمع فرق الخوارج على عدم جواز الاجتهاد بالرأى، إلا النجدات منهم فإنهم يجيزونه. ومن أبرز صفاتهم: الإخلاص للعقيدة، والتعصب لها، والشجاعة الفائقة في الدفاع

---

(١) رسائل الجاحظ ٢/٧.
(٢) مقالات الإسلاميين ١/١٦٩.
(٣) الخوارج والشيعة ٣٨.
(٤) مقالات الإسلاميين ١/١٥٧، ١٥٩.

عنها، والتقوى، التي يحفها الخوف الشديد من عذاب الآخرة والتطلع والحنين الدائم إلى نعيم الجنة، ولذا كانوا أهل عبادة وورع.

حزب الزبيريين

إن نشأة هذا الحزب، والأحداث التي مرت به، والأخطاء التي تردى فيها زعيمه عبد الله بن الزبير، والتي أدت في النهاية إلى القضاء عليه، وعلى حزبه، كافية للدلالة على مدى قصر الفترة التي عاشها هذا الحزب، وازدحام هذه الفترة ـ على قصرها ـ بالعديد من الاشتباكات القوية. ذلك إن مدة السنوات التسع التي تمثل عمر هذا الحزب، لم تكن كافية لزعيمه، أو مؤيديه، ليكونوا نظرية سياسية واضحة المعالم، يستطيع أتباعه أن يسيروا على هديها، ويطوروها، ويديروا حولها الآراء، ويقيموا على أساسها الأسس التي تمكن الحزب من الاستمرار، والنضال في سبيل البقاء، ومعاودة النشاط للوثوب على السلطة، حتى بعد موت زعيم الحزب.

من أجل هذا لم يجد الشعراء الذين التفوا حول دعوة ابن الزبير ـ على قلتهم ـ أفكاراً محددة يتمثلونها، وتتغلغل في عواطفهم وضمائرهم، فيدينون بها، ويدافعون عنها ـ فحامت أشعارهم حول بعض الآراء العامة، التي لا تنهض للاستدلال السياسي أو الديني، على حق آل الزبير في الخلافة، إذ وصفوه بالعدل، والتقوى، والورع، وأنه أكفأ القرشيين المعاصرين له، بعد موت معاوية، وقتل الحسين بن علي ثم لصلته بالرسول ﷺ فأبوه ابن عمة النبي ﷺ صفية بنت عبد المطلب، وابن أخي خديجة زوج الرسول ﷺ، وعبد الله ابن أسماء بنت بكر، أخت عائشة أم المؤمنين.. إلى غير ذلك مما يشاركه فيه كثير من القرشيين، فضلاً عما يمتاز به أهل البيت من أئمة الشيعة.

والواقع أن نشأة الحزب لا ترجع إلى الوقت الذي دعا فيه ابن الزبير إلى نفسه بمكة سنة ٦٣هـ وإنما كانت قبل ذلك. والتاريخ الصحيح لنشأة الحزب الزبيري هو الفتنة التي أدت إلى قتل عثمان وخروج الزبير وطلحة وعائشة على عليّ بن أبي طالب.

كان الزبير أحد الستة الذين عهد إليهم عمر بانتخاب خليفته من بينهم، ولكنه كان واثقاً أن الأمر سيعدوه بالقطع إلى أحد رجلين هما عليّ وعثمان، وخشي لو أنه

وقف في جانب عليّ أن يكون وقوفه اعترافاً بأحقية بني هاشم في الخلافة وأن تظل محصورة فيهم مما يتعارض وطموحه، وبهذا نفسر وقوفه إلى جانب عثمان الشيخ المسن، فإن فاتته الخلافة هذه المرة فربما لا تفوته بعد ذلك.

وقد حدث أن عثمان لم يول الزبير ولاية من الولايات فخرج إلى الكوفة حيث نجح هناك في إنشاء حزب زبيري، إذ التف الناس حوله كما التفوا من حول كبار الصحابة الذين أنشأوا لأنفسهم أرستقراطية دينية سداها المال ولحمتها السبق في الإسلام وصحبة الرسول(١).

وقد أبدى عبد الله بن الزبير شجاعة ملحوظة أثناء حصار عثمان مما حدا به أن يعهد إليه بوصيته، فكان آخر من خرج من الدار، وقد أمره عثمان بأن يصير إلى أبيه الزبير في وصيته بما أراد، وأن يأتي أهل الدار فيأمرهم بالانصراف إلى منازلهم فخرج عبد الله آخرهم فما زال يدعى بها ويحدث الناس عن عثمان بآخر ما مات عليه(٢) وأفاد ابن الزبير من هذا الموقف فكان يفخر به دائماً، حتى لقد فخر به يوماً من فوق منبر مكة فقال: «لقد استخلفني أمير المؤمنين عثمان على داره فلقد كنت أنا الذي أقاتل بهم ولقد كنت أخرج في الكتيبة وأباشر القتال بنفسي فجرحت بضعة عشر جرحاً وإني لأضع اليوم يدي على بعض تلك الجراحات فأرجو أن تكون خير أعمالي(٣).

وبعد أن آلى الأمر إلى عليّ وعزل ولاة عثمان جاءه الزبير وطلحة فطلبا الكوفة والبصرة. وأبى عليّ، فلما يئسا منه طلبا أن يأخذ عثمان من قاتليه، فاحتج باستحالة تحقيق هذا المطلب في تلك الظروف المضطربة، ووعدهما بأن يفعل حين يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق(٤).

وكان خروج الزبير وطلحة إلى البصرة وتربص معاوية بالشام سبباً في أن فكر عليّ في نقل العاصمة إلى الكوفة، وعندما أبدى الحجازيون ألمهم لرحيل أمير

---

(١) تاريخ الإسلام، ج١، ص٣٤٥.
(٢) الطبري، ج٣، ص٤٢.
(٣) تاريخ ابن عساكر، ج٧، ص٤٠٢.
(٤) الطبري، ج٥، ص١٦٧.

المؤمنين عنهم، اعتذر بعض الصحابة عن مرافقته وناشده عقبة بن عامر أن يمكث فكان جوابه«إن الأموال والرجال بالعراق، ولأهل الشام وثبة أحب أن أكون قريباً منها»[١].

كان عبد الله بن الزبير من اشد الداعين إلى حرب عليّ إن لم يكن أشدهم على الإطلاق، فقد ثنى خالته السيدة عائشة عن الرجوع إلى المدينة، وشجع أباه على القتال يوم الجمل[٢]. واتخذ عبد الله من تأمير عثمان له على داره يوم الحصار سبباً كافياً لأحقيته في الخلافة، فاستخلاف عثمان له دون سائر أصحابه الذين كانوا معه دليل على كفايته ومقدرته، وقد قاس على تأمير الرسول لأبي بكر في الصلاة أثناء مرضه الأخير مما عدّه المسلمون ارتضاء له في أمر الدين وكان سبباً في ارتضائه لأمر الدنيا.

وكان عبد الله يجتهد في دعم الحزب الذي نكث بيعة عليّ وصولاً إلى أغراضه، وحتى صار وراء كل حركاته. وفي البصرة عمل الزبير وطلحة على استمالة كعب بن سور سيد اليمن، والمنذر بن ربيعة والأحنف بن قيس سيد مضر، كما استمالا عبد الله بن عمر ولكنه رأى القعود نجاة وكان يرى لزوم السيدة عائشة بيتها حفاظاً على كرامتها وإشفاقاً على المسلمين من أن تتفرق كلمتهم وتذهب ريحهم[٣].

وسار عليّ إلى البصرة حيث التقى بجيش طلحة والزبير في مكان يقال له الحربية ونشب القتال ودارت معركة الجمل التي انتهت بمصرع عشرة آلاف مسلم، وقتل على أثرها طلحة والزبير، وشيع عليّ عائشة مكرمة بعد أن اعتذرت له[٤].

وهكذا تكونت لدى ابن الزبير بعض الدوافع التي جعلته يرى نفسه حقيقاً بالأمر فهو ربيب أم المؤمنين وابن أختها وكانت تكنى به[٥] وحفيد أبي بكر. وأبوه الزبير بن العوام أحد كبار الصحابة والعشرة المبشرين بالجنة. وهو ابن عمة الرسول

---

(١) الأخبار الطوال/١٥٢.
(٢) ابن الأثير، ج٣، ٢٠١.
(٣) الإمامة والسياسة، ج١،٩٩ - ١٠٣.
(٤) الإمامة والسياسة،ج١، ص٧٦، والعقد الفريد،ج٣،١٠٣.
(٥) البداية والنهاية، ج٨، ص ٩١.

وحواريه، وابن الزبير أول طفل يولد في الإسلام، وقد عهد إليه عثمان بوصيته دون غيره وجعلته خالته إماماً للجند فصلى أصحاب الجمل خلفه وفيهم أبوه وطلحة.

ويذكر ابن عساكر أنه لم يكن أحب إلى عائشة بعد رسول الله ﷺ وبعد أبيها من ابن الزبير، وأنها ما سمعت تدعو لأحد من الخلق مثل دعائها له وأنها أوصت بحجرتها(١). ويذكر «كاترمير» أنه لم يكن بين العرب الطامعين في الخلافة في القرن الأول الهجرى باستثناء عليّ، من اجتمعت له الحقوق والمؤهلات سوى شخص واحد هو عبد الله بن الزبير(٢).

ولكن هزيمة أصحاب الجمل ومقتل طلحة والزبير جعلت عبد الله يرجىء أطماعه إلى حين فقد نال منه مقتل أبيه، وأصيب هو أيضاً بعدة جراحات ووقع في الأسر ولم يخلصه سوى خالته لدى عليّ فعفا عنه.

وراح ابن الزبير يفيد من أخطاء معاوية بعد توليه الخلافة موحياً إلى الناس بأن يقارنوا بين مظاهر الملك والترف التي استحدثها معاوية، والبساطة والصلاح والتقوى التي بدا عليها هو في المدينة. وفي الوقت الذي اضطهد فيه معاوية شيعة عليّ وكان يلعنه من فوق المنابر، كان ابن الزبير يصادق الحسين ويحرص على ملازمته. وكان ابن الزبير لا يظهر أملا في الخلافة طالما كان الحسين بن عليّ موجوداً، وقد أخذ معاوية يغدق على تلك الطائفة، ويقضي حوائجها متغافلاً عن كل أذى يأتيه من قبلها(٣).

وأراد معاوية أن يستطلع رأي أهل الحجاز في استخلاف ابنه يزيد، وبعد أن ضمن له المغيرة الكوفة وتردد زياد طالباً التروي في الأمر(٤). وقد تظاهر معاوية بالحج واجتمع في سنة ٥٠هـ بتلك الطائفة من أبناء الصحابة باستثناء الحسن و الحسين ومحمد بن الحنفية.

وكان عبد الله بن الزبير لسان هذه الطائفة الناطق، المعارض لما طرحه معاوية

(١) ابن عساكر، ج٧، ص٤٠٢.
(٢) Memoire Historique sur la vie D. Abd Allah Benzobair p.62.
(٣) تاريخ الفخري، ص٩٢.
(٤) الطبري، ج٦، ص١٦٩ - ١٧٠.

وأرجأ معاوية الأمر إلى أن توفى الحسن بن عليّ[(١)] فخلا له الجو وبادر بأخذ البيعة ليزيد في الشام وكتب بيعته إلى الأمصار ثم رغب في الحصول على بيعة أهل الحجاز. وعند قدوم معاوية إلى المدينة عمد إلى الشدة مع أبناء الصحابة المتأبين عليه وأساء لقاءهم، وسبّهم وكان أشد تحاملاً على عبد الله ابن الزبير، ورفض أن يستقبلهم فرحلوا عن المدينة إلى مكة وقصد معاوية إلى السيدة عائشة فشكا إليها أبناء الصحابة وصارحوه برأيهم وتولى ابن الزبير التعبير عن هذا الرأي، فخير معاوية بين ثلاث: أن يصنع كما صنع رسول الله أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر فحسب[(٢)].

غير أن ابن الزبير طوى كشحاً على مسكنة وانتظر. فقد كان هذا الذي استحدثه معاوية من البيعة لابنه وهو لا يزال على قيد الحياة أمراً لم يألفه العرب وعلى الرغم من نجاح معاوية في أخذ البيعة ليزيد من رؤوس الناس في الحجاز فإنه كان لا يزال يخشى عبد الله بن الزبير. فقد كتب في وصيته ليزيد «يا بني.. إني قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك ما لم يجمعه أحد، وإنني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة: الحسين بن عليّ، وعبد الله بن الزبير، فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمساً شيئاً قبلك، وأما الحسين بن عليّ فإنه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه وإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً وقرابة من محمد ﷺ ولا أظن أهل العراق تاركينه حتى يخرجوه فإن قدرت عليه فاصفح عنه، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمكنته الفرصة وثب، فذاك ابن الزبير فإن هو فعلها بك وظفرت به فقطعه إرباً إرباً[(٣)].

وفي مكة وجد ابن الزبير أمناً افتقده في المدينة وفرصة ليكتسب عطف المسلمين وتأييدهم حينما أعلن أنه عائذ بالبيت[(٤)]. وخشى عمرو بن سعيد بن العاص ما حل بسلفه الوليد بن عقبة نتيجة تساهله مع الحسين وابن الزبير فرأى أن

---

(١) الإمامة والسياسة، ج١، ص١٢٦.
(٢) ابن الأثير، ج٣، ص٢١٧.
(٣) ابن الأثير، ج٤، ص٣.
(٤) ابن الأثير، ج٤، ص٧.

يتبع سياسة عنيفة معهما، ووجد في عمرو بن الزبير شقيق عبد الله عوناً على ذلك فولاه شرطته وأخذ عمرو بن الزبير يضطهد من كان على هوى أخيه من أهل المدينة وكان ممن نالهم أذاه أخوه المنذر بن الزبير ومحمد ابنه[١].

وتجهز ابن الزبير وتحصن في الكعبة وأحكم الدفاع عن مكة وشمل السخط المسلمين جميعاً بعد وقعة الحرة مما حدا بجماعات متباينة من المسلمين، إلى أن تقرر الذود عن الكعبة جنباً إلى جنب مع ابن الزبير، فقدم الناجون من أهل المدينة وكثير من الخوارج وبعض الشيعة بقيادة المختار بن عبيد الثقفى، وكذلك أرسل النجاشي جماعة من الجيش للدفاع عن الكعبة وأعان ابن الزبير بهم، فضمهم عبد الله إلى أخيه مصعب فكانوا يقاتلون معه. واستمر القتال أياماً من المحرم وشهر صفر كله إلى أن مضت ثلاثة أيام من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ فرمى الحصين بن نمير بيت الله الحرام بالمجانيق وحرّقه أهل الشام بالنار[٢].

وفي الرابع عشر من ربيع الأول توفي يزيد بن معاوية وقد علم عبد الله بن الزبير بالنبأ قبل أن يعلم به الجيش الأموي فناداهم: «علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم» ولم يصدقه الحصين حتى أتاه نعي يزيد فاتفق مع ابن الزبير على عقد مؤتمر في الأبطح.

إن حزب الزبيريين حزب ذو منهج عملي ناضل عن فكرته بالسيف واللسان، غير أنه لم تمهله الظروف لينهض دعاته بإقرار نظريته مما جعله أشبه شيء بثورة طارئة أو بخروج وارتداد على السلطان، لهذا لم يكد يسقط زعيمه حتى انتهى دون أن يكون له استمرار بعد ذلك، شأن بقية الأحزاب.

تعاليم الزبيريين

وتدور تعاليم هذا الحزب حول مسألة الخلافة فيرى الزبيريون أن الخلافة حق لقريش وحدها كما أعلن ذلك أبو بكر يوم السقيفة، فهم أولى من عبد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من

(١) ابن الأثير، ج٤، ص٨،
(٢) الطبري، ج٧، ص١٠٢.

بعده، ولا ينازعهم في ذلك إلا ظالم[١] وقد روى أبو بكر أن رسول الله ﷺ قال: «الأئمة من قريش»[٢] كما أثر عنه أنه قال: «الملك في قريش والقضاء في الأنصار والأذان في الحبشة» وأنه قال أيضاً: «الأئمة من قريش ما حكموا فعدلوا، ووعدوا فوفوا، واسترحموا فرحموا»[٣].

ولا يقتصر اشتراط القرشية في الخليفة على مجرد التبرك بالنبي ﷺ لأنه ليس من المقاصد الشرعية، إذ لا بد من المصلحة التي هي اعتبار العصبية التي تكون بها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب ليكون أبلغ في انتظام الملّة واتفاق الكلمة. فإذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع فأذعن لهم سائر العرب، وذاك أن قريشاً كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم، وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف، فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك[٤].

ولكن الزبيريين كانوا يرون أن ليس كل قريش بكفء لتولي هذا الأمر، وإنما يقصرونها على الأكفاء، ويرون أن عبد الله بن الزبير كان أكفأ من معاوية ومن غيره من الأمويين الذين يحكمون بسيوف كلب وغيرها من قبائل الشام اليمانية، وكأنه لم يعد لقريش ولا للحجاز عامة شيء من الحكم. بل استباحوا مدينة الرسول، وقضوا بكون الخلافة لا بسلطان شرعي، وإنما بسلطان السيف والقوة. وكان اعتقاد الزبيريين إذن أن معاوية لم ينل الخلافة عن طريق شرعي، وإنما نالها بالسيف وهو ليس كفئاً لها كما قال عبد الله: «فإن هذه الخلافة لقريش خاصة تتناولها بمآثرها السنية وأفعالها الرضية مع شرف الآباء وكرم الأبناء، فاتق الله يا معاوية وانصف عن نفسك، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله، وهذا عبد الله بن جعفر ذي الجناحين ابن عم رسول الله، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله وعليّ خلف حسناً وحسيناً وأنت تعلم من هما وما هما؛ فاتق الله يا معاوية وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك»[٥].

---

(١) الطبري، ج٣، ص٢٠٨.
(٢) الملل والنحل، ج١، ص١٦.
(٣) تاريخ الخلفاء، ص٦.
(٤) مقدمة بان خلدون، ص١٩٤ ـ ١٩٥.
(٥) الإمامة والسياسة، ج١، ص١٢٦.

ولم يكن الزبيريون يرون أسلوب التوريث الهرقلي الذي استحدثه معاوية حتى إذا مات هرقل قام هرقل كما قال عبد الرحمن بن أبي بكر[١]، وإنما كانوا يرون أن يتبع أسلوباً من الأساليب التي قررتها الخلافة الإسلامية الأولى، كما صنع النبي ﷺ أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر. فقد قبض رسول الله ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر، فإن لم يجد معاوية رجلاً مثل أبي بكر وخاف الاختلاف، صنع كما صنع أبو بكر فقد عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بني أمية فاستخلفه، أو إن شاء صنع كما صنع عمر إذ جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أمية[٢].

فالكفاءة شرط آخر يضاف للقرشية: فيزيد بن معاوية قرشي ولكنه ليس كفءاً، فهو يزيد الخمور ويزيد الفجور ويزيد الفهود ويزيد القرود ويزيد الكلاب ويزيد الفلوات[٣] وعبد الله بن الزبير صالح تقي ليله قائم حتى الصباح، وليله راكع حتى الصباح، وليله ساجد حتى الصباح[٤]، وهو أول طفل ولد في المدينة في الإسلام فحملته أمه أسماء إلى رسول الله فحنكه بتمرة فكان أول من دخل في جوفه ريق رسول الله ﷺ فكبر الصحابة والمسلمون بمولده استكباراً، وسماه رسول الله باسم أبيه[٥]. وكان فرح النبي به عظيماً لأن اليهود كانوا يقولون سحرناهم فلا يولد لهم ولد[٦] فقال الرسول لأمه: أرضعيه ولو بماء عينيك[٧]. وكان عبد الله من السابقين في الإسلام، بايع النبي وهو ابن ثمان سنين، وهو ربيب عائشة زوج الرسول وكانت تكنى بأم عبد الله[٨]. وعبد الله أمير منذ صباه إذا فر الصبيان فزعاً من صياح رجل بهم لم يفر، وإنما يصيح فيهم هو بقوله: «اجعلوني أميركم وشدوا بنا عليه»، فيفعلون[٩].

---

(١) ابن الأثير، ج٣، ص٢١٦.
(٢) ابن الأثير، ج٣، ص٢١٧.
(٣) أنساب الأعراف، ج٤، ص٣٠.
(٤) ابن الأثير، ج٤، ص١٥٠.
(٥) تاريخ ابن عساكر، ج٧، ص٣٩٧.
(٦) تاريخ الخلفاء، ص٨٢.
(٧) أنباء نجباء الأبناء، ص٨٥.
(٨) البداية والنهاية، ج٨، ص٩١.
(٩) ابن الأثير، ج٤، ص١٥٠.

وهو جرىء ثابت الجنان مقول منذ حداثته؛ يلوذ الصبيان فزعاً من هيبة ابن الخطاب بالفرار، ولكنه يلزم مكانه ويجيب على سؤال عمر: مالك لم تفر معهم؟ بأنه لم يجرم فيخافه ولم تكن الطريق ضيقة فيوسع له(١).

وهو منذ يفاعته مجاهد في سبيل الله مع أبيه فتح الشام واليرموك في الرابعة عشرة من عمره، وصحب أباه في فتح مصر واشترك في تدوين القرآن، وأبلى بلاء حسناً في فتح أفريقية حينما غير خطة عبد الله بن سعد بن أبي سرح فظفر بملكهم «جرجير» في أول يوم بعد أن طال القتال دون حسم، وحتى افتقد الخليفة عثمان خبر الجند ولم يرسل ابن الزبير إلا ليخبره خبرهم فإذا هو يأتيه بنصر من صنع يده يحمل نبأه وغنائمه(٢) وقد غزا اصطخر في سبيل الله(٣).

فعبد الله أكفأ من يزيد وأفضل منه، ووالده خير من والده، وأمه خير من أمه، وخالته خير من خالته، وعمته خير من عمته، كما أقر بذلك النعمان بن بشير رسول يزيد نفسه إلى ابن الزبير: «أبوك الزبير، وأمك أسماء بنت أبي بكر، وخالتك عائشة، وعمتك خديجة، أما إذا استشرتني فلا أرى أن تبايع له ولست بعائد إليك بعد هذا أبداً»(٤).

وهو صاحب عهد الخليفة عثمان بن عفان يوم الدار وأميرها، حينما حاصرها الثوار، وفي هذا ما يشعر باستخلافه كما أناب رسول الله أبا بكر ليصلي بالناس في مرضه الأخير فاستدل من هذا الإيحاء باستخلافه، وقالوا إنما أنابه عنه في دينهم أفلا ينيبونه في دنياهم. وكان عبد الله يتحدث في ذلك فيقول: والله لقد استخلفني أمير المؤمنين عثمان على داره. فلقد كنت أنا الذي أقاتل بهم، ولقد كنت أخرج في الكتيبة، وأباشر القتال بنفسي فجرحت بضعة عشر جرحاً، وإني لأضع اليوم يدي على بعض تلك الجراحات فأرجو أن تكون خير أعمالي(٥).

---

(١) ابن الأثير، ج٤، ص١٥٠.
(٢) أسد الغابة، ج٣، ١٦٢، الإصابة، ج٣، ص٧١.
(٣) المعارف، ص٦٤.
(٤) الأخبار الطوال، ص٢٧٣.
(٥) تاريخ ابن عساكر، ج٧، ص٤٠٢.

ومن أجل ولائه لعثمان فقد صداقة الخوارج الذين امتحنوه فيه فكانت النتيجة أن فقد حلفاء أشداء وكسب أعداء ألداء، وبكى عبد الله عثمان يوم بكى مصعباً من فوق منبر مكة[١]. وهو صاحب الصلاة يوم الجمل إذ قدمته عائشة لإمامة أصحاب الجمل فتخطت به أباه وطلحة[٢] ولم يكن أحب إليها بعد رسول الله وأبيها منه، وما سمعت تدعو لأحد من الخلق مثل دعائها له، كما أوصت له بحجرتها[٣].

وجميع ذلك أسانيد تجعله جديراً بالخلافة وأحق بها من يزيد وأشباه يزيد، ولكنها أسانيد تدور حول شخصه أكثر مما تدور حول مبدأ هام تقوم عليه نظرية الزبيريين في الخلافة والحكم، إذا استثنينا إصرارهم على أن يكون الحجاز قاعدة لدولتهم.

ويبقى أن نعلم هل كان باستطاعة ابن الزبير أن يتنازل عن الخلافة لقرشي أكفأ منه وكيف تقاس هٰذه الكفاءة، وبأي المقاييس؟

إن هذا سبب هام من أسباب فشل الحزب الزبيري. فقد كان حزباً يدور حول شخص بعينه وليس له مبادىء عامة مقررة يمكن أن يتولى الدعوة لها دعاة بالفكر والمنطق والأدلة المنطقيّة. ولقد قيدت نظرتهم شرط القرشية بالكفاءة فإذا أمكن تبين الشرط الأول وهو أمر ميسور، فإنه يتعذر الحكم فيما يختص بالشرط الثاني.

وقد أسهمت عوامل أخرى في فشل الحزب منها عوامل عامة وعوامل خاصة، فالعوامل العامة هي التطور الحضاري الذي شمل الحجاز حتى صار موطناً للأرستقراطية المترفة التي تخقلت في الحجاز بعد انصراف العناصر السياسية فيه إلى الشام والعراق. وقد مالت هذه الأرستقراطية إلى حياة اللهو والمجون، ولم تكن مناصرة الحركات السياسية من شأنها، كما أنها لم تكن تستطيع الاعتماد على نفسها من مواردها الخاصة بها.

وليس شك في أن قيام نظرية الخلافة الزبيرية على أساس عنصري إنما يمثل قصوراً في فهم الرسالة الإسلامية واستعداء للعناصر غير العربية من المسلمين التي

---

(١) ابن الأثير، ج٤، ١٤٠.
(٢) ابن الأثير، ج٣، ص٨٨.
(٣) تاريخ ابن عساكر، ج٧، ص٤٠٢.

ارتمت في أحضان الحركات الأخرى القائمة على المساواة. وقد كان قيامها على هذا الأساس العنصري سبباً في امتزاج السياسة بالصراع القبلي وإحياء الإحن القديمة بين اليمنية والمضرية.

ومن هذه العناصر أيضاً ظهور فرق وأحزاب تقوم على أسس فكرية ودينية كان اصطدامها بالزبيريين أصحاب العصبية أمراً محتوماً، الأمر الذي وزع قوتهم وشغلهم فأضاعوا سنين طويلة في محاولة تأسيس دولتهم ثم في سبيل المحافظة عليها، وهي تسقط حصناً حصناً.

أما العوامل الخاصة فأهمها: بخل ابن الزبير وحرصه الشديد الذي جعل كثيراً من العرب ينصرفون عنه. والأمثلة على بخله ليست بحاجة لأن تروى، فهي كثيرة وشهيرة. فمما لا شك فيه أن الدعاية أمر لا بد منه لنجاح أية حركة سياسية، وهذا يفسر قلة الشعراء، حتى إننا لا نكاد نجد غير شاعر واحد لم يمسكه عليهم غير إيمانه الشخصي بقرشيته، يدافع عن نظريتهم في الخلافة.

وكان لبخل ابن الزبير أكبر الأثر في انصراف الناس عنه حتى إنهم كتبوا إلى عبد الملك أن أقدم إلينا، وكان عبد الملك يشتري القادة قبل المعركة مثل ما صنعه قبل، وكان يقول عن ابن الزبير: إن فيه لثلاث خصال لا يسود بها أبداً: عجب قد ملأه، واستبداد برأيه، وبخل التزمه فلا يسود بها أبداً[١]. فكان حريصاً أشد الحرص حتى قيل عنه أيضاً إنه كان يعطي مال الله كأنه يعطي ميراث أبيه[٢]، وكذلك قيل إنه كان عظيم الشح فلذلك لم يتم أمره[٣].

المرجئة

لقد اسفر هذا الغلو المتطرف في بداية العصر الأموي عن ظهور فرقة محايدة تلتزم جانب القصد والاعتدال، وتقف موقفاً وسطاً وتضع مفاهيم جديدة في الحكم على المتنازعين من المسلمين بعد مقتل عثمان من الكفر والإيمان فتتوسط في هذه الأحكام بعيداً عن الصرامة والعنف اللذين اتسمت بهما عقائد الخوارج والشيعة.

---

(١) الإمامة والسياسة، ص٧ ص٢٠.
(٢) اليعقوبي، ج٣، ص٩.
(٣) الفخري، ص١٠٥.

و رجال المرجئة هم الغزاة الذين عادوا إلى المدينة إثر مقتل عثمان فوجدوا المسلمين يقتتلون فهالهم ما وجدوهم عليه، فآثروا العزلة ولاذوا بالحيدة، يدل على هذا قول ابن عساكر عنهم: «إنهم هم الشكاك الذين شكوا وكانوا في المغازي فلما قدموا المدينة بعد مقتل عثمان وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد ليس بينهم اختلاف فقالوا: تركناكم وأمركم واحد ليس بينكم اختلاف، وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون فبعضكم يقول قتل عثمان مظلوماًوكان أولى بالعدل وأصحابه، وبعضكم يقول: كان عليّ أولى بالحق وأصحابه، كلهم ثقة وكلهم عندنا مصدق، فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما ولا نشهد عليهما ونرجىء أمرهما إلى الله حتى يكون الله هو الذي يحكم بينهما»[١].

ويشتق بعضهم اسم المرجئة من «أرجأ» بمعنى بعث الرجاء أو أعطاه؛ وذلك لأنهم لمْ يقضوا على مرتكب الكبيرة بأنه من أهل النار أو من أهل الجنة، وإنما أخروا الحكم عليه إلى يوم القيامة، فهم بهذا يعطون الرجاء في المغفرة. فقد ذهبوا في تقرير حكم مرتكب الكبيرة إلى أنه لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة فهم إذن يرجون لكل مسلم مغفرة من الله[٢]، وذلك أخذاً من قوله تعالى: «وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم».

أو أنهم يقولون بأن الإيمان تصديق فحسب أو تصدبق بالقلب واللسان، ويؤخرون، العمل على النية والعقد[٣]، أي أنهم يقدمون القول ويرجئون العمل، أي يؤخرونه فإن المؤمنين ـ في اعتقادهم ـ وإن لم يصلُوا ولم يصوموا، نجاهم الله بإيمانهم، أو لأنهم يعتقدون أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي[٤].

وقيل إن الإرجاء تأخير عليّ عليه السلام عن الدرجة الأولى إلى الرابعة[٥]، ويرجح أحمد أمين الرأي الأول (أي تأخير الحكم وإمهاله) لأنه أنسب لما ذكره ابن

---

(١) ابن عساكر، ج٢٠، ص٥٧٧.
(٢) الملل والنحل، ج١، ص٢٢٢.
(٣) الملل والنحل، ج١، ص٢٢٢.
(٤) تاج العروس مادة، رجأ.
(٥) الملل والنحل، ج١، ص٢٢٢.

عساكر[1] بينما يرجح نيكلسون الرأي الثاني - أي إرجاء الحكم على مرتكب الكبيرة إلى يوم القيامة[2].

ونحن لا نكاد نرى خلافاً بين الرأي الأول والثاني والثالث فهي آراء متداخلة وترجع جميعها إلى إرجاء الحكم على المتنازعين من أصحاب عليّ وأصحاب الزبير وطلحة ومعاوية وغيرهم، حيث كان هؤلاء لدى بعض الفرق يعدون من مرتكبي الكبائر المختلف في الحكم عليهم وعليها. فبينما يرى الخوارج كفر عليّ وعثمان والقائلين بالتحكيم، يكفر الشيعة أبا بكر وعمر وعثمان ومن ناصروهم، وكلا الفريقين يكفر الأمويين. . كان الرأي الثاني بإرجاء الحكم على مرتكب الكبيرة تفصيلاً للرأي الأول وكان الرأي الثالث هو الحجة التي يقوم عليها الرأي الأول أيضاً.

نشأت المرجئة نشأة سياسية، وكان لها عند نشأتها رأى سلبي في السياسة القائمة، فهي تسالم الجميع ولا تكفر طائفة منهم دون غيرها، وتذهب إلى أن الخوارج والشيعة والأمويين جميعاً مؤمنون، فإذا كان بعضهم مخطئاً وبعضهم مصيباً فإننا لا نستطيع أن نعين المخطىء أو المصيب[3]. ولهذا فلنترك أمرهم جميعاً إلى الله ما داموا يشهدون بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فليسوا إذن كفاراً ولا مشركين بل مسلمون نرجىء أمرهم إلى الله الذي يعرف سرائر الناس ويحاسبهم عليها.

وكان معنى هذا أنهم لا يقفون من بني أمية موقف الفرق الأخرى، فلا يكفرونهم ولا يعارضونهم، وإنما يتركونهم وشأنهم وفي هذا تأييد سلبي لهم. وكانت نواة هذه الطائفة بين الصحابة في الصدر الأول، إذ نرى فريقاً منهم قد استنكف أن ينزلق في النزاع الذي كان في آخر عهد عثمان بن عفان، مثل أبي بكرة وعبد الله بن عمر وعمران بن الحصين[4].

---

(١) فجر الإسلام، ٢٧٩.

(٢) Hist. Litt. p.220.

(٣) تاريخ مختصر الدول، ص١٦٦.

(٤) شرح النووي، ج٨، ص١٦٩.

وبعد مقتل عثمان اعتزلت طائفة من الصحابة الفتنة فلم يكونوا مع عليّ في حروبه ولا مع خصومه، وقالوا لا ندخل في غمار الفتنة. منهم عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة الأنصاري وأسامة بن زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول الله. وقال قيس بن أبي حازم: «كنت مع عليّ في جميع أحواله وحروبه حتى قال يوم صفين: «انفروا إلى بقية الأحزاب.. انفروا إلى من يقول كذب الله ورسوله، وأنتم تقولون صدق الله ورسوله»، فعرفت أين كان يعتقد في الجماعة فاعتزلت عنه»[١].

وقد ترك عبد الله بن عمر المنازعة في الخلافة مع كثرة ميل أهل الشام إليه ومحبتهم إياه ـ وكذلك اعتزل سعد بن أبي وقاص الفتنة، ولم يكن مع أحد من الطوائف المتحاربة، ولزم بيته وكذلك كان محمد بن مسلمة بعد أن اعتزل الفتنة إثر مقتل عثمان قد اتخذ سيفاً من خشب، وكان يقول بذلك أمرني رسول الله ﷺ[٢].

وقد عرف هؤلاء الذين امتنعوا عن الاشتراك في الفتنة بالمرجئة الأولى، وقد جاء في طبقات ابن سعد أن محارب بن دثار قاضي الكوفة في ولاية خالد القسري وخلافة هشام بن عبد الملك كان من المرجئة الأولى الذين يرجون علياً وعثمان، ولا يشهدون بإيمان ولا كفر[٣]. وكذلك بريدة الأسلمي فقد عرض رجل بعليّ وعثمان وطلحة والزبير لاستخراج رأيه فقال: قوم سبقت لهم من الله سوابق فإن يشأ يغفر لهم بما سبق لهم، فعل، وإن يشأ يعذبهم بما أحدثوا فعل، حسابهم على الله[٤].

كانت المرجئة فرقة ذات آراء سياسية وإن كانت سلبية. فهم وإن لم يؤيدوا حكومة الأمويين غير أنهم لا يعارضونها ولا يرون الثورة عليها، وفي هذا اعتراف بشرعيتها[٥]، فهي إما على الحق وإما أنها اجتهدت فأخطأت، وخطأ المجتهد لا ينقص إيمانه.

---

(١) الملل والنحل، ج١، ص٢٢١ ـ ٢٢٢.
(٢) أسد الغابة، ج٤، ص٣٣٠.
(٣) ابن سعد، ج٦، ق١، ص٢١٤.
(٤) ابن سعد، ج٤، ق١، ص١٧٩.
(٥) العقيدة والشريعة، ص٧٦.

والمرجئة بهذا التصور يشكلون كتلة المسلمين التي رضيت حكم بني أمية مخالفين في ذلك الشيعة والخوارج متفقين إلى حد ما مع طائفة المحافظين من أهل السنة، وإن كانوا كما يرى «فون كريمر» قد ألانوا من شدة عقائد هؤلاء السنيين باعتقادهم أنه لا يخلد مسلم في النار(١).

وعلى الرغم من التوافق بين آراء المرجئة والبلاط الأموي فإننا نرى كثيراً من رجالهم يخرجون على الدولة ويلقون في سبيل ذلك القتل والصلب والتنكيل. فسعيد بن جبير ثار على عبد الملك والحجاج وقتل(٢). وغيلان بن مروان قتل وصلب، ومثل به في عهد هشام(٣). والحارث بن سريج خرج على هشام وواليه بخراسان. وكان كثير من الذين ناصروا ابن الأشعث في ثورته على الحجاج من المرجئة، بالإضافة إلى الذين ناصروا يزيد بن المهلب في ثورته على يزيد بن عبد الملك.

وتفسير ذلك أن المرجئة اتجهوا بعد قليل من نشأتهم إلى البحث في بعض الأمور اللاهوتية التي تتفق واتجاهاتهم السياسية كالإيمان والكفر. وقد جرهم ذلك إلى البحث في حرية الإرادة فراجعوا أنفسهم واتهموا سلبية أفكارهم؛ فكانت بيئتهم حقلاً لبذور كثيرة نبتت متأثرة ببعض الآراء المسيحية والإغريقية الممتزجة بالفلسفة اليونانية عن طريق الاختلاط بأولئك الذين ظلوا زمناً طويلاً تحت المؤثرات الهلينية.

ولا نكاد نمضي حتى عصر هشام بن عبد الملك حتى نجد للمرجئة نشاطاً حربياً آخر ضد الدولة إذ يتزعم أحد المرجئة ثورة عنيفة في خراسان زلزلت تلك المنطقة تحت أقدام الأمويين بضع سنين وكانت ممهدة لنجاح العباسيين هناك(٤). إنها الثورة التي قادها الحارث بن سريج والذي عد بين الموالى مهدياً مخلصاً. وتنبأت بظهوره النبوءات حتى شغلت الأذهان عن رجل ذي أعلام سود يخرج من الشرق ويزيل عرش بني أمية(٥).

---

(١) Greseh. d'Herrseh Ideen, p.25.
(٢) وفيات الأعيان، ج١، ص٢٥٦.
(٣) سرح العيون، ص١٦٧.
(٤) تاريخ الإسلام السياسي، ج١، ص٤٤٣.
(٥) الكامل للمبرد ص٥٨٥.

وقد ظهر الحارث بن سريج معتمداً على هذه النبوءات وعلى حديث مشهور رواه أبو داود يقول: «يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث حراث على مقدمته رجل يقال له منصور يوطئ أو يمكن لآل محمد كما مكنت قريش لرسول - ﷺ - وجب على كل نصره».

ليس لدينا عن المرجئة إلا القليل النادر من الأخبار، وربما يرجع ذلك إلى أن الدولة العباسية قد حاربت هذه الطائفة التي اتفقت آراؤها تماماً مع رجال البلاط الأموي، ومن لاذوا به[١].

ولا شك أن هذه الفرقة قد تداخلت في فرق أخرى وذابت فيها. فلم يعد لها ثمة وجود مستقل محسوس، وكان ذلك بعد أن اتجهت المرجئة إلى البحث في بعض الأمور اللاهوتية التي تتفق واتجاهاتهم السياسية. وأهم ما بحثوا فيه تحديد الإيمان والكفر والمؤمن والكافر. وكان الدافع إلى هذا البحث أنهم رأوا الخوارج يكفرون من عداهم، والشيعة كذلك، ورأوا الشيعة في غلوهم يعدون الاعتقاد في الإمام ركناً سادساً من أركان الدين والإيمان. فكانت النتيجة الضرورية أن يبحثوا ما الكفر وما الإيمان؟ وقد رأى كثير من المرجئة أن الإيمان هو التصديق بالقلب وحده أي معرفة المؤمن لله بقلبه، ولا عبرة بعد ذلك بنطقه بالشهادتين بلسانه ولا بقيامه بالعبادات الدينية والمالية. فكل هذا ليس من أصل الإيمان وإنما الأصل التصديق بالقلب. وإذن فلا يضير المؤمن من أن يظهر الشرك أو اليهودية أو النصرانية في دار الإسلام. وقد غلا جهم بن صفوان أحد رؤسهم فزعم أن الإيمان عقد بالقلب وإن أعلن الكفر باللسان وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانية في دار الإسلام، وعبد الصليب وأعلن التثليث في دار الإسلام ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عزَّ وجلَّ ولي الله عزَّ وجلَّ من أهل الجنة[٢].

فقولهم إن الإيمان هو المعرفة بالله ورسله وإن من عرف أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فهو مؤمن إنما هو رد منهم على الخوارج الذين يقولون إن الإيمان معرفة بالله وبرسله والإتيان بالفرائض والكف عن الكبائر، فمن آمن بالله ورسله

---

(١) فجر الإسلام، ص٢٨١.
(٢) الفصل، ج٤، ص٢٠٤.

وترك الفرائض وارتكب شيئاً من الكبائر كان مؤمناً عند المرجئة كافراً عند الخوارج، وفيه أيضاً رد على الشيعة الذين يعتقدون أن الإيمان بالإمام وطاعته جزء من الإيمان.

غير أن بعضهم، وهم الذين يعرفون «**بالتومنية**» يرون الإيمان ركنين أولهما التصديق بالقلب وثانيهما الإقرار باللسان ولا بد من اجتماعهما معاً[١]؛ فالذي يصدق بقلبه ليس مؤمناً.

ومعنى هذا أن المرجئة سواء الذين حصروا الإيمان في التصديق بالقلب أو الذين حصروه في التصديق بالقلب والإقرار باللسان لا يعتدون بالعمل ركناً من الإيمان. فمن كلماتهم الشهيرة أنه لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة[٢] وترتب على ذلك أنهم رأوا الأعمال الظاهرة ليست من الإيمان لأنها تزيد وتنقص، والإيمان عندهم لا يزيد ولا ينقص لأنه مجرد الاعتقاد القلبي مضافاً إليه الإقرار باللسان عند بعضهم.

وقد نتج عن هذا أنهم لا يحكمون بالكفر على النصارى واليهود الذين امتلأ بهم البلاط الأموي وشغلوا المناصب العالية في الدولة الأموية[٣]. فما دام الإيمان محله القلب وليس يطّلع عليه إلا الله فإن الأمر يدعو إلى مسالمة الناس جميعاً. وقد نتج أيضاً عن تعريفهم للإيمان على هذه الصورة أن مرتكب الكبيرة الذي يخلده الخوارج في النار استناداً إلى قوله تعالى: «ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها» وإلى قوله تعالى: «ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها» فإن المرجئة تأولوا الآية الأولى بأن الذي يعصي الله ورسوله ويكون مؤمناً فإنه تعدى بعض حدود الله أما الذي يتعدى حدوده كلها فهو الكافر وهو المعني في الآية.

وقد تأولوا الآية الثانية بأن المراد بها من يقتل مؤمناً ولا يقتل مؤمناً لإيمانه إلا كافر، وإذن فالكفار هم المخلدون في النار، أما المؤمنون العصاة فإما أن ينالوا عفو

(١) الملل والنحل، ج١، ص٢٢٩.
(٢) خطط المقريزي، ج٤، ص١٧١.
(٣) Nicilson, List, Hist. of Arabs, p.221.

الله وإما أن يعذبهم على قدر ذنوبهم ثم يدخلهم الجنة، وأهل السنة يوافقونهم على هذا. وقد ذهب المرجئة إلى أن الله لا يخلف وعده ولكنه قد يخلف وعيده لأن الثواب فضل من الله لا بد أن يفي به وإلا كان خلف الوعد نقصاً، أما العقاب فعدل، ولله أن يعفو أو يخفف العقوبة وليس في هذا الخلف نقص. وهم يخالفون المعتزلة في هذا. ويبدو أن اتجاه المرجئة إلى البحث اللاهوتي في الإيمان قد جرهم إلى البحث في حرية الإرادة والجبر، فكانت بيئتهم هي الحقل الذي نبتت فيه هذه البذور جميعاً نتيجة لتأثرهم بالآراء المسيحية والإغريقية بالفلسفة اليونانية.

وكان من المرجئة أصناف مختلفة أصبحوا فيما بعد رؤساء لفرق أخرى قائمة بذاتها أنبتّت عن بيئة المرجئة وأنتجت القدريين الأولين والجبريين الأولين أيضاً، ومن هؤلاء المرجئة القدريين وجدت المعتزلة، ومن جبرية المرجئة وجدت فرق جبرية خالصة، وقد جعل الشهرستاني المرجئة أربع فرق هي مرجئة الخوارج ومرجئة الجبرية ومرجئة القدرية والمرجئة الخالصة(١).

وكان اسم مرجئة الخوارج يطلق في الغالب على الصفرية الذين وقفوا أمام تشدد الأزارقة بتسامحهم وتحرجهم في إطلاق لفظ الكفر على غير الأزارقة من المسلمين.

وانطلاقاً من قول القدرية بنفي الصفات الأزلية عن الله انحرف إلى القول بالجبر جهم بن صفوان الذي كان من رؤوس المرجئة ووزيراً للحارث بن سريج وداعية له فأظهر بدعته في القول بالجبر في **ترمذ** فقتله عامل **نصر بن سيار** عليها سنة ١٢٠هـ(٢).

ومن المرجئة الذين قالوا بالقدر يونس الأسواري وهو أول من تكلم بالقدر(٣)، وعنه أخذ معبد الجهني في البصرة وقد قتله عبد الملك في ذلك. وعذبه الحجاج بعد أن نهى الحسن البصري عن مجالسته(٤). وكذلك أخذ عن يونس غيلان ابن

---

(١) الملل والنحل، ج١، ص٢٢٢.
(٢) الملل والنحل، ج١، ص٤٠..
(٣) لسان الميزان، ج٦، ص٣٣٥.
(٤) أسد الغابة، ج٤، ص ٣٩٠.

مسلم المعروف بغيلان بن أبي غيلان[١]. وقد قتل أيضاً في القدر بعد أن ناظره الأوزاعي وأفتى بقتله في عهد هشام بن عبد الملك[٢].

وثابت أنه قد نسج على منوالهم في القول بالقدر وإنكار إضافة الخير والشر إلى القدر **واصل بن عطاء** تلميذ الحسن البصري وتلميذه عمرو بن عبيد[٣] وهما رأس المعتزلة الذين وافقوا المرجئة في التوقف عن الحكم على أصحاب الجمل وقالوا إن أحدهما مخطئ لا بعينه أو فاسق لا بعينه[٤].

وهكذا يمكن أن يقال إن المعتزلة نشأت في بيئة المرجئة القدريين وأنهم تابعوهم في كثير من آرائهم التي تطورت عندهم في ضوء الأبحاث اللاهوتية المستفيدة من الثقافات الأجنبية.

القدرية والجبرية

كانت بيئة المرجئة الحقل الذي نبتت فيه طائفة القدرية على أثر اتجاه المرجئة إلى البحث في الأمور اللاهوتية المتصلة بالسياسة كتحديد الإيمان والكفر، وقد جر هذا إلى البحث في الاختيار والجبر.

والجبر والاختيار موضوع قديم في الدراسات القديمة ولكن البحث فيه لدى المسلمين لم يحدث إلا نتيجة لافتراق الفرق ولحاجتها إلى الجدل في آخر العصر الأموي واستمدادها لمنابع الثقافة العربية والإسلامية والأجنبية. وهي تلك الروافد التي تكون منها تيار الثقافة في هذا العصر.

والمنبع العربي يتبدى في التيار الجاهلي الذي يتجلى في الشعر والأيام والأنساب والتقاليد الجاهلية، وكان المسلمون يعبون من هذا الرافد عبّاً، فسرعان ما ظهر من بينهم علماء كثيرون متخصصون في معرفة الشعر وروايته والأنساب وتشعباتها وأخبار الجاهلية وآياتها، من مثل عبيد بن شرية ودغفل بن حنظلة والنخار بن أوس العذري، وغيرهم ممن بلغ حظّاً وافراً من المهارة في هذه الفنون.

---

(١) الملل والنحل، ج١، ص ٢٢٧.
(٢) لسان الميزان، ج٤، ص٤٢٤.
(٣) نقد العلم والعلماء ١٠٢.
(٤) الملل والنحل، ج١، ص٦٥ ـ ٦٦.

وكان الرافد الإسلامي يتجلى في القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ وسيرته وغزواته ثم في أحداث الفتوح وما أعقبها من حروب داخلية بين عليّ وخصومه. وقد انشعب هذا الرافد شعبتين إحداهما تاريخية تعنى بتاريخ الإسلام وتسجيله على نحو ما يصور لنا ذلك أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير في الاهتمام بمغازي الرسول وغير ذلك مما عني به بعض من جمع أخبار أهل الكتب السماوية مثل وهب بن منبه. وشعبة دينية تعنى بقراءات القرآن وبالحديث النبوي وما يتصل بهما من تشريع وفقه.

وقد التقى بهذين الرافدين الإسلامي والجاهلي جدول ثالث أجنبي جاء من تأثر العرب بالأجانب ووقوفهم على الثقافة الهلينية المنتشرة في البلاد التي فتحوها وهي مزيج من ثقافة اليونان وثقافات شرقية مختلفة دينية وغير دينية.

وكانت الإسكندرية مركز العالم الإغريقي إذ ورثت أثينا بعد أن أقفل ثيودوسيوس في روما المدارس، وانتهت المكايد المختلفة باضطرار أوريجن إلى مغادرة الإسكندرية فلجأ إلى فلسطين حيث أنشأ هناك في قيصرية مدرسة على مثال مدرسة الإسكندرية. وحول أورجين نشاطها إلى التخصص في نقد النصوص. وتركز نشاطها في دراسة اللاهوت. ونشأ على غرار هذه المدرسة مدرسة أخرى أسسها مالخيون في أنطاكية سنة ٢٧٠م. وقام على غرارها أيضاً مدرسة في نصيبين في بيئة سريانية خالصة، عنيت بدرس اللغة الإغريقية لتكون همزة وصل بين المسيحيين الذين يتكلمون السريانية وحياة الكنيسة في عمومها[١].

وقد استمر الجدل بين مدرسة الإسكندرية ومدرسة أنطاكية فيما يعرف بالنزاع الأريوسي حول علاقة المسيح بالله، والنزاع حول شخصية المسيح المتجسد. وقد مثلت مدرسة أنطاكية النزعة المتطرفة في هذا الجدل ودافع عن تطرفها بإزاء مدرسة الإسكندرية نسطور الراهب الأنطاكي الذي دمغه مؤتمر **أفسوس عام ٤٣١م** بالإلحاد. وكان نتيجة ذلك أن لقي النساطرة اضطهاداً من الكنيسة الرسمية وهربوا وانتشرت تعاليمهم بين المسيحيين الذين يتكلمون السريانية.

---

(١) الفكر العربي ومكانه في التاريخ ص٤٣.

وفي سنة ٣٦٣م سلمت مدينة نصيبين إلى الفرس كشرط من شروط السلام التي انتهت بها الحرب. وعند تراجع أعضاء المدرسة إلى الأقاليم المسيحية تجمعوا في الرها وافتتحوا مدرسة فيها، سرعان ما أصبحت مركزاً للكنيسة النسطورية التي تستخدم اللغة الوطنية. وقد أوى إليها المتطرفون من الذين رفضوا قرارات أفسوس. وبسبب طابعها النسطوري الواضح أغلقها الإمبراطور زينون عام ٤٣٩م فهاجر أعضاؤها إلى فارس حيث استقبلوا هناك استقبالاً وديّاً كانت نتيجته أنهم أيدوا الملكية الفارسية في صراعها مع الإمبراطورية الرومية.

وأعاد النساطرة فتح أبواب مدرسة نصيبين فصارت مركزاً للنشاط النسطوري حتى عرفت شعوب المنطقة، المسيحية في صورتها النسطورية، كما عرفت الفلسفة الهلينية بعد ذلك بفضل ترجمات عربية مأخوذة من النسخ السريانية(١).

وأنشأ كسرى أنوشروان في أواسط القرن السادس مدرسة جند يسابور حيث استضاف فيها الفلاسفة اليونان الذين طردهم جوستنيان من أثينا وجلب لهم كتب الفلسفة والعلم من الهند.

وكذلك كانت في حران مدرسة وثنية احتضنت الثقافة الإغريقية حتى أصبح العالم الهليني مسيحياً في عمومه.

وهكذا نجد القرون التي سبقت ظهور الإسلام مباشرة تشهد انتشار المؤثرات الهلينية انتشاراً واسعاً ثابتاً في كل شكل من أشكال الثقافة المختلفة من العلم والفلسفة.

وقد أثار الخوارج جدالاً في كل مكان مع علي وابن عباس وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز كما أثاروا جدالاً فيما بينهم، ويشيد المبرد بقدرتهم على استظهار الأدلة والبراهين(٢).

وكذلك تجادل الشيعة وجادلوا غيرهم من الفرق المعاصرة. وممن اشتهر بالقدرة على الجدال زيد بن علي مؤسس الزيدية وقد ظهر منهجه في الجدال عند

---

(١) م.ن، ص٥٢.
(٢) الكامل، ص٥٦١.

شاعره الكميت الذي أخذ يقرر نظرية الزيدية في شعره ويبسط أصولها ويدافع عنها بالحجج والبراهين.

وفي بيئات الفقهاء كثر الجدل في مسائل الفقه. وتروى أخبار كثير من المناظرات، من مثل مناظرة قتادة والزهرى في مجلس سليمان بن عبد الملك[١]. ومناظرة ابن شبرمة وإياس بن معاوية اللذين تناولا فيها سبعين مسألة[٢]. وقد نشأ عن ذلك علم الاختلاف بين الفقهاء، وكان أيوب السختياني يقول: «لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف»[٣].

وأداهم ذلك إلى تحكيم العقل في آرائهم والتدقيق في مسالك أدلتهم حتى نشأ بينهم من سموا بأهل الرأي، لغلبة القياس على فقههم[٤] وقد عرفت مدرسة العراق بهذا الاسم حتى كانوا ينسبون إليها فيقولون ربيعة الرأي وهو شيخ مالك. ويرجع كون العراق موطناً لمدرسة الرأي لقلة الحديث في العراق، بينما تركز نشاط أهله في الحجاز في الوقت الذي تأثر فيه العراق بالمدنيات الأجنبية وثقافاتها.

وكان لهذه المدرسة مميزاتها الواضحة لكثرة التفريعات حتى الخيالي منها مما ساقهم وراء الفروض فأكثروا من «أرأيت لو كان كذا؟» يسألون المسألة ويبدون فيها حكماً ثم يفرعونها بهذا القول ويقلبونها على سائر وجوهها الممكنة وغير الممكنة شأنهم في ذلك كشأنهم في تطلب وجوه الإعراب وجوازات اللغة والتلفيق في الفقه بين المسائل المختلفة حتى سماهم أهل الحديث بالأرأيتيين.

قال الشعبي: «والله لقد بغض هؤلاء القوم إليّ المسجد حتى لهو أبغض إليّ من كناسة داري» قلت: «من هم يا أبا عمر؟»، قال «الأرأيتيون»[٥]. وكانوا ينصحون من يلحف في السؤال بالتوجه إلى العراق[٦] وقد ضاق سعيد بن المسيب باعتراض لربيعة الرأي في مسألة، فسأله: أعراقي أنت؟ وليس هناك من علة لاتخاذ العراقيين لهذا المنحى في تفريع المسائل غير انتشار المنطق هناك.

---

(١) البيان والتبيين، ج١، ص٢٤٣.
(٢) طبقات ابن سعد، ج٧، ق٢، ص٥.
(٣) البيان والتبيين، ج٢، ٩٨.
(٤) المعارف، ص٢٤٨.
(٥) الموافقات، ج٤، ص١٨٦.
(٦) الموافقات، ج٤، ص١٨٧.

وقد تجادل المسلمون أيضاً في مسائل العقيدة وكانت أهم المسائل المعروضة للنقاش الفلسفي آنذاك هي مسألة الاختيار. وموقف القرآن الكريم صريح في هذه المسألة فالله سبحانه وتعالى قدير على كل شيء، عليم بكل شيء وكل الأشياء معلومة له ومحكومة به، وهكذا فلا بد أن تدخل في ذلك أفعال العبادة، والثواب والعقاب اللذان يترتبان عليها: «ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها»، «وكل شيء أحصيناه في إمام مبين»، ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين»، «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، ولهم عذاب عظيم»، «ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون». «أفمن حق عليه كلمة العذاب، أفأنت تنقذ من في النار»، «ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة».

وقد وردت آيات في القرآن الكريم تشعر الإنسان بأنه مخير ومسئول عن عمله «إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً»، «وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون»، «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»، «ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما، ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله علياً حكيماً».

وفي العراق كان التشابه قوياً بين آراء المعتزلة التي غرس الحسن البصري غراسها الأول وبين آراء النساطرة الدينية المتأثرة بالفلسفة الإغريقية، ولهذا يقول **دي بور**: «إن هناك دلائل متفرقة على أن طائفة من المسلمين الأولين الذين قالوا بالإختيار تتلمذوا لأساتذة مسيحيين»[١].

وقد يعزز هذا ما قيل من أن أول من تكلم في القدر نصراني من العراق أسلم ثم عاد إلى نصرانيته. وأخذ عنه معبد الجهني وغيلان الدمشقي وهما من مرجئة القدرية. ويروى أن الجعد بن درهم مولى بني الحكم أول من تكلم في خلق القرآن

---

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص٤٩.

بدمشق، ثم طلب فهرب حتى نزل الكوفة، فتعلم منه الجهم بن صفوان. ويقال إن الجعد أخذ آراءه عن أبان بن سمعان وكان أبان تلميذاً لطالوت وطالوت كان تلميذاً لختنه لبيد بن الأعصم اليهودي. وكان طالوت يقول بخلق التوراة وكان زنديقاً[١]. وهو أول من صنف في ذلك، ثم أظهر الجعد هذه الآراء فقتله خالد القسري في الكوفة لعهد هشام بن عبد الملك كما قتل في عهده أيضاً غيلان الدمشقي لقوله بالقدر[٢].

ونحن نجد آراء أخرى تحاول أن تثبت تتلمذ القائلين بالقدر لأساتذة من الفرس، فيقال إن معبداً الجهني الذي أظهر القول بالاختيار في آرائه لأول مرة كان تلميذاً لسنبويه الفارسي الذي كان يعلم في دمشق وأن عبد الملك قد حكم على سنبويه هذا بالإعدام[٣].

ولا شك أن هذه مسألة كان قد تكلم فيها من قبل فلاسفة اليونان ونقلها عنهم السريان كما تكلم فيها الزردشتيون، وبحثها النصارى أيضاً. غير أن بحث الزردشتيين لها لم يكن شاملاً ولا مستقلاً، وإنما كان بحثاً جزئياً مفرداً ولغرض التوفيق بين أبحاث ما وراء المادة والدين[٤]. وقد سمى هؤلاء الذين يقولون بحرية الإرادة للإنسان وبأن له قدرة على أعماله بالقدرية. وسماهم بذلك خصومهم لحديث ورد يقول: «القدرية مجوس هذه الأمة» وكان الذين يقولون بحرية الإرادة يرون أن أولى الناس بأن يطلق عليه اسم القدرية هم الذين يقولون بأن القدر يحكم جميع أعمال الإنسان من خير وشر. وعلى كل حال فقد لصق الاسم بالطائفة الأولى وصار لقباً لها[٥].

وقيل أن معبد الجهني مرجىء قدري، وغيلان كذلك، والجعد بن درهم أيضاً، وقد ذهب الشهرستاني إلى أن واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصري وأستاذ

---

(١) ابن الأثير، ج٧، ص٢٦.
(٢) سرح العيون، ص١٦٦، ١٨٨.
(٣) Brown, Lit, Hist. of Persis, V. I. p.p. 279 - 281.
(٤) الفكر العربي ومكانه في التاريخ، ص١٠٢.
(٥) فجر الإسلام، ص٢٨٤.

عمرو بن عبيد قد أخذ عنهم ونسج على منوالهم[١] وعلى عكس هؤلاء القدرية طائفة الجبرية وكان رأسها جهم بن صفوان مرجئاً جمع إلى الإرجاء القول بالجبر، وكان يذهب إلى أن الإنسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة.

المعتزلة:

وكان من العلماء من نشط للرد على القدرية والجبرية نشاطاً عظيماً، فذابت فرقة المرجئة التي اشتملت على القول بهذين المذهبين في غيرها من المذاهب، وظهرت فرقة المعتزلة التي كثيراً ما يسمى أصحابها بالقدرية، لموافقتهم للقائلين بالقدر في إثبات قدرة للإنسان توجب الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى، ونفيهم أن تكون الأفعال بقدر الله تعالى وقضائه. كما أنهم يلقبون أحياناً بالجهمية لموافقتهم إياهم في نفي صفات الله وفي خلق القرآن وفي قولهم إن الله سبحانه وتعالى لا يرى[٢].

وقد اتفق المعتزلة مع المرجئة بنوعيها في التوقف عن الحكم على أحد الفريقين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين[٣] وفي قولهم إن مرتكب الكبيرة ليس كافراً.

ولهذا كانت بيئة المرجئة هي التي أثمرت فرقة المعتزلة وكان المرجئة القدريين والجبريين على السواء هم أساتذة المعتزلة في القدر ونفي الصفات.

وتعد شخصية الحسن البصري مثالاً حقيقياً لذوبان الأفكار واحتكاكها في هذه الفترة من تاريخ فرقة المعتزلة. فكما كان مركباً من أفكار مختلفة شاعت في عصره فإن المعتزلة أيضاً كانوا جماع الفرق التي اشتغلت بدرس اللاهوت من قبلها.

وقد كان للحسن مجلس مشهود في مسجد البصرة يحضره الخاصة والعامة. وكان إذا ألقى إليه سؤال في قضايا الإيمان حاول أن يجيب عليه بالرأي ومن طريق المنطق، ولم تكن أجوبته للتقرير فحسب بل للتعليل والإقناع أيضاً.

---

(١) الملل والنحل، ج١، ص٣١، ٦٢.
(٢) تاريخ الجهمية والمعتزلة، ص٤٤.
(٣) الملل والنحل، ج١، ص٦٥.

وللحسن صلة وثيقة بنشأة الاعتزال فأشهر الروايات تذكر أن مذهب الاعتزال نبع في مجلسه، ويذكر الشهر ستاني أن أحد الناس دخل عليه فقال: «يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟ فتفكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: «أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر». ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن اعتزل عنا واصل، فسمى هو وأصحابه معتزلة[1] وقد تابعه على رأيه عمرو بن عبيد.

لعل هذا الرأي ضعيف من عدة وجوه أهمها أن انتقال واصل من حلقة المسجد إلى أخرى أو من أسطوانة إلى غيرها ليس بالأمر الهام الذي يصح أن تلقب به فرقة، والأوجه أن تكون التسمية متعلقة بالجوهر لا بالعرض. وكذلك اختلاف الرواة في الرواية يجعلها محلاً للنقد فبعضهم ينسب حادثة الانفصال إلى واصل بن عطاء، وبعضهم ينسبها إلى عمرو بن عبيد[2].

كما أن الروايات لا تتفق على من أطلق اسم المعتزلة، فهو تارة الحسن البصرى كما مر، وتارة قتادة حينما مر بعمرو بن عبيد بن باب، فقال: ما هذه المعتزلة؟[3].

وفي كثير من الكتب التي تعنى بمباحث الكلام يقال عن شخص مثلاً: إنه كان يقول بالإعتزال أو هو من أهل الاعتزال، وهذا يدل على أن اسم الاعتزال مذهب ذو مبادىء وليس مجرد انفصال من مجلس إلى مجلس آخر وأن الاعتزال معنى من المعاني وليس حركة جسمية[4].

---

(١) الملل والنحل، ج١، ص٦٤.
(٢) عيون الأخبار، ص٢٤٣.
(٣) لسان العرب، تاج العروس، مادة عزل.
(٤) فجر الإسلام، ص٢٨٨.

وهناك رأي آخر في تسميتهم يحفل بجوهر مذهبهم ويجعل التسمية متعلقة بمعنى اتجاهِهم، دائرة حول آرائهم واتخاذها منحنى جديداً من التفكير، وذلك لأنهم اعتزلوا آراء أهل الجماعة الذين يقولون بأن مرتكب الكبيرة مؤمن، وآراء الأزارقة من الخوارج الذين يكفرونه، ويستعرضون الناس قتلا[١].

وقريب من هذا المعنى ما ذهب إليه عبد القادر البغدادي من أن الحسن البصري لما طرد واصلاً من مجلسه فاعتزل إلى سارية من سواري مسجد البصرة وانضم إليه عمرو بن عبيد، قال الناس يومئذ فيهما: «**إنهما قد اعتزلا قول الأمة**» وسمى أتباعهما بالمعتزلة[٢].

ويفهم من قول المسعودي أنهم سموا بالمعتزلة لقولهم بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين. فالمعتزلة على رأيه هم القائلون باعتزال مرتكب الكبيرة[٣].

وقد تنبه بعض الباحثين المحدثين إلى وجود صلة وثيقة بين المعتزلة وبين فئة سميت بهذا الاسم من قبل مدرسة الحسن البصري بزمان طويل تلك الفئة التي وقفت موقف الحياد من مشكلة عليّ ومعاوية لأنها رأت فئتين متقاتلتين أو متنازعتين ولم تقنع برأي لأحدهما ولم ترد أن تدخل في القتال والنزاع بينهما لأنها لم تكون لها رأياً أو لأنها رأت أن كليهما غير محق[٤].

وفي دائرة المعارف الإسلامية أن المعتزلة لا بد أن تكون قد نشأت في فلك سياسي كما نشأت حركتا الشيعة والخوارج، وإن ذلك يرجع إلى بدء التيارات الإسلامية التي بدأت مع تولي عليّ للخلافة سنة ٣٥ هـ حينما وقفت طائفة من المسلمين على الحياد ولم يتخذوا موقفاً إيجابياً في مشكلات السياسة القائمة، فعرف هؤلاء بالمعتزلة، ذلك الاسم الذي أصبح اصطلاحاً سياسياً يعني اتخاذ موقف الحياد بين عليّ وخصومه[٥].

---

(١) لسان العرب، تاج العروس، مادة: عزل.
(٢) الفرق بين الفرق، ص٩٧ ـ ٩٨.
(٣) مروج الذهب، ج٦، ص٢٢.
(٤) فجر الإسلام ص٢٩٠.
(٥) Shorter Encyclopeadia of Islam, pp. 421 - 422.

إن من إطلاق المؤرخين كلمة الاعتزال كثيراً على هذه الطائفة يجعلنا نميل إلى هذا الرأي حيث نزعت هذه الطائفة إلى الحيدة المبكرة عن الدخول في المنازعات، فلم يبايعوا علياً ولم يكونوا من أنصار عثمان ممن أورد أبو الفدا أسماءهم وعقب عليهم بقوله: «إن هؤلاء سموا بالمعتزلة لاعتزالهم بيعة علي»[١].

وقد ذكر الطبري في حوادث سنة ٣٧ هـ أن جماعة من المسلمين شكوا في أمر القتال الدائر بين عليّ ومعاوية فرأوا أن يستأنوا ويثبتوا حتى تجتمع الأمة فاعتزلوا.

وجاء أيضاً في الطبري قوله: إن عليّ بن الحسين قد اعتزل المدينة لما خلع أهلها يزيد بن معاوية وحاصروا من فيها من بني أمية بدار مروان بن الحكم.

إذن فقد كان لهذه الكلمة معنى سياسي هو الابتعاد عن الصراع الناشب بين عليّ وخصومه وتجنب الانغماس في الفتنة بالميل إلى أحد طرفيّ النزاع، والاستمساك بالحيدة دون مناصرة فريق على فريق أو إبداء رأي في الحكم على أحد الفريقين:

وعلى هذا فإنه يمكن أن نستنتج من ذلك أن إطلاق هذه التسمية القديمة على مدرسة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد إنما كان إحياء للاسم القديم لا ابتكاراً، وأنه لمن العسير علينا أن نصدق أن هذا الاسم ـ وكان معروفاً وله صبغة خاصة ـ يطلق لمناسبة انتقال واصل من سارية إلى سارية[٢].

إن أكثر الروايات التي تتعرض لسبب تسمية المعتزلة تذهب إلى أن محل الخلاف بين الحسن البصري وواصل بن عطاء كان أول ما كان حول مرتكب الكبيرة: أكافر هو أم مؤمن؟ وهذه المسألة وإن كانت في ظاهرها مسألة دينية بحتة إلا أن في أعماقها شيئاً سياسياً خطيراً فقد خالفوا الأزارقة والمرجئة في وصفهما لمرتكب الكبيرة.

والنتيجة السياسية المترتبة على ذلك أن خلفاء بني أمية مؤمنون مهما ارتكبوا من الكبائرز كما أن أعداءهم كذلك. وهم بهذا لا يوافقون الخوارج على محاربتهم

---

(١) الأخبار الطوال، ج١، ص١٧١.

(٢) فجر الإسلام، ص٢٩٠.

للأمويين، وفي هذا الرأي ـ رأى الإرجاء ـ تأييد للدولة الأموية وإن كان تأييداً سلبياً. فلم يعدّ الأمويون المرجئة على العموم أعداءهم كما لم يعدوهم أنصارهم إلا بمقدار ما يستفيد المحارب من المحايد[١].

والمعتزلة بوقوفهم بين الخوارج والمرجشة موقفاً وسطاً بالقول بالمنزلة بين المنزلتين أو بعبارة أخرى بقول وسط بين الخوارج والمرجئة إنما يمثلون الخلفاء الشرعيين لأولئك الذين سبقوهم قبل مائة عام بالاعتزال السياسي.

وقد قال المعتزلة المتأخرون إن مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً لأن الإيمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت للمرء سمي مؤمناً وهو اسم مدح، والفاسق لم يستجمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح فلا يسمى مؤمناً، وليس هو بكافر، مطلقاً لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه لا وجه لإنكارها ولكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهو من أهل النار خالداً فيها، ولكنه يخفف عنه العذاب وتكون دركته فوق دركة الكفار[٢].

فالأمويون عدوا جرأة المعتزلة في نقد الرجال نوعاً من التأييد لهم أكثر من تأييد المرجئة فإن تأييد المرجئة. كان تأييداً سلبياً إذ تركوا الخلافات الحزبية دون نقد، وفي هذا تأييد لعليّ ولمعاوية وأتباعهما. ولكن ما لدى الناس من شعور ديني كان يقضى برغم هذه الحيدة برفعة شأن عليّ ومن إليه. أما المعتزلة فهم بنقدهم الخصوم والأولياء قد أزالوا فكرة التقديس التي كانت شائعة عند جماهير الناس. فعلى الرغم من أن المعتزلة وضعوا معاوية وأصحابه موضع النقد وتبرأ أكثرهم من معاوية وعمرو بن العاص[٣]، فقد رأى الأمويون في ذلك من الكسب لهم أكثر من الخسارة[٤]. وذلك بمعنى أنهم على الأقل يجعلون معاوية وعلياً في ميزان نقد واحد. وما دامت القدسية التي كانت لعلي ومن إليه قد قضي عليها بالجرأة فإن كفة معاوية وآله ترجح. فالدولة دولتهم والناس يخشون نقدهم ولا يخشون نقد غيرهم

---

(١) فجر الإسلام، ص٢٩٣.
(٢) الملل والنحل: ١/٦٥.
(٣) المنية والأمل: ص٦.
(٤) فجر الإسلام: ص٢٩٥.

من مثل ما روي عن ابن كيسان الأصم من أنه كان يخطىء علياً في كثير من أفعاله ويصوب معاوية في بعض أعماله[١].

ولهذا لم يضطهد الأمويون أحداً من المعتزلة. بل على النقيض من ذلك فإن المعتزلة الذين هاجموا الوليد الثاني لما تهتك، وساير بعضهم كعمرو بن عبيد، يزيد بن الوليد في حربه ضد الحسين[٢] فلما ولي الخلافة قربهم وعلا شأنهم. وأن بعض خلفاء بني أمية المتأخرين كيزيد بن الوليد ومروان بن محمد اعتنقوا الاعتزال. وهكذا يتضح أن هناك أوجه شبه كبيرة بين فئة المعتزلة الأولى والمعتزلة الثانية فيكون المعتزلة السابقون أجداد جميع المعتزلة اللاحقين أو أن مذهب الاعتزال الديني كان قد سبقه اعتزال سياسي[٣].

أن كلا منهما قد انتحى منحى خالف به الطوائف المعاصرة المختلفة وأن لكل فئة اتجاهاً سياسياً دينياً وإن أضافت الطائفة المتأخرة بفضل ما أتيح لها من ظروف الاحتكاك بالثقافات الأجنبية واستنادها إلى العقل أبحاثاً لاهوتية بحتة في صفات الله وفي القدر الذي عدوا بسبب هذه الأبحاث تلاميذ لقدرية المرجئة. وبهذا يمكن أن تكون تسميتهم بالمعتزلة بسبب اعتزالهم قول الأمة وبانتحائهم منحى جديداً ساروا فيه مخالفين غيرهم، ويجب أن نشير هنا إلى أن بعض الروايات التي تزعم أن المعتزلة يرجعون في أصلهم إلى النبي ـ ﷺ ـ إذ أخذ واصل وعمرو مذهب الاعتزال عن أبي هاشم وأخذه هذا عن أبيه محمد بن الحنفية وهذا عن أبيه عليّ بن أبي طالب الذي أخذه عن النبي ـ ﷺ ـ[٤].

وهناك ملامح مشتركة بين المعتزلة والشيعة فقد كان المعتزلة يلقبون فقهاءهم بلقب إمام ذلك اللقب الذي يقدسه الشيعة وأن الشيعة كانوا يؤثرون الاسم الذي آثرته المعتزلة وهو أهل العدل والتوحيد[٥].

---

(١) المنية والأمل: ص٣٣.
(٢) الملل والنحل: ١/ ٣٢.
(٣) الإسلام والحضارة العربية: ٢/ ص٥٨.
(٤) المنية والأمل، ص٤ ـ ٥.
(٥) العقيدة والشريعة، ص٨٤.

وقد أخذ كثير من المعتزلة المتأخرين ينسبون إلى عليّ والأئمة من آل بيته أنهم أول من قالوا بحرية الإرادة وأن المعتزلة لم يزيدوا في ذلك شيئاً أكثر من شرحهم لتلك العقيدة التي وضع أساسها عليّ بن أبي طالب، وذكروا الإمام عليّ في الطبقات الأولى من طبقاتهم.

وكذلك ذكروا في الطبقة الثانية الحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي. وقيل إن المعتزلة لم تضع الأصل الأول من أصولها الخمسة، وهو التوحيد إلا للرد على غلاة الشيعة والرافضة الذين قالوا إن الله قدّ وصورة وجسم وأعضاء. ويفسر هذا عداء الرافضة للمعتزلة، وفي ذلك يقول ابن الخياط: «فهل كان على الأرض رافضي يقول إن الله صورة، ويروى في ذلك الروايات، ويحتج فيه بالأحاديث عن أئمتهم، إلا من صحب المعتزلة منهم قديماً فقال بالتوحيد فنفته الرافضة عنها ولم تقربه؟»[١].

وعلى خلاف الرافضة كانت الزيدية على صلة وثيقة بالمعتزلة فقد تتلمذ زيد ابن علي لواصل بن عطاء، وأخذ عنه أصول الاعتزال وأقامت الزيدية قواعدها الرئيسية على نظريات عقائد المعتزلة.

ولهذا السبب يمكننا أن نفهم الصلة بين المعتزلة وعلي بن أبي طالب وآل بيته فلم تكن نسبة المعتزلة إليه إلا نتيجة للصلة الوثيقة بين الزيدية والمعتزلة، وأن الزيدية أرادوا بذلك أن يردوا مذهبهم الجديد إلى عليّ الذي امتاز من بين فقهاء الإسلام في عصره بأن الدين موضوع من موضوعات التفكير والتأمل.

الصراع القيسي اليمني

تداخلت عوامل سياسية واجتماعية عديدة في إحياء العصبيات التي عملت بدورها على إذكاء فنون الشعر، التي تدور حول العصبية القبلية، وتعبر عنها، وتنفخ في نارها، كالهجاء، والفخر، والحماسة.

فقد شاءت ظروف أن يتعصب الأمويون للقبائل القحطانية (اليمنية الأصل) ضد

---

(١) الانتصار والرد على ابن الراوندي، ص١٤٤.

أكثر القبائل العدنانية (القيسية والمضرية)؛ ذلك أن أكثر عرب الشام، الذين قامت الدولة الأموية على أكتافهم، يمنيون، نزحت قبائلهم إلى الشام، مهاجرة من جنوب الجزيرة العربية باليمن قبل الإسلام، لأسباب اقتصادية، أو بيئية مختلفة، ليس من شأننا الحديث عنها هنا في هذه العجالة.

فقد كان يسكن الشام منهم عند الفتح الإسلامي قبائل، أشهرها: غسان، وجذام وقضاعة، وكلب[١]. وكانوا في القسم الجنوبي من الشام أكثر منهم في القسم الشمالي، بحكم قرب جنوب الشام من بلادهم التي نزحوا منها.

ولقد عمل معاوية بن أبي سفيان منذ وضع قدمه بالشام والياً عليها من قبل عمر بن الخطاب، على أن يستميل عرب الشام هؤلاء، وكان من سياسته في ذلك أن عقد مصاهرة مع قبيلة من كبريات القبائل اليمنية بالشام وأقواها وهي قبيلة كلب، حيث تزوج ميسون بنت بحدل الكلبية، ومنها أنجب ولي عهده، وخليفته من بعده، يزيد.

ومن سياسته في احتواء عرب الشام، وضمان ولائهم، أن يحرص على تقريبهم منه، وإيثارهم بخيرات الإقليم، ورعاية مصالحهم فيه، حتى بلغ من تعصبه لهم، أن ظل حينا من الدهر، لا يفرض عطاء من بيت المال لغيرهم.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن أكثر عرب العراق، الذين ناصروا الشيعة والزبيريين والخوارج، كانوا من القيسية، أدركنا سر تعصب بني أمية لعرب اليمنية، هذا التعصب الذي أثار غضب القيسية وحقدهم على بني أمية، فلم يدعوا فرصة إلا اغتنموها؛ لمناهضة الأمويين، وإضعاف شوكتهم.

وقد ذكرنا من قبل ما كان من انضمام القيسية لابن الزبير، والنهوض بدعوته في العراق والشام بقيادة زعيمهم الضحّاك بن قيس، في حربه مع مروان بن الحكم ومن معه من اليمنية، ومنهم تميم المضربة، وتغلب العدنانية.

وقد أعقبت موقعة مرج راهط مواقع كثيرة، وغارات متبادلة، وثارات عديدة، بين القيسية من جانب، واليمنية ومعهم تميم وتغلب من جانب آخر.

---

(١) فجر الإسلام، ١/ ١٠١.

وهكذا عملت سياسة بني أمية مرة أخرى على تصدع الوحدة العربية الإسلامية، التي ظلت المظهر العام للحياة في صدر الإسلام.

كانت تميم المضرية، وتغلب العدنانية، وكلب وغيرها من القبائل اليمنية تمثل حزب الدولة الرسمي، كما كانت قيس تقف، بحكم عدائها للأمويين في الصفوف المعارضة لهم. وورث العصر الأموي، بسبب هذه الخصومة القبلية، أياماً كثيرة، وأشعاراً كثيرة أيضاً، نظمها شعراء كل قبيلة في الانتصار لقبيلتهم، خلال تلك الحروب[١]، التي أججتها العصبية القبلية، بتشجيع من سياسة بني أمية.

وكان للعراق في هذا العصر النصيب الأوفر من تلك الخصومات القبلية، ونتاجها الشعري، كما كان له النصيب الأوفر من الخصومات السياسية، وما قيل فيها من شعر؛ إذ كان أكبر الأقاليم الإسلامية ميداناً للفتن السياسية، والحروب القبلية، في عهد الدولة الأموية.

ويعد من أبرز العوامل، التي ساعدت على ارتفاع صوت العصبية القبلية بالعراق، وغزارة الأشعار التي خلفتها، طبيعة الاجتماع العمراني، الذي كانت عليه مدينتا العراق الكبريان: البصرة والكوفة، فقد خططت كل منهما تخطيطاً قبلياً[٢] منذ إنشائهما أيام عمر بن الخطاب.

فيقال: إن وفود جند المسلمين قدمت على عمر من جلولاء، وحلوان، وتكريت، والموصل، وغيرها، من مدن العراق، يذكرون له الفتح والغنائم، فلاحظ أن جو هذه المدن قد أضر بصحة جند المسلمين، وكان حذيفة بن اليمان قد كتب إلى عمر في ذلك، فأرسل عمر إلى سعد بن وقاص: إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها، من البلدان، وأمره أن يختار لهم منزلاً برياً بحرياً، لا يجعل بينه وبينهم بحراً ولا جسراً، فاختار سعد موضع الكوفة على مقربة من الحيرة، وهي مثلها تقع على الفرات، غير بعيد من الصحراء فاختارت كل قبيلة مكاناً نزلته، واتخذوا خيامهم من البوص، فلما وقع فيها الحريق، اتخذوها من اللبن، وكان ذلك سنة ١٥ هـ[٣].

---

(١) التطور والتجديد في الشعر الأموي، ٣٧.

(٢) انظر في بعض القبائل التي نزلت الكوفة بعد تخطيطها، رسائل الجاحظ ٢/١٧٧ وتاريخ الطبري ١/١٩١ - ١٩٢ وفجر الإسلام ١/٢١٢ - ٢١٣.

(٣) تاريخ الطبري ٤/١٥٣.

ولمثل هذا الغرض مُصرت البصرة (سنة ١٦ أو ١٧ أو ١٨هـ)[١]. وفقد وجه عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان إلى اختيار مكان لجنده قائلاً له: «انطلق أنت ومن معك، حتى إذا كنتم في أقصى أرض العرب، وأدنى العجم فأقيموا»[٢]، فنزل البصرة، على مقربة من الأُبلّة في دلتا النهرين، واتخذ عتبة ومن معه دار الجند المسلمين، يسكنون فيها إذا انصرفوا من غزواتهم.

وكانت القبائل التي أقامت بكل من هذين البلدين تتنافس، ويفاخر بعضها بعضا ثم أخذ الزمام ينفلت شيئاً فشيئاً منذ ظهور الفتنة الكبرى أيام عثمان، وطوال عهد عليّ يذكر صاحب شرح نهج البلاغة[٣]، أن أهل الكوفة في آخر عهد علي كانوا قبائل، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته، فيمر بمنازل قبيلة أخرى، فينادى باسم قبيلته، يا للنخع، أو يالكندة، فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مر بها، فينادون يالتميم، أو يالربيعة، ويقبلون إلى ذلك على الصائح فيضربونه، فيمضي إلى قبيلته، فيستصرخها، فتسل السيوف، وتثور الفتنة. وهذا نص قوي الدلالة على تحكم الروح القبلى، والعصبية القبلية في نفوس أهل الكوفة في عصرها الأموي.

وأحيت سياسة بني أمية العصبيات بين اليمنية والقيسية، حتى أصبحت كل من البصرة والكوفة مسرحاً لهذه العصبيات، يدلي كل شاعر فيها بدلوه، ثناء على قبيلته، وافتخاراً بها، وطعناً على خصومها، وثلباً لشرفها وأمجادها، برميهم بكل ما يستطيع من سهام الهجاء. وأصبح لكل قبيلة شاعرها، أو شعراؤها، الذين يتنغنون بمآثرها في الجاهلية، وما كان لها من ايام وحروب، وأمجاد، كما يصبون جام غضبهم على القبائل المعادية، ويحاولون أن يطعنوها في صميم شرفها، وحسبها، شأنهم في ذلك شأن آبائهم وأجدادهم من شعراء الجاهلية، بل ازداد شعراء القبائل الأمويون في هذا الهجاء حدة على نظرائهم الجاهليين.

فقد اشتعلت نار العصبيات القبلية في العراق، وسرعان ماأخذت شكل فخر وهجاء وحماسة، في ظل ظروف لم تتح للعصبيات في العصر الجاهلي نفسه. وكان

---

(١) عيون الأخبار ٢١٧/١.
(٢) تاريخ الطبري، ١٤٩/٤.
(٣) نهج البلاغة، ٤٧٦/٣.

شعراء القبائل في الجاهلية يتفاخرون، ويتهاجون، ويحمسون، ومنازلهم بعيدة، أما في هذا العصر فهم مصطفون، بعضهم أمام بعض، وكل قبيل تسحتث شعراءها، ليرموا خصومها بسهام الهجاء اللاذع.

بهذا أخذ الهجاء في العصر الأموي شكلاً أعنف من شكله في العصر الجاهلي، حيث كانت كل قبيلة تحاول أن تستخرج من شاعرها، أو شعرائها، ما في جعبتهم من سهام تصيب بها القبائل التي عادتها قديماً، ولا تزال تعاديها حديثاً.

ولم تقف العصبية القبلية عند حد العداء بين فرعيّ العرب الكبيرين: القيسية واليمنية، بل انتقلت عدواها إلى القبائل والبطون ذات الأصل الواحد، فتطاحنت هذه القبائل والبطون، تطاحناً قوياً عنيفاً، في حرب لسانية، أُشرعت فيها أسنة الشعر، وترامى فيها الشعراء من كل جانب بالنبال والسهام.

وقد أغرى إقبال الناس في العراق ـ وخصوصاً البصرة والكوفة ـ على هذا اللون من الشعر، الذي يذكى نار الخصومة بين القبائل، فكان دخول الشعراء في نوع من الهجاء والفخر، يشغل فيه الشاعر بنفسه، وبمنافسه من الشعراء، أكثر مما يشغل بقبيلته، ومن نافسها من القبائل والبطون.

وأشهر الشعراء في هذا الباب جرير والفرزدق والأخطل، إذ نفذوا إلى أهاج كانت تلقى على مسرح المربد بالبصرة، ويتحلق الناس للإستماع إليها، كما كانوا يتحلقون في الكناسة بالكوفة، للإستماع إلى شعراء القبائل، وهم يصفرون، أو يصفقون لهذا، أو ذاك، وكانت حصيلة هذه الخصومة الأدبية، (أو الفردية) ما عرف في تاريخ الشعر العربي بنقائض حرير والفرزدق من جهة، ونقائض جرير والأخطل من جهة ثانية.

ثراء الحجازيين وترفهم

وشاع بين حضر الحجاز مكة والمدينة والطائف بخاصة، لون من الحياة الهادئة، قوامها: الثراء، والترف، والفراغ، ينعم بها، أبناء الصحابة من المهاجرين والأنصار، وغيرهم، من سكان بيئة الحضر في الحجاز، لم تلبث أن انزلقت بهم، إلى حياة عابثة حيناً، لاهية في أكثر الأحيان.

فقد توافرت لهم الأموال، التي تدفقت على الحجاز من الأقاليم، والأمصار الداخلة في الإسلام، منذ أيام الفتوح الإسلامية في عهد الخليفتين الراشدين، عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان.

وبلغ من وفرة هذه الأموال، المتدفقة في بيت مال المسلمين، أن قال عمر بن الخطاب ـ في خلافته ـ : «لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف. ألفاً يجعلها الرجل في أهله، وألفاً يزودها معه، وألفاً يتجهز بها، وألفاً يترفق بها»[١].

ونظرة واحدة فيما أورده الطبري وغيره، من نظام الفروض في عهد عمر، تدلنا على مدى ما كان عليه جند المسلمين، وأهل الحضر منَ حال ميسرة كافلة.

ومن صور اكتظاظ بيت مال المسلمين بالأموال أيام الخليفة عثمان، والتوسعة على المسلمين، بتفرقها فيهم، ما أورده الذهبي في خبر الفتوح الإسلامية في عهده، قال[٢]: «ولما كثرت الفتوح في هذا العام (٣٠هـ) وأتى الخراج من كل ناحية، اتخذ عثمان له الخزائن، ثم قسمها، وكان يأمر للرجل بمائة ألف».

وكان أقليم الحجاز قد فاز بأوفى نصيب من النعم، باعتباره مهد الدعوة الأول، ومركز السلطة الإسلامية، وفيه أكبر تجمع من صحابة رسول الله، وأولى الفضل والسابقة والجهاد، وعليه تتدفق هذه الأموال، ومنه تخرج للتوسعة على أهله، وعلى المسلمين غيرهم.

وسار الثراء في حجور الحجازيين، من أهل الحضر بخاصة، فتبعه تبدل في حياتهم وحياة أبنائهم.

ففي عهد عثمان بن عفان، بنيت الدور والقصور، وشيدت بالكلس، وجعلت أبوابها من الساج، واقتنى كثير من الصحابة الأموال والجنان والعيون، كالزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوِف، وسعد بن أبي وقاص، والمقداد بن الأسود... وغيرهم[٣].

---

(١) تاريخ الطبري، ١٦٢/٤ وانظر: الأدب في عصر النبوة والراشدين ٣٢.
(٢) العبر، ٣١/١.
(٣) فجر الإسلام، ١٦٨/١.

وفاق أبناء الصحابة آباءهم، في التحضر، والثراء[١] والترف، فقد عاشوا في عصر جديد، عصر الفتوح والثراء.

وأعانت سياسة بني أمية ـ إلى حد كبير ـ تجاه أبناء الصحابة بالحجاز على ازدياد ثرائهم وترفهم، حتى طعم وشرب بعضهم في أواني الذهب والفضة، ولبسوا الخز، والديباج، والحلل الموشاة، وغالوا في ذلك.

ففي حضر الحجاز حشد الأمويون عظماء قريش، وأبناء الأنصار، ومنعوهم من التجول في أنحاء الدولة، أو الاتصال برجالاتها، من ذوي الأقدار والخطر، في البلاد المفتوحة، وأغدقوا عليهم الأموال والنعم إغداقا، ونثروا لهم المال نثرا، ليلهوهم بذلك عن التفكير في سياستهم، أو محاولة الخروج عليهم، والمطالبة بحقوقهم في حكم الدولة، فتوفر لهم بذلك الثراء والترف، كما توفر لهم الفراغ.

وماذا يفعل هذا الشباب الثائر اليائس، إلا أن يلتفت إلى اللهو يغرق فيه يأسه، ويقتل وقت فراغه، ويلتمس فيه السلوى عن ماضيه الضائع، وحاضره القلق، ومستقبله الملبد بالغيوم.

فقد سار كثرة من شباب حضر الحجاز في طريق اللهو، والمرح، والاستماع إلى الغناء، وترتيل أناشيد الحب، بما فيه من عبث ودعابة، ومغامرة، وظفر، ولقاء وهجران، وسعادة وشقاء.

وكثر الاسترقاق من الأمم التي غلبها الإسلام، كثرة هائلة، بكثرة الفتوح الإسلامية، وكان هؤلاء الرقيق يوزعون على الفاتحين، حتى صارت الدور تعج بالرقيق والجواري الفارسيات والروميات وغيرهن، فيروى: أن الزبير بن العوام كان له ألف عبد، وألف أمة[٢].

وكان من بين هذا الرقيق، الإماء، من كان يجيد فن الغناء، أو فن الموسيقى، وهو عماد مجالس الغناء، التي كثرت في مدن حضر الحجاز، وأقبل عليها من

---

(١) بلغ من ثراء مصعب بن الزبير ـ مثلاً ـ أنه أصدق كلا من: سكينة بنت الحسين بن علي، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله التيمية، مائة ألف دينار. عيون الأخبار، ١/٢٥٨.

(٢) فجر الإسلام ١/١٠٥.

أهله، وكان ذلك مما يسعد الأمويين، إذ يحقق لهم ما يرمون إليه، من انشغال سباب هذا الحضر، بهذه المجالس، عن التفكير في أمور الدولة، أو تدبير المؤامرات والحركات الثورية بالانقضاض عليها. يروي المسعودي[١]: أنه في أيام يزيد بن معاوية ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الشراب.

كذلك صارت مكة والمدينة مركزين هامين للغناء فيهما موسيقيون ومغنون مشهورون، وموسيقيات ومغنيات لمعت أسماؤهن في سماء هذين الفنين قي عصر بني أمية، وفي بيئة حضر الحجاز خاصة، من أمثال: ابن سريج، وطُويس، وسائب خاثر، ومعبد، وابن عائشة، ونافع بن طنبورة، وسلامة القش، وعزة الميلاء، وحبابة، وبلبلة، وجميلة، وغيرهم وغيرهن[٢].

وكثر شعراء حضر الحجاز وهم شعراء حب وغزل، من أمثال: أبي الخطاب عمر بن أبي ربيعة، وتلميذه العرجي (عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان) وعبيد الله بن قيس الرقيات، وخالد بن الحارث المخزومي، وأبي دهبل الجمحي، وكلهم من شعراء مكة، والأحوص بن محمد، وعبد الله بن حسان بن ثابت، من شعراء المدينة.

وهكذا كان حضر الحجاز في العصر الأموي مسرحاً لشعر غنائي، يقوم على حكاية قصة الحب من جهة، وعلى الصلة الحميمة القوية بالغناء وألحانه من جهة أخرى.

كذلك كان طابع الحياة في البادية، مختلفاً عن هذه الصورة التي رأيناها في مكة المكرمة. فالقوم هناك يعيشون حياة يغلب عليها الشظف والحرمان، في ظل بيئة صعبة، وتقاليد بدوية صارمة، يشق معها الاتصال بين الرجل والمرأة، اتصال هوى وحب، كما يقل حظها من وسائل الترفية، التي تنتشر بالحضر، كمجالس الغناء، التي تتاح فيها كثير من فرص اللقاء بين الرجل والمرأة، فيستمع إلى غنائها، ويستمتع بمحادثتها، ومجالستها، دون حرج أو تضييق.

---

(١) مروج الذهب (البهية) ٢/ ٩٤، وانظر في كثرة الجواري بمكة خاصة رسائل الجاحظ ١٥٨/٢.
(٢) فجر الإسلام ٢٠٧/١.

وفي ظل هذه الحياة البدوية، التي تحكمها ظروفها الخاصة، فيما يتصل بحرية اللقاء بين الرجل والمرأة، لم يكن بد من شيوع نوع من الغزل الباكي الحزين، عرف «بالغزل العذري» أو «الغزل العفيف».

وترجع بواعث الغزل العذري في البادية إلى ظروف البيئة البدوية، وأبرزها القيود العنيفة الصارمة، على حرية اتصال المحبين بالبادية؛ مما يحيل المحب في ظل الحرمان، إلى شخص يتسم سلوكه، وتعبيره عن حبه بالطابع العاطفي الوجداني، لا الطابع العملي، فيقضي الحياة على أبواب معبد الحب، حائراً، تنقصه الجرأة على سلوك إيجابي للوصول إلى محبوبته ولقائها، مكتفياً بترتيل أناشيد الشوق والهيام، وإراقة الدموع، ممزوجة بالآلام، مشيعة بالأنات والزفرات.

وشهد العصر الأموي لوناً آخر من الشعر، يمثل ثورة عارمة، وتحرراً صارخاً، من التقاليد العربية، وقيم الأخلاق العربية أيضاً، هذا الضرب من الشعر، هو الذي يعكس من المجون والتهتك، والاستهتار بوصف الخمر ومجالسها، وما يحدث بين ندمائها، ما يجرح الفضيلة، وينافي قيم الدين، الذي يستظل أهل العصر برايته.

وكان موطن هذا الشعر الكوفة في العراق، حيث نشطت بها طائفة من الشعراء اتجهوا بشعرهم إلى اللهو والمجون، يتخذون من حديثهم عن الخمر مجالاً لإعلان استهتارهم بالدين، واستخفافهم بعقائده[١]، فكانوا بذلك طليعة للشعراء الزنادقة، الذين ظهروا، واستحكم أمرهم، فيما بعد بالبصرة وبغداد، في العصر العباسي.

وكان على رأس هؤلاء الشاعر الكوفي الأقيشر الأسدي[٢]، وهو الذي وضع الأسس الأولى لتقاليد مدرسة اللهو والمجون الفنية بالكوفة في بداية العصر الأموي، ثم تابعه من بعده شعراء كوفيون آخرون في أواخر هذا العصر، منهم: أبو دُلامة، ويحيى بن زياد، وآدم بن عبد العزيز.. وغيرهم من شعراء الكوفة، الذين ألف اللهو بينهم، وربط المجون بين أسبابهم، كلهم فاسق، وكلهم خليع، وكلهم سكير، وكلهم متهم في دينه[٣].

(١) حياة الشعر في الكوفة ٧٧٣.
(٢) شاعر كوفي معمّر ذكره أبو الفرج (الأغاني ١٠/ ٨٠ وما بعدها).
(٣) راجع الأغاني ١٦/١٤٣.

وفي مقدمة العوامل التي أمدت الكوفة بأسباب اللهو والمجون، ومقوماتها، قربها من الحيرة، التي كانت على ثلاثة أميال منها[(١)]. وقد أورد ابن فضل الله العمري عن حانات الحيرة وأديرتها قبل الإسلام وبعده، وأخبارها، وروادها، وما كان يقدم فيها، ما يطلعنا على الدور الهام الذي قامت به هذه البيئة من مدّ الكوفة القريبة منها بتيارات متلاحقة من اللهو، والاستهتار والمجون والعبث والتهتك[(٢)].

كذلك اشتهرت الحيرة بالغناء، وظهر فيها ـ أوائل هذا العصر ـ مغن نصراني شاعر برع في الغناء، وبلغ منه مبلغاً كبيراً، وهو حنين الحيري[(٣)]، الذي لفت إليه أنظار بشر بن مروان، أيام ولايته على الكوفة في خلافة عبد الملك، فاستقدمه واستمع إلى غنائه وفتح له أبواب قصره[(٤)]، كما فتحه لأمثاله من المغنين، الذين كانوا يفدون إلى حنين بالحيرة ليتمتعوا بطيبها، وجودة خمرها، وحسن غنائها، مثل ابن سريج الذي قدم من مكة، ونزل عنده بالحيرة، حيث أكرمه، ثم قدمه إلى بشر بن مروان، فسمعه وأجزل جائزته. وقد أشاع حنين هذا في مجالس غنائه جواً من اللهو والشراب، جعل خالد بن عبد الله القسري والي الكوفة لهشام بن عبد الملك)١٠٥ ـ ١٢٠هـ(يحرم الغناء بالعراق؛ لأن مجالسه كانت مباءة للفسوق. ولما سمع لحناً في الزهد، غناه حنين عاد فأباحه، على أن لا يحضر مجالسه سفيه أو عربيد، أو امرأة عربية.

كذلك كانت الحيرة مجمعاً لأديان فارسية شتى في الجاهلية، كالزرادشتية، والمزدكية، والمانوية[(٥)]، وظلت المانوية)نسبة إلى ماني صاحب هذه النحلة) والمزدكية إلى ما بعد الإسلام بالحيرة، كما ظهرتا في الكوفة، وطارد خالد بن عبد الله القسري أتباعهما. وبعض هذه الأديان كان يدعو للإباحة كالمزدكية، وبعضها يدعو إلى الخمول والكسل وترك الزواج والتناسل حتى يفنى العالم المادي ويعود النور إلى موطنه كالمناوية[(٦)].

---

(١) تيارات ثقافية ١١.

(٢) انظر في حانات الحيرة: مسالك الأبصار ١/ ٣٨٩.

(٣) الأغاني، ٢/ ١١٦.

(٤) انظر الأغاني ٢/ ٣٤٩.

(٥) فجر الإسلام ١/ ١٢٥. وتاريخ الطبري ٢/ ٨٨.

(٦) تيارات ثقافية ٢٨.

و كانت الحيرة جسراً حضارياً بين الفرس والعرب، عبرته ألوان من المعارف والثقافات الفارسية كما عبرته جاليات كثيرة فارسية إلى الكوفة، فكثر فيها هذا الجنس، وأثر في مختلف جوانب حياتها، ومنها حياة اللهو والمجون، والاستهتار بالقيم الروحية والأخلاقية. وقد ورثت الكوفة عن الحيرة كل هذا، بعد أن نازعتها فيه فغلبتها، وأخملت شأنها، بحيث صارت الكوفة في أواخر العصر الأموي مركز اللهو والمجون في المجتمع الإسلامي. ومنها خرج هذا التيار ليغزو بيئات إسلامية أخرى في العراق والشام، قبيل حكم العباسيين، وفي أيامهم. ثم يأتي العامل السياسي، ليسهم بدوره في إنماء موجة اللهو والمجون بالكوفة، ويمد تيار شعرهما بمقومات وجوده.

فالحياة السياسية المضطربة، غرست القلق في نفوس الكوفيين، وأفقدتهم الإحساس بالطمأنينة والأمان، ومن ثم وقفوا من الحياة موقفين: «فجماعة نفضوا أيديهم منها، واتجهوا إلى الآخرة، وهم الزهاد. وجماعة اندفعوا خلفها، يعبون من كئوسها ما استطاعوا، قبل أن يدركها النضوب والجفاف، وهم اللاهون والمجان.

وكلا الفريقين نتيجة طبيعية لهذه الحياة. فإذا كان الفريق الأول دفعهم اليأس من الحياة إلى وضع أملهم كله في الآخرة، فإن الفريق الآخر لم يدفعهم اليأس من الحياة إلى الوقوف منها ذلك الموقف السلبي، وإنما دفعهم إلى اتخاذ موقف إيجابي منها، يريدون به أن يفرضوا أنفسهم عليها. وإذا كان الزهاد طلقوا الدنيا إلى غير رجعه، فإن هؤلاء اللاهين والمجان تزوجوها إلى غير طلاق، ولكنهم لم يتزوجوا الحياة الجادة العاملة، التي صدوا عنها وصدت عنهم، إنما تزوجوا الحياة اللاهية العابثة الماجنة، التي استطاعت أن تغريهم، وتغويهم، فأقبلوا عليها، لينسوا بين أحضانها ذلك القلق، الذي كان يسيطر على نفوسهم»[١].

وكانت هناك طائفة من شعراء الخمر والمجون في الكوفة، أقبلوا على هذا اللون من الحياة، وعبروا عنه، تأثراً بعناصر من الحضارة الفارسية الوافدة من الحيرة على بيئة الكوفة أولاً، لقربها منها. وكان من بعض جوانب هذه الحضارة الميل إلى

(١) حياة الشعر في الكوفة ٢١٤.

الترف واللهو، والتفنن في وسائلهما، وبذا حملت الحضارة الفارسية بعض الأفكار الهدامة، كما حملت كثيراً من العادات المنحرفة، التي انعكس تأثيرها على هؤلاء الشعراء، ثورة على العرف، والتقاليد، وجميع القيم الدينية والموروثة.

وإلى جانب ما تقدم من عوامل ظهور شعر اللهو والمجون بالكوفة، ينبغي أن لا نغفل عاملاً آخر، كان له تأثيره القوي في انتشار اللهو والمجون والتهتك بمجتمع الكوفة وظهور آثارها في الشعر الكوفي، نعني انتشار موجة الغناء والموسيقى. فالصلة حميمة بين هاتين الظاهرتين، ذلك أن الغناء اقتضى كثرة القيان، واختصاصهن ببيوت سميت (دور القيان)، وبعض هذه الدور كان مرتعاً لرواد العبث والمجون والخلاعة، يتوافدون عليها، ليستمتعوا باللذات، «متأثرين بالآراء الإباحية التي تزين التحلل من سلطان الدين، والجرأة على حرماته»[١].

على أنه كان لبعض غلاة الشيعة أثر واضح في الاتجاه إلى هذا اللون الماجن من الحياة بالكوفة، إذ جنح بعضهم إلى الحض على الإباحة، والإغراق في اللذات، متأثرين ببعض رواسب ديانات الفرس القديمة، وخاصة المزدكية ـ دين الإباحة والشيوع في الآفات[٢]. فساعدوا بذلك تيار المجون على الانتشار في بيئة الكوفة، التي كانت موطن نشاطهم ابتداء من هذا العصر.

نهض هذا التيار الماجن بالكوفة نتيجة لكل العوامل التي أوجزناها، ثم لم يلبث أن أخذ طريقه إلى الشام في أخريات العصر الأموي، على يد الخليفة الأموي الشاب، الوليد بن يزيد، الذي أخذته بيئة الترف واللهو المحيطة به، في عهد أبيه، الذي كان صباً أيضاً باللهو والترف، فأسمع فنونهما على ابنه، فشب عليهما، وأولع بهما، ولم يتخل عنهما حتى بعد أن نُصِّب خليفة للمسلمين، وإماماً لهم. وفيه يقول الطبري، «ظهر من الوليد بن يزيد مجون وشرب الشراب» ويقول: «ظهر للناس منه تهاون بالدين، واستخفاف به»[٣].

---

(١) المصدر السابق ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٢) تاريخ الطبري ٢/٨٨.

(٣) سمط اللآلىء ١/١٤٣.

أما المسعودي فإنه يلقي أضواء أكثر على شخصية الوليد فيقول[١]: «كان الوليد بن يزيد صاحب شراب ولهو وطرب، وسماع للغناء، وهو أول من حمل المغنين من البلدان إليه، وجالس الملهين، وأظهر الشراب والملاهي والعزف... وغلبت عليه شهوة الغناء في أيامه، وعلى العام والخاص، واتخذ القيان، وكان متهتكاً، ماجناً، خليعاً» وقال: «الوليد يدعى خليع بني مروان»[٢]. فلا بدع إذن أن يتطلع الوليد إلى المجان وأصحاب الخمر من شعراء الكوفة، وأن يستقدمهم إليه ويسمع منهم ويُسمعهم، ويتخذ منهم ندماءه، وخاصة مجالسه الماجنة[٣]. وكان الوليد شاعراً، فجاهر في شعره باللذة، وارتكاب المحرمات، دون مواربة أو تحشم.

يقول ابن جرير الطبري[٤] «وتمادى الوليد في الشراب، وطلب اللذات فأفرط، فقال له هشام (عمه(: ويحك يا وليد، والله ما أدري على الإسلام أنت، أم لا، ما تدع شيئاً من المنكر إلا أتيته، غير متحاشٍ، ولا مستتر به، فكتب إليه الوليد:

يـأيـهـا الـسـائـل عـن ديـنـنـا ... نـحـن عـلـى ديـن أبـي شـاكـر

نـشـربُـهـا صـرفـاً ومـمـزوجـة ... بـالـسُّـخـن أحـيـانـاً وبـالـفـاتـر

فغضب هشام على ابنه مسلمة، وكان يكنى أبا شاكر، وقال له: يعيرني بك الوليد...» من أجل هذا عدّ بعض الباحثين الوليد بن يزيد من أئمة المجان في العصر الأموي، بل في القرن الثاني كله[٥].

المؤثرات الدينية

إلى ذلك نزح كثير من صحابة رسول الله ﷺ إلى هذا الإقليم منذ الأيام الأولى للفتح الإسلامي للعراق، واستقروا في مدينتيه: البصرة والكوفة. ثم توالت وفود أعداد أخرى من الصحابة والتابعين، والتف حولهم جمهور كبير من أهل المصرين، يسمعون منهم فقه الدين، ويأخذون عنهم أحكامه، ويجلسون إليهم في

---

(١) مروج الذهب ٢/ ١٨٥.
(٢) الطبري ٢/ ١٨٧.
(٣) حياة الشعر في الكوفة ٢٠٩.
(٤) تاريخ الطبري ٨/ ٢٨٩.
(٥) التطور والتجديد ٣٣٣.

حلقات دروسهم في المساجد أحياناً، وفي دورهم أحياناً أخرى. وبالطبع كانت المادة التي تدور في هذه الحلقات دينية خالصة، من تفسير لكتاب الله، أو رواية للحديث الشريف، أو وعظ وهداية، وإرشاد مستمد من هذين الأصلين، فتكونت بذلك مدارس دينية بالعراق. «فقد كان لكل صحابي مدرسة من التابعين، تأخذ عنه، وتلتف حوله، كما كان لكل تابعي مدرسة من تابعيه، تأخذ عنه أيضاً وتلتف حوله»[١].

كانت هذه الظاهرة الطيبة عاملاً من أهم العوامل في بث روح التدين الصادق العميق في العراق. هذا التدين الذي اتخذ في أبرز وجوهه طابع موجة واسعة المدى من الزهد، كان هؤلاء الصحابة، ومن تبعهم ممن صدق إيمانهم، رواته وباعثي نهضته.

فقد، انتشر الزهد في العراق، وبلغ من المدى حداً لم يبلغه في بيئة أخرى من البيئات الإسلامية، «فكل من يدرس هذه الموجة من الزهد، ويتعقبها في الأقاليم الإسلامية، أثناء عصر بني أمية، يستطيع أنْ يلاحظ في وضوح، أن أهم إقليم انتشرت فيه هذه الموجة، هو أقليم العراق»[٢]، فقد ظهرت فيه هذه النزعة إلى رفض زخرف الحياة الدنيا، وإيثار التقشف، في وقت مبكر، بعيد الفتح الإسلامي وأوائل الدولة الأموية[٣].

ولمعت في سماء العراق جماعات من الزهاد، ارتقت إلى طبقات عالية من التجرد والروحانية الخالصة في العصر الأموي، من بينهم: قتادة المحدث الزاهد المشهور، والشعبي المحدث والعابد، وعلقمة بن قيس، والحسن البصري، والربيع بن خُثيم، زاهد الكوفة الأكبر، الذي يراه جولد تسهير المثل الكامل لحياة الزهد، سواء في آرائه ومواعظه، وفي اسلوب حياته[٤]. فقد لخص الزهد في تسعة من ألوان السلوك، ينبغي للزاهد أن يلزمها، ولا يغفل عنها، فقال: «أقلل الكلام إلا

---

(١) حياة الشعر في الكوفة ١٨٧.
(٢) التطور والتجديد ٣٦.
(٣) العقيدة والشريعة ١٣٠.
(٤) المصدر نفسه: ١٣٠.

من تسع: تكبير وتهليل، وتسبيح، وتحميد، وسؤالك الخير، وتعوذك من الشر، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر، وقراءتك القرآن»[١].

ومن مشاهير زهاد الكوفة، أُويس القرني، وهو من كبار التابعين، تحدث عنه ابن سعد في الطبقات الكبرى، قال: جاء رجل من مراد إلى أويس القرني. . . فقال له: كيف الزمان عليكم؟ فقال أويس: «ما تسأل رجلاً إذا أمسى لم ير أنه يصبح، وإذا أصبح لم ير أنه يمسي، يا أخامراد، إن الموت لم يبق لمؤمن فرحاً»[٢].

ولا يتسع المقام للإفاضة في ذكر زهاد العراق، ومناقبهم، وصور زهادتهم. فقد كفانا، ابن سعد في طبقاته مؤونة كل هذا، فليرجع إليها من شاء[٣]. ونكتفي بما حدثنا به أنه كان في بني ثور (حي من أحياء الكوفة) ثلاثون رجلاً، ما منهم رجل دون الربيع بن خيثم[٤]. وليس غريباً إذن أن يعمر العراق بألوان من الزهد، وطبقات من الزهاد ساروا على الدرب الذي اختطه لهم الرواد الأول من الصحابة والتابعين، اقتداء بهم، وطلباً لحسنى العقبى مثلهم.

إن حياة الاضطراب، والقلق السياسي، التي ألقت بظلها القاتم على حياة الناس في الكوفة قد دفعت فريقاً إلى الانصراف عن دنيا الناس، التي يتطاحنون على حطامها، وخلفوها وراء ظهورهم، وزهدوا في نفعها ولذائذها، وولوا قلوبهم وامالهم، إلى الدار الآخرة الباقية، مؤمنين بأن ما عند الناس ينفد، وما عند الله باق، وأن الباقيات الصالحات خير عند الله ثواباً، وخيراً وأملاً، قد آثروا التشقف والزهد.

ولعل هؤلاء الذين عناهم جولد تسهير، فيما ذهب إليه من أن الميل إلى الزهد كان مرتبطاً بالثورة على السلطان القائم. وأن كثيراً من المسلمين لجئوا إلى حياة الاعتكاف والزهد احتجاجاً على ما ينكرون من النظام السياسي، وشاطروهم الفرار من الدنيا[٥]. ولا أدل على صواب هذا الرأي من قول أويس القرني: «الوحدة أحب

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٩.
(٢) المصدر السابق ٦/ ١١٦.
(٣) الطبقات ابن سعد ٦/ ١٢٠.
(٤) طبقات ابن سعد ٦/ ١٣٣.
(٥) العقيدة والشريعة ١٣٠.

إليّ»[١]، فربما عنى أن الاعتكاف والانقطاع إلى العبادة، والزهد في الدنيا أحب إليه من الالتفات إلى الحياة القلقة في مجتمع عصره. فالحياة في مجتمع تشع فيه نفحات الزهد، وتتردد في جنباته أنغامه الروحانية، لا بد أن تترك أثرها في ضمائر جمهور الناس، وعقولهم، أو على الأقل في أسماعهم.

وكان من بين هذا الجمهور عدد من شعراء العرق، تفاوتت استجابتهم، لما يشاهدون من حياة الزهد، وما يسمعون في مجالس الزهاد، وحلقات دروسهم، إذ لا نستطيع أن يتصور أن كل شعراء العراق كانوا بمعزل عن هذه الحياة الزاهدة، أو «أن ماديتهم كانت تحول دون وصول هذا التيار الروحاني إلى نفوسهم»[٢].

ولعل شعراء العراق، الذين احتكوا بهذه العناصر الزاهدة، أو عاشوا على مقربة منهم، يشهدون مجالسهم، أو يشاهدون أحوالهم، قد تأثروا بتيار الزهد، وقد كان لهذا التأثر صداه في أشعارهم،مادام الشعر، كما هو معروف، مرآة لنفس مبدعه.

المؤثرات العقلية

بالمماثل لا نستطيع أن نغفل تأثير الحركة العقلية والفكرية والثقافية في توجيه بعض النتاج الشعري في العصر الأموي وتغذية عقول شعرائه بألوان من الفكر والثقافة.

بدا نشاط هذه الحركة في الحلقات الدينية التعليمية، التي انتشرت في مكة والمدينة، والكوفة والبصرة، ودمشق.. وغيرها من الأمصار الإسلامية، التي نزلها، أو استوطنها عدد من أصحاب رسول الله ﷺ، أو بعض تلاميذهم من كبار التابعين.

وقد انصبت عناية هذه الحركة الدينية التعليمية على تفسير كتاب الله، ورواية حديث رسول الله ﷺ ومدارسته، واستنباط الأحكام الفقهية، والتشريعية منهما، وكانت هذه الحركة أكبر الحركات العلمية، في العصر الأموي، وأوسعها نشاطاً.

وصدرت تحت تأثيرها ألوان من الشعر، متأثرة بالنظرة الدينية، والعاطفة

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ١١٤.
(٢) حياة الشعر في الكوفة ٥٠٣.

الدينية، كالشعر الذي عبر عن حياة الزهاد، وأفكارهم. وضروب أخرى ونماذج أخرى من الشعر عكست بعض المضامين الدينية، أو رددت ألفاظاً، وعبارات ومصطلحات دينية، إلى غير ذلك، مما يمكن أن نسلكه فيما أسميناه سابقاً بالشعر الديني.

ثم لم تلبث الحركة العقلية والثقافية، أن اتخذت مساراً، أميل إلى التفكير العقلي والفلسفي، القائم على البحث والنظر، والحوار والجدل والمناظرة.

عرف أصحاب هذا اللون من الثقافة الفكرية العقلية بالمتكلمين، وتمثل في المذاهب الكلامية، التي عرفت في هذا العصر، والتي اتخذت من العراق خاصة مركز إشعاع لثقافتها وأفكارها، وميداناً لحلقات دروسها، ومجالس مناقشاتها ومناظراتها، وجدالها فيما بينها.

وقد اقترنت نشأة أكثر الفرق الدينية في العصر الأموي، بظروف سياسية، وأهواء سياسية، كانت القاعدة الأساسية التي انطلقت منها، وقامت أفكارها المبكرة على هدي منها.

وقد رأينا من قبل كيف نشأ التشيع لعلي وآل بيته على أساس نظرية سياسية تقول بحق آل البيت في خلافة الرسول ﷺ وإمامة المسلمين، وكثرة من عقائد الشيعة تدور حول هذه النظرية السياسية، أو تنبثق منها.

ولو تتبعنا نشأة المرجئة، لوجدناها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالسياسة، فقد وجد بعض الصحابة في أيام النزاع الحربي بن علي ومعاوية، أن كلا من الفريقين يستحل دم الفريق الآخر ويرميه بالبغى والكفر، فتحيروا، وغُمّ عليهم وجه الحق، ومن ثم آثروا اعتزال الفريقين، وتوقفوا عن الحكم عليهما.

في هذا الجو السياسي المضطرب المتخاصم ظهرت المرجئة، مذهباً سياسياً مسالماً، يعلن للجميع، أن الشيعة والخوارج والأمويين مؤمنون، وليسوا كفاراً، بعضهم مخطىء وبعضهم مصيب، ولكنا لا نستطيع أن نعين، أيهم المخطىء، وأيهم المصيب.

وعلى أساس من هذه الظروف السياسية، قامت أراؤهم في الإيمان، ومدلوله،

فما داموا لا يكفرون أحداً من المسلمين المتحاربين، فمن الطبيعي أن يحدّدوا معنى الإيمان، فمن قائل منهم، بأنه التصديق بالقلب، فيكفى أن يكون الإنسان مؤمن القلب بأن الله واحداً وأن محمداً رسوله، وأن ما جاء هو الحق، ليكون مؤمناً، ولا يشترط مع ذلك الإقرار باللسان، ومنهم من ذهب إلى أن الإيمان بالقلب وتصديق اللسان، وكلهم يؤكد على أن العمل (أي أداء الطاعات كالصلاة والصوم. . .ونحوها) ليس جزءاً من الإيمان[١]، ثم تفرعت المسائل، وتجددت القضايا، واتخذت أفكار المرجئة صبغة دينية، وبذا تطورت إلى مذهب ديني، وصار أنصارها فرقة من فرق المتكلمين[٢].

وقد لا يكون من لوازم هذا البحث، أن نتتبع هذه المذاهب والفرق، في نشأتها وتطورها، وأن نعرض لمبادئها وآرائها، فقد أفاضت كتب الفرق والعقائد في عرضها ومناقشتها، وما يهمنا هنا أن نذكر أن آراء هذه الفرق، ونظريتها، كانت تمثل نشأة الحركة الفلسفية الحقيقية في الإسلام، التي اتخذت من المسائل الاعتقادية موضوعاً للبحث والنظر والجدل[٣].

وليس من شك في أن ما كان يدور بين هذه الفرق من حوار وجدل، أثر في العقلية العربيّة حينئذ؛ فإن الناس ومعهم الشعراء كانوا يستمعون إلى ما يدور في مجالس هذه الفرق، من نقاش وجدل ومناظرة.

من ذلك مثلاً: أن رجلاً جاء إلى الحسن البصري، وعنده الفرزدق الشاعر، فقال: يا أبا سعيد، إنا نكون في هذه البعوث والسرايا، فنصيب المرأة من العدو، وهي ذات زوج، أفتحل لنا من قبل أن يطلقها زوجها؟ فقال الفرزدق: قد قلت أنا مثل هذا في شعري، فقال الحسن: وما قلت؟ قال قلت:

وذات حليل أنكحتنا رماحنا حلال لمن يبني بها لم تطلق

فقال الحسن: صدق[٤].

---

(١) الملل والنحل ١/ ٢٦٠، ٢٦٣.
(٢) مقالات الإسلاميين ١/ ١٩٧ وما بعدها، والفرق بين الفرق ١٩٠ وما بعدها. وانظر: فجر الإسلام ١/ ٣٤٢، وضحى الإسلام ٣/ ٣١٦ ـ ٣١٨، والعقيدة والشريعة ٧٥.
(٣) انظر: تاريخ الفلسفة في الإسلام، هامش ص٤٨، ٥٠، وفجر الإسلام ١/ ٣٥١ ـ ٣٥٢.
(٤) العمدة ١/ ٣٠.

وجاء آخر، فقال: يا أبا سعيد، الرجل يقول: لا والله، ولم والله، في كلامه، لا يريد اليمين، فقال الفرزدق: أو ما سمعت ما قلت في ذلك؟ لقد قلت:

ولست بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تعمد عاقدات العزائم[١]

ولئن كان هذا الشعر متأثراً بثقافة، تأخذ طابعاً فقهيا دينياً، فهناك أشعار أخرى، تردد بعض مقولات علم الكلام، أو الثقافة الفكرية لفرق المتكلمين.

يقول عون بن عبد الله ـ من مرجئة الكوفة ـ معبراً عن تراجعه عن الإرجاء[٢]:

وأول ما أفارق غير شك أفارق ما يقول المرجئونا

وقالوا: مؤمن من آل جور وليس المؤمنون بجائرينا

وقالوا: مؤمن دمه حلال وقد حرمت دماء المؤمنينا

فهو يعجب، كيف يعد المرجئة أهل الجور مؤمنين؟، وكيف يحكمون على المتقاتلين من المسلمين بالإيمان، سواء منهم القاتل والمقتول؟ مع أن دماء المؤمنين محرمة، وقد عرفنا منذ قليل أنهم لا يرون العمل جزءاً من الإيمان.

وخطت الحركة العقلية خطوات أخرى مع بدايات النظر في العلوم الدخيلة ونقصد بها تلك المعارف، التي أخذ بعض المثقفين من المسلمين ـ العرب وغير العرب ـ ينقلها إلى اللسان العربي، من ألسنتها الأصلية، ويدخل فيها معارف وعلوم وثقافات لأمم اليونان، والفرس، والهند، والسريان، وغيرهم.

وقد ظهرت بواكير هذه المعارف المترجمة في العصر الأموي، وبخاصة في حياة الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية (توفي سنة ٨٥هـ)، الذي كان يلقب بالحكيم؛ لانصرافه لاكتساب العلا بالعلم. فقد استقدم جماعة من علماء مدرسة الإسكندرية، ووكل إلى بعضهم ترجمة بعض آثار اليونان، في علوم الطب، والكيمياء، والفلك، كما ترجمت آثار يونانية طبية أخرى أيام مروان بن الحكم، وفي أيام هشام بن عبد الملك ترجمت رسائل أرسطو إلى الإسكندرية[٣]...

---

(١) الأغاني ١٩/ ١٤.
(٢) الأغاني ٩/ ١٣٩.
(٣) زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ١/ ٢١٧ ـ ٢١٨.

فقد كان هذا إيذاناً ببدء نهضة عقلية، لم تلبث أن زكت وازدهرت في العصر العباسي، غير أن هذه الخطوة في الحركة العقلية، لم تترك أثراً واضحاً في شعر هذا العصر، ربما لتأخر ظهورها، أو لقلة نتاجها، ولأن الأمويين - بعامة - لم يشجعوا كثيراً هذه الألوان والمعارف العلمية، بقدر تشجيعهم للحركة الأدبية، والقصص الرسمي؛ الذي فتحوا أبوابهم للشعراء والخطباء، وعينوا القصاص في المساجد، ولم يفعلوا مثل ذلك مع العلماء والفلاسفة، فحاجتهم إلى الشعراء والقصاص كانت أشد، فهم الذين يبشرون بهم، ويشيدون بذكرهم[1].

لعلنا استطعنا بعد ذلك كله، أن نوجز الملامح العامة والبارزة، للتغيرات السياسية، والاجتماعية، والحضارية، والثقافية، التي طرأت على حياة المجتمعات الإسلامية في العصر الأموي، والتي ساهمت في انتاج اتجاهات وأغراض وألوان شعرية عامة في ذلك العصر.

---

(١) فجر الإسلام ١/ ١٩٣.

الفصل الخامس

شعر الحزب الأموي وأغراضه

كان العرب قد تعودوا، منذ العصر الجاهلي، أن ينوّهوا في أشعارهم، بأشرافهم وذوي النباهة منهم. فكانوا يتحدثون عن خصالهم النبيلة من الكرم والشجاعة والحلم والوفاء وحماية الجار، وكان لا يعدّ السيّد فيهم كاملاً إلا إذ تغنى بنباهته ومناقبه، غير شاعر من الشعراء.

وعندما جاء الإسلام، مضت العرب على هذه السنة، فكان كل سيد منهم وكل شريف، يود أن يحظى بشاعر يشيد به، حتى يسير الركبان بذكره. وبالعودة إلى كتب الأدب والتاريخ، مثل الأغاني والطبري وابن الأثير، نرى مصداقاً لذلك. حتى كأنه لم يعد للشعراء من شاغل يشغلهم سوى مديح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد.

وقد بلغ الأمر في ذلك مبلغاً عظيماً في ظل دولة الأمويين، فقد اقبل الشعراء على بني لأمية يقولون فيهم الشعر، ويتغنون بهم وبدولتهم، ويتمدحونهم في قصائد طويلة. ولا غرو، فقد كان المال كثيراً في خزائنهم، وقد تصرفوا فيه كما يحلو لهم، غير متأثمبن أو متحرجين، أو مراعين لقواعد الإسلام في الإنفاق من بيت مال المسلمين[١]. وكانت السلطة والسلطان في أيديهم. وقد سخوا بهذا وذاك على كل من أتاهم مادحاً، ذاكراً فضلهم مؤيداً لدولتهم.

وهناك روايات كثيرة تحدثنا عن صور سخاء بني أمية وعمالهم، في عطايا الشعراء وهباتهم. فقد وفد أعرابي على عبد الملك بن مروان وأنشده[٢]:

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٥: ٢/ ٧٩.
(٢) القالي، أبو علي؛ الأمالي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٥: ٢/ ٢٨٧.

والـلـه مـا نـدري إذا مـا فـاتـنـا طـلـب إلـيـك مـن الـذي نـتـطـلـب
فـلـقـد ضـربـنـا فـي الـبـلاد فـلـم نـجـد أحـداً سـواك إلـى الـمـكـارم يـنـسـب
اصـبـر لـعـادتـنـا الـتـي عـودتـنـا أو لا فـأرشـدنـا إلـى مـن نـذهـب

فقال عبد الملك بن مروان: إلي إلي. وأمر له بألف دينار. ووفد عليه في العام التالي فأعطاه ألف دينار، وفي العام الثالث(١)، أعطاه ثلاثة آلاف دينار(٢). ومدحه آخر فأمر له بجائزة وقطيعة بالعراق(٣).

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي يعطي الشعراء، الذين كانوا يقصدونه بالعراق، وفضّل أحدهم مرة، على الآخرين، بألف درهم، لأنمه أعجب ببيت قاله(٤). وقد دخل الطرماح بن الحكيم، وهو من شعراء الخوارج،علي خالد بن عبد الله القسري ـ عامل الأمويين على الكوفة ـ فأنشده أبياتاً يعرض فيها بسوء حاله فأمر له بعشرين ألفاً.

ولقد أغرى المال والجاه، كثيراً من شعراء العصر، فأقبلوا عليهم مخلصين، أو متملقين طامعين، لينتفعوا بمالهم وجاههم. ويمدنا التاريخ الأدبي بأسماء عدد من الشعراء، الذين كانوا منقطعين، أو كالمنقطعين لبني أمية، من أمثال: الأخطل التغلبي، وأبي العباس الأعمى، وعبد الله بن الزبير الأسدي، وأبي صخر الخذلي، ونصيب بن رياح، مولى عبد العزيز بن مروان، وعدي بن الرقاع، وأعشى ربيعة وغيرهم(٥).

واعتز بنو أمية أشد الاعتزاز، ببعض هؤلاء الشعراء، لإخلاصهم الشديد في الموالاة لهم. وقد أكرموهم إكراماً منقطع النظير. ونذكر في هذا المقام، قول عبد الملك بن مروان للأخطل، لما مدح بني أمية بقصيدته المعروفة، «خف القطين فراحوا منك أو بكروا»، والتي يقول فيها عن بني أمية:

---

(١) لمرجع نفسه: ٢/ ٢٨٧.
(٢) المرجع نفسه: ٢/ ٢٧٠.
(٣) المرجع نفسه: ٢/ ٢٦٦.
(٤) أورد الأصفهاني في كتاب الأغاني ترجمات وافية لهؤلاء الشعراء، اشتملت على أدبهم وأخبارهم، راجعها في موضعها منه.
(٥) أبو علي القالي، الأمالي: ٢/ ٢٧٠.

حشد على الحق عُياف الخنا أنف ... إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
شمس العداوة حتى يُستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

فقال عبد الملك: «لكل قوم شاعر، وإن شاعر بني أمية، الأخطل».

وقد سماه شاعر أمير المؤمنين.

ودخل أعشى ربيعة على عبد الملك بن مروان وعنده ابناه الوليد وسليمان، فقال له: يا أبا المغيرة، ما بقي من شعرك؟ فقال: والله لقد ذهب أكثره، وأنا الذي أقول:

وفضلي في الشعر والعلم أنني ... أقول على علم، وأعلم ما أعني
فأصبحت إذ فضلت مروان وابنه ... على الناس، قد فضلت خير أبٍ وابنِ

فقال عبد الملك بن مروان: «من يلومني على حبِّ هذا، وأمر له بجائزة، وقطيعاً بالعراق[1].

وكان الشاعر أبو العباس الأعمى، من شعراء بني أمية المعدودين المقدمين في مدحهم، والتشيع لهم، وانصباب إليهم. وقد عرض بطلب العطاء منهم، بعدما كسا عبد الله بن الزبير من أسد بن عبد العزى - قومه - ولم يكسُ أبا العباس، وكان بمكة، فقال:

كست أسد إخواتها، ولو أنني ... ببلدة إخوتي إذن لكسيت
فلم تر عيني مثل حيّ تحملوا ... إلى الشام، مظلومين منذ بريتُ

فما أن وصل هذا القول، إلى مسامع عبد الملك بن مروان، حتى أوحى إلى الناس أن يخلعوا عليه، ففعلوا، واجتمع له من ذلك قدر ضخم. ثم أمر عبد الملك له بمالٍ عظيم[2]وكان الشاعر عبد الله بن الزبير الأسدي، من ذوي الهوى في بني أمية والتعصب لهم، والنصرة على عدوهم، كما يذكر صاحب الأغاني. وكان مع ذلك، يتأثر بعطاء مصعب بن الزبير الذي غلب على الكوفة لأخيه عبد الله بن الزبير، فيمدحه وينقطع إليه، حتى قتل مصعب. وقد عاد بعد ذلك يمدح ولاة أمية ويكثر من تهجمه على عبد الله بن الزبير[3].

---

(١) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني؛ ١٥/٥٧.
(٢) المرجع نفسه: ١٣/٣١.
(٣) المرجع نفسه: ١/١٣١.

وأما الشاعر نصيب بن رباح، فقد انقطع في مصر، لمدح واليها عبد العزيز بن مروان، الذي كان يكيل له الثناء، فيجزل عبد العزيز له العطاء. وبعد وفاة عبد العزيز بن مروان توقف نصيب عن قول الشعر في بني أمية، فقيل له: هَرِمَ شعرك يا نصيب. فقال: لا والله ما هرم، ولكن العطاء هرم[١]. وأعجب هشام بن عبد الملك، بمدحه فقال له: «يا أسود بلغت غاية المدح فسلني. فقال نصيب: يدك بالعطية أجود وأبسط من لساني بمسألتك» فأجزل هشام له العطية[٢].

وهناك شعراء كثيرون، ناصروا الأمويين، ونافحوا عنهم وعن حقهم بالخلافة، غير أن أخبارهم وأشعارهم الأموية الباقية قليلة. ونحن نجد أيضاً فريقاً من الشعراء المعدودين المعروفين الذين عرفوا بموالاتهم للأمويين، غبر أن أشعارهم الأموية قد ضاعت، لأنهم كانوا من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية.

ونحن نذكر من هؤلاء الأمويين المخضرمين: ابن المولى[٣]، وابن الخياط[٤]، وأبا دهمان الغلابي[٥]، وابن الخياط[٦]، والمؤمل بن أميل المحاربي[٧]، والعماني[٨]، وسلمة بن عياش[٩]، وآدم بن عبد العزيز[١٠]، وحماس بن ثامل[١١]، وابن أبي سنة[١٢]، وأبا حيّة النميري[١٣].

---

(١) الأصفهاني، الأغاني: ١/ ١٤١.
(٢) المرجع نفسه: ١/ ١٤١.
(٣) ضيف د. شوقي. العصر الإسلامي، دار المعارف بمصر ١٩٦٨: ص٣٣٨. وأيضاً تاريخ الشعر السياسي لأحمد الشايب مكتبة النهضة بمصر١٩٦٦: ص٢٤٧.
(٤) الأصفهاني، أبو الفرج: ٣/ ٢٨٦ (طبعة دار الكتب بمصر) ومعجم الشعراء للمزرباني: ص٣٤٢. (البابي الحلبي ١٩٤٩).
(٥) المرجع نفسه: ١٩/ ١٥١ (طبعة الساسي).
(٦) ياقوت، معجم الأباء ٢٠/ ٦٧ دار المأمون، القاهرة.
(٧) الأصفهاني، الأغاني: ١٩/ ١٤٧ (طبعة الساسي). ومعجم الأدباء: ١٩/ ٢٠١.
(٨) الأصفهاني، الأغاني: ٧/ ٧٨ (طبعة الساسي).
(٩) المرجع نفسه: ٢١/ ٨٤.
(١٠) المرجع نفسه: ١٥/ ٢٨٦ (طبعة دار الكتب).
(١١) ياقوت، معجم الأدباء: ١/ ٢٦٧.
(١٢) الأصفهاني، الأغاني: ٤/ ٣٣٠ (دار الكتب).
(١٣) ابن المعتز. طبقات الشعراء: ١٤٣ (تحقيق عبد الستار أحمد فراج. دار المعارف بمصر ١٩٥٢).

ويبدو أن هؤلاء الشعراء، كانوا قد أمضوا الشطر الأكبر من حياتهم في العصر الأموي، وعرفوا بولائهم للأمويين، ومحاماتهم عنهم، وقد تكتموا على أشعارهم السياسية الأموية أشد التكتم، وحرصوا على إخفائها أكبر الحرص. وقد ابتعدوا عن العباسيين في أيامهم الأولى، وانزووا عنهم حتى لا يراجعونهم فيها، ولا يحاسبونها عليها، لأنهم كانوا يوقنون بأن العباسيين يعلمون علاقاتهم بالأمويين، ويقفون عليها.

وما من شك، أن أكثر الشعراء الأمويين الذين وفدوا على العباسيين بعد نجاح ثورتهم، كانوا يسألون عن ماضيهم السياسي، ويعنفون عليه، ويهددون به، مما كان يستدعي من هؤلاء الشعراء إسقاط قصائدهم الأموية والتخلص منها، وعدم ذكرهم لها.

بالإضافة إلى ذلك، فقد حما الرواة الموالون للهاشمين والعباسيين، على دواوين الشعراء، الذين كانوا يوانون الأمويين، فأسقطوا منها، جميع القصائد التي كانت تنوه بالأمويين أو تلك التي تتمدحهم وتتمدح دولتهم. وقد كان غرضهم من وراء ذلك، التعفية على آثار الأمويين، وطمس كل شعر يذكر بهم وبدولتهم.

فقد كان شعراء الدولة الأموية يزاوجون في شعرهم، بين التضخيم للأمويين وخلفائهم وأمرائهم وقادتهم وولاتهم، والإعجاب بسياستهم الرحيمة لمواطنيهم، والتمجيد بمواقفهم الصارمة من أعدائهم، وبين الانتصار لهم، والكفاح عن حقهم في الحكم.

ويبدو أن الأمويين، كانوا يتجاوبون مع ذلك أيما تجاوب. فقد كان القصر الأموي بدمشق ظهير الشعراء والأدباء لأمرين اثنين ساعدا على ذلك:

١ ـ الأول، إن الخلفاء الأمويين كانوا عرباً، فهم لذلك يحسنون الشعر ويتذوقونه، ويطربون له ويهتزون أريحية لسماعه. وقد وجد الشعراء تجاوباً منهم، لما ينشدونهم منه. وهو تجاوب، كان يظهر في ذلك الإعجاب الذي كانوا لا يترددون في إعلانه، كلما طربوا البيت، أو استحسنوا قصيدة. ثم في ذلك العطاء السخي الذي لم يكونوا يبخلون به، تأكيداً لهذا الإعجاب على المزيد من القول والإبداع.

٢ ـ الثاني، هو أن الدولة الأموية، على الرغم من استقامة الأمر لها، ظلّت

تعاني من الفتن والثورات الداخلية التي أشعلتها الأحزاب المعارضة لها في أرجاء متفرقة، منها الشيعة والخوارج والزبيريون. فرأت أنها في حاجة إلى دعاية ضخمة، تحيط بها حُكمها، وتؤيد بها سياستها، وتشهرها في وجوه خصومها السياسيين، الذين كانت لهم أيضاً وسائلهم الإعلامية التي تروّج لنظرياتهم السياسية المختلطة. ولم يكن أمامهم من وسيلة للدعاية مثل الشعر، الذي كان وسيلة الإعلام الأساسية عند العرب منذ العصر الجاهلي.

وبالفعل، فقد وقف «شعراء الدولة» في العصر الأموي، إلى جانب الجيوش المقاتلة، يدافعون عنها، ويؤكدون حقها السياسي أمام شعراء الأحزاب المعارضة. كما نجح الأمويون في أن يؤلفوا حولهم حزباً سياسياً يدافع عن نظريتهم السياسية، ويؤكد حقهم في الخلافة أمام الأحزاب المعارضة، مما جعل الباحثين يطلقون عليه فيما بعد، إسم «الحزب الأموي».

حق الأمويين بالخلافة

الإشادة بالكرم

لا أحد يجحد الأمويين فضلهم في ازدهار الثقافة الأدبية إذ لأثر عنهم اعتزازهم بما خلف العرب من تراث أدبي ولغوي وما عقدوه من مجالس أدبية للسمر بالشعر والإصغاء إلى روايته، كما حرصوا طوال فترة حكمهم على إستغلال الشعر واجتذاب الشعراء إلى قصورهم ليتخذوا منهم ألسنة مدافعة عن حكمهم داعية إلى تقبله وتأييده، وتطور المديح وعلا شأنه، وخصوصاً بعد الصلات الجزيلة التي أغدق بها السفيانيون على الشعراء فجعلتهم يقبلون عليه ويكثرون القول فيه. وليس أدل على ذلك من قول عبد العزيز بن زوارة أحد أشراف العرب وشعرائهم حين وصل إلى معاوية يقول[1]: «يا أيها المؤمنين لم أزل أستدل بالمعروف عليك وأمتطي النهار فإذا إليك ألوَى بي الليل، فقبض البصر، وعفي الأثر أقام بدني، وسافر أملي، والنفس تلوم والاجتهاد يعذر فإن قد بلغتك فقطني».

إنه بإشادته بكرم معاوية ليسرف ويغالي ويصل حد التزلف، فنحس بأنه لا

(١) الجاحظ ـ البيان والتبيين المجلد الثاني، ص٧٥.

يعنيه من معاوية إلا استمالته والتقرب إليه، غرضه النوال والنماس العطاء وعلى نفس النغم والإيقاع سار المتوكل الليثي في مدحه ليزيد بن معاوية إذ صوره كملك عظيم جزل العطاء كريم المحتد وقد احتشد الشعراء على بابه لقضاء حاجاتهم. يقول[١]:

أبا خالدٍ حَنَّتْ إليكَ مطِيَّتي ... على بعد منتاب وهولِ جنانِ

تناهَت قَلُوصي بعد إسَادِي السُّرى ... إلى مَلِكٍ جَزلِ العطاءِ هجانِ

ترَى النَّاسَ أفواجاً ينُوبُون بابَهُ ... لبكرٍ من الحَاجاتِ أو لعوانِ

إن هذه النماذج وغيرها دليل قاطع على أن أدب الحزب الأموي أدب تكسبي يقوم على الاستجداء ويسلك طريق الإيضاح والإشادة بذكر السفيانيين وإن بدت حباً في عطاياهم أو خوفاً من عقابهم.

فمثل تلك المعاني قد أكسبت الأشعار الرائدة في فلكها بعداً إنسانياً نتيجة الحلم والفضل والكرم على أفعالهم وتصرفاتهم، فهم سادة كرام يحسن بنا أن نسلمهم قيادة أمورنا. وإمعاناً في إظهار الكرم السفياني نرى إعرابياً قاصداً معاوية بأبيات سائرة تتجلى فيها المآثر الذاتية إذ حشد فيها الملهوف العديد من النعوت التي تغري في معاوية باعتباره الخليفة العلم والحلم والفضل والكرم، طالباً الإنصاف من الوالي الجائر باعتباره صاحب السلكة والقدرة على إقرار الأمن وكبح أهل الطيش ولا يدعهم يسترسلون في غيّهم حتى ولو كانوا من عماله ومواليه. يقول[٢]:

مُعَاوِيَ يا ذا العِلمِ والحِلمِ والفَضْلِ ... ويا ذَا النَّدى والجُودِ والنابِلِ الجَزلِ

أتَيتُكَ لَمّا ضاقَ في الأرضِ مذهَبي ... فيا غيثُ لا تقطَعْ رجَائي منَ العدلِ

وجِد لي بإنصافٍ من الجَائرِ الَّذي ... شَوانِي شيَّا كانَ أمرهُ قَتلي

.. أغِثنِي جَزاكَ الله عني جنَّةً ... فَقَد طارَ مِن وَجدِ بُعدِي لَها عَقلي

وموضوع الكرم الأموي أوسع بكثير من أن يبحث في صفحات قلائل ولقد ورد منه شواهد كثيرة بحث أثناء الحياة الأدبية ودور الأمويين في بعث النهضة الشعرية. وكذلك في الحياة الإجتماعية.

ويكفي أن نذكر ما ورد على لسان مسكين الدارمي في تصوير السفيانيين في

---

(١) المتوكل بن عبد الله الليثي شعر المتوكل ص٢٠٤.

(٢) ابن قيم الجوزية ـ كتاب أخبار النساء ص٤.

إطعامهم للضيف ذلك أن نيرانهم تظل موقدة وقدورهم كالخوابي تفي بحاجات قاصديها. يقول[١]:

قُدورُ ابنِ حربٍ كالخَوابِي تَحتَها   أثافٍ كأمثالِ الرّئالِ رَكُودِ

ويتساءل الأخطل إن كان هناك عطاء أجود من عطاء يزيد بن معاوية فهو قد يهب الإبل الخرسانية المحملة بالمجد والسؤود. يقول[٢]:

بأجوَدَ سَيباً مِنْ يَزيدَ، إذا غَدَت   بِهِ بُختُهُ، يحمِلنَ مُلكاً وسُؤدَدَا

والعطاء السفياني كان ذا منفعة سياسية، إذ أمن لهم غطاء سياسياً وستر بعض عيوبهم كما أنه انتزع إهجاب هخصومهم السياسيين فقد كان طلحة بن عبيد الله يردد دائماً[٣]: ما رأيت رجلاً أعطى الجزيل من غير مسألة منه (معاوية).

وهكذا اعتمد الأمويون الكرم كوسيلة لتحبب الناس إليهم والتقرب منهم تمشياً نع أنفسهم المفطورة على العطاء والتكريم لكل سائل يطرق بابهم.

الحق الإلهي بالخلافة

عمل الأمويون على تبرير حكمهم على صعيد الفكر السياسي المؤيد بالفكر الديني، لكون الفكر السياسي آنذاك لم يكن يعمل بمعزل عن الفكر الديني، وسنوا بذلك مبدأ ثابتاً لقيام دولتهم عليه.

فمعاوية كان يعتبر أحق الناس بالخلافة وأنه المختار من قبل الله باعتباره خليفة الله، وكان في مجالسه الخاصة يكثر الترديد في هذا المجال وخصوصاً في حضور أخصامه السياسيين ولقد أثر عنه قوله[٤]:

«الأرض لله وأنا خليفته. ما أخذته فلي حلال وما تركت للناس فلي عليهم فيه مِنّة».

وعلى هذا النغم راح الأخطل يشدد على مفهوم الخلافة الديني مصوراً الخلافة

---

(١) مسكين الدارمي ـ الديوان ص٣٤.
(٢) الأخطل التغلبي ـ شعر الأخطل الجزء الأول ص٣١١.
(٣) الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك، الجزء السادس، ص١٨٨.
(٤) الآبي ـ نثر الدر، الجوء الثاني، ص١٩٥.

الأموية على أنها عطية السماء فيشيد بمناقب الأمويين عامة ومناقب الأمويين خاصة ويركز مدحه حول الخلافة ونظرية بني أمية السياسية في حقهم الإلهي المزعوم بالسلطة. يقول في معرض[١] مدحه لعبد الله بن معاوية بن أبي سفيان ويزيد بن معاوية:

تمت جدودهم، والله فضلهم ... وجد قوم، سواهم، خامل، نكد

هم الذين أجاب الله دعوتهم ... لما تلاقت نواصي الخيل، فاجتلدوا

ليست تنال أكف القوم بسطتهم ... وليس ينقض مكر الناس ما عقدوا

وروج الأخطل في مدائحه للأمويين كما عمل على إخفاء الصفة الإنسانية لمعانيه، فكان لسان الحزب الأموي الناطق في إظهار الخلال والمحامد السفيانية إذ هم في نظره حماة حق كارهون للذل وخلافتهم من الله وحقهم فيها مقدس فالله قد منحهم تفوقاً دينياً وسياسياً، وأنهم في قتالهم يقيمون حدود الله ويبتعدون عن المنكر والفحش. إنه لا شك يجانب الحقيقة ويزري من المعروفين بالفسق والمجون ومن بناة قصور اللهو والخلاعة. يقول[٢] في مدح عبد الله بن معاوية بن أبي سفيان.

نبتت قناتك، منهم، في أسرة ... بيض الوجوه، مصالت، أخيار

قوم، هم نالوا التمام، وأزحفت ... عنه مذارع آخرين، قصار

إنه يمثلهم دوحة رفيعة العماد باعتباره أنصار الحق يصبرون على المكاره ويثبتون لمن يناصبهم العداء.

ويحتج الفرزدق للأمويين كأن يثبت في أذهان الناس ما يرغبون منه من صفات التعظيم والأحساب الكريمة والمزايا الخلقية وخصوصاً حين يعتبرهم حكماة الدين الإسلامي، وبأنهم الخلفاء الذين اختارهم الله واتخذوا من مقتل عثمان قاعدة لإرساء أسس دولتهم. ويقول[٣] في مدحه لسليمان بن عبد الملك:

إنا لنرجو أن تعيد لنا ... سنن الخلائف من بني فهر

عثمان، إذ ظلموه وانتهكوا ... دمه صبيحة ليلة النحر

---

(١) الأخطل ـ شعر الأخطل، الجزء الثاني، ص٤٤٢.

(٢) الأخطل ـ شعر الأخطل، الجزء الثاني، ص٤١٤.

(٣) الفرزدق ـ الديوان ـ المجلد الأول، ص٢٦٥.

... وابـنـي أبـي سـفـيـان، إذ طـلـبـا عــثــمــان مــا بــاتــا عــلــى وتــر
... خـلـفـاء قـد تـركـوا فـرائـضـهـم فــيــنــا، وسـنـة طـيـبـي الـذكـر
تــبــعــوا رســولــهــم بــســنــتــه، حــتــى لــقــوه، وهــم عــلــى قــدر

وكان الأخطل قد سبقه إلى هذا المعنى حين تجاوز مدح يزيد إلى الدفاع عن الدولة ومهاجمة خصومها، مؤيداً حق الدولة الثابت في الاقتصاص من قتلة عثمان واعتبر السفيانيين الحقيقيين لهذا الثأر فلا حرج عليهم إن هبوا مطالبين بالحكم تعويضاً عن دم الخليفة المقتول. يقول[1] في معرض مدحه لعبد الله بن معاوية بن أبي سفيان ويزيد بن معاوية:

ويـوم صـفـيـن، والأبـصـار خـاشـعـة أمــدهــم إذ دعــوا، مــن ربــهــم مــد
عـلـى الألـى قـتـلـوا عـثـمـان مـظـلـمـة لـم يـنـهـهـم نـشـد عـنـه، وقـد نُـشـدوا
وأنـتـم أهـل الـبـيـت، لا يُـوازنـهـم بـيـت، إذا عُـدت الأحـسـاب، والـعـدد

فالأخطل هنا يظهر مهارة فائقة في مصانعة الأمويين، والتنويه بدورهم في الإسلام والتمجيد بسلطاتهم الدينية بوصفهم أهل بيت رفيع ومقربين من الله الذي اصطفاهم من سائر العالمين، وحباهم نعمة الظفر في صفين، فأمدهم بالظفر في أحلك الساعات. وهكذا أحاط دولتهم بستار ديني وسن لهم قاعدة دينية، اتبعها شعراء آخرون كما التزم خصومهم بتحمل مسؤولية تشتت الأمة وتمزيقها بما ارتكبت أيديهم من جرائم وأنهم مهما حاولوا أن يستروا فعلتهم الشنيعة فإن أصابعهم ما تزال ملطخة بدم عثمان المقتول ظلماً. والأخطل بذكائه وحنكته نراه في هجائه للخصوم يركز على المشكلة الأخطر والأسوأ فيلاحق قتلته وذلك إمعاناً في التحدي ومبالغة في التهكم.

توريث الخلافة

وألم جرير بمذهب الأمويين السياسي الذي يقوم على تفوق العرب وتقدمهم على الجميع فأظهر أن سلطان الأمويين يستمد قوته من الدين نفسه وعد الواحد منهم خليفة رب العالمين وولي عهد الله الأمين ويرى أن نصرته نصر على كل مبتدع في

(١) غياث بن غوث التغلبي ـ شعر الأخطل، الجزء الثاني، ص٤٤٥.

الدين فخلافتهم قائمة على أسس الشريعة المطهرة وتهدف إلى إقامة حدود الشرع إنها حق شرعي لهم ومن حقوقهم المتوارثة[١]. يقول في هذا السياق[٢]:

في آل حربٍ وفي الأعياص منبته، هم ورثوك بناء عالي السور
يكفي الخليفة أن الله فضله عزم وثيق وعقد غير تغرير

وأيد عبد الله بن همام السلولي مذهب حزب الأمويين في الحكم وهو أن الخلافة من ميراثهم الشرعي، لكونهم أولياء الخليفة المقتول الذي عوقبت في قتله العرب وأنهم أقوى قريش بأساً وحرض بني أمية على التمسك بها في وجه الطامعين إليها ويدعوهم إلى أن يتشبثوا بالخلافة وأن يجيبوا من سألهم الشورى في أمرها بقوة السلاح، كما ينكر لاعداء بني أمية الحق في الشورى بعد قتلهم عثمان ولا نستطيع أن نفهم، أو أن نفسر موقفه هذا إلا عثمانيته التي جعلته شديد التعلق ببني أمية الثائرين لعثمان. يقول[٣]:

إن الخلافة إن تثبت لثالثكم تثبت أواخيها فيكم فلا ترم
عيشوا وأنتم من الدنيا على ثقة واستصلحوا جند أهل الشام للبهم
فلا تحلنها في دار غيركم إنب أخاف عليكم حسرة الندم
فما لمن سالك الشورى مشاورة إلا بطعن وضرب صائب حلم
أنى تكون له شورى وقد قتلوا عثمان ضحوا به في الأشهر الحرم

ومن الطبيعي أن تكون الخلافة ومسألة إثبات الأمويين فيها والدفاع عنها من أبرز مظاهر اتجاه شعراء الحزب الأموي فهذا يزيد بن مفرغ الحميري يمدح الأمويين عامة ويعتبرهم أهل السلطان وقد استوثقوا من الأمور بأن ملكوا الأموال واستلوا السيوف فاجتمع الناس إليهم طمعاً في مالهم أو خوفاً من بأسهم يقول:

فكأنما جعل الإله إليكم قبض النفوس وقسمة الأرزاق[٤]

كما يقول في قصيدة أخرى:

(١) أحمد كمال زكي ـ الحياة الأدبية في البصرة ص١٥٩.
(٢) ديوان جرير ص١٩٥.
(٣) العصبية القبلية، ص٤١٠.
(٤) شعر يزيد بن مفرغ الحميري ص١١٧.

البهاليل من بني عبد شمس فضلوا الناس بالعلا والفعال[(١)]

إن المجال للقول وخصوصاً أمام أولئك الذين بسمت الدولة في عالم السياسة ووقفوا منها موقف المؤيد والرضا، وكانت أشعارهم أصواتاً مدوية في عالم السياسة وإن غلب على معظمها الطمع والنفعية، فإنها في مجموعها أقرب إلى الشعر السياسي الذي شق طريقه وسط صفوف المقاتلين وهي أشعار بمجملها تعبر عن موقف حزبي، وتحاول أن تدعمه بمبدأ سياسي كان مستشرياً في التقدم عند أمم الروم والأعاجم. والمعاني المطروقة على جدتها كانت حجة الأمويين في الخلافة. فهم لدى شعرائهم خير البرية في الحياة الدنيا والآخرة، ولا مذهب إلا مذهبهم، ذلك المذهب القائم على العدل والإنصاف وكأنهم بذلك يحاولون قطع الطريق عن أولئك الذين وصفوا الأمويين بالجور والظلم وإثارة التحدي في وجههم. ولقد جاء شعرهم سياسياً محضاً ولكنه بمجمله يدور حول القصر الأموي وطبقته الارستقراطية.

والتشديد على مبدأ الوراثة في الخلافة واضح في مختلف أقوال الشعراء. فالبيت السفياني وريث أمجاد تليدة والخلافة هي بعض ذلك الإرث والسفيانيون أهل لها نظراً لما يتصفون به من الفضائل الإنسانية أمثال الجود والشرف والعظمة وإلى مثل هذا يشير فضالة بن شريك في مدحه ليزيد بن معاوية. يقول[(٢)]:

إن حرباً وإن صخراً أبا سفيان حازا مجداً وعزاً تليدا

فهما وارثا العلا عن جدود ورثوها آباءهم والجدودا

وحوى إرثها معاوية القرم وأعطى صفو التراث يزيدا

إن مدح العجاج ليزيد بن معاوية، كان كلاماً فوق مستوى الآدميين إذ شبهه في نهجه السياسي بالأنبياء وبأنه يقتفي آثار موسى والرسول. لذا على الرعية، الطاعة والولاء ولا سبيل إلى ردّ سياسته ما دامت مستمدة من الله ويحرص فيها كل الحرص على تنفيذ تعاليم الديانة السمحة باعتباره سيف الله الذي لا يفل ويركز في مدحه

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٨.

(٢) الأغاني ـ دار الكتب الثاني عشر ص٧٠.

على صفات البطولة والإشادة بأصله ونسبه فيزيد الممتدح هو خير الناس وأولاهم بالرياسة وعرش الخلافة. يقول[١]:

إنـك يـا يـزيـد يـا ابـن الأفـحـل ... إذا زلـــزل الأقـــوام لـــم تـــزلـــزل
عـن ديـن مـوسـى والـرسـول الـمـرسـل ... إذ طـار بـالـنـاس قـلـوب الـضـلـل
قـتـلاً وإضـراراً بـمـن لـم يـقـتـل ... وكـنـت سـيـف الله لـم يـفـلـل
يـفـرع أحـيـانـاً وحـيـنـاً يـخـتـلـي ... سـوالـف الـعـاديـن هـذ الـعـنـصـل

إن العجاج يصرح علانية وبمنتهى الحذق السياسي في وجه خصوم الدولة السياسيين الذين يرون في الأمويين مغتصبين وجائرين في السلطة، بأنهم حكام عدل يسيرون بالناس سيرة حسنة وعلى خطى موسى والرسول من الحكمة ويهتف عالياً مخاطباً، بأن يزيد رمز للقوة الإلهية التي لا يستطيع أحد الوقوف في وجهها. فهو يقاتل دفاعاً عن كتاب الله، دفاعاً عن الحق المنزل، إنه يربط بين روح السياسة الأموية وما رافقها من مآس ومعطيات الحياة الواقعية الجديدة المستمدة من واقع الدين الإسلامي ليزيدها وضوحاً واستقراراً في الأنفس. وليخنق أصوات النقمة والسخط التي ارتفعت منددة بهم، فهو يحث الناس على قبول دولته والإنصياع لأوامره، إذ لا مرد لذلك لأن كلمة الله ستنفذ لا محالة ولأن الحق سينتصر، والظلم سيندحر. ولذلك جاء عمل يزيد من أجل الإسلام وإعلاء كلمته فشاعت في قصيدته الألفاظ الإسلامية وسيطرت عليها العاطفة الدينية.

ويحرص الأخطل في دفاعه عن الأمويين على إثبات حقهم وإحقاق إرثهم. فهو يصر ويؤكد في جعل الخلافة حقاً لهم من حقوقهم الوراثية وذلك بتركيزه على المصالح المادية والمعنوية التي تجنيها قريش عامة من جراء خلافة يزيد. يقول[٢]:

فـأصـبـحـت مـولاهـا، مـن الـنـاس بـعـده ... وأحـرى قـريـش أن يـهـاب، ويـحـمـدا

ويبدو الأمويون أكثر حضوراً في قصيدة فضالة بن شريك الذي أطنب القول فيهم، وجعل ليزيد أمجاداً تليدة. وقد خصهم الله بالكرم والطموح والعصمة وحسن الإيمان. وتنجلي بطولاتهم عندما أوغل ذلك الشاعر بإضفاء الصفة الإنسانية السامية،

---

(١) ديوان العجاج، الجزء الأول، ص٢٥١.
(٢) الأخطل التغلبي ـ شعر الأخطل، الجزء الأول، ص٣٠٩.

إذ جعل قوتهم قوة عاملة تمكن للحق وتشهد له ويركز فضالة حديثه على معاوية الخليفة الكامل المثالي، وقد اتخذه الله أميناً له وخليلاً وسنداً، لإحقاق الحق، وزهق الباطل، ثم يغالي في الحديث عن تلك الشجرة السفيانية الصلبة، الرفيعة الحسب والنسب، ونراه يبالغ حين يجعل قريشاً أفضل الناس، والسفيانيين أفضل قريش، وكذا القول بالنسبة إلى أبي سفيان وحرب. يقول[١]:

إذا ما قريش فاخرت بقديمها ... فخرت بمجد يا يزيد تليد

بمجد أمير المؤمنين ولم يزل ... أبوك أمين الله غير بليد

به عصم الله الأنام من الردى ... وأدرك تبلا من معاشر صيد

ومجد أبي سفيان ذي الباع والندى ... وحرب وما حرب العلا بزهيد

فمن ذا الذي إن عدد الشعراء مجدهم ... يجيء بمجد مثل مجد يزيد

فالشعراء هنا ينوهون على ضرورة جعل الرئاسة وراثية وفي سلالة السفيانيين فقط، كما حدث أن استلمها يزيد من والده. وهذه الحقوق المتوارثة حملت معاوية على الأخذ بالمبدأ الوراثي في انتقال السلطة حين سن قاعدة ولاية العهد لابنه يزيد من بعده، تلك الآراء السفيانية الجديدة والمغايرة للعرف العربي أدت إلى انحسار المفاهيم الدينية السائدة وسيطرة العائلة السفيانية على مجريات الأمور عندما لجأ عمداً إلى الإطاحة بالخلافة الدينية وتعيين ولاية العهد.

القول بولاية العهد

لقد أدرك معاوية أن لا شيء يهدد جبهته الداخلية ويدعم موقفه السياسي والعسكري ، سوى تمسكه بالخلافة. فكان لا بد من أن يوطىء لأمر هام يعلنه في حينه، فراح يعد له بأن أوضح رأيه الصريح من مسألة الشورى إذ قال لابن الحصين«أنا أخبرك أنه لم يشتت بين المسلمين ولا فرق أهواءهم إلا الشورى التي جعلها عمر لستة نفر. . . . فلم يكن منهم رجل إلا رجاها لنفسه ورجاها له قومه. . . ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك اختلاف[٢].

(١) الأصفهاني ـ الأغاني ـ دار الكتب، الجزء الثاني عشر، ص٧٤.

(٢) عباس محمود العقاد ـ عثمان بن عفان ص٢٢.

فهذا الطعن الظاهري في مسألة الخلافة وكيفية اختيارها حملت معاوية على الاستعانة بالشعر، وخصوصاً حين لمس إنكاراً شديداً من المعارضين لولاية يزيد كعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم، فأوعز إلى مسكين الدارمي أن يقول أبياتاً في معنى المبايعة ليزيد وينشده إياها في مجلسه وهو حافل بوجوه الأشراف من أهل دولته. وشكلت هذه الأبيات أولى الخطوات العملية في طريق المبايعة ونقل الفكرة من أروقة البلاط الأموي إلى الرأي العام، قال مسكين[1]:

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد

بني خلفاء الله مهلاً فإنما ... يُبُوئها الرحمن حيث يريد

إذا المنبر الغربي خلاه ربه ... فإن أمير المؤمنين يزيد

فلما فرغ من إنشاده قال معاوية: ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله.

وهكذا استخدم معاوية الشعر كجزء من حملة استهدفت ترشيح ابنه يزيد لولاية العهد بعده، وبه تم الإعلان عن مسوغات هذا الترشيح التي لم تكن مألوفة، ولم يجرؤ أحد على أن يطرحها من قبل. ودخل الشعراء في هذا المنزلق بين مؤيد ومعارض. فهذا الوليد بن عتبة يخطب في جامع المدينة وكان واليها لمعاوية ينعى الخليفة الراحل ويدعو إلى بيعة يزيد. فلما رأى روح بن زنباع إبطاءهم قال[2]: «أيها الناس إنا لا ندعوكم إلى لخم وجذام وكلب، ولكنا ندعوكم إلى قريش ومن جعل الله له هذا الأمر واختصه به، وهو يزيد بن معاوية. ونحن أبناء الطعن والطاعون، وفضلات الموت. . . . وعندنا إن أحببتم وأطعتم من المعونة والعائذة ما شئتم؛ فبايع الناس.

إنه يقيم أساس المبايعة ليزيد على أحقيته لها. لا لأنها إرثه التليد بل لكونه قريشيا. تلك القبيلة التي خصها الله بالفضل دون غيرها من سائر القبائل كلخم وجذام وكلب. إنه يقيم خطبته على مبدأي التهديد والترغيب، واستعمل قوارص الكلام في إرهاب الممتنعين وزجر من تسول له نفسه بالمعارضة. أما الترغيب

---

(١) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الأول، ص٢٤٦.
البصري ـ الحماسة البصرية، الجزء الأول ص١٧٩.

(٢) الجاحظ ـ البيان والتبين، الجزء الأول، ص٣٩٢.

فيتصف بالصفة الاستبدادية. حيث يعلن أنه سيجزل العطاء لكل مؤيد في أمر مبايعة يزيد بن معاوية الذي خصه الله بالأمر دون غيره، وليس لأمر الله من مرد. إنه بارع الحيلة في إذكاء نار التأييد وترويج البيعة.

وكان يزيد يجمع إلى جانب تلك المزايا سمات الشخصية العربية المتمسكة بعاداتها وتقاليدها فهو صاحب نجدة ونخوة وجوارٍ يحمي من يلجأ إليه ويغيث من يستجير به. إنه ينصف المظلوم تبعاً للتقاليد العربية العريقة. يقول الأخطل[1]:

أبا خالدٍ، دافعت عني عظيمة ... وأدركت لحمي، قبل أن يتبددا
وأطفأت عني نار نعمان بعد ما ... أغذ لأمر، عاجزٍ، وتجردا
أخا ثقة، لا يحتويه ثويّه ... ولا نائياً عنه، إذا ما تودّدا

وهذا ما أثبته يزيد في إجابته للأخطل على إجازته له. يقول[2]:

دعا الأخطل الملهوف بالشر دعوة ... فإني مجيب كنت لما دعانيا
ففرج عنه مشهد القوم مشهدي ... وألسنة الواشين عنه لسانيا

وطرح عبد الله بن همام السلولي الطرح نفسه وهو أول من جمع بين التهنئة والتعزية في موضع. قالوا لما مات معاوية، اجتمع الناس بباب يزيد فلم يقدر أحد على الجمع بين التهنئة والتعزية، حتى أتى عبد الله بن[3] همام السلولي، فدخل فقال: أيا أمير المؤمنين آجرك الله على الرزية، وبارك لك في المطية وأعانك على الرعية، فقد رُزئت عظيماً وأعطيت جسيماً، فأشكر الله على أنك أعطيت واصبر على ما رزئت فقد فقدت خليفة الله وأعطيت خلافة الله، ففارقت جليلاً ووهبت جزيلاً إذ قضى معاوية نحبه ووليت الرياسة وأعطيت السياسة، فأورده الله موارد السرور، ووفقك لصالح الأمور. وأنشد يقول[4]:

فاصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة ... واشكر حباء الذي بالملك أصفاكا

---

(١) الأخطل ـ شعر الأخطل ـ الجزء اول، ص٣٠٦.
(٢) جبرائيل جبور، الملوك الشعراء، ص٣٥.
(٣) نقائض جرير والأخطل، ص١.
(٤) ابن رشيق القيرواني، العمدة الجزء الثاني، ص١٥٥. ـ ابن عبد ربه ـ العقد الفريد، الجزء الثالث، ص٣٠٨. الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الثاني، ص١٣٢. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، الجزء الثاني، ص٥٤٦.

لا رزء أصبح في الأقوام نعلمه كما رزئت ولا عقبى كعقباكا
أصبحت والي أمر الناس كلهم فأنت ترعاهم والله يرعاكا
وفي معاوية الباقي لنا خلف إذا نُعيت، ولا نسمع بمنعاكا

فالسلولي هنا يعلن مبايعته صراحة أثناء تقديم التعزية كما يسوغ للمبدأ الذي أعلنه معاوية في استمرارية حقه بالسلطة عن طريق الوراثة والمبايعة لابنه. ونحن ندري الأسباب من وراء هذا التصعيد في التأييد المنقطع للبيت السفياني على لسان السلولي في ظرف كثر فيه المحتشدون المعزون بوفاة معاوية. إنه يضع في رأس اهتماماته مسألة الخلافة فيقطع الطريق على كافة المتطلعين إليها بأن رسم لها منهجاً معيناً وحدد لها قاعدة تسير عليها إذ لفت انتباه يزيد إلى سنة والده معاوية في اعتبار ولده معاوية خير الخلف له «ليزيد» فكأن هذا الأمر أصبح شيئاً موروثاً ووقفاً على بيتهم وعلى أبنائهم. فالخلافة أضحت ملكية لا شورية مع ما في ذلك من مخالفة مبدئية لروح الشريعة الإسلامية، ولأوامر الرسول، علماً بأنه أضفى على خلافة يزيد مسحة قدسية تمثلت في طائفة من المفردات الدينية منها: خليفة الله. خلافة الله. راعي أهل الدين. الله يرعاك. وكان قد سبقه في هذا المعنى عطاء بن أبي صيفي الثقفي، الذي عزى يزيد بن معاوية بأبيه وهنأه بالخلافة، وركز في تهنئته له على رسم صورة حية لتقوى الأمويين وصلاحهم كما يحتج لهم. ويتحدّث عن خلافتهم بأنها عطية من الله الذي خولهم سلطاناً وملكهم أموالاً حتى يسوسوا الرعية وغيرها من المعاني التي يهنىء بها الخليفة ثم يدعو له بتخليد بيت الملك في سلالته. ويمتاز أسلوبه بشدة الإقناع وروعة التأثير، نظراً لما يضفيه على خلافتهم من أوصاف دينية تبين صلاحية أبنائهم لقيادة الأمة. ولننظر إلى هذه الأوصاف التي تتشح ببردة الدين وتصطبغ بصبغته للتأثير على النفوس. «أصبحت، رزئت، خليفة وأعطيت خلافة الله. قضى معاوية نحبه، فغفر الله ذنبه، ووليت الرياسة، كنت أحق بالسياسة، فاحتسب عبد الله أعظم الرزية واشكر الله على أعظم العطية. وعظم الله في أمير المؤمنين أجرك وأحسن على الخلافة عونك».

وهكذا استقطبت ولاية يزيد بعض الإجماع من رجال دولته وهذا يحملنا على القول إن الفراغ السياسي الذي كان مألوفاً حينذاك عقب وفاة الخليفة لم يعد موجوداً واستطاع يزيد أن يثبت في وجه كل التحديات التي أسفرت عن انهيار وحدة الدولة

الإسلامية، وشرذمتها إلى كتل متناحرة لجأت إلى الصراع المسلح لفض مشاكلها السياسية. وعلت الصيحات مندّدة باعتماد مبدأ ولاية العهد، إذ اعتبرته نظاماً مستورداً من أنظمة الأمم المغلوبة التي كانت سائدة آنذاك. فهذا عبد الرحمن بن أبي بكر يخاطب بني أمية فيقول:

«أردتم أن تجعلوها قيصرية كلما مات قيصر قام قيصر»[١]. ثم كانت سياسة يزيد في إرغام أبناء كبار الصحابة على البيعة وإذكاء نار العصبية بين القبائل ليصرفها عن المطالبة بالخلافة، فإذا بالفتن تتجد وشعراء الأطراف يصولون ويجولون بسلاح الشعر قبل سلاح الحرب.

وركز شعراء البيت الأموي على مسألة الوراثة في الخلافة مع التمسك بمبدأ[٢] البيعة الذي بواسطته أقام النبي محمد رابطة تلزم المؤمنين الأولين تجاه شخصه وتجاه الإسلام.

وكان هم الأمويين يتمثل في اعتراف الناس بشرعية خلفائهم، فإنهم جيشوا الشعراء في إعلان شأن هذا التأييد واستندوا إلى مقتل عثمان وزعموا أن الأمويين هم وارثوه الحقيقيون، ولهم وحدهم الحق بأن يطالبوا بدمه. وركزوا حملتهم على جعل الخلافة إرثاً أموياً خالصا؛ ومزجوا فكرة العصبية بفكرة الدولة، وأصبح حق الخلفاء في توريث الخلافة أبناءهم حقاً معترفاً به. فهذا عبد الله بن مازن يدخل على يزيد مسلماً عليه وهو لا يدري أيهنئه أم يعزيه. يقول[٣]:

«السلام عليك يا أمير المؤمنين، رزئت خير الآباء وسميت خير الأسماء ومنحت أفضل الأشياء. فهنأك الله بالعطية وأعانك على الرعية، فقد أصبحت قريش مفجوعة بفقد سائسها، مسرورة بما أمن الله إليها من الخلافة بك والعقبى من بعده. ثم أنشأ يقول:

الله أعطاك التي لا فوقها	وقد أراد الملحدون عوقها
عنك فيأبى الله إلا سوقها	إليك حتى قلدوك طوقها

(١) ابن قتيبة ـ عيون الأخبار، الجزء الثالث، ص٦٨.
(٢) المسعودي ـ مروج الذهب، الجزء الثالث، ص٧٥.
(٣) المصدر نفسه.

وهكذا أثبت عبد الله هنا رأيه بشأن مسألة الخلافة، فهو يجد في قرشية يزيد شرعية مطلقة لتسلمه زمام الأمور.

وفي مسألة انتقال الإرث والخلافة ووضوح السيادة القرشية راح الشعراء يكثرون القول لتثبيت هذه القاعدة الجديدة في انطلاق الخلافة. ونظر إلى هذا المبدأ كمفهوم سياسي قامت على أساسه جبهة قوية مؤيدة للسفيانيين، تؤثر حصر الخلافة في أبنائهم، ولنستمع إلى علي بن الغدير الغنوي في معاوية بن يزيد[1]:

أعاض الله أهل الدين منكم ... ورد لنا خلافتكم جديدا
تلقفها يزيد عن أبيه ... فدونكما معاوي عن يزيدا
أديروها بني حرب عليكم ... ولا ترموا بها الغرض البعيدا
فإن دنياكم بكم اطمأنت ... فأولوا أهلها خلقاً شديدا
وإن عصفت عليكم فاعصبوها ... عصابا تستردبه شديدا!

الشاعر هنا يندفع في مدحه حتى حدود الهوس، فيمتاز شعره بكثرة صبغ التقرير التي أخفت على الأمويين مزايا التدين إلى جانب قوتهم العسكرية الجبارة التي تقف بالمرصاد لكل من يتربص بخلافتهم، وبذلك فهو يطبع خلافتهم بعصبية سفيانية لا تختلف عن عصبية والده في الجاهلية فيخصهم بالخلافة ويقرر أن الله قد اصطفاهم على سائر العالمين. ونظراً لما يتمتعون به من صفات السيادة يعمد إلى تحذير الأمويين من ضياع ملكهم، فيدعوهم إلى التمسك بها وكبح جماح أعدائهم. هذا إلى جانب اعترافه بشرعية خلافة معاوية بن يزيد عقب والده وذلك لأخلاقهم الرفيعة ولآرائهم السديدة المحكمة التي تدل على عقل واع حصيف.

وكان طبيعياً أن تلاقي الدولة الأموية التي نشأت في أعقاب حرب أهلية طويلة، نقمة عارمة. وإذا استطاع معاوية أن يمتص نقمة المعارضين الدفينة تارةً بالعطاء وطوراً بالولاية، غير أن عمله المخالف للعهود بشأن ولاية العهد، وإيثار ابنه يزيد بالعهود دون سواه، هذه النتيجة الحتمية التي أضحت الخلافة معها تكرسها قرابة الدم، قد أبعدتها عن الشورى وركزتها على مبدأ الوراثة التي تنطلق منه وتمتد

---

(١) أبو تمام: نقائض جرير واخطل، ص٢.

عليه، وبه أمنت للبيت السفياني أحقية في السلطة، وهي من حيث المبدأ موصولة بالحق، وقد سوّغ ابن خلدون هذا الحق بطريقته الواقعية «وهو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية. إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم»[١]. وهكذا حفظ التراث في بني أمية على حساب وحدة الجماعة الإسلامية التي صارت إلى الفرقة والاختلاف، ورأت في الخروج على يزيد ونقض بيعته منه إثارة للفتنة. أضف إلى ما تسببه من كثرة القتل نظراً لمخالفته لأصول الشرع.

غير أن شعراء البيت الأموي راحوا يركزون على ناحية مهمة وهي أن مسألة الخلافة أو الإمامة هي من المصالح القدسية ومن أركان الدين، يستخلف عليها الله من يراه مناسباً وقادراً على سياسة الرعية، ومانعاً للفرقة وخصوصاً ما دام معلقاً ومهتماً بأمر الدين وإقامة حدوده، وجهاد المشركين لدرجة كانوا يعتبرونه المهدي الذي يجير من الظلم. إنه المهدي القائم الذي يبطش بكل من تسول له نفسه بتخطي حدود الشريعة، فالمسلمون طائعون له راضون عن حكمه، لأنه استطاع أن يقر الأمن والعدل، فعهده عهد الرخاء والاستقرار، وخلافته خلافة دينية، وبيعته واجبة حفاظاً على عدم افتراق الكلمة وتفرق الجماعة. وأضحى الخليفة في نظر مؤيديه وخصوصاً السنة، الرئيس الزمني لجماعة المسلمين وهو أمير المؤمنين وحامي الشريعة وهي لا تخصه بسلطة روحية علماً أن بعض نصوص السنة المتأخرة قد نسبت العصمة من الإثم والخطأ إلى الأنبياء دون سواهم[٢].

ولاة السفيانيين أئمة عدل

وتناول الشعر أيضاً الولاة باعتبارهم رجال الدولة وعلى سواعدهم قامت وارتكزت، وبفضل جهودهم تمكنت من القضاء على خصومها. فهذا حارث بدر يمدح زياداً بأنه إمام عدل واستقامة وحزم. وأن نصره يأتيه من الله لكونه يقيم حدود الله ولا يقطعها ولا يدع أحداً يتجاوزها، ولو اضطر ذلك إلى امتشاق السيف. يقول[٣]:

(١) ابن خلدون ـ المقمدة، ص٢١٠.

(٢) فيليب حتى ـ تاريخ سورية الجزء الثاني، ص١١٩.

(٣) البلاذري ـ أنساب الأ(c)راف، القسم الرابع، الجزء الأول، ص٢١٧.

ألا مــن مــبــلــغ عــنــي زيــاداً فــنــعــم أخــو الــخــلــيــفــة والأمــيــر
فــأنــت إمــام مــعــدلــة وقــصــد وحــزم حــيــن تــحــضــرك الأمــور
أخــوك خــلــيــفــة الله بــن حــرب وأنــت وزيــره نــعــم الــوزيــر
بــأمــر الله مــنــصــور مــعــان إذا جــار الــرعــيــة لا تــجــور

وأخلص هؤلاء الولاة للأمويين، وعملوا على رفع شأن خلفائهم وإنزالهم منزلة عُليا، إذ التزموا في أفعالهم وأقوالهم سياسة الحزب الأموي عن وعي وعن قصد واعتبروا الخلافة حقاً من حقوقهم الإلهية المقدسة ليس لأحد أي حق في منازعتهم. كما أن طاعتهم واجبة ونصرتهم محتمة، وهذا ما صورته خطبة زياد حين ولاه معاوية البصرة، وهي الخطبة الموسومة بالبتراء.

يقول[1]: «أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا. عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا. فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا... وادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤيدون وكهفكم إليه تأوون».

وأوضح أن زياداً يقول في صراحة إن معاوية وولاته خلفاء الله في الأرض فهم يسوسون الناس بسلطاته ويذودون عنهم بفيئة أو هم بعبارة أخرى أصحاب الحق الإلهي في هذه السياسة، وتلك الحكومة التي يحكمون بها الناس. معلناً أن الحكومة المركزية هي المسؤولة عن راحة المواطنين وليس لهم الحق في مناقشة القضايا المطروحة، وهي التي تتحمل مسألة الأمن الداخلي ومعاقبة المجرمين وملاحقة الفارين، وليس لغيرها الحق في تحمل تلك الأعباء، «إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة». فهو يعمل إلى وضع قانون عام للدولة حين ركز كلامه على حق الدولة في إحقاق الحق ومعاقبة المجرم وفقاً لنظام دنيوي واضح.

فخطبة زياد تدور حول السياسة الداخلية للدولة، محاولاً امتصاص النقمة الشعبية راسماً الخطوط العريضة لتلك السياسة. نافخاً في آذان الناس المناوئين المتمردين، مقومات تلك السياسة المرتكزة على بعض الأسس الدينية طالباً إليهم

(١) الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك، الجزء السادس، ص١٢٦. التوحيدي ـ البصائر والذاخائر المجلد الرابع، ص٥٥٥.

الهدوء والسكينة، وترك الاضطرابات، واعداً إياهم بأن يده لن تمتد بسوءٍ إلى الآمنين المسالمين طالباً إليهم التسليم والإذعان لأوامر الله. ثم ينعطف إلى عرض العلاقة المتبادلة بين الحكومة والشعب، معلناً أن العدل والعطاء تقررهما طبيعة تلك العلاقة. «فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل والإنصاف».

ويقرر أن عمله هو تطبيق الشريعة، وبذلك ينفي عن نفسه صفة الإستبداد والحكم الفردي. لا ريب أن الناس قد ضاقوا بخطبة زياد نظراً لما عرضته عليهم من أشياء لم يألفوها ووجب عليهم الخروج من الإطار القبلي إلى إطار الدولة في مفهوم جديد، حيث تنحسر معه العداوات وتمحى الروح القبلية القائمة على العداء والتناحر.

إن في استعادة ذلك تأثيراً على سلامة الدولة ووحدتها. فهو يعرض عليهم بطريقة مباشرة المال واقتسام الغنائم ولكن للمطيعين منهم. غير أن الترهيب وهو الطابع العام للخطبة لتصميمه على معالجة مشكلات المجتمع بدون تردد أو إحجام. وإلى إقرار الخلافة في البيت السفياني استناداً إلى هذا المعنى قصد يزيد بن مفرغ الحميري، وذلك عندما أطلقه يزيد من السجن فمدحه بقصيدة جميلة تترقرق فيها دموع الفرح والعرفان. يقول[1]:

عدَسُ ما لعبَّاد عليك إمارة ... نجوت وهذا تحملين طليق
لعمري لقد نجاك من هوة الردى ... إمام وحبل للأنام وثيق
فإن تطرقي باب الإمام فإنني ... لكل كريم ماجد لطروق
سأشكر ما أوليت من حسن نعمة ... ومثلي بشكر المنعمين حقيق

وكان ذلك بعد أن شهد عمر بن عبيد الله بن معمر القرشي أمام الخليفة يزيد نفسه إذ قال[2]: «يا أمير المؤمنين أن ابن مفرغ طالما ناضل عن عرضك وعرض أبيك وعرض قومك ورمى عن حجرة أهلك».

وأجمع شعراء الحزب الأموي في الإحتجاج على أحقية الأمويين بالخلافة وعلى أهليتهم لها وجدارتهم بها، بأنهم أهل السيادة والرياسة، كما أغدقوا عليهم

---

(١) يزيد بن مفرغ الحميري ـ ديوان يزيد، ص١٧٠.
(٢) عبد القدوس أبو صالح ـ يزيد بن مفرغ، حياته وشعره، ص١٢٣. شعر ابن مفرغ الحميري ص١١٥.

من الأوصاف والمزايا ما يميزهم عن غيرهم، وبما يلائم مكانتهم، خصوصاً لكونهم أئمة المسلمين وغوث المتصرفين.

فالأخطل شاعر السياسة الأموية يصفهم بأحسن الصفات التي توصف بها الملوك. في مدحه لأبي سليمان عبد الله بن معاوية في خلافة أبيه يشيد بأصله ونسبه، كما يصفه ويصف قومه بأفضل ما يوصف به العربي الكريم كالإقدام والكرم والسخاء والحلم والمهارة وغيرها من المفاخر. يقول[1]:

لأحبِّرن، لابن الخليفة مِدْحة ... ولأقذفن بها إلى الأمصار
قرم، تمهل في أمية، لم يكن ... فيها بذي أُبنٍ، ولا خوار
جُهَرَاء بالمعروف، حين تراهم، ... حكماء، غير تنابل أشرار
قوم، إذا بسط الأله ربيعهم ... جاءت رحاه بمسبل، درار

وفي مثل هذا المعنى ساق عبد الله بن همام السلولي مدائحه إذ أشار بإعلاء شأن الأمويين وركز على خلافة يزيد الذي أصبح حامي الدين والمؤمنين معاً. وهو بذلك يعلن أن معدن الخلافة لا تصلح إلا عليه، لذلك اختاره الله إماماً للمؤمنين. يقول[2]:

أصبحت راعي أهل الدين كلهم ... فأنت ترعاهم والله يرعاكا

وراح العجاج ينفخ بأبواق الدعاية للأمويين في قصيدة مدح بها يزيد بن معاوية. مشدداً على المفهوم الديني للخلافة لكون يزيد خليفة الله على الأرض، وعمل على تمجيد سلطته الدينية بوصفه هو وقومه من الأفاضل الكرام فهم مقيمو العدل ولا يحيدون عن كتاب ولا عن إقامة الصلاة وتأدية الواجبات الدينية. يقول[3]:

دون يزيد الفضل وابن الأفضل ... خير الشباب وابن خير الكهل
أقومه عند غفول الغفل ... لله بالمئين والمفصل
وبالمثاني من كتاب منزل ... وفي الحقوق ذو قضاء فيصل

(١) الأخطل ـ شعر الأخطل، الجزء الثانيد ص٤١٣.
(٢) الجاحظ ـ البيان والتبيين، الجزء الثاني، ص١٣٢.
(٣) العجاج، الديوان ـ الجزء الأول ـ ص٢٤٩.

قـتـلاً وإضـراراً بـمـن لـم يـقـتـل ... وكـنـت سـيـف الله لـم يـفـلـل

وألح أعشى ربيعة في مدحه للسفيانيين على الإعتراف بخلافتهم متناولاً خصومهم «الطالبيين» مشنعاً بهم فجاء مديحه حافلاً بالعبارات الدعائية نظراً لعصبيته الأموية، بأن جعل رابع الخلفاء ابن صخر، وهو معاوية وابنه يزيد الخامس دون الإعتراف بخلافة علي. يقول[1]:

وَكَـانَ الـخَـلائِـفُ بَـعْـدَ الـرَّسُـو ... لِ لله كُـلُّـهُـمُ خَـاشِـعَـا

شَـهِـيـدَيْـنِ مِـن بَـعْـدِ صِـدِّيـقِـهِـمْ ... وَكَـانَ ابـنُ صَـخْـرٍ هُـو الـرَّابِـعَـا

وكَـانَ ابـنُـهُ بَـعْـدَه خَـامِـسـاً ... مـطـيـعـاً لـمـن قـبـلـه سـامـعـاً

وفي أقوال الأحوص أيضاً تجسيد لمعنى السيادة بأسمى صورها ومعانيها، وفيها إشادة بسياسة يزيد إذ أن الناس ينقادون إليه معلنين الولاء والطاعة راضين عن حكمه وملكه ملك قوة. إنه صاحب هيبة تدب الذعر في النفوس، فملوك الأرض خرت له ساجدة تؤدي الجزية المترتبة عليها معلنة الولاء والطاعة. يقول[2] في يزيد بن معاوية الذي انحسرت أمام لا مبالاته القيم الدينية وخصوصاً أثناء حقده على الأنصار:

مـلـك تـديـن لـه الـمـلـوك مـبـارك ... كـادت لـهـيـبـتـه الـجـبـال تـزول

تـجـبـى لـه بـلـخ ودجـلـة كـلـهـا ... ولـه الـفـرات مـا سـقـى والـنـيـل

ويرسم أبو العباس الأعمى «وهو السائب بن فروخ». وهو أحد شعراء بني أمية المقدمين في مدحهم والتشيع لهم، صورة كاملة عن الشخصية السفيانية الخطابية ويبلغ في ذلك درجة عالية من المبالغة. ويبعث فينا نشوة الإعجاب، ونحس ونحن نقرأ قصيدته فيهم، بدعوته الملحة لهم بالتشبث بملكهم وبإخلاصه لهم إذ أن أشعاره كثيرة في مدائحهم. يقول[3]:

خـطـبـاء عـلـى الـمـنـابـر فـرسـان ... عـلـيـهـا وقـالـة غـيـر خـرس

لا يـعـابـون صـامـتـيـن وإن قـالـوا ... أجـابـوا ولـم يـقـولـوا بـلـبـس

(١) الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ الجزء الثالث، ص٨٦.
(٢) الأحوص ـ الديوان ص١٦٦. وأحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسي، ص٢٥٣.
(٣) كارلو نالينو، تاريخ الآداب العربية، ص٢٣٢. ابن قيس الرقيات، الديوان، ص٥٨.

حلماء إذا الحلوم استخفت ... بوجوه مثل الدنانير ملس

وتمتاز معانيه بصدق الانفعال وشدة التأثير، إذ جعلهم أمراء البيان العربي ورأى فيهم مرايا تنعكس عليها فصاحة الأعراب، فهذه الإشادة الكلامية من شاعر له مكانته الأدبية لهي خير ما يقال في هذا المجال. إن معنى التفرد والسيادة الأدبية لم تلصق عادة بأشخاص ولم تكن يوماً وقفاً على بيت أو قبيلة. أو هكذا يصف الأعمى السفيانيين سادة للأدب بدون منازع. وتفضيل الشاعر لهذا التفوق لا يراد منه التشكيك بفصاحتهم، بل يشكل تكملة في حديث الفضائل والمكرمات السفيانية والمبالغة فيه.

ويبدو أن مسألة المنبر هي في غاية الأهمية، ونحن نعلم دور البيان في الوسط العربي، هذه المزية التي أحاطت شخصيتهم بأسمى الفضائل هي التي تحبب الناس إليهم. فهذا طحلاء يغوص في مدائحه لمعاوية، ويبدو أنه من المعجبين ببلاغته وفصاحته، إذ يمدحه بالجهارة وبجودة الخطبة. يقول[1]:

ركوب المنابر وثابها ... معن بخطبته مجهر

تريع إليه هوادي الكلام ... إذا ضل خطبته المهذر

فالأمويون هم حكام الأمور المستعصية، وإنهم يطلبون عند الشدة واحتدام الأمور. ولا تصلح الخلافة عند الأزمات إلا عليهم. فها هو العجاج يمدحهم بما تمدح الملوك عادة من الهيبة والوقار، إذ أبرز فيهم خلال الحلم المحمودة في موضع الحلم، ومزايا الإقدام في موضع الإقدام والوفاء في الشدة وتوخى العدل في القضاء. فمعاوية عنده أصبح مثلاً أعلى يضرب في علو الهمة ومخلصاً من الظلم، والواقع المرير الذي آلت إليه نفسه. يقول[2]:

في عاجل الأمر وأجلى للظلم ... وظاهر الإرسال واكتب بالقلم

إلى ابن حرب لا تجده كالبرم ... لا عاجز ولا جعد القدم

ولا قضيا بالقضاء المتهم ... في أمة سوسها بعد أمم

---

(١) الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ الجزء الأول، ص١٢٧.

(٢) العجاج ـ الديوان ـ الجزء الأول ص٣٤٠.

ويبدو أن الأمويين قد سلكوا سنة الرسول في كثير من أعمالهم وراحوا يتقربون من الناس بالحسنى وبالاقتداء بالرسول، وهذا ما حمل السيد بيكر على القول[١]: «بدا الأمويون في مسألة المنبر أكثر وفاء لمثال الرسول من سكان المدينة. لقد حفظوا للمنبر معناه القديم على اعتبار أنه مقر القاضي والوصي حيث يبقون جالسين، بينما الآخرون يظلون واقفين، وبعبارة أخرى: إن المحافظين الحقيقيين التلاميذ الأمناء لروح المعلم، كانوا هذه المرة الأمويين».

وهكذا فشعراء الحزب الأموي لم يذيعوا ولم يعلنوا مبادىء حزبهم ولا نشروا دعوته، بل اكتفوا بإيراد بعض المعاني المبتكرة التي تكشف الجوانب المتعددة من مزايا الشخصية السفيانية. إننا نحس في أقوالهم بالعفوية وعدم التكلف، مع التأنق في اختيار الألفاظ الرنانة دون الإسراف والغلو. كل ذلك في سبيل إثبات رياسة الخلافة في البيت السفياني. غير أن هذا لا يعني أن هؤلاء الشعراء ظلوا في منأى عن المناظرات والخصومات مع غيرهم من أحزاب المعارضة. فالأخطل مثلاً كان سباقاً إلى اعتماد مبدأ الحق الإلهي والاحتجاج على أساسه، فاتحاً بذلك مسرح الصراع السياسي مع غيرهم من الأحزاب المناوئة.

ولم يتوقف شعراء الحزب الأموي، وكتابه عند حد تعداد المناقب السفيانية بل تعدى ذلك إلى كشف خفايا النفس وإكسابها قوة وعزة وجمعوا لهم أخلاق الساسة المصلحين. يقول[٢] أبو الجهم العدوي في مدح معاوية:

نُقَلِّبُهُ لِنَخْبُرَ حالَتَيْهِ فَنَخْبُرَ مِنْهُما كَرَماً ولِينا
نَمِيلُ عَلى جَوانِبِهِ كَأَنَّا إذا مِلْنا نَمِيلُ عَلى أَبِينا

وكثر القول في ندى الخليفة معاوية، وابنه يزيد، وغدا هذا النمط من الأدب سيرتهما بين الناس فذاعت لهما فيه شهرة لا نظير لها، أضحيا معها محط الآمال وملقى طلاب الحاجة، فمعاوية عند ليلى الأخيلية هو المرتجى. تقول[٣]:

مُعاوِيَ لَم أَكَد آتِيكَ تَهوي بِرَحْلِي نَحوَ ساحَتِكَ الرِّكابُ

---

(١) LAMMENS Califie Omayade MOAWIA per. P.208.

(٢) الجاحظ ـ رسائل الجاحظ، ص٩٥. ابن قتيبة ـ عيون الأخبار ـ المجلد الأول، ص٢٨٤.

(٣) الأخيلية، ليلى، الديوان، ص٥١.

تـجُـوبُ الأرضَ نـحـوكَ مـا تـأنَـى إذا مـا الأكْـمُ قَـنَّـعـهـا الـسّـرابُ
وكـنـتَ الـمُـرتَـجـى وبِـكَ اسـتـغـاثَـت لـتـنـعـشَـهـا إذا بـخـل الـسـحـاب

وهكذا مجد الأمويون على ألسنة الشعراء بعد أن استوثقوا من الحكم وبيدهم مفاتيح المال. فتمكنوا وعن جدارة من كسب ود بعض الشعراء المناهضين الذين اضطرهم الأمر إلى هجو أحزابهم التي يؤثرون عقائدها دفعاً للعواقب وحرصاً على السلامة.

وإذا ما انتقلنا إلى الرثاء الذي هو ضرب من المديح ويقوم على تأبين الميت، فأبيات عبد الله بن الزبير الأسدي تتفجر أسى وحزناً وينساب فيها التفجع لحناً حزيناً، وخصوصاً تلك التي تصور نسوة آل حرب غافلات عن كل شيء وقد رماهن الدهر بسهام العمى. يقول[1]:

رمـى الـحـدثـان نـسـوة آل حـرب بـمـقـدار سـمـدن لـه سـمـودا
فـرد شـعـورهـن الـسـود بـيـضـا ورد وجـوهـهـن الـبـيـض سـودا
فـإنـك لـو رأيـت بـكـاء هـنـد ورمـلـة إذ تـصـكـان الـخـدودا
سـمـعـت بـكـاء بـاكـيـة وبـاك ابـان الـدهـر واحـدهـا الـفـقـيـدا

وتتصاعد الآهات من أعماق ابن عباس، ويصاب بصدمة حين أتاه نعي معاوية الخليفة، ويشطر الحزن قلبه. فيقف معلناً على الملأ فضائل معاوية محتجاً له بكلّ صراحة وعنف. إنه في الحقيقة لم يندب معاوية بل يمدحه أمام جمع من أصحابه يتعشون عنده ويأكل معهم. وقد رفع إلى فيه لقمة فألقاها وطرق هنيهة ثم قال[2]: «جبل تدكدك ثم مال بجميعه في البحر فاشتملت عليه الأبحر. لله در ابن هند، ما كان أجمل وجهه وأكرم خلقه وأعظم حلمه».

أما يزيد فيخاطب نفسه المنخذلة البائسة بتعجب ويتساءل كيف لم تبق في حالة اضطراب وقلق وانفعال وجداني على فقد والده حيث أمات معه الأمل والمجد كله. وقد ظن أن القدر يضطهده لذا يسابق الرياح للوقوف على الحقيقة، وينقلنا معه

(١) حبيب بن أوس الطائي ـ ديوان الحماسة ـ الجزء الثالث، ص٤.
(٢) الأغاني ٧/ ٢١٣.

بصدق وحرارة ليضعنا أمام مشهد أشد ألماً هم مشهد نواح رملة ابنة معاوية. يقول[١] حين أتاه رسول يخبره وهو بحوارين حين نقل معاوية، فجاءه وقد دفن، فلم يدخل منزله حتى أتى قبره فترحم عليه ودعا له ثم انصرف إلى منزله.

جاء البريد بقرطاس يخب به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعا

قلنا لك الويل ماذا في كتابكم ... قال الخليفة أمسى مثبتاً وجعاً

مادت بنا الأرض أو كادت تميد بنا ... كأن ما عز من أركانها انقلعا

لما وردت وباب القصر منطبق ... لصوت رملة هد القلب فانصدعا

وهكذا ينفطر قلوب نسوة آل حرب من وطأة الفجيعة فيندفعن وهن يبكين البطل الماجد الشهم ويعزين بعضهن البعض ويتقدمن من رملة وهي تتغطى بثياب الحزن، وخصوصاً في لامية الأحوص، يقول[٢] في مطلعها.

يا أيها الرجل الموكل بالصبا ... وصبا الكبير إذا صبا تضليل

ويبكي علي بن الغدير الغنوي في مرثيته لمعاوية بن يزيد حلمه وإخلاصه للرعية وحسن تدبيره وكرمه وارتفاعه عن سفاسف الأمور، فيصور عظم الفجيعة تصوير الشاعر الفنان، وقد أظهر الصلاح وأقام الحدود، والتزم طاعة الرحمن. وتعدى الرثاء عنده إلى نوع من الإشفاق على بني أمية، فيدعوهم إلى التعزي، ويسأل الله لهم الصبر والسلوان. ويندفع بعد ذلك متغنياً بمرثيه ذاكراً له مواقف كثيرة، تملأ القلوب إجلالاً واحتراماً، نحس ونحن نقرؤها بخلال الخير المحمودة وفعال الفضل المعدودة كلها في هذه الشخصية التي تعد فريدة نوعها. يقول[٣]:

تعزوا يا بني حرب بصبر ... فمن هذا الذي يرجو الخلودا

لعمر مناحهن ببطن جمع ... لقد جهزتم ميتاً فقيدا

لقد وارى قليبكم ثباتاً ... وحلماً لا كفاء له وجودا

وجدناه بغيضاً في الأعادي ... حبيباً في رعيته حميدا

يجود لهم بما ملكت يداه ... ويغفر ذنبهم إلا الحدودا

---

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ لقسم الرباع، الجزء اول، ص١٥٤.

(٢) المرجع السابق، الجزء الأول، ص١٥٨.

(٣) حبيب بن أوس الطائي ـ نقائض جرير والأخطل ص١.

أميناً مؤمناً لم يقض أمراً فيوجد غيه إلا رشيدا
إماماً لا يجور كأن فينا به الصديق أو عمر الشهيدا
فقد أضحى العدو رخي بال وقد أمسى التقي له عميدا

وحرص الضحاك بن قيس وهو من المخلصين لبني أمية وأحد قوادهم على الوفاء بالجميل لأمير غمره بنعمه وأحله في المقام الرفيع فلما مات خرج حتى صعد المنبر وأكفان معاوية على يده فحمد الله وأثنى عليه ثم قال[1]:

«إن معاوية كان عود العرب وجدّ العرب، قطع الله به الفتنة وملكه على العباد، وفتح به البلاد. إلا أنه قد مات وهذه أكفانه ونحن مدرجوه فيها»...

والذي يسترعي انتباهنا في هذه الخطبة هو قصرها واقتصار مفرداتها على ذكر الله، ومعاوية والعرب، وفيها تركيز على دور معاوية في توحيد العرب وعلى تلك الصلة الحميمة بينه وبين الله. فبه قطع الله الفتنة وحال دون تمزيق الوحدة الإسلامية. إنها مع قصرها وافية بالغرض الذي يتمثل في تأبين معاوية وفيها إقرار بالواقع على أن الدوام لله وحده.

وعظم المداحون الموالون للأمويين في البيت السفياني الوفاء والكرم والشجاعة ونوهوا بمآثرهم الطيبة وبمزاياهم الدينية. فبهم تبدّد ظلام الضلالة وانتشر نور الهدى. فها هو الأخطل التغلبي يمعن في تعداد يزيد فيماثل أسلوب النابغة الذبياني في تعظيم قومه، وهول مصابه، ليعظم من خلاله الممدوح. يقول[2] في معرض مدحه ليزيد بن معاوية:

ولولا يزيد، ابن الملوك، وسيبه تجللت حدباراً من الشر أنكدا
أبا خالد، دافعت عني عظيمة وأدركت لحمي، قبل أن يتبدّدا

إن أولئك المداحين جعلوا من الأمويين أفضل قريش، وقريش أفضل الناس، وأحاطوهم بالمجد والسؤدد، وتركز امتداحهم حول أحقيتهم بالخلافة وشرعيتها فيهم. فهم لا يقاتلون طمعاً بها بل لإحقاق الحق وإفشال الباطل، علماً أنهم كانوا

---

(١) الطبري - تاريخ الأمم والملوك، الجزء السادس، ص١٨٢. ابن الأثير - الكامل في التاريخ، الجزء الرابع، ص٨.
(٢) شعر الأخطل، الجزء الأول، ص٣٠٥.

في قرارة أنفسهم يعتقدون أن ملك الأمويين لا يقوم على أي اساس ديني، لذا وصفوهم بالقدرة على سياسة الرعية والحلم والحنكة في تدبير شؤون الدولة وغيرها من مظاهر السيادة والشرف والأنفة والعظمة.

وقد سخروا كل الفضائل الخلقية والسياسية لمآرب أبناء البيت السفياني، كما حرصوا على مدحهم بالتدين باعتباره موضع النزاع بينهم وبين خصومهم، فجعلوا خلافتهم من الله، فهم أولياؤه وحراسه، فهذه الصفة الدينية القدسية كانت تشكل الركن الأساسي من أركان قيام الحزب الأموي، لذا خصها الشعراء بأوصاف ومعان مكرورة طغى عليها الجهاد في سبيل الدين وإقامة حدوده.

هجاء الخصوم

إن اضطراب الحياة السياسية نتيجة البدع التي أحدثها الأمويون على الساحة العربية، حملت الدارسين والنقاد على الحكم على الأمويين بأنهم سياسيون وأنهم طلاب دنيا وملك. وكان طبيعياً كما رأينا أن يدور شعرهم حول المديح بالصفات العامة، وأن يصور الواقع تصويراً جانبياً من وجهة نظر خاصة مؤيدة للبيت السفياني. وإزاء اختلال الموازين الإجتماعية واعتزاز الأمويين بأنفسهم ونظرتهم إلى سائر الناس علماً أنهم تبع لهم، عظم دور الشعر، وقوي فيه الجانب الهجائي، وتوسعت آفاقه وطال الأحزاب واتجاهاتها السياسية ودحض نظريتها ومبادئها في الخلافة. وصار الغرض منه متمثلاً في الذود عن فكرة سياسية والدفاع عن حزب سياسي والانتصار لنظام من أنظمة الحكم[١].

والهجاء كفن أدبي قوامه السخط والتحقير وهدم الفضائل، لم يتوقف استعماله في هذا الاتجاه فقط، بل راح المقذع منه نتيجة تأثر الأدب بواقع البيئة، ودخل الهجاء ميدان العمل السياسي حين هب المناوئون للأمويين من مختلف الأحزاب يهجونهم، وكان عليه أن يردع تلك الحملة المستعرة، فنما الهجاء وقوي فيه جانب الشر، وضعف الخير وذلك بخلاف ما جاء على لسان النبي محمد حين حد عقوبة الهجاء بقوله من قال في الإسلام هجاء مقذعاً فلسانه هدر[٢].

(١) طه حسين ـ من تاريخ الأدب العربي، الجزء الأول، ص٦٣٧.
(٢) ابن رشيق القيرواني ـ العمدة ـ الجوء الثاني، ص١٧٠.

ولعل ذلك مرده إلى دور الهجاء في بعث العصبية أضف إلى كونه منبع الانقسامات بين القبائل. وإذا حاول«الرئيس» الأموي معاوية أن يكسب الشعراء إلى صفه، كأن يعني أن يؤمن لنفسه سمعة حسنة وفي الوقت نفسه إلحاق القبائل به. وقد أفاد من صلات ابنه يزيد بجماعاتهم الصاخبة وألفته بها ليخرج موقفهم لمصلحة الأمويين وليبعدهم عن صداقة الأحزاب المعارضة. وقد دفع دون تقتير ثمن مدائحهم[١] وتحول الهجاء عند الشاعر الأموي إلى حرفة وصناعة وبدا كأثر واضح للخصومة السياسية. إذ غلبت عليه أساليب الجدل والمناقضة على أساس الدين والحكم والمناهج السياسية، وكان رجال كل حزب يمتدحون رجالاتهم ويهجون خصومهم في القصيدة الواحدة متأثرين في كل ذلك بروح الدين، وقد تركز الهجاء حول تكفير الخصوم المنكرين لإرادة الله، وكان يتبع ذلك استحضار للمثالب، كالجبن واللؤم والبخل والنكث بالوعود والعجز عن الثأر والأحكام الكاذبة والأقيسة الإجتماعية الفاسدة. فكانت غاية هذا الهجاء نشر فضائح الناس وإيثار المنكر وخبث البشر بحجة إصلاح المفاسد بالإستهزاء بها. واستناداً إلى ذلك كان هجاء الشعراء المؤيدين للبيت السفياني دفاعياً أكثر منه هجومياً مؤلما: يطعن في الفرد والقبيلة ويفند أقوال الأعداء ويبطل دعواهم، حاضاً على تأديب المشاغبين الثائرين على النظام القائم. ويقوم على أسس عصبية سياسية وإن لم تخل من عصبية قبلية نفعية. وسنحاول في الصفحات التالية تبيان إلى أي مدى استطاع أن يصل هذا الهجاء في مجال هتك القيم الشخصية والاجتماعية والمبادىء الأساسية لكافة الأحزاب المناوئة بغية ترجيح كفة بني أمية على حساب تضخيم الصفات المستقبحة عند الخصوم وإلحاق الأذى والشتائم بهم، حتى يتسنى للناس معرفة أهل الفضل، فيقتربوا منهم، وينفروا من أهل السوء والبدع، فيبتعدوا عنهم. كل ذلك في إطار من الموازنة اللطيفة التي تؤثر الأمويين لما يتحلون به من المزايا الطيبة والخلال الحميدة.

ذم الأنصار

إن سياسة الرعب الأموي أدت إلى وجود إقطاعية قرشية تختلف في استئثار قريش بالسلطة. وكان الأنصار في طليعة المتضررين من تلك السياسة الأموية، التي

---

(١) BI. T. III P.661.

ألحقت بهم هزائم متعددة إذ أبعدتهم عن المشاركة السياسية ومكنت الأمويين من السيطرة على مختلف وظائف الدولة. وجال الشعراء المؤيدون في هذا المجال، فأصبحت القصيدة الأموية معرضاً سياسياً لمواقف القبائل من السلطة القائمة.

وحين دخل يزيد في نزاع مع الأنصار نراه يكشف عن باطنه بأن يحمي علانية الهجائي المسيحي «الأخطل». فشاعره التغلبي حين طلب منه قائلاً له أهجهم، فقال الأخطل: كيف أصنع بمكانتهم وسابقتهم في الإسلام، أخافهم على نفسي[١]. فقال يزيد: لك ذمة أمير المؤمنين وذمتي. وما هذا الحث على الهجاء والرغبة الملحة إلا نتيجة حزازات قديمة كانت بين الأنصار والأمويين بسبب وقوفهم أثناء حربهم في صف علي، وقبل الإسلام بجانب الرسول يوم كانت قريش على الشرك.

ونظم الأخطل في هجائهم قصيدته مدفوعاً بفكرة سياسية، وفيها شنع بأفعالهم وتتبع سقطاتهم، وعيرهم بخبث أخلاقهم ومنافاتها للدين حين وصفهم بمعاقرة الدنيء من الخمرة. وراح يلتمس السبل للظهور بهم بمظهر الإفحاش فذمهم بضعة نسبهم وحقرهم لإقامتهم بجانب عصابة اليهود، وذلك ليقلل من المكانة التي اكتسبوها بمناصرتهم للدين الجديد. ثم انتقل من هجومهم إلى مدح الأمويين وإعلاء شأنهم وإقراره بأن الخلافة حق ثابت من حقوقهم بدليل اجتماع الفضائل والمكارم فيهم. يقول[٢]:

لعن الإله، من اليهود، عصابة ... بالجزع، بين جليجل، وصرار
قوم، إذا هدر العصير رأيتهم ... حمراً عيونهم من المسطار
ذهبت قريش بالمكارم والعلى ... واللؤم تحت عمائم الأنصار
فذروا المكارم، لستم من أهلها ... وخذوا مساحيكم، بني النجار
إن الفوارس يعرفون ظهوركم ... أولاد كل مفسح أكار
وإذا نسبت ابن الفريعة خلته ... كالجحش بين حمارة وحمار

إنه لا شك ينسب المجد كله إلى قريش، ويمحو عن الأنصار كل أثر من آثار الفروسيّة والمحامد الخلقية. معيراً إياهم بامتطائهم الحمير وفرارهم من الحروب

(١) شوقي ضيف ـ تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي، ص٢٥٩.
(٢) الأخطل ـ شعر الأخطل، الجوء الثاني، ص٤٨٣.

وتقصيرهم عن القيم المثالية وقد اعتبرهم أهل فلاحة وزراعة وهو ما تأنف العرب منه. ونراه وعن جدارة هجاء خبيث اللسان وقد أصبح منذئذ مشاركاً في الصراع بين السلطة وأعدائها، وبرع الأخطل في هذا الصراع وفي إظهاره مهارة خارقة، في مسايرة السياسة المتموجة التي كان يتبعها الخلفاء الأمويون بين اليمنيين والقيسيين، وإقامة تمييز انتهازي بين القيسيين الذين كانت مكانتهم وسلطاتهم تقتضي أن يظلوا بعيدين عن هجاء الأخطل[١].

وإذ كانت خلافة معاوية قد شكلت انتصاراً للبيت السفياني تتوج بتوريث ولده يزيد، فالأمر أدى إلى إبعاد الأنصار نهائياً عن مراكز النفوذ في الدولة. وقد جمعتهم المصيبة مع بني هاشم فتعاطفوا معهم وتميز موقفهم آنذاك بالتبعية وبالعداء مع الأمويين مع أنهم يمنيون.

والمرجح أن سبب الخصومة يعود إلى العداوة القديمة بين مكة والمدينة ولكن نظراً لمكانتهم الدينية راح الأمويون يصانعونهم ويدارونهم، غير أنه من المؤكد أننا لا نجد شيئاً من الود بين معاوية والأنصار. وعلى العكس نجد بغضاً واضحاً يضمره كلاهما للآخر[٢]، وهذا ما يتراءى لنا في موقف معاوية حين استقبل رهطاً منهم دخل عليه برئاسة سعيد بن عبد الرحمن بن حسان حيث راح يذكرهم بمواقفهم العدائية ومناصرتهم لأعدائه لاعتقادهم بحقوقهم الشرعية وبطلان الخلافة الأموية وخصوصاً أيام أحد وبدر وصفين، وعدم تحمسهم للثأر لعثمان. ويمعن في تعنيفهم بسبب معارضتهم الخفية والعلنية التي كانت من أسباب انعدام الثقة بينه وبينهم. قال[٣] سعيد بن عبد الرحمن بن حسان: إن رهطاً من الأنصار دخلوا على معاوية. . . فقال: يا معشر الأنصار، قريش خير لكم منكم لهم، فإن يكن ذلك لقتلي أحد، فقد قتلتم يوم بدر مثلهم وإن يكن لأمرة فوالله ما جعلتم لي إلى رحلتكم سبيلاً، خذلتم عثمان يوم الدار، وقتلتم أنصاره يوم الجمل، وحليتم بالأمر يوم صفين.

---

(١) راجيس بلاشير ـ تاريخ الأدب العربي، المجلد الثالث، ص١٩.
(٢) طه حسين ـ من تاريخ الأدب العربي ـ المجلد اول، ص١١٠.
(٣) أبو حيان التوحيدي ـ الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثالث ص١٦١.

إننا نستشف من هذه الخطبة أن الخصومة بين قريش والأنصار ما زالت مستعرة. ذلك أن القرشيين والمتمثلين بالأمويين ما زالوا يحقدون على من قتل ساداتهم في تلك المعارك. وقد حاول الأخطل جاهداً ترسيخ مكانة بني أمية، فدافع عن مصالحها وتغنى بأمجادها التليدة، واستمد من وقائع التاريخ الإسلامي تفهماً واضحاً لمقتضيات السياسة وفي طليعتها نظريتهم في السياسة القائمة على حقهم الإلهي المزعوم بالسلطة.

وفي انطلاقته هذه كان ينفخ من قناة معارضيهم فعرض بالأنصار مشيراً إلى مواقف خزيهم وعواقب عصيانهم، وذلك في إطار من الموازنة بين أخلاص تغلب وغبن قيس، مركزاً على عاطفة الولاء الصادقة التي يغذيها بإيمانه بحقوق الأمويين متباهياً بمشاركة قبيلته للبيت السفياني في إقرار حقوقه، يقول [١]:

بني أمية، قد ناضلت دونكم ... أبناء قوم، هم آووا، وهم نصروا
أفحمت عنكم بني النجار، قد علمت ... عليا معد، وكانوا طالما هدروا
بني أمية، إني ناصح لكم ... فلا يبيتن، فيكم، آمناً زفر
واتخذوه عدواً إن شاهده ... وما تغيب، من أخلاقه، دعر

فهو في مدحه هنا يعرج على ماضيه السعيد ودفاعه المجيد في سبل بني أمية. ويستشير ذكريات الحروب الماضية، فيبلغ منه الغضب حد الوحشية حين يشاهد الخليفة وهو يأمن لزعيم أعدائه الذي استباح دم جنده واتباعه بأنه ليخفي في نفسه الغل الدفين والحقد الكمين. وما كان ليجرؤ على قول ذلك إلا لإرضاء ممدوحه واستمالة سامعيه. وله فيهم قصيدة ثانية لا تتجاوز أبياتها الأربعة، أشار فيها إلى التناقض القائم بين البخل والبذل في الحج. وقد لجأ إلى صيغ التصغير كقوله[٢]:

أفيحج، من بني النجار، يضحي ... شديد القصريين من السحور

ولا يخفى على بال أحد ما كان لموقف معاوية اللين، ودهائه من أثر في نفوس أعدائه وخصوصاً الأنصار الذين ينحصر في عدم تنازلهم عن الامتيازات التي كانت لهم زمن الرسول كالعطاء من دون جهاد. فإنهم وإن تنازلوا عن نقمتهم

---

(١) شعر الأخطل ـ الجزء الأول ص٢٠٢.
(٢) شعر الأخطل ـ الجزء الثاني ص٤٨١.

المتأصلة ضد قرشية الخلافة فإنهم كانوا يعتقدون في قرارة أنفسهم أنهم لا يستطيعون أن يدخلوا مع معاوية في صراع مسلح، لذا تقبلوا على مضض حكمه وسياسته واستطاع معاوية أن يترضاهم ويمتص نقمتهم بأن قربهم من حكمه حين أسند إليهم بعض المناصب[١].

ذلك أن مصلحة الدولة تقتضي بعدم مضايقة هؤلاء المتمردين التقات بل التقرب منهم حتى يؤمن شرهم وكان دوماً يلاطفهم[٢]، ويضاحكهم ويردد على مسامعهم أن قوماً أولهم عثمان وآخرهم الأنصار لكرام. وهكذا كان معاوية حريصاً على ألا يثير الأنصار كما كان حريصاً على كسب رضا النعمان ودفع سخطه وغضبه.

وأميل إلى الاعتقاد أن هذه المكانة الرفيعة التي خص بها معاوية الأنصار كانت السبب وراء كبح جماع شعراء بني أمية في عدم الكيد منهم والتحرش بسادتهم اتقاء لشرهم وضناً بسلامتهم وجرهم كحلفاء للسلطة.

تكفير الخوارج

إن نشاط الخوارج[٣] السياسي والشعري كان مقصوراً على الشيعة والزبيريين ولقد بز سلطان الشيعة سلطانهم لذا أغفل المؤرخون الكثير من الأشعار التي دارت بينهم وبين شعراء بني أمية. وذلك نتيجة سلوك بعضهم المشين وقد أخذهم ابن زياد بقسوة ما بعدها، ونصبت عليهم الأقوال فكان المؤرخون لا يفرقون بينهم وبين عامة اللصوص السفاحين. ولنستمع إلى رأي الجاحظ: «إنك لا تعرف فقيهاً من أهل الجماعة لا يستحل قتال الخوارج كما إنا لا نعرف أحدهم لا يستحل قتال اللصوص».

---

(١) لقد ولى النعمان بين بشير حمص، ومسلمة بن مخلد مصر، وعمر بن سعيد فلسطين، وفضالة بن عبيد القضاء، وكان يقول: لو زادوني لزدتهم، وأنا خير لهم من أبي بكر وعمر. أنساب الأشراف ـ القسم الرابع، الجزء الأول، ص١٦٠.

(٢) إحسان سركيس ـ الظاهرة الأدبية، ص٢٣١.

(٣) الخوارج هم الذين حكموا بكفر علي ومعاوية، ومن ناصرهما في الإسلام بعد التحكيم لأنهم حكموا بغير ما في كتاب الله، إذ عدلوا عن تحكيم الله إلى تحكيم الناس، وهكذا اعتصم هذاالحزب بالتقوى ولاصلاح، وعالج الخلافة انطلاقاً من مبدأ ديني نقدي.
الحوفي ـ أدب السياسة في العصر الأموي، ص٧٠.

وركز الشعراء الأمويون على أعدائهم من الخوارج فوصفوهم بالكفر والحيدة عن دين الحق واتباع دين التأويل ابتغاء الفتنة. إنهم أهل ضلال وشرك، من أجل ذلك فضل الله بني أمية على أهل البدع. ولكن هذا التركيز لم يظهر واضحاً إلا مع خلافة عبد الملك ومن بعده، فكانت مختلف القصائد الهجائية التي تتناولهم موجهة إلى الخلفاء الذين جاؤوا بعد السفيانيين.

هجاء الزبيريين

وانصبّ أشد الهجاء على الزبيريين. فالأخطل التغلبي يتناولهم في معرض دفاعه عن بني أمية كمشاغبين ثائرين على النظام توجب ملاحقتهم وتأديبهم. ووصفهم في ضعفهم وحقارتهم وعدم جدارتهم بالملك. وأشار إلى أن الله هو الذي عاقبهم على موقفهم عندما حاولوا عبثاً مجاراة الأمويين حسناً وفضلاً وشتان ما بين نفر وهامة قريش التي تتصف بكل المجد والرياسة من قوة وبطش وجود وحلم. يقول[1]:

فالله لم يرض عن آل الزبير ولا ... عن قيس عيلان، طالما خربوا
يعاظمون أبا العاصي، وهم نفر ... في هامة من قريش دونها شذب
بيض، مصاليت، أبناء الملوك، فلن ... يدرك ما قدموا عجم ولا عرب
إن يحملوا عنك فالأحلام شيمتهم ... والموت ساعة يحمي منهم الغضب

نرى الأخطل هنا يسلك سبيل الأسلوب التقريري، فيصور حالة الزبيريين ومؤيديهم من الثائرين بأنهم دون قدر بني أمية وأقل رفعة منهم، ويسخط عليهم في قالب من الموازنة اللطيفة. مزرياً عليهم محاولاتهم الفاشلة للأرتفاع فوق قدرهم إلى مصاف السادة الأمويين.

ولا شك أنه بذلك يريد أن يجردهم من كل فضل ومكرمة لأن المناصب الرفيعة تحتاج إلى نفوس سامية. فالأخطل مدفوعاً ببعض الحزازات الشخصية كحقده على قيس يبعدهم عن الحياة الحرة الكريمة، وعندها لا يدع مجالاً للتفاخر بينهم وبين الأمويين سواء بالأحساب أو الأنساب، إنه يعزف على وتر الأنغام القبلية لإثارة الحمية الجاهلية.

---

(١) شعر الأخطل ـ الجزء الأول، ص٨٤.

ويرمي أبو العباس الأعمى ابن الزبير بالكفر فهو يظهر الإسلام والتدين ويبطن الكفر والخبث. وهو يرمي إلى هدم شخصيته الإسلامية التي كان يعتد بها في مطالبته بالخلافة نتيجة تلونه. يبدي غير ما يضمر ويقول ويؤكد صحة الخبر ما ذهب إليه جارية بن قدامة في نقد سياسة الحكام وخصوصاً الزبيريين، فقد اتهمهم بمجافاة الدين والخروج على الشرع وذلك حين أخرج طلحة والزبير عائشة أم المؤمنين للقتال في معركة الجمل، وقد أمرها الله أن تقر في بيتها. يقول[١]:

صُنْتُمْ حَلائِلَكُمْ وَقُدْتُم أُمَّكُم ... هَـذَا لَعَمْرُكَ قِلَّةُ الإِنْصَافِ
أُمِرَتْ بِجَرِّ ذُيُولِهَا فِي بَيْتِهَا ... فَهَوَتْ تشق البيد بالإيجاف
غرضاً يقاتل دونها أبناؤها ... بالنبل والخطي والأسياف
هتكت بطلحة والزبير سترها ... هذا المخبر عنهم والكافي

وسخر حميد بن مالك بن ربيعة من ابن الزبير لأنه الحد في الحرام واتخذ منه قاعدة لشن هجومه وإعلان عصيانه. يقول[٢] مخاطباً ناقته:

قلت لعنسي وهي عجلى تغتدي ... لا نوم حتى تحسري وتاهدي
أو تردي حوض أبي محمد ... ليس الأمير بالشحيح الملحد

وأزاح عبد الله بن الزبير الأسدي عن ابن الزبير غطاءه السياسي والديني بتعتريه من العديد من الصفات الإسلامية التي كان يروج لها، كإقامة المساواة وصون الحريات ورعاية حرمات الله وغيرها، وذلك حين امتد شعره إلى تصوير سياسته الجائرة القائمة على الإرهاب والبطش والمحاكمة على الشبهات وما في ذلك من مخالفة لأصول الشرع. وما لطخت به يداه من دماء بريئة نتيجة ما ارتكب من شرور حين قتل من شيعة بني أمية في المدينة قوماً كثيراً بلغه أنهم يتجسسون عليه. فالأسدي يهجوه ويعيره بفعله[٣]:

أيها العائذ في مكة كم ... من دم أهرقته في غير دم
أيد عائذة معصمة ... ويد تقتل من حل الحرم!

---

(١) محمد حسين ـ الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام، ص٤٤.
(٢) البكري ـ سمط اللآلىء ـ الجزء الثاني ـ ص٦٤٩.
(٣) الأغاني ـ دار الكتب الجزء الرابع شعر، ص٢٥١.

وكان أبو العباس الأعمى شديد العداء له، وقد فضح دعوته حين نعته بأنه مسلم بلسانه فقط أما أفعاله وصفاته فهي نصيرة الباطل، هدفها الفساد والتخريب تدب الذعر في الناس. إنه يحاول هدم الدعوة الزبيرية من الأساس بقوله إن الخلافة لا تصلح لمثل هؤلاء من أصحاب الشخصية المزدوجة. يقول[١]:

إِذَا وَصَفَ الإِسْلاَمَ أَحْسَنَ وَصْفَهُ بِفِيهِ وَيَأْبَى قَلْبُهُ وَيُهَاجِرُه

وإِنْ قَامَ قَالَ الحَقَّ مَا دَامَ قَائِماً تَقِيُّ اللِسَانِ كَافِرٌ بَعْدُ سَائِرُه

وإذا كانت دعوة ابن الزبير تقوم في أساسها على رد الاعتبار إلى الحجاز باعتباره موئل الخلافة الإسلامية الأولى، فإن معاوية عمل جاهداً وبشكل منطقي على تأنيبه وتقريع الزبيريين عامة لخذلانهم عائشة يوم الجمل، وسكوتهم عن نجدة عثمان يوم حصر، وبالتالي فالخلافة لا تصلح لمثل هؤلاء الذين اعتادت طباعهم على النكث بالعهود توخياً للسلامة. وذلك حين استقبل معاوية في بعض مجالسه الحافلة بالأمويين والهاشميين، عبد الله بن الزبير بهذا الكلام «وخدعتم أم المؤمنين ولم تراعوا حرمة رسول الله إذ مددتم على نسائكم السجوف وأبرزتم زوجته للحتوف ومقارعة السيوف... وأيم الله ليقومك بنو عبد مناف بثقافها أو لتصبحنَّ حلها صباح أبيك بوادي السباع»[٢]. فهو يهجوه ويهجو آل الزبير عامة فيصفهم بالمعتدين الثائرين. جسد فيهم المفاسد الخلقية والاجتماعية ودفعه السخط إلى سخرية لاذعة فرأى في مبايعة أسد الأراذل مدعاة للاشمئزاز. فهم من عامة الناس سود الوجوه، وليسوا من وجوه القوم لا يجودون بغير الظلم، ولا يفخرون إلا بالعدوان والغدر.

كما ندد ببخلهم وحرصهم الشديد وتعاميهم عن الحقيقة وقسوتهم، وبمكانتهم الاجتماعية الوضيعة. فالشر طبع من طباعهم. وهكذا يمعن بنفيه عنهم كل سمات العلاء والحسب، حين يشير إلى أسباب الخصومة بين الزبيريين والأمويين، وحين يستحضر صفات السادة المعظمين ثم يجردهم منها لأنهم أدعياء بخلاء مغمورون مقصرون. يقول[٣]:

---

(١) حسين عطوان، شعراء الدولتين، ص٣٨.
(٢) سعيد الأفغاني ـ عائشة والسياسة، ص٢٩٩.
(٣) الأغاني ـ دار الكتب، الجزء السادس عشر، ص٣٠٥.

بَنِي أَسَدٍ لاَ تَذْكُرُوا الفَخْرَ إِنَّكُمْ ... مَتَى تَذْكُرُوه تُكْذَبُوا وَتُحَمَّقُوا
بُعَيْدَاتِ بَيْنِ خَيْرُكُم لِصَدِيقِكُمْ ... وَشَرُّكُمْ يَغْدُو عَلِيهِ وَيَطْرُقُ
مَتَى تُسْأَلُوا فَضْلاً تَضِنُّوا وَتَبْخَلُوا ... وَنِيرَانُكُمْ بِالشَّرِّ فِيهَا تَحَرَّقُ
إذا اسْتَبَقَتْ يَوْماً قُرَيشٌ خَرَجْتُمُ ... بَنِي أَسَدٍ سَكْتاً وَذُو المَجْدِ يَسْبِقُ
تَجِيئُونَ خَلْفَ القَوْمِ سُوداً وُجُوهُكُم ... إِذَا مَا قُرَيشٌ لِلأَضَامِيمِ أَصْفَقُوا
وَمَا ذَاكَ إلاّ أن لِلُّؤْمِ طَابَعاً ... يَلُوحُ عَلَيْكُم وَسْمُه، لَيْسَ يَخْلُقُ

الشعر هنا يفيض بالعصبية، فالشاعر يجاهر بما يضمره بنو أسد من نزعة عدائية باعتزازه ببني أمية وبأصولهم الكريمة، فيفاخر بهم في إطار من الإباحية الجامحة التي تدعو إلى التطاول على بني أسد فيتناولهم بلسانه البغيض ويرتّبهم خلف قريش في المكانة الاجتماعية. وقد استهان بقيمهم الخلقية لأنهم لم يقيموا وزناً للفضيلة فكان الفسق والفجور طبعاً من طباعهم اللئيمة. فالشاعر يهزأ من طباعهم الفظة ويضيق بها ذرعاً فيسخر منهم ويثور عليهم. ويتضح من قوله أن الأمويين هم رمز قريش تلك القبيلة التي تسمو عن غيرها من القبائل.

أما نابغة بن شيبان ففي مدحه لعبد الملك[1] يحمل على آل الزبير حملة عنيفة في قالب من الموازنة اللطيفة القائمة على الترويج لبني أمية. إذ يصور مدى اعتزازه بآل أبي العاص لما يتحلون به من سماحة ومروءة وشجاعة ونجدة وغير ذلك من الخصال الحميدة إلى أن يخلص إلى القول عن تقويضهم لآل الزبير وإيرادهم موارد الهلاك والإبادة لأن هدفهم إراحة البلاد من شرهم وخلاصها من أذاهم على اعتبار أن الخلافة لا تصلح لمثل هؤلاء ولو كانوا هم أهلها والمالكون لها. فهي إرث قريش ولا تصلح إلا لمستحقيها ولمن ألبسه الله ثوب العلو والشرف. يقول[2]:

أَزَحْتَ عَنَّا آلَ الزُّبَيرِ وَلَوْ ... كَانُوا هُمُ المَالِكِينَ مَا صَلَحُوا
آلُ أَبِي العَاصِ آلُ مَأْثُرَةٍ ... غُرٌّ عِتَاقٌ بِالخَيْرِ قد نَفَحُوا
خَيْرُ قُرَيْشٍ وَهُمْ أَفَاضِلُهَا ... فِي الجِدِّ جِدٌّ وَإِنْ هُمْ مَزَحُوا
أَمَّا قُرَيْشٌ فَأَنْتَ وَارِثُهَا ... تَكُفُّ مِنْ صَعْبِهِم إِذَا طَمَحُوا

(١) جرجي زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية، المجلد الأول، ص٢٦٢.
(٢) الأغاني ـ دار الكتب ـ الجوء السابع ص١٠٧.

واحتج أبو العباس الأعمى في مدحه للأمويين على تقاعسهم في منازلة ابن الزبير، مصوراً لهم ما ينتظرهم من البؤس والاضطهاد إذا لم يتداركوا أمرهم قبل أن يستفحل شره، ويصبح خطراً عليهم وعلى دولتهم، لذا عليهم أن يدفعوا عن أنفسهم الأداء وخصوصاً إن الله قد بارك خلافتهم، ورشحهم لها جودهم وصبرهم وصلابتهم، يقول في رسالة لهم مثقلة بالألم والشكوى، حاثّاً الأمويين على الانقضاض على ابن الزبير. يقول(١):

أَبَــنِــي أُمَــيَّــةَ لاَ أَرَى لَــكُــمُ ... شِـبْـهـاً إِذَا مـا الـتَـفَّـتِ الـشِّـيَـعُ
سَـعَـةً وَأَحْـلامَـاً إِذَا نَـزِعَـتْ ... أَهْـلُ الـحُـلُـومِ فَـضَـرَّهَـا الـنَّـزَعُ
الـلّـهُ أَعْـطَـاكُـمْ وإِنْ رَغِـمَـتْ ... مِـنْ ذَاكَ أَنْـفُ مَـعَـاشِـرٍ رَتَـعُـوا
أَبَـنـي أُمَـيَـةَ غَـيْـرَ أَنَّـكُـمُ ... والـنَّـاسُ فِـيـمَـا أُطْـعِـمُـوا طَـمْـعُـوا
فَـلَـوْ أَنَّـكُـم كُـنْـتُـمْ لِـقَـوْلِـكُـمُ ... مِـثْـلَ الـذِي كَـانُـوا لَـكُـمْ رَجَـعُـوا
عَـمَّـا كَـرِهْـتُـمْ أَوْ لَـرَدَّهُـمُ ... حَـذَرُ الـعُـقُـوبَـةِ إِنَّـهـا تَـزَعُ

وكان معاوية غالباً ما يحتج على ابن الزبير مدعياً أنه ليس له الحق في منازعته الخلافة منطلقاً من قرابته من رسول الله، التي تخوله امتيازاً خاصاً. وليس لابن الزبير امتياز مثله ولا حق في مناجزته، قال له معاوية «غَلِطْتَ يا ابن الزبير بعث الله ابن عمنا نبياً فدعا أباك فأجابه فما أنت إلا تابع لي ضالاً كنت أو مهدياً»(٢).

ويبدو أن الشعراء الأمويين قد وقفوا من دعوة ابن الزبير موقفاً معارضاً ومبدئياً، ولم يكن بإمكانهم رؤية أية مهادنة لهم من الحكم الأموي، إذ سرعان ما تثور ثائرتهم وتَتَقَزَّز نفوسهم، فيحثّون الأمويين للتنبه لحيلهم والحذر من ملاطفتهم لأنهم لم يعتادوا الشرف والرفعة، ولم يألفوا إلا الذلّ والهوان. فهذا مروان بن الحكم يخاطب معاوية بن أبي سفيان، وقد أجلس عبد الله بن الزبير معه على سريره. يقول(٣):

لـلـه دَرُّكَ مِـن رَئِـيـسِ قَـبِـيْـلَـةٍ ... يَـضَـعُ الـكَـبِـيـرَ وَلاَ يُـرَبِّـي الأَصْـغَـرَا

---

(١) الأغاني ـ دار الكتب ـ الجزء السادس عشر ص٣٠١.
(٢) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ الجزء الرابع، ص٢٢.
(٣) معجم الشعراء للمرزباني ص٣٩٦.

ولا نرى أفضل من أن نختتم هذا البحث، من ذكر كتاب يزيد إلى ابن عباس، حين رفض أن يبايع لابن الزبير، لنقف على مبلغ العداء الذي استفحل بين البيتين القرشيين فقد تشدّد يزيد في إنكاره لتقوى ابن الزبير وتعنيفه بأفحش الألقاب كالملحد مثلاً، وهو يرد عليه دعوته ولا يخرجها عن كونها مدعاة للفتنة وإطاعة للشيطان. كما يعلن رضاه عن ابن عباس ويؤيده في استنكاره لدعواه، وعدم إجابته لطلبه، وهكذا فهو يستند على استغلال عنصر الدين ليفرق عنه الأتباع، وليحفظ وجوه الكلمة المتمثلة في وحدة الجماعة السائرة تحت ركابه والراضية بحكمه. ثم يعلق على الجانب المادي فيغري ابن عباس، ويشدّد على أواصر القرابة التي تجمعه به من جهة الشرف والطاعة والقرابة، فالصلة ستصله ما دام محافظاً على وحدة الجماعة ومطيعاً لرئيسها وساخراً من المارقين الملحدين. يقول[1]:

«فقد بلغني أن الملحد ابن الزبير دعاك إلى بيعته، وعرض عليك الدخول في طاعته لتكون على الباطل ظهيراً، وفي الإثم شريكاً، وإنك امتنعت عليه واعتصمت ببيعتنا، وفاء منك لنا وطاعة لله فيما عرفك من حقنا، فجزاك الله من ذي رحم بأحسن ما يجزي به الواصلين لإرحامهم، فإني ما أنسى من الأشياء فلست بناس برك وحسن جزائك، وتعجيل صلتك بالذي أنت مني أهله في الشرف والطاعة والقرابة بالرسول...».

واللافت للنظر في هذا الكتاب كثرة استخدام الألفاظ ذات المدلولات الدينية والحض على التمسك في أمور الدنيا، والربط بين بغض يزيد لابن الزبير ورميه بالكفر والإلحاد كقوله الملحد ـ البيعة ـ الباطل ـ الإثم ـ الاعتصام. ويعلن رضاه عن موقف العباس المتمثل في الخضوع له والانصياع لأمره. المفاضلة ظاهرة بينه وبين ابن الزبير، ونرى جهده موجهاً نحو صحة ما ذهب إليه ابن العباس، ومعتبراً صواب موقفه رداً مباشراً على دعوة ابن الزبير الباطلة الهدامة، وقد يكون غرض يزيد المفاضلة بين قُرشيّيْن هو أحدهما: وهو أهل للخلافة، والآخر غير أهل لها وهو ابن الزبير.

---

(١) محمد ماهر حمدة ـ الوثائق السياسية والإدارية، ص٢١١.

محاربة الشيعة

وتناول الهجاؤون علياً نفسه، وحملوه مسؤولية قتل عثمان، وذهبوا إلى وجوب حصر الخلافة في بني أمية، فهم أولى الناس بالرياسة وإن الشعارات الجوفاء التي أطلقها العلويون بحقهم الموروث في الإمامة، ما هي إلا شعارات فارغة باطلة. وقد سخروا بخبث أخلاقهم وقضوا بضرورة محاربتهم ليؤوبوا إلى الرشد، ويرجعوا عمّا هم فيه من الضلال. وليس لهم في ذلك إلا الغارة إثر الغارة من قبل معاوية. يقول حسان بن ثابت الأنصاري في رثائه لعثمان[1]:

إلاَّ تُنِيبُوا لأَمْرِ اللهِ تَعْتَرِفُوا   بِغَارَىْ عُصَبِ مِنْ خَلْقِها عُصَبُ
فِيهِمْ حَبِيبٌ شِهَابُ الحَرْبِ يَقْدُمُهُمْ   مُسْتَلْئِماً قَدْ بَدَا فِي وَجْهِهِ الغَضَبُ

وجرّد أبو عطاء السندي مولى بني أسد في مدحه للأمويين الشيعة من أخلاق الرياسة وذلك بتصويره حالة الضيق التي آلت إليها البلاد من جراء انقطاعهم عن العمل بالزراعة. ودعاهم إلى العودة لأعمالهم المألوفة فهم أصحاب مهن وأرباب زراعة وليسوا من أشراف العرب حتى تسند إليهم الإمارة أو يحق لهم المطالبة فيها. ثم يمضي في سخريته من تذرعهم بأنهم رهط النبي وأولى الناس بميراثه، إذ هم يعرفون باللؤم والسكر والاحتيال وحب الدنيا. وهكذا ينحدر بهم إلى مصاف اليهود الكفرة. يقول[2]:

بَنِي هَاشِم عُودُوا إِلَى نَخْلاتِكُمْ   فَقَدْ صَارَ هَذَا التَّمْرُ صَاعاً بِدِرْهَمِ
فَإِنْ قُلْتُمُ: رَهْطُ النَّبِيِّ وَقَوْمُهُ   فَإِنَّ النَّصَارَى رَهْطُ عِيسَى ابنِ مَرْيَمِ

ويسوق الحجاج بن خريمة بن الصمة عدداً من الحقائق، ويقدم طائفة من الأحاجي التي تحمل الشيعة مسؤولية قتل عثمان أو على الأقل اشتراكهم فيها، ويسفه موقفهم محاولاً إغراء معاوية بالوثوب على الشيعة لأنه صاحب السلطان وأولى الناس بثأره. يقول[3]:

إِنَّ بَنِي عَمِّكَ عَبْدِ المُطَّلِبْ   هُمْ قَتَلُوا شَيْخَكُمْ غَيْرَ الكَذِبْ

---

(١) حسان بن ثابت ـ الديوان، ص١٦.
(٢) شوقي ضيف ـ تاريخ اودب العربي في العصر الإسلامي، ص٣٤٠.
(٣) الدينوري ـ الأخبار الطوال، ص١٥٥.

وَأَنْتَ أَوْلَى النَّاسِ بِالوَثْبِ فَثِبْ　　وَسِرْ مَسِيْرَ المُحْزَئِلِّ المُتْلَئِبْ

وفي هذا المعنى هاجم حميد بن ثور الهلالي، قتلة عثمان هجوماً شديداً، ورأى في قضائهم على عثمان، قضاء على الخلافة الدينية وسبباً في خلق جو من النزعات القبلية انتهكت معها الحرمات على أيدي المفسدين فقبح عملهم، وَوَصَمَهم بالضلال ورأى في انتقالها إلى الأمويين أمراً شرعياً تمشياً مع فكرة ميراث الخلافة. يقول(١):

إنَّ الخِلَافَةَ لَمَّا أُظْعِنَنْ ظَعَنَتْ　　عَنْ أهلِ يَثْرِبَ إذْ غَيْرَ الهُدَى سَلَكُوا

صَارَتْ إلى أَهْلِهَا مِنْهم وَوَارِثِها　　لَمَّا رَأى اللهُ عُثْمَانَ مَا انْتَهَكُوا

فقتل عثمان فتح أمام الأمويين طريق الخلافة، كما فتح باب الفتنة وأغرى الأمويين بتحقيق ما كان حلماً، فهذه ليلى الأخيلية تصور لنا سوء حالة المسلمين وضياع الأمة وتستحث معاوية على إقرار العدل، وتخليص البلاد من الفتنة والفرقة وتبايعه على أنه أمير المؤمنين. تقول(٢):

قُتِلَ ابنُ عَفَّانَ الإمَا　　مُ وَضَاعَ أَمْرُ المُسْلِمِينَا

وَتَشَتَّتَتْ سُبُلُ الرَّشَا　　دِ لِصَادِرِينَ وَوَارِدِيْنَا

فانْهَضْ مُعَاوِيَ نَهْضَةً　　تَشْفِي بِهَا الدَّاءَ الدَّفِينَا

أَنْتَ الذِي مِنْ بَعْدِهِ　　نَدْعُو أَمِيرَ المُؤْمِنِينَا

ونحس في كتاب زياد بن أبيه للحسن بن علي، مخالفة علنية للشيعة، وبغضاً دفيناً يسيطر على الوعي العقلي، إنه يحمل على الحسن وشيعته حملة شعواء لاعتقاده بفساد مذهبه، وإيمانه بصلاح جماعتهم، وذلك حين طالبه برجل دخل في الأمان عنده. يقول(٣): «من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن، أما بعد، فقد أتاني كتابك في فاسق يؤوبه الفساق من شيعتك وشيعة أبيك، وأيم الله لأطلبنهم ولو بين جلدك ولحمك، وإن أحب الناس إلي لحماً أن آكله للحم أنت منه».

أما حديث معاوية مع بعض بني هاشم، فهو يشكو صدهم وبغضهم وجحدهم

---

(١) الهلالي ـ حميد بن ثور ـ الديوان ص١١٤.

(٢) المرجع السابق ص١٠٥١، لم يتم العثور على الأبيات في ديوان ليلى الأخيلية.

(٣) الجاحظ ـ البيان والتبيين، الجزء الثاني، ص٢٩٩.

الفضل، إنه يدعوهم إلى أن يستفيقوا من نومهم العميق، وينفضوا عن أنفسهم هذه السوءات، ويرضوا الأمويين، ويقروا لهم بولاية أمر المسلمين ما دامت أعطياتهم تصلهم وحقوقهم محفوظة. ويحملهم مغبة هذه السلبية التي يتمسكون بها، ثم ينطلق مدافعاً عن نفسه وبأنه صاحب الحق الأول في الخلافة، ويهدد معلناً ما تنطوي عليه نفسه من حقد تجاه موقفهم المعادي، ورغبة في قطع أواصر الصلة وإسقاط الأعطيات، ما داموا لا يستكينون ولا يشكرون يقول[١]:

«يا بني هاشم إن خيري لكم ممنوح وبابي مفتوح، فلا تقطعوا خيري عنكم، ولا تغلقوا بابي دونكم، وقد رأيت أمري وأمركم متفاوتاً، ترون أنكم أحق مما في يدي مني، وأنا أرى أحق به منكم. . . أعطي فلا أشكر وأمنع فلا أعذر».

---

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف، الجزء الأول، القسم الرابع، ص١١٢.

الفصل السادس

شعر الشيعة ومكابدته للأمويين

السيرة والسيرورة

من الآثار السياسية لقيام الدولة الأموية، كانت ولادة حزب شيعي[١] رأى أن النبي نصَّ على خلافة علي باسمه أو وصفه. ثم عهد علي بالخلافة للحسن والحسن للحسين. وهكذا فكل إمام كان يتولى الحكم بالنص عمن قبله. والخلفاء الأمويون معتدون جائرون، والواجب على الشيعة رد الحق إلى أهله. وخطا الشعر الشيعي خطوات واسعة في تصوير أسس ذلك الحق تصويراً فنياً دقيقاً قائماً على إظهار تعاطف المسلمين معهم باعتبارهم ركن من أركان الإسلام، ومن أهل الفضل والإحسان، لذلك كان طبيعياً أن تدور النظرية السياسية لهذا الحزب حول أحقية أبناء علي بالخلافة، وهكذا اعترفوا بضرورة وجود نص صريح يوجب التعيين عند انتخاب الإمام[٢].

واعتقد الشيعة بأن حقهم قد سلب وذهبوا إلى أن إمامة علي قد نص عليها الرسول وأوصى له ولأولاده من بعده، باعتبارهم أحفاده وأبناء عمه وفي ذلك يقول **كثير** لما قام عبد الله بن الزبير مطالباً بالخلافة وسمى نفسه بالعائذ وحبس محمد بن الحنفية في خمسة عشر رجلاً من بين هاشم في سجن عارم وقال لتبايعني أو لأحرقنكم. يقول[٣]:

---

(١) نوثروب ستودارد ـ حاضر العالم الإسلامي الجزء الأول ص١٨٨.

(٢) HENRI - CHARLES PUCCHE. Histoire des Religions IIIP.58.

(٣) ديوان كثير عزة، ص٢٢٤.

تُـخَـبـرُ مَـنْ لاَقَـيـتَ أنَّـكَ عـائـذٌ بَلِ العَـائِـذُ المَـظْـلُومُ في سجنِ عَـارِمِ
وصِيُّ النَّبيِّ المُـصْـطفى وابنُ عَـمِهِ وفَـكَّـاكُ أغْـلالِ وَقَـاضـي مَـغَـارم
أبَـى فَـهْـوَ لا يـشـري هُـدى بِـضـلالـةِ وَلاَ يـتَّـقـي فـي الله لَـوْمَـةَ لائـم

ومطالب الشيعة تنحصر في قيام حكم إلهي على الشريعة الإسلامية السمتوحاة من القرآن والسنة، وقد غالوا في ذلك كثيراً حتى عدوا الخلفاء الراشدين الذين سبقوا علياً مغتصبين لحقه في الخلافة. وهكذا فمسألة خلافة النبي كانت في صميم النزاع وشكلت نقطة انطلاق التعارض ين السنة والشيعة الأساس السياسي للأمة الإسلامية(١). وأبدوا رأيهم بأنه من غير المعقول أن تكون مغادرة الرسول للدنيا على فراغ. ولأنه، لا يمكن أن يكون قد ترك هذا المنصب وهو أرفع منصب في الإسلام رهناً بميول الناخبين ونزواتهم. لذا جعلوا علياً الخليفة الشرعي الوحيد للنبي، وقد تقرر عند هؤلاء المتشعيين أن الولاية بعد عليّ إنما هي لذريته وذلك بحكم الحق الموروث(٢). وبالغوا في احتجاجهم وذهبوا إلى أن القرآن قد أعلن هذا التصريح بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وغيرها.

وتطورت هذه الفكرة إلى رفض الاعتراف بالإختيار طريقة للتابعين وأضحت عند الشيعة مبدأ لا تحيد عنه، إذ يرون ويعتقدون دينياً أن علياً هو صاحب الحق بالخلافة. ذلك أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، ويتعيّن القائم بها بتعيينهم. بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبي(٣) إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوماً عن الكبائر والصغائر.

وهذا ما ظهر واضحاً في قول عبد الله بن همام حين ذكر الشيعة قتل عثمان بن عفان، قال(٤):

فـحُـوصِـرَ فـي دَار الإمَـارة بـائـيـاً بِـذُلِّ وإرْغـامٍ لَـهُ وخُـضُـوع

(١) HENRI CHARLES PUCCHE. Histoire des Religions III P.147.
(٢) فيليب حتى - تاريخ سورية، الجزء الثاني، ص٢٩.
(٣) ابن خلدون - المقدمة، ص١٩٧.
(٤) الطبري - تاريخ الأمم والملوك، الجزء السابع، ص٨١٠.

فمنَّ وزيرُ ابْنِ الوصي عليهم — وكان لهُمْ في النَّاسِ خيْرُ شَفيع
وآبَ الهُدى حقاً إلى مُستقَرِّه — بخيرِ إيابٍ آبه ورُجُوع
إلى الهاشميِّ المُهْتَدِي والمُهْتَدى بِهِ — فنحنُ لهُ من سامعٍ ومُطيعِ

فعليّ إمام بنظرية الوصية وبالتسلسل الوراثي، وليس بالانتخاب، واجتهد جهابذة الشيعة في تصوير علي بأنه ولي الله على الخصوص، وصديق الله أنه قديس الإسلام بتفوق وهذه الصفة تميزه بعمق عن محمد الذي لم يعد[1] سوى نبي الله.

وهكذا نادى الشيعة بخلافة هاشمية يرأسها الإمام الذي يجمع بين يديه الشؤون الدينية والشؤون السياسية. فالخلاف بين الشيعة وغيرهم كان خلافاً دينياً وسياسياً بعكس خلافة الأمويين الذين حبسوها في أسرتهم دون سائر الأسر، رعاية وكفاية واستمراراً لخلافة عثمان واستغلالاً لنتيجة التحكيم. فالشيعة هم الوارثون الحقيقيون للخلافة ولم يعترفوا بإمامة أي حاكم غير علي وأبنائه من فاطمة، أئمة الحق. ونظروا إلى إمامة الأمويين نظرتهم إلى من غصب أهل البيت حقهم الإلهي. ودفعهم عن مقامهم ومراتبهم التي رتبهم[2] الله بها.

فالإمامة هي أساس عقائد الشيعة وقد حصروها في البيت النبوي وآل الرسول، وبهذه العقيدة ناهض الشيعة الأمويين الحاكمين واحتجوا عليهم وراح شعراؤهم يرددونها ويروجون لها ويسندون خلافتهم إلى الحق الإلهي، وقالوا إن الله قد اصطفاهم خلفاء للأمة، يقول كثير عزة[3]:

.. إمامُ هُدى قدْ سدَّدَ الله رأيَهُ — وقدْ أحْكمتْهُ ماضياتُ التَّجارب
.. بلوْهُ فأعْطوه المقَادَةَ بعْدَمَا — أدبَّ البِلادَ سهْلَها وجبالَها

وهكذا أصبح الأدب الشيعي أدب عقيدة واحتجاج. همه إثبات حق الشيعة في الخلافة باعتبارهم حفظة الشرع وباعتبار الخلافة سيادة دينية لا يستحقها إلاَّ رجل جماع للفضائل الدينية من علم وثقة وزهد وتقوى. وقالوا إن الرسول قام وبلغ ما أمر به. وذلك يوم غدير خم في الثامن عشر من ذي الحجة سنة عشر بعد حجة

---

(١) BI. T. I. P.286.
(٢) محمد جواد مغنية ـ الشيعة والحاكمون، ص٢٤.
(٣) كثير عزة ـ الديوان، ص٣٤٢ و٨١.

الوداع. والشيعة تعتبره مصدر ولايتهم وقد اتخذوه عيداً لهم، وكان لشعرائهم فيه خيال واسع فتناولوا الأمويين بالتجريح وبإهضام حقوقهم الشرعية.

فهذا حسان بن ثابت يجعل الخلافة مختصة بالهاشميين (العلويين) على اعتبارهم عائلة بيت الرسول بالرغم من كونه عثمانياً ولم يبايع علياً رغم أن هناك على لسانه بعض الشعار التي تثبت أن علياً هو أفضل الأصحاب على الإطلاق، وإن الرسول هو الذي نصبه من بعده إماماً وولياً. كما حث أتباعه على نصرته والأخذ بيده. يقول [١]:

يناديهم يومَ الغدير نبيُّهم ... بِخُمٍّ وأَسْمِعْ بالنبيِّ مُنادياً
وقال: فمنْ مولاكم ووليُّكُمْ ... فقالوا - ولمْ يبْدُوا هُناكَ التَّعامِيا
إلهكَ مَوْلانا، وأَنْتَ وليُّنا ... ومَا لكَ مِنَّا في الولاية عاصيا
فقال لهُ: قُمْ يا عليُّ فإنَّني ... رضيتُكَ مِن بعدي إماماً وهَاديا
فمنْ كنتُ مولاهُ فهذا وليُّهُ ... فكُونُوا لهُ أنصار صِدْقٍ مَوَاليا

وهكذا يعلن أن بالنص الإلهي والإبلاغ المحمدي، علياً وريث النبي وولي أمره والواجب على شيعته رد الحق لصاحبه والعمل سراً وجهراً، حتى يتولى الأمر أهله لاعتبارهم تبعة الإيمان وأهل الفضل والإحسان وتلاوة القرآن.

وقد خطب جعفر بن سليمان خطبة لم ير أحسن منها، فقال في تعداد فضائل الشيعة، وبالذات آل هاشم «أولئك قوم بنور الخلافة يشرقون وبلسان النبوة ينطقون» وقال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في ذكر قريش وبني هاشم [٢]: فالعرب كالبدن وقريش روحها، وقريش روح وبنو هاشم سرها ولبها، وموضع عناية الدين والدنيا فيها وبنو هاشم ملح الأرض. فالشيعة يرون أنفسهم فوق من عاداهم ولا يرون لأحد غيرهم حقاً في منازعتهم آراءهم، لدرجة أن أبا سفيان احتج لهم حين بويع أبو بكر لأنهم أعلم الناس وأتقاهم، وقد جمعوا صفات الكمال والجلال، ويتساءل

---

(١) أدب الشيعة ص١٠٠ لم نعثر على هذه الأشعار في ديوانه، طبع دار الصياد لاط. ودار الأندلس بيورت ١٩٧٨.

(٢) القيرواني - زهر الآداب، الجزء الأول، ص٩٥ و٩٧.

بتعجب عن شدة تقوى وصلاح وتدين الأمام علي وما قابل ذلك من عدول عن انتخابه، يقول في أحقية علي بالخلافة[١]:

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف ... عن هاشم ثم منها عن أب حسن

أليس أول من صلى لقبلتهم ... وأعلم الناس بالأحكام والسنن

وذهب آخرون إلى أن في انتخاب علي وإمامته استمراراً لما ينعم به الناس من الحكم العادل والخير الوفير، كما أنه إقرار شرعي بخلافة علي بعد وفاة الرسول، ذلك أن الإسلام ظاهرة دينية وسياسية، كما كان مؤسسه نبياً ورجل دولة، لذلك أكثر المبالغون في التشيع من ذكر الأحاديث الواردة في فضل علي. وقد جاء فيه أن علياً سأل الرسول قائلاً: يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان، فقال أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي. وقال رسول الله: «علي مني، وأنا من علي. وقال أيضاً علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا علي الحوض»[٢].

وعلى هذا الأساس قام أدب الحجاج للشيعة يحدد المبدأ القائم على النص والحكمة والأفضلية. ونستطيع أن نجد عند الشاعر الشيعي الكميت صدى لهذه الإحتجاجات. ومنهج الكميت هو أن يكون الحكم والسلطان للعلويين دون سواهم فهم الذين يسبغون على الرعية الخيرات ويمنعونها الشرور والويلات. يقول[٣] في قصيدته: «طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب».

فإن هي لم تصلح لقوم سواهم ... فإن ذوي القربى أحق وأقرب

يقولون لم يورث ولولا تراثه ... لقد شركت فيه بكيل وأرحب

فيا لك أمراً قد أشتت أموره ... ودنيا أرى أسبابها تتقضب

فتلك الإحتجاجات القائمة على القياس المنطقي، تدعو إلى حجاج بني أمية الذين يقولون أن النبي لا يورث علماً بأنهم لجأوا إلى حق التوريث في استلام الخلافة حين نادوا بأنهم ورثة عثمان، فكيف تكون الوراثة محققة وشرعية في عرفهم

---

(١) الجاحظ ـ رسائل الجاحظ، ص٢٢.
(٢) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص١٦٨ ـ ١٧٣.
(٣) الكميت ـ الهاشميات ـ الروضة المختارة ص٣٤ و٣٣.

وباطلة وغير شرعية بالنسبة إلى غيرهم. إلى أن يخلص إلى أن النبي يورث، والشيعة هم وارثوه وأن الخلافة لا تصلح لأحد إلا لقريش وذوو القربى أحق وأقرب، وهم بنو هاشم. ثم يتساءل عن تبدل حكم الاشرار «الأمويين» بعد حكم الأخيار أمثال علي. إنه يؤلف من ذلك للشيعة حجة منطقية بأن الأقرب أولى، فبنو هاشم أولى من بني أمية، وبنو علي أولى من بني هاشم وإلا فلماذا حصرت الخلافة في قريش. فبنو أمية إذن معتدون على حقوق غيرهم، فالأئمة الحقيقيون هم الشيعة لأنهم الولاية الشرعية، وهم بالتحديد: علي، وأولاده الثلاثة الحسن والحسين وابن الحنفية.

أما الاستدلال القرآني، فمأخوذ من الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

وروج الشيعة لهذا الاستدلال ليفضحوا الأمويين في مذهبهم وليبطلوا خلافتهم ويفندوا دعوتهم إلى جعل الخلافة في قريش، إذ لا معنى لهذه الحجة التي لجأوا إليها لإبعاد الأنصار وبقية القبائل الإسلامية، وتقديم قريش عليها جميعها. وهذه الحجة هي التي ذكرها الكميت بقوله[1]:

وجدنا لكم في آل حاميم آية ... تأولها منا تقي ومعرب

بحقكم أمست قريش تقودنا ... وبالفذ منها والرديفين تركب

وقالوا ورثناها أبانا وأمنا ... وما ورثتهم ذاك أم ولا أب

ولكن مواريث ابن آمنة الذي ... به دان شرقي لكم ومغرب

يقولون لم يورث ولولا تراثه ... لقد شركت فيه بكيل وأرحب

ففي هذه الأشعار تقرير حق الهاشميين بالخلافة عن طريق سورة خم!! وغيرها التي تنطق بحق الهاشميين وفيها عذاب ونصب بني أمية. إذ لا يستطيعون تأويلها ولا صرفها عن وجهها وهذه الحجة ليست جديدة ولا هي من اختراع الكميت، بل كان علي يجادل بها ابا بكر وعمر ويقول لهما أنا أحتج عليكما بمثل ما احتججتم على

---

(١) هاشميات الكميت ـ الروضة المختارة ص٣٠.

الأنصار. لكن الكميت أول من صاغ هذه الحجج في الشعر وأتى بها في القصيدة[١].

وكان شعراء الشيعة يرون لعلي الفضل والسابقة والقرابة ما ليس لغيره من سائر الناس. وعلى العكس فهم يرون في الأمويين وبالأخص في معاوية انحطاطاً هائلاً، فهو من الطلقاء الذين عادوا الرسول ـ قال سعيد بن قيس الهمداني يرتجز بصفين[٢]:

هذا علي وابن عم المصطفى أول من أجابه فيما روى

هو الأمام لا يبالي من غوى

وقال زفر بن يزيد بن خذيمة الأسدي أيضاً[٣]:

فحوطوا علياً وانصروه فإنه وصي وفي الإسلام أول أول

وإن تخذلوه والحوادث جمة فليس لكم عن أرضكم متحول

فإمامة علي بالنص قائمة على ضوء العقيدة الشيعية التي تلقب علياً بالوصي والحسين بوصي الوصي، وبلغت الجرأة بالكميت إلى إعلان هذه الوصاية بصريح الاسم دون خوف أو وجل حين قال[٤]:

إن الرسول رسول الله قال لنا إن الإمام علي خير ما هجر

في موقف أوقف الله الرسول به لم يعطه قبله من خلقه بشراً

وركز شعراؤهم على الإحتجاج لهم بمذهبهم بالتقوى والتزامهم حدود الشرع، واجتناب الفواحش وإيثار ما عند الله على متاع الدنيا الزائل. فهم عباد أتقياء القلوب حريصون على تطهير نفوسهم من الآثام والذنوب. يقضون نهارهم بالصوم والصلاة وبالعبادة والتأمل. فيتقربون من الأنبياء. يقول[٥] أيمن بن خريم في بني هاشم معرضاً ببني أمية:

---

(١) محمد سيد كيلاني ـ أثر التشيع في الأدب العربي ص٩٦.
(٢) رسائل الجاحظ ـ ص٢٣.
(٣) المرجع نفسه ـ ص٢٣.
(٤) شعر الكميت ـ الروضة المختارة ص٨٢.
(٥) الكفراوي ـ تاريخ الشعر العربي ـ الجزء الأول ص١٢٦.

نهاركم مكابدة وصوم ... وليلكم صلاة واقتراءُ
وليتم بالقرآن وبالتزكي ... فأسرع فيكم ذاك البلاء
أأجعلكم وأقواماً سواء ... وبينكم وبينهم الهواء
وهم أرض لأرجلكم وأنتم ... لأرؤسهم وأعينهم سماء

ويبدو أن مثل هذه المعاني قد أعجبت عبد الملك نظراً لجزالتها وقوة سبكها ومعانيها الدينية السامية، فقال منادياً بالشعراء[(١)]: «يا معشر الشعراء تشبهوننا مرة بالأسد الأبجر، ومرة بالجبل الأوعر، ومرة بالبحر الأجاج، ألا قلتم كما قال ابن خريم؟».

وهكذا أضحى موضوع الشعر الشيعي سياسياً مذهبياً، ونظر إلى الخلفاء الأمويين على أنهم معتدون جائرون ومغتصبون للسلطة التي ليست من حقهم، بل هي حق بني هاشم ورثة الرسول الشرعيين. لذا فالواجب يقضي بإزاحتهم من الطريق وإحقاق الحق برده إلى أصحابه: علي وأبنائه أئمة أهل التقى وخير أهل الأرض.

وركز الكميت في شعره على هذا الركن، إذ كان لا يرى إلا شيعة آل البيت، فحبهم متأصل في نفسه وسيادتهم هي سعادة المسلمين لأنهم معشر حبهم حب دين وبغضهم كفر وقربهم منجي، فهم خير أهل الأرض. يقول[(٢)]:

فما لي إلا آل أحمد شيعة ... وما لي إلا مشعب الحق مشعب
ومن غيرهم أرضى لنفسي شيعة ... ومن بعدهم لا من أجل وأرجب
إليكم ذوي آل النبي تطلعت ... نوازع من قلبي ظماء وألبب

ويصل حب علي وشيعته عند أبي الأسود الدؤلي إلى حد الفخر والزهو، فها هو يحدثنا عن جار له من بني قشير وكانوا أصهاره وكان بعضهم يكلمه كثيراً. ويردّد عليه قوله في علي بن أبي طالب، فأبياته واضحة الدلالة على تمكن هذا الحب منه، لكون هذا البيت يتمتع بالسيادة الدينية. وسياسته سياسة رشيدة، تحقق للناس سعادتهم ورشدهم. يقول[(٣)]:

---

(١) أحمد الشايب - تاريخ الشعر السياسي ص١٩٣.
(٢) الكميت - الهاشميات، الروضة المختارة ص٢٨.
(٣) ديوان أبي الأسود الدؤلي ص١١٩.

يقول الأرذلون بنو قشير طوال الدهر لا تنسى علياً
فقلت لهم: وكيف يكون تزكّى من الأعمال ما يقضي علياً
أحب محمداً حباً شديداً وعباساً وحمزة والوصيا
فإن يك حبهم رشداً أصبه وفيهم أسوة إن كان غيا

وكان للبدعة التي أحدثها معاوية بشأن سب علي على المنابر أثرها الفعال في نفوس شعراء الشيعة. فاستمطروا على علي شآبيب الرحمة وأظهروا دهشتهم وردوا الصاع صاعين، والسب بالسب، لأنهم لم يجدوا في سيرة الرجل انحرافاً يستوجب ذلك. بل على العكس فخصمه معاوية هو الذي غصب الحكم وظلم الرعية وتمادى في اضطهاده لآل البيت، فحقت عليه اللعنة، فلعنوه وأقاموا موازنة لطيفة بين مكره وصلاح بني هاشم، قال[1] عبد الله بن كثير السهمي، وكان يتشيع حين سمع عمال خالد بن عبد الله القسري يلعنون علياً والحسين على المنابر:

لعن الله من يسب علياً وحسيناً من سوقة وإمام
أيسب المطيبون جدوداً والكرام الأخوال والأعمام
يأمن الظبي والحمام ولا يأ من آل الرسول عند المقام
طبت بيتاً وطاب أهلك أهلاً أهل بيت النبي والإسلام
رحمة الله والسلام عليهم كلما قام قائم بسلام

وكانت سكينة لا تألو جهداً في شتم الأمويين، واتخذت في ذلك عادة لأن الأمر كان يغيظها جداً، فتجيء في ستارة يوم الجمعة فتقوم إزاء ابن مطيرة وهو خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم، إذا صعد المنبر، فإذا شتم علياً، شتمته هي وجواريها، فكان يأمر الحرس فيضربون جواريها[2].

وخص الشيعة موضوع الإمامة بقيمة دينية، وتتضمن كتبهم العقائدية فصلاً خاصاً، فكرته الموجهة هي هذا الحديث المردد: «من مات دون أن يعلم أمام عصره مات ميتة جاهلية»[3].

(١) المصب الزبيري ـ نسب قرسش ص٦٠.
(٢) الأغاني ـ دار الكتب الجزء السادس عشر ص ١٤٣.
(٣) BI. TI. P.363.

وقوة الإحساس والتعصب لحق علي بلغا أشدهما عند الطائي حين راح يرتجز بالناس ليلة الهرير ويحثهم على قتال معاوية، لأنه الخصم الذي انتزع حقه وقسي عليه، وعمل على إشاعة الفرقة بين الأمة. ويدعوهم إلى نصرة ابن عم المصطفى ووصيه. ويدعو في صواب ورشاد إلى الثورة على الحق المهضوم المتمثل في معاوية الغاصب المعتدي، يقول[1] الوليد بن ظالم الطائي وقد علا صوته أصوات الناس:

شدوا فداء لكم أم وأب ... فإنما الأمر غدا لمن غلب

هذا ابن عم المصطفى والمنتخب ... تنسبه للعلاء سادات العرب

ليس بموصوم إذا نص النسب ... أول من صلى وصام واقترب

وحين سأله معاوية عن قوله قال، كنا مع رجل لا يعلم خصلة توجب الخلافة ولا فضيلة تصير إلى التقدمة إلا وهي مجموعة له. كان أول الناس مسلماً وأكثرهم علماً وأرجحهم حلماً.

أما أم سنان بنت خشمة المذحجية، فإنها تجادل عن قناعة في حق علي بالخلافة، من الناحية الدينية والشرعية. فعلي يستمد حقه في السلطان من مقامه وبما يتمتع به من صفات السيادة، وقد باعدت بين الخلافة وأعداء علي وهم هنا الأمويون، وراحت تشحذ الهمم، وتحرك كوامن النفوس المتخاذلة عن نصرة إمام الحق، وتحبب إليهم القتال تحت راية علي لأن النصر مأمول ولأنه قتال شريف من أجل غاية سامية. وحين دخلت أم سنان على معاوية ذكرها بقولٍ[2]:

عزب الرقاد فمقلتي لا ترقد ... والليل يصدر بالهموم ويورد

يا آل مذحج لا مقام فشمروا ... إن العدو لآل أحمد يقصد

هذا علي كالهلال تحفه ... وسط السماء من كواكب أسعد

خير الخلائف وابن عم محمد ... إن يهدكم بالنور منه تهتدوا

ما زال مذ شهد الحروب مظفراً ... والنصر دون لوائه ما يعقد

---

(١) الهمداني - كتاب الإكليل ص٢٠٣.

(٢) أحمد الهاشمي - جواهر الأب، الجزء الأول، ص٤٣١.

وقد تطارق بعض الناس بشأن سوء الحال بين بني هاشم وبني أمية فنعتوا بني أمية بأنهم من الذين ساءت سيرتهم، وقبحت أعمالهم لما استحدثوا من البدع وقضوا بغير الحق وسفكوا دماء المسلمين. وحتى الأكفاء منهم والأتقياء القلوب. قال بعضهم[١]:

عبد شمس قد أوقدت لبني هاشم ... ناراً يشيب منها الوليد
فابن حرب للمصطفى، وابن هند ... لعلي، وللحسين يزيد

واستحكم العداء بين البيتين، فهذا هو الأشتر النخعي يهدّد معاوية بالغارة إثر الغارة، ويقول: «أبقيت مالي ولم أنفقه فيما يكسبني الذكر ورفع القدر لأن غايتي في الانحراف عن معالي الأمور وعن لقاء الضيف بوجه كالح عبوس»، ونراه يدعو إلى نفسه بما يكسبه سوء الثناء إن لم يفرق الغارة على ابن حرب يعني معاوية بن أبي سفيان، ويعلل ذلك بأنه لم يفعل شيئاً يشينه بل يجد في ذلك نزاهة النفس عن لوازم العار. يقول[٢]:

ابقيت وفري وانحرفت عن العلا ... ولقيت أضيافي بوجه عبوس
إن لم أشن على ابن حرب غارة ... لم تخل يوماً من نهاب نفوس
خيلا كأمثال السعالي شزبا ... تعدو ببيض في الكريهة شوس
حمي الحديد عليهم فكأنه ... ومضان برق أو شعاع شموس

وعلى غراره كانت بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية تسير في الجيوش وتدعوهم إلى استئصال الأمويين ومعاقبتهم الصارمة الثقيلة التي تدك أعناقهم. فعلي والحسين ورهطهم خير من يصلح للخلافة وترى طاعة الخالق في الاعتراف بإمامة صهر النبي ودعوة أخيها الذي كان أول من بايع ودخل في الإيمان. والواقع يفرض علينا مؤازرته ونصرته ليتخلص من الحاكم الطاغية القاهر الفاسق. تقول[٣] في دعوة أخيها لنصرة الحق وشد العزم:

شمر لفعل أبيك يا ابن عمارة ... يوم الطعان وملتقى الأقران

---

(١) مجلة العرب الجزء الثالث ١٩٨١ ص٢٩٥.
(٢) شرح ديوان الحماسة لأبي تمام الجزء الأول ص٧٥.
(٣) أحمد الهاشمي ـ جواهر الأدب، الجزء الأول، ص٤٢٩.

وانصر علياً والحسين ورهطه واقصد لهند وابنها بهوان
إن الإمام أخا النبي محمد علم الهدى ومنارة الإيمان
فقد الجيوش وسر أمام لوائه قدماً بأبيض صارم وسنان

وتناول شعراء الشيعة حق علي وآل بيته وقالوا فيه كثيراً ولم يتركوا حجة إلا أتوا بها، لذلك كان طبيعياً أن تندفع ألسنتهم في حملة شعواء على خصومهم الأمويين، وتتناول جرائمهم بالنكران وسياستهم بالبطش والجبروت من أجل تأليب الناس عليهم وعلى حكمهم، والنفور منهم سواء من الناحية السياسية أو من الناحية الإجتماعية أو من الناحية الأقتصادية. ذلك إنهم حكموا البلاد حكماً دكتاتورياً صارماً واستأثروا بخيراتها وفيئها وأمعنوا في الفحش والصرامة، وتفرق من حولهم المؤمنون الذين هوت أفئدتهم إلى الالتفات حول الشيعة الثائرين في مختلف أقطار الدولة الإسلامية وبالأخص في الكوفة حيث شكلت المنطقة الأكثر غلياناً واضطراباً، وكانت بمثابة الأرض الصلبة للمعارك التي دارت بين الشيعة والأمويين. فكانت نتيجة لذلك مادة لقرائح الشعراء الذين أكثروا فيها القول، فكان شعراء كل طرف يناضلون من أجل وصول زعيمهم إلى السلطة، وليحقق النظام الجديد الذي يدعو إليه.

وكان الإمام علي مثلاً أعلى في السماحة والنبل والفروسية والإيمان، بينما كان معاوية ماكراً داهية سواء في معارضته لخلافة علي أو في ادعائه واختيار أعوانه. وجال الشعر الشيعي في هذا المضمار. والذي يهمنا منه خوضه ومعركته مع الأمويين والحملة عليهم، وخصوصاً بعد أن دارت الدائرة على الناكثين في وقعة الجمل. فصب بعض ذلك الشعر على استنهاض الهمم وراح يدعو علياً ويحرضه على السير إلى الشام، قبل أن يستفحل الخطر هناك، فمعاوية أشبه بحية صماء تنفث السموم وتؤلب الناس ويدعو إلى رفض طاعته وإعلان العصيان، وعدم الرضوخ لشروط معاوية. يقول الشني محرضاً علياً على المسير إلى الشام[1]:

قل لهذا الإمام قد خبت الحرب وتمت بذلك النعماء
وفرغنا من حرب من نكث العهد وبالشام حية صماء
تنفث السم، ما لمن نهشته فارمها قبل أن تعض شفاء

---

(١) الدينوري ـ الأخبار الطوال ص١٥٢.

وهذا التحريض كان يقابله تحريض آخر من قبل شعراء بني أمية، وخصوصاً حين سعت عبثاً الرسل لرأب الصدع بين الخصمين، وتعرض معاوية لعلي في دهاء وخبث. يقول الوليد بن عقبة قبيل موقعة صفين(١):

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... فإنك من أخي ثقة مليم
قطعت الدهر كالسدم المعنى ... تهدر في دمشق فما تريم
وإنك والكتاب إلى علي ... كدابغة وقد حلم الأديم
وليس أخو التراب بمن توانى ... ولكن طالب الترة الغشوم

واللافت للنظر أن بعض الأمويين كانوا بحيرة من ادعاء السفيانيين لولاية أمر المسلمين، فعنفوا معاوية تعنيفاً شديداً ونعتوه بالمكار والدجال الذي يعطيك من فيه عسلاً، وكانوا ينعتون الإمام الهاشمي بأنه أمام رشاد وخير وبركة وله في أعناق المسلمين عهد وذمة كما عملوا على تحذير الشاميين من خدع معاوية وألاعيبه وبأنه لا مجال لنكث العهد، بل يدعونهم إلى اليقظة من غفوتهم ومبايعة علي، وأن ينتبهوا جيداً إلى ما يحوكه لهم معاوية. يقول عياض الثمالي لشرحبيل بن السمط لما بويع معاوية(٢):

فإن ابن حرب ناصب لك خدعة ... تكون علينا مثل راغية البكر
فإن نال ما نرجو له كان ملكنا ... هنيئاً له والحرب قاصمة الظهر
وإن علياً خير من وطيء الحصى ... من الهاشميين المداريك للوتر
له في رقاب الناس عهد وذمة ... كعهد أبي حفص وعهد أبي بكر
فبايع ولا ترجع إلى العقب كافراً ... أعيذك بالله العزيز من الكفر

وأخذ على معاوية مكره وجبنه، فهو وإن استطاع أن يجمع حوله الأنصار بحلمه ودهائه، إلا أنه ظل أضحوكة على ألسنة الشعراء الذين شنعوا تخاذله عن منازلة الأبطال، إيثاراً للسلامة وتعلقاً بأدران الحياة. يقول النصر بن الحارث حين صرع أبو تراب بسر بن أرطأة وكان من أبطال الأصحاب وكان مع معاوية بصفين يقول(٣):

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ الجزء الثالث، ص٢٨٠.
(٢) معجم الشعراء للمرزباني ص١١٢.
(٣) شهاب الدين الخفاجي ـ ريحانة الألباب الجزء الثاني ص٣٧٧.

أفي كل يوم فارس ليس ينتهي وعورته وسط العجاجة بادية
يكف بها عنه علي سنانه ويضحك منها في الخلاء معاوية

وجعل شعراء الشيعة قضية الإمام علي قضية الإسلام نفسه، وتوسلوا بالدين ومبادئه لإقرار إمامته، فهذا مصقلة بن هبيرة الشيباني يشير في معرض إحتجاجه للشيعة إلى نظام علوي قائم على أمور يقرها العرق والدين صارخاً في وجه معاوية، معيباً عليه شمته، متندماً على إخلاصه له ومفارقته لعلي وللدين الحنيف، واتباعه معاوية وولاة الجور. يقول[1] لسبب بينه وبين المغيرة بن شعبة:

أيضربني معاوية بن حرب ويشهرني لأغور من ثقيف
وينسى لي مفارقتي علياً على الإسلام والدين الحنيف

وتصور خطبة الإمام علي، كم البون شاسع بينه وبين مرتكب الجرائم والمستهين بمقومات الدين والأخلاق. وكأن الرحمن هو الذي اختار علياً وشيعته لإصلاح حال المسلمين وليقطعوا أعداء الدين وقتلة المؤمنين، وليخلصوا الإسلام من اتباعه المرائين المؤلفة قلوبهم. يقول[2] وكان ذلك غداة التأهب إلى صفين: «أيها الناس، سيروا إلى أعداء السنن والقرآن، سيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار، سيروا إلى الجناة الطغام الذين كان إسلامهم خوفاً وكرهاً، سيروا إلى المؤلفة قلوبهم ليكسفوا عن المسلمين بأسهم».

وهذا عبد الله بن عمر بن عبد الله بن علي... عبد شمس في قصيدته الموالية للشيعة يعلن إعجابه بعلي وبدينه الحق وبضرورة مبايعته وتأييده كما يبدي أسفه على أبناء قرابته من الأمويين الذين باعوا أنفسهم للشيطان وعمدوا إلى سب علي على المنابر، بدلاً من تأييده وشد أزره، يقول[3]:

شردوا بي عند امتداحي علياً ورأوا ذاك في داء دوياً
فوربي لا أبرح الدهر حتى تختلي مهجتي، أحب علياً
وبنيه لحب أحمد إني كنت أحببتهم لحبي النبيا

(١) معجم الشعراء للمرزباني ص٤٤٧.
(٢) الدينوري ـ لأخبار الطول ص ١٦٤.
(٣) الكفراوي ـ تاريخ الشعر العربي الجزء الأول ص١١٣.

فسواء علي لست أبالي عبشميا دعيت أم هاشميا

وهذا ابن حزم يعمل في رسالته على تقرير حق الهاشميين على أسس جديدة قوامها الأسبقية في المبايعة، وهو بذلك يصور حق الأمويين مغتصبين ومخطئين، وقد لزموا طاعة الشيطان وتركوا رضوان الله. فالخلافة عنده ليست ميراثاً ولا تتم بالولاية أو بالنص، بل هي عنده قائمة على فضل السبق ولا يجوز الإحجام عن المبايعة ما دام هناك إمام منتخب. والدخول في طاعته واجب لأنه يقي الأمة شر الإضطراب ويحفظ وحدة الكلمة، ويصون الدين من التفسخ ومن عوامل الانحلال.

ويحتج بأن مثل هذا المنصب لا يخضع لأهواء الطامعين. وطالما أن المسلمين قد رضوا بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان فلا يجوز الإنحراف عن مبدأ التسليم بالأمر الواقع والإعتراف بخلافة علي، يقول: «أما خلافة علي فحق لا بنص ولا بإجماع... فمن سبقت بيعته وهو أهل الإستحقاق والخلافة فهو الإمام الواجبة طاعته فيما أمر به من طاعة الله عزَّ وجلَّ، سواء من كان هناك من هو مثله أو أفضل، كما سبقت بيعة عثمان فوجبت طاعته وإمامته على غيره ولو بويع هناك، حينئذ وقت الشورى علي أو طلحة أو الزبير أو عبد الرحمن أو سعد لكان الإمام، وللزمت عثمان طاعته ولا فرق فصح أن علياً هو صاحب الحق والإمام المفترضة طاعته ومعاوية مخطئ مأجور مجتهد»[١].

وكان لهذا الرأي أثر واضح عند تنازل الحسن لمعاوية، ومبايعته إذ كتب الحسن إلى قيس بن سعد، وهو على مقدمته في اثني عشر ألفاً يأمره بالدخول في طاعة معاوية، فقال قيس في الناس: أيها الناس اختاروا الدخول في طاعة إمام الضلالة أو القتال مع غير إمام، فقال بعضهم بل نختار الدخول في طاعة إمام الضلالة؛ فبايعوا معاوية[٢].

ولاقت سياسة معاوية القائمة على الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، معارضة عارمة من قبل المسلمين قاطبة، ولا سيما عندما خالف معاوية الشروط التي

(١) ابن حزم الأندلسي، في المفاضلة بين الصحابة ص٢٥٢ ـ ٢٥٣.
(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ، الجزء الثالث ص٤٠٧. الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك الجزء السادس ص٩٢.

أبرمها على نفسه عند تنازل الحسين له عن الخلافة، فها هو يرميه بالفحش وسوء الرأي، وفساد الخلق والبغي وينعت حزبه بحزب الظالمين، وأولياء الشياطين، ويتعدى لمسألة استلحاق زياد ويصور المسألة في أبعادها ومراميها، وما فيها من خروج عن الإسلام حين قال له: تركت سنة رسول الله فخالفت أمره متعمداً واتبعت هواك مكذباً بغير هدى من الله، كأنك لست من الأمة وكأنها ليست منك، وقد قال رسول الله: «من ألحق بقوم نسباً ليس لهم فهو ملعون»[١].

فمعاوية إذن ملعون وأمته بريئة منه، إنه أشبه بالطريد الذي رمى أسرته وقبيلته لاقترافه إثماً يصعب الصفح عنه. وفي رسائل الإمام علي لمعاوية نراه يسوق معانيه في إطار من المفخرة الجاهلية، وقد ركز حديثه فيها على الأسبقية والمآثر المبذولة في سبيل نشر لواء الإسلام. ويذكر معاوية بانه من الطلقاء الذين لا تصح مساواتهم بالمهاجرين وبالتالي من الذين لا تحل لهم الخلافة. يقول له: «ليس أهل الشام على الدنيا بأحرص من أهل العراق على الآخرة، وأما قولك نحن بنو عبد مناف فكذلك نحن وليس أمية كهاشم ولا حرب كعبد المطلب ولا أبو سفيان كأبي طالب ولا الطليق كالمهاجر ولا المبطل كالملحق وفي أيدينا فضل النبوة التي قتلنا بها العزيز وبعنا بها الحر والسلام[٢].

كان اعتزاز آل البيت، بنسبهم وبإيمانهم بحقوقهم في الخلافة التي أضحت إلى أناس غير جديرين بها ولا يساوونهم منزلة ورفعة، لأنهم قوم كثرت شرورهم وقل خيرهم ولا تتوافر فيهم مقومات الرئاسة وما تتطلبه من صحة في المذهب، وجرأة وإقدام لدحر الباطل إلى جانب الصلاح والتقوى. يقول علي بن الحسين وكان أول من قتل في كربلاء من آل بني أبي طالب[٣]:

أنا علي بن الحسين بن علي ... نحن ورب البيت أولى بالنبيّ
تالله لا يحكم فينا ابن الدعي

---

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف ص١٢١.
(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص٢٣.
(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ الجزء الرابع، ص٧٤.

وهذا النابغة الجعدي يهدد معاوية ويتوعده ويدعو الناس إلى أن ينفضوا عنه ويعرفوا الحق، وقد اتخذ من جور الأمويين وظلمهم دليلاً واضحاً على سوء سياستهم وحمل الناس على النفور من سياسة البغي والفساد والالتفاف حول علي الكريم النسب الرفيع المنزلة والذي يسير بشيعته سيرة حسنة على نهج الدين ويدعوهم إلى مجاهدة الأمويين وتخليص القوم من استعبادهم ونقضهم لأحكام الكتاب والسنة، يقول[١]:

قد علم المصران والعراق ... أن علياً فحلها العتاق

أبيض جحجاح له رواق ... وأمه غالى بها الصداق

سقتم إلى نهج الهدى وساقوا ... إلى التي ليس لها عراق

في ملة عادتها النفاق

وكان شعور العظمة ينمو ويكبر باطراد عند شعراء الشيعة. واستحال عندهم إلى نوع من الجدل السياسي القائم على المفاضلة بين علي ومعاوية إذ عمد كل شاعر إلى نقض أفكار خصمه، فكرة فكرة ومعنى معنى، ولكن دون تهتك ولا فسق، وإنما كانت على أساس الفضائل الرائدة ودون مخالفة لآداب العامة، أو شذوذ عن مكارم الأخلاق، وكنا نشعر من خلال كل فريق، نزعة واضحة تزكيها العصبية التي أضرم نارها الأمويون والتي كانت من أشد دواعي الفرقة والتباعد. وصور الصراع على أنه صراع عصبي إقليمي بين العراق والشام فهذا كعب بن جعيل يعبر عن رأي أهل الشام بأبيات أرسلها معاوية إلى علي بواسطة رسوله جرير قائلاً له «إلحق بصاحبك واعلمه أني وأهل الشام لا نجيبه إلى البيعة» قال كعب[٢]:

أرى الشام تكره ملك العراق ... وأهل العراق لهم كارهونا

وكل لصاحبه مبغض ... يرى كل ما كان من ذاك دينا

وقالوا علي إمام لنا ... فقلنا رضينا ابن هند رضينا

وقالوا نرى أن تدينوا لنا ... فقلنا لهم لا نرى أن ندينا

فلما قرأه علي رضي الله عنه قال للنجاشي أجب. فقال:

---

(١) الأغاني ـ دار الكتب ـ الجزء الخامس، ص١٦٧٥.

(٢) الدينوري ـ الأخبار الطوال ص١٦٠.

دعانا معاوي ما لن يكونا ... فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم علي بأهل العراق ... وأهل الحجاز فما تصنعونا
فقولوا لكعب أخي وائل ... ومن جعل الغث يوماً سمينا
جعلتم علياً وأشياعه ... نظير ابن هند أما تستحونا

وهذا النمط من الكلام ذو أصل ثابت في الجاهلية. وقد عرف آنذاك **بالمنافرة**(١) التي استحالت في العصر الأموي إلى نوع من أدب الموازنة أي المفاضلة بين بني هاشم وبني أمية، وهذا ما بدا واضحاً حين قذف الإمام علي آل حرب ورماهم بالبغي والفجور ونكران الجميل وذكرهم بمخازيهم في الجاهلية والإسلام وأقام معادلة طريفة بين البيتين فرفع بني هاشم إلى العلاء وأنزل بني أمية إلى الحضيض. قال(٢):

«بنو أمية أنكر وأمكر وأفجر، ونحن أصبح وأفصح وأسمح».

ويبدو أن الهجاء قد وجد متنفساً في العلاقات المتوترة القائمة بين البيتين فانعكست فيه معان جديدة وأضحى هجاء بالكفر، وفخراً بالتقوى وبالامتناع عن مواقع الفحشاء ورد التهم. يقول الفضل بن العباس ناقضاً اتهام الوليد بن عقبة الذي وضع بني هاشم في قفص الاتهام والاشتراك في المؤامرة التي أودت بحياة عثمان في بداية الفتنة(٣):

فلا تسألونا بالسلاح فإنه ... أضيع وألقاه لدى الروع صاحبه
وشبهته كسرى وقد كان مثله ... شبيهاً بكسرى هديه وعصائبه
وكان ولي العهد بعد محمد ... علي، وفي كل المواطن صاحبه
علي ولي الله أظهر دينه ... وأنت مع الأشقين فيما تحاربه

ويسلك الفضل بن العباس في تأنيب الأمويين مسلك التندر والسخر، فهو يحذرهم من جورهم وطغيانهم، ويفرض عليهم نوعاً من المهادنة. وقد جعل بغض كل طائفة للأخرى نعمة من الله عليهم، لأنهم مع التباغض يتفرقون، وفي تفرقهم

(١) محمد نبيه حجاب ـ مظاهر الشعوبية في الأدب العربي ص٣٢٢.
(٢) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد الجزء الثالث، ص٣١٥.
(٣) الأغاني ـ دار الكتب، الجزء الخامس ص١٧٦٥.

صلاح لهم وفي قرب بعضهم من بعض مضرة عليهم. ويحذرهم من إمعانهم في إذلالهم وبألا يطمعوا بأننا لا نقابل الإهانة إلا بالإكرام، ولا الأذى إلا بالكف عن الأذى. بل على العكس نراه يعلن بلسان الشيعة أنه يكن لهم العداوة والبغضاء وإن هذه العداوة لا بد من أن تستحيل منابع حقد ودعوة للناس شيعيين وغير شيعيين للثورة عليهم. يقول[١]:

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا ... لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم ... وأن نكف الأذى عنكم، وتؤذونا
الله يعلم أنا لا نحبكم ... ولا نلومكم ألاَّ تحبونا
كل له نية في بغض صاحبه ... بنعمة الله نقليكم وتقلونا

ويطعن الكميت الطعنات النافذة، فيوازن بين سياسة الهاشميين وتعهدهم للناس أيام الشدائد وبين سياسة بني أمية الذين يسوسون الناس كالأنعام. يقول[٢]:

أسد حرب غيوث بهاليل ... مقاويل غير ذي أقدام
سادة ذادة عن الخرد البيض ... إذا اليوم صار كسالف الأيام
ساسة لا كمن يرى رعية الناس ... سواء ورعية الأنعام

وتمشياً مع مبدأ الزيدية[٣] الذين يقدرون العدل صفة مهمة من صفات الإمام، يقرر الكميت أن الإمام الشيعي العالم الفقيه هو الذي ينفذ شريعة الله كما وردت في الكتاب والسنة بعكس الأمويين الذين لم يحكموا إلا بالبدع التي استحدثوها والتي تتضمن شذوذاً وعدولاً عن صدى القرآن والسنة. يقول[٤]:

لهم كل عام بدعة يحدثونها ... أذلوا بها أتباعهم ثم أوجلوا
تحل دماء المسلمين لديهم ... عليهم وهل إلا عليك المعول

فالأمويون أهل بدع وأهواء، وقد قطعوا حدود الله، فخرجوا عن عبادة الطريق السويّ إذ أنزلقوا وساروا بالناس إلى الجاهلية والكفر.

---

(١) المرزباني ـ المؤتلف والمختلف ص٣١٠.
(٢) الكميت ـ الهاشميات ـ الروضة المختارة ص١٣.
(٣) الشهرستاني، الملل والنحل، المجلد الأول، ص١٥٤.
(٤) الكميت، الهاشميات، الروضة المختارة، ص٦٤.

ويعتبر الكميت أول شاعر شيعي لجأ في الدفاع عن حق علي إلى الدليل والبرهان قال عنه الجاحظ «إنه أول من دل الشيعة على طرق الاحتجاج» وتوالت[١] حملات الشيعة على الأمويين حاملة بين طياتها الزراية والاحتقار والتنديد بهم وبملكهم مطرية صفات الزعامة الدينية على بني هاشم والتي لم تجمع في واحد من بني أمية. فشتان بين أخلاق الأمويين الفاسدة وأخلاق الساسة المصلحين. وتعتبر قصيدة دعبل بن علي الخزاعي صرخة عنيفة في وجه الظلم والظالمين وتبغيض من بني أمية بل إنها إذاعة لسياستهم واستبدادهم. يقول[٢]:

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات

لآل رسول الله بالخيف من منى ... وبالركن والتعريف والجمرات

ديار علي والحسين وجعفر ... وحمزة والسجاد ذي الثفنات

فكيف أداوي من جوى لي والجوى ... أمية أهل الفسق والتبعات

ووصف شعراء الشيعة أعداءهم بأنهم أعداء الله، وذلك كي لا يتركوا في النفوس المسلمة أي شك في ضرورة قتالهم. ونقضوا سياستهم وأظهروها في وجه يخالف الكتاب والسنة، لدرجة أن الناس باتوا يشكون بأنهم على ملة الإسلام. فأبو خلف يدعو بني أمية إلى التنازل عن الخلافة ليركبها بنو هاشم فتكون العقبة لهم وشبه المنى لدى الطالبين. يقول[٣]:

أعقبي آل هاشم يا أميا ... جعل الله بيت مالك فيا

إن عصى الله آل مروان والعا ... صي لقد كان للرسول عصيا

لو تصفحت أولياء علي ... لم تجد في جميعهم باهليا

ولئن شكك بعض المؤرخين في نسبة لامية الفرزدق التي يمدح فيها زين العابدين فمن الثابت أنه كان يتشيع لأبناء علي. وكان يندفع في تأييد الحزب الحاكم والإشادة بخلفائه ورجالاته طمعاً لحظوة أو خوفاً من الأذية. فممدوحه سيد عظيم الشأن يعرفه الناس قاطبة داخل الحرم وخارجه لأنه سليل أمجاد. وهو يطلق دعوة

---

(١) LAMMENS Etudes sur les siecles des Omayades P.86.

(٢) ديوان دعبل بن علي الخزاعي، ص١٣١.

(٣) الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ الجزء الثالث، ص٣٥٨.

غير مباشرة إلى الإلتفاف حول الأسرة العلوية. ولهذه القصيدة أهمية قصوى فقد جاء فيها المدح هادفاً إلى غرض سياسي لأنه إشادة ببني هاشم، وتحد للبيت الأموي، كل ذلك في إطار من المفاخرة والإعجاب بالأحساب الكريمة والاستياء من بني أمية. يقول[١]:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة، إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك: من هذا؟ بضائره، ... العرب تعرف من أنكرت والعجم
من معشر حبهم دين، وبغضهم ... كفر وقربهم منجى ومعتصم

وصور الحسين بن علي فساد الأمويين بأبشع الصور، حين وقف مخاطباً قوماً مثيراً فيهم الحماسة والحمية. وعندما اعترض طريقه إلى الكوفة الحر بن يزيد التميمي داعياً إلى رص الصفوف وإحقاق الحق ومعاقبة المجرم المخطىء وإنزال الحاكم المستبد معتمداً في قوله على المنطق والحجة الواقعة يقول[٢]: «أيها الناس إن رسول الله قال: «من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله الإثم والعدول ما عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله». ألا وأن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله وأنا أحق من غيري».

فالأميون في نظر الشيعة أبعد الناس عن الإسلام. ونحن لا نجد في هاشميات الكميت رأياً عقائدياً تشوبه الأطماع السياسية والاجتماعية والمادية، بل همه هدم نظم الأمويين وتحطيم دولتهم من الداخل. فإذا قصائده حجاج وجدال تستهدف الإقناع والدفاع عن خلافة بني هاشم ومعناها الديني والتنديد ببني أمية الذين ساروا بالناس سيرة جاهلية وردوهم إلى الكفر بعد الإيمان لكثرة ما ابتدعوا من نظم دنيوية

---

(١) ديوان الفرزدق ـ المجلد الثاني ص١٧٨.
(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ، الجزء الرابع، ص٤٨.

فاسدة خرجت بهم عن روح الإسلام وجعلت الثورة عليهم ضرورة واجبة. يقول الكميت[١]:

وعطلت الأحكام حتى كأننا ... على ملة غير التي نتنحل
أأهل كتاب نحن فيه وأنتم ... على الحق بالكتاب نسير ونعدل
فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم ... فحتى م حتى م العناء المطول
رضوا بفعال السوء من أمر دينهم ... فقد أيتموا طوراً عداء وأثكلوا

وهو يلتقي هنا مع عمار بن ياسر الذي كان مع علي في صفين مسوغاً الخروج على معاوية لاقترافه الأثم وسلوكه مسلك الضلال. يقول[٢]:

نحن ضربناكم على تنزيله ... فاليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله

ويرى عقيبة في جيش معاوية جيش الضلالة ولا يستحق هذا الجيش المارق وقواده إلا الذل والهوان ويهددهم بأنه لا مفر لهم ولا لأمثالهم من يد الإمام علي الذي أعد الجيش أثر الجيش ليستأصل شأوتهم. يقول[٣]:

أرى ابن أبي سفيان يزجي جياده ... ليغزو علياً خلة وتحامقا
وبئس الفتى في الحرب يوماً إذا بدت ... برازيق خيل يتبعن برازقا

ويشن الشعر الشيعي هجوماً على ابن زياد، وعلى ما ارتكبت يداه من مظالم، ويتمنى فيه زوال جبروتهم وسلطاتهم الجائرة. وهذا عبد الله بن الحر الشاعر الفارس الصعلوك يخاطب ابن زياد الذي وقعت مأساة كربلاء في أيامه مهدداً إياه بالثأر والانتقام والثورة على الظالم، الذي سفك دماء الطهر ظلماً وبغياً. يقول[٤]:

يقول أمير غادر حق غادر ... ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمة
أتقتلهم ظلماً وترجو ودادنا ... فدع خطة ليست لنا بملائمة

---

(١) الكميت ـ الروضة المختارة، ص٦١.
(٢) يوسف خلف ـ حياة الشعر في الكوفة ص٣٥٤.
(٣) البلاذري ـ أنساب الأشراف، القسم الرابع الجزء الأول، ص١٠١.
(٤) الكامل في التاريخ ـ الجزء الرابع ص٢٨٨.

أهـم مـراراً أن أسـيـر بـجـحـفـلٍ إلـى فـئـة زاغـت عـن الـحـق ظـالـمـة
فـكـفـوا وإلا زرتـكـم فـي كـتـائـب أشـد عـلـيـكـم مـن زحـوف الـديـالـمـة
سـقـى الله أرواح الـذيـن تـبـادروا إلـى نـصـره سـحـاً مـن الـغـيـث دائـمـة

وكان للمجزرة الرهيبة التي تعرض لها آل البيت في كربلاء صدى واسع عند معظم الشعراء الذين سطروا فيها قصائد عدة باكية دامية صوروا فيها تلك المآسي وما رافقها من صلب وقتل وإحراق وسوء معاملة لأهل الدين. فكان قتل بني هاشم عند أبي الأسود يعني قتل الدين الحنيف. ونراه ينعت الأمويين بالأفاعي التي هتكت أستار الكعبة ومزقتها، ويعود ليستنهض همم بني قشير ويدعوهم إلى عدم التلكؤ في تنفيذ إرادة المسلمين في الثورة العارمة عليهم، لقلع جذور دولتهم يقول[١]:

يـا نـاعـي الـديـن الـذي يـنـعـى الـتـقـيّ قـم فـانـعـه والـبـيـت ذا الأسـتـار
أبـنـي عـلـي آل بـيـت مـحـمـد بـالـطـف تـقـتـلـهـم جـفـاة نـزار
أبـنـي قـشـيـر إنـنـي أدعـوكـم لـلـحـق قـبـل ضـلالـة وخـسـار
قـودوا الـجـيـاد لـنـصـر آل مـحـمـد لـيـكـون سـهـمـكـم مـع الأنـصـار
بـهـم اهـتـديـتـم فـاكـفـروا إن شـئـتـم وهـم الـخـيـار وهـم بـنـو الأخـيـار

ويعتبر سليمان بن قتة قتلى الطف وصمة عار في جبين المسلمين، فنراه في رثائه ثائراً حزيناً مهدداً بالثورة في عنف وصراحة، منادياً بثارات الحسين وبعقد العزم على غزو الشام. وأولئك الذين غدروا ومكروا واستباحوا الحرمات وطعنوا الحق وانتصروا بالباطل، وذلك حتى يفيء معاوية وشيعته إلى الله أو يقتلوا جميعاً. يقول[٢] في رثاء الحسين بن علي بن أبي طالب:

مـررت عـلـى أبـيـات آل مـحـمـد فـلـم أرهـا كـعـهـدهـا يـوم حـلـت
وكـانـوا رجـاء ثـم صـاروا رزيـة فـقـد عـظـمـت تـلـك الـرزايـا وجـلـت
وإن قـتـيـل الـطـف مـن آل هـاشـم أذل رقـاب الـمـسـلـمـيـن فـذلـت

وأبيات الحر تشع فيها روح الثورة والتمرد، ويعلن أنه لم يطع ابن زياد طاعة

(١) ديوان أبي الأسود الدؤلي، ص١٢٤.
(٢) المبرد ـ الكامل في الأدب، الجزء الأول ص٢٢٣.

لئلا يدخل في دولته الظالمة الزائغة عن الحق بقتله الحسين وأنصاره ظلماً، فها هو يهدّده ويتوعده. يقول[١]:

أتقتلهم ظلماً وترجو ودادنا فدع خطة ليست لنا بملائمة
لعمري لقد راغمتمونا بقتلهم فكم ناقم منا عليكم وناقمه
أهم مراراً أن أسير بجحفل إلى فئة زاغت عن الحق ظالمه

ويتساءل ابن الحر والندم يأكله، كيف تغافل عن نداء الحسين، ولماذا لم يهب لنصرة الحق والقضاء على الفئة الزائغة. يقول [٢]:

فيا لك حسرة ما دمت حيا تردد بين حلقي والتراقي
حسين حين يطلب بذل نصري على أهل العداوة والشقاق

وهكذا تسوء الحال بين ابن الحر وزياد ويتهمه بالغدر والخيانة فيتفجع على قتلى الطف ويتحسر على اعتزاله وخذلانه منددا بالأمويين وبضلالتهم وتعصره الدمعة فيأتي كربلاء زائراً فينظر إلى مصارع الحسين ومن قتل معه ويستغفر لهم لأنهم سقطوا ضحية الجهاد والحق.

والغاية القصوى عند أبي الأسود تكمن في زوال ملك بني زياد، ويعني هذا زوال ملك أسيادهم الأمويين لأنهم غالوا في الإلحاد والكفر والضلالة، فهم خانوا العهد وغدروا، إنهم أشبه بقوم عاد وثمود التي أمر الله بإحراقها وأضحت في خبر كان لفسقها وفجورها. يقول[٣]:

أقول وزادني جزعاً وغيظاً أزال الله ملك بني زياد
وأبعدهم كما غدروا وخانوا كما بعدت ثمود وقوم عاد
ولا رجعت ركابهم إليهم إذا وقفت إلى يوم التناد

ولم يتهيب شعراء الشيعة من التوجه إلى الأمويين بلهجة العنف ويحملونهم مسؤولية قتل الإمام علي. وهذا ما جاهر به أبو الأسود، وأعلن نقمته على فعلتهم السوء تلك، وهجاهم وأظهر مروقهم على الدين بقتلهم خيار الناس طراً، وأفضلهم

---

(١) يوسف خلف ـ حياة الشعر في الكوفة ص٣٧٨.
(٢) الدينوري ـ الأخبار الطوال ص٢٦٢.
(٣) أبو الأسود الدؤلي ـ مستدرك الديوان ص١٥٣.

حسباً ونسباً، يقول حين كتب إليه معاوية يعلمه أن الحسن عليه السلام قد راسله في الصلح ويدعوه إلى أخذ البيعة له بالبصرة، يقول[١]:

ألا أبلغ معاوية بن حرب فلا قرت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا وخيسها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ومن قرأ المثاني والمئينا

ووقفوا من أمر المبايعة ليزيد موقف المعارض القوي الذي لا يقبل المساومة، وحاجوا الأمويين بكتاب الله الذي لا يترك شارة ولا واردة إلا أتى على ذكرها. ودعوهم إلى أن يستقيموا على سبيل الهدى ويتجنبوا فراق جماعات المسلمين. فيزيد لا تصلح خلافته. ودعوا معاوية إلى عدم الإقدام على مثل هذه الخطوة، إذ أن يزيد غلام سفيه ماجن سكير لا تصح إمامته. ويجاهر الحسين في ذلك وفي قضية الاستحلاف محذراً معاوية من المعصية والفتنة ومن أخذه بالشبهة والظنة لأنه لا يجب أن يسوس الأمة إلا إمام صادق يحكم بعدل بين الرعية. يقول في خطابه إلى معاوية[٢]:

... أبشر يا معاوية بالقصاص، وأيقن بالحساب، وأعلم أن لله كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وليس الله بناس لك أخذك بالظنة، وقتلك أولياءه على الشبهة والتهمة، وأخذك الناس بالبيعة لابنك غلام سفيه، يشرب الشراب ويلعب بالكلاب» . . .

ورب قائل إن الشعراء الشيعة لم يخلصوا كل الأخلاص لمبادئهم ولعقيدتهم الحزبية، والدليل على ذلك أن الكميت الذي حاجج الأمويين بشعره المحكم ومنطقه الرصين، وناصر آل البيت في الخلافة، لم يلبث أن عاد إلى آل مروان ليقول فيهم[٣]:

والآن صرت إلى أمية والأمور لها مصائر

(١) الأغاني ـ دار الكتب، الجزء الثاني عشر ص٣٢٩.
(٢) البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ص١٢٢.
(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ، الجزء الثالث، ص٣٩٥.

أنتم معادن للخلافة كابراً من بعد كابر

وقبله كثير عزة وحتى الفرزدق الذي كان غالباً ما يتصل بالأمويين على الرغم من هوى آل البيت كقول كثير وهو يمدح عبد الملك بن مروان[١]:

أحاطت يداه بالخلافة بعدما أراد رجال آخرون اغتيالها

فما تركوها عنوة عن مودة ولكن بحد المشرفي استقالها

بلوه فأعطوه المقادة بعدما أدب البلاد سهلها وجبالها

ولكن هذا لا يعني شيئاً إذ أن أكثرهم كان يقول بالتقية[٢]. وكانوا بذلك أشد على بني أمية.

ووفق هذه القاعدة عمل شعراء الشيعة على تكييف شعرهم مع الواقع إذ لم يلتزموا بمبادىء حزبية معينة توجب عليهم المجاهرة والتضحية. لذلك كانت دماؤهم عندهم غالية. وعقيدتهم الدينية تتقدم على مذهبهم السياسي وخصوصاً عندما علمنا بمديح بعض شعرائهم للأمويين ككثير عزة والكميت، فالعقيدة كانت ذات سلطان قوي لكنها في المرتبة الثانية من حياتهم. وقد سنوا لأنفسهم مبدأ التقية وعمدوا إلى مصانعة الأمويين لنوال عطاياهم. مبررين ذلك من أجل بقائهم أحياء ليتابعوا عملية الإستمرار في المكافحة من أجل استرداد حقوق آل البيت المسلوبة والمغتصبة على أيدي حكام المجون.

لقد مضى الشعر الشيعي نشطاً قوياً في مدحه الشيعة، فكان لا يتوالى في إظهار أحقيتهم بالخلافة حاضاً على إظهار فضلهم وصلاحهم إلى جانب تعداد مآثرهم الطيبة، وكان طبيعياً أن ينطبع شعرهم بطابع الحياة الدينية، وكما لاحظنا سابقاً إذ قلما نجد شاعراً أو مادحاً أو هاجياً إلا وكانت حملته الإعلامية تقوم على إثارة الشعور الديني بتركيز كلامه حول أحقية علي وبنيه بالخلافة، ومرد تلك الأحقية على حملهم لراية الإيمان واتباعهم دين الحق إلى جانب وجود بعض الاستدلال العقلي والمنطقي كتقرير قرابتهم من الرسول ووصيته لعلي من بعده سواء أكان ذلك بالنص أو بالاجتهاد. . .

---

(١) ديوان كثير عزة ص٨٠.

(٢) أحمد أمين ـ فجر الإسلام ص٢٧٤.

وهذه كلها أدلة ثابتة تهدف إلى تقويض سلطان بني أمية باعتبارهم مغتصبين لحقوق غيرهم إذ أن انتصارهم على الشيعة رمز لانتصار الكفار، وما خلافة معاوية إلا تتويجاً لذلك الانتصار. وغلبت على شعرهم نزعة المفاخرة بالأصل والنسب، وبالفضائل الدينية ليستشيروا بذلك العزائم ويستنهضوا الهمم إلى الثورة. وساق شعراء الشيعة في معرض الإحتجاج لحزبهم قضايا جدلية برهانية، وأتوا بأدلة دينية، كما جاء في شعر الكميت الذي ركز شعره حول هذه الناحية، وفضح طبيعة الأمويين القائمة على الغدر والخيانة إلى جانب اغتصابهم للسلطة.

وعمد الشعراء الشيعة بوجه عام إلى تسفيه الأمويين، وإظهار فساد سياستهم بتعطيلهم الحدود وإقامة دولة دنيوية. كل ذلك في إطار استكمال دعوتهم لآل البيت، وإظهار حقهم بولاية أمر المسلمين عليهم، ورغبتهم في التخلص من سلطان الأمويين الجائر المستحل لحرم الله. واعتبروا الخروج عليهم واجباً مقدساً، لذلك صوروا النكبات التي حلت بهم بأسلوب حزين باك، تغلب عليه عاطفة الإشفاق على الشيعة على اختلاف فرقهم ويعتبرون إمامتهم هي الصحيحة، إذ أخذوا على الأمويين عدم التزامهم بالكتاب والسنة، وعدوهم مبتدعين. ولم يزدهم اضطهاد الأمويين إلا تعنتاً وتشبثاً بما ينادون به.

النتائج والأغراض

يتصل الشعر الشيعي اتصالاً مباشراً بنشاط الشيعة السياسي. فكل منهما يصدر عن عقيدة سياسية، تنادي بأن الخلافة وإمامة المسلمين، حق لآل البيت وحدهم، وهذا الحق عدا عليه بنو أمية واغتصبوه اغتصاباً. ولهذا فقد تعبد الشيعة بحب آل البيت. وتكمن هذا الحب من قلوبهم، فصار كأنه ركن من أركان الإسلام، لأنهم اعتقدوا أن حب علي وآل عليّ، مظهر من مظاهر حبهم لله تعالى ولنبيّه.

من جانب آخر، فقد حمل الأمويون على زعماء آل البيت وآذوهم. كما حملوا على أنصارهم وأخذوهم بكل قسوة، وذلك بسبب ثورات الشيعة التي استمرت طيلة الحكم الأموي. وقد كان من نتائج ذلك قتل الأئمة الشيعة والتمثيل بهم واستئصال شأفتهم دون شفقة أو رحمة.

وإزاء ذلك كله اندفع شعراء الشيعة يعلنون مواقفهم السياسية تأييداً وانتصاراً للأئمة، وتسفيهاً واستنكاراً للأمويين وسياستهم التي أخذوا بها الهاشميين وأنصارهم.

في حب آل البيت

ونحن نجد أبا الأسود الدؤلي[١]، يعلن حبّه للرسول ولعميّه: عباس وحمزة، ولابن عمّه علي. ويقول إن حبه هذا متأصل في نفسه، منذ شرح الله صدره للإسلام. وهو ما انحرف يوماً، وما فتر وما اعوجّ وما نقص. وإنه سوف يبعث يوم القيامة على هذا الحب.

ويردّ أبو الأسود على بعض العثمانية[٢]، الذين أخذوا عليه اندفاعه في حب عليّ، فينعتهم بالسماجة والخسة، ويؤكد ثباته في الحزب الشيعي. فحبه لآل البيت مبعثه الرشاد والهداية. أما الإمام علي، فهو بنظره الوصيّ على الرسالة الإسلامية[٣].

أما حرب بن المنذر بن الجارود، فهو يقنع من دنياه باليسير القليل من الطعام الذي يقيم به أوده، ويقنع من أخراه بكفن من الكتان. وحسبه من دنياه وأخراه حبّ النبي وأقاربه، إذ يقول:

فحسبي من الدنيا كفافٌ ... وأثواب كتانٍ أزور بها قبري
وحبي ذوي قُربى النبي محمد ... فما سألنا إلا المودة من الأجر[٤]

ويرد كثير عزّة، على من يعاتبه في حب آل البيت، ويعد ذلك من مساوئه. ويذكر أن من يحبّ النبي ﷺ، ويحب كذلك الإمام علي وأبنائه لا ينبغي أن يعاتب، لأن حبهم ليس ذنباً، وإنما هو قربى، يتقرب بها من الله تعالى:

إن امرءاً كانت مساوئه ... حبَّ النبيّ لغيرُ ذي عتب
وبني أبي حسن ووالدهم ... من طاب في الأرحام والصُّلْبِ
أترون ذنباً أن نحبهم ... بل حبهم كفارة الذنب

---

(١) أبو الأسود الدؤلي: ديوانه: ص١٣٥.
(٢) راجع كتاب العثمانية لجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. دار الجيل بيروت١٩٨٦، وفيه مناقضات الشيعة والعثمانية. وبرأي الجاحظ أن العمرية هي أصل العثمانية.
(٣) ديوان أبي الأسود، ص٤٥.
(٤) الجاحظ: البين والتبين: ٣/ ٣٦٥.

وهذا النوع من الشعر الشيعي، استطاع أن يعكس بكل صدق حبه لآل البيت، مما جعله يسيل عاطفة، مخلصة صادقة، لا تبغي غير مرضاة الله ورسوله وآل بيته المكرمين.

في الاحتجاج لعقيدة الشيعة

والشاعر الشيعي الذي اندفع في إظهار حبّه لآل البيت، تحمس أيضاً لحقهم في الخلافة، فجعل شعره منبراً للاحتجاج لهم، مبرهناً على أن الإمامة هي حق من حقوقهم. وقد دعموا ذلك بالأدلة والبراهين، مصحوباً بالجدل، ومناقشة الخصوم.

ويأتي الشاعر الكميت[١] في طليعة شعراء الشيعة الذين احتجوا لمذهبهم، وفتح لهم باب الاحتجاج للعقيدة الشيعية، وسبل الدفاع عنها. وكان الكميت على مذهب الزيدية، وقد سلك في الاحتجاج مسلك المعتزلة في تفكيرهم وتدليلهم على آرائهم، معتمداً على القياس المنطقي الذي يتأسس على القرآن الكريم.

فالنبي خير بني هاشم، وبنو هاشم أحق بوراثته، ويدلل على هذا الحق بآيات من القرآن الكريم، ومن نظام التوريث الذي أمر الله به.

أما بنو أمية فهم قد أغتصبوا هذا الحق، وتداولوا الخلافة بالوراثة، وهم حين يزعمون أن النبي لا يورث، يعملون على توريث الخلافة إلى أبنائهم. ويقول: إذا كان النبي لا يورث الخلافة فيجب أن تكون هذه الخلافة حقاً مشاعاً للمسلمين، لا وقفاً على قريش وحدها. أما وأن هذا لم يحدث، فإن الخلافة هي حق موروث لبني هاشم دون غيرهم من المسلمين.

فالشعر عند الكميت، لم يعد يعبر عن الشعور فحسب، بل أصبح يعبر أيضاً عن الفكر، وأصبح يُشفع بكل ما وصل إليه العقل العربي في هذا العصر من قدرة على الجدل والإقناع[٢].

وللكميت في هذا الباب شعر كثير، يؤلف مجموعة من القصائد والمقطعات

---

(١) الكميت: شاعر الهاشميين من أهل الكوفة (ت: ١٢٦هـ ـ ٧٤٤م)، راجع الأغاني: ١٥/ ١٠٨ والأعلام للزركلي: ٥/ ٢٣٣).

(٢) ضيف. د. شوقي: التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار التعارف بمصر ١٩٨٠، ص٢٤١.

التي اشتهرت باسم «هاشميات الكميت»[١]، دافع بها صاحبها عن حق الهاشميين بالإمامة، ضد خصومهم الأمويين، وذلك من خلال ثلاثة موضوعات: ١ ـ مدح بني هاشم، ٢ ـ هجاء بني أمية، ٣ ـ الموازنة بين عدل الأئمة وجور الخلفاء الأمويين. يقول الكميت:

بخاتمكم غصباً تجوز أمورهم	فلم أر غصباً مثله يتغصب
وجدنا لكم في آل حاميم آية	تأويلها منها تقيٌّ ومعرب
وقالوا ورثناها أبانا وأمنا	وما ورثتهم ذاك أم ولا أب
يرون فضلاً على الناس واجباً	شفاهاً وحق الهاشميين أوجب[٢]

أما أيمن بن خريم، فقد مدح بني هاشم، بأنهم عباد يقضون نهارهم في جهاد وصوم، وكذلك يقضون ليلهم في صلاة ودراسة للقرآن الكريم.

ولشدة حرصهم على تطهير أنفسهم من الآثام، تحاشوا الخداع والدهاء وتأريث الفتنة، فلم يتخذوا ذلك سبيلاً لسلطانهم، مما جعل حقهم في ضياع، أمام دهاة وعتاة، من الأمويين[٣].

هجاء الخصوم

وحمل شعراء الشيعة على بني أمية، لأنهم اعتدوا على حق الهاشميين، كما حملوا على طلحة والزبير، لأنهما خدعا علياً ونكثاً بعهدهما. وقد واجهوا خصومهم وأعداء مذهبهم وغاصبي ولايتهم، ينقضون دعواهم ويكشفون عن باطل زعمهم، ويظهرون للمسلمين حقائق نواياهم وفساد سياستهم، ويخلعون عليهم في أثناء ذلك من الصفات ما يصرف القلوب عنهم، وينفرهم منهم.

---

(١) هاشميات الكميت. مصر ١٩٦٠، ص٤٢.

(٢) يقول أيمن بن خريم في بني هاشم:

نهاركم مكابدة وصوم	وليلكم صلاة واقتراء
وليتم بالقرآن وبالتزكي	فأسرع فيكم ذاك البلاء
أأجعلكم وأقواماً سواء	وبينكم وبينهم الهواء
وهم أرض لأرجلكم وأنتم	لأرؤسهم وأعينهم سماء

(٣) الأغاني: ٦/٢١.

وبنظر شعراء الشيعة، فإن الأمويين ملوك، لا يتمتعون بتوافر الشروط التي يجب أن يتمتع بها من يخلف الرسول ﷺ في ولاية الأمة. وهم لذلك ملوك سوء، وحكمهم نكبة وبلاء على رعاياهم. وهم يتمنون الخلاص منهم لشذوذ سياستهم.

وقد سلب الكميت الخلفاء الأمويين، الكثير من الصفات الدينية. ودعت أشعاره للثورة عليهم، لأنهم خارجون على الدين. وهم برأيه حكام جائرون يسوسون الرعية سياسة غاشمة، أما بنو هاشم فهم يبتغون الرحمة والعدل بين الناس.

ولا تختلف نظرة شعراء الشيعة إلى الخوارج عن نظرتهم إلى الأمويين في كثير من صور الهجاء. فهم طائفة مارقة، أعماها الضلال. وقد اتبعت سبل الغي، لا ترعى لدين الله حرمة. فهذا عدي بن حاتم الطائي يصفهم بالعمى عن الحق والمروق من الدين والعداء لله ورسوله وآل بيت نبيه[(١)].

كذلك هجا شعراء الشيعة ابن الزبير. واستنكر كثير إقدامه على حبس محمد بن الحنفية إمام الشيعة الكيسانية مع خمسة عشر رجلاً من بني هاشم، وسخر منه وتوعده. يقول فيه كثير:

لك الويل من عيني خبيث وثابت ... وحمزة أشباه الحداء التوئم[(٢)]

وكذلك فعل السيد الحميري، إذ هجا ابن الزبير ورماه بأنه استحل حرمة الكعبة. غير أن دولة ابن الزبير سرعان ما انتهت، فانتهى معها شعر الهجاء الذي كانت تصاب به من الشيعة[(٣)].

شعر البكاء

إلى ذلك، ظهر عند شعراء الشيعة نوع آخر من الشعر المتصل بأدب المراثي عند العرب، ولكنه كان يتصف بالعاطفة التي تتفجر حزناً وبكاءً والتياعاً وتفجعاً على

(١) يقول عدي بن حاتم الطائي في الخوارج:

نسير إذا ما كاعَ قومٌ وبلّدوا ... برايات صدقٍ كالنسور الخوانقِ

إلى شرّ قومٍ من شُراةٍ تحزبوا ... وعادوا إله الناس ربّ المشارقِ

طغاةٍ عماةٍ مارقين عن الهدى ... وكلّ ينفي قولُه غير صادقِ

(٢) ديوان كثير عزة: ص٢٢٤. وخبيث وثابت وحمزة: أبناء عبد الله بن الزبير.

(٣) رسائل الجاحظ (٢/ ٣٦١). طبعة الخانجي ١٩٦٤ والأغاني: ٦/ ٣٠ و٧/ ١١.

شهداء آل البيت من الهاشميين، الذين لاقوا مصرعهم على يد الأمويين، أثناء الأحداث والثورات الدامية والتي دارت فيما بينهم.

ولا غرو، فقد كان يصدر هذا الشعر عن قلوب مفعمة بالحب والوفاء، وعن نفوس امتلأت بالحزن والتفجع والبكاء، وعن ثورة عارمة في الصدور، هيجها ضياع حقوق الهاشميين، وأثارها ما كانوا يلاقونه على يد خصومهم، من عنت وتجبر وكبرياء.

وأكثر هذا النوع من الشعر، كان ينشد في رثاء الأئمة. ومع ذلك فقد جاء متعدد الأهداف والغايات لتنوع المقامات وتعدد المناسبات، فكان منه:

١ - الرثاء الصابر المحتسب، الذي مازج بين عواطف الحزن وعواطف الحرب.

٢ - الرثاء الثائر الغاضب الذي يقرن بالتقريع واللوم للقعود عن الحرب.

٣ - الرثاء المتفجع الغاضب، والذي يحمل على الخصوم ويهددهم ويتوعدهم. ويعتبر أبو الأسود الدؤلي، من أشهر شعراء الشيعة الذين بكو الإمام علي، بعاطفة صادقة، مليئة بالحزن على سقوط الإمام، والسخط من القتلة والشامتين:

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... فلا قرت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتونا ... بخير الناس طراً أجمعينا؟[1]

وحين قتل حجر بن عدي، وهو من زعماء الشيعة المعارضين لبني أمية، رثته هند بنت زيد بن مخرمة، وكانت تتشيع، فقالت في قصيدة باكية دامعة:

ترفع أيها القمر المنير ... تبصر، هل ترى حجراً يسير؟
يسير إلى معاوية بن حرب ... ليقتله كما زعم الأمير
ويصلبه على بابي دمشق ... وتأكل من محاسنه الطيور[2]

أما عبيد الله بن الحر فقد هاله ما جرى للقوم في كربلاء، فقال باكياً نادماً على مقتل الإمام الحسين وخذلان الناس له وعدم الخروج لنصرته:

---

(١) الدؤلي، أبو الأسود: الديوان، ص١١٥.
(٢) الأصفهاني: كتاب الأغاني: ١٠/١٦ وتاريخ الطبري: ١٥٧/٦.

يــقــول أمــيــر غــادر حــق غــادر ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمة
فــيــا نــدمــي ألا أكــون نــصــرتــه ألا كــل نــفــس لا تــســدد نــادمــه
ســقــى الله أرواح الــذيــن تــآزروا على نصره سقياً من الغيث دائمه[(١)]

وكثيراً ما كان يتجاوز الشعر الشيعي في الرثاء ظاهرة الحزن، ليصل إلى حدود الثورة النفسية العارمة. وأكثر رثاء شعراء الشيعة للإمام الحسين، ينحو هذا المنحى المعبر عن الغضب الثائر العنيف، كما في قول أحد شعرائهم:

أيــهــا الــقــاتــلــون جــهــلاً حــســيــنــاً أبــشــروا بــالــعــذاب والــتــنــكــيــل[(٢)]

نشدان الرجعة

إن دعوى ابن سبأ التي نشرها بين الناس، وهي أن الإمام علياً لم يمت، بل إنه سيعود إلى الأرض ليملأها عدلاً، سرعان ما وجدت لها صداها في نفوس أهل الشيعة.

ونقلت عقيدة الرجعة إلى محمد بن الحنفية[(٣)] وإلى محمد بن الحسن العسكري[(٤)] (ت ٢٦٤ هـ) وإلى عبد الله بن معاوية بن جعفر ذي الجناحين. كما نقلت إلى السفياني بعد انتقال الحكم إلى البيت المرواني.

ولا شك أن الاضطهاد الذي حاق بالشيعة، هو الذي أرَّث هذه المزاعم[(٥)] وقواها في نفوس الناس، وجعل الشعراء جميعاً، كل ينشد رجعة إمامه. وقد تأثر شعراء الحزب الأموي كما رأينا سابقاً بهذه الفكرة، فنسجوا عليها بما ينسجم مع مقولة المدح التي كانوا يمدحون بها أسيادهم من البلاط الأموي.

فالشاعر، «كثير»، كان كيساني المذهب، وقال برجعة محمد بن الحنفية، على أنه الإمام المهدي الذي سيملأ الأرض عدلاً، بعدما ملئت جوراً. يقول في هذا المعنى:

---

(١) تاريخ الطبري: ٦/ ٢٧٠. أمّا الأمير الغادر، فهو عبيد الله بن زياد.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٤/ ٩٠.
(٣) محمد بن الحنفية إمام الشيعة الكيسانية.
(٤) وهو الإمام الثاني عشر، عند الشيعة الإثني عشرية.
(٥) هذه المزاعم هي في الأساس صدى لعقائد يهودية مسيحية، تأثرت بها بعض الفرق الإسلامية.

أقـر الله عـيـنـي إذ دعـانـي ... أمـيـن الله يـلـطـف فـي الـسـؤال
وأثـنـى فـي هـواي عـلـيّ خـيـراً ... وسـاءل عـن بـنـي وكـيـف حـالـي
هـو الـمـهـدي خـبـرنـاه كـعـب ... أخو الأحبار في الحقب الخوالي(١)

وقد قال كثير في أحقية عليّ وبنيه بالخلافة، وجعلهم أسباطاً، ماتوا جميعاً إلا سبط بن الحنفية فهو قد تغيب وسوف يعود:

ألا إن الأئـمـة مـن قـريـش ... ولاة قـريـش أربـعـة سـواء
عـلـي والـثـلاثـة مـن بـنـيـه ... هـم الأسـبـاط لـيـس بـهـم خـفـاء
فـسـبـط سـبـط إيـمـان وبـر ... وسـبـط غـيـبـتـه كـربـلاء
وسـبـط لا يـذوق الـمـوت حـتـى ... يـقـود الـخـيـل يـتـبـعـهـا الـلـواء
تـغـيـب لا يـرى زمـانـاً، ... بـرضـوى عـنـده عـسـل ومـاء(٢)

وما من شك أن كثرة الأحداث التي كانت تصيب بسهامها المسلمين عامة والشيعة منهم بخاصة، هي التي انتجت فكرة الرجعة، لأنه لم يعد أمام الناس إلا أن تحلم بالإنقاذ، بعد أن استوى الجميع في الفتنة العمياء. ومن هنا يقول الحارث بن عبد الله بن الحشرج الجعدي:

أبـيـت أرعـى الـنـجـوم مـرتـفـقـاً ... إذا اسـتـقـلـت تـجـري أوائـلـهـا
مـن فـتـنـة أصـبـحـت مـجـلـلـة ... قـد عـم أهـل الـصـلاة شـامـلـهـا(٣)

تقرير عام

ونكاد نخلص من قراءة شعر الشيعة، إلى الاستنتاجات التالية، التي سنوردها في كثير من الإيجاز والشمولية:

فقد اتسم شعرهم بالجدل والرهبة واعتماد الحجة. وهو أسلوب جديد في الشعر العربي برع فيه الكميت في هاشمياته، على حساب الفنية وتخير الجودة من حيث الشكل والأداء. فاتصف لذلك بالخطابية، كما اتصل بالنثرية.

(١) ديوان كثير: ٢/ ١٨٥ والأغاني: ٩/ ١٤ وعيون الأخبار لدينوري: ٢/ ١٤٤.
(٢) المسعودي: مروج الذهب، ٢/ ١٠١.
(٣) تاريخ الطبري: ٩/ ٣٨.

وبرزت العاطفة قوية في أشعار الشيعة، خصوصاً في بكائياتهم التي تدور حول حب أهل البيت والولاء لهم والإشادة بمناقبهم، أو تلك التي تعبر عن سخطهم لمقاتلهم وبلواهم.

وامتزجت في شعر الشيعة، العناصر الاسياسية بالعناصر الدينية. فمحور نظريتهم هي الخلافة، ولذلك فقد أسبغوا عليها كثيراً من الصفات الدينية. إلى ذلك، فقد تنوع أسلوبهم بتنوع أغراضهم. فمن أسلوب الجدل، إلى أسلوب التقرير والاحتجاج، إلى أسلوب الثورة والانتقام، إلى مرارة التفجع والبكاء والتحسر على ضياع الحق وأصحابه من أهل البيت، مما جعل شعرهم في البكاء يتسم بالرقة، كما جعل شعرهم في الحرب يتسم بالقوة التي تصدر عن عاطفة الغيظ.

لهذه الأسباب، وجد فيه النقاد شعراً جديداً، مما جعل ملوك الأمويين يحسدون أئمة الشيعة ونقبائهم عليه. ألم يقل عبد الملك بن مروان وكان بصيراً بالشعر، لمداحيه من الشعراء: يا معشر الشعراء، تشبهوننا بالأسد، والأسد أبخر، وبالبحر، والبحر أجاج، وبالجبل والجبل أوعر، ألا قلتم فينا، ما قال أيمن بن خريم في بني هاشم:

نهاركم مكابدة وصوم ... وليلكم صلاة واقتراء[1]

فقد أدرك ابن مروان جدة المعاني في شعر الشيعة، وطلبها جهاراً لنفسه كما يطلب الملك العضود.

(١) الأصفهاني: الأغاني ٢١/٦ وديوان المعاني للعسكري: ١/٢٦.



الفصل السابع

شعر الخوارج وأغراضه

السيرة والسيرورة

إن ولاية الأمة بالنسبة إلى الخوارج، يجب أن تتم عن طريق اختيار حر لرجل مشهود له بالتقوى والصلاح. وقد اضطلعوا في مفهوم الخلافة على أن الحكم يستمد من القرآن رأساً، فلا حاجة للخليفة ومنعوا التأويل فيه[١]. لذلك رفضوا التواطؤ مع العصاة وتركوا علياً بعد اتفاق التحكيم وثاروا عليه وهم يتصارخون[٢]: «لا حكم إلا الله» وعدوا من أشد خصومه، ذلك لأنه جعل حقه في الخلافة موضوعاً للتحكيم، كما عارضوا المبدأ القائل بحصر الخلافة في قريش.

ومعاوية عندهم ليس صاحب حق شرعي، فقد لجأ إلى التحكيم خدعة ومكراً، ولأنه أيقن بأن الدائرة ستدور عليه. أما علي فلأنه قبل بالتحكيم، إذن قد شك بحقه الشرعي في الخلافة وبذلك تجاوز الدين وكفر. وهم يرون الخروج على الإمام إذا خالف حقاً واجباً. فأقاموا لأنفسهم حزباً سياسياً له نظريته الخاصة في نظام الحكومة الإسلامية، وجاهدوا في سبيله وأقلقوا رجال الدولة الأموية طوال عهدها وأقاموا ذلك النظام على أسس إسلامية صرفة مستمدة من القرآن والسنة، وأجمعوا على تكفير كل من لا يرى رأيهم ويأخذ بمبادئهم من المسلمين. وقد

---

(١) ستودارد لوثروب: حاضر العالم الإسلامي: ٣٢٧/٤.
(٢) الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك الجزء السادس ص٤١.

أباحوا دمه وماله وأهله وعدوه من أهل النار. والإستشهاد عندهم هو الخلاص الوحيد من عذاب الجحيم. يقول الطرماح(١):

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له ... إن لم أفز فوزة تنجي من النار

والنار لم ينج من روعاتها أحد ... إلا المنيب بقلب المخلص الشاري

وينجلي زهدهم وإخلاصهم لعقيدتهم في رفضهم لمتاع الدنيا والعيش الرغيد والسعي لمنازلة الأعداء وإفشال مخططاتهم. فهذا سبرة بن الجعد الخارجي سمير الحجاج يتخلى عن سلامته ويلتحق بقطري، حين وافاه كتابه مطلقاً صيحة عالية معلناً معها بطلان مسألة التحكيم، نظراً لما سببته من انقسامات بين العائلة الإسلامية، ومنكراً على جليسه وأسياده ترؤسهم وسيادتهم لأنهم جائرون لا يطبقون في حكمهم شروط الخلافة الصحيحة. وقد معتبراً الثورة عليهم فريضة دينية. يقول وهو لاحق بقطري معتبراً حزبه حزب الله(٢):

فمن مبلغ الحجاج أن سميره ... قلا كل دين غير دين الخوارج

فأقبلت نحو الله بالله واثقاً ... وما كربتي غير الإله بفارج

إلى عصبة أما النهار فإنهم ... هم الأسد أسد الغيل عند التهائج

ينادون للتحكيم تالله إنهم ... رأوا حكم عمرو كالرياح الهوائج

وحكم ابن قيس ذاك فاعتصموا ... بحبل شديد المتن ليس بناهج

والأدب الخارجي بجملته أدب استماتة في العقيدة إنه أدب نفوس بدوية تقاتل عن مبدأ، وتفنى في سبيل تحقيق مطلبها. إنه أدب مصطبغ بصبغة دينية في إطار العقيدة الخارجية، وقد تطرقوا في الأخذ بمبدأ الحكومة الدينية، ونهضوا في وجه الاستبداد الأموي، واعتبروا نضالهم مجاهدة من أجل إبدال أئمة الضلال بأئمة صالحين. فأصل الإسلام عندهم المساواة. والمسلمون لا يتفاضلون إلا بالتقوى. يقول قطري بن الفجاءة، وهو أحد خلفاء الأزارقة(٣) وشعرائهم وخطبائهم، يصور

---

(١) ديوان الطرماح، ص٢٥٣.

(٢) محمد محمد حسين، الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام، ص٥٧.

(٣) نسبة إلى نافع بن الأرزق الذي مات سن ٦٠هـ، لم تكن للخوارج قط فرقة أكثر عدداً ولا أشد منهم شوكة وكانت تزعم أن من قام في دار الكفر فهو كافر لا يسعه إلا الخروج ـ الشهرستاني، الملل والنحل، المجلد الأول، ص١١٨.

الحياة الخارجية والفكرة الخارجية والعقلية الخارجية، وفي قوله نكاد لا نسمع إلا صلصلة السيوف وقراع الأبطال وقد غدوا على الموت[١]:

أقارع عن الخلود ولا أرى ... بقاء على حال لمن ليس باقيا
أعادي جلاد المعلمين كأنني ... على العسل الماذي أصبح غاديا
وأدعو الكماة للنزال إذا القنا ... تحطم فيما بيننا من طعانيا

وكان التزامهم بعقيدتهم يحملهم على التصلب في رأيهم. وقد حبب إليهم المكابرة في القول والتشدد في الدين والغلو في العبادة لدرجة أن الجهاد أصبح من العوامل المحركة لشعرهم، فأماتوا عواطف الدنيا، وقاتلوا قتال الأبطال، فهذه أم حكيم تفصح بجريء القول عن قلقها على بقائها حية، فهي لا تشعر براحة ولا باطمئنان إلا حين تقتل في سبيل الله، إنها من أشجع الناس وأجملهم وجهاً وأحسنهم بدينهم تمسكاً، فكانت تحمل على الناس وترتجز[٢]:

أحمل رأساً قد سئمت حمله ... وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عني ثقله

وهكذا إمعاناً بقدسية وشرعية نضالهم، راحوا يحضون على الثورة لإحقاق الحق، وإماتة الباطل، ودون أن يتأثر شعرهم بالتقاليد القائمة من جهة التكسب والاحتراف به، ويلاحظ كما مر معنا، وللمرة الأولى في الأدب العربي ذكر لنباهة النساء، ونزوعها منازع الأبطال كأم حكيم وغزالة وفطام وغيرهن. والخوارج يرون القعود عاراً، والقتال في سبيل استئصال الفئة الضالة المفترية غاية سامية. الموت عندهم شيء مقدس، يقبلون عليه إقبالهم على متاع الدنيا وسعادتها، واعتبروا خروجهم من دار الكفر، دار بني أمية كخروج النبي من مكة إلى دار الهجرة، فيؤولون آيات القرآن على مزاجهم ويستشهدون بقوله تعالى: «وَمَن يَخْرُج مِن بَيتِهِ مُهاجِراً إلى الله ورسولِهِ ثُمَّ يُدرِكهُ الموتُ فقد وَقَعَ أَجرُهُ على الله». وقد قال[٣]: أحد الخوارج الأزارقة: «إنا اليوم بمنزلة المهاجرين بالمدينة».

---

(١) حميدة ـ أدب الشيعة، ص١٨١.
(٢) الأغاني ـ دار الكتب، الجزء السادس ص١٥٠. الكامل للمبرد، الجزء الثالث، ص٢٩٧.
(٣) نايف معروف ـ الخوارج في العصر الأموي ص١٩٤.

فدار الحياة هي دار حرب وبنو أمية مفسدون فيها، ضالون يجب عزلهم. وقد كفروا معاوية وعمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري[(١)]. فالأمويون مغتصبون للخلافة، وحكمهم ليس حكماً إسلامياً، بل هو حكم جائر. فلا بد من إزاحتهم عن سدة الخلافة، فجاهدوهم جهداً عنيفاً. فهذا الحارثة بن صخر القيني يهرب من أمر زياد ويثور مهدداً معاوية ويتوعده ويتربص بولاته، منتظراً الفرص المؤاتية للانقضاض على دولته معلناً أن عين الله لا تغفل الغاشم الظلوم بل ستردە عن كيده وظلمه. يقول[(٢)]:

ستلقح حرباً يا ابن حرب شديدة ... وتنتجها يتناً بسمر ذوابل
فما لزياد يحرق الناب ظالماً ... علي فإن الله ليس بغافل

ولم تهدأ نقمتهم عل الأمويين المغتصبين للخلافة الذين جعلوها ملكاً وراثياً في إبقائهم، بل راحوا يعالجون مسألة الخلافة والحكم على مبدأ ديني محض. ولم يسكتوا على منكر أو على إمامة جائر، واعتبروا الإمام القائم سواء بالنسبة إلى علي وانتهاء بيزيد الخليع السكير مروراً بمعاوية الشيطان لعين رسول الله وابن لعينه أنهم أئمة إلحاد وكفر. ويجب عزلهم وقتالهم حتى يفيئوا إلى أمر الله، يقول أبو حمزة الخارجي، وهو أحد نساك الأباضية[(٣)] وخطبائهم: «أيها الناس إن رسول الله ﷺ كان لا يتأخر ولا يتقدم بإذن الله وأمره ووحيه، أنزل الله كتاباً بين له فيه ما يأتي وما تبقى، ولم يكن في شك من دينه ولا في شبهة من أمره، ثم قيضه الله، وقد علم المسلمين معالم دينهم.

... ثم ولى علي بن أبي طالب فلم يبلغ من القصد ولم يرفع له مناراً ثم مضى لسبيله.

ثو ولى معاوية بن أبي سفيان لعين رسول الله، وابن لعينه فاتخذ عباد الله خولاً، ومال الله دولاً، وديته دغلاً ثم مضى لسبيله فألعنوه لعنة الله.

---

(١) علي بن إسماعيل الأشعري ـ مقالات الإسلاميين ص١٢٥.
(٢) إحسان عباس، شعر الخوارج ص٤٧.
(٣) الأباضية، هم أصحاب عبد الله بن أباض، وقالوا أن دار مخاليفهم، من أهل الإسلام دار التوحيد، إلا معسكر السلطان فإنه دار بغي، الشهرستاني الملل والنحل ص١٣٤.

... ثم ولي يزيد بن معاوية، يزيد الخمور ويزيد القرود ويزيد الفهود، الفاسق في بطنه، المأبون في فرجه فعليه لعنة الله وملائكته»[١].

الخطيب هنا مأخوذ بالنقمة، يعرّض بخلفاء الأمة، مصوراً الصراع بين المسلمين على أنه تزاحم على الزعامة الدنيوية. إنه الصراع السياسي من أجل نيل الأسبقية في إحقاق الحق. إنه يتناول البيت السفياني مركزاً حول سياسة معاوية الداخلية، وقد زاغت عن العدالة الإجتماعية، وامحت فيها القيم الأخلاقية لغلبة الظلم عليها والإستئثار بالخلافة. إنه ينقض على معاوية تقصيره في اعتناق عقيدة الصلاح، ومناوأته للدين آخذاً عليه كفره القديم بالإسلام، ومن ثم توليه الخلافة وتحكيمه لأمر المسلمين. غير أن هذا المنزلق له أهميته، فهل الخوارج كانوا يأخذون على المسلم قبل اعتناقه الإسلام؟ علماً بأن دعوتهم قامت على عدم التفضيل بين المسلمين إلا بالتقوى لا بالماضي.

أما تقييمه ليزيد فإنه ينصب حول سلوكه المنحرف، إذ يتناول سيرته الإجتماعية وأخلاقه الدنية، فيلقبه بالفاسق، لهجومه على الملذات الجسدية البهيمية وإقتصار همته على إشباع شهواته دون أن تكون له همة المجاهد في سبيل نشر الإسلام، هذا إلى جانب اختصاصه بالفيء وجوره بالحكم وأخذه الناس بالشبهة. فهذه الأحكام المعللة التي تجرد الدولة من صفتها الدينية، تركز حول تصرف قادة السفيانيين، فتفضحهم في أخلاقهم المشينة المنافية لإرادة الله، إذ أن قوام الخطبة عنصران، الأول ديني وهو الأساس، والآخر سياسي. وهذان العنصران يشكلان القاعدة في كيفية اختيار الخلفاء الصالحين، إذ يفترض فيهم أن يكونوا مثالاً في التقوى وفي حسن التوجيه لتولي قيادة أمر هذه الأمة.

ويتساءل عمران بن حطان بحيرة، عن العدل وعن إمكانية وجوده، وعن هذا الالتفات المريب حول دعاة الظلم وعن مصير الحق المزهوق وإلى متى سيظل قائماً؟ وهل دعاة الحق سيظلون غافلين وزائغين عن الحق، إن أمنيته تتجلى في سيادة العدل وزوال سلطة بني أمية القائمة، سلطة الكفر والإلحاد والنفاق والاستبداد. يقول[٢]:

---

(١) الجاحظ ـ البيان والتبيين الجزء الثاني ص١٢٣.
(٢) المرزباني ـ المؤتلف والمختلف ص٩١.

حتى متى لا نرى عدلاً نعيش به ولا نرى لدعاة الحق أعوانا

وينهض قطري بن الفجاءة في وجه الاستبداد الأموي، طالباً الموت مع رفاقه المجاهدين أهل التقوى والشجاعة، والرغبة في الحياة والآخرة. ولا يرى عذراً لقاعد في مجاهدة الأمويين ومناوأتهم في إطار من الحماسة التي ملكت عليه نفسه، معتبراً ديارهم ديار كفر ولصوصية، يقول موجهاً كلامه إلى أبي خالد القناني أحد القعدة[١]:

أبا خالد انفر فلست بخالد وما جعل الرحمن عذراً لقاعد
أتزعم أن الخارجي على الهدى وأنت مقيم بين لص وجاحد

وبنو أمية عند الطرماح، قوم أرذال وأوغاد لئام، وقد ضلوا عن سبيل الهدى وانحرفوا عن جادة الإسلام، وعصوا الله، ولا بد من وضع حد لبغيهم وفسادهم، فها هو يثور مهدداً بالثورة والانتقام. يقول[٢]:

يا فَرسي سِيري وأمي الشاما
وقطعي الأحواز والأعلاما
ونابذي من خالف الإماما
إني لأرجو إن لقيت العاما
جمع بني أمية الطغاما

ويشنع أبو المصك الطائي بمعاوية وشيعته وبعلي وأتباعه ويعتبرهم مخالفين قد ضلوا الطريق، فيتبرأ منهم، ويقول مفتخراً بصدق دينه وبصواب مذهبه آخذاً على أعدائه مخالفتهم لأصول الشرع راقياً إياهم بالكفر والإلحاد. يقول[٣]:

أبرأ إلى الله من عمرو وشيعته ومن علي وأصحاب صفين
ومن معاوية الغاوي وشيعته لا بارك الله في القوم الميامين

ففخر الخوارج ينحصر في دائرة الإيمان والشجاعة. وقد اعتبروا دار المسلمين القائمة دار كفرة. وبالتالي توجب محاربتهم حتى يفيئوا إلا السبيل السوي أو الموت

(١) إحسان عباس ـ شعر الخوارج ص١٠٥.
(٢) ديوان الطرماح ـ ص٤٦٩.
(٣) إحسان عباس ـ شعر الخوارج ص١٤٠. نايف معروف ـ الخوارج في العصر الأموي، ص٢٧٩.

في سبيل تحقيق هذه الفكرة. لذا نراهم يستهينون بالموت على أمل الحظوة في الحياة الثانية، والعيش في جنات النعيم، جنات عدن التي أعدها الله للمؤمنين. يقول قطري يوم دولاب مشيراً إلى عقيدته السياسية وإلى مذهب أصحابه، صاباً سخطه على جمع بني أمية وعلى سلوكهم السياسي، يقول[١]:

لعمرك إني في الحياة لزاهد ... وفي العيش ما لم ألق أم حكيم

ولو شهدتني يوم ذاك أبصرت ... طعان فتى في الحرب غير ذميم

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم

رأت فتية باعوا نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

ولم يفلت ولاة الأمويين من ألسنتهم الحداد، إذ تناولوهم بالهجاء اللاذع، ووصفوهم بالغدر والفجور، وأظهروا سياستهم الغاشمة التي ضلت عن طريق الهدى وساست الناس ظلماً وبهتاناً، وأظهروا أخلاقهم، وقد طبعت على مناصرة هذه العيوب. وقد أكدوها في حياتهم حتى لم يعد يرى حفاظاً للحق ولا داعياً إليه. بل تجاوزوه وتناولوا أهله بالاحتقار والازدراء. هنا نرى الشاعر الخارجي يقيم موازنة لطيفة بين اتباعه الذين ناصروا الحق وانتصروا للفضيلة وبين بقية الرعية الذين استأنسوا واستعذبوا حياة الطغاة، ودرجوا على المكر واللؤم، وتجاوزوا الدين في ظلم الآخرين، يقول أبو بلال مرداس بن أدية[٢]:

وقد أظهر الجور الولاة وأجمعوا ... على ظلم أهل الحق بالغدر والكفر

والخوارج في شعرهم أتقياء شجعان وفي حياتهم الإجتماعية والسياسية مجاهدون في سبيل العدل والصلاح، وهم يباهون غيرهم بأنهم وحدهم أهل الإيمان والبر، وإن ما عداهم ظالمون. لذلك نصرهم الله في حروبهم نصراً ساحقاً من عنده، على الذين عاثوا في البلاد فساداً وظلماً. ويفاخرون بأنهم يحاربون عن عقيدة ومبادىء بعكس جنود الأمويين المأجورين المرتزقة الذين لا يدفعون عن عقيدة ولا يذبون عن حرمه. فحين وجه والي البصرة عبيد الله بن زياد إليهم أسلم بن ربيعة في

---

(١) المبرد ـ الكامل في الأدب، الجزء الثالث ص٢٩٧.

(٢) إحسان عباس ـ شعر الخوارج ص٢٦.

ألفي فارس لحقهم بقرية من الأهواز تدعى «آسك» بلد من نواحي الحجاز، مما يلي فارس، فواقعهم فقتلت الخوارج من أصحاب ابن ربيعة خمسين رجلاً، فانهزم أسلم، فأنشأ رجل من الخوارج يقول[١]: متهكماً بابن زياد وشيعته، مشيراً إلى أن الله هو الذي اصطفاهم وأعطاهم لأنهم أمناؤه على عباده أمناء على كتابه:

أألفا مؤمن منكم زعمتم ويهزمكم بآسك أربعونا؟
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة قد علمتم على الفئة ينصرونا
أطعتم أمر جبار عنيد وما من طاعة للظالمينا

فاغتاظ ابن زياد من ذلك، فكان لا يدع بالبصرة أحداً ممن يهتم برأي الخوارج إلا قتله، حتى قتل بالتهمة والظنة تسعمائة رجل.

فأمنية الخارجي، كانت ابتغاء الموت في سبيل الشهادة، هذه العصبية الجديدة هي التي غذت الحماسة في شعرهم وأصبح الموت شعارهم. إذ استماتوا في الدفاع عن عقيدتهم، وصدر شعرهم عن نفوس بدوية صادقة مسلمة، وجاء معبراً نقياً من الشوائب. وقد غالوا في ذلك إلى حد التعصب الشديد، فالأمويون في نظره منحرفون عن دائرة الإيمان، وتقوم سياستهم على القوة والجبروت، ويأخذون الناس بالهوى والظنة. وقد انتهكوا الحرمات وأحلوا ما حرم الله، وأكلوا الفيء، لذلك يحل قتالهم لردعهم عن تماديهم في الضلالة. يقول أبو حمزة الخارجي في خطبة له[٢]: «أما بنو أمية ففرقة الضلالة. بطشهم بطش جبرية، يأخذون بالظنة، ويقضون بالهوى، ويقتلون على الغضب، ويحكمون بالشفاعة ويأخذون الفريضة من غير موضعها ويضعونها في غير أهلها».

ويرى الخوارج أن الخلافة يجب ألاّ تقتصر على قريش ولا على العرب، فهم يتابعون كفاحهم في سبيل نصرة هذا المبدأ ناقضين أسس ملك بني أميّة القائم على وجوب حصر الخلافة في أبناء معاوية عن طريق التوريث، ويعتبرون خلفاءهم ضالين عن الطريق، ومنحرفين عن جادة الإسلام، فلا بدّ من التبرّؤ منهم وإشهار أمرهم وتحديد هواياتهم.

---

(١) الدينوري ـ الأخبار الطوال ص٢٦٩. الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك الجزء السادس ص١٧٥.
(٢) الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ الجزء الثاني ص١٢٤.

وحمل الشعر الخارجي على تقريع ولاة الأمويين، ونقد تصرفاتهم وفضح سياستهم، مسجلاً عليه تعاميهم عن الحقيقة وعن المحامد والمكارم. فهم ليسوا أهل الإسلام ولا حماته وقد ساسوا الرعية سياسة جائرة. وقد تبلغ بهم الجرأة إلى مراسلة عمر بن عبد العزيز لمّا استخلف، كما فعل معقل بن عتبان بن أحيلة محذراً ومحملاً إياه جور الولاة، وظلمهم متمنياً عليه إنقاذ المجتمع من الفساد والظلم الذي أغرقه به سابقوه. وهو يشير في هذا المجال إلى بني أمية وولاتهم، وقد أسرفوا وأفرطوا في الترف واستحدثوا أنماطاً من التعذيب والتنكيل والتشهير. يقول[١]:

قل للولي على الإسلام مؤتنفاً ... وقد يرى أنه رثّ القوى واهِ
أزرى به معشرٌ غذوه مأكلةً ... بنخوة العزّ والإنزاف والباه
أنا شرينا بدين الله أنفسنا ... نبغي بذاك إليه أعظم الجاه
ينهى الولاة بحدّ السيف عن سرف ... كفى بذاك لهم من زاجر ناه
فإن قصدت سبيل الحق يا عمراً ... أخاك في الله أمثالي وأشباهي
وإن لحقت بقومٍ كنت واحدهم ... في جور سيرتهم فالحكم لله

ونستشف من سيرة الخوارج أنهم ثوار ثائرون على النظم القائمة، فالإسلام لا يحيا إلاّ في جموعهم. لذلك لم يروا عيباً أو نقصاناً في مروءتهم في تدبير المؤامرة لإغتيال عليّ ومعاوية وعمرو ابن العاص إذ كفّروهم واعتبروا الخروج عليهم أمراً فيه صلاح وإخلاص لمذهبهم. لأنهم بذلك يستأصلون الشرّ ويريحون البلاد من شرّ العباد، وذهبوا إلى أبعد من ذلك فقد مدحوا القتلة واعتبروهم من المهتدين لأنهم خلّصوا البلاد من أئمة الضلال، وتباهوا بإعلان الثورة على النظم الفاسدة التي أحدثها التحكيم. يقول عمران بن حطّان وهو مفتي الخوارج وزاهدها وشاعرها الأكبرز في ضربة ابن ملجم لعلي يقول[٢]:

يا ضربة من منيب ما أراد بها ... إلاّ ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إنّي لأذكره يوماً فأحسبه ... أوفى البريّة عند الله ميزانا

وتعتبر القصيدة التي قالها معاذ بن جوين في سجنه، وهو أحد رؤوس

(١) المرزباني ـ المؤتلف والمختلف، ص٢٣٣.
(٢) الشهرستاني ـ الملل والنحل، المجلد الأول، ص١٢٠.

الخوارج، وشعرائهم من ألمع القصائد المبنيّة على التهديد والتحريض، إذ يدعوا أصحابه في الكوفة على الخروج على عاملهم، المغيرة وعلى بني أميّة. ومعاذ هو الذي سار على معاوية بن أبي سفيان مع المستورد بن علقمة أيام ولاية المغيرة بن شعيا على الكوفة، رافضاً الاعتراف بإمامة معاوية وشرعية خلافته، ونراه في شعره يلتزم بمبادئ دينية في إطار العقيدة الخارجية، شاحذاً الهمم، مستنهضاً الإخوان للدفاع عن حقوق الله والاسلام التي دنّسها معاوية وأتباعه، جاعلاً الأعمال جزءاً مكمّلاً للإيمان، محركاً عواطفهم الدينية إلى الجهاد، مفضلاً الاستشهاد على الإقامة بدار الخاطئين جهلاً، حيث يصادون ويسوقون للقتل يقول(١):

ألا أيها الشارون قد حان لإمرئٍ	شرى نفسه لله أن يترحّلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة	وكل امرئ منكم يصاد ليقتلا
فشدّوا على القوم العداة فإنّما	إقامتكم للذبح رأياً مضلّلا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي	إذا ذكرت كانت أبرَّ وأعدلا

والهجاء في شعر الخوارج هجاء عام لكل من يخالفهم في الرأي والاجتهاد. وقد اضطلع شعرهم بنقد الحياة وتفنيد عيوب المجتمع والدولة. ومن صوّر ذلك النقد، الدعوة إلى الثورة على الحرص وحشد الأموال، وهذا يتبيّن في قول الطرماح(٢). يقول:

عجباً ما عجبت للجامع المال	يباهي به ويرتفدُهْ
ويضيع الذي يصيره الله	إليه فليس يعتقدُهْ
يوم لا ينفع المخول ذا الثروة	خلاّنه ولا ولدُهْ

والمعروف أنّ بني أميّة هم من أصحاب الأموال والخيرات، وقد تمكنوا منها في خزائنهم، وعاشوا في أهنأ عيش وأرغد حياة. لذلك رأوا في استمرار الخلافة الأمويّة استمراراً للمؤامرات واستمراراً للظلم والجور، وعدم صلاحية الولاة. ولم يكن يسيراً عليهم الانطواء تحت (الحكم الديكتاتوري) ولم يرضوا أن تكون أمور الدولة في أيدي المغتصبين الذين درجوا في سياستهم للرعية على القسوة والعنف،

---

(١) إحسان النص ـ نصوص من الشعر الإسلامي الأموي ص٣٧.
(٢) ديوان الطرماح ص١٩٧.

والصرامة. وينقض شعرهم على الأمويين، وعلى معاوية بالذات منددا بخلافته معلناً نقمته على بني أميّة بأنهم أذلّوا المسلمين واستعبدوا الرعيّة واستأثروا بأموال الفيء وبغوا في الدين وفسدوا في الأرض ونظروا إليهم نظرتهم إلى المشركين وقد حادوا عن الحق رغم وضوحه. يقول حبيب بن خضرة في مخالفهم [١]:

يا ربّ إنهم عصوك وحكموا ... في الدين كلّ ملعن جبّار
يدعوا إلى سبل الضلالة والردى ... والحق أبلج مثل ضوء نهار

وبالإجمال، فالشعر الخارجي هو شعر حماسي ملتزم بخط دفاعي واحد لا يحيد عنه، إنه التزام قوي صادق مع حقيقة ما يعتقدون ويجاهدون في سبيله. لذا كانوا يتسابقون إلى الموت ويستعذبونه في سبيل معتقدهم، يستقبلون الرماح في صدورهم وهم يصيحون «الرواح الرواح إلى الجنة»[٢].

فدعوتهم تسيطر عليها روح الفدائية والتضحية والعصبية الحادة لعقيدتهم السياسية والحماسة الجارفة للموت في سبيلها. ورفض الحياة من أجلها، والإيمان الذي لا حد له بمبادئهم الثورية التي عاشوا لها. وقد آمنوا جميعاً بأنهم مدافعون عن حقوق الله والإسلام، وإنهم باعوا أنفسهم للدفاع عن عقيدتهم. وبذلك مزقوا الجماعة الإسلامية وغالوا في نضالهم لدرجة الهوس، فرفضوا الحياة وعدوا مخاليفهم مرتدين وحكم المرتد في الإسلام القتل، ومن هنا جاؤوا بمبدأ قاس غريب، هو مبدأ الاستعراض أي الاغتيال الديني[٣].

إن القسوة التي لقيها الخوارج من الأمويين وولاتهم قد فجرت في نفوسهم عوامل السخط والتمرد على السلطة باعتبارها مأوى الكفار المحليين، كما وسمت حياتهم بالفوضى والإجرام، وعيشتهم بالتشرد والضياع، فوقفوا من الدولة موقف العدو اللدود، وذلك للإختلاف العقائدي بينهم. وذهب شعراؤهم وخطباؤهم وهم من القادة إلى الإستماتة في سبيل العقيدة والجهاد في سيبل إعادة الخلافة إلى المبادىء الرشيدية المستوحاة من القرآن والسنة من دون تحريف أو تأويل.

---

(١) نايف معروف ـ الخوارج في العصر الأموي، ص٢٧٩.
(٢) نايف معروف ـ الخوارج في العصر الأموي، ص٢٥٩.
(٣) يوليوس فلهوزن ـ الخوارج والشيعة ص١٥.

وتشددوا في مبادئهم حتى عدوا الهجرة عن الحياة جهاداً، والإقامة فيها والقعود كفراً. قصدوا الأمويين فجالدوهم وحاجوهم وتشددوا في مبادئهم وأقروا بوجوب الخروج على إمامتهم الجائرة. وبالمقابل امتدحوا اتباعهم وأصحابهم بالتقوى والصلاح وأخذهم بجوهر الدين دون ظاهرة، وعدم مشايعة أهل الضلال بل مجادلتهم حتى يفيئوا إلى أمر الله، كما أشادوا ببطولتهم وصبرهم على المكابرة وفخروا بإخلاصهم.

وبلغت الحماسة لديهم شأواً بعيداً، وإلى حد حمل بعضهم على نقد وهجاء انتشار روح التخاذل في صفوفهم، وكل من تسول له نفسه بالقعود أو الإخلاد إلى الدعة والسكينة، واستحلوا حرمات أعدائهم وأخذوا عليهم نهجهم السياسي وتقديم المسائل الدنيوية على الدينية. وهكذا أخلصوا لعقيدتهم. ودافعوا عنها بألسنتهم وسيوفهم لدرجة أن العصبيات القبلية قد فنيت تماماً في ذلك المعتقد، أضف إلى أنه قد أخذ عليهم التطرف والغلو في إيمانهم فقوة مشاعرهم الدينية تركت آثارها على جباههم التي فرضها كثرة السجود وطوله. وقولهم قول قوي النزعة قوة يقينهم في معتقدهم، شديد الواقع على قدر استماتتهم في الدفاع عن آرائهم، إنه أدب نفوس بدوية تفني في سبيل إرادتها.

ومن الملاحظ أن شعراء الخوارج كانوا هم الزعماء وأصحاب المذاهب وهم المجاهدون والمدافعون والثائرون لذلك لم يرتزقوا بالشعر ولِم يتناولوا فنوناً أخرى إلا نادراً. وقد حولوا جهودهم إلى عقيدتهم، وأحالوا المدح والهجاء والرثاء والتشبب والوصف فنوناً سياسية خارجية. والشعر لم يكن عندهم حرفة، إنما كان وسيلة لخدمة مذهبهم وصورة حية لاصطدام العواطف. وقد سار في مجال بعيد عن مضمار الشعر المادي. ويعد شعرهم أصدق صورة أدبية لمذهب سياسي، لا يشاركه في ذلك شعر آخر. والموت أمنية كل خارجي حتى يفوز بحسن الشهادة.

فأدبهم تشع فيه حقوق الله والإسلام، ويتسم بالشدة في الدين والإخلاص للعقيدة والشجاعة النادرة، يضاف إليها السمات العربية الخالصة التي جعلت منه أدباً خاصاً يمتاز بالقوة، شعراً ونثراً. وهكذا راحوا يصارعون الأمويين بالحجة ويخالفونهم بالرأي ويجادلونهم في عنف وقسوة، ويعتبرونهم كفاراً أعداء. . .

فالخوارج، استطاعوا وبسهولة إغناء الأدب الأموي بأدب إسلامي نقي، ولكن في ضوء العقيدة، فالأدباء الخارجون قد يرثون ويبكون ولكنهم في رثائهم وبكائهم أقوياء يذرفون الدمع ليسفكوا الدم(١).

سمات الشعر الخارجي

الخوارج من أعرق الفرق الإسلامية، إذ نشأت غب موقعة صفين، وخرجت من جيش علي لقتله مع معاوية وعمرو بن العاص. وقد حققت غايتها في قتل علي، أما معاوية الذي نجا منها مع عمرو بن العاص، فقد أوقع بها، وحمل على دعاتها وفتك بهم، مما عمق العداء للدولة الأموية في نفوس عموم الخوارج، قاعدة وقادة على حدّ سواء.

وعرف الخوارج بعقيدتهم القوية وبمواقفهم الصلبة، وبتمسكهم بالقرآن الكريم وعكوفهم على تلاوته وحفظه وتفهم ظاهر نصوصه، مما جعله قوي التأثير في حياتهم. وكان من مميزات شخصيتهم،الصدق والصراحة. مما ترك انعكاساته القوية على أدبهم؛ فكان بإزاء صدقهم في الحياة العملية صدق شعرائهم في الحياة الفنية، حيث استطاعوا أن يعكسوا لنا جميع المواقف الدينية والسياسية والثورية التي تتصف بها الخوارج، وجميع المأثورات، التي أثرت عنهم في الحب والحياة.

١ ـ العاطفة الدينية:

فشعراء الخوارج، رسموا صوراً قوية الملامح، لميولهم الدينية. فقد نوهوا بتقواهم وزهدهم من جهة، وحرصهم على أداء فرائض الدين من جهة أخرى. وتحدثوا عن حنينهم الدائم لما وعدهم الله به في القرآن الكريم.وصوروا خوفهم الشديد، مما أوعد ـ تعالى ـ الجاحدين والعاصين. وقد توقفوا عند خشوعهم المؤمن لله، وإقبالهم في شغف ونهم على تلاوة القرآن، بحيث كانت تجري به ألسنتهم، وتتدبر معانيه عقولهم وتستوعب هذٰيه قلوبهم. إذ كانوا يتعبدون الله ويفكرون في خلقه وثوابه وعقابه، آناء الليل وأطراف النهار.

---

(١) أحمد أمين ـ ضحى الإسلام ـ دار الكتاب العربي، الطبعة العاشرة. لا تاريخ الجزء الثالث، ص٣٤١.

فالطرماح[١]، وهو واحد من كبار شعراء الخوارج، وصفهم بأنهم يقومون الليل، ويكثرون من الحنين إلى الجنة، كما يكثرون من الأثنين خوفاً من النار. وتكاد قلوبهم تنطلق من صدورهم في ذكر الله. يقول الطرماح في الخوف من النار:

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له ... إن لم أفز فوزة تنجي من النار
والنار لم ينج من روعاتها أحد ... إلا المنيب بقلب المخلص الشاري[٢]

ويكاد أبو حمزة الشاري، أن يقول فيهم من النثر الفني، ما يعدل صدق عقيدتهم ومسلكهم: «شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم. ثقيلة عن الباطل أرجلهم. انضاء عبادة وأطلاح سهر، فنظر الله إليهم في جوف الليل، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة، بكى شوقاً إليها. وإذا مر بآية من ذكر النار، شهق شهقة خوفاً منها. كأن زفير جهنم بين أذنيه، موصول كلالهم بكلالهم كلال الليل بكلال النهار. قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم من كثرة السجود، يستقلون ذلك في جنب الله»[٣].

٢ ـ تصوير عقيدتهم:

ويصور شعر الخوارج حياة، هذه الطائفة العقائدية، ويتحدث عن نظرياتهم المذهبية. وهم يرسلون في ذلك، الشعر إرسالاً، ويقررونها كما آمنوا، فلا يقصدون من ذلك إثارة الجدل، ولا يهتمون بالتالي لإقامة الحجج والبراهين على صوابها، كما كان يفعل شعراء الشيعة.

فشعور الخوارج الديني لم يكن شعور المفكرين المتفلسفين، وإنما كان شعور البساطة والنباهة والإيمان القوي، القائم على العصبية والاندفاع بكل حماسة مهما كانت النتائج[٤]، دون الركون للحجج والبراهين.

ويتحدث شعراؤهم عن كفر الإمام عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص، كما يتحدثون عن عقيدة الخروج والتضحية، وعن شراء الآخرة بالشهادة، من أجل الظفر

(١) الطرماح بن حكيم: توفي نحو ١٢٥هـ ـ ٧٤٣م. الأغاني: ١٠/١٤٨ والأعلام للزركلي: ٣/٢٢٥.
(٢) ديوان الطرماح: ١٥٧. والأغاني: ١٠/١٥٢.
(٣) الجاحظ: البيان والتبيين، ٣/١٢١.
(٤) القلماوي. دة سهير. أدب الخوارج: (ص٤١) لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥م.

بالفردوس، كما يشيدون بعبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب، ويبشرونه بحسن مآله عند ربه.

ويكفر شعراء الأزارقة من الخوارج، «القعدة» الذين يقعدون عن الحرب، ويعبرون عن وجوب الخروج للقتال، الثابت بنص القرآن. «فقاتلوا التي تبغى». وقد أنذر الشاعر الخارجي قطري بن الفجاءة أحد القعدة وهو من الخوارج/ أبا خالد، فاتهمه بأنه خرج عن ملة أهل الهدى)الخوارج)، وهو لذلك، إما لصّ، يقيم بعد خروج الرجال، لينسل إلى البيوت ويسرقها، وإما كافر بعقيدة الخوارج، حيث قال فيه:

أبا خالد إنفر لستَ بخالدِ ... وما جعل الرحمن عذراً لقاعد
أتزعم أن الخارجي على الهدى ... وأنت مقيم بين لصّ وجاحد[1]

وقد رد أبو خالد على رسالة قطري بن الفجاءة، واعتذر عن قعوده، مبرراً ذلك بسوء أحواله المادية. يقول أبو خالد:

لقد زاد الحياة إلي حباً ... بناتي إنهن من الضعاف
مخافة أن يرين الفقر بعدي ... وأن يشربن رنقاً بعد صاف
وأن يعرين إن كسي الجواري ... فتنبو العين عن كرم عجاف
وأن يضطرهن الدهر بعدي ... إلى جلف من الأعمام جاف
فلولا ذاك قد سومت مهري ... وفي الرحمن للضعفاء كاف[2]

والشاعر الخارجي، يعتز بعقيدته، ويرفض كل عقيدة غيرها. ويرى أن كل من يخالف عقيدة الخوارج ملعون وضال وتائه. أما الخوارج فقد اعتصموا بحبل الله. ويبدو الشاعر الخارجي في عقيدته بمنتهى البساطة والتلقائية، فلا يكلف نفسه عناء البرهنة والمناقشة والجدال كما يفعل شعراء الشيعة. ومثالهم في ذلك قول الشاعر الخارجي فروة بن نوفل:

لقد علمت وخير العلم أنفعه ... أن السعيد الذي ينجو من النار[3]

---

(١) الأصفهاني: ١٦/ ١٤٩. والكامل للمبرّد: ٣/ ٩٣.
(٢) الكامل للمبرد: ٣/ ٩٢.
(٣) عباس. د. إحسان شعر الخوارج: ص٥ (دار الثقافة بيروت ١٩٦٣).

٣ ـ تصوير بطولاتهم الدينية

ويرصد الشاعر الخارجي سلوك أبناء طائفته. فهم يتقربون إلى الله بعباداتهم. ويتمثل ذلك في شفافية أرواحهم وهزال أجسامهم وفي خوفهم ووجلهم من الله. فهم يرغبون في رضوانه، ويتحلون بمجموعة من الصفات الدينية السامية، لأنهم صادقون في عقيدتهم. وهناك شعر كثير يصف حال الشاري الدينية، كما يقول الطرماح بن حكيم وهو أحد شعرائهم المعدودين:

لله در الشراة إنهم ... إذا الكرى مال بالطلى أرقوا
يرجعون الحنين آونة ... وإن علا بهم ساعة شهقوا
خوفاً تبيت القلوب واجفة ... تكاد عنها الصدور تنغلق
قوم شحاح على اعتقادهم ... بالفوز مما يخاف قد وثقوا[١]

ويتصل إيمان شعراء الخوارج العميق، بقوة حضورهم العسكري وبلواهم في الحروب، وشجاعتهم وبطولاتهم التي تكاد تفوق حدود المعقول. وتكاد لا تخلو قصائدهم من صور الشجاعة الفائقة التي تنبعث عن عقيدة صلبة وموقف راسخ لمواجهة أعدائهم، والتي تتأسس كما يرون، على نص القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٣].

ولذلك فقد كثرت صور البطولة في شعر الخوارج كثرة عظيمة. وقد وصفوا أبطالهم بالشجاعة والإقدام والفدائية، وأشادوا بضروب بسالتهم وآيات بطولاتهم في حومات القتال، خصوصاً حين يخوضون المعارك مع خصومهم الأمويين.

وبرزت النساء الخارجيات إلى الحرب بحماسة عظيمة. وقد وصفهن الشعر الخارجي، وهن يقتحمن المخاطر، ويبلون في الحرب بلاءً حسناً. ومنهن أم حكيم

---

(١) الطرماح: ديوانه ٥٧٨ (تحقيق. عزت حسن. دمشق وزارة الثقافة ١٩٥٦).
(٢) سورة الأنفال: ٨/ ٦٥.
(٣) سورة البقرة: ٢/ ٢٤٩.

التي ضاقت بحمل رأسها فوق كتفيها، ونهضت للقتال طلباً للشهادة، في تحد واضح وصريح لأبطال الخوارج وغيرهم. ونراها تقول في ذلك:

أصحب رأساً قد سئمت حمله وقد سئمت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عني ثقله[1]

وترتبط بطولات الخوارج بحماستهم الدينية، وبغايتهم السامية في قتال خصومهم. فمعاركهم هي نوع من الجهاد المقدس، يخلصونه لوجه الله، وينزهونه عن المطامع والغايات الرخيصة في الدنيا، حتى ولو كان الأمر يتعلق بالغنائم. وقد يحمل الخارجيّ على زوجه، إذا تطلعت إلى هدية منه، أو إلى أي غرض دنيوي. فمن ينقطع لله، ليله ونهاره، ويخرج للجهاد في سبيل الحق، يضرع إلى الله فقط، من أجل أن يرزقه الشهادة. نستمع إلى الشاعر الخارجي يزيد بن حبناء يلوم زوجه، التي أرسلت تطلب منه وهو يقاتل في سابور، هدايا وألطافاً، فكتب إليها يذكرها أن الخارجي لم يخرج إلا لطلب الشهادة:

دَع اللوم إن العيش ليس بدائم ولا تعجلي باللوم يا أم عاصم

فإن عجلت منك الملامة فاسمعي مقالة معني بحقك عالم

ولا تعذلينا في الهداية إنما تكون الهدايا من فضول المغانم

فليس بمهْدٍ من يكون نهاره جلاد، ويمسي ليله غير نائم

يريد ثواب الله يوماً بطعنة غموس كشدق العنبري بن سالم

أبيت وسربالي دلاص حصينة ومغفرها، والسيف فوق الحيازم[2]

وتعكس هذه الأبيات، صورة الخارجي، المقاتل، الذي اتخذ عدته للقتال، والذي اندفع بكل إيمان وقوة لا يبغي غير الفوز بالشهادة، تحقيقاً لرضى الله، مشيحاً بوجه عن جمَيع المغانم الدنيوية، لأنها من أعراض الدنيا، التي يطمع بها الفتى الخارجي. أما في الاستبسال واقتحام الأهوال، فيقول الشاعر الخارجي، عبيدة بن هلال اليشكري، مصوراً مصرع أحد أبطال الخوارج:

ومسوم للموت يركب درعه بين القواضب والقنا الخطار

---

(١) عباس د. إحسان: شعراء الخوارج: ص٤١.

(٢) المرجع نفسه: ص٣٦. والكامل للمبرّد: ١/١٢٤٨.

يهوي وترفعه الرماح كأنه ... شلو تنشب في مخالب ضاري
فثوى صريعاً، والرماح تنوشه ... إن الشراة قصيرة الأعمار[١]

٤ ـ هجاء الخصوم:

وكان شعر الهجاء، خير سند للخوارج، في مواجهة الخصوم، إذ كانوا يرمونهم بسهام هجائهم الجارحة. وكانوا يصفون هؤلاء الخصوم بالكفر والإلحاد، والانحراف عن جادة الصواب والحق. فهم الباغون المفسدون في الأرض. وهم المفشون للضلال، وعلى يدهم يعم الفساد بين الخلق من عباد الله.

واهتم شعراء الخوارج بسلب خصومهم جميع الفضائل الأخلاقية والاجتماعية التي يعتز بها كل عربي. فخصومهم في الحرب، جبناء، يفرون عند بدء المعركة. وهم أيضاً غادرون متجبرون ظلمة. ويتهكمون بالإمام عليّ رضي الله عنه ويقولون إنه أعرض عن كتاب الله ورضي حكم الناس، إشارة لقبول الإمام بالتحكيم. ولذلك يقول ابن أبي مياس المراديّ:

ونحن ضربنا يا لك الخير حيدرا ... أبا حسن مأمومة فتفطرا
ونحن حللنا ملكه من نظامه ... بضربة سيفٍ إذ علا وتجبرا[٢]

وبعد استئثار الأمويين بالسلطة، انصرف الخوارج عن هجاء الشيعة إلى الأمويين، فقذفوهم بنضال الشعر الحادة، فجعلوهم من أهل الضلال والكفر. ولذلك فديارهم ديار حرب، وقتالهم واجب، ودماؤهم مباحة.

فإلى جانب هذه المعاني الدينية التي أكثر شعراء الخوارج منها في هجاء خصومهم، حرص بعض شعرائهم على الهجاء بمعان أخلاقية، تدفع الخصوم بالخزي والعار، في مجتمع عربي، كان أفراده يحرصون على التمدح بخصال الشرف وقيم المجد والمروءة. ولهذا سنرى الشاعر الخارجي عمران بن حطان يهجو الحجاج بن يوسف، بالجبن وضعف الهمة، وسقوط المروءة، والعجز عن مقاومة الأبطال. ويصمه بما تعيّر به العرب الفرسان من اضطهاد العُزّل من الشيوخ والنساء والأطفال والعجز:

---

(١) الكامل للمبرّد: ٢٤٩/٢ وشعر الخوارج: ص٥٢.
(٢) شعر الخوارج: ص٧.

أسد علـيّ وفـي الـحـروب نـعـامـة ربـداء تـجـفـل مـن صـفـيـر الـصـافـر
هـلا بـرزت إلـى غـزالـة فـي الـوغـى بـل كـان قـلـبـك فـي جـنـاحـي طـائـر
صـدعـت غـزالـة قـلـبـه بـفـوارس تـركـت مـدابـره كـأمـس الـدابـر
ألـق الـسـلاح، وخـذ وشـاحـي مـعـصـر واعـمـد لـمـنـزلـة الـجـبـان الـكـافـر[١]

٥ ـ بكاء الشهداء:

وإلى جانب الموضوعات السابقة، وقف شعراء الخوارج يسجلون مهرجان الشهادة الذي أقامه الأبطال باندفاعهم وفدائيتهم، في قصائد مليئة بالسخط والحزن وبمعاني الاستشهاد والإقبال على طلب الموت، ابتغاء للحياة. ولذلك فحزنهم يتحاشى الجزع والتوجع والخور، بل هو حزن الشجعان الأقوياء، الذين يكبرون الشهداء لشهادتهم وشجاعتهم وبطولتهم، بالإضافة إلى صدق بصيرتهم وكمال تقواهم.

يقول أيوب بن خولي، يرثي هدية اليشكري وهو ابن عم بسطام قائد الخوارج:

فـيـا هـدب لـلـهـيـجـا ويـا هـدب لـلـنـدى ويـا هـدب لـلـخـصـم الألـد يـحـاربـه
ويـا هـدب كـم مـن مـلـحـم قـد أجـبـتـه وقـد أسـلـمـتـه لـلـرمـاح جـوالـبـه
وكـان أبـو شـيـبـان خـيـر مـقـاتـل يـرجـى ويـخـشـى بـأسـه مـن يـحـاربـه
فـفـاز ولاقـى الله بـالـخـيـر كـلـه وخـذمـه بـالـسـيـف فـي الله ضـاربـه[٢]

وقد غدا شهداء الخوارج الذين سقطوا في موقعة النهروان كابن وهب وأصحابه، رمزاً لمعاني التضحية والشهادة في سبيل الحق، ومنبعاً لكثير من شعر الرثاء، الذي تمتزج فيه عواطف الحزن بعواطف الغضب والثورة. ولهذا نرى الشاعر الخارجي يربط بين معنى البكاء ومعنى الغضب في القصيدة الواحدة وفي البيت الواحد أيضاً في كثير من الأحيان. فهذا عمران بن حطّان يبكي أبا بلال مرداس بن أدية أحد شهداء الخوارج، ويدعو إلى الله أن يرزقه الشهادة مثله:

---

(١) الأصفهاني، الأغاني: ١٦/ ١٥٠، والكامل للمبرّد: ٢/ ٢٨٢.
(٢) شعر الخوارج: ص٧١ وتاريخ الطبري: ٨/ ١٤٣.

يا عين بكي لمرداس ومصرعه يارب مرداس ألحقني بمرداس

تقويم عام

ويكاد شعر الخوارج، على اختلاف موضوعه، يمثل انعكاساً حقيقيا لحياتهم، من حيث عمق إيمانهم في عقيدتهم، ومن حيث شدة غضبهم وثورتهم. ولهذا نرى، كيف تمتزج في شعر الخوارج، روح التأمل والزهد، بروح البطولة والتضحية والفداء والتهافت على الاستشهاد في ساحات الجهاد الديني، تظله سحابة من التبرم بالحياة، والحزن لمصارع الأبطال المغلف بقوة الإيمان وشدة الغضب والثورة.

وبإمكاننا أن نجد في شعر الخوارج، وضوح الطابع الديني المذهبي، الذي يعبر عن عقيدته ومذهبهم في معظم أشعارهم. وإذا كانت المعاني الدينية مشتركة بينهم وبين سائر الفرق الإسلامية، غير أن الشعر الخارجي إمتاز بجعل هذه المعاني تتصل بالغضب والثورة وصور البطولة،أكثر من سائر أنواع الشعر لدى الفرق الإسلامية الأخرى. يقول عمرو بن الحصين العنبري الخارجي[1]:

متأهبون لكل صالحة ناهون مَن لاقوا عن النكر

متأوهون كأن جمر غضا للموت بين ضلوعهم يسري

ونحن نلمس في الشعر الخارجي، صدق الباعث وحرارة العاطفة، وهما يصدران عن إيمان راسخ وحماسة مندفعة. ولذلك نراهم لا يؤمنون بالتقية في شيء من أفعالهم وأقوالهم.

وبمقتضى هذا الإيمان وهذه الثورة، ابتعد شعراء الخوارج عن الإطار التقليدي للشعر العربي، فتحاشوا الغزل التقليدي، كما تحاشوا الوقوف على الأطلال وبكاء الديار، أو وصف الرحلة إلى الممدوح، والفخر بالأحساب والأنساب والتغني بالماضي المجيد. أما الحب عندهم فيقترن بحب الشهادة. وأما التكسب والارتزاق، فلم يعرفوا بابه.

وتكاد روح الحزن تطغى على شعر الخوارج، بحيث ترافق أبياته نغمة حزينة، مصدرها الغضب والثورة والألم النابع من عمق الإيمان. ولا غرو، فالخوارج أهل

---

(١) شعر الخوارج: ص٨٥.

حرب، والزهد عندهم يتصل بطلب الموت وتعجيله من أجل الظفر للشهادة. ولطالما انتهى بهم هذا الأمر إلى طلب الزهد الخالص بعد تأمل طويل قادهم إلى الإحساس بتفاهة عوارض الدنيا. فشعر الخوارج يصدر عن قلق نفسي حزين، تماماً كما يصدر عن نفس أنهكها التعبد والهجوع لله تعالى مع ما يتصل بذلك من تعالٍ عن أمور الدنيا للانشغال بطلب الآخرة.

إلى ذلك، فنحن نجد في الشعر الخارجي فصاحة العبارة وقوة الأسلوب وهما يصدران عن صفاء في الطبع، وعراقة قلما عرفت عن غيرهم من الشعراء، فطبعهم البدوي المهذب، لم تفسده تقاليد الحضارة، ولذلك ظل صافياً نقياً، غذاه القرآن الكريم وأشجاه النغم النفسي الحزين.

وشعر الخوارج قليل، لا عن نضوب في العواطف والمعاني، وإنما لانصراف الرجال إلى القتال بدل الإنشاد، وتقديم الفعل على القول. ولهذا فلم يكونوا شعراء في المقام الأول، بل فرساناً وأبطالاً. فكانوا يصرحون بالشعر من أجل تعميق الحرب في نفوسهم. إذ الشعر وسيلتهم إلى الحرب، حين كانت الحرب عند الآخرين وسيلتهم إلى قول الشعر.

ولعل ابرز ما عرف في شعر الخوارج، هو التعبير عن وحدة فنية تتصل بالوحدة الموضوعية، خالفوا بهما عمودية الشعر العربي. وكأنهم يسعون بذلك لفنية جديدة اختص بها شعراء الخوارج دون سواهم. فتخلوا عن تقاليد في القصيدة العربية واستعاضوا عن ذلك بالمقطعات التي عبقت بعقيدتهم وإيمانهم وحزنهم وأسلوبهم معاً في آن. على الرغم أن أسلوبهم، كان شديد التأثر بأسلوب القرآن الكريم، إذ كانوا يحاذونه في الصياغة والمعاني، ليضفوا على شعرهم جلال المعنى ورقته وانسيابه، وقد ظفروا به دون غيرهم من الشعراء.



الفصل الثامن

شعر الحزب الزبيري وأغراضه

١ ـ سيرة وسيرورة

لقد وافق موت يزيد مع عدم وجود علوي نشط سياسياً، إحداث تضعضع في البيت السفياني، الأمر الذي أفسح المجال أمام عبد الله بن الزبير للظهور، فأخذ يدعو لنفسه ويؤلب الناس على الأمويين مستغلاً اغتصابهم للخلافة وجعلهم إياها ملكية وراثية، ليكسب عطف الرأي العام الإسلامي. ثم إنَّ ما كان يتمتع به من دين وتقوى، جعله صاحب القدم السابقة، فأحبه الناس وعطفوا عليه وأيدوه واستطاع أن يعكر صفو الأمويين، ويقلق دولتهم، لأنه كان يدعوهم إلى التخلي عن الخلافة لكونهم قد استغلوها لمآربهم السياسية الشخصية إذ حولوها إلى ملك عضوض، والملاحظ أن حياة حزبه ارتبطت بحياته، فلم يعمر طويلاً ولم يدم أكثر من عشر سنوات ابتداء من سنة ٦٣ للهجرة وانتهاء بمصرعه في حصار الحجاج لمكة سنة ٧٣ للهجرة.

ولقد اتخذ من حادثة كربلاء وقوداً يلهب به النفوس، وينفرها من بني أمية، واتخذ مكة حاضرة لملكه إذ كان ككل قرشي يرى أن يرجع الأمر إلى الحجاز مقر السيادة العربية[١].

وأظهر ابن الزبير في مقابل خلاعة يزيد ومجونه، الزهد في الدنيا والعبادة مع الحرص على الخلافة، وكان يصور نفسه ثائراً على بني أمية لصالح الأمة، وعليه أن

---

(١) عبد الحسيب طه حميدة ـ أدب الشيعة ص٨٣.

يحرر الناس من حكم القبائل اليمنية، التي جعل لها الأمويون معظم السلطان. لذلك لم تلاق دعوته رواجاً لدى الشعوب الإسلامية غير العربية لكونها تقوم على أساس عنصري عصبي. وهذا ما بدا واضحاً في شعر عبد الله بن قيس الرقيات الذي كان في اعتناقه للعقيدة الزبيرية اعتناقاً يشوبه الكره لدولة بني أمية لانتهاكهم حرمة الأماكن المقدسة، وفتكهم بأهل الحجاز أهل النبوّة ويهاجم الأمويين بعنف وينقض مقومات قيام ملكهم، وخصوصاً في هزيمته الدالة على مناوأته للحكم الأموي وعلى نزعته السياسية. ويبين أن الصراع بين ابن الزبير والأمويين هو صراع بين الحجاز والشام على النفوذ والمكانة في قيادة العالم الإسلامي. ويبث نقمته على الأمويين الذين أضعفوا مكانة قريش، وفرقوا شملها بإحياء العصبيات القبلية. يقول في مدح مصعب[١]:

أَقْفَرَتْ بَعْدَ عَبْدِ شَمْسٍ كَدَاءُ ... فَكُدَيٌّ فَالرُّكْنُ فَالْبَطْحَاءُ

حَبَّذَا الْعَيْشُ حِيْنَ قَوْمِي جَمِيع ... لَمْ تُفَرِّقْ أُمُورَهَا الأَهْوَاءُ

إِنْ تُوَدِّعْ مِنَ الْبِلَادِ قُرَيْشٌ ... لاَ يَكُنْ بَعْدَهُمْ لِحَيٍّ بَقَاءُ

وإن كان يعزى فشل حركة ابن الزبير إلى اعتمادها الأساس العنصري القرشي بما فيه إحياء للإحن القديمة بين المضرية واليمنية إلى جانب اعتماد العرب مبدأ وحدانية الخلافة[٢]، ثم إن بخل ابن الزبير وحرصه الشديد في العطاء، جعلا الكثيرين ينصرفون عنه. علماً أن البخل عند العرب هو خروج على الأعراف الاجتماعية يعرض صاحبه للإحتقار والإزدراء. ذلك أن مقومات الزعامة تقوم في معظمها على السخاء والشجاعة، فابن الزبير كان يعطي مال الله كأنه يعطي ميراث أبيه[٣]، وكان يرددها دائماً، إنما بطني شبر، فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا، وأنا العائذ بالبيت، والمستجير بالرب، وذلك يقول أبو وجزة مولى الزبير متندراً ببخله يقول[٤]:

---

(١) ديوان ابن قيس الرقيات ص٨٧.

(٢) هذا المبدأ قد عمل به على العموم في العقيدة بكليتها حتى في حالتها الأخيرة، وهو يفهم بدقة فيما يتعلق بالمؤسسة، كما يفهم بالسنة كامل اللقب، فلا يمكن أن يوجد سوى مؤسسة واحدة من الخلافة ولا يكون عوامل لقبها سوى واحد وذلك ما ينفي نظام الشراكة في الخلافة.

EMILE TYAN Institution du droit public Musulman TII P.296.

(٣) نعمان القاضي ـ الفرق الإسلامية ص٢٦٢٢.

(٤) المسعودي ـ مروج الذهب ـ الجزء الثالث، ص٨٤.

إنَّ الـمَـوَالِـيَ أَمْـسَـتْ وَهِـيَ عَـاتِـبَـةٌ عَلَى الخَلِيفَةِ تَشْكُو الجُوْعَ وَالجَرَبَا

مَـاذَا عَـلَـيْـنَـا وَمَـاذَا كَـانَ يَـرْزَؤُنَـا أَيُّ الـمُـلُـوكِ عَـلَى مَا حَوْلَنَا غَلَبَا؟

وأغلب الظن أنه كان يتعمد البخل ليثبت للناس صلاحيته للخلافة وأمانته في حفظ مال المسلمين وبالتالي ليفضح سلوك يزيد بن معاوية وتبذيره لأموال الأمة بتشويه سمعته وتنفير الناس من حوله. ولكنه لم يستطع أن يجمع حوله من شعراء العصر سوى بعض الشعراء القيسيين نتيجة لهروبهم من الأمويين ولاستظهارهم لقبيلة كلب اليمنية، والذين وقفوا معه تمشياً مع موقف عشائرهم السياسية. واستطاع أولئك الشعراء تحميل الخليفة يزيد مسؤولية إحراق الكعبة، وعملوا على تعبئة الرأي العام ضد الأمويين فألب الجماهير عليهم بكونهم استبداديين يعاملون الناس بالقسوة ولا تعرف قلوبهم الرحمة ولا اللين ولا الحلال من الحرام. فهم قد زرعوا الخراب والدمار في كل بقعة وصلوا إليها وحتى دون مراعاة لحرمة بيت الله مهبط الوحي. زد على ذلك، فهم يستنجدون بالله كي يرسل ملائكته لمحاربة هؤلاء الكفار الذين انتهكوا بيته ودنسوا مقدساته، ونشروا الرعب والخوف بين أهله وسكانه الذين استجاروا بكعبته. يقول شاعر من تميم[1]:

أَقُـولُ لِأَهْـلِ الله لَـمَّـا أَتَـاهُـمُ مُـحَـرِّقُ بَـيْـتِ اللهِ أهيجوا البَوَاكِيَا

جَـزَى الـلـهُ أَهْـلَ الـشَّـامِ فِـيـهِ مَـلَامَـةً وَأَصْـلَاهُـمُ جَـمْـراً مِـنَ الـنَّـارِ حَـامِـيَـا

وقال آخر من موالي خزاعة:

يَـا رَبُّ إنَّ جُـنُـودَ الـشَّـامِ قَـدْ كَـثُـرُوا وَهَـتَّـكُـوا مِـنْ حِـجَـابِ البَيْتِ أَسْتَارَا

يَا رَبِّ إنّي ضَعِيفُ الرُّكْنِ مُضْطَهَدٌ فَـابْـعَـثْ إِلَـيَّ جُـنُـوداً مِـنْـكَ أَنْـصَـارَا

وشكلت موقعة الحرة طلاقاً نهائياً بين الأمويين وعبد الله بن قيس الرقيات الذي نقم عليهم وأعاب عليهم ما ارتكبوا من شرور وآثام، وغالى في تعداد معاصي الأمويين ومفاسدهم، وفند حججهم وذرائعهم، وأعلن أن نجمهم قد اقترب من الأفول والبدع التي سنوها وسياسة التشدد والتنكيل التي اعتمدوها لم تفدهم شيئاً. ورأى أن صلاح الأمة لا يتم إلا باجتماعها على ابن الزبير لكونه الأتقى والأصلح والأخير، كما أنه من أهل الخلافة والحكم والقضاء ومن سادة البيت وقاطنه. فهو

(١) إبراهيم بيضون ـ إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية، ص٣٦٢.

يجرد الأمويين من إسلامهم ومن غطائهم الديني ليبني على أنقاض دولتهم حكماً إسلامياً صحيحاً قرشياً شورياً على رأسه ابن الزبير. يقول[١]:

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ اللّـ ـهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ وَلاَ بِهِ كِبْرِيَاءُ
كَيْفَ نَوْمِي عَلَى الفِرَاشِ وَلَمَّا يَشْمَلِ الشَّامَ غَارَةٌ شَعْوَاءُ
أَنَا عَنْكُمْ بَنِي أُمَيَّةَ مُزْوَرٌّ (م) وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِيَ الأَعْدَاءُ
إِنَّ قَتْلَى بِالطَّفِّ قَدْ أَوْجَعَتْنِي كَانَ مِنْكُمْ لَئِنْ قُتِلْتُمْ شِفَاءُ

والمعاني التي أثارها ابن قيس تكشف لنا مدى سخطه على الأمويين، وتهديده لهم بالانتقام للدم القرشي المهدور وعلى رأس هؤلاء شهيد الطف. ويبرهن أن نزوعه إلى الزبيريين يعني نزوعه إلى قريش وإلى مسكنها الأصلي في الحجاز، وإلى مكة حاضرتها المقدسة، كما أنه ينزع إلى قيام حكم إسلامي عادل على أساس الشورى والمبايعة، لا حسب البدع الأموية المستحدثة والمتمثلة في الوراثة وولاية العهد. يقول[٢]:

عَلَى بَيْعَةِ الإِسْلاَمِ بَايَعْنَ مُصْعَبَاً كَرَادِيسَ مِنْ خَيْلٍ وَجَمْعاً ضُبَارِكَا
تُفِيْتُ بِنَصْرِ اللهِ عَنْهُمْ عَدُوَّهُمْ فَأَصْبَحْتَ تَحْمِي حَوْضَهُمْ بِرِمَاحِكَا

وجسّم ابن الزبير فساد يزيد، ووصفه بالظالم المستبد وأمعن في ذلك باستخدام ألفاظ تتناقض ومقامه، كأن رأى فيه نموذجاً للعار والخزي. واتهمه بالفسق والفجور واللهو وشرب الخمور، وأبعد عنه التقوى والطهر والعبادة ورضى الله حين أجرى مناقضة بينه وبين الحسين بن علي على أثر فاجعة كربلاء. فندد باستهتاره بالقيم الإسلامية وإباحته لملحرمات وتمتعه بملاذ الحياة الدنيا، وذلك حين خطب في الناس خطبة طويلة لعن فيها قتلة الحسين وندد بأخلاق يزيد بن معاوية وقد جاء فيها[٣]: «ألا رحم الله حسيناً وأخزى قاتل حسين أما والله لقد قتلوه، طويلاً بالليل قيامه كثيراً في النهار صيامه، أما والله ما كان يبدّل بالقرآن الغناء ولا بالبكاء من

(١) ديوان ابن قيس الرقيات ص٩١.
(٢) ديوان ابن قيس الرقيات ص١٣٢.
(٣) محمد الطيب النجار ـ الدولة الأموي في الشرق ص٦٨.

خشية الله الحداء، ولا بالصيام شرب المدام، ولا بالمجالس في حلق الذكر والركض في رحلات الصيد فسوف يلقون غيا». وهكذا كانت خطبته مليئة بالطعنان القاتلة للخليفة الأموي.

فعبد الله بن الزبير كان قادراً على استحضار فنون القول وحججه إذ كان خطيباً لم تعوزه البلاغة ولا الجرأة في التعبير وغيرها من المؤثرات الكلامية لاجتذاب الناس إلى صفه، فمحور خطابته يدور حول إيقاف الحق في الإمامة وفي إعلاء مقامه الديني وإثبات شرعية مطالبته بالحكم. فقد زاحم الأمويين في زعامة قريش واتخذ من الأسبقية في الإسلام ومن التدين والصلاح حججاً لإثبات حقه ولتسويغ مطلبه وللتشنيع بشخصية يزيد وسحقها اجتماعياً ودينياً ليظهره بمظهر العاجز القاصر. كان ذلك حين أراد معاوية أن يبايع لابنه يزيد. فتكلم عبد الله بن الزبير فقال[١]: «الحمد لله الذي عرفنا دينه، وأكرمنا برسوله... فإن هذه الخلافة لقريش خاصة تتناولها بمآثرها السنية وأفعالها المرضية مع شرف الآباء وكرم الأبناء، فاتق الله يا معاوية وانصف من نفسك فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله. وهذا عبد الله بن جعفر ذو الجناحين ابن عم رسول الله، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عم رسول الله وعلي خلف حسناً وحسيناً، وأنت تعلم من هما وما هما، فاتق الله يا معاوية، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك، ثم سكت...».

وكان يقابل فخر ابن الزبير بقرشيته غلظة وشدّة تجاه بني أمية، فيدعو صراحة إلى الثورة ضدهم ويرى يزيد غير كفء، لقيادة هذه الأمة ولا يجاريه في الرفعة ولا الحسب والنسب. فكان يحشر نفسه حشراً في معالجة الأمور السياسية ويركز في إظهار وتضخيم عوامل التفسخ والتصدع في السياسة الإسلامية وإنه ما قام إلا ليقوم ذلك الإعوجاج ويضع حداً للتمادي في الضلال والبدع، وليمنع الإضطرابات والفتن. وليقطع الطريق أمام اغتصاب معاوية للخلافة وليقصي يزيد عنها ويتولاها أحد الصحابة القرشيين، وذلك حين أجاب معاوية الذي استنصر لمروان بن محمد عندما تنازع مع ابن الزبير. قال ابن الزبير[٢]، إذن نطلق عقال الحرب بكتائب تمور

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف القسم الرابع، الجزء الأول، ص٦٩.
(٢) ـ الجاحظ ـ البيان والتبيين الجزء الثاني، ص٩٢.

كرجل الجراد، حافتها الأسل، لها دوي كدوي الريح تتبع غطريفا من قريش لم تكن أمه براعية ثلة».

وكان الحزب الزبيري شديد الخطورة على الدولة الأموية، وقد صوره شعراؤه بأنه حزب الله لرعايته تعاليم الإسلام، ولتنفيذه شرائعه وأحكامه وجهاده ضد أعدائه المشركين، وخصوصاً الأمويين. وقد ركزوا في تمجيد هذا الحزب على إحاطته بأصداء سياسية ودينية. فأتباعه شرطة الله وأنفاره، أما ما عداهم فهم أهل الضلال والفساد، ولقد أمرهم الله بنصره لاستئصال بني أمية وملكهم وعمالهم، وكان ذلك حين قتل إبراهيم بن الأشتر عبيد الله بن زياد فابتهج سراقة بن مرداس البارقي وقال[1]:

أَتَاكُمْ غُلامٌ مِنْ عَرَانِينِ مَذْحِجٍ ... جَرِيءٌ عَلَى الأَعْدَاءِ غَيْرُ نَكُولِ
فَيَا ابْنَ زِيَادٍ بُوءْ بِأَعْظَمِ مَالِكٍ ... وَذُقْ حَدَّ مَاضِي الشَّفْرَتَيْنِ صَقِيلِ
ضَرَبْنَاكَ بِالعَضْبِ الحُسَامِ بِحِدَّةٍ ... إِذَا مَا أَبَأْنَا قَاتِلاً بِقَتِيلِ
جَزَى اللهُ خَيْراً شُرْطَةَ اللهِ إِنَّهُمْ ... شَفُوا مِن عُبَيْدِ الله أَمْسِ غَلِيلِي

وتوطيداً لسياسة ابن الزبير الإسلامية، صور عمرو بن هند النهدي بني أمية مغتصبين محدثين للبدع منتهكين للحرمات ضالين، فقضية الصراع بينهم هي قضية جهاد الحق ضد الباطل، وإقرار العدل، مكان الغدر والظلم، وبالتالي إحلال ابن الزبير، مكان الأمويين لسيرته الفاضلة وذوده عن الإسلام والمسلمين. أضف إلى ذلك شرف نسبه وعراقة حسبه وفضل بيته حتى على بيوت قريش قاطبة فهو خير قريش أرومة وسياسةً وحكماً وأعدلهم قضاء. وهو القائل يمدح ابن الزبير[2]:

أَلَمْ تَرَ أَوْلادَ الزُّبَيرِ تَحَالَفُوا ... عَلَى المَجْدِ مَا صَامَتْ قُرَيْشٌ وَصَلَّتِ
هُمُ مَنَعُوا البَيْتَ الحَرَامَ فَأَصْبَحَتْ ... أُمَيَّةُ تَاهَتْ فِي البِلادِ وَضَلَّتِ
قُرَيشُ غِيَاثٌ فِي السِّنِينَ وَأَنْتُمُ ... غِيَاثُ قُرَيْشٍ حَيْثُ سَارَتْ وَحَلَّتِ

وإنه ليمكن القول أن العقيدة الزبيرية كانت تمثل الخلافة كما تراه الأرستقراطية

---

(١) الحوفي ـ أدب السياسة في العصر الأموي ص٢٤٠. نعمان القاضي ـ الفرق الإسلامية ص٥٠٦. الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك الجزء السابع، ص١٤٦.
(٢) معجم الشعراء للمرزباني ص٤٥.

العربية المضريَّة الحجازية المسلمة أقوى تمثيل. وهي بهذا منصب لا يجدر به إلا كل عربي قرشي، يعتز بمضريته وبمركزها الأصلي ومركز فخارها الديني في الأماكن المقدسة(١).

ويشيد أبو وجزة السعدي بآل الزبير ويفاخر بكرمهم ويدعوهم إلى تبوُّء المرتبة الفضلى ويقدمهم على سائر الناس إذ أوتوا الحكم والعدل. فهم أهل التقى وهم الغيوث في الأزمات. وما بلغ أحد مقامهم، فأكفهم مبسوطة وعطاياهم فاقت كل حد، فيهم يستزاد الخير، يقول(٢) مثنياً على كرمهم:

رَاحَتْ رَوَاحاً قَلُوصِي وَهْيَ حَامِدَةٌ ... آلَ الزُّبَيْرِ وَلَمْ تَعْدِلْ بِهِمْ أَحَدَا

رَاحَتْ بِسِتِّيْنَ وَسْقاً في حَقِيبَتِها ... مَا حَمَلَتْ حَمْلَهَا الأَدْنَى وَلاَ السَّدَدَا

مَا إِنْ رَأَيْتُ قَلُوصاً قَبْلَهَا حَمَلَتْ ... سِتِّيْنَ وَسْقاً وَلاَ جَابَتْ بِهِ بَلَدَا

ذَاكَ الْقِرَى، لاَ قِرَى قَوْمٍ رَأَيْتُهُمُ ... يَقْرُونَ ضَيْفَهُمُ الْمَلْوِيَّةَ الْجُدَدَا

ويحتج النابغة الجعدي لجدارة الزبيريين بالخلافة، فيخصهم بصفات السيادة، والشجاعة والكرم والحلم والإباء إلى جانب شرف التقوى والطهر والعبادة. تلك الصفات جعلتهم حكاماً عادلين وقادة حالمين، مشابهين للخلفاء الراشدين، أمثال أبي بكر وعمر وعثمان. يسيرون بسيرتهم الفاضلة ويحكمون بالعدل، ويقيمون المساواة، ويرفعون الظلم، ويحلون الحق. فهم يفضلون معاصريهم سواء في شرف النسب أو في الكياسة الاجتماعية أو في ميدان السياسة. لا شك أنه هنا يشير إلى ضرب بني أمية وإلى حكمهم الجائر وكثرة بدعهم ومخالفتهم لأصول الشرع باعتمادهم السيف والبطش لإقرار حكمهم. فما حفظوا الأمانة ولا صانوا الخلافة ولا حموا وقارها وهيبتها ولا اتعظوا بسيرة من سبقهم من الخلفاء الصالحين بل أغرقوا البلاد في الفوضى وأفسدوا الأرض. فهو بإشادته بالزبيريين يجمع حولهم غُرر الفضائل التي تحبب الناس إليهم، وتجعلهم يلتفون حولهم مقابل حلف واستبداد بني أمية، يقول(٣) معترفاً بشرعية إمامة ابن الزبير وبخلافته:

---

(١) نعمان القاضي ـ الفرق الإسلامية ـ ص٤٩٩.
(٢) الكامل للمبرد الجزء الأول، ص١٨٨.
(٣) الكامل للمبرد ـ الجزء الرابع، ص٤.

حَكَيْتَ لَنَا الصِّدِّيقَ حِينَ وَلِيتَنَا وَعُثْمَانَ وَالفَارُوقَ فَارْتَاحَ مُعْدِمُ
وَسَوَّيْتَ بَيْنَ النَّاسِ فِي العَدْلِ فَاسْتَوَوا فَعَادَ صَبَاحاً حَالِكُ اللَّيْلِ مُظْلِمُ

وأجّج مقتل ابن الزبير العصبية القبلية وأضرم الثورة في وجه الأمويين فحمل زفر بن الحارث وهو قرشي مضري على اليمنية المتمثلة في بحدل وابن بحدل أخوال يزيد بن معاوية على غصبهم الخلافة ومشاركتهم في قتله وتوعدهم وعداً مليئاً بالأمل بالنصر والظفر كما راح يعمل على تعبئة النفوس ضدهم وتنغيص عيشهم والإعلان على أن الحق سيعلو يوماً وإن تأخر. يقول[١]:

أَفِي الحَقِّ أَمَّا بَحْدَلٌ وَابْنُ بَحْدَلٍ فَيَحْيَا وَأَمَّا ابنُ الزُّبَيْرِ فَيُقْتَلُ
كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللهِ لا تَقْتُلُونَهُ وَلَمَّا يَكُنْ يَوْمٌ أَغَرُّ مُحَجَّلُ
وَلَمَّا يَكُنْ لِلْمَشْرَفِيَّةِ فَوقَكُمْ شُعَاعٌ كَقَرْنِ الشَّمْسِ حِينَ تُرَجَّلُ

واحتدم الشعر في هذه الخصومات القبلية السياسية فساق ابن قيس الرقيات قصيدته في مدح مصعب الزبيري متعرضاً لليمنيين المؤيدين للأمويين معتبراً القرشيين هم أهل السيادة وهم حماة الديار المقدسة التي خربتها رجال لخم وعك وجزم وحمير وصداء لكثرة ما رموها بالمنجنيق. فملك الأمويين ملك قوة وبطش وجبروت وكبرياء يجب إزاحته وإراحة البلاد من ويلاته يقول[٢]:

لَيْسَ لِلَّهِ حُرْمَةٌ مِثْلُ بَيْتٍ نَحْنُ حُجَّابُهُ عَلَيْهِ المُلاءُ
حَرَّقَتْهُ رِجَالُ لَخْمٍ وَعَكٍّ وَجُذَامٌ وَحِمْيَرٌ وَصُدَاءُ
فَبَنَيْنَاهُ مِنْ بَعْدِ مَا حَرَّقُوهُ فَاسْتَوَى السَّمْكُ واسْتَقَلَّ البِنَاءُ

وهكذا أنكر ابن قيس الرقيات اعتماد بني أمية على اليمنية، وسخط على هذه الفرقة التي سببتها تلك القبائل لقريش فأعلن أن قبيلة قريش هي الخلافة وأن العرب لا يصلحون إلا عليها لمكانتها القديمة والحديثة، ولإجماع العرب على احترامها والاعتزاز بها.

واتخذ ابن قيس الرقيات الغزل وسيلة إلى الهجاء والنيل من الأمويين فلم يقف

---

(١) ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق، ترجمة حرف العين (عبد الله بن جار وعبد الله بنزيد ص٤٥٣). الطبري - تاريخ الأمم والملوك الجزء الخامس، ص٤٣.
(٢) ديوان ابن قيس الرقيات، ص٩٥.

عند حد مدح الزبيريين والاحتجاج لهم والدفاع عن عقيدتهم السياسية ومهاجمة أعدائهم بل شبب بأم البنين زوج الوليد وابتعد في تشبيبه عن التعفف وأمعن في التهتك والفحش، فأغضب زوجها وأباه وأحنق بني أمية على الرغم من الاحتيال في الاستخفاء وراء الحلم والمنام. وكان قد سبقه في هذا المضمار قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت وكعب بن الأشرف وعبد الرحمن بن حسان والعرجي. يقول[١]:

أَلاَ هَــزِئَــتْ بِــنَــا قُــرَشِــيَّــةٌ ... يَــهْــتَــزُّ مَــوْكِــبُــهَــا
... إِلــى أُمِّ الــبَــنِــيــنَ مَــتَــى ... يُــقَــرِّبُــهَــا مُــقَــرِّبُــهَــا
أَتَــتْــنِــي فِــي الــمَــنَــامِ فَــقُــلْــ ... ــتُ هَــذَا حِــيْــنَ أُعْــقَــبُــهَــا
فَــلَــمَّــا أَنْ فَــرِحْــتُ بِــهَــا ... وَمَــالَ عَــلَــيَّ أَعْــذَبُــهَــا
شَــرِبْــتُ بِــرِيــقِــهَــا حَــتَّــى ... نَــهِــلْــتُ وَبِــتُّ أُشْــرِبُــهَــا

الشعر جزل رقيق، والألفاظ تتدفق بعفوية وهي في غاية الرقة والإبداع، ولا يهمنا أكان الشاعر صادقاً أم لا. بقدر ما يهمنا تصوير ذلك المجتمع المتفسخ أخلاقياً، وفي مختلف ظواهره الاجتماعية والسياسية والأدبية، إنه لا شك غزل كيدي[٢]. فالشاعر يطلق أبياته في غياب الرقابة متعمداً فيها إظهار النكاية وإثارة الشكوك حول زوجة الخليفة ليفضحه في عرضه ويثأر منه ويجرح كرامته الأمر الذي يتنافى وتعاليم الإسلام. إن هذا النوع من التشبيب بنساء قريش والعبث بهن كان يخلق عند الشاعر نوعاً من الانسلاخ عن الواقع ويحمله إلى عالم من الشكوك إلى أضواء سعادة وهمية لا تتعدى عن حلم رائع انقضى ومضى.

إن محاولة ابن الزبير الرامية إلى استعادة الخلافة وما رافق تلك المحاولة من استقطاب شعبي نتيجة الاضطهاد الأموي والفظائع التي ارتكبت في عهدهم باسم الإسلام، كأخذهم بالظنة ومعاقبتهم على الشبهة. ولقد استطاع ابن الزبير أن يؤلف

---

(١) المرجع السابق ص١٢١.
(٢) الغزل الكيدي ـ هدفه العبث بخصوم الدعوة عبثاً يشتمل على الإهانة ويحمل على الغضب، والحنق لأن هذا اللون يذكر نساء الخصوم بما لا يحسن ذكره في صورة الغزل أي أنه يتوسل بالغزل الفاضح إلى الهجاء المقذع وإلى التشهير بهم، وسمي هذا اللون بالغزل الهجائي.
ـ نعمان القاضي ـ الفرق الإسلامية، ص٥٠٣.

من تلك العناصر الملتفة حوله حزباً قوياً مستفيداً من أخطاء السفيانيين، ذلك كان لا يتورع عن مناقشة معاوية محاولاً إقناعه بحقه بالخلافة باعتباره قرشي الأرومة أماً وأباً، وقد استغل ابن الزبير سيرته الفاضلة وعلو شرفه لإقامة موازنة ومفاضلة بين سيرة يزيد وسيرته وليفضح هذا الأخير اجتماعياً، وحتى يقال عنه عظيم الدر محمود. لذلك اتجه في ثورته إلى إزالة ضروب الفساد التي استحدثها معاوية وغيره لكن عصبيته الإقليمية ودعوته الموتورة حالت دون تحقيق أمانيه في الخلافة الإسلامية.

فقد خسر مقومات النجاح بالرغم من تمكنه من تهييج الرأي العام على السفيانيين وإثارة الحنق عليهم وبالأخص تجاه الخليفة يزيد بن معاوية نظراً لفسقه ومجونه ولحقده الدفين الذي رافق العمليات الحربية الانتقامية الأموية ضد ابن الزبير بوجه خاص، والحجازيين بوجه عام. إذ تبع تلك الحملات تنكيل ونهب وإحراق ترك عميق الأثر في نفوس المسلمين وأوغر صدورهم وأثارها في إطار من الإصرار على الثأر. وقد دخل الحجاز في عهده، في صراع سياسي مع الشام وأصبح أمر الخلافة رهناً بذلك الصراع، وعلت أصوات الشعراء مندّدة بالأمويين وبالقبائل التي تخلت عن ابن الزبير وعن دعوته وخذلته في حروبه مشيدة بكفاءته وقرشيته.

٢ ـ أغراض الشعر الزبيري

لم يعمر سلطان الزبيريين أكثر من تسع سنوات تقريباً (٦٣ ـ ٧٢هـ)، قضاها عبد الله بن الزبير في صراع مع الأمويين من جهة والشيعة والخوارج من جهة أخرى. ولهذا ما لبث سلطانهم أن انتهى بنهاية عبد الله بن الزبير، دون تحقيق حزب سياسي، على الأقل، يستمر من بعده.

ويتحدّث الباحثون عن أن دعوى ابن الزبير خلال فترة حكمه التي أقامها في الحجاز، إنما كانت انعكاساً للعصبيّة القرشيّة، التي كانت تطمح لاستعادة الحكم إلى المدينة المنورة، بعد أن اختلسه الأمويون وفرّوا به إلى دمشق. ولا غرو، فالمضرية الحجازية، كانت لا ترى من يليق بالخلافة، إلاّ فارس محارب عربي قرشي، لا يعتز باليمنية، كما فعل بنو أميّة، وإنما يعتز بقومه المضريين، ولا يفكر في النزوح عن الحجاز، إقليم الدعوة الإسلامية الأوّل، ومركز القرشيّة وموطنها الأصليّ.

ويعتبر عبيد الله بن قيس الرقيات. شاعر الحزب الزبيري الفرد، ويكاد أن يكون الأوحد من بين الشعراء الذين انقطعوا لمدح آل الزبير والدخول في خدمتهم[١].

وقد نعت بالرُّقيات لأنه كان يتشبب بثلاث نسوة، كل منهن تسمّى رُقيّة، فنعت بالرقيات إشارة إلى ذلك.

وكان ابن قيس الرقيات يلازم المغنين، ويعرض للنساء في الحج. ثم تحول عن مكة إلى المدينة؛ مما جعله يقيم علاقة قوية بالمغنين والمغنيات، وخصوصاً مع سائب وخاثر وبُديح وفند، وهم من مغني المدينة المشهورين، ونراه يذكر في بعض شعره داراً له بها[٢]، وقد نزلها مع أخيه عبد الله ونفرٍ من عشيرته.

وابتعد ابن قيس الرقيات عن المدينة حين ثارت على يزيد بن معاوية. غير أنه كان لموقعة الحرّة أثرها القوي في نفسه، حيث أن طائفة من آل بيته قد قتلوا فيها، مما جعله يبكي من ماتوا في هذه الموقعة بكاءً حاراً ويثور على بني أمية وعلى يزيد:

إن الحوادث بالمدينة قد ... أوجعتني وقرعن مروتيه[٣]

وبعد موت يزيد، اتصل بن قيس الرقيات بمصعب بن الزبير في العراق، مما جعله يستشعر عقيدة الزبيريين. فالخلافة ينبغي أن تكون في قريش روحاً وواقعاً عملياً. والعاصمة يجب أن تكون في الحجاز. أمّا مضر، فهم مادة الخلافة، ويجب أن تعتمد عليهم، لا على كلب وأخواتها من قبائل الشام اليمنيّة التي أوقعت بأهل المدينة وقعة الحرة المشؤومة. وقد أخلص الشاعر العقيدة أشدّ الإخلاص، خلال قصيدة همزية حمل فيها على بني أميّة:

أقفرت بعد عبد شمس كداءُ ... فكُدىً فالركن فالبطحاءُ

---

(١) تجد ترجمة ابن قيس الرقيان في الأغاني: ٧٣/٥ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٢٣/١ وطبقات ابن سلام: ص٥٣٠ وحديث الأربعاء لطه حسين: ٣١٦/١. وهو قرشي من بني عامر بن لؤي، ولد بمكة في العقد الثالث للهجرة لقيس بن شريح بن مالك بن ربيعة... بن عامر بن لؤي.

(٢) ديوان ابن قيس الرقيات: ص٢٤.

(٣) المروة: حجر أبيض تقدح منه النارد وهو يضرب لمن نزل به شرّ.

وفخر بقريش ورجالها في الجاهلية والإسلام، كما فخر ببيتها الحرام الذي أحرقه جيش الشام. وكان يدعو دعوة عنيفة لحرب عبد الملك بن مروان. ويمدح بالتالي مصعب بن الزبير، ويبكي قتلى موقعة الحرّة.

وهذه القصيدة مليئة بالأنغام السياسية التي كان يوقعها على قيثارته الشجيّة، وهي أشبه ما تكون بالبيان السياسي وبالنشيد الحزبي.

ومن جانب آخر، أنشد ابن قيس الرقيات كثيراً من قصائد الغزل ذات المنحى السياسي، فنهج نهج عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، الذي اتخذ من الغزل الفاضح وسيلة إلى الهجاء المقذع. فعلى غرار غزل عبد الرحمن الفاحش برملة أخت يزيد، تغزل ابن قيس الرقيات بعاتكة زوجة عبد الملك، وأم البنين زوجة ابنه الوليد غزلاً فاحشاً في حين أن غزله في زوجتيّ مصعب: عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين، كان كله وقار، وكأنه أزهار ثناء، يريد أن يرضي بها مصعباً[١]. وسنعود إلى موضوع الغزل السياسي في حينه.

وبعد مقتل مصعب بن الزبير في معركة دير الجاثليق سنة ٧١هـ، فرّ ابن قيس الرقيات إلى الكوفة، وأخذ يتوارى عن أعين عبد الملك بن مروان الذي كان يطلبه. فشفعت له أم البنين عند عبد الملك، ولم يلبث أن مثل بين يديه ينشده بائيته:

ما نقموا من بني أميّة إ	لاّ أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم معدن الملوك فلا	تصلح إلاّ عليهم العربُ
إن الفنيق الذي أبوه أبو الـ	ـعاصي عليه الوقار والحُجبُ
خليفة الله فوق منبره	جفّت بذاك الأقلام والكتبُ
يعتدل التاج فوق مفرقه	على جبين كأنه الذهبُ[٢]

ومنذ ذلك الوقت، يدخل ابن قيس الرقيات في خدمة الأمويين، فيمدح بشر بن مروان في العراق، كما يمدح عبد الله بن جعفر في المدينة وعبد العزيز بن مروان بمصر، فيتحول له ويثور معه على أخيه عبد الملك، وذلك حين قرّر الخليفة

(١) ضيف. د. شوقي: العصر الإسلامي، ص٢٩٧.
(٢) ديوان ابن قيس الرقيات: ص٦٥.

صرف ولاية العهد عن أخيه عبد العزيز بن مروان إلى ابنه الوليد بن عبد الملك. وفي ذلك يقول:

لتهنه مصرُ والعراقُ وما ... بالشام من بَزِّه ومن ذهبه[(١)]
يخْلُفك البيض من بنيك كما ... يخْلُف عودُ النُّضار في شعبه
نحن على بيعة الرسول وما ... أعطي من عجمه ومن عربه

وقد نقم عليه عبد الملك بن مروان من جديد، مما دفع به لالتماس العفو منه بقصيدة بديعة يذم فيها من يغتابونه عند عبد الملك بن مروان، ومطلعها:

بشَّر الظبْيُ والغراب بسُعْدى ... مرحباً بالذي يقول الغرابُ[(٢)]

وليس في ديوان ابن قيس الرقيات مدائح في الوليد كما يلاحظ النقّاد، وربما كان ذلك بسبب تقدم سنه في عصر الوليد.

وسنحاول ما اتسعت لنا المحاولة، الوقوف على أهم مظاهر شعره الذي أيّد به حركة ابن الزبير، لاتصال ذلك بطبيعة البحث في هذا الموضوع الذي نحاول معالجته.

الإشادة والتاييد:

ويبدو أن ابن قيس الرقيات، كغيره من الشعراء الذين أيدوا حركة ابن الزبير في الوصول إلى الخلافة، كان يلح على إبراز صورة ممدوحه، الرجل العريق النسب والحسب، في معرض الإشادة به وبآله، وتأييد حركته والاحتجاج لخلافته. فنسب ابن الزبير، يحتل من قريش ذروتها، وهو كريم الفعال، رفيع المكانة بين قومه، شجاع من قوم شجعان، كريم سخيّ، من قوم ينتهي إليهم الكرم والسخاء، لا يفاخره مفاخر، ولا يقوم لشرفه شرف. يقول عبيد الله بن قيس الرقيات، مشيداً بعبد الله بن الزبير:

وابن أسماء خير من مسح الركـ ... ـن فَعَالاً وخيرهم بنيانا
وإذا قيل مَنْ هجانُ قريش ... كنت أنت الفتى وكنت الهجانا[(٣)]

---

(١) ديوان ابن قيس الرقيات: ص٩٠.
(٢) المرجع نفسه، ص٣١.
(٣) الهجان من كل شيء: خياره وخالصه، الديوان: ص١٥٧.

فهو يصفه بأنه خير الأتقياء فعالاً ومجداً، وبأنه أعظم قريش حسباً وشرفاً. ولا شك أنه يقصد معاصريه ممن يطلبون الخلافة، ويفضله عليهم بأعماله ونسبه، فهو إذن أجدر بالخلافة.

وتتردّد هذه المعاني ونظائرها في كثير من قصائده. فابن الزبير سليل الأشراف بمكة ومن معدنها الخيّر الوافي، وهو اليوم أرفعها شأناً وأعدلها حكماً وقضاءً، وأخيرها سياسة. يقول فيه:

أنـت ابـن مـعـتـلـج الـبـطـا ح كُـدَيِّـهـا فـكـدائـهـا
فـالـبـيـت ذي الأركـان فـالـ مُـشْـتَـنِّ مـن بـطـحـائـهـا

ويقول:

أولـى قـريـش بـالـعـلا فـي حـكـمـهـا وقـضـائـهـا[1]

ويشيد شعراء ابن الزبير بممدوحيهم: عبد الله ومصعب. فعبد الله بن الزبير بلسان النابغة الجعدي، من طراز أبي بكر وعمر وعثمان. وهو لذلك موئل المحتاجين، ومقصد الناس لأنه يسوّي بينهم[2]. وهو أيضاً بلسان أبي وجزة الأسلمي المعروف بالسَّعدي، معطاء كريم يهب القلوص للوافدين عليه[3].

أما مصعب بن الزبير، فهو بلسان ابن قيس الرقيات، شهاب من الله، نقي ورع قد أفلح في الله أيما فلاح[4].

وفي معرض الإشادة والتأييد لابن الزبير وآله، يشبّه أبو وجزة السعدي، الشاعر البدوي، ابن الزبير بشيخ القبيلة وقومه في البادية، فهم أبناء حرّة، شجعان، يشفون أعداءهم من داء الحقد عليهم بالسيوف أجواد غاية الجود، في السنة الشديدة الجدب. يقول أبو وجزة السعدي:

---

(١) ديوانه: ص١١٧.

(٢) يقول النابغة الجعدي في مدح عبد الله بن الزبير:

حكيت لنا الصديق لما وليتنا وعثمان والفاروق فارتاح مُعْدِمُ

(٣) يقول: أبو وجزة:

راحت رواحا قلوصي وهي حامدةٌ آل الزبير، ولم تعدل بهم أحداً

(٤) يقول ابن قيس الرقيات:

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماءُ

آل الــزُّبــيــر بــنــو حــرّةٍ مَـرَوا بـالـسـيـوفِ صـدوراً خِـنـافـا
سـلِ الـجُـرْدَ عـنـهـم وأيـامـهـا إذا امـتـعـطـوا الـمـرهـفـات الـخـفـافـا
مـطـاعـيـم تـحـمـدُ أبـيـاتـهـم إذا قـنـع الـشـاهـقـات الـطّـحـافـا[1]

وإذا كان بعض الشعراء مدحوا ابن الزبير لكرمه وشجاعته وشرف نسبه، فإن ابن قيس الرقيات، كان يريد أن يدعم الدولة القرشية من خلال ابن الزبير، والتي يرى فيها عزّ قريش من جهة واسترداد حق إقليم الحجاز، مهد الإسلام ودار الخلافة من جهة أخرى.

هجاء الخصوم

حمل الشعراء الزبيريون على بني أميّة لسياستهم الجائرة واستئثارهم بأموال بيت مال المسلمين. كما حملوا عليهم أيضاً لأنهم عادوا مضر، وأخرجوا دار الخلافة من الحجاز. كذلك حملوا على الخوارج لنزعتهم الجمهورية وإنكار حق قريش بالخلافة. كما أنكروا على الشيعة قصر الخلافة على بني هاشم وارتمائهم في أحضان الموالي.

ولهذا وجدنا شعراء الحزب الزبيري، يحملون على هؤلاء جميعاً في أشعارهم باعتبارهم منحرفين عن الحق، ويدعون بهتاناً من الأمر وزوراً. فابن قيس الرقيات يأخذ في شعره طابع الثورة على الأمويين، والتحريض على قتالهم، والدعوة إلى القضاء على دولتهم. وهذا زُفَر بنُ الحارث الكلابي[2] يوجه نقداً لاذعاً لسياسة بني أميّة، لأنها لا تراعي جانب الله والدين فيمن توالي أو تعارض. ولأن الأمويين تجرأوا على حرمة المدينة وأوطأوا جيوشهم الشامية أرضها الطاهرة، وأعملوا السيف

---

(١) الأصفهاني: الأغاني: ١١/ ٨١.
(٢) وتتمثل ثورته على بني أمية في قوله:
أخي الله أمّا بخدل وابن بخدلٍ فـيـحـاي، وأمـا ابـن الـزبـيـر فـيـقـتـلُ
كـذبـتـم وبـيـتِ الله لا تـقـتـلـونـه ولـمـا يـكـن يـومٌ أغـر مـحـجـلُ
ولـمـا يـكـن لـلـمـشـرفـيّـة فـوقـكـم شـعـاعٌ كـقـرن الـشـمـس حـيـن تـرجّـلُ
شرح الحماسة للمرزوقي: ٢/ ٦٤٩ (مصر ١٩٥٢ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر).

في رقاب أهلها الموالين لابن الزبير في موقعة الحرّة، كما يقول عبد الله بن حنظلة المعروف بابن الغسيل الذي كان ينشد مرتجزاً:

بُعْداً لمن رامَ الفساد وطغى[1] وجانبَ الحقَ وآيات الهُدى

لا يبعدُ الرحمنُ إلاّ من عصى

وابتدع ابن قيس الرقيات نوعاً من الهجاء عرف بالغزل الهجائي كما أسماه الدكتور طه حسين[2]. وهو غزل لا يصدر عن الشاعر تعبيراً عن عاطفة الحب، بل قصداً إلى التشهير بأعراض الخصوم. ولذلك نراه يشبّب بأم البنين زوج الوليد بن عبد الملك ويدّعي أنها زارته في المنام، فقبلها، وضاجعها، وأعجبته وأعجبها. وقد أغاظ الأمويين بهذا النوع من الغزل، وأظهر استخفافاً بهم وبسلطانهم.

بالإضافة إلى ذلك، فقد هجا الشعراء الزبيريون شيعة آل البيت ورجالاتهم، دون التعرض للأئمة. واتجهوا بخصومتهم وهجائهم إلى بعض كبار أنصارهم مثل المختار الثقفي، الذي هجاه سراقة بن مرداس البارقي، فتهكم به وعرض لكذبه وكفره وقال فيه:

ألا أبلغ أبا إسحاق أني رأيت البُلْقَ وهْماً مصمتاتِ

إذا قالوا، أقول لهم كذبتم وإن خرجوا لبست لهم أداتي[3]

وقد فنّد أبو سراقة دعاوى المختار الثقفي أنه يوحى إليه، وأنه كان يمخرق على أتباعه، إذ اتخذ كرسياً غطّاه بالديباج، وكان يضعه في مقدمة الجيش، ويقول لجنده: قاتلوا عليه، فهو لكم كالتابوت لبني إسرائيل وكان يرسل فوقه حمامات بيضاً حين القتال، يزعم أنَّها من الملائكة، أتت لنصرتهم. وقد قال المتوكل الليثي في تكذيب كرسي المختار:

أبلغ أبا إسحاق إن جئته أنّي بكرسيكم كافر[4]

(١) تاريخ الطبري: ٧/ ١٠ وتاريخ ابن الأثير: ٤/ ١١٧.

(٢) الدكتور طه حسين: حديث الأربعاء: ١/ ٢٤٧.

(٣) طبقات ابن سلام: ص٤٤٠. وأبو إسحاق كنية المختار الثقفي.

(٤) الطبري: ٦/ ١٤١.

وقد ندّد ابن قيس الرقيات بجميع القبائل التي تخلت عن نصرة مصعب بن الزبير وخذلته حتى قتله عبد الملك بن مروان[١].

رثاء الفتى من الزبيريين:

ولقد أسفرت المعارك التي دارت بين الزبيريين وجيوش الدولة الأموية وأنصار الشيعة عن عدد كبير من القتلى، سقطوا في صفوف الزبيريين، وكان من بينهم مصعب بن الزبير الذي قتله جيش عبد الملك في الكوفة عام ٧١هـ. وكان من أثر ذلك أن ظهر شعر كثير يبكي هؤلاء القتلى ويرثي مصعب بن الزبير، ويسجل قعود مضر عن نصرته على ربيعة. وكثيراً ما يصف هذا الشعر خذلان أهل العراق وغدرهم وخيانتهم ولؤمهم لمصعب بن الزبير، حيث يقول ابن قيس الرقيات:

لقد أورث المِصْريْن خزياً وذلة ... قتيلٌ بدير الجاثليق مقيم[٢]

وتشتمل قصائد ابن قيس الرقيات التي رثى بها الزبيريين على معانٍ حزينة ممزوجة بالغيظ والحنق والوعيد. ولا غرو، قلّما يمثّل الموتورين من ظلم بني أميّة، مثلما تمثلهم أبيات ابن قيس الرقيات، لما فيها من وعيد ملتهب بنار الحزن والأسى، ولما تتضمنه من ألفاظٍ سهلة وقافية لينة ممتدة، وعاطفة قوية مغيظة تتفجر ألماً وحسرةً.

في تقويم الشعر الزبيري

بنظرنا أن الشعراء الزبيريين، كانوا قد جالوا في الميدان السياسي، داعين إلى مذهبهم في نصرة عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب بن الزبير. وقد كان أشهر شعرائهم في هذا المجال ابن قيس الرقيات، والنابغة الجعدي، وأبا وجزة الراجز والمتوكل الليثي وسراقة بن مرداس البارقي. ويكاد شعر هؤلاء في آل الزبير يتّصف بالأمور التالية:

أ ـ فلم يستطع هذا الشعر المحازب لآل الزبير الاحتجاج والبرهنة على صواب دعوته بالخلافة لهم، خصوصاً بعد عزوفه عن البراهين والحجج المقنعة، المدعمة

---

(١) المرجع نفسه: ٧/ ١٨٧.
(٢) المرجع نفسه: ٧/ ١٨٧.

بالأدلة الشرعيّة أو العقلية، كما فعل شعراء الشيعة، وظل يدور في إطار المدح العام الملتمس من الوجدان العربي وليس من الوجدان الديني الإسلامي.

ب ـ وقد تميز هذا الشعر بقلة النتاج، إذ لم يكن لهذا الحزب شعراء كثر على غرار ما كان للأمويين والشيعة والخوارج، بسبب قصر عمر الحزب من جهة، وعدم إغداق عبد الله بن الزبير على الشعراء مثلما كان يفعل بنو أمية.

ج ـ ونحن نجد في الشعر الزبيري أيضاً، بعض الأصداء الدينية، حيث وصف الشعراء كلاً من عبد الله ومصعب بصفات دينية، وبأن حزب آل الزبير هو حزب الله، أما أتباعه، فهم شرطة الله، كما في قول سراقة بن مرداس البارقي:

فجزى الله خيراً شُرْطَةَ الله إنهم ... شفوا من عبيد الله أمس غليلي

د ـ ولأن شعراء الحزب الزبيري، كانوا أصحاب عقيدة، أكثر مما هم طلاب مال، بسبب بخل عبد الله بن الزبير وقلة عطائه لهم، فقد كان شعرهم قوياً ومتدفقاً، خصوصاً، حين كانوا يحملون على خصومهم ويتوعدونهم أو يشتمونهم. كما في قول ابن قيس الرقيات:

فكيف نومي على الفراش ولمّا ... تشمل الشامَ غارةٌ شعواءُ؟
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي ... عن بُراها العقيلة العذراءُ

ولا شك أننا نجد في مثل هذه الأبيات القوة والحرارة والتدفق والوعيد الملتهب.

هـ ـ وقد صاحب الشعر الزبيري، ظهور الغزل السياسي الذي كان مبدؤه في العصر الجاهلي، ثم ظهر على يد قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت وكعب بن الأشرف، ثم ظهر في الإسلام على يد عبد الرحمن بن حسان بن ثابت. وقد نهج ابن قيس الرقيات منهج هؤلاء الشعراء في الغزل السياسي الذي يكيد لنساء مهجويه من بني أمية، خصوصاً في غزله لأم البنين زوج الوليد بن عبد الملك. وكان يتخلص بعد الانتهاء من هذا الغزل الفاحش مع نساء أميّة ليمدح مصعب بن الزبير. وهو القائل في أم البنين:

وبـــتُّ ضــجــيــعــهــا جَــذْلا نَ تــعــجــبــنــي وأعــجــبــهــا
فــكــانــت لــيــلــةً فـــي الــنــو م نــســمــرُهــا ونــلــعــبــهــا

و ـ ولا شك أن قصائد شعراء الحزب الزبيري، كانت تتصف بالقوة والجزالة وسهولة اللفظ والعبارة، وحسن العرض ورشاقة الوزن وحرارة العاطفة، مما جعلها تسيل على ألسنة الناس، على الرغم من محاربة الأحزاب الأخرى لها.

الفصل التاسع

الشعر القبلي وموضوعاته

حركة الشعر بين القبائل

تمهيد

إذا كانت العصبيّة القبليّة من أهم عناصر الحياة العربية في العصر الجاهلي، فقد عادت كذلك في العصر الأموي، بعد أن طواها الإسلام وأخمد نارها وأوارها طيلة الحقبتين النبويّة والصحابيّة.

فابتداءً من موقعة مرج راهط (٦٥هـ/ ٦٨٥م)، والتي انتصر فيها مروان بن الحكم، بدت الحرب في مظاهرها صراعاً بين الأمويين والزبيريين، ولكنها كانت في الباطن صراعاً بين المضريّة/ العدنانية/ القيسيّة من جهة، والقحطانيّة/ التغلبيّة/ اليمانيّة/ الشاميّة من جهة أخرى. وإذا كانت المضريّة تمثلها قيس في تلك المعركة، فقد كانت اليمنيّة تمثلها قبيلة كلب.

وقد بدأت جذوة الشعر الهجائي تضرم نارها بين قيس وكلاب، غبّ تلك المعارك التي اشتعلت بين الأمويين والزبيريين، حتى كانت موقعة دير الجاثليق عام ٧٢هـ والتي قتل فيها مصعب بن الزبير على يد عبد الملك بن مروان كما مرّ معنا.

وتعتبر قصيدة زفر بن الحارث شاعر قيس (نحو٧٥هـ/ ٦٩٥م) والتي هجا بها قبيلة كلب، من أوائل شعر الهجاء الذي نشب بين القبائل، بحيث دفعت بسائر القبائل للمشاركة في مهرجان الشعر القبلي الذي كانت سداه العصبيّة ولحمته الثارات والأيام. يقول زفر بن الحارث شاعر قيس في هجاء كلب وسائر القبائل اليمانيّة/ الشاميّة:

أريـنـي سـلاحـي لا أبـالـك إنـنـي — أرى الـحـرب لا تـزداد إلاّ تـمـاديـا[١]
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى — وتبقى حزازات النفوس كما هيا
أتذهب كلب لم تنلها رماحنا — وتترك قتلى راهط هي ما هيا
لعمري لقد أبقت وقيعة راهط — لمروان صدعاً بيننا متنائيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا — وتثأر من نسوانِ كلب نسائيا

وقد استدعت هذه القصيدة، من شاعر قبيلة كلب «جواس بن قعْطل» أن يردّ عليها بقصيدة تنقضها وتسفه ما جاء فيها، مما جعل الصراع القبلي يشتد على مستوى الشعر، حين كانت المعارك الحربيّة تضع أوزارها. يقول جواس بن قعطل في ردّه على زفر بن الحارث:

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط — على زفر داءً من الداء باقيا
تبكي على قتلى سليمٍ وعامرٍ — وذبيان معذوراً، وتبكي البواكيا
دعا بسلاحٍ، ثم أحجم إذ رأى — سيوف جناب، والطوال المذاكيا

واشتركت قبيلة تغلب النصرانية، على الرغم أنها من عرب الشمال، إلى جانب القبائل اليمنية/ الشامية المناصرة لبني أميّة، في هذا الصراع العنيف الذي كان يدور بين القبائل العدنانيّة والقحطانيّة. وقد تحرّج بعض التغالبة من حرب إخوة لهم، كما حدث للشاعر القطامي، عمير بن شيم (نحو ١٣٠هـ/ ٧٤٧م.) والذي خاطب في قصيدته ابنة زفر بن الحارث زعيم قيس، فقال:

قفي قبل التفرق يا ضباعا — ولا يك موقف منك الوداعا[٢]

فشعراء القبائل، لم يكونوا بدعاً بين قومهم، وإنما كانوا صورة منهم، يخضعون للعصبيات القبليّة، ويتركونها توجه حياتهم وفنهم الوجهة التي ترتاح لها قبائلهم. وقد استغلوا هذه الحياة القبلية وما انطوت عليها من عصبيات، في شعرهم، فكانوا بذلك الألسنة الناطقة لقبائلهم، وسفراءها لدى القبائل الأخرى في أغراض الحرب والسلم.

---

(١) تاريخ ابن الأثير: ٤/ ٧٥.
(٢) ديوان القطامي: ٣١ دار الثقافة بيروت، ١٩٦٠.

١ - بين قيس وتميم:

وتعتبر قبيلة قيس المضرية من أكبر القبائل العربية، وقد وقعت لها حروب مع جميع القبائل تقريباً، ومن هذه القبائل، من كانت مضريّة مثلها، كتميم. وربما نشأت حروب قيس وتميم عن أسباب سياسيّة، بعد أن تحالفت تميم مع الأمويين واشتبكت مع القيسيين في العراق. وربما نشأت أيضاً عن أحداث وثارات قبليّة، بعد أن قتل قتيبة بن مسلم الباهلي القيسي، جماعة من تميم يعرفون ببني الأهتم، فقتله بهم وكيع بن حسان بن قيس اليربوعي التميمي، فاستعرَّت العداوة بينهما[١].

وقد نشأت عن خصومة قيس وتميم، أيام بين أحياء القبيلتين، تبعها انتصار شعراء كل قبيل لقبيلته. مثل الخصومة بين بني مجاشعِ التميميين، وبني جعفر بن كلاب القيسيين.

إزاء ذلك نرى الفرزدق وهو فحل مجاشع التميمي، يهجو بني جعفر القيسيّ، بعد أن عرف مثالبهم من عمرو بن لجأ التميمي، وكان شاعراً عارفاً بأيام العرب ومفاخرها ومثالبها. وقد بدأ الفرزدق قصيدته في هجاء القيسيين بقوله:

عرفتُ بأعلى رائسِ الفَأوِ بعدما مضت سنةٌ أيامُها وشهورها[٢]

وقد فخر الفرزدق وهو تميمي، بمقتل قتيبة بن مسلم الباهلي القيسي، وهجا قيساً وعيّرها وسخر منها بسبب انقيادها لقتيبة الذي كان شؤماً عليها حيث يقول:

أتاني ورحْلي بالمدينة، وقعةٌ لآل تميم أقعدت كلَّ قائمِ[٣]

٢ - بين قيس وبكر:

وامتدت الحرب بين القبائل إلى قيس وبكر/ربيعة. فقد كان المُهَيْر بن سلمى الحنفي من بكر بن وائل، جمع جيشاً، وأغار به على بني عقيل وبني كلاب وسائر بطون بني عامر بن صعصعة من (قيس عيلان)، فالتقوا عند الفلج، فهزم البكريون، ففخر القحيف العقيلي بهذا اليوم على بكر، حيث قال:

---

(١) الأغاني: ١١/ ٥٥ والعمدة ٢/ ١٥٩ والعقد الفريد ٣/ ٣٠٣.

(٢) أبو عبيدة بن المثنى: نقائض جرير والفرزدق: ٥١٢ (ليدن ١٩٠٥).

(٣) ديوان الفرزدق: ص ٨٥٣ وكتاب العمدة لابن رشيق: ٢/ ١٥٧.

أتانا بالعقيق صريخ كعب فحنّ النبع والأسلُ النِّهالُ
ثلاثاً ثم وجَّهْنا إليهم رحىً للموت ليس لها ثُفالُ[1]

وينشغل الشاعر، بهذه الحروب القبليّة، فيحكي لنا فِعال قومه، ونكاياتهم في أعدائهم، وكيف كان هؤلاء القوم يستجيبون سريعاً للصراخ، يحفزهم أبطال القبيلة الذين يتشوقون، بل يتحرقون لقتال الأعداء، مقبلين من كل منازلها. كما يقول شاعر من شعراء الجاهليّة قُرَيط بن أنيف، أحد شعراء بلعنبر:

قومٌ إذا الشرّ أبدى ناجذيْه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات، على ما قال برْهانا[2]

٣ ـ بين قيس وتغلب:

وأعظم أيام القبائل، كانت بين قيس وتغلب. وقد كثرت أشعار هاتين القبيلتين، كثرة عجيبة وهي تهاجي بعضها. كما وقف بعض الشعراء، يتحدث عن خذلان قومه أو خذلان حلفائه له.

فعقب هزيمة القيسيين في يوم الثرثار الأول بين قيس وتغلب، استبطأ عُمير بن الحباب السُّلمي القيسي، القبائل القيسية، مما تسبب بهزيمة قومه، فقال يتحدث عن خذلان القيسيين، ويفخر بقومه من بني سُلَيْم:

أناديهم وقد خذلَتْ كلابٌ وحوْلي من ربيعة كالجبالِ
أقاتلهم بحيّ بني سُلَيْمٍ وأغْضُرَ كالمصاعيب النهالِ
فدىً لفوارس الثرثار قومي وما جمعت من أهلي ومالي[3]

وتكاد هذه الأشعار، تدور بجملتها حول خذلان الأعوان، والتضحية في سبيل شرف القبيلة.

وعندما قتل عمير بن الحباب يوم الحشاك سنة (٧٠هـ) انتقم له زفر بن الحارث الكلابي، من بني تغلب في يوم الكحيل، وهزم جموع تغلب فغرق منهم

---

(١) طبقات ابن سلام: ٢/ ٧٩٣.
(٢) شرح حماسة أبي تمام للمرزوقي: ١/ ٢٧ ـ ٢٩.
(٣) الأغاني: ١١/ ٥٩.

في دجلة عدد كبير، وبقرت بطون النساء وأسر من تغلب زهاء مائتان قتلوا صبراً، وفي ذلك يقول زفر بن الحارث:

ألا يا عينُ بكّي بانسكاب ... وبكّي عاصماً وابن الحباب
فإن تكُ تغلبٌ قتلت عميراً ... ورهْطاً من بنيّ في الحراب
فقد أفنى بني جشم بن بكر ... ونِمْرَهم فوارسُ من كلابِ
قتلنا منهم مائتين صبراً ... وما عدلوا عمير بن الحبابِ[1]

وقد ظهر من الشعراء القيسيين أو التغلبيين من أدان القتال بين قيس وتغلب. فالشاعر القُطامي التغلبي يتحسر على ما كان من حروب قاسية ومهلكة بين قيس وتغلب، إذ هما أبناء أب واحد، فكلاهما من نزار بن معدٍ بن عدنان، وإلى ذلك تشير أبياته التي يقول فيها:

ألم يحزنك أن حبال قيسٍ ... وتغْلب قد تباينتا انقطاعا[2]

كما تشير إلى هذه المعاني نفسها، أبيات أحد شعراء قيسَ الذي يلوم قومه، وزعيمهم عميراً على وجه الخصوص، لأنه يقاتل تغلب العدنانية بتحالفات أقامها مع اليمانية. فهو يقول:

ألا من مبلغٍ عنّي عميراً ... رسالةَ عاتبٍ وعليك زاري
أتترك حيَّ ذي كُلَعٍ وكلبٍ ... وتجعلُ حدَّ نابكَ في نزارِ
كمعتمدٍ على إحدى يديْه ... فخانته بِوَهْيٍ وانكسارِ[3]

٤ ـ بين قيس واليمانية:

والحروب بين قيس واليمانية، كانت على قدم وساق، فما كانت تهدأ حتى تعود إلى الانفجار من جديد، إذ كان العداء بين هذين القبيلتين عداء تاريخيّ، تشعله أتفه الأسباب، ولا تخمد ناره إلاّ بعد جهود المسلحين المضنية. وكان شعراء هاتين القبيلتين على أهبة الإستعداد لإلهاب العواطف وتسعير الأحقاد وتأجيج النفوس وتأليب الأقوام.

---

(١) تاريخ ابن الأثير: ٤/ ٣١٨.
(٢) طبقات ابن سلام: ص٥٣٨.
(٣) الأصفهاني: كتاب الأغاني: ٢٠/ ١٢ وتاريخ ابن الأثير: ٤/ ٣١٢.

فبعد يوم «دُهْمان» الذي كان لليمانية على القيسيّة، وقف الشاعر اليماني منذر بن حسان يهجو قيساً بالجبن والقعود، ويفخر بما أصاب قومه من أعدائهم ويسجل على قائد القيسيّة عمير، عار الفرار من المعركة، وأنه ما كان ينجو لولا فراره من أرض المعركة: يقول منذر بن الحسان:

وبـاديـةُ الـجـواعـر مـن نـمـيـرٍ تـنـادي، وهـي سـافـرةُ الـنِّـقـابِ
تـنـادي بـالـجـزيـرة يـا لـقـيـسٍ وقـيـسٌ بـئـسَ فـتـيـانِ الـضـراب
قـتـلـنـا مـنـهـمُ مـائـتـيـن صَـبْـراً وألـفـاً بـالـتـلاعِ وبـالـروابـي
وأفـلـتـنـا هـجـيـنُ بـنـي سُـلَـيْـمٍ يُـفَـدِّي الـمُـهْـرَ مـن حُـبّ الإيـابِ[١]

ولمَّا دارت الدائرة على قيس في يوم المرج، وقتل الضحَّاك بن قيس، وقتل معه أشراف من قيس، قال زفر بن الحارث الكلابي، متحسراً على هذه النتيجة، متوعداً كلباً بالثأر لقتلى قيس، معلناً أنه لا هوادة في الخصومة بعد هذه الموقعة بين قيس وكلب اليمنية، محاولاً الاعتذار عن الفرار والهزيمة في هذا اليوم[٢]:

أتـذهـب كـلـبٌ لـم تـنـلـهـا رمـاحُـنـا وتـتـرك قـتـلـى راهـطٍ هـي مـا هـيـا

فأجابه عمرو بن المخلاة الكلبي:

بـكـى زفـر الـقـيـسـيّ مـن هُـلْـكِ أهـلـه بـعـبـرة عـيـنٍ مـا يـجـفُّ سـجـومـهـا[٣]

٥ ـ بين العشائر:

وبهياج العصبيّة القبلية وتناطح القبائل في العصر الأموي، بدت هذه العصبية القبلية في هذا العصر، تضيق، فتدنو من رجال القبيلة الواحد. وربما وقعت بين أبناء العشيرة الواحدة وأولاد العمومة. وكثيراً ما كانت أحياء القبيلة الواحدة، أو أبناء العشيرة يغيرون على بعضهم البعض فيقرقع السلاح ويترامى الناس بالخشب والحطب، فيهدمون أحياء بعضهم ويتضاربون بالعمد والطنب. وربما دامت المعركة منذ ساعات الفجر الأولى وحتى الأماسي المتأخرات، وربما انسحبت هذه المعارك

(١) الأغاني: ٢٠/١٢٣. وهجين بني سليم. يعني عمير بن الحباب السلمي.
(٢) تاريخ ابن الأثير: ٤/١٥٢.
(٣) المرجع نفسه: ٤/١٥٣.

إلى اليوم الثاني، أو امتدت إلى سائر الأحياء؛ حتى يكون بين العرب من يقدر على وضع أوزارها عن الناس.

وفي هذه الأجواء المتشنجة والمحتدمة بين أبناء العمومة يظهر شعراء العشائر، يتعصب كل واحدٍ منهم لعشيرته في القبيلة الواحدة. فقد هاجت الحرب بين بني عامر وبني رقاش، وكلاهما من بني عذرة من قضاعة، قال زيادة بن زيد من بني رقاش:

أنا ابن رقاش وابن ثعلبة الذي ... بنى هادياً يعلو الهوادي أغلبا
فما إن ترى في الناس أماً كأمنا ... ولا كأبينا حين ننسبه أبا[1]

وفي هذا الشعر أكثر من دلالة على اعتزاز شاعر العشيرة على أبناء عمومته، بأمه وأبيه، وهو اعتزاز قائم على الحسب ومجد الآباء، وعلو الشرف والمكانة، على سائر أبناء القبيلة.

وهناك أمثلة عديدة أخرى للهجاء والفخر القبليين، بين حيين من أبٍ واحد، كالذي قام بين جرير، وهو من بني يربوع من تميم، وبين غسان بن ذهيل السُّليطي، انتصاراً لبني جحيش بن جارية بن سليط، وكلا الحيين من يربوع، ثم من تميم، وكان بين الحيين نزاع وخصومة.

وقد نهض جرير يتناول برجزه بني سليط، بالهجاء، فيرميهم بالذلة، ويلعن نساءهم ذوات الروائح النتنة، والبطون العكنة، ويشبههن تشبيهاً قبيحاً. يقول جرير:

إن سليطاً في الخسار إنّهْ ... أولاد قومٍ خلقوا أقِنَّهْ
لا توعدوني يا بني الأصنّهْ ... إن لهنَّ نُسَيَّةً لُعنَّهْ
سوداً مغاليم إذا بَطَنَّهْ ... يفعلْن فِعْلَ الأُتُنِ المستنّهْ[2]

ووقف الشاعر غسان بن ذُهيل السليطيّ اليربوعي التميمي، يردّ على جرير قوله ويدفع عن نفسه وحيّه الجبن والبخل وسوءات النساء، ويهجو جريراً وقومه، ويصمهم باللؤم والبخل وحماقة الأصل فيقول:

---

(١) الأب شيخو: شعراء النصرانية بعد الإسلام: ١/٥٨.
(٢) ديوان جرير: ص٥٩٨.

لعمري لئن كانت بجيلة زانها جريرٌ، لقد أخزى كُليباً جريرها[١]

وإثر هذه القصيدة، نهض جرير يعضّ ابن عمه اليربوعي التميمي، في قصيدة طويلة، لا يعفّ فيها عن الفحش، إلى جانب الوصف بالهوان والدناءة والجبن والفرار، وحقارة الشأن، والتذكير بعار الهزيمة في أيام كانت لقومه على قوم غسان. وقد قصّ فيها تاريخ بني سليط قوم غسان، وسجّل فيها مخازيهم وأيام عارهم، وتتبعهم ونسب بهم، وكاد لا يسقط من ذلك شيئاً. ومطلع قصيدة جرير:

ألا بكرت سلمى بُكُورها وشقَّ العصا بعد اجتماعٍ أميرُها[٢]

ويقول في غسان:

ألا ليت شعري عن سليط، ألم تجد سليطٌ سوى غسان جاراً يجيرها

لقد ضمّنوا الأحساب صاحبَ سوءةٍ يناجي بها نفساً، لئيماً ضميرُها

ويتناول قوم غسان:

ألا ساء ما تُبلى سليطٌ إذا ربَتْ جواشنها وازداد عرْضاً ظهورها

بأستها ترمي سليط وتتقي ويرمي نضالاً عن كليبِ جريرها

وهكذا فقد كانت أصداء هذه الحياة القبلية، في أساس مقومات الشعر بين القبائل العربية.

٦ ـ بين الأنصار والأمويين

إن الأنصار لم يتخلوا مرة عن التفكير بالماضي، واستغلال مآثرهم الحميدة في مناصرتهم للدعوة الإسلامية. وذلك رغبة في الحفاظ على مكانتهم وقربهم من السلطة التي خولتهم امتيازات رفيعة، كما أنهم لم ينسوا يوم اجتمعت قريش عليهم يوم السقيفة حين همّوا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة، فاضطهدتهم وخذلته وضيقت عليهم السبل. وتتسارع الأحداث وتشرف مكانتهم على الزوال. وقد حاولوا أن يكونوا لأنفسهم شخصية مستقلة لا تسير في ركاب معاوية ولا تتحمس لعلي وبني هاشم، واقتضت مصلحتهم النفعية والسياسية عدم الارتياح والرضوخ إلى مفهوم

(١) يوازن بين جرير التميمي، وجرير بن عبد الله الصحابي المشهور.

(٢) ديوان جرير: ص٢٩٣ ـ ٢٩٦.

الخلافة الإسلامية وتطورها الجديد على يد معاوية من خلافة شورية إلى ملك استبدادي قائم على الميراث.

ذلك أن الأنصار[١] هم أهل المدينة فلما أسلم أشرافهم وجمهورهم، احتاج الباقون أن يظهروا الإسلام لعز الإسلام وظهوره في مدنهم، وهكذا كانت المظاهرة في بعض من دخل من الأنصار. وجابهوا تلك الأفكار وبشدة، وخصوصاً تلك التي تخدم السلطة الأموية الحاكمة، ولا سيما فكرة «الجبر» التي كان يروج لها شعراؤها وازدادت نقمتهم على معاوية، فأرسل خطيبهم قيس بن سعد حامل رايتهم يوم السقيفة رسالة إلى معاوية منددأ به ومزرياً عليه ونافياً عنه كل مكرمة وحق وفضل. يقول[٢]: «أما بعد، فأنت طليق وابن طليق، دخلت في الإسلام كارهاً، وخرجت منه طائعاً، ونحن أنصار الدين الذي خرجت منه، وأعداء الدين الذي دخلت فيه والسلام».

وإذا انتهى الخلاف على الخلافة بين المهاجرين «قريش» وبين الأنصار بإذعان الأنصار لهم، والاعتراف بحقهم فيها، غير أن ألسنة شعرائهم ظلت تركز على جهادهم في سبيل الله، ودحرهم لقوى الكفر والضلال «بني أمية» وكانوا يصبغون أقوالهم بصبغة إسلامية دينية، ويفتخرون بالدين الحنيف وبمواقفهم ونضالهم وقرابتهم من النبي، وما صنعوا به في سبيل نشر الدعوة، فهذا حسان شاعرهم المؤيد بروح القدس[٣] يقول:

زَادَتْ هُمُومٌ، فَمَاءُ العَيْنِ يَنْحَدِرُ ... سَحّاً إذَا أَغْرَقَتْهُ عَبْرَةٌ دِرَرُ
سَمَّاهُمُ اللهُ أَنْصَاراً لِنَصْرِهِمِ ... دِيْنَ الهُدَى، وَعَوَانُ الحَرْبِ تَسْتَعِرُ
وَجَاهَدُوا في سَبِيلَ اللهِ وَاعْتَرَفُوا ... لِلنَّائِبَاتِ فَمَا خَافُوا وَلاَ ضَجِرُوا
والنَّاسُ أَلْبٌ عَلَيْنَا، ثُمَّ لَيْسَ لَنَا ... إلاَّ السُيُوفَ وَأَطْرَافَ القَنَا، وَزَرُ

وبسقوط الخليفة عثمان فقد المجتمع الإسلامي وبالأخص منصب الخليفة توازنه المعهود، فكانت أن حصلت ثورات وفتن وحروب.

---
(١) ابن تيمية ـ سؤال في معاوية ص٢٠.
(٢) الهمداني ـ كتاب الإكليل ص٢٢٢.
(٣) حسان بن ثابت ـ الديوان ص١١٢.

وسخط الأنصار وأحسوا بالجرح العميق نتيجة معادلة التوازن السياسي التي أرسى قواعدها الخليفة الشهيد. وقد رووا أن ثمامة الأنصاري كان عاملاً لعثمان ولما أتاه قتله بكى وقال «اليوم انتزعت خلافة النبوة من أمة محمد وصار الملك بالسيف فمن غلب على شيء أكله»[١].

وأيقظ قتل عثمان الحمية القديمة عند الأنصار، وفجر مكامن الغضب والسخط في الصدور، واحتدم الصراع بينهم وبين المتخاذلين عن نصرته. وجسد شعرهم في تلك الآونة موقفهم الثابت من تلك المسألة. فهم وإن حملوا علياً جريرة مقتل عثمان، فإنهم اتهموا معاوية علانية بأنه يتخذ دم عثمان ستاراً يخفي وراءه طمعه في الخلافة، فهذا حسان بن ثابت يتوعد معاوية ويتهدده إن تهاون أو تخاذل في أخذ الثأر، وتنفيذ الشريعة «قتل القاتل بالقتل» فالقتلة فئة قد بغت واعتدت، فلا بد من سحقها لإقرار الحق ومحو الباطل حتى ولو توصل الأمر إلى أن تقتل قبيلة بقبيلةٍ، وتدور رحى الحرب طاحنة. يقول[٢]:

أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ مَالِكاً ... وَلِكُلِّ أَمْرٍ يُسْتَرَادُ قَرَارُ

لاَ نَقْبَلَنَّ دَنِيَّةً أَعْطَيْتَهَا ... أَبَداً، ولَمَّا تَأْلَمِ الأَنْصَارَ

حَتَّى تُبَارَ قَبِيلَةٌ بِقَبِيلَةٍ ... قَوَداً، وَتُخْرَبَ بِالدِّيَارِ دِيَارُ

وعلى مدى حياة معاوية اقتصر عمل الأنصار السياسي على المعارضة الخفية، ولم يجرؤ هذا الحزب على إعلان المعارضة للأمويين ولم تتوافر لديه إمكانيات الظهور والتأثير على الساحة العربية، لأن سلطة الأمويين كانت مؤسسة بصلابة شديدة لم يتح لهم معها أن يباشروا أي شيء. وواصل شعراؤهم إفراغ سخريتهم من الخلفاء الأمويين مع الضغط عليهم والتهويل بالضرب على الوتر الحساس الذي يرجف وقعه قلب السياسة الأموية، وهي أن مصير الخلافة إلى بني هاشم لأنهم أحق بها وأولى. وفي احتجاج النعمان بن بشير على قول الأخطل نشعر بأن النفوذ الديني للأنصار كان يتجاوز في دلالته المفهوم القبلي. وبسبب وضعهم الخاص كرهوا حكماً يقوم على العصبية ويود أن يصبح سلالياً[٣].

---

(١) جبرائيل جبور ـ أوراق ص٦٥.

(٢) محمد طاهر درويش ـ شرح ديوان حسان ص٤٦١. ديوان حسان بن ثابت ص١٢٦.

(٣) إحسان سركيس، الظاهرة الأدبية ص٢٣٠.

وكان للنعمان ذاتية تفرض نفسها على الساحة، لأنه رأس من رؤوس الأنصار، وأحد ساداتهم، ولأن لجماعته من أسباب المنعة والنفوذ الديني ما يحول دون دخول شعراء خصومهم معهم في التخاصم والتهاجي والتناقض. فقد كانوا يرون في هجائهم ردة إلى الكفر بعد الإسلام، فتحاشوا ذلك وكان النعمان موهوب البيان، جريئاً مؤمناً بحق آل البيت في الخلافة مع اختلافه معهم في المذهب والرأي.

فها هو يسلك في خطابه لمعاوية مسلك التهديد ويتطاول عليه بذكر ما صنعه الأنصار بمشركي قريش يوم بدر بكل ما في ذلك من ذل لقوم معاوية وتعيير لهم لكونهم كانوا في صفوف المشركين ومن رؤوس الكفار المناهضين للدعوة مذكراً إياهم ما لحق بهم من عار وانكسار وقتل وتشريد مع الإشارة إلى عدم قبوله المساومة بمال على شرفه. يقول رداً على هجاء الأخطل لهم ويفتخر بقديم قحطان(١):

وَإِنـي أَنَـا الـنُّـعْـمَـانُ أَمْـسَـيْـتُ بَـارِزاً ... لِـيَـعْـرِفَـنِـي فِـي الـنَّـاسِ مَـنْ هُـوَ عَـالِـمُ

نَـصَـرْنَـا رسـولَ الـلـهِ إذ حَـلَّ بـيـنـنـا ... بـأسـيَـافِـنـا بِـكُـلِّ مـن هُـوَ ظَـالِـمُ

مُـعَـاوِيَ إلاّ تُـعْـطِـنَـا الـحَـقَّ تَـعْـتَـرِفْ ... لِـحَـى الأَزْدِ مَـلْـوِيًّـا عَـلَـيْـهَـا الـعَـمَـائِـمُ

فَـمَـا أَنـتَ وَالأَمْـرَ الـذِي لَـسْـتَ أَهْـلَـهُ ... وَلِـكِـنْ وَلـيُّ الـحَـقِ والأَمْـرِ هَـاشِـمُ

إِلَـيْـهِـم يَـصِـيـرُ الأَمْـرُ بَـعْـدَ شَـتَـاتِـهِ ... فَـمَـنْ لَـكَ بِـالأَمْـرِ الـذي هُـوَ لاَزِمُ

بِـهِـمْ شَـرَعَ الله الـهُـدَى واهْـتَـدَى بِـهِـم ... وَمِـنْـهُـم لَـهُ هَـادٍ إِمَـامٌ وَخَـاتَـمُ

ويتضح أن النعمان مضطرب بين ولاءين الولاء للأنصار والولاء لمعاوية وفي كل التقاء كان الأنصار يبدون أعداء ألدّاء لأسرة أمية. ولم يفتر معاوية أمامهم، فيوم أتوا إليه يقدمون الطاعة ناداهم هكذا «يا جماعات الأنصار لقد هددتم حظي في معركة صفين، ولقد شاهدت لمعان الموت على أسنة رماحكم، ولقد أدميتموني بتهكماتكم التي هي أحد من مخرز صانع الأحذية»(٢).

والنعمان في قصيدته يبدو شديد التوتر والنقمة فهو يتكلم باسم الجماعة التي ينتمي إليها، وينهج منهج الفخر في مقام العتاب. وقد استهل قصيدته بالتركيز على

(١) الهمداني ـ كتاب الإكليل ص٢٠٧. الأغاني ـ دار الكتب الجزء السادس عشر ص٤٦. الديوان ص١٥٠.
(٢) LAMMENS Le Chantre des Omayades p.38.

عفة الأنصار وتقواهم ودورهم في نشر لواء الإسلام إلى أن يرفع صوته عالياً في وجه معاوية، بأن عهد الصفاء والمودة بينهما عرضي وقابل للإنهيار في أي وقت. فالنعمان الذي استشاط غيظاً من هجاء الأخطل يعلن بكل جرأة بأن فترات الصفو والصداقة باتت على شفير الهاوية، ملوحاً إلى موقف السفيانيين من الدعوة حين ظلوا كالكفار الذين لم يسهموا في الإسلام ومع ذلك يأكلون خيراته ويستأثرون بفيئه، إنه يطلب من الخليفة الحكم العادل دون مواربة، الحكم الذي أقره الإسلام في حق الشعراء «قطع لسان الشاعر الهجّاء».

وينعطف النعمان في طريق خطر، فيعلن عدم أحقية الأمويين بالخلافة وإنه إذا كان لا بد من كلمة حق وعدل، فإن بني هاشم أولى المسلمين بالرياسة والسياسة، وهم أصحابها الشرعيون الذين اختارهم اللّٰه لقرابتهم من الرسول الكريم. والجديد الخطر في هذه القصيدة يتمثل في إدخال بني هاشم حلقة المفاضلة بينهم وبين الأمويين الأمر الذي هزّ معاوية لإسقاطه حقه في الإمامة، وبالتالي جعل دولته عرضة للنيل منها. فتقويض سلطان الأمويين كان على أساس تقرير حق الهاشميين. أمّا سحب الغطاء الإسلامي عن الخلافة الأموية فقد دفع معاوية إلى أن يتوسل إليه فيخفف سخطه، ويجيبه إلى طلبه، وبذلك ترضاه وقبيلته وضمن ولاءهم ومناصرتهم. علماً بأن الأنصار كانوا حلفاء طبيعيين لعلي، لكن مغادرته الكوفة أجهض حماستهم. وكان أبو أيوب الأنصاري قد أسر إليه ونصحه بالبقاء في المدينة، كما حذره عبد الله بن سلام من ذلك، «لئن خرجت منها لا ترجع إليها، ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً»[١].

وخطبة النعمان بن بشير وهو وال على الكوفة زمن معاوية، تفضح لنا موقفه المذبذب، من السلطة ومصانعته لمعاوية، إذ نراه يعمل في إضفاء مسحة دينية على حكم الأمويين، ويرى في خروج الثائرين على الإمام خروجاً على الدين وعلى أئمته، لذا على الجميع الانقياد لأمر بني أمية بصفتهم أئمة المسلمين. وقد يراه المسلمون حسناً، فهو عند الله حسن، فيحذر أهل الكوفة الفتنة والفرقة، وبألا يحيدوا عن طريق الحق إلى الباطل، لأنه لا يرى في حكم الأمويين اغتصاباً أو ردة حتى ولا كراهية.

---

(١) إبراهيم بيضون ـ إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية ص ١٩٩.

يقول[١]: «أما بعد فاتقوا الله، عباد الله، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة فإنّ فيهما يهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الأموال. . . ولكنكم إن أبديتم صفحتكم لي ونكثتم بيعتكم وخالفتم إمامكم فوالله الذي لا إله إلا هو، لأضربنكم بسيفي، فأثبت قائمه في يدي ولو لم يكن لي منكم ناصر؟» وهكذا نراه ينظر إلى الأمويين كأصحاب حق شرعي وليسوا كمغتصبين للخلافة، ونتيجة هذا الموقف اللين والمرونة التي أبدوها في تقبل الدولة الأموية، وفي تعاملهم مع الأحداث، حفظ لهم الأمويون حقهم في المشاركة في الحياة السياسية، ليكسبوهم إلى جانبهم وليأمنوا شرهم.

وقد استطاعوا شدهم باتجاههم، وخصوصاً فرقة العثمانية التي كانت تقدم دولة بني أمية على بني هاشم وتقول الشام خير من المدينة. فعندما خرج الثلاثة من عند علي حسان بن ثابت وكعب بن مالك والنعمان بن بشير، فساروا حتى أتوا معاوية، فقال لهم: لكم الولاية والكفاية، فأعطى حسان بن ثابت ألف دينار وكعب بن مالك ألف دينار، وولى النعمان بن بشير حمص ثم نقله إلى الكوفة فيما بعد[٢].

ويبدو أن بشير بن سعد أحد سادات الخزرج كان دائماً يمهد لمثل ذلك الصلح والموادعة بين الطرفين. ويهيئ الأجواء للمصالحة الإسلامية وقد تكرس بموجبها اعتراف الأنصار بحق الأمويين الشرعي بالسلطة. وبذلك كسب الأمويون تأييداً معنوياً لا شبيه له شد من أزرهم وحال دون اصطدامهم بهذه الفئة المرهوبة الجانب التي شكلت لدولتهم غطاءً دينياً لا غنى عنه لتبرير مطلبهم الحق في حكومة المسلمين ولتأهيل معاوية كوريث شرعي للخليفة المغدور.

قول: «يا معشر الأنصار أما واللّه، لئن كنا إلى الفضيلة في جهاد المشركين، والسابقة في الدين ما أردنا إن شاء الله، غير رضا ربنا، وطاعة نبينا والكرم لأنفسنا. ثم إن محمداً رسول الله ﷺ، رجل من قريش وقومه أحق بميراثه وتولي سلطانه

(١) تاريخ الأدب العربي ـ عمر فورخ ـ الجزء الأول ص٣٨٦.
(٢) الأغاني ـ دار الكتب الجزء السادس عشر ص٢٣٤. النعمان بن بشير الأنصاري ـ شعر النعمان ص٢٣.

وأيم الله، لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً فاتقوا الله ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم»[(١)]، وهكذا بطريقة لبقة أزاح قومه عن طلب الخلافة وحصرها في آل الرسول باعتبارها بعض ميراثه، وبالتالي جعل لمعاوية حقاً بها ومطلباً شرعياً له.

غير أن موقفهم المتردد هذا بين الولاء والمعارضة للأمويين قد فتح المجال أمام شعرائهم للهجوم على الأمويين كلما شعروا منهم أزوراراً أو امتهاناً لكرامتهم. فصوروا معاوية شرهاً، يفسد أمر الناس غير صالح لخلافة المسلمين وكانوا يحذرونه إذا تمادى في تغاضيه عن الإساءة التي لحقت بهم، ولم ينصفهم بإقامة الحد وإقرار الحق والعدل. فها هو النعمان بن بشير يستصرخه كي يرحم قومه ويدفع الجور عنهم، ويرفع المظالم الي حلت بهم على يد ولاة السوء الذين أقاموا سياستهم على القهر والبطش والإذلال، دون مراعاة لحرمة الدين، وليس وفق قانون أو تشريع ديني أو على أساس من الصلاح والإصلاح. وكان ذلك لما ضرب مروان بن الحكم عبد الرحمن بن حسان، الحد، ولم يضرب أخاه حين تهاجيا وتقاذفا. فكتب عبد الرحمن إلى النعمان بن بشير يشتكي ذلك إليه فدخل إلى معاوية وأنشأ يقول[(٢)]:

يـا ابْـنَ أَبـي سُـفْـيَـانَ مـا مِـثْـلُـنَـا ... جَـارَ عَـلَـيْـهِ مَـلِـكٌ أَوْ أَمِـيـرُ

وَاذْكُـرْ غَـدَاةَ الـسَّـاعِـديِّ الـذي ... آثَـرَكُـمْ بـالأَمْـرِ فـيـهـا بَـشِـيـرُ

فَـاحْـذَرْ عَـلَـيْـهـم مِـثْـل بَـدْرٍ فَـقَـدْ ... مَـرَّ بِـكُـمْ يَـوْمٌ بِـبَـدْرٍ عَـسِـيْـرُ

إِنَّ ابْـنَ حَـسَّـانَ لَـهُ ثَـائِـرٌ ... فَـأَعْـطِـهِ الـحَـقَّ تَـصِـحَّ الـصّـدُورُ

وَمِـثْـلُ أَيّـامٍ لَـنَـا شَـتَّـتَـتْ ... مُـلْـكـاً لَـكُـمْ أَمْـرُكَ فِـيـهـا صَـغِـيـرُ

أَمَـا تَـرَى الأَزْدَ وَأَشْـيَـاعَـهَـا ... تَـجُـولُ خُـزْراً كَـاظِـمَـاتٍ تَـزِيـرُ

ونلمح تهديد النعمان وعتبه في معاتبة معاوية حتى أننا لنظن أبياته بأنها جاهلية، لولا ما ذكر من وقعة بدر وما ساقه من عرض مجدهم في الإسلام، وحسن بلائهم في وقت كان فيه بنو أمية غارقين في الضلال والكفر. ويبدو معاوية في شعر الأنصار شخصاً انتهازياً، ينتهز الفرص المؤاتية للوثوب ولتحقيق أهدافه في الوصول إلى السلطة. وقد فضحوا أمره حين اتخذ من دم عثمان ذريعةً وستاراً، وأخفى وراءه

(١) ابن قتيبة ـ الإمامة والسياسة الجزء الأول ص١٦.
(٢) الأغاني ـ دار الكتب الجزء السادس عشر ص٤٧. النعمان بن بشير الأنصاري، الديوان ص١٤٤.

طمعه في الخلافة. وكما حُمِّل عليٌّ مسؤولية قتله، فإن رجلاً من الأنصار يرى في معاوية الرأس المدبر للعملية، والذي تكمن مصلحته في التخلص منه، ليصفو له الجو ويصبح الطريق سالكاً أمامه. وقد فطنوا إلى خدعته حين بعث إلى علي يطلب منه أن يسلم قتلة عثمان ثم يكون الأمر بعد ذلك شورى كما جعله عمر. يقول[١]:

مُعَاوِيَ إِنَّ الحَقَّ أَبْلَجُ وَاضِحٌ ... وَلَيْسَ بِمَا رَبَّصْتَ أَنْتَ وَلاَ عَمْرُوا
نَصَبْتَ ابنَ عَفَّانٍ لَنَا اليَوْمَ خِدْعَةً ... كَمَا نَصَبَ الشَّيْخَانِ إذْ زُخْرِفَ الأَمْرُ
رَمَيْتُمْ عَلِيّاً بِالَّذِي لاَ يَضُرُّهُ ... وَإِنْ عَظُمَتْ فِيهِ المَكِيدَةُ وَالمَكْرُ
فَمَا أَنْتُمَا والنَّصْرِ مِنَّا وَأَنْتُمَا ... بَعِيثَا حُرُوبٍ ما يَبُوخُ لَهَا الجَمْرُ
وَمَا أَنْتُمَا للهِ دَرُّ أَبِيكُمَا ... وَذِكْرُكُمَا الشُّورى وَقَدْ فَلَجَ الفَجْرُ

غير أن دهاء معاوية جعله لا يستاء من هذه الحملات التي تشيع الاضطراب والبلبلة في أرجاء الدولة الإسلامية، لكنه قرر أن يقمع بشدة كل محاولة للعصيان. فسخر الأنصار منه وعانوا من حكمه ولكنهم في مختلف مواقفهم **لم يدر كلامهم حول أمور دينية إيمانية**، بل تناولوا الأمويين في جاهليتهم ومواقفهم العدائية من الرسالة المحمدية، وجردوهم من كل مكرمة وجاه ونعتوهم بالبلاهة والغفلة حين لم يلبوا نداء النبوة. وربما كان السبب المباشر لهذا العداء بين الأمويين والأنصار هو العداوة القديمة بين يثرب وبين مكة التي كان يتزعمها آنذاك أبو سفيان. قال[٢] حسان يهجو أبا سفيان وقومه ويصفهم بالتنابل الضعاف العقول:

لَسْتَ مِنَ المَعْشَرِ الأَكْرَمِيـ ... ـنَ لاَ عَبْدِ شَمْسٍ وَلاَ نَوْفَلِ
وَلَيْسَ أَبُوكَ بِسَاقِي الحَجِيـ ... ـجِ، فَاقْعُدْ عَلَى الحَسَبِ الأَرْذَلِ
وَلَكِنْ هَجِينٌ مَنُوطٌ بِهِمْ ... كَمَا نُوِّطَتْ حَلْقَةُ المِحْمَلِ
تَجِيشُ مِنَ اللُّؤْمِ أَحْسَابُكُمْ ... كَجَيْشِ المُشَاشَةِ فِي المِرْجَلِ

وقاس الأنصار مكانة السفيانيين بالمعايير الإسلامية الجديدة، وعيروهم بخروجهم على الدين الذي يدعون باسمه. وبأنه ليس لهم من سابقة وفضل، وليس لهم من صفات السيادة والزعامة ما يخولهم قيادة أمر الأمة. فنفوسهم قد طبعت على

---

(١) محمد محمد حسين ـ الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام ص٤٩.
(٢) ديوان حسان بن ثابت ص٢٠٦.

الذل واللؤم والخسة والوضاعة فهذا حسان يتناول معاوية في شرفه دون أن يقيم أي اعتبار لمكانته الاجتماعية والسياسية، بأنه من أهل بيت سوء، اعتادوا الفحش وربوا أبناءهم على العهر والزنا والفجور. يقول[١] حسان في هجائه لأبي سفيان وهند بنت عتبة:

أَشِرَتْ لَكَاعِ وَكَانَ عَادَتَهَا ... لُؤمٌ إِذَا أَشِرَتْ مَعَ الكُفْرِ
لَعَنَ الإلهُ وَزَوْجَهَا مَعَهَا ... هِنْدَ الهُنُودِ طَوِيلَةَ البَظْرِ
وَنَسِيتِ فَاحِشَةً أَتَيْتِ بِهَا ... يَا هِنْدُ وَيْحَكِ سُبَّةَ الدَّهْرِ
فَرَجَعتِ صَاغِرَةً بِلا تِرَةٍ ... مِمَّا ظَفِرْتِ بِهِ وَلاَ وَتْرِ
زَعَمَ الوَلاَئِدُ أَنَّهَا وَلَدَتْ ... وَلَداً صَغِيراً كَانَ مِنْ عُهْرِ

وهكذا تطاول الأنصار على الأمويين، ورموهم بأفحش الهجاء، وحقروهم بالكلام النابي، وصوروهم موتورين مصابين بأهلهم وقومهم، ضالين عن الحق. وقد بقوا في غالبيتهم مؤيدين لعلي منذ اعتراضهم على انتخاب أبي بكر، ذلك الاعتراض الذي كان يهدف على الأخص إلى سيطرة قريش، ووجدوا علياً إلى جانبهم. بعد ثلاثة انتخابات متوالية، ترفض تمثيلهم في حكومة الإسلام. وقد رأوا وجوب مراعاة علي لاشتراكه سابقاً في اعتراضاتهم على تسمية الخلفاء المباشرين لمحمد.

غير أن هذا التقرب بينهم وبين علي لم يمنع ثلاثة من المعتبرين بين الأنصار، حسان بن ثابت، ونعمان بن بشير وكعب بن مالك من الاستنكار بشدة لمقتل عثمان والالتجاء نحو معاوية للاقتصاص من قتله، باعتباره الوريث الشرعي له، وبذلك أضفوا على الخلافة الأموية صفة الشرعية في عهدها الإسلامي، يقول حسان وهو يرثي عثمان بن عفان:

ضَحَّوا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحاً وَقُرْآنَا
لَتَسْمَعَنَّ وَشِيْكاً فِي دِيَارِهِم ... اللهُ أَكْبَرُ، يَا ثَارَاتِ عُثْمَانَا
وَقَدْ رَضِيْتُ بِأَهْلِ الشَّأمِ زَافِرَةً ... وبالأَمِيرِ، وَبالإِخْوانِ إِخْوانَا

ولكن هذا الاتحاد لم يمنعهم من العمل على تقويض دولة الأمويين والتنديد

---

(١) حسان بن ثابت ـ الديوان ـ شرح البرقوقي ـ دار الأندلس ص٢٨٥.

بهم في جاهليتهم، وإلباسهم العار والفسق. فحين قدم معاوية المدينة لقيه أبو قتادة الأنصاري فقال[١] معاوية: «تلقانا الناس كلهم غيركم يا معشر الأنصار». قال لم يكن لنا دواب. قال: فأين النواطح؟ قال عقرناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر.

ورأى الأنصار في الحاكم العادل ألا يؤخر أعطياتهم عن أوقاتها. واعتبروا الأمويين مخلين في تنفيذ هذه القاعدة وغير أمينين على مال المسلمين فسخطوا عليهم. وأنكروا عليهم حرية تصرفهم بذلك المال واتهموهم بالإستبداد بهم وادعاء سياسة لا يقرها الإسلام إذ امتلأت نفوسهم بالطمع ولا بد من عزلهم وراحوا يحاجونهم في أمرها وكيفية إنفاقها. فلما صعد معاوية المنبر وأراد الكلام، قطع عليه غلام من الأنصار فقال: يا معاوية ما جعلك وأهل بيتك أحق بهذه الأموال منا، وإنما أفاءها الله على المسلمين بسيوفنا ورماحنا، وما لنا عندك ذنب نعلمه إلا أنّا قتلنا خالك وليداً وجدك عتبة وأخاك حنظلة[٢]؟

ويحتدم الصراع بين الطرفين حول امتلاك موارد الحياة. وهذا هو السبب الرئيسي ربما، وراء حقد الأنصار على الأمويين والنظر شذراً إليهم، لكون هذه المسألة قد اهتم القرآن بها وبتوزيعها. ودونت الدواوين في زمن الخلافة الراشدية، ووضعت المقترحات لتوزيع الثورة على المسلمين واجتهد الخلفاء في استحقاق الناس هل يكون التفضل في التوزيع على أساس القدم في الإسلام أم يقوم على أساس المساواة[٣].

إن موضوعات هجاء الأنصار للأمويين اصطبغت بصبغة تضادية يقوم التضاد فيها من مقطع فخر وانفجار وتبجح إلى مقطع هجاء ومبالغة في الازدراء. والاحتقار قائم على التذكير بالمثالب والسخرية من تواطؤ الأمويين في مناصرتهم للدين الجديد وعداوتهم له. وتوسل الأنصار الغزل الهجائي[٤] كسياسة جديدة ليظهروا تنكرهم لسلطة الخليفة ولينالوا منه ومن كبريائه ويهزأوا من منعته وعزته، بذكر نسائه

---

(١) حسن بن ثابت ـ دار صادر ص٢٤٨.
(٢) البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ القسم الرابع الجزء الأول ص١١٥.
(٣) ديوان الكميت ص٦١.
(٤) طه حسين ـ من تاريخ الأدب العربي، المجلد الأول ص٥٩٧.

والتعرض لهن وذلك حين شبب عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية كي يغيظ أهلها، وينشئ حول سلوكها ما يضر أهلها ويفضحهم في شرفهم، وعرضهم، لأنه لا شيء أكثر إغاظة للعربي من أن يتغزل بامرأته أو ابنته، وبذلك كان حسان أول من اتخذ الغزل سلاحاً للهجاء السياسي(١). وقد بلغ ما أراد، فأحفظ معاوية وأغضب يزيد الذي تحامل على الأنصار وكان عبد الرحمن قد قال(٢):

طَالَ لَيْلِي وَبِتُّ كَالمَحْزُونِ ... وَمَلِلْتُ الثَّوَاءَ فِي جَيْرُونِ
فَلِذَاكَ اغْتَرَبْتُ بِالشَّامِ حَتَّى ... ظَنَّ أَهْلِي مُرَجَمَاتِ الظُّنُونِ
وَإِذَا مَا نَسَبْتَهَا لَمْ تَجِدْهَا ... فِي سَنَاءٍ مِنَ المَكَارِمِ دُونِ
ثُمَ خَاصَرْتُهَا إِلَى القُبَّةِ الخَضْ ... راءِ تَمْشِي فِي مَرْمَرٍ مَسْنُونِ
ثُمَّ فَارَقْتُهَا عَلَى خَيْرِ مَا كَا ... نَ قَرِيْنٌ مُفَارِقاً لِقَرِينِ

فهذا لا يعني أن معاوية لم يحنق ولم يثر غضبه. فهو أعرابي كاره للهجاء ولا يرتاح للتشبيب والغزل، ولكن حلمه ومكانته حملاه على إظهار الهدوء والإستكانة، علماً بأنه قد سبق أن أنّب عبد الرحمن بن الحكم، وأوصاه خيراً بضرورة الابتعاد عن الهجاء إذ أراد لشعره الذيوع والشهرة.

فهجاء الأنصار للأمويين كان ينفجر حقداً وغضباً. فهم وإن أغمدوا سيوفهم بعد وقعة صفين، لكنهم لم يغمدوا ألسنتهم. لذلك ظلوا مبغضين من بني أمية إلى أواخر القرن الأول للهجرة. ولكن نفوذهم الديني، كان يغلب سلطان بني أمية، الذين لاطفوهم دفعاً لهجائهم وكي لا يؤلبوا العالم الإسلامي على أنفسهم ويصبحوا أجساماً غريبة توجب إزاحتهم عند ذاك عن سدة الخلافة، أو رغبة في إظهار خلافتهم وملكهم بمظهر السماحة والرأفة والتدين كي لا تحرج أمام بقية خصومها الألداء أمثال الشيعة والزبيريين والخوارج.

وما كانت حادثة قتل حجر بن عدي لتمر بسلام، إذ كان لها أصداء واسعة في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، وخصوصاً عند الأنصار. فقد اهتزت هند بنت زيد

---

(١) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي ص٢٥٩.
(٢) الأصفهاني ـ الأغاني ـ دار الكتب الجزء الخامس عشر ص١٠٩. ابن قتيبة ـ الشعر والشعراء الجزء الأول ص٣٩٥.

الأنصاري ألماً وحزناً لتلك المأساة، فبكته بكاء حزيناً واضطربت في أحشائها مشاعر السخط والتذمر من حكم الأمويين، ومن تسلط آل حرب وعلى رأسهم معاوية. إذ استعظمت قتله وهالها نحره كالبعير فبكته في قصيدة تنضح فيها نيران الثورة على الذين رأوا قتل الأخيار فضيلةً وحقاً، واتخاذ الأشرار وزراء وأعوان شرفاً عظيماً. فهذه المسألة التي غاب عنها حلم معاوية، ما كانت لتمضي بدون عقاب. فقد استغلها الأنصار للتنديد بمعاوية وبأعوانه وبحكمهم الغاشم المستبد. تقول(١):

تَـرَفَّـعْ أَيُّـهَـا الـقَـمَـرُ الـمُـنِـيـرُ	لَـعَـلَّـكَ أَنْ تَـرَى حُـجْـراً يَـسِـيـرُ
يَـسِـيـرُ إِلَـى مُـعَـاوِيَـةِ بـنِ حَـرْبٍ	لِـيَـقْـتُـلَـهُ كَـمَـا زَعَـمَ الأَمِـيـرُ
أَلاَ يَـا لَـيْـتَ حُـجْـراً مَـاتَ مَـوْتـاً	وَلَـمْ يُـنْـحَـرْ كَـمَـا نُـحِـرَ الـبَـعِـيـرُ
أَخَـافُ عَـلَـيْـكَ سَـطْـوَةَ آلِ حَـرْبٍ	وَشَـيْـخـاً فِـي دِمَـشْـقَ لَـهُ زَئِـيـرُ
يَـرَى قَـتْـلَ الـخِـيَـارِ عَـلَـيْـهِ حَـقّـاً	لَـهُ مِـنْ شَـرِّ أُمَّـتِـهِ وَزِيـرُ

القصيدة في ظاهرها حديث تقليدي تمثل رأياً شخصياً له تطلعاته وآراؤه تجاه تصرّف الخلفاء وأعوانهم. إنها في الواقع صورة عن الألم الدفين الذي يملأ نفس كل إنسان لمجرد سماعها من شدة تعسف السفيانيين وظلمهم للرعية حتى بات الظلم رمزاً لتلك السياسة. فقد أضحى الناس غير آمنين على أنفسهم وأموالهم لما في ذلك الحكم من شذوذ وعدول عن هدي القرآن واستهانة بقيم الأخلاق، إذ بطش بالمؤمنين الصالحين وآزر أصحاب الرذائل فماتت كل الفضيلة. فقتل حجر دليل ساطع على سوء سياسة الأمويين القائمة على التهزؤ من القيم الدينية. فحجر على مكانته الدينية ومركزه الاجتماعي، وكبر سنه، لم يستطع أن يسلم من القصاص حين أراد أن يقف في وجه الظلم بدفاعه عن الحق ونهيه عن المنكر، وأمره بالمعروف.

إن هنداً لم تتورّع عن وصف دولة السفيانيين بالدولة الظالمة الزائفة عن الحق وإن ابن زياد أمير غادر، وهي تودع حجراً حين سير به إلى معاوية بنغم حزين. لا شك أنها تمثل عاطفة الأنصار الخائفة المستسلمة للقدر والشفقة على الإسلام المتمثل في حجر من الانتقام. فهند حين تتحدث إلى القمر وتبثّه شكاياتها الحزينة وحسراتها المريرة، فإنها بذلك تدفع إلى الثورة والتمرد. إذ تسلط الأضواء على

(١) الأغاني ـ لجنة نشر الأغاني الجزء السابع عشر ص١٥٤.

القادة الأمويين الذين عاثوا في الأرض فساداً ابتداء من الخليفة نفسه وانتهاء بولاته، وقد ساموا الرعية سوء العذاب إذ أغرقوهم في سلسلة من المآسي الاجتماعية، والسياسية، وقد أخذوا على عاتقهم حكم البلاد حكماً استبدادياً، وبالتالي فخلافتهم لا تحقق آمال الجماعة الإسلامية ويجب الإطاحة بها.

إن الأنصار الذين حاولوا الابتعاد عن الحياة السياسية، لاعتبارها فتنة من الفتن، كانوا يحلمون إلى مناصب السادة، وكانوا على يقين من أن الحكم الأموي قد وسم الدين بالإستبداد، نظراً لما سفك من دماء ذكية على أيدي الأمويين. إنهم وإن كانوا في علاقتهم مع الأمويين على شيء من التفاهم على شرعية حقهم في الخلافة ولكن هذا الأمر كان تفاهماً مرحلياً وقائماً على المصلحة المشتركة. إذ كانوا يعطون باليد اليمنى ويأخذون مقابل ذلك العطاء باليد اليسرى، لذا كان موقفهم من السلطة يترجّح بني الولاء والمعارضة.

فكلما أحسوا بتزعزع مكانتهم هددوا بتحريض الرأي العام الإسلامي. فولاؤهم قائم على الازدواجية، فلا هم يريدون الابتعاد عن مراكز النفوذ، ولا هم مؤيدون مخصلون للسلطة الأموية. وقد ظلوا متعاطفين، قلبوهم وألسنتهم معهم، لكنَّ ضعفهم المتمثل في عدم اجتماع كلمتهم، أمكن سلطان بني أمية من استيعابهم وامتصاص نقمتهم، ومما ساعد على تليين موقفهم، اعترافهم بقرشية الخلفاء. وشكل ذلك الاعتقاد أساس تعايشهم مع السلطة المركزية واعترافهم بها ولكن في حددو الولاء الديني أولاً والقرشي ثانيا.

أماعلاقتهم فكانت ظرفية وآنية وعرضة للإهتزازات عند بروز أدنى مشكلة، إنها علاقة مصالح متبادلة. وغالباً ما كانوا يلوحون بأن تكون الخلافة في بني هاشم لقرابتهم وأحقيتهم بميراث النبي ولسابقتهم ولمركزهم الديني. بخلاف الأمويين الذين لا يجارون الهاشميين في هذا المجال. وكانت هذه القضية أشبه بقميص عثمان يشهرونه في وجه الأعداء.

أغراض الشعر القبلي

لا شكّ أن معاوية، ومن جاء بعده من خلفاء بني أمية، كان قد سلك بالعصبيّة مسلكاً، بعثها به من مراقدها، في الوقت الذي كان فيه كثير من القبائل العدنانية

والقحطانية تتلهف إلى بعض العصبيّة لتشفي ما بأنفسها من غلّ، بعدما اقتنص المهاجرون من قريش والأنصار من اليمن، مغانم السلطة والحكم.

فقد اتجه معاوية إلى استمالة اليمانية، ليعتمد عليهم وعلى بعض النزارية في الشام، من أجل تثبيت حكمه. وقد سار في خطى الخليفة عثمان، فاستصهر لنفسه من الكلبيين، إذ تزوّج ميسون بنت بحدل أم ابنه يزيد وهي كلبيّة. كذلك فعل مروان بن الحكم فتزوج ليلى بنت زبان بن الأصبغ الكلبيّة، وهي ابنة عم نائلة بنت الفُرافصة التي كان قد تزوجها الخليفة الراشدي عثمان بن عفان رضي الله عنه. وبذلك أتيح للسفيانيين من أميّة، ومن ثم للمروانيين، أن يضموا تحت لوائهم جميع القبائل اليمنية الشاميّة.

١ ـ في المظاهر القبلية

ومن أجل توطيد التحالف مع القبائل اليمانية الشائعة، جعل الأمويون يغدقون الأموال عليهم، ويختصونهم بالعطاء، في حين كانوا يبخلون على قيس، مما جعل هؤلاء يضمرون شراً لهم ولحلفائهم. وهذا هو معنى انقسام العرب إلى يمنية ومضرية/ قيسيّة. وربما كان مقتل عثمان، تأريثاً لهذه العصبيّة[١]، وتوسيعاً لما بين النزارية واليمنية من فرقة، إذ انضم أكثر المهاجرين إلى معاوية، وانضم أكثر الأنصار إلى عليّ، حتى قال عمّار بن ياسر ـ وهو يمني ـ في حرب صفين: أيها الناس، هل من رائح إلى الله تعالى تحت العوالي؟ ووجّه الخطاب إلى خصوم معاوية فقال: «والذي نفسي بيده، لنقاتلكم عن تأويله، كما كُنا نقاتلكم على تنزيله»[٢].

ومعنى هذا أن المهاجرين الذين يناصرون معاوية كانوا يقاتلون الأنصار الذين يؤازرون علياً، تماماً مثلما خرج رجال قريش لقتال الرسول ﷺ وأنصاره قبل فتح مكة. وحسبنا أن عمرو بن العاص، كان يحرّض معاوية على الأنصار. وقد اقترح عليه أن يعيد إليهم لقبهم القديم (بنو قيلة) يطمس به لقبهم «الأنصار» الذي أعزهم الإسلام والرسول ﷺ به. وحين أوعز معاوية إلى حاجبه «سعْد» بذلك حين ينادي عليهم، غضب كبير الأنصار النعمان بن بشير وقال:

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٨٥ ـ ٩٠.

(٢) المسعودي: مروج الذهب، ٢/ ٢١.

يا سعْدُ لا تُعد الدعاء فما لنا ... نسبٌ نجيب به سوى الأنصار
نسبٌ تخيّره الإله لقومنا ... أثقِلْ به نسباً على الكفّار
إن الذين ثووا ببدرٍ منكم ... يوم القليبِ هُمُ وقودُ النارِ

وكان من مظاهر هذه العصبية القبليّة، التي انعكست على أدب الأدباء وشعر الشعراء، إن انحاز اليمنية إلى بني أميّة، في حين كان المضريون وقيس منهم، يعضدون ابن الزبير، وحين قتلت اليمنية يزيد بن الوليد، تعصّب القيسيون له، لأن أمه قيسيّة، ونصّبوا مروان بن محمد، خليفة، مما أوْغر صدور اليمنية بالشام. وحين انفكّ اليمنيون عن هشام بن عبد الملك، استعان عليهم بالقيسيين.

ولا شك أن تقرّب قبيلة تغلب من الأمويين ومؤزارتهم لهم في صفين وموقعة الحرة (بين جيش يزيد وعبد الله بن الزبير في الحجاز) وفي موقعة مرج راهط (بين الأمويين والقيسيين)، كان قد أغضب قبائل قيس وقبائل كلب. وهذا ما جعل شعراء هذه القبائل الثلاث، يتهاجون ويتفاخرون، ويعبّر كل منهم عن موجدة قومه على خصومهم.

وتعصب بعض ولاة الأمويين لأقوامهم، فكان ذلك أشد إيلاماً بين الناس وأشدّ إغضاباً لهم. فكان خالد بن عبد الله القسّري والي العراق لهشام، شديد العصبية لقومه اليمنيين. وكان القيسيون يناصرون هشاماً، مما أوغر صدر الخليفة على خالد فكتب إليه: «يا بن أمّ خالد، قد بلغني أنك تقول: ما ولاية العراق بشرف. فيابن اللخناء، كيف لا تكون إمرة العراق لك شرفاً، وأنت من «بُجيْلة» القليلة الذليلة! أما والله إني لأظن أن أوّل من يأتيك صغيرٌ من قريش، يشدّ يديك إلى عنقك»(١).

كذلك اشتعلت العصبيّة في البوادي والحواضر، وتفاقم خطرها فمعن بن زائدة والي اليمن يقتل اليمنية تعصباً لقومه من ربيعة ونزار. وعُقبة بن سالم على هذا بعُمان والبحرين، فيقتل عبد القيس وغيرهم من ربيعة، تعصباً لليمنيين من قومه ومكايدة لمعن بن زائدة.

---

(١) المبرد، الكامل في الأدب: ٢/٢٩٨ وبجيْلة: قبيلة يمنية من بطونها قسر.

وقد بلغ من مظاهر العصبيّة القبلية، أن أخذت مدن الأمصار تخطط تخطيطاً قبلياً، ففي الكوفة، كانت اليمنيّة في الحي الشرقي، ونزلت النزارية في الحي الغربي. وكذلك حدث في البصرة، وفي سائر عواصم الأقاليم، ولم تقتصر مظاهر العصبية على السادة، بل تعدتهم إلى مواليهم وأرقائهم.

فكان سُديف، وهو شاعر حجازي من مخضرمي الدولتين، شديد التعصب لبني هاشم، وكان يخرج في مواليهم إلى ظاهر مكة، حيث يوافيه شبيب - مولى بني أميّة - وقد خرج في جماعة من مواليهم، فيتسابان، ويذاكران المثالب والمعايب. ثم يتضارب بالسيوف من معهما من سفهاء الفريقين. وقد شكلوا حالة أطلق عليها: «السُّديفية» و«الشبيبية» دامت طيلة أيام الدولة الأموية[١].

وبلغت العصبية مبلغها بين الناس، بحيث روي أن رجلاً من الأزد. - وهي يمنية - كان يدعو لأبيه وهو يطوف بالبيت، فقيل له: ألا تدعو لأمك؟ قال: إنها تميميّة»[٢]. وفي ظلّ هذه المظاهر العصبيّة المستشرية التي انسحبت على مسلك الناس عموماً في العصر الأموي، كانت الأموية تحفر قبرها بيديْها، إذ لم تنجُ بمسكلها التفتيتي الذي كانت تعتمده بين القبائل في جميع الأقاليم، من إثارة كافة الأقوام، وجعلهم يحنقون على خطة الدولة. وعلى العكس من ذلك، كان الغضب العارم يأخذ بنفوس جميع القبائل، ويأذن بالفتن والثورات والمنازعات، بخرسان وفارس والعراق والشام ومصر وإفريقية والأندلس.

وفي رحم هذه الفتن والمؤامرات العصبيّة، تم زرع البويضة العباسيّة، وبدأ جنينها ينمو، كلما كن أجل الأموية يدنو، فالنزاريون حانقون، واليمنية أيضاً حانقون، وقد صوّر هذه النتيجة المحتومة، نصر بن سيّار والي خراسان في قصيدة بعث بها إلى هشام بن عبد الملك، وفيها يقول:

أرى خللَ الرمادِ وميضَ نارٍ ... ويوشك أن يكون لها ضِرامُ
فإن النار بالعوديْن تُذكى ... وإن الحرب أوّلها الكلامُ
فإن لم تطفئوها تكنْ حرباً ... مشمّرةً يشيب لها الغُلام

---

(١) الأغاني: ١٥٦/١٤.
(٢) المبرد. الكامل في الأدب: ١٩٨/١.

أقولُ من التعجّب ليت شعري ... أأيقاظٌ أميَّةُ أم نيامُ
فإن يكُ قومنا أضحوا نياماً ... فقلْ قوموا، فقد حان القيامُ
ففرِّي عن رحالك ثم قولي ... على الإسلام والعرب السلام[١]

٢ ـ في أغراض الشعر القبلي:

لعل مظاهر العصبيات القبليّة في العصر الأموي، هي التي كانت توجه، وعلى قدر كبير، نمو نوع من الشعر، عرف بشعر العصبيات القبليّة، والذي كانت له جذوره التاريخية في الحياة العربيّة. وقد عمل هذا النوع الشعري التقليدي عند العرب، على تأصيل فنين من الشعر العربي، هما: الفخر والهجاء القبليان.

فالعصبيات القبليّة التي أثيرت في العصور الأموية، استطاعت أن تثير وراءها عاصفة الشعر القبلي، بتقاليده الأدبيّة الموروثة. إذ كان شعراء العصبيات القبلية، يمدّون أبصارهم إلى تقاليد هذا الفن وأغراضه في العصر الجاهلي. وربما ساروا على نهجه وهداه، حتى تمكنوا من البراعة فيه، فكان ظهور وذيوع فن النقائض، الذي سنفرد بحثاً خاصاً لدراسته، ومن السهل واليسير علينا، تلمس أغراض هذا الشعر القبلي، من خلال تتبع نصوصه، والوقوف على دروسه.

فقد اشتغل شعراء القبائل بالكشف عن مناقب قبائلهم، والتحري عن مثالب الأعداء. وما كانوا يتحدثون عن أنفسهم، بقدر ما كانوا يعبرون عن قضايا قومهم في صراعهم مع منافسيهم. وتتلخص هذه القضايا في أمور عدة، كالحديث عن الهزائم والانتصارات والأيام والأحساب والأنساب، وكل ما كان عنواناً للشرف والمجد القبليين في العصرين الجاهلي والأموي، إيجاباً في الفخر، وسلباً في الهجاء.

وربما تتبع الشعر القبلي بعض الأغراض السياسيّة، خصوصاً حين كان يتصل الأمر بهجاء القادة والتعرض لحياتهم السياسية والشخصية. فقد هجا كثير من الشعراء المضريين، والي العراق لهشام بن عبد الملك، خالد القسري، وكان يمنياً، فردّ عنه شعراء اليمن وهجوا مضر.

وقد عيّر شعراء مضر، خالداً، بأنّه كان رقيق الدين. فقد استهان ببئر زمزم

---

(١) الأغاني: ١١٦/١٥. ومروج الذهب: ٢٥٢/٢. والعقد الفريد: ٢٤٠/٥.

أثناء ولايته على الحجاز كما ضرب أيضاً الشيبيّ رئيس حجّاب الكعبة مائة سوط، لأنه رفض أن يفتح له بابها، وقد أقرّ أمه على نصرانيتها، وبنى لها كنيسة بجوار المسجد. وتحدثوا عن أن ناقوسها كان يدق إذا نادى المؤذن للصلاة. وترتفع الأصوات منها بالقراءة، وكأنها تشغب على خطيب المنبر.

وقد وقف الفرزدق يهجو خالداً القسريّ بذلك، فيقول:

سلوا خالداً - لا أكرم الله خالداً - متى وليتْ قسر قريشاً، لدينها»
أقبل رسول الله، أم بعد عهده فتلك قريش، قد أغثّ سمينها
رجونا هداه - لا هدى الله خالداً - فما أمه بالأم، يُهدى جنينها[١]

والفرزدق، هو الذي يقول فيه أيضاً:

ألا قطع الرحمان ظهر مطية أتتنا تمطّى من دمشق بخالدِ
وكيف يؤم المسلمين وأمُّه تدين بأن الله ليس بواحدِ
بنى بيعةً، فيها الصليب لأمه، ويهدم من كفر منار المساجدِ[٢]

واستقصى شعراء القبائل جميع معاني الهجاء، وأفرغوا ما كان في جعبتهم من أيام ومفاخر ومثالب، في عبارات مختلفة، ليس تحتهامن جديد، وليس فيها إلاَّ المهارة اللغوية، والقدرة على اصطياد التراكيب وتأليفها. وكثيراً ما نرى الفرزدق يفخر بآبائه وأجداده الكرام، ويذكر قديم قومه في المجد، وعلو منزلتهم فوق الناس جميعاً. وقد يسفه خصمه ويحط من قومه ويجعل كرامتهم في الدرك الأسفل. وبهذه المعاني مثلاً يخاطب الفرزدق جريراً فيقول:

بأي أب يا ابن المراغة تبتغي رهاني إلى غايات عميّ وخاليا
هلمّ أباً كابني عِقالٍ تعدّه ووادِيهما يا ابن المراغة واديا
تجد فرعه عند السماء ودارمٌ من المجد منه أترعت لي الجوابيا
بني لي به الشيخان من آل دارم بناءً يرى عند المجرة عاليا[٣]

وكان شعر الكميت ذا أثر بعيد في إثارة العصبيّة بين اليمانية والعدنانية، وأول

---

(١) ديوان الفرزدق: ص٨٧٤.
(٢) المرجع نفسه: ١٨٩.
(٣) المرجع نفسه: ٣٦١.

ما كان في شعره في هذا الموضوع قصيدته التي أشاد فيها بمناقب قومه من مضر وربيعة وإياد وأنمار أبناء نزار بن معد بن عدنان، وفضلهم على قحطان، وصرّح بالقحطانيين، وعرّض بهم، كقوله:

لنا قمر السماء وكل نجم تشير إليه أيدي المهتدينا
وجدتُ الله إذ سمّى نزاراً وأسكنهم بمكّة قاطنينا
لنا جعل المكارم خالصات وللناس القفا، ولنا الجبينا[1]

ثم نراه يتعالى على اليمنية، ويعيرهم أنهم يزوجون بناتهم للفرس والحبش، فيجيء بنوهنّ، بعضهم أسود، وبعضهم أحمر. ويصور هذا الزواج الذي يثمر نسلاً هجيناً، بتلقيح الحمير للخيل العتاق، لا تنتج منه إلاّ البغال. فهو يتابع قصيده فيقول في هذا المعنى:

وضربت هجائن من نزارٍ فوالخ من فحول الأعجمينا
وما حملوا الحمير على عتاقٍ مطهّمةٍ فيُلفوا مبغلينا
وما ولدت بنات بني نزار حلائل اسْودين وأحمرينا
بني الأعمام أنكحنا الأيامى وبالآباء سمينا البنينا[2]

وقد نقض دعبل الخزاعي اليمني هذه القصيدة، فذكر مناقب اليمن وعظمة ملوكها، وصرح بالعدنانية، وعرض بها وذلك في قصيدة بلغت ستماية بيت من الشعر، حيث قال:

وما طلب الكميت طِلابَ وتْرٍ ولكنّا لنُصرتنا هجينا
لقد علمت نزار أن قومي إلى نصر النبوة فاخرينا[3]

وعمد شعراء القبائل إلى تسجيل وقائع قبائلهم الجديدة، وكان الشاعر يصاحبها، كما كان شاعر الجاهلية يصاحبها في السابق. ونحن نجد طرفاً منها، فيما حدث بني كلب وقيس. فقد كان العداء شديداً بين كلب أنصار مروان بن الحكم، وقيس أنصار عبد الله بن الزبير، وقد انتصر مروان على القيسية في موقعة مرج راهط، فبكى زفر بن الحارث قتلى المرج وسجل وقائعها كما مرَّ معنا سابقاً.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب: ٢/١٩٦. والعقد الفريد: ٣/٣٣٣.
(٢) المرجع نفسه: ٢/١٩٦ وأيضاً العقد الفريد: ٣/٣٣٣.
(٣) التنوخي. نشوار المحاضرة: ١/١٧٧.

إلى ذلك، فقد استغل شعراء القبائل التناقضات الدينية والسياسية والقبلية، واتخذوا منها موضوعات للهجاء والتفاخر القبليين. فقد أكثر جرير من هجاء الأخطل بمعاني انتسابه وانتساب قومه إلى النصرانيّة، وكان يناديهم بخنازير تغلب، وبأنهم شرّاب الخمر، كما كان يعيرهم بإذلال قيس لهم في أكثر من قصيدة(١). وفي هذه المعاني يقول جرير:

عبدوا الصليب وكذّبوا بمحمد ... وبجبرئيل، وكذّبوا ميكالا
لا تطلبن خئولة في تغلب ... فالزنج أكرم منهم أخوالا

كما يعيره وقومه بالبخل:

والتغلبي إذا تنحنح للقرى ... حكّ استه وتمثّل الأمثالاَ

ويفتخر بنفسه وبمضر على تغلب النصرانية، فيقول:

الضاربون على النصارى جزية ... وهدى لمن تبع الكتاب وزورا
الله فضّلنا وأخزى تغلباً ... لن تستطيع مما قضى تغييرا
وإذا وطئتك يا أخيطل وطأةً ... لم يرج عظمك بعدهم جبورا
أفبالصليب ومار سرجس تتقي ... شهباء ذات كتائب جمهورا(٢)

أمّا الأخطل فكان يعمد إلى تأليب بني أميّة على القيسيين، حين يرى الخليفة يقرّبهم منه. وهو الذي أغرى عبد الملك بن مروان بزفر بن الحارث الكلابي زعيم القيسيين وأكد له أن قلبه ملآن بالحقد والغل، والخير لبني أميّة أن يقتلوه:

بني أميّة إني ناصح لكم ... فلا يبيتن فيكم آمناً زُفَرُ
واتخذوه عدواً إن شاهده ... وما تغيّب من أخلاقه دَعَرُ
إن الضغينة تلقاها وإن قدمتْ ... كالعُرِّ يكمن حيناً، ثم ينتشرُ(٣)

وأمّا لغة هذا الشعر القبلي الذي سبق في هذه الموضوعات جميعاً، وذهب في هذه الأغراض، مذهبه، فهي تلك اللغة الرصينة التي تتأرجح بين صلابة العبارة

---

(١) نقائض جرير والأخطل: ٨٧ و٨٨ و٨٩.
(٢) المرجع نفسه: ١٢٤.
(٣) ديوان الأخطل: ١٠٥

أحياناً، والاحتفاظ بالمستوى الواضح الرصين أحياناً أخرى، موصوفة بالجزالة غالباً، شأنها في ذلك شأن لغة الشعر القبليّ في العصر الجاهليّ.

ويمكن أن نلاحظ هذه الجزالة من خلال اتصاف العبارة بالسهولة والوضوح. فلئن كانت التقليدية، قد غلبت على الشعر القبلي في العصر الأموي، فإننا لا نستطيع أن نتجاهل ما كان لهذا الشعر من فضل الحفاظ على كثير من فصاحة اللغة وتراكيبها القوية الجزلة التي تحاكي عصر العربية في عنفوان فصاحتها، كما تتمثل في الشعر الجاهلي، فضلاً عمّا كان له من أثر فعال في إثراء الشعر وإغنائه في العصر الأموي.

ومع ذلك فقد كانت العصبيّة القبلية رجعة إلى النعرة الجاهلية، وعودة إلى النظر القاصر والمجال الضيق والأثرة القاتلة. وكان الشعر المتعصب يركض في ميدان العصبية فيتبعها آناً، ويسبقها أناً، وهو في الحالين يؤرث نارها وينشر أوارها.

فليت شعراء العصبية تخلوا عن أغراضهم، ودعوا أقوامهم إلى ما دعاهم إليه الإسلام من نبذ الفرقة والعصبيّة والإلتفاف حول ما يوحّد الناس ويجمعهم على معاني الخير والسلام والمحبة، ولكانوا قد بلغوا في ذلك مبلغاً حسناً، حمدهم الناس والتاريخ عليه، فوفروا عليهم نزعة التقويض والتمزق والتفتيت..

الفصل العاشر

فن النقائض والمثلث الأموي
جرير والفرزدق والأخطل

تمهيد

في المعجمات اللغوية، النقائض، مفردها نقيضة. والمصدر هو النقض ومعناه الهدْم. ونقض العهد، هو التحلل منه. وناقضه في الشيء: خالفه. ونقض الجدار: فككه حجراً حجراً[١].

وفي باب الشعر، النقيضة هي قصيدة يهجو فيها شاعر، شاعراً آخر، فيطعن فيه وفي قومه، ويفخر فيها بنفسه وبقومه. وسرعان ما ينهض له الشاعر الآخر بقصيدة، ينقض بها، ما جاء الأوّل من معانٍ وصور، مضيفاً إليها من جانبه، مزيداً من الفخر والهجاء وذلك من أجل «أن يفسد على الأول معانيه، فيردها لعيه، إن كانت هجاءً ويزيد عليها مما يعرفه أو يخترعه، وإن كانت فخراً كذّبه فيها. أو فسّرها لصالحه هو، أو وضع إزاءها مفاخر لنفسه وقومه»[٢].

ولا تكتسب قصيدة الشاعر الآخر اسم النقيضة، إلاَّ إذا التزم في ردّه، بالموضوع الذي عالجه الشاعر الأوّل، وبالوزن الذي اختاره، وبالقافية التي بنى عليها قصيدته. وحينئذ تسمى قصيدته نقيضة بمعنى ناقضة. كذلك تسمّى قصيدة الأوّل نقيضة؛ بمعنى منقوضة. وقد وردت فعيلة عند العرب بمعنى فاعلة أو مفعولة. فالأمر إذن يسير وفق البيان العربي.

---

(١) الفيروزبادي: القاموس المحيط: مادة نقض: ٢/ ٣٤٧.
(٢) الشايب. د. أحمد. تاريخ النقائض: ص٣ (طبعة الاعتماد١٩٤٦).

وقد يشترك في الموقف الواحد للمناقضة، أكثر من شاعرين. إذ يمكن أن يردّ على قصيدة الأوّل، أكثر من شاعر. أو يمكن أن يرد على الرّاد رادُّ آخر. فقد بلغ عدد من ناقض جريراً من الشعراء وناقضهم جرير، ستة عشر شاعراً[١]. وتتأسس النقيضة عند الشعراء العرب على أسس فنيّة، يشترط توفرها في القصيدة، حتى تُسمى نقيضة. وهذه الشروط التي يجب توفرها هي التالية:

١ ـ نقض المعاني: وشأنه أن يعنى الشاعر الآخر، بإفساد دعاوى الشاعر الأول، ويضع إزاءها ما يقابلها، أو يقلل من شأنها. وربما ذهب إلى إظهار الإدعاء وتكذيبه. أو إلى مقابلة المعنى بنظيره، فإذا مدح الأول قومه مدح الثاني قومه أيضاً. أو إلى قلب معاني صاحبه وردّها عليه.

٢ ـ وحدة الموضوع: إذ يجب على النقيضة أن يعالج الموضوع نفسه الذي عالجه الخصم، فخراً أو هجاءاً أو سياسة أو رثاء، حين يكون الموضوع هو مجال المناقشة.

٣ ـ وحدة الوزن الموسيقي/ البحر العروضي: إذ من الضروري الالتزام به في النقيضة.

٤ ـ الالتزام أيضاً بوحدة القافية، لأنها جزء من النظام الموسيقي العام للمناقضة.

وقد التزم شعراء النقائض في العصر الأموي هذه الشروط الفنية في جميع نقائضهم. والجدير ذكره، أن شعر النقائض، كان معروفاً في العصرين: الجاهليّ والإسلامي، رغم اختلاف الغاية منها، من عصر إلى عصر. وقد ذاع هذا الفن ذيوعاً عظيماً في العصر الأموي، وخاض فيه معظم الشعراء. ولكن النجاح الذي أحرزه كل من جرير والفرزدق والأخطل في فن النقائض، جعل هذا الفن يكتمل نضوجاً على أيديهم، مما أثر في سائر الشعراء المعاصرين واللاحقين، بحيث كانوا يحاكونهم ويناقضونهم، طمعاً في تحقيق شهرة أدبيّة لهم. ولا غرو إذا قلنا، إن قمة اكتمال فن النقائض، ونضجه، كان على يد فحوله الثلاثة: جرير والفرزدق والأخطل.

---

(١) ابن النديم. الفهرست. ص٢٢٥. (الطبعة الرحمانية، القاهرة ١٣٤٨هـ).

نقائض جرير والفرزدق

بالإمكان تلمس جذور المناقضة التي شبّت بين جرير والفرزدق. فمن تسلسل نسب الشاعرين، نعرف أن الفرزدق من بني مجاشع في أعالي تميم، أمّا جرير فهو من بني كليب بن يربوع التميمي. ويذكر المؤرخون أنه لم يكن بين الحيين: مجاشع ويربوع، ما يقتضي المواجهة بين فحليّ تميم: جرير والفرزدق.

غير أنه حدث نزاع داخل يربوع، بين بني الخطفى وهم قوم جرير، وبين بني جحيش بن سليط. ولأنه لم يكن في بني سليط شاعر فقد لاذوا بـ «غسّان بن ذهيل بن براء بن سليط»، فهجا بني الخطفى قوم جرير، دفاعاً عن أبناء عمومته من بني جحيش. ووقف جرير على هذا الهجاء، وركب إلى بني سليط فهجاهم برجز قبيح. ثم لجّ الهجاء بينهما، واتخذ أسلوب المناقضة. فقال غسان في هجاء جرير[١]:

لعمري لئن كانت بجيلةُ زانها ... جرير، لقدأخزى كليباً جريرها

فكان أن نقض جرير قصيدة غسان، بقصيدة مطلعها[٢]:

ألا بكرتْ سلْمى فجدَّ بُكورها ... وشقّ العصا بعد اجتماعِ أميرُها

فأوجعه وأخزاه، وأخزى قومه.

ثم ورد البعيث المجاشعي، وهو من قوم الفرزدق، على بني ذُهيل قوم غسان، وكانت بينهما قرابة من جهة امرأة تدعى النوّار، من بني مجاشع، كانت في بني ذهيل، فشكوا إلى البعيث قهر جرير غساناً وقومه، فقال البعيث:

كليبٌ لئامُ الناس قد يعلمونه ... وأنت إذا عُدَّت كليباً لئيمُها

أترجو كليب أن يجي حديثها ... بخير وقد أعيا كليبٌ قديمُها[٣]

وقد ناقضه جرير وأفحش في قوله، ثم فخر بانتصارات يربوع وأمجاد تميم ثم قصد إلى البعيث، فهجاه وتناول أمّه بكل فحش وإسفاف. ويسخر جرير من بني

---

(١) نقائض جرير والفرذدق. أبو عبيدة بن المثنى: ٦/١ (طبعة ليدن).

(٢) ديوان جرير: ص ٥٤٧. طبعة الصاوي. بيروت. ١٩٦٨.

(٣) طبقات الشعراء لأبن سلام: ص٣٢٧.

مجاشع، لاعتمادهم على البعيث. ويشير إلى أنَّ الفرزدق أحق من البعيث بالذود عن مالك، الأب الأكبر لمجاشع ودارم.

واستغاث البعيث بفحل مجاشع/ الفرزدق بالبصرة، وطلب إليه أن يسانده في معركته مع جرير. وكان الفرزدق مقيداً نفسه بقراءة القرآن الكريم. غير أنه حين استغاثه البعيث ونساء بني مجاشع اللواتي هتك جرير عوراتهم، اضطر إلى مناقضة هذا الأخير على كره منه، دفاعاً عن أحساب قومه، وإلى ذلك يشير قول الفرزدق:

فقلت أظنَّ ابن الخبيثة أنّني شُغلتُ عن الرامي الكنانةَ بالنبْلِ
فإن يكُ قيدي كان نذراً نذرته فما بي عن أحسابِ قوميَ من شُغْلِ[١]

وقد تناول الفرزدق في هذه القصيدة جريراً وقومه وعلا عليه وعلى قومه. ولم يعد للبعيث أيّ دور بين هذين الفحلين خصوصاً بعد أن شاخ، فصار ذكره في النقائض مجرّد ذكرى.

فالنقائض بين جرير والفرزدق كانت قد نشأت نشأة تعصبيّة خالصة، رغم أن هناك من يرى أنها صدرت عن مواقف سياسيّة معلنة أو خفية، تعود لارتباط الفرزدق بآل البيت أو بدولة ابن الزبير، وبمعادته للأمويين... في حين أن جريراً كان موالياً للأمويين، قريباً منهم، وهذا ما ساهم في المباعدة بين فحليّ تميم[٢].

وبرأينا أن نقائض جرير والفرزدق، قامت أساساً انتصاراً للعصبيّة القبليّة. وعندما اشتدّ لهيبها بينهما، أتت النار على هذه الأسباب القريبة والبعيدة، وانشغل الشاعران في الإثبات الشعري. ولهذا غادر جرير اليمامة وقصد البصرة، ليكون في مواجهة الفرزدق، وقد عاشا كلاهما في هده المدينة، فكانا يقصدان المربد وينشدان الناس أهاجيهما، وقد بذل كل منهما غاية جهده من أجل إلهاب حماسة الناس وتفوق كلُّ منهما على صاحبه.

وكان الناس يتحلقون حول الشاعرين الكبيرين هناك. «أمَّا الفرزدق، فيتحلّق

---

(١) ديوان الفرزدق: ٢/ ٣٦١.
(٢) الشايب، د.أحمد. تاريخ النقائض: ص٢٨٢.

حوله قومه من تميم وبني دارم ومجاشع، وأخلاط من قبائل أخرى. وأمّا جرير فكانت تتحلّق حوله قبيلته من كُليبٍ وبني يربوع، كما تتحلّق جماعات كثيرة»[1].

ويبدو، أن مادة النقائض بين جرير والفرزدق تكاد تنحصر فيما يتصل بالقبيلة ومفاخرها وأمجادها وأحسابها، ومثالبها وأعدائها. ومع ذلك فلم تكن هذه المادة لتدور حول العصبيّة القبليّة من أجل الهجاء والفخر وحسب، وإنما من أجل غاية أرقى من ذلك، وهي في طبيعتها فنية محضة لأنها تتطلّع إلى الفوز برضا الجمهور المعجب بهذا الفن، وإثبات التفوق الفنّي على الخصم، وأنه أرسخ منه قدماً في هذا الفن. وكان كل من جرير والفرزدق يحرص على إبراز مهارته الفنيّة وبراعته في إقحام خصمه بردّ معانيه وصوره وقوافيه وأوزانه، وإظهار مقدرته على السخرية من صاحبه وتحقيره، بتصويره في صورة هزليّة «تبالغ في تجسيم العيوب الحسيّة والنفسيّة، فتستثير بذلك منابع التفكه في وجدان الجماهير، ويشركهم معه في الهزء بصاحبه والتهكم به أو بآبائه»[2].

فالفرزدق يلح على ذم عطيّة الخطفى والد جرير والإكثار من تقديمه في صور ساخرة تثير الضحك فهو يجري وراء الحمير أو يرعى الأغنام ويقيم هو وزوجه في الزرائب. وهو يصوره بهذه الصورة الساخرة:

تركنا جرياً وهو في السوق حابسٌ ... عطية، هل يلقى به من يبادله

فقلوا له: ردّ الحمار فإنّه ... أبواك لئيم رأسه وجحافله

أما جرير، فهو يصور الفرزدق بأنه قين وابن قين، لأن جده صعصعة، كان يقتني بعض القيون في الجاهليّة. ويلح جرير على هذه الصورة، حتى لكأنما لم يعد للفرزدق من سمة غيرها، فيهيج بذلك سخرية الجماهير عنه.

ولهذا فنحن نعتقد، أن فن النقائض بين جرير والفرزدق اتسم بطابع الهجاء الشخصي، ومثله في موضوعات الفخر الذاتي والقبلي، إلى جانب السخرية والهزء، مما كان يعمق طابع النزعة الشخصيّة في الخصومة، بلوغاً إلى المنافسة الأدبيّة، ليس إلا. يؤكد ذلك ما رواه أبو عبيدة بن المثنى، «أن جريراً والفرزدق خرجا إلى

---

(١) ضيف. التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص١٨٣.

(٢) فتوح، د. محمد. الشعر الأموي: ص١٣٠ (القاهرة ١٩٧٧).

الرصافة مرتدفين على ناقة، قاصدين هشام بن عبد الملك. وفي الطريق نزل جرير لقضاء حاجته، فضجرت الناقة لتأخره، وأخذت تلوي عنقها يميناً وشمالاً. فضربها الفرزدق، وقال:

إلام تـلـفَّـتـيـن وأنـت تـحـتـي ... وخـيـر الـنـاس كـلـهـم أمـامـي
مـتـى تـردي الـرصـافـة تـسـتـريـحـي ... مـن الـتـهـجـيـر والـدُّبـر الـدَّوامـي

وقال في نفسه، الآن يجيء جرير فأنشده البيتين. فيقول:

تـلـفّـتُ إنـهـا تـحـت ابـن قـيْـن ... إلـى الـكـيـريـن والـفـأس الـكـهـامِ
مـتـى تـرد الـرصـافـة تُـخْـز فـيـهـا ... كـخـزيـك فـي الـمـواسـم كـل عـامِ

فجاء جرير ورأى الفرزدق يضحك، فقال: ما يضحكك يا أبا فراس؟ فأنشده بيتيه الأوّلين، فردّ جرير بالبيتين الآخرين، فقال الفرزدق: والله قد قلت هذا، فقال جرير: أما علمت أن شيطاننا واحد»[١].

فالصلة بين الشاعرين، لم تكن منبتة، بل كانت صلة مودة، وما كانا يقومان بهذه المناقضات إلاّ بقصد المنافسة الأدبيّة والبلوغ إلى غاية فنيّة.

فللفرزدق نقيضة طويلة يفخر فيها على جرير بالانتماء إلى أكرم قبيلة (تميم) وبفضل قومه من بني مجاشع على بني كليب قوم جرير، ويهجو جريراً وقومه هجاء قبيحاً. وهذه النقيضة تشتمل على العناصر التالية:

أ ـ الفخر بتميم وذكر مآثرها.

ب ـ فخر قبلي بقومه من بني مجاشع ودارم.

ج ـ هجاء قبلي وهجاء شخصي وفخر شخصي.

ويبدأ الفرزدق بالفخر بقبيلته الكبرى تميم، وكأنه لا يرى جريراً، جديراً بالانتساب إليها. ومن ثم يتجاهل نسب جرير في تميم، فهو وحده الأحق بشرف الانتساب إلى هذه القبيلة الماجدة، بحماية حماها، وشجاعة أبنائها، ورعايتهم لحق الجار:

---

(١) ديوان الفرزدق: ٢/ ٢٩٢ ووفيات الأعيان لابن خلكان: ١/ ١٢٩.

لا قـوم أكـرم مـن تـمـيـم إذا غـدتْ عـوذُ الـنـسـاء يـسـقـن كـالآجـالِ
الـضـاربـون إذا الـقـبـيـلـة أحـجـمـتْ والـنـازلـون غـداة كـل نـزالِ
والـضـامـنـون عـلـى الـمـنـيّـة جـارهـم والـمـطـعـمـون غـداة كـلِّ شـمـالِ[1]

وتكاد أبيات الفخر في هذه القصيدة تبلغ زهاء ٤١ بيتاً، أي ما يقارب نصف القصيدة، فخر بها الفرزدق ببني مجاشع وبني دارم، قومه. وينسب الفرزدق لقومه من الخصال، كل ما يتصف به السادة الأشراف ذوي المروءة، من الإسراع في فك الأسرى، وعلو الشرف وعظيم المنزلة عند الملوك. كما ينسب لهم رجاحة العقل في مواقف الرضا، والبطش الشديد عند سورات الغضب. ويتحدّى بهم قوم جرير، داعياً إياهم إلى المنافرة في سوق عكاظ، وسؤال الحجيج عن مجدهم، فكلهم يعرفه، وكلهم يشهد لدرام بكثرة العدد ووفرة الكرم.

والفرزدق في هذه القصيدة، يذكر جريراً بفضل قومه بني مجاشع على كليب يوم أن دافعوا عنهم، وخلصوا نساءهم من السبي حين غزاهم البكريون، فكان أن انتصر لهم بنو مالك التميميون بيوم الغبيط المشهود[2]. كذلك يفاخر الفرزدق جريراً بيوم آخر من أيام مجاشع المجيدة، وهو يوم الكلاب، ويصف فروسيتهم وأفراسهم الأصيلة التي لا تنهكها الحروب[3].

ويردّ جرير على الفرزدق بنقيضة يبلغ عدد أبياتها ٧٣ بيتاً، فيدفع فخره القبلي بمجاشع ودارم، بفخره بقومه بني كليب. ويقول جرير، إن قومه هم الذين يسارعون للحرب إذا ما قعد بنو القين يصطلون جوار الكير، وينوّه بفرسان قومه، ولا يرى لهم مثيلاً في مجاشع، إذ يحمون نساءهم من امتهان السبي. وأحسابهم تفوق أحساب الفرزدق، وهم بهذه البطولة والأحساب، يحمون حماهم، ويذودون عن ديارهم.

---

(١) المرجع نفسه: ٢/ ١٦١ ـ ١٦٨ والقصيدة ٩٢ بيتاً).
(٢) حيث يقول: حتى تداركها فوارس مالكٍ ركضاً بكل طويلة وطوال
العقد الفريد: ٣/ ٣٣٨.
(٣) وخبر هذا اليوم في العقد الفريد: ٣/ ٣٥٣.

ويقابل جرير فخر الفرزدق بأيام قومه، بمثله. فيذكر يوم تميم على عامر، ويتحدث عن أيام الوقيظ والغبيط ويوم جزع الأطلال[١]، حيث يعيره بهذا اليوم الذي كان لبكر على بني دارم، إذ يقول:

نحن الولاةُ لكل حرب تُتَّقى إذ أنت محتضِرٌ لكيرك صالي

ويقول:

تلك المكارم يا فرزدق فاعترف لا سوقُ بكرك يوم جَوْف أبالِ[٢]

وتكاد تتعادل المادة القبليّة في هاتين النقيضتين للفرزدق وجرير، أيام مقابل أيام، وخصال حميدة تتمدّح بها العرب، يقابلها مثلها، وتعيير بالمثالب والهزائم والنقائض. ولكن يلاحظ أيضاً، أننا لا نجد في ردّ جرير على نقيضة الفرزدق، فخراً يقابل فخره، وهذا الأمر طبيعي، لأن الفرزدق من أعالي تميم وجريراً من أسافلها. فالفرزدق، يستند فيه إلى مجد بني مجاشع، فهو بيت عزيز، مفاخره كثيرة، مما جعل مادة فخره وفيرة للغاية لأنه يمتاح من معين ثر، بخلاف جرير الذي ينتمي إلى بيت واهي البنيان، مما وفّر للفرزدق مادة تفوقه في الفخار على جرير.

أمّا جرير فقد كان يضع بإزاء هذا الفخر الشخصي القبلي، فخراً بالشاعرية القوية المتدفقة. فشعره يطير على ألسنة الرواة، وهذا بحدّ ذاته مبعث فخاره وزهوّه على الفرزدق:

في ليلتين إذا حدوتُ قصيدةً بلغت عُمَانَ وطيّءَ الأجبالِ

وكما يفخر الفرزدق بأعمامه وأخواله، كذلك يفخر جرير بأخواله من بني الأشدّ وبني النزال. وربما تحدّاه جرير أن يذكر أخوالاً كأخواله:

ما السيدُ حين ندبتَ خالكَ منهمُ كبني الأشدّ ولا بني النزّالِ
خالي الذي اعتسر الهُذيل وخيلُهُ في ضيق معتركٍ لها مجالِ
جئني بخالك يا فرزدقُ واعلمنَ أن ليس خالُكَ بالغاً أخولي

وغالباً ما كان يلوذ جرير في هجاء قوم الفرزدق بهذه الصورة التي يردّدها كثيراً

(١) ابن رشيق القيرواني: العمدة: ٢/ ١٦٧.
(٢) أبو عبيدة بن المثنى. نقائض جرير والفرزدق: ١/ ٣٠٢.

في نقائضه مع الفرزدق، وهي أنهم من أبناء قيون. وحين تعوزه أسباب السخرية والهجاء من قومه، لأن مجاشع من بيت رفيع العماد، كان جرير يلجأ إلى السباب والشتم والإمعان في الفحش، والحديث عن الأمهات والزوجات في أهاجيه مع الفرزدق، مما جعله يتقدم عليه في الهجاء. وقد كان جرير يسف فيها إسفافاً عظيماً. حتى ليتأبى أحدنا عن رواية هذا النوع من الشعر الذي ينضح سفالة ورذالة كفم القحباء الماجنة والمجنونة معاً في آن.

وفي مجال السخرية والاستهزاء، فإن مادة جرير في هجاء الفرزدق في هذا المعنى، هي ما يقدُّمه من صور فاحشة له ولأمه وأخته جعثن، أمَّا الفرزدق فعماد مادته هنا، هو «عطية» والد جرير وصورته القميئة مع حميره وجماعات غنمه، ومنظره الزري. وإذا ما تجاوز «عطية»، تناول أمَّ جرير، فيرسمها في إطار مضحك ومثير للسخرية.

الملاحظات الفنية:

وإزاء مطالعة نقائض جرير والفرزدق، لا بدّ من أن يقف أحدُنا على مثل هذه الملاحظات الفنية التي تتصف بها:

١ ـ من حيث طول النقيضة المتماثل تقريباً عند كلا الشاعرين: جرير والفرزدق. إذ نجد نقائض كثيرة لهذين الشاعرين يزيد عدد أبياتها على السبعين بيتاً. وهذا أمر لا نظير له على الإطلاق في جميع نماذج النقائض في العصرين السابقين: الإسلامي والجاهلي.

٢ ـ غلبة المادة القبلية على جميع نقائض جرير والفرزدق بحيث تسلخ منها أكثر من نسف عدد أبياتها.

٣ ـ الاعتماد على أسلوب الهجاء الساخر، في تقديم الصور والمعاني، في نقائض الشاعرين الفحلين. وقد بلغ جرير في ذلك مبلغاً عظيماً في حين أن الفرزدق حافظ على فنية عالية في هذا الموضوع أيضاً.

٤ ـ وتفشو في نقائض جرير والفرزدق معاني الفحش والابتذال والسفاهة والقحة، حتى لتكاد تنبو عنها الأسماع. وبهذه الفواحش كان كل شاعر منهما يرمي بها نساء الشاعر الآخر، دون أي اعتبار ديني أو خلقي.

٥ ـ وربما حدب الشاعران في بعض نقائضهما على بعض المعاني الإسلامية فاختصا في التناظر بها. فنرى الفرزدق يفخر بنفسه وبقومه، وينسج لنفسه صورة تتصل اتصالاً واضحاً بأسباب الدين الإسلامي وقيمه ومظاهره. في حين نرى جريراً يعمل على نقض هذه الصورة وتسفيهها، ويكشف بالتالي عن كذب الفرزدق في جميع دعاويه التي يدعيها لنفسه ولقومه، على صعيد التمسك بأهداب الدين والتزيّ بزي أهله.

فالفرزدق في هذه النقيضة الطويلة (٤٥ بيتاً) والتي أنشدها وهو بالمدينة المنورة، يذكر فيها قتل قتيبة بن مسلم على يد وكيع بن حسان التميمي ويمدح الخليفة سليمان بن عبد الملك ويهجو جريراً والقيسين، يقول:

تحنُّ بزوراء المدينة ناقتي ... حنين عجولٍ تبتغي البوَّ رائم

ويا ليت زوراء المدينة أصبحتْ ... بأحفار فلْج أو بسيف الكواظمِ

ثم يقول:

وراحوا بجثماني وأمسكَ قلبه ... حشاشتُه بين المصلّى وواقمِ[1]

ومن هذا البيت المفصل في القصيدة، يمسك جرير بتلابيب الفرزدق، يناقشه، ويبطل ما ادعاه لنفسه ويكشف عن كذبه في نقيضة مطلعها:

ألا حيِّ ربع المنزلِ المتقادمِ ... وما حلّ مذ حلَّتْ به أم سالمِ

وفي هذه القصيدة ينكر جرير على الفرزدق وقاره المزعوم وتقواه المصطنعة. ويقول إنه شب على الفسوق، واتبع سبيل الغواية وارتكب المحارم. وإن خروجه من المدينة هو تطهير للمدينة من رجسه، ويؤكد جرير أن من شبّ على خلقٍ شاب عليه.

نقائض جرير والأخطل

بدايةً، لا بد من الإشارة إلى أنَّ مبعث التهاجي بين جرير والأخطل، كان سياسيّاً. فظروف التعصب السياسيّ عصر ذاك، جعلت جريراً التميميّ، يؤيد، هو

(١) ديوان الفرزدق: ٢/ ٣٠٧٣١٧.

وقومه من بني يربوع، قبيلة قيس، وكانت زبيريّة الهوى، حتى حسم الأمر في مرج راهط، وخرجت قيس مهزومة من المعركة، أمام الأمويين وحلفائهم من تغلب وكلاب. وربما أوعز الأمويون فيما بعد إلى واليهم على العراق، بالاقتصاص من جرير. إذ أخذ الحجّاج بن يوسف، جريراً، وأراد قتله ـ لموقفه مع قيس ضدّ الأمويين ـ فمشت إليه قيس وكلموه فيه قائلين: «أصلح الله الأمير، هو لسان مضر وشاعرها، هبه لنا، فوهبه لهم وأطلقه»[1]. وهذا ما وطدّ مكانته في قيس، وجعله يؤيدها ويناضل عنها، في وجه خصومها من سائر القبائل، وخصوصاً قبيلة تغلب.

وفي هذه الأثناء، كان الأخطل سفيراً لقومه التغلبيين في بلاط الأمويين. وكان يرصد عن كثب، تقرّب قيس من الخليفة عبد الملك بن مروان. وكان من سياسته أن يجعل الهوّة عميقة بين أميّة وقيس. وقد التمس لذلك:

١ ـ التحريض المباشر الذي يؤدي إلى طرد قيس من بلاد بني أمية.

٢ ـ مخاصمة شاعرهم جرير وتسفيه قوله.

وحين شبت نيران التهاجي بين شعراء تغلب من جهة، وشعراء قيس من جهة أخرى، وجد الشاعر التميمي جرير نفسه، يقف في صف قيس يحامي عنها في وجه خصومها التغالبة، وهذا ما مهّد للتصادم الذي وقع بينه وبين شاعر «تغلب» الفرد: الأخطل.

ويتحدّث الرواة والمؤرخون، عن أول احتكاك وقع بين هذين الشاعرين. وإلى ذلك أيضاً، يشير ما حكاه ابن سلاّم في طبقاته[2]، من أنه حين بلغ الأخطل تهاجي جرير والفرزدق، قال لابنه مالك: انحدر إلى العراق حتى تسمع منهما، وتأتيني بخبرهما. فنزل مالك ابن الأخطل، سوق الشعر في مربد البصرة، واستمع إليهما، وأتى أباه وقال: جرير يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر. فقال الأخطل: فجرير أشعرهما. ثم قال:

إنّي قضيتُ قضاء غير ذي جنفٍ ... لما سمعتُ ولما جاءني الخبرُ

---

(١) المسعودي. مروج الذهب: ٢/١٤٩.
(٢) ابن سلام. طبقات الشعراء: ص٤٥١.

أن الفرزدق قد شالت نعامته وعضّه حيّةٌ من قومه ذكرُ[(١)]

وعندما نزل الأخطل إلى الكوفة وافداً على بشر بن مروان، تداركه رهط الفرزدق بالهدايا والتحف، بعث بها إليه شبَّة بن عقال المجاشعي، وأوعز إليه أن يتراجع عن حكمه السابق، وأن يفضل الفرزدق المجاشعي على جرير اليربوعيّ، ويسبّه. فاستجاب الأخطل، فقال:

إخسأ إليك كليبُ إن مجاشعاً وأبا الفوارس نهْشلاً أخوانِ
قومٌ إذا خطرتْ عليك قُدُومهم جعلوك بين كلاكلٍ وجِرانِ
وإذا وضعت أباك في ميزانهم رجحوا، وشال أبوك في الميزانِ

فقال جرير:

ياذا العبايةِ إنَّ بشْراً قد قضى أن لا تجوز حكومةُ النّشوانِ
فدعوا الحكومة لستُم من أهلها إن الحكومة في بني شيبانِ
قتلوا كليبكم بلقحة جارهم يا خزرَ تغلِبَ، لستمُ بهجانِ
كذب الأخيْطَل، إن قومي فيهمُ تاجُ الملوكِ ورايةُ النعمانِ[(٢)]

وقد أنذرت هذه النقيضة بانبعاث العصبيّة القبليّة، كعنصر مساعد للخصومة السياسيّة والتي كانت قائمة بين قيس وتغلب.

وهناك من يتهم والي العراق، بشر بن مروان، بأنه هو الذي أذن للأخطل بتفضيل الفرزدق على جرير، لأن هذا الأخير، كان محامياً عن قيس حلفاء الزبيريين سابقاً.

ومهما يكن من أمر، فقد أورت النقائض نارها بين جرير والأخطل، فاصطدم شاعر تغلب النصراني، بشاعر قيس المسلم، مما أنتج ديواناً آخر من النقائض بين جرير والأخطل، جمع قصائده أبو تمام[(٣)]، ولو أتى في حجمه، أقل بكثير من ديوان النقائض بين جرير والفرزدق الذي جمعه لهما، أبوعبيدة بن المثنّى[(٤)].

---

(١) نقائض جرير والفرزدق: ص٨٧١.
(٢) ابن سلام. طبقات الشعراء: ص٤٧٤. وأيضاً الأغاني: ٧/ ٤١، حيث يقول: «ياذا الغباوة».
(٣) راجع: أبو تمام. نقائض جرير والأخطل. دار المشرق، بيروت.
(٤) راجع أيضاً: أبو عبيدة بن المثنى. نقائض جرير والفرزدق، طبعة لندن.

ويبدو لنا، على غرار ما وجدنا في نقائض جرير والفرزدق، أن الخصومة السياسيّة القبليّة، لم تنفرد غرضاً للنقائض بين الشاعرين، طوال أعوامها التي أربت على العشرين، بل سرعان ما انقلبت هذه الخصومة، إلى خصومة فنيّة، قصد طرفاها: جرير والأخطل، كما جرير والفرزدق سابقاً، إلى إثبات كل منهما جدارته الفنيّة، وغلبته في حلبة الشعر.

ومما يدل على الغايات الفنيّة التي قصدها، كلّ من جرير والأخطل في شعر النقائض، هو أنّ كلا الطرفين، كان يعتبر هذا النوع من الشعر سبيلاً إلى المنافسة الأدبية، وكانت سعادة كل منهما تعظم حين يثبت أنه متفوق على صاحبه في معنىً من المعاني، أو في صورة أو منحى من مناحي الكلام.

وقد اتسمت نقائض جرير والأخطل بطولها كما عهدنا ذلك في نقائض جرير الفرزدق، بعد أن كانت في العصر السابق عبارة عن مقطعات فنية أو قصائد قصيرة. كما اتسمت أيضاً بغلبة المادة القبليّة، على ما عداها من العناصر السياسيّة أو الشخصية. فقد كان جرير يجمع في نقائضه هذه مع الأخطل، بين بني كليب، وقيس وتميم في مقام الفخر، ولكل من هؤلاء، أنساب وأمجاد، وبين بني تغلب وبني مجاشع، في مقام الهجاء. فقد كان جرير كثيراً ما يتصدى في نقائضه مع الأخطل، إلى الفرزدق، باعتبارهما حليفين ضده.

إلى هذا، فنحن نلاحظ في نقائض جرير والأخطل، قرب الشبه بينهما وبين نقائض جرير والفرزدق، في الطابع الأسلوبي، لكل منهما. فظاهرة التتبع لمعاني الشاعر الأوّل، والنظر فيها، ومحاولة هدمها، والدقة في هذا التتبع، كثيراً ما نجدها أيضاً في نقائض جرير والأخطل، فحين وثب جرير على الأخطل وقال فيه:

بكى دوْبلٌ، لا يرقئُ الله دمعه ... ألا إنّما يبكي من الذُّلّ دوْبلُ

قال الأخطل: «والله ما سمتني أميّ دوْبلاً إلا يوماً واحداً، فمن أين سقط إلى الخبيث»[1].

---

(١) ابن سلام طبقات الشعراء: ص٤٧٩.

كذلك الأمر، بالنسبة إلى الإسفاف والإقذاع والفحش، ومحاولة السخرية، فقد اتخذ كل من جرير والأخطل، هذه المسائل، سبلاً لإرضاء هوى الجماهير إلى السخرية والضحك، وإسقاط قدر الخصم وقبيله عندها. وقد كانت المنافسة على ذلك شديدة بينهما.

فقد أكثر الأخطل من نزعة السخرية والتهكم بجرير وأمه وأبيه، رداً على تناول جرير لأم الأخطل ونساء قومه بفاحش القول. وقد هجا الأخطل جريراً وقومه من بني كليب بن يربوع، فقال:

قومٌ إذا استنبح الأضيافُ كلبهم   قالوا لأمهم بولي على النارِ
فتمسكُ البول بخلاً لا تجود به   ولا تبول لهم إلاَّ بمقدارِ[1]

وقد ردّ جرير بنقيض هذا المعنى، فافتخر بقومه، وبنيرانهم، وسبّ أم الأخطل، وسخر منها سخرية مرة، كما ورد في نقيضه:

قومي تميمٌ، هم القوم الذي همُ   ينفون تغْلِب عن بُحْبُوحة الدار
والحيُّ قيس بأعلى المجد منزلةً   فاستكرموا من فروع، زندُها واري
قومي فأصلهم أصلي وفرعُهم   فرعي وعقدهم عقْدي وإمراري
ما أوقد الناسُ من نيران مكرمةٍ   إلاَّ اصطلينا وكُنا موقدي النارِ[2]

وقد أبان جرير أن قومه تميم وقيس، ومثلهما لا يرمى بالبخل. وقد حرص دائماً على قذف الأخطل وقومه بأقذع الهجاء وأشدّه لذعاً وتهكماً. إذ كان يتعمد غالباً، أن يتناول نساء تغلب فيهتكُ أعراضهن. وينسبهن إلى الفاحشة. ثم يعدل عن ذلك إلى دين الأخطل وقومه. وإلى أخلاقهم وخصائصهم، ومن ذلك صورته المشهورة في بني تغلب:

لا تطلبنّ خؤولةً في تغلبٍ   فالزنج أكرم منهم أخوالا
والتغلبي إذا تنحنح للقرى   حكّ استه وتمثّل الأمثالا[3]

---

(١) ديوان جرير والأخطل: ٢٢٥. والعمدة لابن رشيق: ٢/ ١٤٢ وديوان المعاني للعسكري: ١/ ١٧٥. وبعد هذين البيتين، بيت يتضمن صورة، هي غاية في الفحش.
(٢) طبقات ابن سلام: ٤٨١.
(٣) ديوان جرير: ص٢٢٥.

وكان جرير فخوراً بهذه الصورة التي وسم بها بني تغلب، إذ قال بعد أن أنشد البيت الثاني: «لو أن الأفاعي نهشتْ استهم ما حكُّوها»[١].

وقال: «قد قلت بيتاً فيهم، لو طُعن أحد منهم في استه لم يحكَّها»[٢].

وكما قابل جرير سخرية الأخطل بمثلها، قابل معانيه الفاحشة أيضاً، بمعانٍ أفحش منها. وقد أوغل في الإسفاف والبذاءة، وله في أم الأخطل ونساء تغلب صور، كثير منها لا يروى. ومما قال في أمه:

أيفخر عبدٌ، أمُّهُ تغلبيةٌ ... قد اخضرّ من أكل الخنانيص نابُها
غليظة جلد المنخرينِ، مُصِنَّةٌ ... على أنف خنزير، يُشَدُّ نقابُها[٣]

كما يقول في نساء تغلب:

ألم تر أن التغلبيّة لم تَبِتْ ... حَصَاناً ولا جذلان من يستقيدها[٤]

وقد أكثر جرير من صور السفاهة والفحش في شعره، نال بها الأخطل وقومه، نساءً ورجالاً، وما كان لهذا الأخير، أن يجاريه في هذا المضمار. وكان شعراء العصر قد اجتمعوا على جرير، ونالوا منه، وعيّروه بفقره وهوان حسبه، وضعة والده، وقلة جوده. هذا ما أفاده إفادة عظيمة، إذ أضراه بالهجاء، وجعله يكثر القول فيه، ففتن بذلك، وثارت نفسه، وأخذ ينشر مخازي خصومه، فكان إذا لم يجدها، اختلقها اختلاقاً، وجعلها في صور ساخرة، فبلغت من البذاءة والسفاهة، الحدود القصوى.

ولا شك أن جريراً، كان يذهب في هذا النوع من الهجاء، هذا المذهب، انتقاماً لنفسه، وتنفيساً عن كوامن غيظه، واستجابة لعقده النفسية، التي كانت تتحكم بنوازعه. فالفحش في هجائه مسألة فنية اضطر إليها دون أن يكون في سلوكه فاجراً أو متفحشاً أو فاسقاً. وقد غلب عليه هذا اللون، فاشتهر به، وفاز به دون غيره من الشعراء، فكان بذلك شاعر الهجاء دون منازع.

---

(١) المرجع نفسه: ٣١١.
(٢) ديوان المعاني للعسكري: ١/ ١٧١.
(٣) ديوان جرير: ص٥٣.
(٤) المرجع نفسه: ١٥.

ولا شك أن الأخطل، ضيقت عليه نصرانيته، في حين أن جريراً، وسع عليه إسلامه. وبمعنى آخر، أن جريراً، كان شاعراً مضرياً. وقبيلة مضر أصل قريش. وهي قبيلة النبوة، ومنها بيت الخلافة، الذي يستظلّ الأخطل بظله وينال فيئاً من فيئه. وهو الذي يحميه وقومه. ولهذا لم يستطع الأخطل أن يهجو جريراً من هذين الجانبين، في حين فخر عليه جرير بمضريته وبالنبوة والخلافة، وهجاه بنصرانيته، وحرمان قومه، مكارم السلطان والإسلام، وهيبة السلطة والحكم.

وخارج إطار السفاهة والتفحش، فإن نقائض جرير والأخطل، في قسم كبير منها، تدور في فلك الهجاء الجاد الذي يتمحور حول سلب المكارم والفضائل، وبسبب ذلك نرى كيف تتشابه المعاني لدى كلٍّ من الشاعرين فالأخطل يقول مثلاً في بني كليب قوم جرير:

أمَّا كليبُ بن يربوع، فليس لها ... عند التفارط إيراد ولا صدروا

مخلَّفون ويقضي الناس أمرهم ... وهم بغيبٍ، وفي عمياء ما شعروا

ملطمون بأعقار الحياض فما ... ينفكّ من دارميٍّ فيهم أثروا

على العِيارات هدّاجون قد بلغت ... نجران أو بلغت سوءاتُهم هَجَرُ

الآكلون خبيث الزّاد وحدهم ... والسائلون بظهر الغيب ما الخبرُ(١)

فقوم جرير كما تصورهم أبيات الأخطل هذه، قد بلغوا أعلى درجات المذلّة والهوان. فالناس تدير أمورهم لقلة حكمتهم. وهم لا يشاركون في شيء، ولا ينتدبون لشيء، وقد باتوا تحت «دارم» أخساء، وشكلوا فئةً من العيارين السرّاق. وقد شاع أمرهم بين الناس، وخبث طعامهم، وبخلوا على أنفسهم وعلى غيرهم، وأجلوا عن المجالس والنوادي. ويعتبر هذا النوع من الهجاء أشدّ مرارة على العرب، لأنه يؤكد علة العيوب الخلقيّة التي يخاف الناس أن تتصل بهم.

أما جرير، فقد عمل على قلب معاني الأخطل، ورماه وقومه بها. وقد قابل الهجاء بهجاء، بحيث يأخذ ألفاظ الأخطل، فيحوّل وجهة الهجاء ليصيبه بها. فإذا قال الأخطل: «والسائلون بظهر الغيب ما الخبر»(٢)، قال جرير في بني تغلب:

---

(١) أبو تمام. نقائض جرير والأخطل: ص١٦٣١٦٤.

(٢) نقائض جرير والأخطل: ص١٤٨.

الطاعنون على العمياء إن ظعنوا والسائلون بظهر الغيب ما الخبر[(١)]

ثم يقول:

والآكلون خبيث الزاد وحدهم والنازلون إذا واراهم الخمرُ

ويمسك بعد ذلك بالأخطل من جهة دينه فيقول فيه وفي قومه:

رجس يكون إذا صلوا، آذانهم قَرْعُ النواقيس لا يدرون ما السور

إلى ذلك، يقابل جرير الهجاء بالأيام، ويذكر ما كان لقيس وتميم على تغلب، وكذلك فعل في باب الفخر، وضيّق على الأخطل فيه، وكان يتحرّك في ساحة واسعة، سعة أمجاد قيس وتميم.

وأبرز ما في نقائض جرير والأخطل، ظهور عنصر الهجاء الديني، كما ذكرنا سابقاً، وقد ألحّ عليه جرير، وجانبه الأخطل، مما وسّع على الأوّل وضيق على الآخر.

تقويم فن النقائض

يكاد يشعر، كلّ من يستعرض الحركات الدينية والعقلية، وما كان من مناظرات بين العلماء في هذا العصر، أن النقائض، سواء نقائض جرير والأخطل أو نقائض جرير والفرزدق، إنما كانت قبل كل شيء صدىً لهذه المناظرات، التي لامست كل جانب في الحياة الدينية والعقلية، في الجبريّة والقدرية والإرجاء والتشيع والأمويّة والزبيريّة.

وقد برزت النقائض كأسلوب فنيّ جديد في أجواء عربيّة جديدة. فهناك مثلاً مناظرات العلماء، وهناك أيضاً الشاعر الذي يدافع عن غير قبيلته، بالإضافة إلى ظهور سوق الشعر، كمسرح يتجمع فيه الناس للتفرّج على لعبة النقائض. زد على ذلك التطور العقليّ الذي نهض بمسألة الهجاء الشائع العاجل البسيط، إلى هجاء أكثر تعقيداً، يقوم على البحث والدرس في تاريخ القبيلة.

فالنقائض استحالت إلى فن يحتاج إلى تحصيل ثقافي. فهي هجاء من ناحية

(١) ديوان جرير: ٢٥٧ ـ ٢٦٣.

وهي تاريخ من ناحية أخرى. وكان الشاعر يتعمق في دراسة حياة القبيلة وتاريخها من أجل تقديم نقيضة بارعة. ولهذا أصبح من مهمات الشاعر تعميق دراسته في الحياة الجاهلية، وتعميق ثقافته في الحياة الإسلامية، والاطلاع الواسع على الشؤون السياسية التي كانت تحكم سقف الحياة العامة والخاصة في ذلك العصر.

فالأخطل النصرانيّ، كثيراً ما يتداول الخلافة الإسلامية، لأنه يتحدّث عن الأمويين. وهو يتوسع في البرهنة على حقهم السياسي والديني في الخلافة. أما جرير فإنه يبرئ الخلافة والنبوة من أن تتصل بتغلب، لأنهم أهل نواقيس وكفر، وأكلة خنازير. وهذه المعاني استجدت في الحياة الأدبيّة عند العرب، وهي من مبتكرات شعراء النقائض، وليس للحياة الدينية التي كانت جارية في ذلك العصر، أيُّ يدٍ فيها.

ومما يجدر ذكره أيضاً أنه ابتداء من العصر الأموي، ونتيجة لتطور الأحداث السياسيّة والعسكرية والاجتماعية، اضطرت كلُّ قبيلة لاتخاذ شاعر يعبر عنها، ولم يكن من الضروري، أن يكون هذا الشاعر منها، كما هو شأن جرير بالقياس إلى قبيلة قيس. وقد أصبح الشاعر بذلك، وكأنه صحيفة مؤجّرة للقبيلة(١).

إلى ذلك، فقد نهضت النقائض على أساس قويّ من السخرية وعمادها فن إضحاك الجماهير. فالشاعر، لم يكن همه نزع الصفات الخلقية عن مهجوه وإبداله عنها صفات أخرى تعيّر بها العرب، مثل البخل والجبن وعدم الوفاء، بل كان يعمد في فن النقائض إلى الأسلوب الاستهزائي الساخر، بحيث يعيّره من جهة، ويجعله أضحوكة من جهة أخرى.

فالأخطل يعير قوم جرير بالبخل، فيجعل منهم أضحوكة، فينسى الناس عيب البخل ويحفظون لهم الصورة الساخرة المضحكة، يقول الأخطل:

قـوم إذا استـنبـح الأضـيـافُ كَـلْـبَـهُـم ... قـالـوا لأمِّـهـم بُـولـي عـلـى الـنّـار(٢)

---

(١) ضيف، د. شوقي. التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص١٧٠.
(٢) نقائض جرير والأخطل: ص١٣٥.

وكذلك فعل جرير، فدفع قول الأخطل بقولٍ أشدّ منه استهزاءً وإضحاكاً. قال جرير:

والتغلبيُّ إذا تَنَحْنَحَ لِلْقِرى ... حَكَّ استَه وتمثّلَ الأمثالا[١]

ويبدو أن نقائض جرير والفرزدق، كانت قد سبقت نقائض جرير والأخطل. ويلتمس الباحثون تاريخ ولاية أبي خالد الحارث (القباع) على البصرة (٦٥ ـ ٦٧هـ) لابن الزبير، تاريخاً لابتداء الهجاء بين جرير والفرزدق. وقد عمّرت هذه النقائض زهاء ٤٥ عاماً، فانتهت بوفاة الفرزدق الذي بكاه جرير بكاءً حاراً. أمَّا نقائض جرير والأخطل فقد ظهرت في ظل ولاية بشر بن مروان على العراق لأخيه عبد الملك بن مروان سنة ٧٣هـ ودامت زهاء ٢٠ عاماً، وانتهت بوفاة الأخطل.

وأفضليّة نقائض جرير والفرزدق على نقائض جرير والأخطل، ليست بسبب سبقها في الابتداء ولا بسبب أنها كانت أطول عمراً، بل بسبب أن قصائدها كانت أكثر عدداً وأنها أكمل فناً وأتمّ صنعاً.

وإذا كانت النقائض قد ابتدأت بين أصحابها شعراء المثلث الأموي: جرير والفرزدق والأخطل، لأغراض سياسيّة أحفزت على ظهورها، فإن هذه المعركة، سرعان ما لبثت أن تطورت تحت تأثير مسرح المِرْبد الكبير، بحيث نراها تتجاوب بسرعة مع أهواء وأجواء الجماهير، التي تريد أن تقطع الوقت في اللهو والتسلية والمبارزة الأدبيّة، فنما بإزاء غرضها الذي وضعت له أصلاً، غرضٌ آخر، سرعان ما أصبح أكثر أهمية عند أطرافه من الشعراء، وهو الغرض الفنيّ البحت.

ولا شك أن هذه النقائض، اتخذت شكل مناظرات أدبيّة كبيرة، فاتخذت لذلك وضعاً جديداً في تاريخ الأدب العربي. وقد رشّح لها عاملان: عامل اجتماعي هو هذا العطل والفراغ الذي حدث في تاريخ القبائل العربية، ثم ما اتصل بذلك من إحياء العصبيات وتورط القبائل في أحزاب سياسية، وعامل عقلي، هو هذه المحاورات والمناقشات التي كانت تدور في كل مكان في البصرة، في المساجد وفي المجالس، وفي الطرقات والأسواق»[٢].

---

(١) المرجع نفسه: ص٨٩.
(٢) المرجع نفسه، ص١٨٥.

وعلى أساس من هذه النقائض وقف عدد كبير من الشعراء في صف الفرزدق يشترون معاداة جرير، حتى يتسنى لهم أن يهجوهم فيعظم ذكرهم بين الناس.

فالراعي النميري مثلاً ينتصر للفرزدق ويهجو جريراً، فيقول:

يا صاحبيَّ دَنَا الرَّواحُ فسِيرا غَلَبَ الفرزدقُ في الهجاء جريرا[١]

فيثور جرير على الراعي، فيقول فيه وفي الفرزدق بائيته المشهورة، ويخصّ الراعي فيقول:

فَغُضِّ الطَّرْفَ إنك من نميرٍ فلا كعباً بلغْتَ ولا كلابا[٢]

وقد قضى عدد كبير من الشعراء للفرزدق على جرير، منهم المَرَّار بن مُنقِذ وثور بن الأشهب النَّهشلي والدَّلَهْمس، وهُبَيْرة بن الصَّلت والطُّهَويّ والصَّلتان العبْدي. وقد فضل هذا الأخير الفرزدق في الفخر كما فضل جريراً في الهجاء.

وبسبب من تعمق أطراف المثلث الأموي في تاريخ قيس وتغلب وتميم، واستعراضهم لأيامهم في الجاهلية والإسلام، وذكرهم لحوادث وقعت بين قبائلهم، فقد استحالت هذه النقائض إلى وثائق حربيّة وسياسية وقبلية في آن، خصوصاً وقد أسهمت التحالفات بتعميق آثار هذه الأحداث في النفوس وفي النصوص.

من جانب آخر، اكتست نقائض جرير والفرزدق والأخطل بالحلل الأدبية ذات الترميز الديني. فالفرزدق يتوكأ في أهاجيه على قصص من القرآن الكريم، وربما عدل إلى بعض صوره وأساليبه، فقال في هجاء جرير:

ضرَبتْ عليك العنكبُوتُ بنسْجها وقضى عليك به الكتابُ المُنْزَلُ[٣]

والأخطل يستعير للخليفة أوصافاً دينية فيجعله مثلاً: «خليفة الله يُستسقى به المطرُ»[٤]. أما جرير، فهو يستعين بالعناصر الإسلامية في مديحه وهجائه. فيمدح الخليفة بخصال إسلامية، ويعيّر الأخطل ويهجوه لنصرانيته، ويعيّر الفرزدق، بأنه يقف مع تغلب النصرانية، ضد قيس المسلمة. نراه تقول:

---

(١) الأغاني: ٨/ ٢٠.
(٢) ديوان جرير: ١/ ١٢٥.
(٣) نقائض جرير والفرزدق: ص١٨٣.
(٤) ديوان الأخطل. قصيدة «خف القطين»: ص ١٢٠.

فخرْتُ بقيس وافتخرت بتغْلِبِ فسوفَ ترى أيَّ الفريقينِ أربحُ
فأمَّا النصارى العابدون صليبَهُمْ فخابوا، وأمَّا المسلمون فأفلحوا[١]

ثم يرمي الفرزدق بفسوقه واستهتاره:

أتيتَ حدود الله مذ أنت يافِعٌ وشِبْتَ فما ينهاك شيْبُ اللهازِمِ
تتبّعُ في الماخور كلَّ مُرِيبَةٍ ولسْتَ بأهلِ المحصناتِ الكرائمِ[٢]

وكذلك يفعل جرير في مواضع متفرقة من ديوانه، حيث يرمي الفرزدق كما رمى الأخطل سابقاً، بشرب الخمر والبعد عن سور القرآن. وإذا كان قد عيَّر الأخطل وقومه بأنهم على دين النصرانية، وهذا لا ضير فيه لأن الإسلام أقر أهل الكتاب على دينهم، فإنه لم يتورع عن اتهام الفرزدق والبعيث وقومهما، بدينهم، فهم عنده، على المجوسيّة وليس على الإسلام. ويتهمهم بأنهم من عبدة صنم دوار. يقول جرير في نقائضه:

إنَّ المَوَاجِنَ من بناتِ مُجَاشِعٍ مأوى اللصُوص وملعبُ العُهَّارِ
إنَّ البَعيثَ وعَبْدَ آلِ مِقاعسٍ لا يقرآن بسورةِ الأحبارِ
وتبيتُ تشْرب عند كل مقصّصٍ خضلِ الأنامل واكفِ المعصارِ[٣]
لا تفخرنَّ فإن دينَ مُجَاشعٍ دينُ المجوسِ تطوف حَوْلَ دوارِ[٤]

وهكذا فقد كان شعراء النقائض يلتمسون في نقائضهم عناصر قديمة من الأيام والأمجاد الجاهلية. ويضيفون إليها عناصر جديدة تتصل بالعصر الجديد والدين الجديد والسياسة الجديدة. فكانوا بذلك يمزجون في هذه النقائض بين القديم والجديد.

فشعراء النقائض أخرجوا الهجاء من دائرة المعاني البدوية البسيطة، وأصبح يتناول معاني واسعة ومعقدة، متأثرين بذلك ببيئة العلماء الذين كانوا يديرون محاوراتِ ومناظراتِ لغوية وفقهيّة ودينية شتى.

---

(١) نقائض جرير والفرزدق: ص ٥٠٦.
(٢) المرجع نفسه: ص٣٩٦.
(٣) القصص: الذي جزت ناصيته. وهو المخنث رجل الحانة.
(٤) النقائض: ص٣٤٠، دوار: من أصنام العرب.

ويذكر أبو الفرج الأصفهاني أن جريراً بعد أن فرغ من نظم نقيضته في هجاء الفرزدق والراعي النُّميري، و«عرف أن الناس قد جلسوا في مجالسهم بالمِرْبد، وكان يعرف مجلسه ومجلس الفرزدق، دعا بدُهْن فادَّهن وكفّ رأسه، وكان حسن الشَّعر. ثم قال: يا غلام اسرِج لي. فأسْرَج له حصاناً. ثم قصد مجلس الفرزدق ومعه الراعي. حتى إذا كان بموضع السلام، قال: يا غلام، قُلْ للراعي: أبَعَثَك نِسْوَتُكَ تكسِبُهُنْ المالَ بالعراق؟ أمَّا والذي نفسُ جريرٍ بيده لترجِعَنَّ إليهنّ بمَيْرٍ يسؤهن ولا يسرّهنّ. ثم اندفع فيها فأنشدها، فنكس الفرزدقُ والرّاعي، وأرمّ القومُ، حتى إذا فرغَ منها سار إلى مجلسه»[١].

إلى ذلك فشعراء النقائض الذين كانوا يجلسون مجلس المتناظرين في المربد، كانوا أيضاً يملون نقائضهم على الرواة والناس، وهم يكتبون. وهناك دلائل عدّة، تثبت أن النقائض، كانت مناظرات مكتوبة تنشد في المربد. فعندما فضّل سُراقة البارقيّ الفرزدق على جرير في قصيدة طويلة، أخذها بشر بن مروان وإلى العراق، فأرسلها إلى جرير. فوقف الرسول عليه وقال: «قد أمرني أن أوصله إليك، ولا أبرح، حتى تجيب عن الشعر، في يومك إن لقيتك نهاراً، أو ليلتك إن لقيتك ليلاً. وأخرج إليه كتاب بشر، وقد نسخ له القصيدة، وأمره بأن يجيب عنها»[٢].

وقد تناول جرير القصيدة من رسول بشر بن مروان، وأمضى ليلته في نقضها. وعندما فرغ من نظمها، سلّمها للرسول، فمضى بها إلى بشر وقد هجا جرير في هذه القصيدة سُراقة، وخاطب بشر بن مروان أمير العراق فقال:

يا بِشْر حُقّ لوجهكَ التبشير ... هلاّ قضيت لنا، وأنت أميرُ

وقد أفحم سراقة بحسب رواية الأغاني، «فلم يَنْطِق بشيء من مناقضته»[٣]. وتكاد صورة النقائض بين جرير والفرزدق والأخطل، وأخبارها، تدلّ «على أنها كانت تكتب، وأن الشاعر كان ينظر فيها، ثم يردّ على خصمه أو زميله»[٤] ولذلك

(١) الأغاني: ٨/ ٣٠.
(٢) المرجع نفسه: ٨/ ٦٩.
(٣) المرجع نفسه: ٨/ ٦٩.
(٤) ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص١٩٨.

فقد تطور الهجاء في هذا العصر إلى نقائض مكتوبة ومدروسة، أشبه ما تكون بالعمل الأدبي الذي يستغرق جهداً طويلاً.

وقد أكثر شعراء النقائض من توليد المعاني، فلم يكتفوا كما يرى بعض النقاد القدماء ببعض المعاني يقومون بتكرارها في جميع القصائد وإنما كانوا يسارعون إلى استقصاء معانٍ مولّدة من معنى رئيسي، كما كان يفعل جرير، حيث يولّد المعنى الواحد عل صور مختلفة. فتارة يقول للفرزدق إن أباكَ شُغل عن المكارم بصناعة القيون، وتارة ثانية يقول له: إن المرجل والقدر المحطمين يبكيان أباه. فهو لا يبكيه الناس ولا يبكيه المجد، وإنما تبكيه أدوات صناعته. والعرب كانت تعيّر بالصنعة[1].

إلى ذلك، نودّ أن نلفت أيضاً، إلى أن نقائض جرير والفرزدق أطول وأدق من نقائض جرير والأخطل وذلك لحجمها وللزمن الأطول الذي قطعته، ولأنها اتخذت بين جرير والفرزدق شكل مناظرات تامة، ولم نجد ذلك إلاّ في الحدود الدنيا بين جرير والأخطل.

وتتميّز نقائض جرير والفرزدق، بأنها دارت بين شاعرين مسلمين اختلطا بالحياة الدينية والعقلية، من خلال سماع الوعاظ والعلماء، ولم يتسنّ ذلك للأخطل التغلبيّ لأنه كان على النصرانية، وهذا ما حرمه بعض أسباب الثقافة وسبل استعمالها بحرية، كما عهدّنا ذلك عند فحلي تميم: جرير والفرزدق. وقد روي عن عمر بن عبد العزيز قوله: «إن الأخطل ضيّق عليه كفرُهُ القول، وإن جريراً وسّع عليه إسلامه قوله»[2].

وإذا أردنا أن نقيّم جريراً بهجائه، وأنه كان قد سبق كلاً من الفرزدق والأخطل في هذا الموضوع، فإن الأخطل كان سباقاً في باب المدح، كذلك فإن الفرزدق، كان أولاً في باب الفخر. ولهذا فحكمنا عليهم أنَّ كلَّ واحدٍ منهم قد اختص في باب من أبواب الشعر لا يجاريه فيه أحد من معاصريه أو معارضيه، رغم أن الأخطل قد انفرد أيضاً لوحده دون صاحبيه جرير والفرزدق، بفن الخمر.

---

(١) ابن الأثير: المثل السائر: ص ٤٩٠ (ط. بولاق).
(٢) الإغاني: ٨/٢٩٩.

والحق يقال، إن الأخطل كان قد حقق ريادته في الفن الخمر، بسبب نصرانيته التي كانت تبيح له شربها، أمَّا جرير فقد اندفع، تعويضاً عن ذلك، في غزلٍ رقيقٍ، يردم به هوته ويرمم به مأزقه في مطالع قصائده التي تحتاج إلى الفخار والفروسية والأمجاد والتحنان للمعاقرة والندمان. ولا شك أن الإسلام، كان قد رقق له قلبه، وصفّى له ودّه، وجعله يذوب عاطفة ووجداناً في سويعات فراغه وسلوانه، مع محبوباتٍ، سواء كنَّ يعشن في قلبه أم في ذاكرته ووجدانه. فمن غزل جرير الذي يصدر عن نفس رقيقةٍ يشوبها غير قليل من الحزن:

إن العيون التي في طرفها مرضٌ قتلننا ثم لم يُحْيَين قتلانا
يصرعن ذا اللبِّ حتى لا حَراك به وهُنَّ أضعف خلق الله أركانا[1]

كذلك برزت لجرير رقة رقيقة في شعر الرثاء، وتعتبر مرثيته لزوجه أم حزرة خير شاهد على ذلك، ومطلعها:

لولا الحياءُ لعادني استعبار ولَزُرْتُ قبْرَكِ والحبيب يزارُ
ولّهتِ قلبي إذ عَلَتْني كَبْرَةٌ وذوو التمائمِ من بنيكِ صغارُ[2]

وإذا جاز لنا الحكم على فنون شعراء المثلث الأموي، التي برعوا بها، فلا بدّ من القول أن جريراً تفوّق في الهجاء والغزل والرثاء، بينما تفوّق الفرزدق في الفخر والنقائض، أمَّا الأخطل فقد تفوق في المديح وشعر الخمر، تميز عن صاحبيه بأنه كان يعدُّ من مدرسة عبيد الشعر الذين، كانوا يبالغون في تنقيحه ونخله وتهذيبه، فكان يشبه في ذلك عملاق المدح في العصر الجاهلي وعملاق الصنعة معاً في آن، زهير بن أبي سلمى صاحب الحوليات.

وإذ تميّز إيقاع جرير بالرقّة، فقد تميّز إيقاع الأخطل، بضخامة الموسيقى التي فيها رزانة ووقار، والتي تصل شعره بشعر زهير في الجاهلية، وتحوله إلى ما يشبه سمفونيّة من سمفونياته. أمَّا الفرزدق، فلم يكن لأن تصدر عنه موسيقى عذبة كموسيقى جرير ولا موسيقى ضخمة كموسيقى الأخطل، إنما كان يصدر عن نفس تمازج بين الرقة والضخامة، فكانت موسيقاه الصلبة الخشنة التي عرف بها. وكثيراً

(١) الأغاني: ٨/ ٣٩.
(٢) ديوان جرير: ص١٩٩.

ما كان يشعر بحواجز تحول بينه وبين ما يريد، بحيث تأتي عليه ساعة «ونزع ضرس علي أسهل من قول بيت»[١]، كما كان يقول الفرزدق في سرّه.

فالفرزدق يقرّ بأن شيطان الشعر لا يواتيه دائماً. وقد وصف الدكتور شوقي ضيف معاناته فقال: «إن موسيقاه، لم تطرد له، بل كان كثيراً ما يجد فيها التواءً وعسراً وصعوبة على صور مختلفة، بخلاف جرير، فموسيقاه ليّنة سائغة، تطّرد له اطراداً»، ويستشهد شوقي ضيف بما أورده الأخطل في حكمه على شاعرية الفرزدق وجرير، حين قال: «جرير يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر». وينتهي ضيف إلى القول تعقيباً على حكم الأخطل: «وفرق بعيدٌ بين الماء السائغ العذب، وبين الصخر الغليظ الضخم[٢]، إذ يصف شعر جرير وموسيقاه بالماء السائغ العذب، كما يصف شعر الفرزدق وموسيقاه بإيقاع بالصخر وإيقاع الزمن الصلب عليه.

---

(١) ابن قتيبة. الشعر والشعراء: ص١٩. حيث يقول الفرزدق: «أنا عند تميم أشعر تميم، ولربما أتت عليّ ساعة، ونزع ضرسٍ عليّ أسهل من قول بيت».

(٢) ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص٢١٨.

الفصل الحادي عشر

مدارس الغزل الأموي

الغزل الحضري/مدرسة ابن أبي ربيعة

يتصل الغزل الحضري لذي شاع في الحجاز بزعامة عمر بن أبي ربيعة، بجملة أسباب مادية أحفزت إليه وجعلته يشتعل داخل مجالس الأدب والغناء التي كانت تعمر به في مكة والمدينة وغيرهما من مدن ذلك الإقليم عصر ذاك.

فقد أصبحت مكة مدينة متحضّرة بعدما أفاء عليها الإسلام بالمال الوفير، وأخذت تعمها خصائص كثيرة، تدلّ على تحضرها وترفها. وكذلك غدت المدينة، عاصمة الدولة الإسلامية الأولى، مركز سادات العرب وأشرافهم بعد انتقال الخلافة إلى دمشق. وكان يغدق عليها المال من أجل إشغالها باللهو بعيداً عن السياسة.

وكان من أثر ذلك المال الذي أصاب الناس في الحجاز، أن يدعوهم إلى الأخذ بأسباب الحضارة والترف من كلّ جانب فكان الاهتمام بالموسيقى والغناء والشعر، تعويضاً عن الاهتمام بالسياسة والانشغال بها.

ومما لا شك فيه أن الغزل الحضري، كان نموه طبيعياً في تلك الحجور الترفة الناعمة، التي تتطوّر وتتحضّر تحت تأثير العناصر الأجنبية الوافدة إليها مع الجواري الروميات والفارسيات. فقد شاعت أحاديث الصبابة والغزل، وشاع معها كثير من اللهو. وأخذ يسود المجتمع ضرب من الحرية في حياة الرجل والمرأة.

وإذا حجرت السياسة الأموية على أهل الحجاز، وحظرت عليهم الاشتغال بالسياسة، انصرف الشباب المتعطّل للأخذ بفنون اللهو والإقبال على حياة الدِّعة والمرح، والإنشغال بالإنشاد والغناء، في المجالس والدور والمنتزهات.

إزاء ذلك كله، كان شعر الغزل يأخذ طريقه إلى الحرية بعدما حجر عليه طيلة الفترة الصحابية. ونهض عمر بن أبي ربيعة وشعراء آخرون، يحيون تقاليد الشاعر العربي الأول وشاعر الغزل الأول عند العرب امرأ القيس بن حجر، خصوصاً في قصيدة الغزل، ويعملون على تطويرها، مستفيدين من أجواء الحرية من جهة، وأجواء الرفاه والتحضر من جهة أخرى.

وقد اتسمت هذه الخطوة في شعر الغزل عند الحضريين، بالجرأة والانفلات والانطلاق إلى أبعد من الحدود التي كان يرسمها المنطق الشرعي. وأخذت قصص الحب والعشق بكل ما حملته إلينا من حكايات ونوادر وأشعار تنتشر بين الناس في تلك المجتمعات، لتسليتهم والترفيه عنهم. وقد وجدوا فيها سبيلهم لتجاوز عطالتهم وأوقات فراغهم.

ومامن شك أن قصيدة الغزل الحضري في العصر الأموي، تمتد بجذورها إلى قصيدة الغزل الحضري التي عرفت عند امرىء القيس والأعشى على وجه الخصوص،في العصر الجاهلي. غير أنها تجاوزتها بآلاف الأشواط، وذلك لتجاوز الحياة الحضرية في العصر الأموي حضارة الماضي الجاهلي بآلاف الأشواط أيضاً.

فالمرأة العربيّة في عصر ابن أبي ربيعة، هي امرأة متحضرة، وقد أتيح لها من الفراغ وأسباب زينة الحياة، ما لم يتح للمرأة الجاهلية.

وإذا ما رصدنا جوانب هذه الحياة الحضرية، فقد نجد كيف نضّت عنها ملابس المرأة المتحضرة وحليها وطيبها في أشعار عمر بن أبي ربيعة وأركان مدرسته: الأحوص والعرجي.

فصورة المرأة، كما تعكسها لنا قصيدة الغزل الحضري في العصر الأموي، هي صورة منعمة مترفة، تحفّ بها الجواري، يسلينها ويعددن لها من أفانين الهوى واللعب واللهو، ما تقطع به وقتها قطعاً هنئياً. وتكاد أبيات عمر بن أبي ربيعة تشي بشيء من ذلك، خصوصاً حين يقول:

ولقد قالت لجاراتٍ لها ... كالمَها يلعبْن في حُجرتها
خذْن عنّي الظلّ لا يتبعني ... ومضتْ تسْعى إلى قبتها[1]

---

(١) عمر بن أبي ربيعة. الديوان: ١١٥. والأغاني: ٢٠٨/٩.

وبسبب شيوع الغناء، وشيوع مدارسه وجوقاته وأجوائه وأندائه ومنتدياته في جميع مدن الحجاز ونواحيه، كان لا بد من ظهور فريق من الشعراء بجانب المغنين والمغنيات، يمدونهم بالقصائد والأشعار التي هي مادة الغناء الأولى. وقد وجد شعراء المدرسة الحضرية أنفسهم وهم يلازمون هؤلاء المغنين والمغنيات، ويقدمون لهم أحدث القصائد والمقطوعات التي تتلاءم مع ذوق الخاصة والعامة، في ظلال النعيم والدعة والفراغ.

وفي أخبار الأغاني، أن عمر بن أبي ربيعة، كان يلتقي المغنين والمغنيات(١) وخصوصاً الغريض وابن سريج، حتى ليظهر أنه كان لا يفارقهما. وقد جاءت أشعاره تعكس هذا اللون من اللقاء الحرّ بين الرجل والمرأة، مم أتاح له الاسترسال في الوصف المادي والحضري، حين كان يعرض لشؤون المرأة وشجونها. نستمع إليه يقول:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعِدْ	وشفتْ أنفسنا مما تجدْ
واستبدّتْ مرّةً واحدةً	إنما العاجز من لا يستبدْ
ولقد قالتْ لجاراتٍ لها	ذات يوم وتعرّت تبترد
أكما ينعَتُني تبصرنني	عمْركُنَّ الله أم لا يقتصِدْ
فتضاحكْن وقد قُلْنَ لها	حَسَنٌ في كلّ عينٍ منْ تودّ
حسداً حُمِّلْنَهُ من أجلها	وقديماً كان في الناس الحسدْ(٢)

ولا شك أن هذه القصيدة، هي أثر عظيم من آثار تلك الحياة الحضرية التي كانت تغمر المجتمع الحجازي عصر ذلك في مدنه وقراه. ففي ظل هذا المجتمع الجديد كانت النساء يصبن شيئاً من الحرية، فكثر الاختلاط بين الرجال وبينهن، مما نحا بالشعراء أن يقفوا وقفة شاهد حيّ على تجربة جديدة، هي أثر من آثار المدينة. فلا عهد لنا من قبل، بشاعر تحدث بلسان النساء، فأباح بما يملأ قلوبهن من غيرة، وما يدور في نفوسهن من خلجات أنثوية صادقة.

وإذا كان عمر بن أبي ربيعة رأس المدرسة الحضرية، قد آثر تقديم نفسه على

(١) الأغاني: ٦/٣٢٧.
(٢) الديوان: ص١١٥. والأغاني: ١/١٨٦.

المحبوبات، فربما كان ذلك أثراً من آثار التحول الاجتماعي والحضاري الذي أصاب الحجاز. وعلى أساس من هذا يقول الدكتور شوقي ضيف: «إن شيوع الغزل في المدينتين الكبيرتين بالحجاز، يرجع إلى عوامل نفسيّة، كما يرجع إلى عوامل اجتماعية، فأمّا النفسية، فترجع في جملتها إلى شعور الفرد في المدينتين بنفسه أكثر مما كان يشعر بها في الجاهلية.

فقد كان قديماً يفْنى في قبيلته، ويذوب فيها، ولا يحسّ لنفسه بوجوده إلاّ من خلالها، وهو لذلك يتغنّى بمفاخرها، ويهجو خصومها، ويمدح سادتها. أمّا في هذا العصر فقد شعر شباب المدينتين، أنهم ورثة كسرى وقيصر، وقد صُبّت في حجورهم خزائن الأرض، وشعروا كأن الدنيا تدين لهم، فتولَّد فيهم شعور عميق بأنفسهم»[١]، ولذلك فقد تحوّل الشعر من بعض الوجوه إلى الحديث عن النفس لا عن القبيلة، كما تحول الغزل من بعض الوجوه إلى التغزّل بالذّات بدل التغزّل بالمحبوبات.

ويحسّ الإنسان وهو يقرأ شعر عمر بن أبي ربيعة وبعض أركان مدرسته، أن معظم هذا الشعر، كان قد وضع من أجل الغناء. فغزل هذه المدرسة في حقيقته وطبيعة منشئه، غزل حضري، غرضه بناء أغنية حضرية تتجاوب لها نفوس الناس في مدن الحجاز وتلهج بها الأفئدة والألسن. وربما كان عمر بن أبي ربيعة يتعهد بنفسه تصدير هذا النوع من الغناء وإنتاجه على نفقته الخاصة، حتى يذيع وينتشر بين الناس.

فمما يروى عن ابن أبي ربيعة، أنه أعطى ابن سريج في تلحين قطعة له ثلاثمائة دينار[٢]. كما أعطى الغريض في تلحين أخرى خمسة آلاف درهم[٣]. وأعطى الدلاَّل في تلحين إحدى مقطوعاته مائة دينار[٤]، كما أعطى جميلة في

(١) ضيف. التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص ٢٣٧.
(٢) الأغاني: ١/٢٥٩.
(٣) نفسه: ٣/٣٢٢.
(٤) نفسه: ٤/٢٩٦.

مقطوعة أخرى عشرة آلاف درهم[١]، وكان في داره، جاريتان خاصتان به تغنيانه في شعره، وهما بغوم وأسماء[٢].

إلى ذلك، فقد أخذ شعر الغزل في المدرسة الحضرية، ينحو نحو تأسيس لغة شعرية، جديدة، تقوم على هجر ألفاظ العربية، وبنائها بناءً سهلاً، يتلاءم مع حياة الناس الجديدة التي تحضرت، حتى يقتربوا منهم ومن لغتهم اليومية. ولهذا فقد جاء هذا الشعر قريباً كلّ القرب من حياتهم ومن مجتمعهم، وهو يقرب من هذه الحياة وذلك المجتمع في العواطف التي يصورها، كما يقرب منهما في اللغة التي يتحدث بها الناس.

وعلى غرار ما جاءت أوزان الشعر منسجمة مع الألحان العصرية والإيقاعات الجديدة؛ جاءت الألفاظ منسجمة مع لغة الناس اليومية، متصلة بنزعاتهم وميولهم إلى الدعة والخفة والعذوبة، فكانت بلا شك تمثل وجهاً من وجوه الجدة الأدبية والفنية، استدعتها بكل صدق، تلك الحياة المستجدة. وتعتبر قصيدة «نُعُم» إحدى الإثباتات الشعرية على الأسس الحضارية التي نهضت عليها مدرسة الغزل الحضري:

أمِن آلِ نُعمٍ أنتَ غادٍ فمبْكِرُ ... غداة غدٍ أم رائحٌ فمهجِّرُ

لحاجةِ نفْسٍ لم تقلْ في جوابها ... فتبلغَ عذراً والمقالةُ تعْذَرُ

تهيمُ إلى نعمٍ فلا الشملُ جامعٌ ... ولا الحبْلُ موصولٌ ولا القلبُ مُقْصِرُ

ولا قربُ نعمٍ إن دنتْ لك نافعٌ ... ولا نأيُها يُسْلي ولا أنت تصْبرُ

وأخرى أتتْ من دون نعمٍ ومثلَها ... نهى ذا النُّهى لو ترعوي أو تفكّرُ[٣]

ويمضي عمر في قصته الشعرية الرائعة، مصوراً أحداث ما جرى له مع محبوبته وأختيها. نراه يجري حواراً طريفاً معهن ويتلقى منهم نصائح، ويسترشد بخطة تضعها المحبوبة لإنقاذ الموقف، وهو الذي فاجأهن بزيارته الليليّة وبات لديهن، وآذن الصباح بالانبلاج، وآذن السرّ بالانفضاح.

وبعد انصياع عمر لحظة الخروج، نرى الشاعر يعيد على مسامعنا أوامر

---

(١) نفسه: ٢٠٨/٨.

(٢) الأغاني: ١/ ١٦٥.

(٣) الديوان: ص ١٢٠.

محبوبته ونواهيها، صيانة للحب ألاّ تتهدده الأخطار، كما يعيد لنفوسنا، صورة تلك المحبوبة النقية العطرة التي حسد أهلها عليها، إذ يقول:

فـآخـر عـهـدٍ لـي بـهـا حـيـن أعـرضـتْ ولاح لـهـا خـدٌّ نـقـيٌّ ومـحْـجَـرُ
سـوى أنـنـي قـد قـلـتُ يـا نُـعْـمُ قـوْلـةً لـهـا والـعِـتـاقُ الأرحـبـيـات تُـزجَـرُ
هـنـيـئاً لأهْـل الـعـامـريّـة نـشـرهـا الـلـذيـ ـذُ، وريّـاهـا الـتـي تـذكّـرُ

وما من شك أن هذه القصيدة، كانت قد حوت، من أسباب الترف اللفظي والتحرّر الاجتماعي، الشيء الكثير، مما جعلها تعكس بكل واقعيّة وصدق، عمق التمثّل الحضاري الذي كان يغذّي انساغ الحياة في المجتمع الحجازي على كل الصعد.

فالتمثل الحضاري العميق، هو الذي أنتج تلك القصيدة وقصائد كثيرة مثلها، لدى عمر بن أبي ربيعة أو لدى غيره من أركان هذه المدرسة، مع ما اتسمت به هذه القصيدة من سلاسة الأسلوب وبساطته، وبراعة الفكرة مصوغة في قصة بارعة، وما حوت من حوار طريف محبّبٍ، فيه تقمص لشخصيتين: شخصيّة المحب المغامر، زائر النساء، وشخصيّة المعشوقة المتدللة المرتبكة حيناً، والسريعة الخاطر حيناً آخر، حتى تنجو بصاحبها.

وهذا الحوار، قلّما استطاع شاعر غير حضريّ أن ينسج حواشيه بهذه البراعة الجذّابة. وإذا كان هناك من يشير إلى تأثر عمر بن أبي ربيعة في هذه القصيدة، بمعلقة امرىء القيس المشهورة التي اعتبرت من عيون الشعر العربي[١]، فإننا نرد ذلك، إلى الأثر الحضاري والمدني الذي أنتج هذا النوع من الشعر عند امرىء القيس وعند امرئ بن أبي ربيعة، وعند جميع من وقع تحت تأثير الحس الحضاري عند العرب وعند غيرهم من سائر الأمم والشعوب. فمثل هذا النوع من الشعر هو صدى طبيعي للحضارة العربيّة التي كانت تجري في أودية المجتمع العربي عصر ذاك[٢].

---

(١) جبور، جبرائيل. عمر بن أبي ربيعة: ٣/ ٥٠٢ (دار العلم. بيروت ١٩٧٩).
(٢) الشكعة. د. مصطفى . رحلة الشعر: ٢٧ (عالم الكتب. بيروت ١٩٧٩).

في هذا المجال، يؤكد الدكتور شكري فيصل، أن غزل عمر بن أبي ربيعة، كان ينطبع بطابع الغزل الحضري. ويعلل رأيه هذا بأسباب عدّة، منها«غياب الأطلال في المطلع... فلم يبدأ عمر بها ولم ينطلق منها، ولم يجد أنه مربوط إلى ما ارتبط به الجاهليون... وإنما كان منطلقه، فيما رأينا، ذاته التي حُرمت الوصل وعاشت على المواعيد... ومنها بدأ. ولهذا لا نلقى هنا، ما كنا نلقى في مطالع القصائد من أثافي وأواريّ ونؤي ودِمن، وحطوبات وبعر أرام، ولا نشهد ما كنا نشهد في الشعر الجاهليّ من نباتات البادية وحيواناتها، ومن غدرانها ورمالها، ومن صورها ومشاهدها... إن كل ذلك ليغيب هنا، لا يبقى منه شيء أو لا يكاد، وإنما الذي يبقى هذا الحديث عن الغزل أو عن أحداثه... ومعنى ذلك أن عمر خالف عن سُنَّة العربي الجاهليّ، وأن هذه المخالفة كانت استجابة لهذه الحياة الحضرية التي كان يحياها، وتمثيلاً لها وتعبيراً عنها».

ويستشف الدكتور فيصل هذا الطابع الحضري في هذه اللغة اليسيرة اللينة التي تحدث بها عمر بن أبي ربيعة، في رقتها واستساغتها، في صقلها وخفتها، وكأنه نسج كل خيط منها من الحرير الناعم غير ذي العقد، تمييزاً له عن خيوط البداوة المتخذة من الصوف والوبر والشعر، المليئة بالعقد... ويقول أيضاً، أن الطابع الحضري للقصيدة عند عمر إنما يتمثل كذلك في المعاني، سواء هذه المعاني التي التقى عليها المتقدمون أو التي سبق إليها عمر... وفي المشاهد، سواء هذه المشاهد التي تتراءى في شعر الغزل الجاهلي، أو التي ابتدعها عمر...

وكذلك يتمثل هذا الطباع الحضري، في هذه الموسيقية الطلقة الخفيفة التي تكسو الأبيات... في اللغة، ألفاظاً وتراكيب. والموسيقية، طابعاً ورنيناً هي كذلك بعض ظلال هذه الحضرية التي تتميز بها القصيدة[١]. ويخلص د. فيصل إلى القول، بأن القاع الذي ينبع منه النص، مدني المعالم، حضريّ السمات، وأن المشاهد التي تكسوه، والوقائع التي فيه، والألوان التي يصطبغ بها، والخيوط التي يُنسج منها، حضرية كذلك، بالقدر الذي كانت تبيح لأصحابها أن يظفروا به»[٢].

---

(١) فيصل. د. شكري. تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام: ص ٤٣٢. (دار العلم بيروت. ط٤).
(٢) المرجع نفسه: ص٤٣٢.

وإلى هذا، يمكن أن نضيف رأي طه حسين، الذي وجد أن الغزل عند عمر بن أبي ربيعة وأركان مدرسته: العرجي والأحوص ويزيد بن الطثرية، كان قد وقع تحت تأثير الحضارة العربيّة الجديدة، لأن في شعرهم من الحضارة طلاء يبعث في النفس الميل إلى الاستقصاء والاستطلاع، لدى الشعب العربي الذي أخذ يحضر ويترف، ويحس كما يحسّ الحاضرون والمترفون[١].

ويؤكد عميد الأدب العربي، أن عمر بن أبي ربيعة هو زعيم الغزليين، وزعيم الشعراء العرب قاطبة إلى يومنا هذا، لأنه استطاع أن يمثل العصر الذي كان يعيش فيه، والبيئة التي كان يحيا فيها. فشعره يصوّر الحياة الحضرية في الحجاز على حقيقتها، حيث كان سراة قريش والحجاز يقضون حياتهم الهادئة الفارغة، ويصلون بعضهم بألوان الصلات المختلفة الحلوة. كذلك يصوّر حياة المرأة المترفة الأرستقراطية، وحياة الشباب الحجازي الساعي إلى لهو أبناء السادات وترفهم الذين ضاقت بهم الساحة السياسية، فأسرهم نعيم العيش، وأسرَّهم. وفضلاً عن ذلك، فعمر بن أبي ربيعة، كان يعيش عيشة الرجل المترف الذي أتيحت له أسباب اللهو ووسائله، غير أنه كان مقيداً بشرفه ومكانته وما ألف الناس من الأوضاع الاجتماعية، بحسب رأي طه حسين، ولهذا أتى شعره صورة صادقة، وربما ناطقة عن عصر اندرجت فيه الحضارة من الوضيع إلى الرفيع[٢].

وإذا كان لطه حسين أن يقابل بين عمر بن أبي ربيعة، وأي شاعر آخر، فقد جعله بإزاء شاعر الحب الفرنسي «ألفرد دي موسيه» الذي أنتجته الحضارة الفرنسية.

فالحب الحسيّ الذي هو أثر من آثار الحضارة الفرنسية عند «الفرد دي موسيه» توافر أيضاً لزعيم الغزل العربي عمر بن أبي ربيعة الذي كان يمتلىء بالحب الحسيّ، بحسب طه حسين[٣]. ونحن نرى في ذلك شاهداً آخر على عمق الأثر الحضري في شعر ابن أبي ربيعة[٤].

---

(١) حسين. د. طه. حديث الأربعاء: ١/ ٢٩٥. (دار المعارف بمصر ١٩٧٦).
(٢) المرجع نفسه: ١/٢٩٦.
(٣) المرجع نفسه: ١/٣١١.
(٤) الحسين، د. قصي. عمر بن أبي ربيعة شاعر الحجاز: ص ٨٧.

وجملة القول، أن مدرسة الغزل الحضري، إذا كان لها أن تنهض بزعيمها عمر بن أبي ربيعة وبأركانها العرجي والأحوص ويزيد بن الطثرية، فلأن هؤلاء كان لهم أن ينشأوا في حجور الحضارة العربيّة في العصر الأموي، وأن ينقطعوا للحياة في جنباتها فيشربوا من مائها وينامو على فراشها، مما أسهم في إنتاج هذا اللون من شعر الغزل الذي جعل الحب يندرج على الشفاه وينمو في الحنايا، دون أن يسفَّ أو يرذل(١).

الغزل البدوي/جميل وذو الرمّة

وكما أتى بعض شعر الغزل صدى حقيقياً وواقعياً لأوجه الحياة الحضرية التي نشأت في دور وحجور أهل المدينة ومكة، بحيث عرف بالشعر الحضري/ المادي/ الإباحي/ المدني، فإن من شعر الغزل في العصر الأموي، ما كان صدىً حقيقياً وواقعياً لأوجه الحياة العربية في البوادي، حيث كان الناس فيها ينطبعون بطباع العفة ويتخلقون بأخلاق البادية.

ويبدو أن الطهر والعفة والنقاء والإخلاص، كانت من سمات شعراء البوادي، إذ قلما نجد شاعراً منهم في العصر الأموي، لم ينطبع شعره كله أو معظمه بهذه السمات، أو بتلك الطوابع.

ويعزو كثير من الباحثين ظهور العفة في شعر الغزل إلى أخذ الناس بأسباب الدين وبأسباب الحياة الخلقية والاجتماعية التي كانت تسود أوساط الناس في البوادي، وربما كان شيء من ذلك صحيحاً، وربما كان أيضاً كثير أو قليل من ذلك صحيحاً. غير أننا نؤكد قطعاً خضوع الأدب لشروط الحياة التي تتوافر له في هذه البيئة وذلك المناخ، كما تتوافر له شروط أخرى في خارجها.

والغزل الذي نما بشروط الحياة في البوادي، أنتج لنا نموذجين اثنين من الشعر:

١ ـ غزل عفيف طاهر، طغت عليه نزعة الحب الوجداني.

٢ ـ غزل نقيّ باهر، طغت عليه نزعة الحب الوصفي.

---

(١) المرجع نفسه: ص٨٠.

وعميد النوع الأوّل من الغزل العفيف، هو جميل بثينة. الذي أقام له مجسماً في ركن الروح. أمَّا عميد النوع الثاني من الغزل النقي، فهو ذو الرِّمَّة، والذي كان يقيم له من شعره مجسماً، فاتخذ عناصره من أشياء البادية.

وبمقتضى هذه النظرة الاشتراطية التي تطابق بين الحياة والشعر، فإن الغزل البدويّ، كان يشكل أعلى تجليات المطابقة بين الشعر والطهريّة الدينية الأخلاقية في المجتمع البدوي.

الغزل البدوي جميل بثينة

فجميل بثينة منح شعره الغزليّ الذي نسج العلاقة بين الرجل والمرأة، بُعداً آخر، استكمل به التاريخ الآخر لمعنى الحب، ولمعنى العلاقة بين العاشقين. فالمرأة الحبيبة في هذا الشعر، ليست النساء كلّهن وحسب، وإنّما هي كذلك، الوجود كله، يقول جميل:

رفعتُ عن الدنيا المنى، غير ودّها فما أسأل الدنيا ولا استزيدها(١)

وهذا التعلق ببثينة في أثناء الحياة يكشف عن تعلق بها قديم، أقدم منهما كليهما. وحبها قدر لا يرد ولا يقاوم. وهو هبة من الله يدوم بدوام الوجود، ويستمر في الحياة بعد الممات، والشاعر لا يستطيع أن يقاوم حبّه، كما أنه لا يستطيع شرحه وتفسيره، فهو حالة لا شعورية حصلت قبل الولادة. وهو سرّ كوني جذبه إلى بثينة دون أن يعرف كيف ولماذا. ولهذا فإن جميل بعد اتحاده الروحي مع المحبوبة، تاه كالصوفية وأخذ يعاني مثلهم القلق والنحول والهيام، فبلغ في ذلك أعلى درجات العرفان، وقد أقام لحبها هيكلاً في ركن الروح وجلس يصطلي بناره.

وهذه الحالة شغلت جميل عن بثينة ـ المرأة، بـ بثينة ـ المثال الذي يجمع في ذاته كلّ شيء. وهكذا تحول حبه من بثينة إلى حبه ذاته الذي أصبح الكون كلّه. صار يحبّ حبّه لها أكثر من حبّه أياها. بل صار ممكناً أن يقول لها: ابتعدي عني، فحبك شغلني عنك. وتعليل ذلك أن الصورة التي [ابتكرها] جميل في خياله لبثينة

(١) أدونيس، الثابت والمتحول: ١/٢٢٩.

شفّافة، لطيفة، لا تلوثها علائق العالم المحسوس الذي تعيش فيه، وهي لذلك أجمل في عينيه من الصورة المحسوسة»[١].

ولهذا سنجد كيف أن غزل جميل يؤسس للحبّ الصوفي، أو يبني عليه لا فرق. والحبّ الصوفي شبيه بحب جميل بثينة، وقد حدّثنا عنه ابن عربي شيخ الصوفيّة فقال إنه حب حقيقي، متى استحكم في قلب صاحبه أصمه «عن سماع أي كلام إلاّ عن ذكر محبوبه، وأعماه فلا يرى سوى صورة محبوبه، وأخرسه عن كل كلام إلاّ عن ذكر محبوبه، فلا يدخل في قلبه سوى حبّ محبوبه. ويرمي قفله على خزانة خياله، فلا يتخيل سوى صورة محبوبه، إما عن رؤية تقدّمت، وإما عن وصفٍ يُنشيء منه الخيالُ صورةً، فيكون كما قيل:

خيالك في عيني، وذكرك في فمي ... فمثواك في قلبي، فأين تغيب[٢]

ولأنَّ جميل ولد من ضلع الحبّ الدافىء/ ضلع بثينة، فقد أصبحت هذه الأخيرة أنثى كونية. وأصبح حبها قوة خفيّة يحوّل العالم بطاقة سحريّة كما يقول:

هي السحر، إلاّ أنَّ للسحر رقيةً ... وإني لا ألفي لها الدهر، راقيا

وبسبب من هذه الطاقة السحرية التي يوفرها حب بثينة، تلغى المسافات بين الحبيب والمحبوب، وتتوقف دورة الزمن العادية. إذ لا يمرّ الزمن على بثينة، وإذا مرّ عليها، فإنه يزيدها بهاءً وخلوداً كما اللؤلؤة يقول:

وأنت كلؤلؤة المرزبان ... بماءِ شبابك لم تعصري
قريبان مربعنا واحدٌ ... فكيف كبرتُ، ولم تكبري»[٣]

والزمن عند جميل يبيده ويفنيه، والحبّ عنده ينضجه ويحييه. وهو يقصر حين يكون مع بثينة، ويطول كثيراً حين ينأى عنها. واللحظة الواحدة مع بثينة تساوي الدهر كله.

وحبّ حميل، عميق في الوجدان. فهو يملأ عليه كيانه، ولا يشعره أنه يحتاج

---

(١) المرجع نفسه: ١/ ٢٣٠.
(٢) ابن عربي: الفتوحات المكية: ٢/ ٣٢٥.
(٣) ديوان جميل بن معمر: ص ١٠٦.

إلى غيره، إذ لا قيمة للاتصال ببثينة ولو كان ذلك بالسبل الشرعية. فالاتصال ببثينة يفسد الحب ويطفىء جمرته. وجميل يريد المحافظة على الحب مشتعلاً في فؤاده، ولهذا نراه ينادي بعدم الاقتراب منها، حتى يظلّ دائماً أخاً للعذاب والموت البطيء. كمايريد أن يكتم حبّه لها حتى لا يذهب شيء منه هدراً، وحتى لا تفسده مقالة واشٍ بغيض.

فجميل يصون حبه لبثينة ويسّوره بأسوار عالية خشية أن يتهدّده أحد بخطر. وإذا شعر أن المجتمع أو الشريعة أو أية جهة أخرى تريد أن تتدخل في حبه بموجب مفهوم شرعي اجتماعي، فإنه ينفر من ذلك، كما ينفر حمار الوحش، ويستقل بحبه في أقصى الأرض. ونحن لا نستطيع أن نقول، إن حبّ جميل يخضع للقانون الأخلاقي الذي يعيب الاتصال غير الشرعي ويحرّمه، لأن حب جميل لا يؤمن أساساً بالاتصال ولا يشتغل له كما يفعل العاشقون عادة، ولهذا فإن قانون العيب يوافق حبّ جميل بلا قصد منه.

وهذا النوع من الحبّ والشعر، قد غلب عليه اسم شعر الغزل العذري. وسبب ذلك أنه كان أكثر شيوعاً بين شباب وبنات قبيلة بني عذرة، فنسب إليهم. غير أن ما تضمنه هذا النوع من الغزل، هو الصدق في الحبّ من جهة، والإخلاص لامرأة واحدة من جهة ثانية. وإذا كان الحب العذري لا ينفي الحسيّة أو الشهوانيّة، غير أنه لا يطلبها من المحبوب. وإذا طلبها، فإن ذلك يكون بقصد التجريب، حتى يعرف مقدار هذا الحب، ومقدار طهره وعفافه.

ففي أخبار جميل، أنه قال لبثينة وقد خلا بها ليلاً: يا بثينة أرأيت ودّي إياك، وشغفي بك، ألا تجزينيه؟ قالت: بماذا؟ قال: بما يكون بين المتحابين. فقالت له: يا جميل، أهذا تبغي. والله لقد كنت عندي بعيداً منه، ولئن عاودت تعريضاً بريبة لا رأيت وجهي أبداً. فضحك وقال: والله ما قلت لك هذا إلاّ لأعلم ما عندك فيه. ولو علمت أنك تجيبينني إليه لعلمت أنك تحبين غيري. ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفي هذا ما استمسك في يدي، ولو أطاعتني نفسي لهجرتك هجرة إلى الأبد. أو ما سمعت قولي:

وإني لأرضى من بثينة بالذي ... لو أبصره الواشي لقرَّت بلابله

بـلا وبـان لا أسـتـطـيـع وبـالـمـنـى وبـالأمـل الـمـرجـو قـد خـاب آمـلـه
وبـالنظرة الـعجلى وبـالحوْل تنقضي أواخـره، لا تـلـتـقـي وأوائـلـه

وتضيف الرواية، إن أبا بثينة وأخاها، كانا يرقبان المشهد ويسمعان، فقال أبوها لأخيها: قم بنا، فما ينبغي لنا بعداليوم، أن نمنع هذا الرجل من لقائها. فانصرفا وتركاهما»[١].

فالحب العذري، انطلق من إسار الغريزة ليعيش في آفاق العفة. . وأفلت من تقلب الأهواء وتوقيتها، ليتقلب في خلود العواطف وديمومتها. وهزىء ببرودة العقل ليغمره غليان المشاعر. . . إنه آثر الحرمان الذي يرهقه على اللذّة التي تشينه، والسغب الذي يطربه على الكظّة التي تبطره، والنار التي تصقله على الدفء الذي يفسده»[٢].

وبرأي الدكتور شكري فيصل، فإن الغزل العذري ينطبع بهذه الطوابع العامة:

١ ـ بساطة معاني الحب الذي ينفعل به وينهب عواطفه.

٢ ـ الصدق النفسي، حيث يصدر الحب عن صاحبه كدفق الماء من الينبوع. بالإضافة إلى الصدق الفنيّ، حيث يعبر الشاعر عن حبه دون زيف.

٣ ـ وحدة الغرض والاتجاه، بحيث ينشغل المحبّ بمحبوبته ولا يتجاوزه بل يستغرق فيه.

٤ ـ الأسلوب المباشر، حيث يتجه الشاعر إلى الحب وحده دون التواء.

٥ ـ العفة في الأسلوب وطهر القول، وعدم التطرّق إلى المغريات الجنسيّة.

٦ ـ تصوير حالة اليأس التي يعيشها الشاعر بسبب شدّ أسر المحبوبة له.

٧ ـ الصفاء والإشراق، حيث يتطابق عمق الحب ومع قوة اللغة الشعرية وجزالتها.

وإذا كان جميل بثينة، يشكّل في حدّ ذاته ملحمة حبّ عظيم، غير أن الفيض

(١) الأصفهاني. الأغاني: ٨/ ١٠٥.
(٢) فيصل، د. شكري. تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام: ص٢٨٨.

الأعظم من ذلك، ما خلّفه لنا تلايمذ مدرسته الذين تأثروا به، وترسموا خطاه. فشعره الذي يمتاز بالرصانة والقوة والإشراق من الناحية الأسلوبية، ترسمه أيضاً صحبه من الشعراء، أولئك الموحدون في الحب، أمثال كثير عزة، وكان تلميذه وراويته، قيس بن الملوّح مجنون بني عامر، وقيس بن ذريح، وعروة بن حزام.

وإذا كانت قصة حب كثير لعزة شبيهة في بدايتها بقصة جميل بثينة، غير أنه لم يقصر شعره مثلما فعل جميل، على الغزل وحده، لأنه شارك في الحياة العقلية والدينية وتعصب لآل البيت وتعصب للكيسانيّة. أما قيس لبنى، فإن حبّه لها، عظم بعد طلاقها منه بسبب عدم إنجاب الأولاد. ولذلك فشعره كثير الإلتياع، مليء بالحزن والبكاء والوجد والفقد. ولهذا يمكن أن يكون الغزل عند جميل وأصحابه، صفحة بيضاء ناصعة وروضة زهراء مونقة، وواحة خضراء، وموسيقى خلابة في نطاق شعر الغزل عند العرب.

شعر الحب البدوي ذو الرمة

من أخبار ذي الرُّمة[١] ما يدلُّ على أنه أحبُ ميَّة[٢] من النظرة الأولى. وقد استمر هائماً بهاطوال حياته، فكانت النبع الذي صد عنه حبُّه وغزله. ولهذا فقد ذهب ينادي باسمها في كل مكان يحلُّ فيه، في البادية وفي اليمامة وفي البصرة والكوفة، وفي دمشق والشام.

وهكذا فقد ملكت ميّة على الشاعر قلبه، فكانت تروعه أطراف النهار ويروعه خيالها أثناء الليل. وقد زاد انشغاله بها وهيامه في إثرها، بعد أن تزوجت من ابن عمها عاصم، مما أوقعه في يأس شديد.

وبكى ذو الرُّمة محبوبته مية، بكاءً مراً. وبطل عمل التعويذة التي اتخذها أمام حبّ ميّة. وعمل سحر ميّة أوسع عمل، فإذا الشاعر يائس منها ومن حياته:

بـدا الـيـأس مـن مِـيّ، عـلـى أنَّ نـفـسـه طـويـلٌ عـلـى آثـار مـيّ نـحـيـبـهـا[٣]

---

(١) ذو الرّمة: غيلان بن عقبة بن مسعود، وقيل عقبة بن نهيس. مولده في اليمامة حوالي ٧٧هـ.
(٢) ميّة: هي بنت طِلبة بن قيس بن عاصم المنقري التميمي.
(٣) ذو الرمّة. الديوان: ص ٦٧.

ولكن يأسه لم ينسه إياها، بل ظلّ يذكرها بالنحيب والبكاء والدموع. وفي كل جانب من شعر ذي الرّمة نجد هذا البكاء. فهو يستمر في بكائه، لأن حبّه لها قد امتزج بروحه، واختلط بدمه، وجرى في عظامه.

وكما جميل ظلّ يندب بثينة طوال حياته، كذلك فعل ذو الرّمة، حين أرسل صوته في إثر ميّة، يندب حباً اختلط بعناصر البادية وأشيائها، وهذا ما جعله حباً مجسماً موصوفاً، لا حباً مجرداً غير موصوف.

فغزل ذي الرُّمة يصدر عن قلب لا يعشق ميّة وحسب، وإنّما يعشق الصحراء نفسها، وهو يرى في الصحراء إطاراً لميّة، مما جعله يحُبها كما أحب ميّة، فاندفع يأخذ من الصحراء عناصرها ويخلعها على محبوبته، مما ميّز غزله وأدبه بجانب فريد ونادر في الشعر العربي عزّ نظيره.

وغزل ذي الرُّمة في معناه الأبعد، أقرب إلى الغزل الإباحي منه إلى الغزل العذري، لأنه يقدم لنا وصفاً حسياً لمشاهد جنسية، يقيمها الشاعر مع محبوبته. وقد استترت هذه المشاهد وراء أكم البادية وكثبانها، إذ استعمل الشاعر قاموساً من الألفاظ، كثير الحوشية شديد التوعر، فطما على مدنيّة الحب بأشياء البداوة، مما خفّف من المعاني الإباحيّة، وزاد في التستر عليها بالحوشي والمستوعر. يقول ذو الرُّمة:

عجزاءُ ممكورةٌ خمصانةٌ قلقٌ ... عنها الوشاحُ، وتمَّ الجسم والقصبُ
زينُ الثياب وإن أثوابها استُلبتْ ... على الحشيّة يوماً، زانها السَّلَبُ
تريك سُنَّةَ وجْهٍ غيْرِ مقْرفَةٍ ... ملساءُ ليس بها خالٌ ولا ندبُ
إذا أخو اللذة الدُّنيا تبطنها ... والبيتُ فوقهما بالليل محتجبُ
ساقت بطيِّبةِ العِرْنينِ مارِنها ... بالمسكِ والعنْبرِ الهنديّ مختضبُ[1]

وفي أبيات أخرى، ينتقل الشاعر إلى معان أخرى أسلس أسلوباً وأقرب إلى

---

(١) مطلع القصيدة:
ما بال عينك منها الماء ينسكبُ ... كأنه من كلا مفرية سربُ
وهي أول قصائد الديوان عند ذي الرمّة. والممكورة: مستديرة ملفوفة. خمصانة: ضامرة البطن، قلق وشاحها: لضمور بطنها. القصب: العظام التي فيها مخ. سُنةُ وجهٍ: صورة وجهٍ. مقرفة: الهجينة. الندب: الأثر من الجرح. سافت/ شممت. العرنين: أرنبة الأنف. المارن: مالان من عظم الأنف.

الفهم لسهولتها. وربما ترفع عن الغزل المادي إلى الغزل النقي القريب من العفة، خصوصاً حيث يستوعر في ألفاظه، متقصياً طبيعة الصحراء في قيعانها ومنبسطاتها، فيتخذ لمحبوبته أوصافاً صحراوية النجود والحزون، يقول ذو الرّمة:

وفي المرط من ميّ توالي صريمةٍ ... وفي الطوقِ ظبيٌ واضحُ الجيدِ أحورُ

وبين ملاثِ المِرْط والطوق نفنفٌ ... هضيم الحشا رأد الوشاحين أصغر[١]

ولشدة ولوعه بالصحراء، ولشدّة حبه وعفته معاً في آن، أقبل ذو الرّمة، يقيم لمحبوبته مشاهد صحراوية، فيرسم مناظرها بجميع تفاصيلها، حين يقدم لنا محبوبته أويصفها أو يتحدث عنها. «يرسم أيامهاولياليها وصخورها ورمالها وأعشابها وأشجارها وحيوانها، وكل ما يجري فيها من رياح وبرق ورعد ومطر، وكل ما يلمع في سمائها من كواكب ونجوم وغيوم، وكل ما تكتظ به من سمائم وطير وآبار وسراب»[٢]

وهكذا فقد أعطى ذو الرُّمة لشعر المرأة، بُعداً تصويرياً لا عهد له به، أكمل بذلك ما بدأه امرىء القيس، شاعر المرأة الأول عند العرب، وفتح لمن سيأتي بعده العالم الشعري الحقيقي، وأعني به عالم المجاز. ففي شعره نتلمس البداية لاعتبار الشعر أكثر من تعبير عن الحياة مع المرأة، من خلال النظر إليه كطاقة قادرة على تحويل العناصر الأنثوية إلى عناصر خصيبة في الطبيعة، وعلى تحويل عناصر الطبيعة، إلى عناصر صرحيّة وصريحة في الأنثى.

وبتعبير آخر، فإن غزل ذي الرُّمة يمنحنا فرصة للوقوف على «بدايات اعتبار الشعر إبداعاً، لا مجرُّد نقل وتفسير. وهكذا يضعنا شعره في أفق من المماثلات والمقابلات فيما بين عناصر الطبيعة وأشيائها، البدوية والحضرية، الكونية والذاتية، الجسدية والذهبية، بحيث تبدو الطبيعة كلّها على تبيان عناصرها وتضادها، وحدة وجود ووحدة خيال. وفي هذا ما يحيد بالكلمات عمّا وضعت له أصلاً، ويعطيها معاني جديدة وأبعاداً جديدة»[٣].

---

(١) الرمط: الإزار. الصريمة: الرملة. الحور: شدّة بياض العين. اللوث: الطيّ. النفنف: متذبذب المرط. راد الوشاحين: حائل الوشاحين.

(٢) ضيف. د. شوقي: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص٢٥٠.

(٣) أدونيس، الثابت والمتحول: ١/ ٢١٤.

وبرأينا، أن مردّ هذه النقاوة في شعر الغزل عند ذي الرُّمة، إنما يعود إلى اختياره اللغة الشرعية المجازية على اللغة الشعرية الواقعية، وإلى تفضيله الحساسيّة البدوية، على الحساسية الحضرية المدنية التي شاعت في ديوان امرىء القيس في الجاهلية وديوان عمر بن أبي ربيعة في العصر الأموي. في هذا المعنى يقول طاهر لبيب إن العمل الأدبي، هو عالم رمزي. تنشئه مجموعة اجتماعية، يمثلها شخص المؤلف، ولها موقف مشترك تجاه هذا العالم، الذي إن كانت بنيته كافية الانسجام، كانت على عقلاة تماثل مع بنية العالم الواقعيّ لهذه المجموعة. وهذه المجموعة الاجتماعية هي منظومة من العلاقات ذات الدلالة، يستند إليها أفرد المجموعة في تأويل علاقاتهم مع الآخرين[١].

ولعل هذه المجموعة الاجتماعية من عالم البداوة التي استغرقت الشاعر «ذا الرّمة» هي التي أوحت له بالطهر الرمزي حين يولع بالحب، شأنه شأن أبناء البوادي، وباللغة المجازيّة في الشعر الغزلي، حين يعمد لتجسيم هذا الحب في أشكال البادية. فمقاربة أخلاق البادية في الحب، لا يعادلها غير مقاربة أشكال البادية في الوصف، ولذلك جاء شعره كثير الواقعية من جهة وشديد الفتنة من جهة أخرى.

فمفهوم العفة في البادية يتصل بمفهوم النقاوة في الصحراء، «قال سفيان بن زياد: قلت لامرأة من عذرة، ورأيت بها هوى غالباً، خفتُ عليها الموت منه. ما بالُ العشق يقتلكم معاشر عذرة، من بين أحياء العرب، فقالت: فينا جمال وتعفف. والجمال يحملنا على العفاف. والعفاف يورثنا رقة القلوب. والعشق يفني آجالنا. وإنَّا نرى عيوناً لا ترونها»[٢]

فعلاقة الجمال/ العفة تبدو بارزة جداً، وهي تعبير عن احترام مبالغ به للجمال. ولا شك أن كلَّ شيء في البادية يدعو للجمال، مما يستدعي بالتالي أن يحمل الشاعر حملاً على العفاف، ولو عن غير قصد منه، كما جرى لذي الرُّمة، الذي سار في إثر امرىء القيس متتبعاً حسن النساء حتى يغلبه، فغلبه جمال البادية الذي ستر على هذا الحسن، بحسن الكثبان والوديان والأراك والظباء والأكم.

---

(١) لبيب، طاهر: سوسيولوجية الغزل العربي: ص٨٢.
(٢) ابن الجوزية. روضة: ص٣٣٦.

لقد عاش ذو الرُّمة بدوياً بكل نبضةٍ من نبضاته، صحراوياً بكل خفقة من خفقات قلبه،«ولم يكن ذو الرُّمة مجرد إنسان صحراوي الصفات، ولكنّه كان صحراوي الارتباط والولاء. ذلك الولاء والحب الذي منحه كلّ شيء في الصحراء من حيوان ووحش ونبات وجماد، إنه في قصيدة واحدة هي ملحمته البائية، يجعلنا نعيش معه في وصف العيش وحمر الوحش، والصائد، والثور الوحشي، والمعركة التي تجري عادة بين كلاب الصيد والثور. كما وصف الظليم مع نعامته وفراخه وصفاً لم يتيسَّر بالصورة والأسلوب اللذين أتى بهما، لشاعر آخر من شعراء العربية»[١].

وكان ذو الرُّمة ماهراً حقاً في لجوئه إلى الصحراء وأشيائها، لأنه استطاع أن يتخذ منها مجازاً إلى محبوبته ميّة. وإذ كان ينفث في ثور الوحش، نفسيّة البدويّ المعتز بنفسه، نراه ينفث أيضاً في غيره من الحيوان، كل ما يضطرب في نفسه من قلقٍ ووساوس، إزاء حب ميّة، وربما استرسل في وصف هذا القلق، من خلال وصف أشياء الصحراء وعناصرها. ولنستمع إليه في هذه الأبيات الرائعة التي تعكس بكل صدق وإخلاص هواجسه الداخلية وعالمه الشجيّ:

إذا استودعتْه صفْصفاً أو صريمةً ... تنَحَّتْ ونصّتْ جيدها بالمناظرِ
حِذاراً على وسْنانَ يصْرعُه الكرَى ... بكلِّ مَقِيلٍ عن ضعافٍ فواترِ
وتهْجُره إلاّ اختلاساً نهارها ... وكم من محبٍّ، رهبْةَ العيْنِ هاجِرِ
حذار المنايا، رهبةً أن يفُتْنَها ... به، وهيَ إلاّ ذاك أضعفُ ناصرِ[٢]

فالشاعر يصوّر في هذه الأيات، ظبية، وقد رمتْ بخشفها أو ابنها على الأرض، ووقفت بعيداً عنه، خشية أن تستهدي السباعُ إليه، وهو يصوّر التياعها من خلال تصوير نظراتها الحذرة، ومن خلال إقامة مشهد كثير الحركة، يوري في حدِّ ذاته حركة ذي الرّمة النفسية واضطرابها.

وفي هذا المعنى، يرى الدكتور شوقي ضيف، إن هذا الجانب من ديوان ذي الرّمة، يفيض بالحياة. «وهو من أهم الجوانب التي تفرق بين لوحات الشاعر

(١) الشكعة، د. مصطفى: رحلة الشعر: ص٢٣٠.
(٢) ديوان ذي الرمّة: ص٢٨٦.

ولوحت الرسام. فالرسام يصوِّر الظاهر أو يصوِّر الجسد، أمَّا الشاعر فيصور العواطف والحركات الوجدانية. ولذلك كانت لوحاته ناطقة، أو هي أكثر نطقاً، بما تصور من المشاعر والوجدانات المختلفة».

ويتابع ضيف قائلاً: «وهي وجدانات استمدّها ذو الرّمة من إحساسه العميق بالحيوان وحياته، ووجد فيها ما يعبر عن مشاعره هو ووجداناته. ولا نشك في أن المشاعر الإنسانيّة التي بثها الإسلام في نفسه كان لها أثر في هذا الجانب من جوانب لوحاته، إذ ملأه بالعطف على كل ما يجري من حوله واستمع إليه يقول:

أرى فيك من خرقاءَ يا ظبيةَ اللِّوى مُشابِهَ جُنِّبْتِ اعتلاقَ الحبائلِ[1]

وهذا الحنوّ يماثل حنوّه على «خرقاء»، محبوبته التي اصطادها رجل آخر، وقد تألم لذلك في غير قصيدة من قصائده. وربما كانت خرقاء، هي ميّة نفسها. ولا شك أنه كان للإسلام يد في نقاوة شعر الغزل عند ذي الرّمة من الإباحيات. إذ كثيراً ما تردّدت هذه المسحة الدينية عند الشاعر، في غير جانب من جوانب ديوانه، خصوصاً وهو القائل:

ولا زلتما في حيْرةٍ ما بقيتما وصاحبتما يومَ الحساب محمّدا[2]

فغزل ذي الرّمة إذن يصدر عن إيمان وبداوة وعشق، وهذه العناصر، هي التي أسهمت في نقاوة غزله وجعلته يتصف بطابع الصفاء والنقاء.

وهكذا، فقد برز ذو الرّمة كأحد أهم شعراء العشق النقيّ. وليس بسبب صدقه في العشق ولا بسبب صدقه في شعر العشق، ولكن بسبب انتمائه لعالم الصحراء النقي الذي وفرّ لشعره مادة نقية في حبه وفي وصفه لهذا الحب.

وقد بدت مية/ خرقاء كعروس من عرائس الصحراء، تميد ببدنها الشاسع وتنتشر بين عيني الشاعر، تسحب أذيالها على قلبه، فيسرح الحيوان والهوام ويعلو النبات ويجري الماء وتنهمر الأمطار، وتميس الجبال والرمال...

ولا غرو فذو الرّمة أشعر الناس في وصف الصحراء، وقد شهد له بذلك

---

(١) ضيف، د. شوقي. التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص٢٥٦.
(٢) ديوان ذي الرمّة: ص٩.

فحول شعراء زمانه كالفرزدق وجرير، وكان مع ذلك كثير التواضع. فحين قال له الوليد بن عبد الملك: «ويحك، أنت أشعر الناس! قال ذو الرّمة: لا، ولكن غلام من بني عقيل يقال له مزاحم يسكن الروضات، يقول وحشياً من الشعر لا نقتدر على أن نقول مثله»[١].

الغزل السياسي/مدرسة ابن قيس الرقيّات

يعتبر ابن قيس الرقيات رائد الغزل السياسي عند العرب، فهو الذي فتح للشعراء بابه فاتبعوه من بعده، يؤكد ذلك ما ذهب إليه الدكتور طه حسين حين قال إن هذا الغزل الهجائي الذي يكاد ابن قيس الرقيات يكون مبتدعه، هو لون فنّي جديد استحدثه الشعراء المسلمون[٢].

إنه عبيد الله بن قيس الرقيات (ت: ٨٥هـ/ ٧٠٤م). وقيل اسمه عبد الله. وهو ابن قيس بن شُريح بن مالك، من بني عامر بن لؤي. شاعر قريش في العصر الأمويّ. أمُّه قتيلة ابنة وهب بن عبد الله بن ربيعة من كنانة. ولقبه الرقيّات، كان له بسب تشبيبه بثلاث نسوة، يقال لكل منهم رُقية. أقام في المدينة ونزل الرّقة، وانقطع لآل الزبير في أول عهده فمدح مصعب بن الزبير وهجا عبد الملك بن مروان في قصيدة واحدة:

إنّما مصعبٌ شهابٌ من الله ... تجلَّتْ عن وجهه الظلماءُ

ملكه مُلْكُ قوةٍ ليس فيه ... جبروتٌ، ولا له كِبْرياءُ

يتَّقي الله في الأمور وقد أفـ ... ـلحَ من كان همُّهُ الاتّقاءُ

وقال ساخراً بعبد الملك:

قد رضينا، فمُتْ بدائك غيْظاً ... لا تُميتنَّ غيْرك الأدواءُ

إن مَنَّا النبيّ الأميُّ والصـ ... ـديقُ، منّا التقيُّ والخلفاءُ

وإن كان ابن قيس الرقيُّات قد عرف بلهوه وعبثه، فقد عرف أيضاً بجدُّه ونضاله. ولهذا فقد تنوعت حياته، وتنوّع حظه من الفن الشعري، فكان له في شعر الغزل، كما كان له في شعر المدح والهجاء.

---

(١) الأصفهاني: الأغاني: ترجمة ذي الرمّة: ١١٩/١٦ (ط. بولاق).

(٢) حسين، د. طه. حديث الأربعاء: ١/ ٣٥٥.

وأمَّا شعره في المدح والهجاء، كما ظهر لنا قبل قليل، فإنما يعكس لنا موقفه السياسيّ. وهذا الموقف السياسيّ وحده، هو الذي يبرر لنا حياة الرجل والشاعر، عند ابن قيس الرقيات. ذلك أن شعره في الغزل، كان يتصل اتصالاً وثيقاً بموقفه السياسيّ، فلم يستطع أن يهنأ بلهوه بعيداً عن الاشتغال بالسياسة كما جرى لمعظم شعراء الغزل واللهو في عصره، ولهذا بدا ابن قيس الرقيات منصفاً للعمل السياسي في جدُّه ولهوه معاً في آن.

يتأسس الفن الشعري عند ابن قيس الرقيات إذن، على العمل السياسيّ، غزلاً ومديحاً وهجاءً. وقلّما ذهب شاعر غيره هذا المذهب في شعره. وقد لمع الشاعر في الغزل لسببين اثنين:

١ ـ لأن شعره في الغزل طغى على سائر شعره. فهو أكثر صدقية من شعره في المديح والهجاء.

٢ ـ لأنه اتبع في شعر الغزل سبيلاً مزدوجاً فرام تحقيق هدف سياسيّ، حين كان يحاول تحقيق هدفه في اللهو والعبث مع النساء.

ولهذا عرف الشاعر بالغزل أكثر مما عرف بالمديح والهجاء.

فمن الواضح لنا، أن الشاعر، كان يصدر في كل شيء عن موقف سياسيّ. ذلك أن السياسة كانت قد خلبت عقله، فغرق فيها إلى رأسه. وقد أثر ذلك في شعره أيّما تأثير، مما جعل شعر الغزل وهو أبعد أنواع الشعر عن السياسة يقع تحت أثقالها.

ومما لا شك فيه، أنه كان من تقاليد الهجاء عند الشعراء العرب، التعرّض لنساء الخصوم والتغزل بهن. وقد سمّي هذا النوع من التشبيب بقذف المحصنات، وذكر ابن سلام في طبقاته[(١)]، أن كعب بن الأشرف اليهودي كان يكيد للرسول ﷺ فيشبب بنسائه ونساء المسلمين، وقد أمر الرسول ﷺ بقتله لذلك. ودفعاً لكيد الشعراء الكفّار تولى بعض شعراء الرسول الردّ عليهم على قاعدة السنّ بالسنّ والبادىء هو لأظلم، فعمدوا للتغزل بنسائهم والتشبب بهن أيضاً[(٢)].

---

(١) طبقات ابن سلا/ : ٢٨٢.

(٢) المبرد، الكامل في الأدب ٢٠٩/١.

وقد راج هذا النوع من الشعر، غير أنه لم يصل إلى المرتبة التي بلغها على يدي ابن قيس الرقيات. ذلك أن شاعرنا، وقد كان خصماً معانداً لبني أميّة في ظل دولة أبناء الزبير في الحجاز والعراق، اتخذ للتهجم عليهم قالب الغزل الذي أراد به النكاية في بني أميّة، وإغاظتهم وتجريحهم، مما جعل الدكتور طه حسين يسمي هذا النوع من الغزل بالغزل الهجائي[١]. وقد أطلق عليه غيره اسم «الغزل الكيدي» أو «الغزل السياسي»، وقالوا إنه غزل لا يصدر عن الشاعر تعبيراً عن عاطفة الحبّ، بل قصداً «إلى التشهير بأعراض الخصوم، وإغاظتهم وتحقيرهم بين الناس»[٢].

وبهذا الضرب من الغزل السياسيّ، اعتبر ابن قيس الرقيات، أحد الشعراء المجدّين في فن الشعر السياسيّ في العصر الأمويّ[٣]. ذلك أنه كان «صاحب لهو وسياسة» على حدّ تعبير طه حسين. وقد «اتخذ الغزل وسيلة إلى اللهو والسياسة. فكان يتغزّل حيناً ليلهو، أو ليصف عواطف نفسه حقاً. وكان يتغزّل حيناً آخر، لا للهو ولا لوصف حبٍ صادقٍ، بل ليعبث بخصومه السياسيين، إذ يذكر نساءهم بما يحسن وبما لا يحسن». ويتابع طه حسين قائلاً: «وقد رأينا العرجي يتغزّل بجيداء أم محمد بن هشام، وبـ «جبرة» زوج محمد بن هشام، ليغيظ محمد بن هشام هذا». ويعتبر طه حسين أن الشاعر العرجي، كان يسير بذلك، على سنة ابن قبس الرقيات في «الغزل الهجائي»، الذي بلغ به مبلغاً، لم يصل إليه أحد من شعراء العصر الأمويّ[٤].

ويظهر الشاعر ابن قيس الرقيات في الغزل السياسيّ أنه كان يخاصم الرجال دون النساء، وكان يتخذهنَّ وسيلة إلى حرْب الرجال، فيحرص حرصاً شديداً على ألاّ يؤذيهن أو يذيع بينهنَّ الفاحشة كذباً وزوراً. بل ربما مضى إلى أبعد من ذلك في غزله، حين كان يريد «أن يتملّق هؤلاء النساء، وأن يرضيهن عن نفسه، وأن يحبب

---

(١) حسين، د. طه: حديث الأربعاء: ١/٢٥١.

(٢) الهادي، د. صلاح الدين، اتجاهات الشعر في العصر الأموي: ص٢٢٢ (مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٦).

(٣) الهادي، د. صلاح الدين. المرجع نفسه: ص٢٢٢.

(٤) حسين، د. طه. حديث الأربعاء: ١/٢٥١.

إليهن هذا الغزل الهجائي الذي كان يسوء أزواجهن وأبناءهن وعصبتهم بوجه عام»[١].

وحقاً فقد تشبّب ابن قيس الرقيات بأم البنين زوج الوليد بن عبد الملك وبنت عبد العزيز بن مروان حيث ذكر في قصيدته أنها زارته في المنام، فقبلها، وخالطها، وأعجبته وأعجبها. ولا شك أن ابن قيس الرقيات، كان قد بلغ من هذا الغزل ما أراد. فقد ثارت ثائرة الأمويين، وغلتْ صدورهم بالغضب والحقد عليه، فتوعدوه، وأهدروا دمه، بعدما أظهر الاستخفاف بهم، ونال من هيبتهم، وتجاهل ولايتهم وسلطانهم. وقد قصد إلى ذلك قصداً في شعره حتى بدا وكأنه الغرض الوحيد الذي ذهب إليه. يقول ابن قيس الرقيات:

أصحوت عن أم البنيـ ... ـن وذِكْرها وعنائها
وهجرْتها هجر امرئٍ ... لم يقلْ صفْو صفائها
زادت على البيض الحِسا ... ن بحسنها ونقائها
لولا هوى أم البنيـ ... ـن وحاجتي للقائها
قد قرّبتْ لي بغلةٌ ... محبوسة لنجائها

فابن قيس الرقيات، لم يكن يريد أن يسوء أم البنين، ولا أن يؤذيها، ولا أن يعرّضها لمكروهٍ تسمعه أو تلقاه، بل كان يريد أن يتلطف لها ويتحبّب إليها، وأن ينزل شعره من نفسها منزلة الرضا والإعجاب.

ولا غرو فنساء العصر الأموي، وخصوصاً نساء الأشراف والأسرة المالكة، كنّ يحبْبنَ الغزل ويكلفن به ويطلبنه إلى الشعراء. ولهذا ترى ابن قيس الرقيات يطمع في مخاطبة أم البنين وإرضائها، رغم خصومته لأبيها وعمّها وزوجها وسائر أبناء البيت الأموي.

وتعتبر قصيدته في أم البنين من أهم قصائد ابن قيس الرقيات التي جعلها في الغزل السياسي. فقد ذكرها فيها ذكراً مفصلاً تفصيلاً، من شأنه أن يؤذي ويسيء، ولكنّه احتاط لنفسه ولأم البنين، فزعم أن هذه القصّة الطويلة المفصلة إنما وقعت له

---

(١) المرجع نفسه: ١/ ٢٥١.

في المنام. فكرامة أم البنين موفورة، وهي خليقة أن تأتيه بهذا الجمال الذي أحدث في نفس الشاعر ما أحدث، حتى ملك عليه يومه ونومه، وقد قرن غزله بها، بمدحه لمصعب بن الزبير، خصم زوجها وأبيها وعمها، وفيها يقول:

ألا هزأت بنا قرشـ ... يّةٌ يهتزّ موكبُها
رأت بي شيبةً في الرأ ... سِ ما غيبُها
فقالت ابنُ قيس ذا؟ ... وغيرُ الشيبِ يُعجبها
رأتني قد مضى مِنِّي ... وغضَّاتٌ صواحبُها
ومثلك قد لهوْتُ بها ... تمامُ الحسنِ أعْيبُها
لها بعلٌ غيور قا ... عدٌ بالباب يحجبُها
يراني هكذا أمشي ... ليوصدني ويضربُها
ظللتُ على نمارقها ... أفدّيها وأخْلُبُها
أحدِّثها فتؤمن لي ... فأصدُقُها وأكذِبُها
فدعْ هذا ولكن حا ... جة قد كنت أطلبها
إلى أم البنين متى ... يقرّبها مقرّبُها
أتتني في المنام فقُلـ ... تُ هذا حينَ أعْقِبُها
فلمّا أن فرحتِ بها ... ومالَ عليَّ أعْذَبُها
شربْتُ بريقها حتى ... نهلتُ وبتُّ أُشْرِبُها
وبتُّ ضجيعها جَذْلا ... ن تعجبني وأعْجبُها
وأضحكها وأبكيها ... وأُلبِسُها وأسْلُبها
أعالجها فتصرعني ... فأرضيها وأُغضِبُها
فكانتْ ليلةً في النَّو ... مِ نسْمرُها ونلعبها

ويمضي ابن قيس الرقيات بعد ذلك، في مدح مصعب بن الزبير في هذه القصيدة التي امتلأت بأعذب الألفاظ وأحلاها، تزينها خفة روح الشاعر الذي اتخذ الغزل وسيلة للهو، ووسيلة للجد معاً في آن.

ذلك أننا لا نكاد نتبيّن كما يقول طه حسين، أجاد هو في غزله أم لاعب؟ أمادحٌ هو صاحبته لأنه يحبها أم لأنه يكره أهلها؟ ويضيف الدكتور طه: أنت مضطر

إلى أن تنظر إلى هذا الغزل من حيث هو فن مجرّد من النفسية الصادقة للشاعر ومن عواطفه الحقيقية.

ويصف الدكتور طه غزل ابن قيس الرقيات فيقول إنه غزل قوي رقيق، خلاب شديد الحرارة، سهل التناول، سواء أكان الشاعر يتغزّل بأم البنين يهجو قومها، أم يتغزل بإحدى هؤلاء الرقيات اللائي كان يذكرهنّ، حتى غلب اسمهن عليه، أم يتغزل بأية امرأة أخرى، كان يحبّها أو يرى فيها جمالاً وروعة[١].

وبحسب طه حسين أيضاً، أن ابن قيس الرقيات لم يعرف الحبّ العذري، بل لم يعرف الحب العادي الذي يقصر حياة الرجل أو شطراً من حياته، على امرأة واحدة تلائم هواه، وإنّما كان يحبّ النساء جميعاً، يحبّهن حُبّاً قوياً يوشك أن يكون طاهراً، يحبّهن، لا ليلهو بهن، بل ليتخذ منهنّ مثله الأعلى في الجمال. ومن هنا نستطيع أن نقول: إنه كان صادق اللهجة في كل ما كان يقول من غزل، لأنه كان يحمل في نفسه صورة من جمال النساء، يخلعها على من أراد أن يذكرها في شعره لأي سبب.

ولا شك أن ابن قيس الرقيات كان يحبّ النساء. كما أراد أيضاً أن يحبه النساء. وبإيحاء شديد من هذه المعادلة، كان شعره فيهن يرقّ كثيراً ليس من أجل اللهو واللذة كما فعل عمر بن أبي ربيعة، وليس لميل بعيد عن اللهو واللذة والاستغراق في حبّ هائم، كما فعل جميل، وإنّما من أجل أن يجعل للغزل معنى، يختصر معاني الناس، ومعاناة الرجل مع النساء، ومكابدة شوقه لهنّ وشوقهن له، في إطار من الحبّ والإرادة والموقف والكبرياء.

لهذا سنجد كيف تتوحد صورة المرأة في غزله، فلا نجد فرقاً بين صورة أم البنين، التي خاطبها لغرض سياسيّ، وبين صورة رقية بنت عبد الواحد التي اشتهر بها، أو صورة كثيرة والثريا وسعدة وسلامة، اللائي ناداهن في شعره، فملأن عليه قلبه. لأن هؤلاء النساء جميعاً، هنّ نساء القلب والهوى والكيان، وهو يريدهن لأنهم كذلك، ويريد لهنّ أن يذهبن فيه هذا المذهب في الحب والهوى، فترضى نفسه وتقرّ عينه.

---

(١) حسين، د. طه. حديث الأربعاء: ١/ ٢٥٢.

عـــاد لـــه مـــن كـــثـــيـــرة الـــطـــرب فـعـيـنُـهُ بـالـدُّمـوع تـنـسـكـبُ
كـوفـيّـةٌ نـازحٌ مَـحَـلَّـتُـهـا لا أُمـمٌ دارُهـا ولا صـقـبُ
والـلـه مـا إن صـبـتْ إلـيّ ولا إن كـان بـيـنـي وبـيـنـهـا سـبـبُ
إلاَّ الـذي أورثـتْ كـثـيـرةُ فـي الـ قـلـبِ ولـلـحـبِّ سـوْرة عـجـبُ
لا بـارك الله فـي الـغـوانـي فـمـا يـصـبـحْـنَ إلاَّ لـهُـنَّ مُـطَّـلَـبُ
أبـصـرْن شـيـبـاً عَـلاَ الـذُّؤابـة فـي الـ رَّأسِ حـديـثـاً كـأنّـه الـعَـطَـبُ
فـهُـنَّ يُـنْـكـرن مـا رأيـن ولا يُـعـرفُ لـي فـي لـدَاتـي الـلَّـعـبُ

ويبدو أن ابن قيس الرقيات، كان حظه من النساء أعظم بكثير من السياسة ورجالها ودولها. فما دالت دولته مع النساء، إذ كان لديهن محبوباً مرغوباً، يكرم في وفادته عليهن، من غير أن يدري من هنّ في معظم الأحيان. فبعد مقتل مصعب بن الزبير، آوته امرأة أنصارية من الكوفة سنة كاملة. وكانت تغدو عليه كلّ يوم فتحييه وتسأله حاجته ولا تسأله عن اسمه، رغم علمها بطلب الأمويين له، وحين عزم على الرحيل قدمت له راحلتين وزاداً ووهبته عبداً. ثم علم بعد حين أنها كثير وأنها خزرجية.

وحين مضى إلى المدينة، استجار بعبد الله بن جعفر، فأجاره وأحسن مثواه، وكتب فيه إلى أم البنين وإلى عبد العزيز بن مروان أبيها، فشفعت فيه عند عبد الملك وضمنت له الأمان. وعندما أبى عليه عبد الملك أن يأخذه عطاءه من بيت المال بعدما مدحه بقصيدة من عيون شعره، أوعزت إليه أن يتصل بأبيها في مصر عبد العزيز بن مروان، فمدحه وذكر بابليون وحُلوان والنيل وسفائنه، كما مدح عبد الله بن جعفر مدحاً جيداً.

لقد عرف ابن قيس ارقيات الاتصال بثلاثة أحزاب: حزب الزبيريين وحزب الأمويين وحزب الهاشميين، متنقلاً من دولة إلى أخرى ومن ودّ سياسيّ إلى آخر. غير أن ودّه للنساء ظلّ على حاله، يحبهنّ لأنهن نساء فقط، ويود أن يحببنه. وقد فعلن ذلك، فما عُرف أنَّ امرأة ممَّن عرف ابن قيس كرهته، كما لم يعرف أنه كره امرأة ممن عرف، حتى ولو كانت من نساء خصومه. فكما أحسن المدح وأجاده رغم انتقال الولاء السياسيّ بانتقال الدول، كذلك أحسن الغزل وأجاده، دون أن يكون متلوناً ولا فاسد القلب والحب والضمير.

الفصل الثاني عشر

شعر اللهو والخمر

بُنيت الكوفة والبصرة بعد تمام فتح العراق سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م تقريباً في خلافة عمر بن الخطَّاب كبديل عن المدائن والحيرة لئلاَّ تفوق العجمُ العرب قدرةً وتأثيراً، وجعل مقامات للأعراب المفتتحين في أطراف البادية متوسطة بين البدو والحضر، فزاد عدد من استوطن الكوفة سريعاً لا سيّما عندما نقل عليّ بن أبي طالب دار الخلافة إليها سنة ٣٦/ ٦٥٧، بل صارت للآداب العربية سوقاً حفيلاً بالشعر ولاتها منعمون على الشعراء الصِّلات الجزيلة محبون للأنس والاجتماع والسمر مثل بشر بن مروان الذي يروى فيه أنَّ أيمن بن خريم الشاعر لما أتاه «نظر الناس يدخلون عليه أفواجاً فقال من يؤذن لنا الأمير أو يستأذن لنا عليه؟ فقيل له ليس على الأمير حجاب ولا ستر فدخل وهو يقول[1]:

يُـــرى بــــارزاً بـــشـــرٌ كـــأنَّـــه ... إذا لاح فـــي أثـــوابـــه قـــمـــرٌ بـــدرُ

ولـــو شـــاء أغـــلـــق الـــبـــاب دونـــه ... طـــمـــاطـــم سُـــودٌ أو صـــقـــالـــبـــةٌ شُـــقْـــرُ

أبـــى ذا ولـــكـــن ســـهَّـــل الإذن لـــلـــتـــي ... يـــكـــون لـــه فـــي غِـــبِّـــهـــا الـــحـــمـــدُ والـــشُّـــكْـــرُ

فضحك إليه بشر وقال: إنَّا قوم نحجب الحرم وأما الأموال والطعام فلا».

فصارت البصرة والكوفة مقصد ناس من كلّ شيعة وحزب ومذهب، فنزل فيها بدون عائق ومانع من صعب عليه قدومُ الشام. فكثير من الشعراء المذكورين وفدوا الكوفة مراراً أو أقاموا بها على اختلاف مذاهبهم ومنهم الأخطل والفرزدق وجرير وذو الرُّمة

---

(١) انظر كتاب الأغاني: ٢١/ ١٢.

والراعي وعبد الله بن الزَّبير وأعشى بني ربيعة من مُدّاح الخلفاء والأمراء الأمويين وكثير والكُميت من أهل الشيعة والطِّرماح من الخوارج وهلمّ جرًّا. فإذًا لا غرو أن تكون للكوفيين منزلة خاصة في تاريخ الشعر العربيّ في أيَّام بني أميّة.

أُسِّست مدينة الكوفة على مسافة قليلة أي ستَّة كيلومترات تقريباً من الحيرة. ومعظم سكَّانها نصارى معروفون بالعباد اشتهروا عند عرب البادية في الجاهلية لبيع الخمر ونبغت فيها الشعراء من أهل الحضر ووفدت إليها أيضاً شعراء أهل الوبر من بلاد نجد واليمامة والبحرين لما كانوا يجدون فيها من رواج الشعر وحسن القبول عند ملوك بني لخم ومن سعة الأرزاق ورغد العيش وكثرة الحوانيت والخمَّارات التي كانوا يبيتون فيها معاقرين للشراب مستمعين لأغاني القينات. فخمريات أهل الحيرة أو من نزل فيها من الفحول مثل عديّ بن زيد والأعشى وطرفة والنابغة الذبيانيّ أشهر من أن تحتاج إلى الإطناب في الكلام عليها.

إن حب شعراء العرب قوي وقديم لاحتذاء مثال المتقدّمين والاقتداء بأساليبهم وأخذ معانيهم فنحن نجد حتَّى الآن شعراء يبكون على أطلال قوم المعشوقة ويشكون مشاق قطع الفيافي التي لم يروها أبداً ولا من بعيد. كذلك ليس من المحال أنّ بعض الشعراء ذهبوا إلى وصف الخمر وذكر لذاتها بدون أن يذوقوا منها قطرة كأنَّ غرضهم تقليد أشعار فحول الجاهلية لا التعبير عما في قلوبهم.

وكأن خمّارو الحيرة مشهورين إلى نحو أواخر القرن الثاني أو بعدها بقليل كما يُستنتج ممَّا رَواه صاحب كتاب الأغاني في ترجمة بكر بن خارجة شاعر من أهل الكوفة مُغرم بشرب الخمر. قال[1]: «حرَّم بعضُ الأمراء بالكوفة بيع الخمر على خماري الحيرة. وركب فكسر نبيذهم. فجاء بكر يشرب عندهم على عادته فرأى الخمر مصبوبة في الرحاب والطرق فبكى طويلاً وقال:

يا لقومي لما جنى السُّلطانُ	لا يكونَنْ لما أهان الهوانُ
قهوة في التراب من حلب الكرْ	م عُقاراً كأنَّه الزعفرانُ
قهوة في مكان سوء لقد صا	دف سعدَ السعود ذاك المكانُ

(١) كتاب الأغاني ج٢٠ ص٨٧. العقار: الخمر.

مِن كُميتٍ بدا المزاجُ لها لؤ لؤُ نظْمٍ والفضلُ منها جُمانُ

. . . كيف صبري عن بعض نفسي وهل يصـ بر عن بعض نفسه الإنسانُ

والشواهد على انتشار شرب الخمر في العراق في القرن الأول غير نادرة، منها ما يروى في كتاب سيرة النبيّ ﷺ لابن هشام أن النّعمان بن عديّ[1] بعد ما استعمله عمر بن الخطّاب على ميسان وهي موضع من أرض البصرة قال:

ألا هل أتَى الحسْناءَ أنَّ حَلِيلَها بمَيْسانَ يُسْقَى في زجاج وحنْتَمِ

إذا شيتُ غَنَّتْني دَهاقينُ قَرْيَة ورَقّاصةٌ تجدوا على كل مَنْسَم

فإن كنتَ نَدْماني فبالأكْبَرِ اسْقِني ولا تسْقِني بالأصغر المُتثَلَّم

لعلَّ أميرَ المؤمنين يسُوءُه تَنادُمُنا في الجَوْسَقِ المُتَهَدِّم

وكان من الشعراء المقيمين بالكوفة والبصرة حارثة بن بدر الغُدانيّ[2] من فُرْسان بني تميم ووجوههم حسب صاحب الأغاني على وجه التخمين أنّه قد أدرك النبي في صباه وحداثته وكان له حظّ عظيم عند زياد بن أبي سفيان الذي لم يزل طول عمره مُكرِماً له «قابلاً لرأيه محتملاً لما يعلَمه من تناوُله الشراب»[3] وكذلك أكرمه عبيد الله بن زياد وإلى الكوفة من سنة ٦٠/ ٦٨٠ إلى سنة ٦٦/ ٦٨٦ حتى استعمل مدّة على نيسابور. وأكثر أشعاره من الخمريّات منها[4].

أَذْهَبَ عَنِّي الغَمَّ والهَمَّ والذي به تَطْرُقُ الأَحداثُ شُرْبُ المُرَوَّقِ

فواللهِ ما أَنْفَكُّ بالراح مهتَزا ولو لامَ فيها كل حُرٍ موفَّق

فما لائمي فيها وإن كان ناصحاً بأعْلم مني بالرحيق المعتَّقِ

ولكنَّ قلبي مُستهامٌ بحبِّها وحُبِّ القيان رأيَ كلِّ محمَّقِ

أُحبُّ التي لا أملكُ الدَّهْرَ بُغْضَها وذلك فِعْلٌ مُعْجِبٌ كلَّ أخْرَقِ

سأَشْرَبُها صِرْفاً وأسقي صحابتي وأطلبُ غِرَّاتِ الغزال المنطَّقِ

فأجابه أنس بن زُنيم الليثي وعظاً، فقال[5]:

---

(١) سيرة الرسول ص٧٨٦ من طبعة غوتنجن ١٨٥٨ ـ ١٩٥٩.
(٢) الأغاني: ٢١/ ٢٠ ـ ٤٤.
(٣) الأغاني: ٢١/ ٢١.
(٤) الأغاني: ٢١/ ٤١.
(٥) الأغاني: ٢١/ ٣٣.

أحـارِ بـن بـدرٍ بـاكـرِ الـراحَ إنّـهـا ... تُـنسّيك ما قـدَّمْتَ في سالفِ الـدَّر
تُـنسـيـك أسـبـابـاً عـظـامـاً ركـبـتـهـا ... وأنـت عـلى عـمـيـاء في سنن تـجـري
فدع عنك شرب الخمر وارجع إلى التي ... بـهـا يـرتـضـى أهـل الـنَّـبـاهـةِ والـذِّكـرِ
عـلـيـك نـبـيـذُ الـتَّـمْـرِ إن كـنـت شـاربـاً ... فـإنَّ نـبـيـذ الـتـمـر خـيـرٌ مـن الـخـمْـر
ألا إنَّ شرْبَ الخمر يُزْري بذي الحِجَى ... ويـذهـب بـالـمـال الـتـلاد وبـالـوفْـر
فـصـبـراً عـن الـصـهـبـاء واعـلـم بـأنّـني ... نـصـيـح وأنّـى قـد كـبـرتُ عـلى الـزَّجـرِ

ولكن لم تنفعه المواعظ والنصائح.

ومن الشعراء الكوفيين الذين كانوا في أواخر القرن الأول وأوائل الثاني عمار بن عمرو الملقَّب بذي كناز(١) ذكره صاحب الأغاني فقال: «كان ليّن الشعر ماجناً خميراً معاقراً للشراب وقد حُدَّ فيه مرات وكان يقول شعراً ظريفاً يُضحك من أكثره شديد التهافت جمَّ السُّخف... وكان هو وحماد الراوية ومُطيع بن إياس يتنادمون ويجتمعون على شأنهم لا يفترقون وكلّهم كان متَّهماً بالزندقة. وعمّار ممّن نشأ في دولة بني أمية ولم أسمع له بخبر في الدولة العبّاسية». ومن الجدير بالذكر أنَّ شعر عمّار ذي كناز أو ما وصل إلينا منه كلّه منسوج في الأعاريض القصيرة دائر على المزاح والخمر والغزل ومثاله(٢):

شَـجَـا قـلـبـي غـزالٌ ذو ... دلال واضـح الـسُّـنَّـة
أسـيـلُ الـخـد مـربـوب ... وفـي مـنـطِـقـه غُـنَّـه
ألا إنَّ الـغـوانـي قـد ... بـرى جـسـمـي هـوَاهـنَّـه
وقـالـوا شـفَّـك الـحـورُ ... هـوًى قـلـت لـهـم إنَّـهْ
ولـكـنـي عـلـى ذاك ... مـعـنّـى بـأذاكُـنَّـهْ
أراح الله عـمّـاراً ... مـن الـدنـيـا ومـنـهُـنَّـه
بـعـيـدات قـريـبـات ... فـلا كـان ولا كـنَّـه
فـقـد أذهـل مـنـى الـعـقـ ... لَ والـقـلـبَ شـجـاهُـنَّـه
يـمـنـيـن الأبـاطـيـلَ ... ويـجـحـذن الـذي قُـلْـنَـهْ

---

(١) الأغاني: ٢٠/١٧٤ ـ ١٨٠.
(٢) الأغاني: ٢٠/١٧٩.

ومن هؤلاء الشعراء حُنين بلّوغ الحيرىّ[١] «كان شاعراً مغنياً فحلاً من فحول المغّنين وله صنعة فاضلة متقدّمة وكان يسكن الحيرة ويُكري الجِمال إلى الشام وغيرها وكان نصرانياً. وهو القائل يصف الحيرة ومنزله بها:

أنا حُنيْنٌ ومنزلي النَّجفُ ... وما نديمي إلاّ الفتى القصفُ
أقرعُ بالكأس ثغر باطيةٍ ... مُترعةٍ تاراً وأغترفُ
من قهوة باكر التِّجار بها ... بيت يهودِ قرارها الخزفُ
والعيش غض ومنزلي خصِبٌ ... لم تغذني شقوةٌ ولا عنفُ»[٢]

وكان من معاصري هشام بن عبد الملك وبشر بن مروان وخالد القسْريّ. وفي ترجمته في كتاب الأغاني تجدون عدّة أخبار دالّة على رغد العيش والرفاهية بمدينتي الحيرة والكوفة بعد منتصف القرن الأوّل الهجري.

ومن الشعراء الكوفيين الذين غلب في أشعارهم ذكر الشراب واللهو والمجون، الأُقيْشِر الأسديّ[٣] الذي ابتدأ يقول الشعر في أيام الخفاء الراشدين. ومات في حدود الثمانين تقريباً[٤] وهو الذي يقول لنفسه[٥]:

فإنَّ أبا معْرض إذْ حَسَا ... من الراح كأساً على المنبر
خطيبٌ لبيبٌ أبو مُعرضٍ ... فإنْ لِيمَ في الخمر لم يصبر
أحلَّ الحرام أبو مُعرض ... فصار خليعاً على المكبر
يُجلُّ اللِّئام ويلحى الكِرامْ ... وإنْ أقصروا عنه لم يُقصر

فقيل إنَّه كان لا يسأل أحداً أكثر من خمسة دراهم يجعل درهمين في كِراء بغل إلى الحيرة ودرهمين للشراب ودرهما للطعام[٦]، وحكاياته مع أهل الشُّرطة معروفة[٧]. وإليه ينسب ابن قُتيبة هذه الأبيات[٨]:

---

(١) الأغاني: ٢/ ١٢٠ ـ ١٢٧.
(٢) الأغاني: ٢/ ١٢٠.
(٣) خزانة الأدب: ٢/ ٢٨٢ مدح بشر بن مروان وهو والي الكوفة من سنة ٧١/ ٦٩٠ إلى ٧٤/ ٦٩٤
(٤) الأغاني: ١٠/ ٩٤.
(٥) كتبا الأغاني: ١٠ ص٨٥.
(٦) الأغاني: ١٠/ ٨٩.
(٧) الأغاني: ١٠/ ٩٠ و٩١ و٩٢.
(٨) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ص٣٥٤ والأغاني: ١٦/ ٤٥.

وصهباء جُرجانيَّةٍ لم يطُفْ بها ... حنيفٌ ولم تنغرْ بها ساعةً قِدرُ
ولم يشهد القسُّ المهينم نارها ... طروقاً ولا صلَّى على طبخها حبْرُ
أتاني بها يحيى وقد نمتُ نومةً ... وقد غابت الشِّعرَى وقد خفق النَّسْرُ
فقُلْتُ اصطحبها أو لغيري فأهدها ... فما أنا بعد الشَّيبِ ويْحك والخمْرُ
إذا المرْءُ وفَّى الأربعين ولم يكنْ ... له دون ما يأتي حياءُ ولا ستر
فدْعهُ ولا تنفسْ عليه الذي أتى ... وإنْ جرَّ أرْسان الحياةِ له الدَّهْرُ

أما صاحب كتاب الأغاني[1] فينسبها إلى شاعر كوفيّ آخر وهوأيمن بن خريم الأسدي[2] من الشعراء المتغزلين والمادحين لعبد العزيز وبشر ابني مروان.

ومنهم مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري[3]. كانت آباؤه من سادة غطفان لكنه حضريّ مقيم بالكوفة. فتزوج الحجّاج بن يوسف أخته هنداً. ولمالك أشعار في الخمر تُشبه خمريات شعراء بغداد في عهد بني العباس منها[4]:

حبَّذا ليْلتي بتلّ بُونَّا ... إذ نسقَّى شرابنا ونُغنَّى
من شراب كأنَّه دمُ جوفٍ ... يترُك الشيخَ والفتى مُرجحنَّا
حيث دارت بنا الزُّجاجة دُرْنا ... يحسب الجاهلون أنّا جُنِنَّا
ومررنا بنسوةٍ عطراتٍ ... وسماعٍ وقرْقَفٍ فنزلنا

وله أشعار ظريفة أيضاً من نوع الغزل. وروى البُحتُري[5] له أبياتٍ في ذهاب الشَّباب وابتداء الشيْب.

وهناك إسماعيل بن عمّار بن عُيَيْنة[6] الذي أدرك أوائلْ الدولة العباسيّة وقال الشعر في الرثاء والهجاء والمديح والغزل والفكاهات والخمر وله وصف طويل لقيان ابن رامين بالكوفة.

---

(١) الأغاني: ١٦/ ٤٥.
(٢) الأغاني: ٢١/ ٧ ـ ١٣.
(٣) الأغاني: ١٦/ ٤١ ـ ٤٧.
(٤) كتاب الأغاني: ١٦/ ٤٠.
(٥) حماسة البحتري ص٢٨٧ ـ ٢٨٨.
(٦) الأغاني: ١٠/ ١٣٥ ـ ١٤٢.

وهناك أيضاً الحكم بن عبدل الأسديّ الأعرج[١] منزله ومنشؤه بالكوفة إلا أنّه انتقل إلى الشام لمّا بويع لعبد الله بن الزبير بالعراق سنة ٦٤/ ٦٨٤ فكان من الداخلين إلى عبد الملك بن مروان (٦٥/ ٦٨٥، ٨٦/ ٧٠٥) السامرين عنده. ثمّ رجع إلى الكوفة وصار منقطعاً إلى بشر بن مروان. فلمّا مات بشر جزع عليه ورثاه. وكان شاعراً مُجيداً خبيث اللسان مُدمناً للخمر كالشعراء المتقدّم ذكرهم. وشعره كله في الهجاء والمجون والمديح. وكان له الشعر مكسباً كما كان لسائر شعراء طبقته فقال[٢]:

أطلُبُ ما يطلُب الكريم من الـ — رِّزْق لنفسي وأُجملُ الطَّلَبا
وأحلُبُ الثَّرَّةَ الصَّفيَّ ولا — أجهدُ أخلاف غيرها حَلَبا
إني رأيتُ الفتى الكريم إذا — رغَّبْتَهُ في صنيعةٍ رغبا
والعبدُ لا يطلب العلاء ولا — يُعطيك شيئاً إلا إذا رهبا
مثلُ الحمار المُوقَّعِ السوْء لا — يُحسنُ مشياً إلا إذا ضُربا

وابن عبدل هو الذي يقول عن نفسه أيضاً:

لأُكْرِمَ نفسي أنْ أُرى متخشعاً — لذي مِنَّةٍ يُعْطي القليلَ على النَّحضِ
ولستُ بذي وجهين فيمن عرفته — ولا البُخْلُ فاعْلمْ من سمائي ولا أرضي

ولا شك أن كلَّ من سبق من هؤلاء الشعراء الكوفيّين يليق به أن يوصف بهذا القول: «شاعر خليع ماجن منهمك في شرب الخمر يدخل في عداد شعرائها».

وهناك شاعر عربي مطبوع آخر لا أعرف أهو كوفي الأصل أيضاً أم لا وهو أبو الهندي[٣] الذي مات بسجستان في أوائل الدولة العباسية. قال فيه صاحب كتاب الأغاني[٤] «كان جزل الشعر حسن الألفاظ لطيف المعاني وإنما أخمله وأمات ذكره، بعده من بلاد العرب ومقامه بسجستان وبخراسان، وشغفه بالشراب ومعاقرته إياه،

---

(١) الأغاني: ٢/١٤٩ ـ ١٥٩.
(٢) حماسة أبي تمام: ٥٣٥.
(٣) الأغاني: ٢١/٢٧٧ ـ ٢٨٠.
(٤) الأغاني: ٢١/٢٧٧.

وفسقه وما كان يتهم به من فساد الدين. واستفرغ شعره بصفة الخمر». ومن قوله[١]:

إذا مـا أَلـحَّ الـبَـرْدُ فـاجْـعَـلْ دِثـارهُ ... إذا، الـتَـحَـفَ الأَقـوامُ دُكْـنَ الـمـطـارفِ

ثـلاثـةَ أَرطـالٍ نـبـيـذاً مُـعَـسَّـلاً ... تَـكُـنْ آمِـنـاً مـنـه لـه غـيـرَ خـائـفِ

فـإنَّ الـتـحـاف الـمـرءِ فـي جـوف بـطـنِـه ... أشـدُّ وأَدْفـا مـن جـيـادِ الـمَـلاحِـفِ

وهو أيضاً القائل[٢]:

اجْـعَـلـوا إن مُـتُّ يـومـاً كَـفَـنِـي ... وَرَقَ الـكَـرْم وقـبـري مَـعْـصَـرَهْ

إنَّـنـي أرجـو مـن الله غـداً ... بـعـدَ شُـرْب الـراح حُـسْـنَ الـمـغـفـرَهْ

أما في بلاد الشام فكان يزيد بن معاوية شاعراً[٣] مولعاً بالمنادمة على الشراب ومصاحبة الشعراء. فصِلتُهُ بالأخطل شهيرة. ومن الشمهور أيضاً عظم قدر الشعر عند سائر الخلفاء الأمويّين وجليل خطبه في قلوبهم لا سيّما عبد الملك بن مروان ويزيد بن عبد الملك والوليد بن زيد. فبالجملة كان الشعر لهم غريزةً كما كان من سليقة أغلب العرب الصميم.

ولنتأمل ما وقع من الفرق بين أحوال العرب في العراق وأحوالهم في الشام قبيل ظهور الإسلام. فالمسلمون حين احتلالهم العرق وجدوا في المنطقة الجنوبيّة حضريين من العرب وهم من سكّان مملكة الحيرة قد تركوا البداوة منذ الزمان الطويل واتّخذوا جزءاً من الحضارة الفارسية. فرأينا أنَّ الخمريات التي اشتهر بها شعراء الكوفة والبصرة في أيام بني أمية إنّما كانت من جنس الخمريّات المتداولة عند شعراء الحيرة أو الوافدين إليها في عهد الجاهليّة، كأنّها بأسرها مذهب شعريّ واحد متواتر لم يزل في تلك البلاد من قديم الزمان إلى أيام الدولة العبّاسيَّة. ولا شك أنَّ وجود أولئك العرب الحضريين في العراق سهّل وعجّل اختلاط المسلمين بمن جاورهم من العجم هناك. أمّا في الشام فالأمر خلاف ذلك. كان اللخيمّون في

(١) الشعر لابن قتيبة: ٤٣٠.
(٢) الأغاني: ٢١/٢٧٩.
(٣) تروى له أبيات في كتاب الأغاني ج١ ص١٠٤ وج٢ ص١٣٦ وج٧ ص ١٧٨ وج١٣ ص٦٤ و١٥٤ وج١٤ ص٦٣ و١١٩ وج١٦ ص ٣٣و ٨٨.
وراجع أيضاً: LAMMENS. Le Califat de Yazid ley Beyrouth 1921 p 453 P. SCHWARZ.

العراق في القرن السابق للهجرة من أهل الحضر أمَّا بنو غسّان بالشام فلم يزالوا متوسطين فيما بين البداوة والحضارة فكان رؤساء قبائلهم يقيمون تارةً بمساكن ثابتة بالبناء والمدر وتارة بنوع من المعسكرات والمضارب كانوا ينقولنها من مكان إلى مكان لدفع غارات قبائل الأعراب المستقلَّة عن حدود مملكة الروم. وقد أصبحت محلاَّتهم مثل جِلق والجابية تقرن بين صفات المعسكر المتنقل والقرية الثابتة تجمع بين أحوال البادية وخواصّ الحضارة. وكانت نتيجة ذلك أنَّ الجيوش الإسلامية لمّا فتحوا بلاد الشام لم يجدوا في مدنها وقراها سكاناً من العرب خلافاً لما اتَّفق لهم في العراق. فأعدمهم من يكون واسطة بينهم وبين الأهالي. ولكون أغلب المسلمين الفاتحين من أهل البادية الذين يكرهون القرار في الأمصار فقد تمادى بالشام البون الكبير بين العرب وبين سكان المدن وهم سريان وروم. فما ابتدأ اختلاط عام بينهم بالمعاشر والمصاهرة إلاَّ نحو أواخر القرن الأول. فبتأخر الإختلاط تأخر انتقال معظم المتغلبين من حال بداوتهم إلى حال الحضارة وتأخَّر أيضاً عندهم نبوغ الشعر من النوع المألوف للحضر وهو شعر اللهو والخمر.

وكان لبقاء الشعر في الشام على منوال قصائد النوابغ من عهد الجاهلية سببان آخران: ١ ـ ميل الخلفاء الأولين من بني أمية إلى ذلك النوع من الشعر ٢ ـ شدّة سُلطة معاوية في بلاد الشام. يروى أنَّ معاوية قال مرَّة لعبد الرحمن بن الحكم: «يا ابن أخي إنك شُهرتَ فإياك والتشبيب بالنساء فإنَّك تُعرّ الشريفة في قومها والعفيفة في نفسها، والهجاء فإنك لا تعدو أن تُعادي كريماً أو تستشير به لئيماً ولكن افخر ببيت قومك وقلْ من الأمثال ما توقر به نفسك وتؤدب به غيرك»[1]. فلا شكَّ أنَّ هذا القول ولو لم تصحّ راويته على هذه الصفة هو ترجمان فكر معاوية في الشعر كما يظهر من غيره من الأخبار.

وقد حرّم معاوية بالشام شرب الخمر وصناعة الغناء على جواز هذه الصناعة بالحجاز فيروى على صفة استثناء أنَّ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قدم عليه بالشام فأنزله معاوية في دار عياله ولم ير به بأساً أن يغني ليلة في تلك الدار[2].

---

(١) ابن عبد ربه: العقد: ٣/ ٨٧.

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه: ٣/ ١٨٢ ـ ١٨٣.

ونفذ ذلك التحريم بالشام مدّة القرن الأول على غرام بعض الخلفاء بسماع الألحان. ويروى في موضع من كتاب الأغاني[1] أنَّ يزيد بن معاوية كان «أوّل من سنَّ الملاهي في الإسلام من الخلفاء وآوى المغنين وأظهر الفتك وشرب الخمر. . . . وكان يأتيه من المغنين سائب خاثر فيقيم عنده فيخلع عليه ويصله».

وفي الأخبار عن يزيد والمغنين أنَّه كان يلقاهم عادةً بالحجاز ولم يقبلهم بدمشق إلاَّ سرّاً بمساعدة أصدقائه المدنيين لا سيّما عبد الله بن جعفر. وسائب خاثر المذكور فيما تقدّم إنّما كان من ساكني المدينة. أمَّا أول الأمويين الذي أدخل المغنين في الشام فالوليد بن يزيد (١٠١/ ٧٢٠) (١٠٥/ ٧٢٤) وقد أراد أوّلاً أن يدخلهم خفية مراعاة لخواطر أهل تلك البلاد كما يلوح من رواية كتاب الأغاني[2]: «إنَّ الوليد بن زيد لمّا ولي الخلافة بعث إلى المغنين بالمدينة ومكَّة فأشخصهم إليه وأمرهم أن يتفرقوا ولا يدخلوا نهاراً لئلا يُعرفوا وكان إذ ذاك يتستَّر في أمره ولا يُظهره فسبقهم ابن عائشة فدخل نهاراً وشُهر أمرهُ فحبسه الوليد وأمر به فقُيِّد وأذن للمغنين وفيهم معبد فدخلوا عليه دخلاتٍ ثمّ إنَّه جمعهم ليلةً فغنوا له حتَّى طرب وطابت نفسه».

فالغناء والموسيقى والألحان إنما له من التأثير في تقلّب أفانين الشعر. والمحتمل أنَّه لولا منع الغناء المُتقن والسماع إلى أواخر القرن الأوّل في بلاد الشام لما تأخر نبوغ الغزل والخمريات عن وقت نبوغهما بالعراق والحجاز بمدّة طويلة.

ولهذه الأسباب قلَّ بالشام الشعراء من الحضر إلى أواخر القرن الأوّل. فشعرهم على ما أدخلت فيه العيشة المدنية من رقّة العواطف ولينة الألفاظ وعذوبة الكلام لم يزل متوسطاً بين الشعر الجاهلي وبين الغزل الغالب عند شعراء مدن الحجاز والعراق. أمّا الخمريّات فامتنعوا عنها في القرن الأوّل وما ذكروا الخمر إلاَّ لمجرّد وصفها أو للتشبيه بها مثل قول عديّ بن الرّقاع[3]:

أميدُ كأنّي شاربٌ لعبتْ به ... عُقارٌ ثوتْ في سجنها حججاً سبعا
مقدِّيَّةٌ صهباءُ تُشخنُ شربَها ... إذا ما أرادوا أن يراحوا بها صرعى

---

(١) الأغاني: ١٦/ ٧٠.
(٢) الأغاني: ٤/ ٨١ ـ ٨٢.
(٣) معجم البلدان لياقوت: ٤/ ٥٨٩.

عـصـارةُ كـرم مـن حُـديـجـاء لـم يـكـن ... مـنـابـتـهـا مُـسـتـحـدثـات ولا قُـرعـا

أو مثل قوله[١]:

كُـمـيـتٌ إذا شُـجَّـتْ وفـي الـكـأس وردةٌ ... لـهـا فـي عـظـام الـشـاربـيـن دبـيـبُ

تـريـك الـقـذى مـن دونـهـا وهـي دونـه ... لـوجـد أخـيـهـا فـي الإنـاء قُـطـوبُ

فيروى أنَّ سليمان بن عبد الملك (٩٦/ ٧١٥ ـ ٩٩/ ٧١٧) لما سمع هذين البيتين قال لعديّ بن الرقاع: شربتها وربّ الكعبة. قال عديّ: والله يا أمير المؤمنين لئن رابك وصفي لها قد رابني معرفتك بها. فتضاحكا وأخذا في الحديث.

فهذه الحكاية تدلّ على ندرة شرب الخمر عند أهل الحضر بالشام وإمساك شعرائهم عن الخمريّات أثناء القرن الأوّل خلافاً لحضر العراق. وما هو مشهور من انهماك الأخطل في الشراب وأشعاره فيه لا يدحض رأينا إذ كان الأخطل بدوياً عراقياً نصرانياً.

كان عديّ بن الرقاع[٢] السابق ذكره من أقدام شعراء الحضر بالشام مدّاحاً لبني أميّة كثير الحظّ عندهم، لا سيّما الوليد بن عبد الملك (٨٦/ ٧٠٥ ـ ٩٦/ ٧١٥) ومنزله بدمشق، وهو من المُجيدين في المديح والنسيب الرقيق اللطيف.

وزعيم هذا المذهب الجديد في الشعر في بلاد الشام، هو الوليد بن يزيد[٣] الذي وصفه صاحب الأغاني قائلا[٤]: وكان من فتيان بني أميّة وظرفائهم وشعرائهم وأجوادهم وأشدائهم وكان فاسقاً خليعاً متَّهماً في دينه مرمياً بالزندقة وشاع ذلك من أمره وظهر حتّى أنكره الناس فقُتل وله أشعار كثيرة تدلّ على خبثه وكفره ومن الناس من ينفي ذلك عنه وينكره ويقول إنّه نحله وألصق إليه والأغلب الأشهر غير ذلك». وقال بعض الرواة إنَّ الذي أضلّه مودّبه عبد الصمد بن عبد الأعلى وهو كان فيما يقال زنديقاً فحمل الوليد على الشراب والاستخفاف بدينه[٥]. فلو جمعنا ما يُعزى إلى الوليد من الأشعار وما يُروى في حقّه من الأخبار وما يُنسب إليه من الكلام

---

(١) العقد لابن عبد ربه: ٢/١١٨.
(٢) الأغاني: ٨/ ١٧٩ ـ ١٨٤.
(٣) الأغاني: ٦/١٠١ ـ ١٤١ وج٨ ص١٦١ ـ ١٦٢.
(٤) الأغاني: ٦/١٠١.
(٥) الأغاني: ٢/٧٨.

الكثير الوقاحة والدَّناءة لاستغربناه كلّ الاستغراب وتعجبنا منه بتقليده منصب الإمامة ولو مدَّة يسيرة. كيف لا إذ هو القائل على ما نطلّع عليه في بعض الكتب[١]:

أنـا الإمـام الـولـيـدُ مـفـتـخـراً ... أجـر بـردي وأسـمـعُ الـغـزلا
أسـحـبُ ذيـلـي إلـى مـنـازلـهـا ... ولا أُبـالـي مـن لام أو عـذلا
مـا الـعـيـش إلاَّ سـمـاع مُـحـسـنـةٍ ... وقـهـوةً تـتـرُك الـفـتـى ثـمـلا
لا أرتـجـي الـحـور فـي الـخـلـود وهـل ... يـأمُـل حـور الـجـنـان مـن عـقـلا
إذا حـبـتـك الـوصـالَ غـانـيـةٌ ... فـجـازِهـا بـذلـهـا كـمـنْ وصـلا

ويقال إنَّه لمّا أحيط به دخل القصر وأغلق بابه وقال[٢]:

دعـوا لـي هـنـداً والـرَّبـابَ وفـرتـنـى ... ومُـسـمـعـةً حـسـبـي بـذلـك مـالا
خـذوا مُـلْـكـكـم لا ثـبَّـتَ الله مُـلْـكـكـم ... فـلـيـس يُـسـاوي بـعـد ذاك عـقـالا
وخـلُّـوا سـبـيـلـي قـبـل عـيـرٍ ومـا جـرى ... ولا تـحـسـدونـي أن أمـوت هُـزالا

وربما الوليد بريء على المحتمل من أقبح ما يروى عنه من الأخبار والأشعار. ولكن لو سلَّمنا ورود التزوير فيها والافتراء في حقّه فلا ريب أنَّه تمادى في الشرب واللذات وأفرط. وأنَّ كثيراً مما يُروى من غزلياته وخمرياته صحيحُ الرواية موثوق به. ولعل غرامه سماع أشعار القدماء الذين عاشوا في مملكة الحيرة لا سيما عدي بن زيد العبادي أثَّر في أسلوب شعره تأثيراً عظيماً كما رأينا أنه أثَّر في شعر الحضر من العراقيين أثناء القرن الأول والثاني للهجرة. فواضح أن منظومات شعراء الكوفة وشعراء دمشق في أواخر الدولة الأموية كانت الواسطة بين خمريات الجاهلية وخمريات البغداديين في أيام بني العباس.

الخمر في شعر الأخطل نموذجاً

نال الأخطل شهرة واسعة في التقليد العربي كعلم من أعلام شعراء الخمرة، لا يوجد مماثلاً له بين معاصريه في هذا المجال[٣]. حتى أن دراسة الخمرة في شعر الأخطل ليست مهمة سهلة. ونريد أن نتحدث أولاً عن:

---

(١) المعري: رسالة الغفران ص١٤٦ من ٤بعة مصر ١٣٢١ ـ ١٣٢٥.
(٢) رسالة الغفران ص١٤٦.
(٣) دائرة المعارف الإسلامية Ei ص٢٤٧.

١ ـ الأسباب التي جعلت الخمرة تحتل مكانة خاصة في حياة الشاعر.

٢ ـ الدوافع التي تثيره ليدخل موضوع الخمر في شعره.

أن الخمر تعتبر مصدراً للإلهام الشعري. وبالنسبة للأخطل النصراني فهو لا يريد أن يتقيد بتعاليم الإسلام، ولا يريد صيام رمضان.

ولستُ بصائمٍ رمضان طوعاً ... ولستُ بآكلٍ لحم الأضاحي
ولكنّي سأشربها شمولاً ... وأسجدُ عند منبلجِ الصباح[1]

لكنه يريد أن يشرب، كما كان الأمر فيما مضى، عندما شرب الناس في الجاهلية، ولم يكونوا يعرفون النبي محمداً:

شرِبْنا فمتنا ميتةً جاهليةً ... مضى أهلُها، لم يعرفوا: ما محمدُ؟
ثلاثة أيام، فلما تنبهتْ ... حشُشاتُ أنفسنا أتتنا تردَّدُ
حيينا حياةً، لم تكن من قيامة ... علينا، ولا حشْرٍ، لنا به موعد
وقُلْنا لساقينا: عليك، فعُدْ بنا ... إلى مثلها بالأمس فالعودُ أحمدُ
تُميتُ وتُحيي بعد موتٍ، وموتها ... لذيذٌ، ومحياها ألذُّ، وأمجد[2]

أما التوبة التي عثر عليها في أشعار الشعراء المتأخرين ـ التوبة عن الشراب ـ فمن الطبيعي ألا تذكر عند الأخطل وألا يشار إليها بشيء، إذ أن «العهد بألا تشرب الخمرة» لا يرد في شعر الأخطل مرة واحدة فقط، حيث يشير إلى أنه التقى بقطار من الإبل المحملة بالخمرة المجلوبة من فلسطين في الوقت الذي انتهى فيه من عهده على نفسه ألا يشرب الخمر لعشرة أيام:

شربتُ ولاقاني لحلَّ أليّتي ... قطارٌ تروّى من فلسطين مُثقلُ[3]

إن هذه الأنغام والألحان المبدئية شائعة في شعره. لكن الدوافع الحقيقية الواقعية لشرب الخمر نادراً ما تظهر عنده.

وتشرب الخمر في أكثر الحالات في الفتوة، وإضافة إلى هذا فإن استعمال الخمر يعتبر صفة ضرورية لليافع البطل كما يرى ذلك الأخطل، إذ يقول:

(١) شعر الأخطل، صالحاني، ١٥٤.
(٢) شعر الأخطل، صالحاني ٣٢١، قباوة ٧٣٢ ـ ٧٣٣.
(٣) نفس المصدر، ص٣.

ولقد شربتُ الخمر في حانوتها ... ولعبتُ بالقينات كلَّ الملعب
ولقد أوكلُ بالمدجّج تُتّقى ... بالسيف عُرّتُه كعُرَّة أجْرب(١)

كما أن هذه الصفة تعتبر استمراراً مباشراً للمروءة الجاهلية. إذ أن الخمرة لا يمكن أن تعيب الإنسان الشارب.

جادت بها م ذوات القار مترعةً ... كلفاء ينحتُّ عن خرطومها المدر
لذّ، أصابت حُميّاها مقاتله ... فلم تكد تنجلي عن قلبه الخمرُ(٢)

فالأخطل في قصيدته «خف القطين» التي مدح فيها عبد الملك، وعرض ببني كليب بن يربوع - رهط جرير - نراه يهجوهم بعدم تمكنهم من شرب الخمر واحتمالها فيقول:

بِئس الصّحاة وبئس الشربُ شربهم ... إذا جرى فيهم المُزّاءُ والسّكرُ(٣)

ويمدح من نزل بهم فأكرموه، قائلاً: إن شر أصحاب الكأس من صحا من سكرته ولم يخسر شيئاً من ماله:

لم تظلما أن تكفيا الحيَّ ضيْفَهُم ... وأن تسقيا سُقيا السرّاة الأكارم
وأن تعقرا بكرينْ ممّا جمعتُما ... وشرُّ النّدامى من صحا، غير غارم(٤)

ويتردد ذكر الخمر وشاربها في المطالع الغزلية للقصائد حين يصف الشاعر الفراق ورحيل الأحبة مودعين.

أو كقوله في قصيدته (خف القطين):

خفّ القطين، فراحوا منك أو بكرُوا ... وأزعجتهم نوىً، في صرفها غِيَرُ
كأنني شاربٌ، يوم استبدَّ بهم، ... من قرْقفٍ، ضمنتها حمص، أو جدرُ(٥)

أما لعاب المعشوقة أو تنفسها فهو كالخمر، عند الأخطل:

كأنَّ فارة مسكٍ، غار تاجرُها ... حتى اشتراها، بأغلى سعرها، التّجرُ

---

(١) شعر الأخطل، الصالحاني، ٢٧.
(٢) شعر الأخطل، الصالحاني ٩٨.
(٣) شعر الأخطل، الصالحاني، ١١٠.
(٤) شعر الأخطل، الصالحاني، ٢٨٨. الغارم: الخاسر.
(٥) الصالحاني، ٩٨، والقرقف: من أسماء الخمر. وخمص: مدينة بالشام.

علـى مُـقَـبّـلِ أزوى، أو مـشـعـشـعـةً يعلو الزجاجة منها كوكبٌ خصرُ[١]

وقال:

شبـمٍ، كـأنّ الـثـلـج شـاب رُضـابـه بـسُـلافِ خـالـصـةٍ، مـن الـجـريـال[٢]

وعندما يستبد النعاس بالمرء فإنه يحس بنفسه وكأنه سكران من شدَّة الخمر.

رمـاهُ الـكـرى فـي رأسـه فـكـأنّـه صـريعٌ سُقي ما بين أصحابه خمرا

وعناصر شعر الخمر ومادته، مأخوذة من الحياة الواقعية.

وليس هناك أحد من الشعراء الأمويين كان قد وجه عناية كبيرة إلى الخمر كالأخطل، وقد ملك قدرة كبيرة على التوضيح عن ذاته وفرديته وشخصيته.

وبالمقارنة مع الشعراء الأمويين الآخرين نرى:

١ ـ أن جرير يسوق ذكر الخمر، والتحدث عنها، بشكل أساسي، من أجل نصح الأعداء المنافسين له وتحقيرهم وشتمهم وتكذيبهم. ففي هجائه الأخطل يقول:

أبـا مـالـكٍ لـلـحـيَّ فـضـلٌ عـلـيـكُـمُ فكُلْ من خنانيص الكنيسة واشرب

أبـا مـالـكٍ مـالـتْ بـرأسـك نـشـوةٌ وبـالـبـشـرِ قـتـلـى لـم تُـطـهَّـرْ ثـيـابـهـا

فـإنَّ نـدامـاك الـذيـن خـذلـتـهـم تـلاقـت عـلـيـهـم خـيـل قـيـس وغـابـهـا

ظـلـلـت تـقـيء الـخـنـدريـس وتـغـلـبٌ مـغـانـم يـوم الـبـشـر يُـحـوى نـهـابُـهـا

وألـهـاك فـي مـاخـور خـزّةَ قـرقَـفٌ لـهـا نـشـوةٌ يُـمـسـي مـريـضـاً ذبـابـهـا[٣]

٢ ـ وهذا ما نلاحظه أيضاً في شعر الفرزدق. ففي حالة صحوه وعدم هياج طبيعته لا يهتم إلا نادراً بموضوعات الخمر ووصفها. لكن الأوصاف المستعملة لمجالس الشراب والمنادمة تظهر عنده بشكل شاذ[٤].

---

(١) الصالحاني، ٢٥٢. غار تاجرها: أي غار في البحر حتى اشتراها، والتجر: التاجر. والخصر: البارد.

(٢) الصالحاني، ٣٢٤. شبم: بارد. الجريال: الخمر ذات اللون الأحمر.

(٣) ديوان جرير: ص٢٢، ٥٢، ١١٣. الخنانيص: ج خنوص وهو ولد الخنزير. الخندريس: الخمر القديمة. حزة: موضع على الخابور. النشوة: هنا: الرائحة. مريضاً ذبابها: أي إذا شمها الذباب مرض وأهلك. الصبابة: البقية. الصهير: المصهور المذاب المنضج من حرارة الشمس.

(٤) الفرزدق: ديوانه، ٦٦١.

٣ ـ أما ذو الرمة فإنه يدخل اللمسات الخمرية في سلسلة تشبيهاته الرائعة الشهيرة. إذ يشبه ريق المحبوبة بالخمر:

كأنَّ على فيها وما ذقتُ طعمه ... زُجاجة خمرٍ طاب فيها مُدامها

أو ألم الفراق بأثر الخمر:

كأنّي أخو جريالةٍ بابليّة ... من الرّاح دبت في العظام شمُولها

أو الأرق بأثر الخمر:

كأنّه بالضحى ترمي الصَّعيد به ... ذبابةٌ في عظام الرأس خُرطُومُ

٤ ـ أما القطامي فقد خصص في شعره مكاناً بارزاً للنغمات الخمرية، برغم أن حجم ديوانه أصغر بكثير من ديوان جرير أو الفرزدق. إن مجموعة صوره ونماذجه أغنى وأوضح وأقوى، وتصلح جداً للموازنة مع أمثالها في شعر الأخطل الذي كان أكثر تأثيراً[1].

إن الأخطل لا يشرب إلا خمر العنب، إذ ليس عنده أي مكان يدور فيه الحديث عن خمر النخيل (البلح)، في حين أنه يتحدث بتحديد واضح أكيد عن الكروم على الفرات قرب عانة، فاسمعه يقول:

وشاربٍ مُربحٍ بالكأس نادمني ... لا بالحصور ولا فيها بسوّار

من خمر عانة ينصاع الفراتُ لها ... بجدول صخب الآذيّ جرّار[2]

ولهذا فإن الخمور المشهورة تنسب إلى عدد من الأمكنة، ويصفها الأخطل، مستعملاً تسميات جغرافية عامة واسعة، مثل «فارسية»، «دمشقية»:

فجاء بها بعد الكرى (فارسية) ... (دمشقيةً) أحيت عظاماً وأنْفُسا

أو «بابلية» أو «فلسطينية»، أو من «غور الأردن»:

ظللتُ كأنّي شاربٌ (بابلية) ... ركود الحُميّا في العظام شمُولُ

صريعُ فلسطينية راعه بها ... من الغور عن طول الفراق خليل[3]

---

(١) ديوان القطامي: ٨٥.

(٢) ديوان الأخطل: ١١٦ ١١٧. المربح: الذي يربح صاحبها. والحصور: البخيل. والسوار: السيء الخلق الذي يساور عليها ويقاتل فيها.

(٣) ديوان الأخطل: ٢٩٥، ٢٥٦.

أو أنها الفرات:

ممـا تـغـالاهُ الـتُّـجـارُ غـريـبـة ... ولـهـا بـعـانـةَ والـفـراتِ كُـرومُ

أو من «جدر» و «حمص»:

كـأنـنـي شـارب يـوم استـبـدّ بـهـم ... من قـرقـف ضُـمـنِّتـهـا حـمـصُ أو جـدرُ

والأخطل يتحدث بشكل واضح عن زراعة العنب ويلاحظ أن ملك الكروم ينتقل عند الفرس بالوراثة من جيل إلى جيل:

وكـأنـمـا أنـا شـاربٌ جـادتْ لـه ... بُـصـرى بـصـافـيـة الأديـم عُـقـار

صـرف تـواتـرت الأعـاجـم جـفـنـهـا ... وحـمـاه حـائـط عـوسـجٍ بـجـدار[1]

والذي يهتم بمزارع الكروم هو عبادي، فلاح نصراني من جنوبي العراق - بلاد الرافدين:

عذراء لـم يـجـتـل الـخـطّـاب بـهـجـتـهـا ... حـتـى اجـتـلاهـا عـبـاديٌّ بـديـنـار

ويسمى ببساطة «علجاً»:

كـأنـمـا الـعـلـج إذ أوجـبـتُ صـفـقـتـهـا ... خـلـيـعُ خـصْـلٍ نـكـيـبٌ بـيـن أقـمـار[2]

وعمل الحراثة الصعب يقوم به رجل حاذق خبير، وهو يعمل مسحاته في الأرض ليذكو عنبها:

ربـتْ وربـا فـي حـجْـرهـا ابـنُ مـديـنـةٍ ... يـظـلُّ عـلـى مـسـحـاتـه يـتـركّـل

وفي أوقات الجفاف عليه أن يحفر الجداول والسواقي لينقل إلى الكروم الماء من النهر أو النبع:

إذا خـاف مـن نـجـمٍ عـلـيـهـا ظـمـاءةً ... أدبَّ إلـيـهـا جـدولاً يـتـسـلـسـل[3]

وهذه الجداول يومئذ ضرورية لتربية الكروم والدوالي.

---

(١) ديوان الأخطل: ٧٦. العقار: الخمر التي تلزم الدن.

(٢) ديوان الأخطل: ١١٧، ١١٨. والعبادي: المنسوب إلى العباد وهم قبائل شتى من العرب اجتمعوا على النصرانية بالحيرة. والخليع: المقمور ماله. والخصل: الغلبة. والأقمار: ج قمير وهو الملاعب في القمار. والنكيب: المنكوب المغلوب.

(٣) نفسه، ٥. ابن مدينة: أراد العالم بالقيام عليها.

مـن مُـسْـبِـلٍ درجـتْ إلـيـه عـيـونُـه وسـقـاه عـازبُ جـدول مـرَّار[١]

وعلى الخادم واجب الاهتمام بسياج الحقل للدفاع عن كروم العنب أمام الصقيع والرياح، فيجعله محاطاً بسور من الشوك:

فـكـفَّ الـريـحَ والأنـداءَ عـنـهـا مـن الـزَّرَجـونِ دونـهـمـا شِـعـارُ[٢]

وعندما ينضج العنب الذي صرف عليه كثير من الجهد والعناية، فإن عصاره لا يملك شبيهاً وقريناً، ولا يمكن أن تقارن به الحصرم العادي:

حـتـى إذا مـا أنـضـجـتْـهُ شـمْـسُـهُ وأنَـى، فـلـيـس عُـصـارُه كـعُـصـارِ
وتـقـصَّـدتْ مـن غـيـر هـشٍّ عـودُه بـالٍ، ولـيـس بـحـصـرمٍ أبـكـار[٣]

ثم يحين وقت عصر العنب، ذلك العصر الذي يتطلب من العلج وقتاً ليس بالقليل، إذ عليه أن يختم الخوابي الكبيرة، وعليه أن يلفها بعناية بالغة، برداء من العنب والقار. اسمعه يقول في الخمرة وتعبئتها:

كُـمَّـتْ ثـلاثـة أحـوالٍ بـطـيـنـتـهـا حـتـى إذا صـرَّحـتْ مـن بـعـد تـهـدارِ
آلـتْ إلـى الـنِّـصـف مـن كـلـفـاء أتـرعـهـا عـلِـجٌ ولـثَّـمـهـا بـالـجـفـنِ والـغـار

ثم توضع هذه الأوعية المغلقة المختومة في مستودعات:

صهباءُ قد كلفت من طول ما حُبستْ فـي مُـخـدَعٍ بـيـن جـنـات وأنـهـار[٤]

حيث ستبقى هناك مدة طويلة:

تـواعـدهـا الـتِّـجـار إلـى أنـاهـا فـأطـلـعـهـا عـلـى الـعـرب الـتِّـجـار[٥]

أو كقوله:

وتـغـيّـظـت أيـامـهـا فـي شـارفٍ نُـقِـلَـتْ قـرائـنُـه ولـمّـا يُـنْـقـل[٦]

وثلاث سنوات هي مدة ضرورية مطلوبة، ينقص العصير فيها في الأوعية إلى

---

(١) نفسه، ٧٧. امسبل: الماؤ الجاري. إليه: إلياالكرم والعازب: البعيد. والمرار: الشديد الجري.
(٢) نفسه، ٣٨٥. وسمى الأخطل ما وقيت به الخمر شعاراً.
(٣) نفسه، ٧٧. الضمير في «أنضجته» للكرم. أنى : أدرك ونضج. عصاره.
(٤) نفسه، ص١١٧. كمت: ختمت صرحت: ذهبت رغوتها. لثمها: غطاها: الميثاء: الأرض اللينة. كلفت: تغير لونها.
(٥) نفسه، ٢٠٧. والأنى: البلوغ.
(٦) نفسه: ٢٩١. تغيرت: اشتد غليانها. والشارف: الخابية القديمة، وهي القوية.

النصف. وتظهر عليها ألبسة جديدة من خيوط العنكبوت، ويحضرها شخصان هما طابخاها (ويلاحظ هذا في الأبيات السابقة). لكننا نعثر عند الأخطل على إشارة مباشرة للخمرة غير المغلية:

ليست بسوداء من ميثاء مظلمة ... ولم تعذّب بإدناء من النار

وشراء الخمرة من تاجر اختصاصي ليس ضرورياً، إنها تباع كثيراً في بيت ذلك العبادي نفسه الذي كان قد حضرها:

عذراء لم يجتل الخطّاب بهجتها ... حتى اجتلاها عباديّ بدينار[1]

ويكسب العبادي من هذا، على ما يبدو، الشيء القليل، ذلك لأن عدم الاعتناء بالهندام وبساطة اللباس، من صفات ثيابه:

في بيت مُنخرقِ السربالِ مُعْتَملِ ... ما إنْ عليه ثيابٌ غيرُ أطمارِ

ويدور الحديث بشكل واضح عن البائع الذي يمكن أن يفهم منه وقتئذ أنه تاجر الخمرة، ونحن نعثر عند الأخطل على صيغة (تجار):

ولقد غدوت على التِّجار بمُسمِحِ ... هرَّتْ عواذلُه هريرَ الأكلب[2]

وصيغة:

صهباءَصافيةٍ تنزل تجرها ... ببلاد صرخدَ من رؤوس جبال[3]

والشراء من «العلج»[4] ليس بالأمر السهل: فعندما يتفقون على السعر، ولا يبقى سوى المصافحة باليد، فإن نفس العلج يتمسكها البخل ثانية، برغم أنه قد اتفق على السعر، وذلك لأنها نفيسة.

إذا أقول تراضينا على ثمنٍ ... ضنّتْ بها نفس خبِّ البيع مكّارِ

كأنما العِلْجُ إذا أوجبتُ صفقتها ... خليعُ خصلٍ نكيب بين أقمار

والتجار أيضاً يطلبون زيادات كثيرة، بغض النظر عن السعر المرتفع.

---

(١) المصدر نفسه، ١١٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧، أسمح: سمح. والتجار: ج تاجر. وتسمي العرب بائع الخمر تاجراً.

(٣) المصدر نفسه، ٣٢٤.

(٤) العلج: الأعجمي، والمراد بائع الخمرة.

أوقات الشرب:

ويجب اختيار مكان الشرب وزمانه بعد شراء الخمر، وهناك دلالات تشير إلى أنه، قد وجدت أوقات للشراب محددة معقولة مفضلة على غيرها.

فالصباح هو من الأوقات المحبوبة. إذ - في كل الذكريات عن مجالس الشراب تقريباً - نلتقي بصيغ الأفعال المأخوذة من الفعل (بكر):

بكرّ العواذلُ يبتدرْنَ ملاميّ والعاذلون فكلُّهم يلْحاني

والفعل (صبح):

صبّحتُها غُرَّ الوجوِ غرانقاً من تغلب الغلباء لا أسفالها[1]

والفعل (غدا):

لقد غدوتُ على النّدْمان، لا حصرٌ يُخشى أذاه، ولا مستبطأٌ زَمِرُ[2]

وها هو ذا الشاعر يتأهب للصلاة بعد مجلس الشراب عندما يطلع الفجر:

ولكنّي سأشربها شَمولاً وأسجدُ عند منبلج الصباح[3]

وبعد أن صاحت الديكة، وحان وقت الإخلاد إلى الهدوء والراحة للمتجول الليلي:

نازعتُه طيّبَ الراح الشّمول وقد صاح الدّجاجُ وحانت وقعة الساري[4]

وعندما تبدأ العصافير المبكرة زقرقتها»:

وأبيض لانكسٍ ولا واهن القوى سقينا إذا أولى العصافير صرَّتِ[5]

وربما يصرح الأخطل بأن الوقت كان ليلاً عندما جاء إلى صديقه:

نزلنا بلا غُسٍ ولا عاتمِ القرى ولا هدَنتْه الخمرُ عنّا فينعسا

وكان صاحب البيت في هذا الوقت قد شبع نوماً:

فجاء بها بعد الكرى فراسيةً دمشقيةً أحيَتْ عظاماً وأنفُسا

---

(١) نفسه: ٣٢. والفرائق: الشبان البيض الفر.

(٢) اليدوان، ٣٥١، المستبطأ: الذي يستبطأه خيره. والزمر: القليل المروءة أو القليل الخير. والناجود: الإناء.

(٣) الديوان ١٥٤.

(٤) الديوان: ١١٦، نازعته: ناولته.

(٥) الديوان، ٢٩٦.

والشراب المسائي «الغبوق» لا توجد أية إشارة إليه عند الأخطل، في حين يشار إليه عند جرير والقطامي.

أمكنة الشرب:

ولا يوجد مكان مفضل على غيره، فكل الأمكنة جيدة. والحانوت مشهور في شعر الأخطل:

ولقد شربتُ الخمر في حانوتها ولعبت بالقينات كلَّ الملعب[١]

ولقد شربتُ الخمر في حانوتها وشربتُها بأريضة مِحْلال[٢]

ونرى العلج يملك مكاناً في بيت آخر، حيث تظهرفلاحة قروية بسيطة:

وتظلُّ تنصفنا بها قروية إبريقها برقاعها ملْثومُ[٣]

ولا يقل حب الطبيعة الحرة الطليقة عن حب الحانوت المغلق. فالأخطل يتغنى مفتخراً بأنه قد عب كأسه في الحانوت، كما عبها في الأرض المخصبة أيضاً:

ولقد شربت الخمر في حانوتها وشربتها بأريضةٍ محلال

ومن المحتمل أن يدور الحديث أحياناً حول الشرب في الطريق (بين الأرحل».

كأنما المسك نُهبَى بين أرحُلنا مما تضوَّع من ناجودها الجاري[٤]

ويمكن تصورها في كل مكان.

حيث يقوم الأخطل، بنصب الخيمة وإقامتها من درعه وردائه:

وفتية غيرِ أنذالٍ رفعتُ لهم سحْقَ الرداء على علياء ينخفقُ[٥]

والأخطل في علاقته مع المكان هو نفسه في علاقته مع الزمان، فكما أنه لم يفضل أو يحدد وقتاً من أوقات السنة للشرب، لم يفضل أيضاً مكاناً لهذا الغرض دون سواه من الأمكنة.

---

(١) الصالحاني: ص٢٧.

(٢) نفسه ١٦٢. والأريضة المحلال: الأرض المخصبة يحل فيها الناس كثيراً.

(٣) الديوان، ٨٥. تنصفنا: تخدمنا. والناصف: الخادم، ورقاعها: خدها.

(٤) الديوان: ١١٩. الناجود: إناء الخمر. والنهبى: اسم للنهب وللمنهوب.

(٥) الديوان، ٢٦٠. السحق: البالي. والعلياء: الأرض المشرفة. ويختفق: يض٤رب حين تطير به الريح.

أواني الخمر، وأسماء الخمر وتأثيرها:

من الطبيعي أن تحتل الخمر نفسها المكان الأول في خمريات الأخطل، إذ أبدع العديد من الصور واللوحات الفنية العامة، التي قد نعثر فيها على أوصاف للخمر ولمجالس شرابها. وفي هذه اللوحات كثرة من الصور والتشبيهات المتلاحقة. التي ترتبط ببعضها، لتعطي تصويراً فنياً رائعاً متعدد الجوانب، متكاملاً. كما في قصيدته اللامية:

صريعُ مُدامٍ يرفع الشّربُ رأسَه ... ليحيا وقد ماتت عظام ومفصل

إذا خاف من نجم عليها ظماءةً ... أدبّ إليها جدولاً يتسلسل[1]

وشارب مربحٍ بالكأس نادمني ... لا بالحصور ولا فيها بسوّارِ

نازعته طيّبَ الراح الشمول وقد ... صاح الدجاجُ وحانتْ وقعةُ الساري

من خمر عانة ينصاع الفرات لها ... بجدولٍ صخبِ الآذي موّار

كُمّتْ ثلاثة أحوالٍ بطينتها ... حتى إذا صرَّحتْ من بعد تهدارِ

آلت إل النصف من كلفاءَ أترعها ... عِلْجٌ ولثّمها بالجفن والغارِ[2]

كذلك يقول في قصيدة له:

شربنا فمتنا ميتة جاهلية ... مضى أهلها لم يعرفوا: ما محمد

ثلاثة أيام فلمّا تنبّهتْ ... حُشاشاتُ أنفاسٍ أتتنا تردَّد

حيِينا حياةً لم تكن من قيامةٍ ... علينا ولا حشر لنا به موعدُ

حياة مِراضٍ حولهم بعدما صحوا ... من الناس شتّى عاذلون وعُوَّدُ

تميت وتحيي بعد موتٍ، وموتُها ... لذيذٌ ومحيْاها ألذُّ وأحمدُ[3]

تقدم هذه القصائد تزييناً رقيقاً لطيفاً، ولوحات مزخرفة. تطبع بعناصر دقيقة محددة، وكأنها صور فوتوغرافية. والأخطل يحدد مكانها «من بصرى» وأنها صافية عذبة، صرف، تعهد الأعاجم تربية كرومها، وهي محمية ومحاطة بالعوسج المرتفع كالجدار. وتسقى هذه الكروم بماء رقيق لطيف، من جدول شديد الجري، إلى أن

---

(١) الديوان، ٢.
(٢) الديوان، ١١٦ ١١٨.
(٣) الديوان، ص٣٢١.

تنضج الشمس العنب. ويغدو عصاره شيئاً آخر، وليس هو بالحصرم غير الصالح، ثم تتحول إلى خمرة صافية تعتري أصحابها الشاربين النشوة:

وكأنما أنا شاربٌ جادتْ له ... بصرى بصافية الأديم عُقارِ
صِرْفٍ تواترت الأعاجم جفنها ... وحماه حائط عوْسَجٍ بجدار[١]

وفي قصيدة «خف القطين» يصف الخمرة بأنها «قرقف»، تنتاب شاربها رعدة لشدتها، إنها من حمص وجدر، معبأة في خواب مترعة كلفاء، يفض ختام الطين الذي على فم إنائها:

كأنني شاربٌ يوم استبدّ بهم ... من قرقف ضُمّنتْها حمِص أو جدرُ
جادت بها من ذوات القار مترعة ... كلفاء ينحت عن خرطومها المدر
لذُّ أصابت حُميّاها مقاتلهُ ... فلم تكد تنجلي عن قلبه الخُمَرُ[٢]

وفي قصيدته التي يمدح بها جدار بن عباد التغلبي، يتحدث عن شربه لها في الصباح ويصفها بأنها شديدة، ضاربة إلى الاحمرار يرغب فيها الشاربون ويتوقون إليه، فما أن يشربونها حتى يسيروا وجفونهم متكسرة من أثرها.

إن الوصف مع التحديد والتزيين صفات عامة في الشعر العربي، ولا يتفرد الأخطل بهذا، لكن سبقه في هذا المجال يعود إلى العناصر العديدة التي أختارها بجودة وغنى. ويمكننا أن نكون تصوراً دقيقاً كاملاً عن أدوات الخمر في مختلف تزييناتها وزركشتها، وبأسمائها وصفاتها. وكذلك نستطيع أن نتصور ونحدد أسماء الخمر مع التشبيهات المتنوعة لها، كما نستطيع بتفصيل كثير أن نحدد ونصور تأثير الخمر، ومجالس شرابها المختلفة في المجتمع.

أواني الخمرة

الزق (القربة) وهو من أكبر الأوعية المخصصة لنقل الخمر. وتسميته العادية «مسوك» بصيغة الجمع:

---

(١) الديوان ٧٦. تجردها: ذهاب ما عليها من الغثاء، وتصريحها: صفاؤها، والفتار: من الفترة تعتري أصحابها من شربها.

(٢) الديوان: ص٩٨. ينحت عن خرطومها المدر: أي يفض ختام الطين الذي على فم إنائها.

عليها من المعزى مُسوك رويّة ممَلأة يُعلى بها وتعدّل

وقوائمها دائماً بارزة إلى الأعلى - شاصيات:

أناخوا فجرّوا شاصياتٍ كأنّها رجال من السودان لم يتسربلوا[١]

وهذا ما يورده القطامي أيضاً في إحدى قصائده. والتشبيه الجميل الرائع في نظر الأخطل هو تشبيه القربة بالسوداني بلا سروال، أو بسوداني ميت. أما القطامي فيشبهها بهندوسي لا قميص به.

ولحفظ الخمر تستعمل الأوعية الفخارية الكبيرة. يطلق عليها لفظة «الدن»:

من قرقف الزَّرجُون فتّ ختامُها فالدَّنُ بين خنابجٍ وقِلالِ

والأوعية القديمة أشبه «بجمل مسن» أو «بشارف» خلق:

سُلافةٍ حصلتْ من شارف خلقٍ كأنّما فار منها أبْجلٌ نَعِرُ

وأنها «كلفاء» ضاربة للحمرة:

جادت بها من ذوات القار مترعة كلفاء ينحتُّ عن خرطومها المدّرُ

وهي مدهونة بالقار، تشبه الجمال الجربة:

من عاتق حدبت عليه دنانهُ وكأنها جربى بهنّ عصيم

مترعة مملوءة قبل مجيء الشاري، ومختومة «بختام» خاص من قطران وتراب. وأنهم ما يفتحونها إلاّ بالمبزل:

لما أتوْها بمصباحٍ ومبْزلهم سارت إليهم سؤورَ الأبجلِ الضاري[٢]

أو يفضون ختامها. والأواني الصغرى تسمى تسمية غير شائعة «خنابج»[٣] بصيغة الجمع وهي تذكر جنباً إلى جنب مع «الدنان» الخمرية.

ونادراً ما يسكبون الخمر مباشرة من هذه الأوعية في الكاسات، ذلك لأن المرحلة الثانية، عادة، هي صبها في ابريق الخمر.

---

(١) الصالحاني، ٣ والشاصيات: الشائلات القوائم من امتلائها.

(٢) سار يسور سورا وسؤورا : وثب وثار.

(٣) الديوان، ٤٢٣. وفي اللسان (٣:٨٦): «الخنبج والخنابج: الضخم».

ووعاء الخمر المشهور يسمى «إبريقاً»:

وتظلّ تنصفنا بها قرويّةٌ ... إبريقُها برقاعها ملثُومُ

وجمعه «أباريق»:

كأن بنات الماء في حجراته ... أباريق أهدتْها دياف لصرخدا

وهم يلفونه بقطعة من النسيج، فيصبح شبيهاً بطائر مائي.

والخمرة تصب من الأباريق في الأقداح. ويشربونها في أنواع مختلفة من الأقداح والكؤوس.

وشاربٍ مُربحٍ بالكأس نادمني ... لا بالحصور ولا فيها بسوارُ

ووصف الكأس العام أنها «مترعة مملوءة»:

ومترعةٍ كأن الورد فيها ... كواكب ليلةٍ فقدتْ غماما

وذكر الكاسات الزجاجية:

إذا ما نديمي علّني ثم علّني ... ثلاث زُجاجات لهنّ هدير[1]

وأفضل ما شبهت به هذه الزجاجات هي الطيور المائية.

تسميات الخمرة

وللخمر تسميات غنية أيضاً ووافرة. ومن هذه التسميات تسميات كثيرة كانت صفات ونعوتاً. ومن التسميات المجازية التزيينية اللطيفة نعثر على تعبير «ماء العناقيد». وغالباً ما يتكلم على «ماء» أو «سائل» الخمر:

تفوح بماءٍ يشبه الطيبَ طيبهُ ... إذا ما تعاطت كأسها من يدٍ يدُ

ويرد لفظ «شراب» مستعملاً استعمالاً مجازياً:

وإذا تُعُوورتِ الزجاجةُ لم يكن ... عند الشراب بفاحش متقطّبِ

وأكثر التسميات شيوعاً هي تسمية «الخمر»، فالأخطل يستعمل هذه التسمية كما لو كانت معنى مباشراً:

(١) الديوان، ٢٨.

ولقد شربت الخمر في حانوتها ... ولعبت بالقينات كلّ المعلب[١]

ويستعملها أيضاً في التركيب المجازي.

ولفظة مدام تحمل معنى عاماً وهو أنها خمر قديمة محفوظة من مدة:

صريع مدام يرفع الشَّرْبُ رأسه ... ليحيا وقد ماتت عظامٌ ومفصلُ

وكذلك «مدامة»:

دع ما مضى منها فرُبَّ مُدامة ... صهباء عارية القذى سلسالها[٢]

و«أول الخمر» أو «عصير العنب» يسمى «سلافاً» أو «سلافة»:

ودافع عني يوم جِلِّقَ غمرةً ... وهمّاً يُنسيني السُّلافَ المُهودا[٣]

شبمٍ كأن الثلج شاب رُضابه ... بسُلافِ خالصةٍ من الجِرْيالِ[٤]

ولفظة «قهوة» أكثر استعمالاً، إذ يعثر عليها في شعر الأخطل غير مرة:

من قهوة نفحت كأن سطيعها ... مسكٌ تضوَّع في غداة شمال[٥]

ومثلها في كثرة الاستعمال عند الأخطل لفظة «عقار»:

فصبُّوا عُقاراً في إناء كأنّها ... إذا لمحوها جذوةٌ تتأكّل

هناك لونان أساسيان من ألوان الخمر: الأول: ياقوتي أصفر، والثاني: أحمر. اللون الأول يعطي معناه باللفظة «صهباء»:

وتجرّدت بعد الهدير وصرّحت ... صهباء تبدأ شرْبها بفُتَار

والتعبير الأكثر شيوعاً «الشراب الأصهب»:

بان الشباب وربّما علّلته ... بالغانيات وبالشراب الأصهب

أو «في ألوانه صهب»:

حتى إذا افتض ماءُ المزن عذرتها ... راح الزّجاج وفي ألوانه صهبُ

(١) الديوان، ٢٧.
(٢) الديوان، ٣٢٠.
(٣) الديوان، ٩٣، المهود: المسكن، وأصل التهويد النوم.
(٤) نفسه، ٣٢٤.
(٥) نفسه، ٣٢٤.

والخمر، لبقائها الطويل في وعاء مغلق، تصبح سوداء أو تكون لها حمرة أخاذة.

وأورع تشبيه لهذا اللون هو تشبيهه «بالدم» وبكل ما يتصل به:

ترى الزّجاج ولم يُطمثْ يُطيف به كأنّه من دم الأجواف مختضبُ

لما أتوها بمصباح ومبزْلهم سارت إليهم سؤور الأبجل الضاري

تدمى إذا طعنوا فيها بجائفة فوق الزجاج عتيقٌ غيرُ مُسّطار[1]

فقد رسم لنا لوحة رائعة، إذ أنهم عندما بزلوا الخابية في جانبيها بالمبزل، وثبت الخمر الحمراء كوثوب الدم الأحمر من عرق الأبجل المقطوع.

وهناك تسميتان أخريان للخمر الحمراء تذكران عند الأخطل مرة واحدة فقط لكل تسمية، وهما: «ورد» و«كميت» أي (أحمر ضارب للسواد):

ومترعةٍ كأن الوردّ فيها كواكب ليلةٍ فقدت غماما

أما بقية صفات الخمر الأخرى أو طعومها فإنها لا تتعلق باللون بمقدار ما تتعلق بالصفة والنعت، فالخمر تكون مثلاً وقادة اللون» أو تشبه «بالفحم المتوهج».

والقيمة الأساسية للخمر يعطيها الأخطل لصفائها ونظافتها، مثله في ذلك مثل الشعراء الآخرين. إذ يجب أن تكون الخمر صافية شفافة بلا مزج «صرف»:

وكأس مثل عين الديك صرفٍ تنسّي الشاربين لها العقولا

إنها نظيفة «خالصة» أو «صافية»:

صهباء صافيةٌ تنزّل تجرها ببلاد صرخد من رؤوس جبال

وهناك أيضاً صفات أخرى للخمر تحمل معاني مشتركة مع التسمية، أو تستعمل كالتسمية مثل هذه الصفات: خمر قديمة أو محفوظة «عاتق»:

من عاتق حدبت عليه دِنانُه وكأنها جربى بهنّ عصيمُ

أو عتيق:

تدمى إذا طعنوا فيها بجائفة فوق الزجاج عتيقٌ غير مُسطار

(١) الديوان، ١١٨. الجائفة: التي تبلغ الجوف. المسطار: (بضم الميم): الخ/ خمر المتغيرة الريح.

أو لينة «سلسالة»:

دع مـا مـضـى مـنـهـا فـرُبَّ مُـدامـة صـهـبـاء عـاريـة الـقـذى سـلـسـالـهـا

والشيء الواضح من أثر النصرانية في الأخطل هو عدم تحريم الخمر خلافاً لماعليه الحال في الإسلام، فهو يصفها بأنها «حلال»، كما يصفها بأنها عذراء تفقد بكارتها بالمزج. وآثار الخمر في الشارب كثيرة، فهي واحدة من مسرات الفتى، أو أن لذتها تشبه تلك التي أعطاها الله نوحاً :

أومـثـل مـا نـال نـوحٌ فـي سـفـيـنـتـه إذ اسـتـجـاب لـنـوحٍ وهـو مـنْـجـودُ

أعـطـاه مـن لـذة الـدنـيـا وأسـكـنـه فـي جـنـةٍ نـعـمـةٌ فـيـهـا وتـخـلـيـدُ

والناس الضعفاء هم، فقط، الذين لا يستطيعون تحمل الخمر، وكذلك لا يتحملها السكير الذي شرب كثيراً في حياته:

وأبـيـض لانـكْـسٍ ولا واهـن الـقـوى سـقـيـنـا إذا أولـى الـعـصـافـير صـرَّت

حبـسـتُ عـلـيـه الـكأس غـير بـطـيـئـة مـن الـلـيـل حـتـى هـرَّهـا وأهـرَّتِ

ومن خصائصها اللذيذة طعمها الرائع: إذ يصفونها بقولهم «طيب الراح» (نازعته طيب الراح الشمول).

أو تشبه رائحة المسك:

مـن قـهـوةٍ نـفـحـتْ كـأنّ سـطـيـعـهـا مـسـكٌ تـضـوَّع فـي غـداة شـمـال

ورائحتها «نفحة»، تؤثر بشدة حتى أن المزكوم يشعر بها. وهي فوق هذا، تكاد تحيي الموتى وتبعثهم:

عـانـيّـة تـرفـع الأرواح نـفـحـتُـهـا لـو كـان يُـسقـى بـهـا الأمـوات قـد نـشـروا

والخمر لا تنعش حاسة الشم فقط بل البصر أيضاً، وتكون تارة نظيفة وأخرى مغطاة بالزبد والرغوة (البيت: تصفو وتزبد).

و«السمع» يلتقط من الخمر ضجة مقبولة لطيفة:

إذا مـا نـديـمـي عـلّـنـي ثـم عـلّـنـي ثـلاث زجـاجـات لـهـنّ هـديـر

ويشبه أصوات الاختمار في الأوعية الكبيرة، «بهدير» الجمل:

عزّ الشرابُ فأقبلتْ مشروبةً هَدَرَ الدِّنانُ بها هدير الأفحلِ[١]

من خلال شعر الأخطل، نتعرف إلى عادات الشراب المختلفة وتبدو مصطلحات الأخطل متطورة جداً. هي «عل نهل»:

فما لبّثْتنا نشوةٌ لحقتْ بنا توابعها ممّا نُعلّ ونُنهلُ

وبعد هذا تتبع السقية الثانية «العل أو العلل»:

وجاؤوا ببيْسانيّة هي بعدما يعُلّ بها الساقي ألذُّ وأسهلُ

ورقم «ثلاثة» في الشرب يبدو رائعاً جداً وشائعاً:

إذا شرب الفتى منها ثلاثاً بغير الماء حاول أن يطولا

والكاسات تنتقل من يد إلى أخرى في حلقة الشراب، على اليمين وعلى اليسار، بلا تمييز. والتعبير العادي لهذا التداول هو «الكر»:

كأني كررتُ الكأس ساعة كرها على ناشص شمّتْ حُواراً ملبّساً[٢]

وتناول الأيدي للكأس الواحدة من الأخرى يسمى «تعاوراً» من الفعل «تعاور»: بمعنى «تعاطى»:

وإذا تُعوورت الزجاجة لم يكن عند الشراب بفاحش متقطّب

ويضعون الكأس أمامهم أو يرفعونها قائلين: «الهم حي»:

تمرّ بها الأيدي سنيحاً وبارحاً وتوضع باللهمّ حيّ وتحمل

أي بمعنى (يا رب، أعطنا الحياة)، وهو تشبيه مماثل عند القطامي بقوله «حياكم الله»، ومثل هذا التعبير شائع الآن في أوساط العامة التي تتناول الخمر. إذ يقولون في الدعوة للشراب: «يا الله. . .» وعلى الرغم من أن الخمر تشرب عادة ممزوجة «مشعشعة»:

على مقبّل أروى أومشعشعة يعلو الزجاجة منها كوكب خصرُ

فإنهم قد يشربونها بلا ماء:

---

(١) الديوان، ٢٩١. عز: غلا. المشروبة: الخمرة.

(٢) الديوان، ٢٩٥. يعني ناقة قد لبسوا لها جلد حوار فعرفت بعينها وأنكرت بأنفها. الناشص هنا: الناقة التي تعرف ولدها بعينها وتنكره بأنفها. فإذا شمته نفرت عنه. والحوار: ولد الناقة.

وكأس مثل عين الديك صرفٍ … تنسي الشاربين لها العقولا

لكن لفظة «صرف» ينبغي أن نفهمها، في أغلب الأحيان، على أنها تشير إلى الخمر الشفافة ذلك لأن لفظتي «صرف ومشعشعة» تستعملان مقترنتين في مرات عدة. واللفظة العادية للدلالة على إضافة الماء أو الشوائب هي «مزاج»:

فقلت اقتلوها عنكم بمزاجها … فأطيب بها مقتولة حين تقتل

والألفاظ الرائعة المعبرة لتصويرها هي: «قتل» و«شج»، ومثلها «افتضاض»:

حتى إذا افتض ماءُ المزن عُذرتها … راح الزّجاج وفي ألوانه سهبُ

وإلى جانب الخمر تذكر أيضاً بعض الأطعمة، كاللحم المشوي، مثلا: «شواء مرعبل»:

وتوقف أحياناً فيفصل بيننا … غناءُ مغنّ أو شواءُ مُرعْبلُ

من القيان هتوفٌ طالما ركدتْ … لفتية يشتهون اللهوّ والغزلا

والقينات قد وجدن لأغراض أخرى غير الغناء، مثل اللهو والعبث. أما صوت القينة ففيه بحة:

وقد أكون عميدَ الشرْب تُسمعُنا … بحّاءُ تسمع في ترجيعها صحلا[1]

ويعتقد بأن الشاربين أنفسهم قد غنوا.

وأهم شخصية في مجلس الشراب هو الساقي، الذي يسكب الخمر ويقدمها للشاربين:

وقلنا لساقينا عليك فعُدْ بنا … إلى مثلها بالأمس فالعود أحمدُ

إنه متوج) ربما كان ذلك من الورد)، ومقرط، وقالص السروال، ولون بشرته ضارب للحمرة. وهو أصهب فلعله من أولاد الروم:

أوْ راحِ ذي نطفٍ يظل مُتوّجاً … للشرب أصهب قالص السِّرْبال[2]

وفي بعض الحالات ـ في القرى ـ تقوم فتاة قروية بسيطة مقام الساقي:

---

(١) عميد الشرب: سيدهم الذي يعتمدون عليه. الصحل: البحح.

(٢) الراح: التي يرتاح لها صاحبها إذا شربها. النطف: القرط. وذو النطف: الغلام الساقي. والقالص: المشمر.

وتــظــلّ تــنــصــفــنــا بــهــا قــرويّــة   إبــريــقــهــا بــرقــاعــهــا مــلــثــومُ

ولجماعة الشراب، أحياناً، مسؤول أو قائد ـ هو سيد المائدة أو «عميد الشراب» والأخطل يقوم بهذا الدور، على ما يبدو:

وقد أكون عميد الشرْب تُسمعنا   بحّاءُ تسمع في ترجيعها صحَلا

ويبدو أنه ليس لهذه الجماعة أي نظام.

ونصادف تسميات بسيطة: «فتية، فتيان صدق، رفقة، أصحاب، عرب».

أما الشاربون فإنهم يوصفون عادة بعدد من الصفات: فهم «غواةٌ» أوْ غبر الوجوه:

وكــأن أصــوات الــغُــواةِ تــعــودهُ   أصواتُ نوحٍ أو جلاجل عوكَلِ[1]

و«أبيض»:

وأبــيــض نــكــسٍ ولا واهــن الــقُــوى   سقينا إذا أُولى العصافير صرَّتِ

وكثيراً ما يسمي الأخطل رفاقه في الشرب (بشر، وأبو حنش، وأبو غيلان، وابن أقعس، وعمر، ورستم، وخيار، وخالد بن عثمان).

ويدخل العواذل دوماً في الصورة الدائمة لشعر الخمر.

أعــاذلّ إلاّ تُــقْــصــري عــن مــلامــتــي   أدعْك.وأعمد للتي كنتُ أفعلُ

والشارب يجب ألا يكون بخيلاً حصراً، أو حصوراً عند شراء الخمر:

وشــاربٍ مُــربــحٍ بــالــكــأس نــادمــنــي   لا بــالــحــصــور ولا فــيــهــا بــسّــوار

وعلى الشارب أن يهيىء للتاجر فرصة الربح، «مربح»، ولا يكون طفيلياً يشرب على حساب غيره. عابساً مقطب الجبين، كما عليه أن يبتعد عن الفحش:

وإذا تــعــوورت الــزجــاجــةُ لــم يــكــن   عــنــد الــشــراب بــفــاحــشٍ مــتــقــطّــب

وألا يكون هائجاً سيء الخلق في السكر.

لقد غدوت على النّدمان لا حصرٌ   يُخشى أذاه ولا مستبطأٌ زَمِرُ

---

(١) العوكل: المرأة الحمقاء الكثيرة الاختلاف.

ويمتد مجلس الشراب طويلاً، ثلاثة أيام أو أكثر، ولهذا يجب أن يحسب حساب لكل عواقب السكر.

فما لبثتّنا نشوةٌ لحقتْ بنا تـوابعها ممّا نُعلُّ ونُنهلُ

ويصادف ذلك عند جرير أيضاً.

والرجال الذين أصابتهم النشوة، منتشون ونشاوى:

لقوم ألظّوكم ببؤسى كأنّكم نشاوى ولم يُسقوْا طِلاءَ ولا خمْرا

وإحدى عواقب السكر: «الفتار» حيث يشعر الشارب وكأن الخمرة تسري في أعضائه.

تدبّ دبيباً في العظام كأنه دبيب نمالٍ في نقاً يتهيّل[١]

أو تكون الخمر شبيهة بالمرض:

فأصبح منها الوائليّ كأنّه سقيم تمشّى داؤه حين أسلسا

وعيون الشاربين تحمر:

قوم إذا هدر العصيرُ رأيتهم حمراً عيونهم كجمر النار

والخمر تسبب عدم التماسك في المشية «رنحت بنا».

حتى أن المضيف ينام ناسياً ضيوفه:

سقيتُ بها عُمارةً أو سقاني إذا ما الجبْسُ عن ضيفيْه ناما[٢]

والنتيجة الأخرى للسكر، هي «الخمر» ـ بضم ففتح ـ التي لا تفارق أبداً بعض الناس من الشاربين:

لذُّ أصابت حميّاها مقاتله فلم تكد تنجلي عن قلبه الخمَرُ

هذا، وإننا نصادف في شعر الأخطل تعبيرات رائعة عن المخمور، فيها الكثير من الصفات الواقعية، وهذا ما يشهد على خبرته الواسعة في هذا المجال. لكن هذه الأوصاف لا تخرج أبداً عن حدود الذوق الأدبي السليم. إنه يطلق على السكران

---

(١) النمال: جمع نمل. والنقا: القطعة من الرمل تنقاد وتحدودب. تهيل: ينهار ويتحدر.

(٢) الجبس: اللئيم البخيل.

غالباً اسم «صريع»، ويجعله يفقد تماماً موهبة الحديث والكلام كأن لسانه مصاب بداء البرسام:

وكأن شاربها أصاب لسانّه من داء خيبر أو تهامة، مُومُ

ولا يكتفي الأخطل بوصف الجوانب السلبية من شرب الخمر، بل يتعدى ذلك إلى الجوانب الأخرى، فالخمر تشفي وتصحصح الرأس: ورائحتها الطيبة يشعر بها حتى المزكوم. إنها تحيي الروح والجسم:

فجاء بها بعد الكرى فارسيةً دمشقية أحيتْ عظاماً وأنفُسا

ويمكن أن تبعث حتى «الموتى»:

عانيّةٍ ترفعُ الأرواح نفحتُها لو كان يُسقى بها الأموات قد نشروا

ومثل هذه المبالغات تصادف كثيراً في «شعر الزهد». والأخطل، حتماً، يعرف نماذج الشعر الشهواني وتعابيره، فهو مثلاً يشفى من ريق المعشوقة سعاد:

فلو كنتُ محصوباً بدَوْمةَ مُدْنفاً أُسَقى بريق من سعاد شفاني[1]

وأما ملاحظات الأخطل، فيما يتعلق بالتأثيرات النفسية للخمر، تتميز بدقاها الزائدة، فالخمر تجعل الرجل مرحاً:

فلذّت لمرتاح وطابت لشارب وراجعني منها مَراح وأخيّلُ

والمخمور يزهو ويتيه ويجر ذيول الخيلاء، حتى أن السيف المصلت فوقه لم يعد يخيفه:

وأدبر، لو قيل: اتّقِ السّيف لم تخلْ ذؤابتَه، من خشيةٍ، اقشعرّت[2]

(١) المحصوب: من به داء الحصبة: والمدنف: الذي أثقله المرض.
(٢) اقشعرت: اهتزت وقطع همزة الوصل للضرورة.

الفصل الثالث عشر

فن الخطابة

خطب السلطة وخطباؤها

يتصل النثر الفني خطابةً وكتاباً، اتصالاً مباشراً، بحياة الدول، لدى الأمم والشعوب، فينمو بنموّها ويرقى برقيها، ويموت بموتها. ولهذا سنجد كيف قفز النثر الفنيّ في العصر الأموي قفزة نوعية، محققاً تقدماً بارزاً على صعيد فن الخطابة كما على صعيد فن الرسائل، بالقياس إلى ما كان عليه في العصرين السابقين: الجاهلي وصدر الإسلام، وبالقياس إلى ما آل إليه طيلة العصر الأموي الذي ورث هذين العصرين سياسياً وعلمياً وأدبياً.

ويتحدّث النقّاد عن عوامل كثيرة أسهمت في ازدهار الخطابة من جهة والكتابة من جهة أخرى في عصر بني أميّة.

فقد حافظ العرب حتى ذلك العصر على سلائقهم اللغويّة، وكان لهم من بلاغة المنطق وحسن البيان وجودة الإفصاح والإفهام، ما يمكن أن يشكّل مادة الخطابة الأولى. كذلك فإن هذا العصر قد امتاز بظهور معارضة قوية للدولة الأموية، مما كان يقوّي جذوة الخطاب العربي بين الأطراف المتنازعين. وقد ظهر للأمويين خطباؤهم وكذلك للشيعة والزبيريين والخوارج والمرجئة، وكان يدور بين هؤلاء جدل سياسيّ وديني وأدبي، ساهم في إنتاج كمٍ هائل من الخطب والرسائل والدواوين لم يعرفها العرب في العهود السابقة.

بالإضافة إلى ذلك برز خطباء الوفود الذين كانوا يقصدون قصور الخلفاء

والأمراء والولاة. وقد اشتهر خلفاء بني أمية وفي طليعتهم معاوية، باستقدامهم الوفود من الأمصار، من أجل الدعم والتأييد. كما برز خطباء المساجد والجوامع، بعد أن جعل الإسلام الخطابة جزءاً من صلاة الجمعة والعيدين. كما ظهر خطباء الوعظ وخطباء القصص، وما كان يتصل بذلك من صور المناظرات والمحاورات.

وكما انتظم الناس للسماع في حلقات المساجد، كذلك انتظموا للسماع في حلقات المرابض والثغور، وسائر الحلقات التعليميّة والوعظيّة والدينيّة، مما كان يساهم في رقيّ الخطابة والكتابة رقياً بعيداً. وسنتحدث أوّلاً عن خطب السلطة الأموية وخطبائها، لنعود فنتحدث لاحقاً عن خطب المعارضة وخطبائها.

لغة الخطاب وجوهره

بالعودة إلى خطب الحزب الأمويّ وأنصاره، نرى كيف كان هؤلاء الخطباء يتداولون أبرز الأفكار التي قام عليها هذا الحزب، على الرغم من ظهور بعض السمات الفرديّة في لغة الخطاب ونبرته وأسلوبه، والتي كان يتميز بها كل خطيب من خطباء الأمويين عن الآخر.

فقد اتجه خطباء الأمويين للاحتجاج لحق بني أميّة في الحكم، والتسموا لذلك الأدلّةوالبراهين. ونظراً لافتقادهم الحجج الدامغة والبراهين القاطعة، فقد سلكوا في خطابهم سبيل المداورة والمغالطة، كما سلكوا سبيل التلويح بالقوّة والقتال وانتزاع حقهم من الطامعين. يقول معاوية في خطبته بالمدينة عام الجماعة: «أمّا بعد، فإني والله ما وليتها بمحبة منكم، ولا مسّرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدةً»[1].

وطالب خطباء الأمويين الرعيّة بالطاعة، وذلك لمبايعة المسلمين لهم. وقد حذروا الناس من الفتنة والمعصية. وغالباً ما كانوا يضعون عدل الراعي بإزاء طاعة الرعية. ففي خطبة عتبة بي أبي سفيان بمصر: «قلنا عليكم السمع والطاعة، ولكم علينا العدلُ. فأيُنا غَدر فلا ذمّة له، عند صاحبه»[2].

---

(١) ابن عبد ربه. العقد الفريد: ٤/١٨١.
(٢) المرجع نفسه: ٤/٣٦٨.

ويحاول خطباء الأمويين، أن يوضّحوا نهج الخلفاء في الحكم. وقد يتولّى الخليفة الأمويّ نفسه هذه المهمة، فيقف خطيباً في مناسبة توليه سدّة الخلافة، ويشرح للمسلمين خطته في الحكم، والمبادىء التي سيعمل من أجل تحقيقها. وربما تولّى الوالي هذه المهمة عن الخليفة في الأمصار البعيدة بغية اجتذاب القلوب. ففي خطبة يزيد بن الوليد التي قالها إثر مقتل الوليد الثاني: «إن لكم عليّ إن وليت أموركم ألاّ أضع لبِنة على لبنة.. حتى أسدّ ثغرة»[١].

واتسم خطاب السلطة الأموية، بطابع التهديد والوعيد، ولذلك نرى الخطباء يعمدون في خطبهم إلى تهديد كلّ من تحدّثه نفسه بالثورة والعصيان. وهم يتوعدون الخارجين عليهم بالنكال وسوء المصير، وينفرون القوم من الفتنة ويحذرونهم مغبتها. ففي نهاية خطبة معاوية نراه يقول: «وإياكم والفتنة، فإنها تفسد المعيشة وتكدّر النعمة»[٢]. كما يقول عبد الملك بن مروان؛ «فمن قال برأسه كذا، قلنا له بسيفنا كذا»[٣]. أمّا عتبة بن أبي سفيان فيقول: «يا أهل مصر إيكم أن تكونوا للسيف حصيداً»[٤].

ويعمد خطاب السلطة الأموية إلى الجمع بين الترهيب والترغيب، وغالباً ما كان خطيب السلطة الأموية يغدق على الناس الوعود المغرية، مثل البذل والعطاء ومنح المناصب، وشتى أشكال الإغراءات المادية. فعبد الملك يقرن وعيده وتهديده بأشكال الترغيب المختلفة: واستديموا النعمة التي ابتدأتكم برغيد عيشها ونفيس زينتها»[٥].

وسلك هؤلاء الخطباء مع معارضيهم، سبيل التحدي الثائر، ولوّحوا لهم بقبضاتهم، ومنهم من تحدى أعداءه وشتم خصومه، وألصق بهم النعوت القبيحة. وقد خاطب الحجاج أهل العراق فقال: «يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوىء الأخلاق، وبني اللكيعة وعبيد العصا، وأولاد الإماء»[٦].

---

(١) نفسه: ٤/ ٩٥.
(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد: ٤/ ٨١.
(٣) نفسه: ٤/ ٤٠١.
(٤) نفسه: ٤/ ١٣٧.
(٥) القلقشندي، صبح الأعشى: ١/ ٢١٨.
(٦) الجاحظ: البيان والتبيين، ٢/ ١٣٧، اللكيعة: اللئيمة.

وتعظم في خطب الأمويين روح التفاخر والتعالي، فلا يغفل الخطيب ولو للحظة عن التنويه بمزايا الأمويين ومناقبهم، والمفاخرة بذلك. فقد كان يحرص على إبراز صفات القوة والبطش، والتلويح باستعمال القوة وأخذ الناس بها، حتى ينصاعوا جميعاً. ويقول عبد الملك بن مروان بعد قلته مصعب بن الزبير، مخاطباً أهل العراق: «أيها الناس، إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف، ولا بالخليفة المداهن»[١]. . . كما يقول: «أيها الناس إن الحرب صعبة مرة، وإن السلم أمنٌ ومسرّة». وقد زينتنا الحرب وزيناها فعرفناها وألفناها. فنحن بنوها، وهي أمّنا»[٢].

ورغم اعتداد الأمويين بأنفسهم، فلم يذهبوا إلى حدّ ادعاء الكمال لأنفسهم، وإنما قالوا بأنهم أصلح المسلمين لتولي الخلافة، وعلى الناس أن يقبلوهم على ما هم عليه، ولا ينخدعوا بغيرهم ممن يطمعون في الخلافة. وقد خطب معاوية يقول: «فإن لم تجدوني خيركم، فإنّي خيرٌ لكم ولاية». كما قال في خطبة أخرى: «فاقبلونا بما فينا، فإن ما وراءنا شرٌّ لكم»[٣].

وخطباء الحزب الأموي، يشيرون دائماً إلى مقتل عثمان. وربما اتخذوا ذلك ذريعةً للانتقام. ويصرح بعضهم بكرههم الدائم لأهل المدينة، بسبب يوم عثمان. وقد خاطب عبد الملك أهل المدينة فقال: «فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تحبوننا أبداً، وأنتم تذكورن يوم الحرّة، ونحن لا نحبكم أبداً ونحن نذكر قتل عثمان»[٤].

وبسبب اجتماع الصفتين الدنيويّة والدينيّة في الخليفة، كان الخطاب السياسيّ عند الأمويين، يتصل بالخطاب الديني ذي الطابع الوعظي. وكان الوعظ يدور حول التزهيد في الدنيا الغرور، والترغيب في ما عند الله من الثواب العظيم.

أعلام الخطباء الأمويين

ولا شك أن ظهور الإسلام بالدعوة العظمى، من أهم الأسباب التي بلغت بالخطابة غاية كمالها، وجعلت الأمر في يد رجالها. فمن الدعوة إلى الدين، إلى

---

(١) العقد الفريد: ٤/ ٤٠١.
(٢) القالي، الأمالي: ١/ ١٢.
(٣) العقد الفريد: ٤/ ١٣٢.
(٤) المسعودي: مروج الذهب: ٢/ ١٢٩.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقمع الفتن، وردّ البدع، وتحميس الجند، فهذا كلّه من أغراض الخطابة.

وكان للخطابة من آي القرآن وحججه معين لا ينضب، ومدد لا ينفد. ولعلّ اختلاف المسلمين بعد مقتل عثمان، وتعدّد الفرق والأحزاب، أسهما في رقيّ الخطابة رقياً عظيماً، [لاعتماد] كل حزب عليها فينشر نحلته وتأييد دعوته. وأهم ما كن يميزها في العصر الأموي، عذوبة ألفاظها ومتانة أسلوبها، وقوة تأثيرها، واقتباسها من القرآن الكريم، وانتهاجها منهجهُ في الإرشاد والإقناع، وابتداؤها بحمد الله والصلاة على رسوله.

وقد ظل العرب على عادتهم في الخطابة من لوث العمامة، واتخاذ المخصرة والوقوف على نشز من الأرض في الخطبة، وقد شذّ عن ذلك الوليد بن عبد الملك، فإنه خطب وهو جالس.

وليس في عصور العربيّة، عصر زها بالخطابة وحفل بالخطباء، مثل العصر الأموي، لانصراف العرب عن الشعر إليها، واعتمادهم في الدين والسياسة عليها. وأشهر خطباء الحزب الأموي، سحبان وائل، وزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف.

سحبان وائل (ت: ٥٤هـ)

نشأ سحبان بن زفر بن إياد في الجاهليّة، بين قبيلة وائل من ربيعة، ثم اعتنق الإسلام عند ظهوره، واتصل بمعاوية فحسُن موقعه لديه، وقد اعتمد في يوم الكلاب عليه.

وكان سحبان خطيباً، غمر البديهة، قوي العارضة، متصرفاً في فنون الكلام، كأنما يتلو عن ظهر قلبه. وكان يضرب به المثل في البداهة والخطابة وقوة الحجة. كما كانت له باعه الطولى في الفصاحة والبيان واقتناص الأدب من جحوره الأولى.

وفي أخباره أن وفداً من خراسان، قدم على معاوية بالشام للتهنئة فطلب سحبان، فلم يجده في منزله، فاقْتُضب من حيث كان، وأدخل عليه، فقال معاوية: تكلّم. فقال: أحضروا إليّ عصا. قالوا وما تصنع بها أنت، بحضرة أمير المؤمنين؟ قال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه. فضحك معاوية وأمر له بها. فلما

جاءته، لم ترق في نظره، فركلها، فجاؤوه بعصاه، فأخذها وخطب من صلاة الظهر إلى أن حان وقت العصر، ما تنحنح ولا سعل ولا توقف ولاتلكأ، ولا ابتدأ في معنى وخرج منه وقد بقي فيه شيء.

وما زال سحبان وائل على حاله تلك، ينثال الكلام على لسانه انثيالاً، حتى دهش منه الحاضرون. فأشار إليه معاوية بيده. فأشار إليه سحبان لا تقطع عليّ كلامي. فقال معاوية، الصلاة! قال هي أمامك، نحن في صلاة وتحيمد، ووعد ووعيد. فقال معاوية: ويحك. أنت أخطب العرب. قال سحبان: والعجم والجن والإنس.

ولا شك أن هذه الحادثة تدل على قوته وجُرأته وغزراة بحره، وثقته بنفسه، ومعرفته لقدره. ولكن المأثور من خطبه قليل إلى جانب شهرته. ولعل خلّوه من الجاه والرياسة، وبعده عن الأحزاب والسياسة في أواخر عهده، بالإضافة إلى طول خطبه ووحدة موضوعها، صرف الرواة عنه.

ومما يروى لسحبان وائل قوله في خطبة له: «إن الدنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار. أيها الناس، فخذوا من دار ممركم، إلى دار مقركم. ولا تهتكوا أستاركم، عند من لا تخفى عليه أسراركم. واخرجوا من الدنيا قلوبكم، قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها حبيتم، ولغيرها خُلقتم. إن الرجل إذا هلك، قال الناس ما ترك؟ وقالت الملائكة ما قدَّم؟ فقدّموا بعضاً يكون لكم، ولا تخلفوا كُلاً يكون عليكم»[١]. وقد ضرب به المثل في الفصاحة والبيان، فقيل: «أخطب من سحبان وائل»[٢]

زياد بن أبيه (ت: ٥٣هـ)[٣]

ولد على فراش الحارث بن كلّدة الثقفي طبيب العرب. فقد كانت له أمةٌ تدعى سميَّة وعبد رومي يسمّى عبيداً. فزوّج العبد من الأمة، فولدت على فراشه زياداً في السنة الأولى من الهجرة. وقد ضربت فيه بعرق أشِب، فنشأ أريباً أدبياً داهيةً.

---

(١) ابن نباتة: سرح العيون. ص٩٥. وزهر الآداب للحصري: ٤/ ٣٣ والبيان والتبين للجاحظ: ١/ ٣٤٨.
(٢) الميداني: مجمع الأمثال. (مادة خطب) صنعة د. قصي الحسين. طرابلس . دار الشمال ١٩٩٠.
(٣) البلاذري: أنساب الأشراف: ١/ ٤٨٩ (طبعة القدس ١٩٣٦).

ولم يكد أمر المسلمين يتسع ويتّسق، حتى دلّت عليه كفايته، فاستكتبه أبو موسى الأشعري والي البصرة من قبل عمر، فتجلّى نبوغه وظهر حذقه. وقد تقلبت به الأمور في عهد عمر، حتى شاء أن يعزله عن عمله، لا لخيانة ولا لعجز، وإنما كره أن يحمل على الناس فضل عقله.

على أن عمر كان يستكفيه المهم من أموره، فيكفيه غير عاجز ولا مقصر. وخطب بين يديه يوماً في حضرة المهاجرين والأنصار خطبة لم يسمعوا مثلها، فقال عمرو بن العاص: لله درّ هذا الغلام! لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه. وبلغ من إعجاب أبي سفيان به، أن اعترف بعد إسلامه، لعلية قريش، وفيهم عليٌّ، أن زياداً ابنه، اشتملت عليه أمُّه منه، وهو مشرك. ولكن خوفه من عمر منعه أن يلحقه بنسبه.

ولمّا تولّى الخلافة أمير المؤمنين عليّ، وجد في زياد اليد المصرّفة، والرأي الجميع، واللسان الذّرب، فاستعمله. فراض الأمور، وسدّ الثغور، وأحكم السياسة. وحاول معاوية أن يستميله إليه فأعياه، حتى قتل عليّ، فرأى أن يستخلص مودّته باستلحاقه بنسب أبيه وادعائه أخاً له. فصار يُدعى بعد ذلك زياد بن أبي سفيان. ولكن كثيراً من الناس لا يعترف له بهذا النسب. ثم ولاه معاوية المصرين: البصرة والكوفة، فكان أول من جمعا له.

وكان زياد من ذوي الأحلام الوافرة، والأذهان الحاضرة، واللسان الفتيق. قال فيه الشعبي: ما سمعتُ متكلماً على منبر قط تكلّم فأحسن إلاّ أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلاّ زياداً، فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً.

وزياد من أقوى العمد التي قام عليها عرش بني أمية، رمى به معاوية وجوه الفتن، فلمّ الشّعث، وشدّد السلطان، واشتطّ في العقوبة، فأخذ بالظّنة، وعاقب على الشبهة، وقتل المعلن واستصلح المُسر. وخافه الناس خوفاً شديداً حتى أمن بعضهم بعضاً، وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد، حتى يأتيه صاحبه فيأخذه. ولا يغلق بابه. وهو أول من أعلن الحكم العرفي في الإسلام بخطبته المعروفة بالبتراء وهي الخطبة التي خطبها حين قدم البصرة.

كان زياد بن أبيه ذا موهبة فذّة، كما كان فصيحاً ولسناً. وهذا ما جعله أحد

أعلام الخطابة البارزين في عصر بني أمية. وكان عمر بن الخطّاب شديد الإعجاب ببلاغته واقتداره على القول، وقد دعاه بالخطيب المصقّع[١]. وكان معاوية يفاخر به الخطباء في مجلسه ويدعوه كذلك بالخطيب المصقّع[٢]. وكان الشعبي يكثر الثناء على بلاغته، وكان يقول: «ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلاً أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً، فإنه كلما أكثر، كان أجود كلاماً»[٣].

وقد قال زياد يوماً لجلسائه: «منْ أغبط الناس عيشاً. فقالوا: الأمير وجلساؤه. فقال: ما صنعتم شيئاً. إن لأعواد المنبر لهيبة، وإن لقرْع لجام البريد لفزعة. ولكن أغبط الناس رجل له دار لا يجري عليه كراؤها، وله زوجة صالحة قد رضيته، فهما راضيان بعيشهما. . .» فقال عبيد الله بن الحسن معلقاً: من أراد أن يسمع كلاماً من در فليسمع هذا الكلام»[٤].

لم يصلنا من خطب زياد إلاً اثنتا عشرة خطبة. منها خطب كاملة أو شبه كاملة. ومنها نتف مأخوذة من خطب لزياد. ومن المحقق أن خطباً كثيرة له قد فقدت، شأن كثير من الخطب الأمويّة. ولكن شهرة زياد الخطابيّة، تكاد تقوم على خطبته البتراء. وما عدا هذه الخطبة لا نجد له ما يسوّغ تفوقه بين أقرانه من خطباء عصره.

وأجود روايات خطبة البتراء، ما أورد الجاحظ في البيان والتبيين، حيث ابتدأ زياد فقال: «أمّا بعد، فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغيّ الموفي بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير. كأنكم لم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرْمد الذي لا يزول». ثم يقول: «إني رأيتُ آخر هذا الأمر لا يصلح إلاً بما صلح به أوله، لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف. وإني أقسم بالله لآخذن الولي

---

(١) ابن عساكر. تاريخه: ٥/ ٤٠٦.
(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد: ٤/ ٥٥.
(٣) تاريخ ابن عساكر: ٥/ ٤١٤.
(٤) المرجع نفسه: ٥/ ٤١٦.

بالمولى والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سُعيد، أو تستقيم لي قناتكم»(١).

ومردّ قيمة هذه الخطبة «البتراء» إلى أمور ثلاثة: الأول أنها استوفت عناصر الخطبة الكاملة، مثل حسن التنسيق وترتيب الأفكار وتسلسل الأقسام وترابط الأجزاء، والثاني أنها توضح خطة الوالي الأموي في الحكم والسياسة، بحيث شكلت عناصرها مواد صالحة للحكم في ذلك العصر. أمّا الأمر الثالث، فهي لأنها أتت في غاية الفصاحة والبلاغة، مما أضفى عليها حلة عظيمة، زادت في نقاوة بيانها، وجعلت منها نموذجاً للفصاحة العربيّة الخالصة(٢).

وتشتمل «البتراء» على طائفة من المبادىء السياسية والعظات الدينية والخلقية. وقد صيغت في قوالب لفظية مركزة، يصلح كل منها أن يكون موضوعاً لخطبة مستقلة. وقد اتبع زياد أسلوب الإشارة الموجزة ولم يلجأ إلى التعليل. وكان يؤدي أفكاره بأوجز عبارة وأقل لفظ، مع قوة في التأليف ومتانة في التركيب وروعة في الأداء، وقد اتسم أسلوبه بعنف اللهجة، كما انطبع بطابع البداوة، ولم يستشهد بالشعر في خطبته، وأكثر من السجع واستعان بالأسلوب التصويري: «أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا».

الحجاج بن يوسف: (٤١ ـ ٩٥هـ)

في مهد الخمول والفقر، كانت ولادة أبي محمد الحجّاج بن يوسف الثقفي. وقد زاول مع أبيه تعليم الصبية بالطائف، غير أنه كان يرغب عن الضَّعة، سعياً للرفعة، فدخل على روْح بن زنْباع الجُذامي، وكان أحد أعوان عبد الملك بن مروان، بما ملك من دهاء وذكاء، فلفته إليه وجعله في شُرطته، ولم يلبث أن قدمه إلى الخليفة، فقلده إمرة جنده. وقد كانت له تجربته الهامة مع الجند، إذ جعلهم يسلكون في النظام ويسلسون للطاعة».

(١) الجاحظ: البيان والتبيين: ٢/ ٦٥.
(٢) النص، إحسان. الخطابة العربية في عصرها الذهبي: ص٣٣١. دار المعارف بمصر ١٩٦٣. وقد سميت هذه الخطبة بالبتراء لأنها لم تبتدىء بالبسملة والحمدلة.

وقد اشتهر أمر الحجاج ونَبَهَ ذكره، أثناء حملته على عبد الله بن الزبير الذي استقل بالحجاز ودعا إلى نفسه، فحاصره بمكة وقتله واجتث ملكه. فثبتت كفايته وسمت مكانته في نفس عبد الملك، فولاّه العراق وهو يضطرب بفتنة الشيعة، ويضطرم بثورة الخوارج، فعسفهم عسفاً شديداً أذل أعناقهم، وجعل أشرافهم يطأطئون رؤوسهم له وينصاعون لإمرته، بعدما أخذ بهم كل مأخذ وكان ذلك في سنة ٧٥هـ.

كذلك ولّى الحجاج عبيد الله بن أبي بكرة سجستان وأمره أن يتوغل في غزوه. كما نازل محمد بن الأشعث في موقعة دير الجماجم سنة ٨٣هـ، وأنزل به هزيمة نكراء. وبعد الهزيمة جاء الحجّاج حتى دخل الكوفة، وجاء الناس يبايعونه فلا يرضى مبايعتهم إلاّ إذا شهدوا على أنفسهم بالكفر بخروجهم هذا. فمن شهد نجا، ومن أبى قتله[١]. ثم أرسل إلى رتبيل الذي استغاث به ابن الأشعث، أن يقبض على ابن الأشعث ويرسله إليه. فانتحر ابن الأشعث، فاحتز رتبيل رأسه مع رؤوس بعض جنده، وأرسل بالرؤوس إلى الحجاج. مما يدل على قوة سطوة الحجاج، الذي ظل دعامةً لملك عبد الملك وابنه الوليد يضبطه ويبسطه حتى طبق ما بين الشام والصين، ومات بواسط سنة ٩٥هـ، وهي المدينة التي اختطها في العراق. وكان الحجاج «طماحاً إلى السلطان والمجد، فسلك إليهما سبيل الظلم والقسوة، وتذرّع لنيلهما بالفصاحة والقوّة، ورزقه الله من طلاقة اللسان وقوة الجنان القسط الأوفر، فانتهى أمره إلى السلطان القاهر، والكلمة النافذة»[٢].

وأراد عبد الملك بن مروان يوماً أن يمتحنه، فقال له: كل امرئ يعرف عيوبه بنفسه، فعِبْ نفسك ولا تخفِ عني شيئاً. فقال: «أنا لجوجٌ حقود حسود. ومتى كانت هذه الصفات في متسلط أهلك الحرث والنسل، إلاّ أن يدينَ له الناس ويذلّوا».

وكان فصيحاً قوي الحجّة لا يكاد يعدله في ذلك أحد من أهل زمنه. قال مالك بن دينار: «ما رأيت أحداً أبين من الحجّاج. إنه كان ليرقى المِنبر فيذكر

(١) الخضري، الشيخ محمد، الدولة الأموية: ص٣٤٣. (دار المعرفة. بيروت ١٩٩٦.

(٢) الزيات، أحمد حسن: تاريخ الآداب العربية. لجنة الترجمة والتأليف والنشر. القاهرة ١٩١٤.

إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءاتهم إليه، حتى لأحسبه صادقاً، وأظنهم كاذبين. مع أنه قتل بالصبر مائة وعشرين ألفاً، وتُوفي وفي سجونه منهم خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة.

ولا شك أن الحجّاج بن يوسف كان خطيباً سياسيّاً من الصفّ الأوّل في الحزب الأموي. وكانت خطبه من أمضى الأسلحة التي استخدمها في وجه خصوم الأمويين، إذ عمل بها على ترويض القوم كما كان يروضهم بحسامه. فلما قتل الحجّاج عبد الله بن الزبير، ارتجت مكّة المكرّمة بالبكاء، فصعد المنبر، فقال:

«ألا إن ابن الزبير، كان من أحبار هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكن بحرم الله. ولو كان شيء مانعاً للعصاة، لمنع آدم حرمة الجنّة، لأن الله تعالى خلقه بيده، وأسجد له ملائكته وأباحه جنته، فلمّا عصاه أخرجه منها بخطيئته. وآدم أكرم من ابن الزبير والجنة أعظم حرمة من مكة».

فقد نهج الحجّاج في خطبه نهج التهديد والوعيد من جهة ونهج التحذير والتدبير من جهة أخرى. وذهب إلى قرع الحجّة بالحجة والرأي بالرأي. ففي خطبه إلى أهل العراق يقول: يا أهل الكوفة؛ إن الفتنة تلقح بالنجوى، وتنتج بالشكوى، وتحصد بالسيف. أما والله إن أبغضتموني لا تضروني، وإن أحببتموني لا تنفعوني. وما أنا بالمستوحش لعداوتكم، ولا المستريح إلى مودتكم. زعمتم أني ساحر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾. وقد أفلحت، وزعمتم أني أعلم الإسم الأكبر، فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون؟

وتختلف نبرة خطابه هذا الموجه إلى مجتمع الخصوم، عن نبرة خطابه الآخر الموجه إلى مجتمع الأحلاف، حيث يلاطفهم ويتودّد إليهم ويشعرهم بأنهم منه وإليه فيقول[1]: «لأزواجكم أطيب من المسك، ولأبناؤكم آنسُ بالقلب من الولد، وما أنتم إلاّ كما قال أخو ذبيان:

---

(١) الإمام محمد أبو زهرة: الخطابة، أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب: ص٣٢١. (دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٨٠).

إذا حاولت في أسد فجوراً فإني لست منك ولست مني
هم درعي التي استلأمت فيها إلى يوم النِّسار وهم مِجَنّي

ثم قال: بل أنتم يا أهل الشام كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

وتعتبر خطبته التي خطب بها أهل العراق حين قدم أميراً عليهم، النموذج الدال على شخصية الحجّاج وسياسته وعنفه ودهائه، في أخذه الناس بالقوة حين كان الأمر يتطلب الحزم. ومعظم خطبه كانت تتصل بالشعر حيناً وبالقرآن حيناً آخر، بحسب ما تستدعيه درجة الإثبات والبرهنة على الموقف الأخير له من المسائل التي يعالجها فقد خطب فرق منبر الكوفة فقال:

يا أهل الكوفة! إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحام قطافها، وإني لصاحبها. وكأني أنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى!

هذا أوان الشدّ فاشتدي زِيَمْ قد لفّها الليلُ بسوّاق حُطَم
ليس براعي إبلٍ ولا غَنَم ولا بجزّارٍ على ظهر وَضَم
قد لفَّها الليلُ بِعَصْلَبيّ أروَعَ خرَّاجٍ من الدَّويِّ
مهاجر ليس بأعرابي
قد شمَّرت عن ساقها فشدّوا وجدَّت الحربُ بكم فجدّوا
والقوسُ فيها وَتَرٌ عُرُدُّ مثلُ ذِراع البَكْر أوْ أشدُّ
لا بدُّ مما ليس منه بدُّ!

إنّي والله يا أهل العراق ما يقعقعُ للي بالشّنان، ولا يُغمزُ جانبي كتغماز التين. ولقد فررت عن ذكاء، وفُتّشتُ عن تجربة، وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرَّها عوداً وأصلبها مكْسراً فرماكم بي. ويقول: وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلّف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيامٍ إلاّ ضربْت عنقَه[1]!

فالحجاج بحسب هذه الخطبة يتهدّد ويتوعّد، ويحشد في خطبته من الحكمة

---

(١) المرجع نفسه: ص٣٢٢.

والأشعار ما يراه مناسباً، لبيان سياسته العامة في أخذ الخصومة بالقوة وعدم التساهل مع الخارجين عن إرادة الدولة العليا والحث على الإنخراط في مشروع الفتح العربي الإسلامي، وتثبيت الأمن بصورة عامة، خصوصاً في تلك الأقطار التي انتدبه الخليفة لولايتها.

خطب المعارضة وخطباؤها

ترافق تأسيس الدولة الأموية مع ظهور معارضة قوية لها تمثلت بأحزاب الخوارج والشيعة والزبيريين. وكما نهض خطباء الحزب الأموي يدافعون عن حق الأمويين في السلطة والحكم، كذلك انبرى خطباء المعارضة لتسفيه دعوى الأمويين والنيل منهم في إطار الثورة المتأججة التي حملوا بها على الدولة الأموية وقادتها وولاتها.

فقد كان من وراء السيوف، الخطب القوية الثائرة، والعبارات الشديدة الدافعة إلى الموت، رجاء مثوبةٍ، أو طمعاً في إعادة الحق إلى أصحابه. فالخطابة وجدت في ذلك مادة للقول وحافزاً إليه، فحمل المعارضون والثائرون على بني أميّة، يعدّدون مساوئهم ويندّدون باجترائهم على ذوي الحق، ويرمونهم بالخروج على الدين، ويذكرونهم بماضي أسلافهم في محاربة النبي ﷺ، وكيف أنهم كانوا العقبة الكأداء في وجه الإسلام والمسلمين.

خطب الشيعة

ونهضت خطب الشيعة من آل البيت على الافتخار دائماً بانتسابهم إلى الدوحة الهاشمية وبقرابتهم للرسول ﷺ. وفي أوّل خطبة للحسن بن عليّ بعد مقتل والده، يقول مفتخراً: «أيها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني، فأنا الحسن بن محمد بن رسول الله ﷺ. أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، والسراج المنير. أنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»[(١)].

(١) الزيات، أحمد حسن: تاريخ الآداب العربية، ص٧٧.

وكذلك، فقد ألح الإمام الحسين رضي الله عنه على هذه الفكرة في خطبته التي خطبها حين خرج لمواجهة جيش زياد إذ قال: «أمَّا بعد، فانسبوني، فانظروا من أنا. ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها. فانظروا هل يحلّ لكم قتلي، وانتهاك حرمتي. ألستُ ابنَ نبيكم ﷺ. وابن وصيّه وابن عمه. وأوّل المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء به من عند الله. أوَ ليس حمزة سيد الشهداء، عم أبي. أو ليس جعفرُ الشهيد الطيار ذو الجناحين عمي»(١).

وناضل خطباء الشيعة من آل البيت عن حقهم بالخلافة، بسبب قرابتهم للرسول ﷺ، وما كان لعلي من المآثر والمناقب في نصرة النبي ﷺ، حين كان يتعرض لأذى قريش. وكانوا يطالبون المسلمين جميعاً بنصرتهم وتقريع خاذليهم ولوم الذين تخلّوا عن نصرتهم وأسلموهم إلى جلاّديهم، وإنذارهم بعذابٍ من الله شديد.

وتتبع خطباء الشيعة مثالب بني أميّة وما كان يؤخذ عليهم من مطاعن. وربما تناولوهم بالشتم والقذف. وقد اتهموهم بالجور والاستئثار بالفيء وتعطيل الحدود. وقد كان الإمام الحسين يعدد مساوئ بني أميّة فيقول: «ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله»(٢).

ودعا خطباء الشيعة للثورة على بني أمية، وحرّضوا على مقاتلتهم، ابتغاء ثواب الله ومرضاته. وقد أكثروا من التحدث عن محن آل البيت ومصارع رجال الشيعة وزعمائهم. وقد برعوا في تصوير ما ألمّ بأنصار الشيعة من اضطهاد وتعذيب، خصوصاً حين كانوا يحرصون دائماً على التذكير بمصرع الحسين، والعناية بتفصيل بمقتله. وقد خطب عبيد الله المرّي وهو من أنصار الشيعة، فقال: «ألم تروا ويبلغكم ما اجتُرم إلى ابن بنت نبيكم. أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمته واستضعافهم وحدته، وترميلهم إياه بالدّم، وتجرارهموه على الأرض. لم يراقبوا فيه ربهم، ولا قرابته من الرسول ﷺ. اتخذوه للنبل غرضاً، وغادروه للضباع جزراً»(٣).

---

(١) ابن أبي حديد: شرح نهج البلاغة: ٤/ ١١.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٢٢.
(٣) المرجع نفسه: ٤/ ٣٠٤.

واقترن تحريضهم على الثورة بطلب الثأر لقتلى آل البيت، وكان شعارهم المناداة بالثأر. وبتوالي مصارع الطالبين كثر الطلب بدمائهم في جميع خطب أشياعهم، حتى أن الدعوة العباسيّة حين قامت، كانت تدعو إلى الثأر للحسين وزيد وابنه يحيى. وقد كان خطباء التوابين(١) أشدّ الداعين إلى الطلب بدم الحسين. فقد خطب المسيب بن نجية يلوم جماعته ونفسه على خذلان الحسين: «فما عذرنا إلى ربنا، وعند لقاء نبينا ﷺ. وقد قتل فينا ولده وحبيبه وذريتُه ونسله. لا والله لا عُذْر لنا دون أن تقتلوا قاتليه والموالين عليه، أو تقتلوا في طلب ذلك»(٢).

فمحور خطب الشيعة يدور حول ادعائهم أن الخلافة حقهم وحدهم، دون سائر الأحزاب، وذلك لانتمائهم إلى البيت النبوي، كما يقولون إن النبيّ أوصى بالأمر لعلي بعده. وقد حرضوا على الطلب بدماء من قتل منهم.

خطب الخوارج

عمد خطباء الخوارج إلى تبيان الأسس التي يقوم عليها مذهبهم كما بيّنوا المبادئ التي يدعون إليها، ودافعوا عنها واحتجوا لها.

وكان معظم خطباء الخوارج من رؤساء الفرق الخارجية. وقد مهّدوا لشرح المبادئ التي تقوم عليها دعوتهم، بتبيان الحالة السياسية التي انتهى إليها المسلمون في زمن بني أميّة، فجعلوا من فساد الأمور في عهدهم مسوغاً لخروجهم وثورتهم.

ويعتبر أبو حمزة الخارجي من أشهر خطبائهم. وقد أرسى نهج الخطبة الخارجية، حين خطب مطولاً بالمدينة. كذلك فعل عبد الله بن يحيى في خطبته التي خطبها في بلاد اليمن إثر استيلائه عليها، فقال: إنَّا ندعوكم إلى كتاب الله وسُنة نبيه، وإجابة من دعا إليهما. الإسلام دينُنا ومحمد نبينا، والكعبة قبلتنا والقرآن إمامنا. . . من زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شرب الخمر فهو كافر، ومن شكّ في أنه كافر فهو كافر»(٣).

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٣٢.
(٢) التوابون: الجماعة التي خذلت الإمام الحسين، وندمت على عملها إثر مقتله، ونادوا للثأر من قتلته.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٢٦.

إلى ذلك فقد سدّد خطباء الخوارج حراب النقد إلى خصومهم الأمويين فعدّدوا مآخذهم ومطاعنهم عليهم، من تعطيل لحدود الله، وجور في الأحكام، واستئثار بالفيء. وندّدوا ببني أميّة واعتبروهم فرقة ضلالة. يقول أبو حمزة الخارجي: «أخذوا المال من غير حلِّه فوضعوه في غير حقِّه، وجاروا في الحكم فحكموا بغير ما أنزل الله». كما يقول أيضاً: «وأما بنو أميّة ففِرْقة ضلالة. الخ»[1].

وقد شتم خطباء الخوارج الأمويين، كما شتموا من يلوذ بهم ويحطب في حبلهم. وسلكوا في خطبهم طريقة الترهيب والترغيب. فهناك عذاب الله. وهناك ثواب الله. وعذابه شديد، وثوابه عظيم.

وعمل خطباء الخوارج على استمالة الناس إلى مذهبهم وإثارة العطف على جماعتهم. فأغنياؤهم ينفقون حياتهم في العبادة والصلاة وفي مجاهدة الأعداء. وأيامهم مجالدة وليلهم مجاهدة وأجسامهم ناحلة من كثرة الصوم.

إلى ذلك فقد أظهروا في خطبهم كيف يستخفون بأعدائهم وكيف يستهينون بهم. وقد صوّروا أيضاً استبسال الخوارج في المعارك، وزهدهم في الدنيا ومتاعها. وقالوا إنهم يتعجلون النقلة من دار الفناء إلى دار البقاء. ومزجوا السياسة بالوعظ، رغم أنهم قد أفردوا خطباً خاصة للوعظ والإرشاد والهداية.

فخطب الخوارج تتسم بالصراحة والجرأة، والمجاهرة بالآراء والمعتقدات. وهي تعكس تأثرهم العميق بالقرآن الكريم وبأحكام الدين الإسلاميّ، كما تصوّر نفسيّة هذه الجماعة في عقيدتها، الحريصة على تطبيق أحكام الدين تطبيقاً مثالياً. وكثيراً ما نستشفّ في خطبهم نغمة حزينة صادقة، مصدرها صيرورة أمور المسلمين إلى الحالة السيئة التي بلغوها في حياتهم، كما نستشف نظرتهم الزاهدة في الحياة، المتطلعة إلى حياة الخلد في الآخرة.

خطب الثائرين الآخرين

وقد حمل هؤلاء في خطبهم على بني أميّة، فنعتوهم بأنهم ليسوا أهلاً لتولّي شؤون المسلمين. وقد وافقوا خطباء الشيعة والخوارج في مآخذهم عليهم: من جور

---

(١) الأصفهاني: الأغاني: ٢٠/٩٨.

في الأحكام، وتعطيل لحدود الله، واستئثار بالفيء وخروج على كتاب الله وسنّة نبيّه. وكان هؤلاء الخطباء يدعون إلى خلع الأمويين وينادون بالثورة عليهم.

فقد خطب عامر بن وائلة الكناني، فدعا أهل العراق لخلع الحجّاج والانضمام إلى ثورة ابن الأشعث وقال: «إن الحجّاج والله ما يُبالي أن يخاطر بكم، فيقحمكم بلاداً كثيرة اللهوب واللّصوب. فإن ظفرتم فغنمتم، أكل البلاد وحاز المال، وكان ذلك زيادةً في سلطانه. وإن ظفر عدوكم، كنتم أنتم الأعداء الذين لا يُبالي عنتهم، ولا يبقي عليهم. اخلعوا عدوّ الله الحجّاج، وبايعوا عبد الرحمن، فإني أشهدكم أني أوّل خالع»[1]. أمَّا ابن الأشعث فكان يعد أنصاره بالعمل على كتاب الله وسنة نبيه، وخلع أئمة الضلالة وجهاد المخلين.

ولم يكتفِ خطباء المعارضة بخلع الأمويين، وإنما كانوا يعدّدون مثالبهم، ويجاوزن ذلك إلى الشتم والذم والقذف والاستخفاف بهم. فيزيد بن المهلب يثور على يزيد بن عبد الملك ويهاجم أخاه مسلمة بن عبد الملك فيقول: وما مسلمة إلاّ جرادةٌ صفراء. وأمَّا العباس فنسطوس بن نسطوس، أتاكم في برابرة، وصقالبة، وجرامقة، وجراجمة، وأقباط، وأنباط، وأخلاط من الناس. إنما أقبل إليكم الفلاحون الأوباش كأشلاء اللجم»[2].

ويذم هؤلاء الخطباء كل من يتقاعس عن نصرة الثائرين، ويصفونهم بالغدر والخيانة. وقد خطب بذلك عبد الله بن الزبير بعد مقتل أخيه مصعب بالعراق، وهاجم الذين خذلوه وقال إن أهل العراق باعوه بأقل من الثمن الذي كانوا يأخذونه منه»[3].

ونحن نجد في خطب المعارضة والثائرين، كيف يفاخرون بني أميّة في الحسب والنسب، شأن ابن الزبير، الذي كان يرى نفسه أحق بالخلافة من بني أميّة. كما يلجؤون عادة إلى التحدي والمفاخرة.

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد: ٤/١٤٦.
(٢) تاريخ الطبري: ٥/١٤٦.
(٣) الجاحظ: البيان والتبيين: ١/٢٩٢.

وتشتمل خطب المعارضة على عاطفة السخط والنقمة على بني أميّة المستأثرين بالمال والسلطان والجاه. ويمتد سُخطهم فيشمل جميع من يحطبون في حبلهم.

وبرأينا أن جميع خطباء السياسة في العصر الأموي، كانوا يندفعون في تقريع خصومهم وتبجيل حلفائهم، ويثيرون في نفوس مخاطبيهم عواطف الخوف والرهبة، وعواطف الطمع والرغبة، وقد يلجؤون لتأجيج الشعور الديني.

الإمام علي بن أبي طالب (ت ٤٠هـ)

قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة، كانت ولادة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وقد ربي مع الرسول في بيته، تخفيفاً على أبيه.

وبعد أن بعث النبيّ ﷺ بالرسالة، آمن عليّ به وشبّ على حبه، وكان يوم ذاك فتى أغر تغلغلت أصول الدين في قلبه، وخاطر بنفسه في سبيل الرسول، ليلة هجرته. وكان له بلاؤه الحسن في نصرة النبيّ وتأييده.

وقد شهد الإمام الغزوات كلّها إلاّ تبوك، فقد خلّفه النبي فيها على أهله. ولمّا لحق الرسول بربه، كان الإمام عليّ يرى أنه أحق بخلافته لمكانته، مع شرف القرابة والمصاهرة.

وبعدما بايع المسلمون أبا بكر، وقام بعهده من بعده عمر بن الخطاب، وتجاوزته الشورى إلى عثمان بن عفان، رأيناه يناوص الجرّة ثم يسالمها، متحاملاً في كل ذلك على نفسه. أمّا عندما قتل عثمان، فقد بايعه الناس في الحجاز، وامتنع معاوية وأهل الشام معه، غضباً لمقتل عثمان وقعود الإمام عليّ عن القتلة.

ثم كانت الفتنة التي حلّلت العُقد وأوهنت العُرى، وقسمت المسلمين إلى طائفتين تعادتا واقتتلتا حيناً من الدهر، ثم قرّت السيوف في الأغماد دون أن يستوسق الأمرُ لأحدٍ من الرجلين. وائتمر ثلاثة من الخوارج بزعماء هذه الفتنة، الثلاثة: معاوية وعمرو بن العاص وعلي. فكان نصيب أمير المؤمنين أن يقتل على يد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي، غيلة في مسجد الكوفة سنة ٤٠هـ، بعد أن مضت من خلافته أربع سنين وتسعة أشهر.

وكان الإمام عليّ رضي الله عنه فصيح اللغة قويّ التعبير واسع المعاني والحجّة.

وقد اشتهر بمواقفه الخطابيّة المتعدّدة لكثرة خصومه ومعارضيه، ولازدحام الأحداث عليه. وقد قام الشريف الرضي بجمع خطبه في كتابه نهج البلاغة. وقال في مقدمته: «يتضمّن من عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربيّة، وثواقب الكلم الدينية والدنيوية، ما لا يوجد مجتمعاً في كلام، ولا مجموعاً في كتاب».

والحق يقال، إننا لا نعلم بعد النبيّ ﷺ فيمن سلف أو خلف، أفصح من عليّ في المنطق، ولا أبلَّ منه ريقاً في الخطابة. إذ كان حكيماً تتفجر الحكمة من بيانه، وخطيباً تتدفق البلاغة على لسانه، وواعظاً ملء السمع والقلب، ومترسلاً بعيد غور الحجّة، ومتكلماً يضع لسانه حيث شاء.

وخطب الإمام ناصعة الأسلوب قوية الحجة عميقة المعاني. كذلك فإن خطبه الدينية ذات أثر قويّ في نفوس قارئها. قال ضرار الصدائي: إنه رآه في بعض لياليه ماثلاً في محرابه يتململ تململ السليم. ويبكي بكاء الحزين وهو يقول: «يا دنيا غرّي غيري ألي تعرضتِ أم إليّ تشوقْتِ؟ هيهات هيهات. لقد طلقتك ثلاثاً لا رجعة بعدها. أملك طويل، وأجلك قصير: آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق»[١].

والإمام علي رضي الله عنه، هو أخطب المسلمين وإمام المنشئين. وتعدّ خطبه من معجزات اللسان العربي وبدائع العقل البشري، من ذلك مثلاً خطبه في الحث على الجهاد، ورسائله إلى معاوية، ووصفه الطاووس والخفاش والدنيا، وعهده للأشتر النخعي. وقد تهيأت له تلك الملكة البلاغية والأدبيّة، لشدّة خلاطه للرسول، ومرانه منذ الحداثة، على الكتابة له والخطابة في سبيله.

ومن كلام علي رضي الله عنه: «ألا وإن الخطايا خيل شُمُسٌ حُمِلَ عليهاأهلُها، وخلعت لُجمُها فتقحَّمت بهم في النار. ألا وإن التقوى مطايا ذُلُل حُمِلَ عليها أهلُها، وأعطوا أزمَّتها، فأوردتهم الجنّة. حقٌ وباطلٌ، ولكلّ أهلٌ. فلئن أمر الباطلُ فقديماً فعل، ولئن قلَّ الحقُّ، فلربما ولعل، وقلَّما أدبر شيء فأقبل. شُغْلُ مَنِ الجَنّةُ والنار أمامهُ. ساع سريعٌ نجا، وطالبٌ بطئ رجا، ومقصِّرٌ في النار هوى.

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد: ٤/٤١٢.

اليمينُ والشمال مضلّةٌ، والطريق الوسطى هي الجادّةُ. عليها باقي الكتاب وآثار النبوّة، ومنها منفذ السنة، وإليها مصير العاقبة»[١]

عبد الله بن الزبير

والده الزبير بن العوام حواريّ رسول الله ﷺ. وأمه أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين. كان ميلاده عام الهجرة. وهو أول ولد للمسلمين بالمدينة. «ويقال إن رسول الله ﷺ قد حنَّكهُ، فكان ريق رسول الله ﷺ، أوّل شيء دخل جوفه. كما يقال أيضاً إن النبيّ ﷺ احتجم مرّةً، فقال لعبد الله بن الزبير، اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد. فلمّا بان عن النبيّ، شرب الدم ورجع. وقال: جعلته في أخفى مكان علمتُ أنه يخفى على الناس. قال له رسول الله ﷺ لعلك شربته. قال نعم. قال: ولِمَ شربت الدم؟ ويل للناس منك وويلٌ لك من الناس». فكانوا يرون أن ذلك سبب ما به من قوة وشجاعة. وكان مع هذا ذكيّاً عابداً فقيهاً، فما رأى الناس أحسن من صلاته، كان يقف كأنه عمود لما يطيل من القراءة، ولما في صلاته من الخشوع، وما ترك باباً من أبواب العبادة إلاّ تكلّفه»[٢].

وشهد عبد الله بن الزبير مع أبيه موقعة اليرموك، وموقعة الجمل. كما شهد فتح أفريقيا[٣]. وكان عبد الله بشيراً بفتحٍ آخر إلى عثمان. فلمّا قدم المدينة، ذهب إلى الخليفة قبل أن يدخل على أبيه، وحدّثه بهذا الغزو، فأعجبه فقال له: هل تستطيع أن تخبر الناس بمثل هذا يا بنيّ. قال: أنا أهيب لك منهم! فقام عثمان في الناس خطيباً، وقال: إن الله قد فتح عليكم أفريقية. وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله. وكان عبد الله إلى جانب المنبر، فقام خطيباً. وكان أول من خطب إلى جانب المنبر، فأعجب به الناس. فلمّا سكت نزل عثمان، وقام عبد الله إلى أبيه، فقبله أبوه بين عينيه وقال: ذُرّيّةٌ بعضُها من بعضٍ، والله سميعٌ عليم. والله يا بني، ما زلت تنطق بلسان أبي بكر حتّى صمتَّ. ثم قال: إذا أردت أن تتزوّج امرأةً فانظر إلى أبيها وأخيها، قبل أن تتزوّجها[٤].

---

(١) شلبي، د. عبد الجليل عبده: الخطابة وإعداد الخطيب. دار الشروق. بيروت ١٩٨٧: ص٢٦٠.
(٢) الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي: ص٧٠.
(٣) شلبي، د. عبد الجليل عبده: ص٢٧١.
(٤) ابن عذارى: البيان المغرب: ص ٤٢ ٢٠٩.

وتعتبر هذه الخطبة من أوائل خطبه التي دلّت على نجابته في فن الخطابة. وذكر ابن عبد الحكم، إن والد عبد الله أشفق عليه، لأنه كان ما يزال شاباً، ووجد على عثمان أن يولّيه هذا الأمر وهو في سن الفتوة. وقد خطب عبد الله بن الزبير فقال في هذه الخطبة:

«الحمد لله الذي ألّف بين قلوبنا، وجعلنا متحابين بعد البُغضة. الذي لا تجحد نعماؤه، ولا يزول ملكه. له الحمد كما حمد نفسه. وكما هو أهله. انتخب محمداً ﷺ فاختاره بعلمه، وإئتمنه على وحيه. واختار له من الناس أعواناً قذف في قلوبهم تصديقه ومحبته، فآمنوا به وعزروه، ونصروه ووقروه. وجاهدوا في الله حق جهاده، فاستشهد الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح، والبيع الرابح، وبقي منهم من بقي، لا تأخذهم في الله لومة لائم.

أيها الناس، رحمكم الله.

إنا خرجنا للوجه الذي علمتم، فكنا مع أول حافظ، حفظ وصيّة أمير المؤمنين. . كان يسير بنا الأبردين، ويخفض بنا في الظهائر. ويتخذ الليل جملاً، يعجل الرحلة من المنزل الجدْب، ويطيل اللبث في المنزل الخصب. فلم نزل على أحسن حال نعرفها من ربّنا، حتى انتهينا إلى أفريقيا، فنزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل ورعاء الإبل، وقعقعة السلاح. فأقمنا أياماً نجمّ كراعنا، ونصلح سلاحنا، ثم دعوناهم إلى الإسلام والدخول فيه، فأبعدوا منه. فسألناهم الجزية عن صغار أو الصلح، فكانت هذه أبعد. فأقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلة، نتأناهم، وتختلف رسلنا إليهم».

ومن خطبة له بعد مقتل أخيه مصعب بن الزبير على يد جيش عبد الملك بن مروان: «الحمد لله الذي له الخلق والأمر، وملك الدنيا والآخرة. يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء. ويعزّ من يشاء ويذل من يشاء. . .

ثم قال: «أتانا أن مصعباً قتل ـ رحمة الله عليه ومغفرته. . . أسلمه الطغام الصم الآذان ـ أهل العراق ـ إسلام النعم المخطّمة، وباعوه بأقل من الثمن الذي كانوا يأخذونه منه. فإن يقتل، فقد قتل أبوه وعمه وأخوه وكانوا الخيار الصالحين. إنا والله لا نموت حتف آنافنا، ولكن قعصاً بالرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف،

وليس كما يموت بنو مروان. والله ما قتل منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قط. ألا وإنما الدنيا عارية من الملك القهار، الذي لا يزول سلطانه ولا يبيد ملكه. فإن تقبل الدنيا عليّ لم آخذها أخذ الأشر البطر، وإن تدبر عني لم أبكِ عليها بكاء الخرق المهين.

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم»[1].

وهذه الخطبة، ليست طويلة ولكنها ليست قصيرة أيضاً. وإذا وازنت بينها وبين خطبة الحجّاج حين نعي إليه أخوه وابنه، تجد تقارباً في المنحى. وكلتا الخطبتين تقوم على فكرة سياسية، واحتياط من الخطيب للمستقبل. غير أن الحجاج، كان يهدّد ويشتم، لأنه مالك. أمّا ابن الزبير فلاينَ مستمعيه، ليستعين بهم في المعارك المقبلة. وقد أظهر التجلد، واعتذر عن بكائه بأنه للعاطفة التي يجدها كل حبيب لفراق حبيبه. ولكنه يعلم أن أخاه مات في سبيل الله شهيداً، وفي هذا ما يشجع الآخرين على الحرب وعلى نيل الشهادة»[2].

وهكذا، فقد جارت الخطابة فنّ الشعر في العصر الأموي، فعلا شأنها، إذ تناولت شؤون الحياة السياسية والاجتماعية والدينية، وشؤون الدولة... وشجون المعارضين. واستطاعت أن تمثل السياسة في ذلك العصر أصدق تمثيل. وكانت السلاح القولي القويّ الذي يعتمد عليه الساسة من الأحزاب المختلفة في الدعاية لأنفسهم، واستمالة القلوب إليهم، وتهديد الخارجين عليهم. فبلغت في ذلك ما بلغت، من الفنيّة التي غدت فتحاً جديداً على الصعيد الأدبي، أضيف إلى الفتوح الأخرى المجيدة، التي حفل بها ذلك العصر الأموي...

---

(١) ابن عبد الحكم. فتوح مصر: ص٢٥٠.

(٢) الشلبي، وعبد الجليل عبده. الخطابة وإعداد الخطيب: ص ٢٧٥.

الفصل الرابع عشر

من القصص والترسل

القصص الديني

القصص قديم في الإسلام قدم الإسلام نفسه. ففي القرآن الكريم حكايات عن الأمم الغابرة والشعوب القديمة التي سبقت الإسلام وهي تختلف في طولها وقصرها، جاء في سورة يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[١]. وفي مكان آخر: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٢].

وأهل الكهف كانوا مادة طيبة للقصص في سورة الكهف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[٣].

وفي سورة الأعراف: ﴿... فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٤]. وفي سورة مريم ويوسف والأنبياء وغيرها مايوحي القصة بكل ما في هذه الكلمة من معنى القصص.

وأول قاصّ في الإسلام هو تميم الداري. جاء عن ابن شهاب: «أول من قصّ في مسجد رسول الله ﷺ، تميم الداري. استأذن عمر أن يذكر الناس فأبى عليه حتى كان آخر ولايته فإذن له أن يذكر في يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر، فاستأذن تميم

(١) القرآن، سورة ١٢ آية: ٣.
(٢) القرآن، سورة ١٢ آية ١١١.
(٣) القرآن، سورة ١٨ آية ١٣.
(٤) القرآن، سورة ٧ آية ١٧٦.

عثمان بن عفان، رضي الله عنه، في ذلك، فإذن له أن يذكر يومين في الجمعة. فكان تميم يفعل ذلك[١]. وقيل أن النبي حدَّث عن تميم حديث الجسّاسة وهو حديب صحيح[٢]. وحديث الجساسة، فيما يذكرون، أن تميماً حدث أن ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام فلعب بهم الموج شهراً في البحر، ثم أرفئوا إلى جزيرة في البحر، حين مغرب الشمس، فجلسوا في أقرب السفينة، فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابة أهلب، كثيرة الشعر، فقالوا: ويلك ما أنت؟ أنا الجساسة، وسميت الجساسة لأنها تتجسس الأخبار فتأتي بها الدجال[٣].

ويروى عن تميم هذا وكان نصرانياً فاسلم، أنه كان كثير التهجد، وأن روح ابن زنباع زاره مرة فوجده ينقي شعيراً لفرسه، وحوله أهله. فقال له روح: أما كان في هؤلاء ما يكفيك؟ قال: بلى ولكني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «ما من امرىء مسلم ينقي لفرسه شعيراً ثم يعلقه عليه إلا كتب الله له بكل حبة حسنة»[٤].

واهتم بعض الرجال المسؤولين من الدولة الأموية، بالقصاص فكانوا يعينون بعضهم لوعظ الناس وسرد الحكايات الدينية عليهم في المساجد، كما أن بعض القضاة كانوا يجمعون إلى القضاء وظيفة القاص كسليم بن عتر التجيبيّ، فقد روى الكندي في كتابه: «الولاة وكتاب القضاة» وهو يترجم لسليم قال: «لقد ولي القضاء بها (أي بمصر) سليم بن عتر التُجيبي سنة أربعين من قبل معاوية وكان قبل القضاء قاصاً فجمعا له». وسليم هو أول من قص بمصر، كان يقصّ على الناس، وهو قائم، وكان يرفع يديه في قصصه، ولقد بعث يزيد بن معاوية سليم ابن عتر هذا مع بعض أصحابه إلى عبد الله بن عمرو، وكان قد كره مبايعة يزيد بالخلافة، ليعظوه في البيعة فقال عبد الله:

«... وأما أنت يا سليم بن عتر فكنت قاصاً. فكان معك ملكان يفتيانك ويذكرانك . ثم صرت قاضياً فمعك شيطانان[٥] يزيغانك عن الحق ويفتنانك»[٦].

---

(١) المقريزي الخطط والآثار ج٢: ٢٥٣.
(٢) ابن الأثير أسد الغابة في معرفة الصحابة ص: ٢١٥.
(٣) أحمد أمين فجر الإسلام: ١٩٠ و١٩١ وراجع أيضاً تاج العروس مادة الجساسة.
(٤) ابن الأثير أسد الغابة ص: ٢١٥.
(٥) كذا في الأصل.
(٦) الكندي كتاب الولاة والقضاة ص: ٣٠٣ ٣١١.

والسبب في وجود مثل هذا النوع الرسمي من القصص أن علياً لما رجع من صفين قنت فدعا على من خالفه، فبلغ ذلك معاوية فأمر من يقص بعد الصبح وبعد المغرب أن يدعوا له ولأهل الشام، وكتب بذلك إلى الأمصار(١).

وقسّموا هذا القصص إلى نوعين: قصص العامة وقصص الخاصة. وقصص العامة مكروه لمن سمعه ولمن فعله، وهو أن يجتمع القاص بنفر من الناس فيعظهم ويذكرهم.

أما قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية: «ولى رجلاً على القصص، فإذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله، عز وجل، وحمده ومجده وصلى على النبي ﷺ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته ولحشمه وجنوده ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة»(٢).

وكان القصاص أصنافاً وأنواعاً. فمنهم الرواة الذي يخلطون بين الحقيقة والأسطورة؛ ومنهم الذين يتحرون الحقيقة فيتحرجون عن رواية غير الحق والصواب. فمن الرواة الذين قرأوا الكتب الكثيرة ورووا الروايات المختلفة وشك المؤرخون في رواياتهم: وهب بن منبه وكعب الأحبار. ومن القصاص الذين كنوا يعتمدون على الآيات القرآنية وحث الناس على التوبة والوعظة الحسن البصري.

وكان للقصاص عادة في رفع أيديهم وهم يقصون وهي عادة مقتبسة عن عبد الملك بن مروان. فقد قيل أن هذا الخليفة شكا إلى العلماء ما انتشر عليه من أمور رعيته وتخوفه من كل وجه فأشار عليه أبو حبيب الحمصي القاضي بأن يستنصر عليهم برفع يديه إلى الله قال: فكان عبد الملك يدعو ويرفع يديه وكتب بذلك إلى القصاص فكانوا يرفعون أيديهم بالغداة والعشي(٣).

فقد أنشأ القصص إذن في أول عهده حول الدين والرسل والأنبياء، روايات وحكايات، وأحاديث ووقائع، ينشرها بين الناس جماعة من الناس وهبوا مقدرة على الكلام وزلاقة في اللسان فراحوا يبثون هذه الأحاديث، تارة في سبيل الوعظ والإرشاد وطوراً للتهديد والترغيب!

---

(١) الكندي كتاب الولاة والقضاة ص: ٣٠٤.
(٢) المقريزي: الخطط ج٢: ٢٥٣.
(٣) المقريزي: الخطط ج٢: ٢٥٤.

وارتقى القصص الديني وخطا خطوة كبيرة على يد المؤرخين والمحدثين وشرّاح القرآن الكريم. فذكر الطبري والزمخشري وغيرهما من الشراح عشرات الحكايات ومئات الروايات ليستعينوا بها على شرح الآيات القرآنية.

وقام من يجمع هذه الحكايات، وهي تروى على ألسنة الرواة، بين دفتي كتاب في العصري العباسي، كما أن بعض الأدباء العباسيين، راح يقص حكايات الأنبياء سارداً تاريخ حياتهم، حاثاً على اقتفائهم والاقتداء بهم فكان لنا من كل ذلك الكتب التالية:

كتاب قصص الأنبياء المسمى بالعرائس للثعالبي سنة ٤٢٧هـ/ ٤٣٧هـ. وكتاب قصص الأنبياء للكسائي من مواليد القرن الخامس الهجري. وقصة أهل الكهف. وقصة شمشون النبي للنيسابوري سنة ٤٢٧هـ. وهي قصة تاريخية ضمن مجموعة طبعت في القاهرة سنة ١٢٩٩هـ. وقصة سيدنا عيسى وأمه مريم. وقصة سيدنا موسى الكليم ابن عمران وقصة سيدنا يعقوب ابن سيدنا إبراهيم. وقصة سيدنا يوسف الصدّيق طبعت سنة ١٢٧٩هـ.

أما أعظم هذه الكتب القصص الديني وأطولها، وألصقها بالفن كتابان: كتاب الثعالبي وكتاب الكسائي.

وقصص الأنبياء للكسائي يتحدث فيه عن اللوح والقلم وخلق الماء والأرض والسماوات والشمس والقمر والجنة والنار. ويصف جهنم وكيف خُلق آدم وكيفية دخول الروح في جسده، ويروي حديث الطاووس والحية مع إبليس وكيف خرج آدم من الجنة. ثم يأخذ بسرد تاريخ حياة الأنبياء الذين جاءوا بعد آدم كأدريس ونوح وحام وهود وصالح وثمود وإبراهيم وإسماعيل ولوط وإسحاق ويعقوب وعيسى ويوسف مع إخوته ثم أيوب النبي وشُعيب. وفي المجلد الثاني يتناول المؤلف حديث يوشع بن نون ويوسافس بن كالب، ولعيزار وشمويل وداود وأبسالوم وسليمان ويونس وعيسى بن مريم.

ولقد ذكر المؤلف في مقدمة كتابه: «أنه جمع في هذا الكتاب المنبهات في خلق السماوات والأرضين وخلق الجن والإنس وأحوال النبيين، على قدر ما بلغنا

من أحوالهم وأخبارهم بعد ما اجتهدت فيه وجربت ما قرب وما بعد مما وافق الحق، فهو الذي وضعته وما كان منها بخلاف الحق فأثمه على من وضعه»[١].

القصص الإخباري

وتقسم هذه الحكايات إلى أنواع تتعدد بتعدد الأغراض والأهداف التي ترمي إليها، فهناك الحكايات الفكاهية التي لم تُرو ولم تدون إلا لنكتة مستمحلة وفكاهة مستظرفة.

وهناك الحكايات الاجتماعية وهي تصور المجتمعات العربية إلى حد كبير بما فيه من صور صحيحة، وعبارات ساذجة، تمثل نفسية القوم أصدق تمثيل.

وهناك الحكايات الأسطورية أو الخرافية، وهي تدور على الأخبار الخرافية التي كان يتداولها العرب فيما بينهم، وقد وصلتهم عن أسلافهم شفاهاً فدونوها على علاتهافجاءت ببساطتها وسذاجتها ومعانيها الخارقة، مثالاً عن أساطير العرب وآلهتهم ومعتقداتهم في العصور القديمة.

وهناك الحكايات الفخرية وموضوعها المشاحنات القبلية في العصر الجاهلي والأحزاب السياسية في العصر الأموي والأعصر العباسية. وكل تلك الأخبار التي رويت عن القحطانيين والعدنانيين، عن ربيعة وتميم، عن قيس وكنانة، دوّنها الأدباء العباسيون والمؤرخون. فالأصفهاني، والطبري، وابن عبد ربه، والمبرّد، وابن الأثير، والسيوطي وياقوت، وغيرهم جمعوا الشيء الكثير من مثل هذه الحكايات التي تفصح إلى حد كبير، عن نفسية العرب، وميلهم إلى التفاخر.

وكثيراً ما كانت تقودهم هذه المشاحنات الكلامية، والاختلافات السياسية إلى النيل من خصومهم بطرق شتى وأساليب متنوعة: فالعباسيون يسبّون الأمويين ويطعنون فيهم، والشعوبيون يضعون الحكايات ويروون الروايات في إظهار مثالب العرب لتحقيرهم وإذلالهم. وكان المربد مركزاً للمهاجاة بين جرير والأخطل والفرزدق[٢] مما شجّع على تداول الروايات في الطعن والشتائم فكثرت هذه الأخبار الهجائية وكانت نواة للحكايات الهجائية في القرن الأول.

---

(١) الكسائي قصص الأنبياء ج١: ٦٨

(٢) الأصفهاني الأغاني: ٧/٤٩.

وهناك نوع آخر من الحكايات القصيرة أو الأخبار المروّية هو الحكايات التعليمية وإن لم يكن هدفها الأساسي الوعظ والإرشاد، مثل حكاية تنصر النعمان ابن المنذر التي وضعت لتعطي درساً لهذا الملك فيترك عبادة الأوثان إلى عبادة الله الواحد(١).

ومثل هذه الحكايات قد وضعت لردع الجائر عن جوره وزجر المنافق عن نفاقه، وإسداء النصيحة لمن زاغ بصره عن الحق والصواب لعله يهتدي بعد ضلال. ومما لا شك فيه أن الوعظ والإرشاد والتعليم الديني والخلقي هي من أهم البواعث على تدوين مثل هذه الأخبار.

وأهم ما يلفت من هذه الألوان القصصية المذكورة لونان آخران تطفح بهما كتب الأصول وهما: الحكايات الغنائية والحكايات الحبية، وفيهما تظهر مزايا القصص الإخباري ظهوراً بارزاً أكثر من أي نوع آخر وذلك لسببين على ما نعتقد:

أولاً: كثرة هذا النوع من الحكايات وطغيانه طغياناً كيراً على بقية الأنواع التي مرَّ ذكرها.

ثانياً: ميلُ الرواة ميلاً ظاهراً إلى الإكثار من هذه الحكايات وحملهم على الاعتناء بها اعتناءً كبيراً. فجاءت، جامعةً لمزايا القصص الإخباري جمعاً صحيحاً.

الحكايات الغنائية نموذجاً

يميل العربي بالفطرة إلى الغناء والاستماع إلى الصوت الجميل. وقد قيل: إن الشاعر الجاهلي اهتدى إلى الشعر بواسطة الحُداء وراء الإبل. والذي يهمنا هنا أن نثبت أثر هذا الغناء في العرب وانتشاره انتشاراً كبيراً مما حمل الخلفاء والعظماء على تشجيع المغنين وتقريبهم من بلاطاتهم وغمرهم بالعطايا الكثيرة. كما يهمنا أيضاً دراسة هؤلاء المغنين وسبب شهرتهم مع الحديث عن فنهم الغنائي وآلات الطرب التي كانوا يستعمولنها لتساعدهم في تأدية أصواتهم. كذلك سنحاول أن نلم بالضرّاب الذين كانو يضربون على بعض هذه الآلات فيخرجون منها الأصوات الجميلة والموسيقى العذبة بألحانها الكثيرة، ومدارسها المتعددة وتعابيرها العلمية!

---

(١) الأصفهاني الأغاني: ٢/ ص١٧ و١٨.

ندرس كل ذلك كما جاء في سياق هذه الحكايات الغنائية المختلفة وكما كانت تعكسه، هذه الحكايات الغنائية التي تطفح بها كتب الأدب العربي القديمة. ومن يطالع هذه الحكايات الكثيرة عن تأثير الغناء في نفوس العرب، عظمائهم وصعاليكم، يقف مشدوهاً، محتاراً!! فهل يصدق جميع ما يقال؟ أم يقف من ذلك أو من بعضه على الأقل، موقف الشاك المتردّد؟.

كان معاوية يعيبُ على عبد الله بن جعفر سماع الغناء ويستغفر الله عندما يسمع غناء حتى سمع ابن صياد يحرك أوتاره ويغني بشعر ابن عدي فقال: «لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الألحان»![١].

أما عطاء بن أبي رباح[٢] فكان يتعصب ضد الغناء والمغنين. «لقي مرة ابن سُريج المغني وعليه ثياب مصبّغة، وفي يده جرادة مشدودة الرجل بخيط يطيرها ويجذبها به كلما تخلفت، فقال له عطاء: يا فتان، ألا تكف عما أنت عليه؟ كفى الله الناس مؤونتك. فقال ابن سريج: وما على الناس من تلويني ثيابي ولعبي بجرادتي؟ فقال له: تفتنهم بأغانيك الخبيثة». حتى إذا استطاع ابن سريج أن يقنع ابن أبي رباح بالسماح له اندفع يغني بشعر جرير فطرب ابن أبي رباح «واضطرب اضطراباً شديداً ودخلته أريحية وحلف ألا يكلم أحداً بقية يومه إلا بهذا الشعر»[٣] أي الشعر الذي غناه به ابن سريج.

وكثيراً ما كان يغمى على بعض ذوي العاطفة الرقيقة عندما كانوا يسمعون صوتاً جميلاً، لحسن الغناء من مثل ما روي عن سُبيعة بنت عبد الرحمن بن أبي بكرة وكانت من أجمل النساء. قيل أنها حجّتْ، فلما انحدرت إلى العراق استطاعت أن تستمع إلى غناء جميلة بشعر عمر ابن أبي ربيعة، وكان هذا الشعر تغزلاً فيها فأغمي عليها عدة مرات حتى رُش على وجهها الماء وثاب إليها عقلها[٤].

وهذه الحكايات التي تروى عن تأثير الغناء تطلعنا على ما كان لهؤلاء المغنين

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد: ٣/ ٢٣٦ و٢٣٧.
(٢) من الفقهاء. مكي. توفي ١١٥هـ.
(٣) الأصفهاني الأغاني: ١/ ١٠٠.
(٤) الأصفهاني الأغاني: ١/ ١٠١.

من سلطان على قلوب سامعيهم يتصرفون بهذه القلوب وفقاً لمشئيتهم وطبقاً لإرادتهم.

فابن سُريج يحبس الناس عن مناسكهم عندما ينقر على الدف متغنياً بشعر عمر ابن أبي ربيعة، وكأن القوم عندما كانوا يستمعون إلى صوته قد نزل عليهم السبات، وأدركهم الغشي، فكانوا كالأموات، يصغون إليه بآذانهم ويشخصون إليه أعينهم متطاولة أعناقهم[1]. وابن عائشة (+ سنة ١٠٠هـ) يسيرُ في الناس، وقد سال العقيق فجاء بالعجب، فلم يبقَ بالمدينة مخبأة ولا شابة ولا شاب ولا كهل إلا خرج يبصره. «حتى إذا طلب منه أن يغني قال: ألمثلي يقال هذا؟ علي عتق رقبة إن غنيت يومي هذا! ولكنه كان يحمل على الغناء حملاً فيغني مائة صوت فيكبرُ الناس بلسان واحد تكبيرة واحدة ترتج لها أقطار المدينة»[2].

والحكايات كثيرة عن عظماء العرب وخلفائهم وعلمائهم وعن تأثير الغناء فيهم تأثيراً عميقاً كثيراً ما حملهم على الخروج عن عاداتهم المألوفة وأعمالهم الطبيعية.

فإذا ما غنت إحدى الجواري سيدها، وكان قاضياً، غشيه من الطرب أمر عظيم، ولم يدر ما يصنع. فنراه وقد أخذ نعله فعلقها في أذنه، وجثا على ركبتيه، وجعل يأخذ بطرف أذنه، والنعل معلّقة فيها ويقول: اهدوني إلى البيت الحرام، فإني بدنة!! حتى يدمي أذنه[3]! ويبلغ ذلك الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز فيلومه ويقول: قاتله الله! لقد استرقه الطرب، ويأمر بصرفه عن عمله. فيستاء القاضي من عمل الخليفة فيتحداه قائلاً: لو سمعها عمر لقال: اركبوني فإني مطية! حتى إذا عرف عمر بهذا القول أمر فأحضر القاضي والجارية وغنت بين يديه:

كأن لم يكن بين الحُجون إلى الصَّفا ... أنيسٌ، ولم يسمُر بمكَّةَ سامرُ

بلى! نحن كنَّا أهلَها فأبادَنا ... صُروفُ الليالي، والجدودُ العواثرُ

فما فرغت من هذا الشعر حتى طرب عمر طرباً بيّناً وأقبل يستعيدها ثلاثاً، وقد بلّت دموعهُ لحيته ثم أقبل على القاضي فقال: «إرجع إلى عملك راشداً»[4].

---

(١) الأصفهاني: الأغاني: ١/ ١٠٩.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد: ٣/ ٣٤٥.

(٣) الأصفهاني: الأغاني: ٨/ ١٣.

(٤) النويري: نهاية الأرب: ٤/ ٢١٢.

أما يزيد بن عبد الملك، وكان صاحب لهوٍ ولذات، فكانت تدمع عيناه عند سماعه غناء الغريض[١]. كذلك حسان بن ثابت الأنصاري، فإنه كان يطرب عند سماعه عزة الميلاء حتى تنضح عيناه على خديه[٢].

وأروعُ من هذا وذاك ما حكي عن أبان ابن الخليفة عثمان بن عفان لما ولي المدينة على زمن معاوية قيل «إنه قعد في بهو له عظيم، واصطف له الناس، فجاء طُويس المغني، وقد خضب يديه غمساً، واشتمل على دُفٍ له، وعليه ملاءة مصقولة. فسلم ثم قال: «بأبي وأمي يا أبان، الحمد لله الذي أرانيك أميراً على المدينة. إني نذرت لله فيك نذراً، إن رأيتك أن أخضب يدي غمساً واشتمل على دُفي وآتي مجلس إمارتك وأغنيك صوتاً. فقال يا طويس! ليس هذا موضع ذاك. قال بأبي ابن الطيب أبحني. قال: هات يا طويس فحسر عن ذراعيه وألقى رداءه ومشى بين السماطين وغنى:

مـــا بـــالُ أهـــلـــكِ يـــا ربَـــابْ   خُـــزْراً كـــأنـــهـــم غِـــضـــابْ!!

فصفق أبانُ بيديه ثم قام عن مجلسه فاحتضنه وقبّله بين عينيه وقال: «يلومونني على طويس»[٣]!.

أما الوليد بن يزيد فكثيراً ما كان يشتاق إلى معبد، ومعبد (فحل المغنين) فيحضر بين يديه، فيأمر الخليفة ببركة تملأ ماء ورد، قد خلط بالمسك والزعفران ويجلس هو وراء الستائر ومعبد مقابله على حافة البركة، وليس معهما ثالث، حتى إذا ما أطلق معبد العنان لصوته الجميل رفعت الجواري السجف وخرج الوليد فألقى نفسه في البركة فغاص فيها حتى خرج منها فاستقبله الجواري بثياب غير الثياب الأولى، ثم شرب وسقى معبداً[٤].

الكتابة والرسالة

في عصر بني أمية كادت الكتابة ترقى رقياً عظيماً. فقد جدَّ كثير من

(١) الأصفهاني: الأغاني: ٨/ ١٢.
(٢) النويري: نهاية الأرب: ٤/ ٢١٢.
(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد: ٣/ ٢٤١.
(٤) الوزراء والكتاب للجهشياري (طبعة الحلبي) ص١٧.

المشكلات، وتعقدت الحياة من جميع أطرافها المادية والسياسية والعقلية، إذ تحضر العرب، وأخذوا يستعيرون كثيراً من النظم الأجنبية ومواد الثقافات لدى الأمم المفتوحة.

ونستطيع أن نميز ثلاثة جداول مهمة كانت تمد الحياة العربية في العصر الأموي، وهي: جدول جاهلي يتمثَّل في الشعر والأيام وتقاليد الجاهليين، وجدول إسلامي يتمثل في تاريخ الإسلام وخطوبه وسيرة الرسول ﷺ وغزواته وأحاديثه وسيرة الخلفاء الراشدين وفتوحاتهم، ثم ما كان من أحزاب سياسية وما لكل حزب من آراء في السياسة والحكم، وجدول أجنبي يتمثل في معرفة شؤون الأمم المفتوحة ونظمها السياسية والاجتماعية والاستعارة منها حسب الحاجة. ولعل أول ما كان من هذه الاستعارة اتخاذ عمرلديوان العطاء أو ديوان الجيش[١].

واتصل العرب بيهود ومجوس ونصارى وحدثت بينهم وين هؤلاء جميعاً أحاديث ومناقشات ومحاورات، تسرب إليهم في أثنائها كثير من المعتقدات الأجنبي وخاصة من شُعب الفكر اليوناني في الفلسفة والمنطق. واطلعوا على نظم التعليم عندهم وما أنشأوا من مدارس، وطلب خالد بن يزيد بن معاوية أن تترجم كتبٌ في الكيمياء[٢]، وأمر عمر بن عبد العزيز بترجمة كتيِّب في الطب[٣].

وقد نمت الكتابة في العصر الأموي نمواً واسعاً، إذ عرف العرب فكرة الكتاب وأنه صحف بجمع بعضها إلى بعض في موضوع من الموضوعات، وقد ألفوا فعلاً كتباً كثيرة، بعضها ديني خالص يتصل بمسائل الفقه والتشريع الإسلامي، من ذلك أننا نجد الرواة ينسبون إلى هشام بن عروة بن الزبير أنه قال: «أحرق أبي يوم الحرَّة كتب فقه كانت له»[٤]. وإذا وصلنا إلى رأس المائة أمر عمر بن عبد العزيز بتدوين الحديث تدويناً عاماً. ومن أوائل من بادروا إلى جمعه ابن شهاب الزهري[٥] المتوفي سنة ١٢٤ للهجرة.

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٤.
(٢) الفهرست: ٣٣٨.
(٣) تاريخ الحكماء (مختصر الزوزني) طبع ليبزج: ٣٢٤.
(٤) طبقات ابن سعد ٥/١٣٣. ودائرة المعارف الإسلامية: مادة فقه.
(٥) الزرقاني على موطأ مالك (طبع المطبعة الخيرية) ١/١٠.

وقد تشطت الكتابة التاريخية، فكتب المؤرخون في مغازي الرسول ﷺ، وعلى رأسهم أبان بن عثمان[١] وعورة بن الزبير، وهو أول من صنف في تلك المغازي[٢]، ثم الزهري[٣]. وكلهم من المدينة، وهذ طبيعي فهي دار النبوة، وبيت السيرة الذكية. وقد أخذ بعض هؤلاء المؤرخين يتحدثون عن الخلفاء الراشدين والأمويين.

وبجانب مؤرخي السيرة النبوية نجد مؤرخين من اليمن يهتمون بتاريخ موطنهم، وفي مقدمتهم عبيد بن شريَّة الجُرْهمي الذي وفد على معاوية وأدرك خلافة عبد الملك بن مروان، وهو صاحب «كتاب الملوك وأخبار الماضين»[٤]. ألفه لمعاوية، وطبع حديثاً في الهند باسم «أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها» ومن يطلع عليه يجد الخرافة تغلب على أخباره. وتشتهر اليمن في هذا العصر بقُصَّاصها مثل تميم الداريّ، وأشهرهم وهب بن منبِّه الذي توفي سنة ١١٤ للهجرة، وقد كتب كثيراً عن عرب الجنوب كما كتب عن مغازي الرسول، وأهم من ذلك أنه عُني بجمع أخبار أهل الكتاب وما يتصل بها من الإسرائيليات[٥]؛ وهو مثل عبيد في ملء كتاباته التاريخية بالخرافات، كما يلاحظ كل من يقرأ في الكتاب المنسوب إليه المسمى «كتاب التيجان في ملوك حمير».

ونحن لا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى نجد العراق تُعنى بهذه المادة التاريخية جميعها، كما تُعنى بتاريخ القبائل الشمالية وأنسابها وأيامها، وأيضاً فإنها عنيت بتاريخ الأحداث في عصر علي بن أبي طالب ثم في عصر بني أمية. وكان مما زاد في هذه العناية وخاصة بتاريخ العرب في الجاهلية وأيامهم وملوكهم وأمرائهم وشعرائهم وخطبائهم، قيام علم اللغة وتوفر أصحابه على دارسة أحوال الجاهليين.

وتأثرت الكتابة التاريخية عند العرب بعناصر أجنبية في هذا العصر المبكر،

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/١١٢.
(٢) كشف الظنون (الطبعة القديمة) ٥/٦٤٦.
(٣) ترجمة الزهري في دائرة المعارف الإسلامية.
(٤) الفهرست ص١٣٢.
(٥) كشف الظنون ٥/٤٠.

كما مر بنا عند وهب بن منبه وأضرابه ممن كانوا يتحدثون عن الملوك الأوائل وعن قصص الأنبياء وأخبار شعوبهم. غير أن هذه العناصر لم توجد هذه الكتابة من عدم، إذ وقف تأثيرها عند تنميتها وتطورها مع الزمن، وكان موضوعها في كثير من جوانبها عربياً خالصاً يتصل بسيرة الرسول وأحداث الإسلام أو يتصل بأيام العرب في الجاهلية وأخبار قبائلهم وملوكهم. وكلما تقدمنا في الزمن اتسعت هذه العناصر الأجنبية، حتى أنها شملت تاريخ الفرس وتاريخ الأمم المفتوحة.

وكانت هناك رسائل سياسية تصدر عن دواوين الخلفاء والولاة أو عن خصومهم، ورسائل اجتماعية يتبادلها الناس في أمور حياتهم الشخصية، ورسائل دينية، منها ما يأخذ شكل الموعظة، ومنها ما يأخذ شكل الحوار والجدل، حين يتعرض شخص للرد على صاحب نحلة من النحل.

وقد نهضت الرسائل السياسية في هذا العصر نهضة واسعة. وهي نهضة تُردُّ إلى سببين: أما السبب الأول فهو أن كثيراً ممن كانوا يكتبونها كانوا يُعدُّون في الذروة من الفصاحة والبيان لهذا العصر أمثال زياد والحجاج وقطري بن الفجاءة والمختار الثقفي. وأما السبب الثاني فقيام ديوان الرسائل وظهور طبقة من الكتاب المحترفين في هذا الديوان، لا في دواوين الخلفاء وحدهم، بل أيضاً في دواوين الولاة. وكان قادة الجيوش أيضاً يتخذونهم، ليراسلوا عنهم من يريدون مراسلته.

ومعروف أن ديوان الخراج كان يقوم عليه في أول الأمر كتاب من الأجانب، يكتبون فيه بلغاتهم الأصلية، حتى إذا كان عصر عبد الملك نُقل هذا الديوان إلى العربية، فأصبح الشأن فيه كالشأن في ديوان الرسائل يليه العرب، ولم يلبث الأجانب أن سعوا إلى تعلم العربية وشاركوا في ديوان الرسائل نفسه.

ويقدِّم لنا كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري أثباتاً طويلة بأسماء من كانوا يلون الديوانين: ديوان الرسائل وديوان الخراج، وهو أثبات يدل دلالة قاطعة على أن من نهضوا بالكتابة السياسية في هذا العصر إنما هم العرب، وظلوا على ذلك طويلاً، حتى أوشك القرن الأول للهجرة على الزوال، فشاركهم الأجانب مشاركة بدت قاصرة في أول الأمر، حتى إذا كان عصر هشام بن عبد الملك (١٠٤ ـ ١٢٤هـ) وجدنا على ديوانه مولى كان يحسن اليونانية وينقل عنها بعض الرسائل وهو سالم، الذي تخرج على يديه عبد الحميد الكاتب الفارسي الأصل.

ومعنى ذلك أن كتابة الرسائل السياسية الرسميّة نشأت في حِجْر العرب، ونمت تحت أيديهم. كما أخذ العقل العربي ينمو ويرقى، فنمت ورقيت معه تلك الصناعة، وتوافر عليها جماعة من بلغاء الخطباء كما توافر عليها جماعة من الكتَّاب المحترفين الذين توظفهم الدولة للعناية بها، فالعرب استعاروا نظم الدواوين من لدن الفرس[١]، ولكن الفرس مثلهم مثل غيرهم من الموالي لم يوجدوا لهم هذا الفن من كتابة الرسائل السياسية، إنما أوجدته حياتهم وضروراتها السياسية والإدارية. ومن هنا نعترض على رأي بعض المستشرقين الذين يزعمون أن العرب استعاروا كتابتهم السياسية الفنية أو نثرهم السياسي الفني من لدن الفرس[٢].

وعلى نحو ما نشأت الكتابة السياسية الرسمية ونمت، نشأت الكتابة الاجتماعية أو الشخصية وأخذت في النمو منذ عصر الفتوح، فإن انتشار العرب في البلدان الإسلامية دفعهم دفعاً إلى أن يتكاتبوا في مهامهم وشؤونهم الشخصية وفي التهاني والتعزية وفي العظة والعبرة[٣]. وقد كثر ذلك مع مرور الزمن، واعتنت الكتب الأدبية والتاريخية بتلك المكاتبات قدر عنايتها بالوسائل السياسية، لأنها في الغالب لا يتعلق بها تاريخ، وأيضاً فإن أصحابها لم يكونوا يقرؤونها في الناس ولا كانوا يسجلونها، ومع ذلك نجد آثاراً منها، يرجع بعضها إلى صدر الإسلام، وبعض آخر يرجع إلى عصر بني أمية، وربما كان أبرز كتَّابها عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر.

أما الكتابة الدينية فقد أصابها ما أصاب الخطابة الدينية من الرقي والازدهار، لسبب بسيط وهو أن كتَّابها كانوا هم أنفسهم الذين مرنوا على الخطابة والجدال والحوار في المسائل الدينية والمذهبية، فأضفوا على كتابتهم الصورة البيانية نفسها التي أضفوها على خطابتهم، مما نجده ماثلاً في كتابات الحسن البصري وغيلان الدمشقي وغيرهما من الوعاظ.

---

(١) الوزراء والكتاب للجشيارى ص٢ وما بعدها.

(٢) النثر الفني لزكي مبارك ١/ ٣٤، ١/ ٤٣، وراجع بحثاً لمرسيه نشره في: revue Africaine, Nos, 330, 331, 1eme, 2eme, trimesters, 1927.

(٣) انظر: رسالتين متبادلتين بين الصحابيين: أبي الدرداء وسلمان الفارسي في العقد الفريد ٣/ ١٥٠.

وإذ نتجاوز منتصف القرن الأول للهجرة، تتكامل الرغبات للعناية بتلك الرسائل عناية توفِّر لها ضروباً من التجويد والجمال الفني. وكأنما لم تعد الغاية أن تؤدي أغراضها فحسب، بل أضيف إلى ذلك غاية أخرى أن تروع القارئين والسامعين بتحبيرها وتنميقها، وكأنها قطعة موسيقية أو لوحات تصويرية. ولم يقفوا بذلك عند ظاهرها، فقد أخذوا ينوعون في معانيها ويفرِّعون، ويطنبون صوراً مختلفة من الإطناب، وسرعان ما نسمع أن عمرو بن نافع كاتب عبيد الله بن زياد والي العراق (٦٠ ـ ٦٤هـ) كان يطيل في رسائله طولاً شديداً[١].

وظاهرة الطول ظاهرة جديدة لم يكن يعرفها العرب في أدبهم إذ كانوا يوجزون قبل عصر عبيد الله بن زياد في شعرهم ونثرهم جميعاً، أما منذ هذا العصر قد استمر ظاهرة الإيجاز في الشعر، بينما حلت محلها ظاهرة معاكسة في النثر، وهي ظاهرة لا شك في أنها وليدة التطور العقلي الذي أصاب العرب، فإذا هم يستطيعون أن يبسطوا آراءهم السياسية وأن يفصلوا في معانيها ضروباً مختلفة من التفصيل.

وكان الحجاج نفسه يسجع أحياناً كما كان يسجع بعض من يكاتبونه، وخير ما يصور ذلك رسالتان احتفظ بهما الجاحظ في بيانه، وهما متبادلتان بينه وبين قطري بن الفُجاءة، وقد بُنيتا على السجع الخالص[٢].

وحقاً نجد المختار الثقفي يسجع في رسائله[٣]، ولكنه كان يبدو شاذاً بعض الشيء في هذا الاتجاه، أما في عصر الحجاج فيظهر أن كثيراً من الكتَّاب كان يبني كتابته عليه، ولعل مما يدل على ذلك أننا نجد ابن الأشعث حين ثار على الحجاج وأعد جيشاً لحربه، يقول لكاتبه ابن القرِّية: «إني أريد أن أكتب إلى الحجاج كتاباً مسجعاً أعرفه فيه سوء فعاله وأصور قبح سرريرته» ويصدع ابن القرية بأمره، ويرد عليه الحجاج برسالة مسجوعة أيضاً[٤].

وقد لا يسجع الكاتب، ولكنه لا يزال يفكر في طريقة يلفت بها القارىء والسامع، فقد حدثنا الرواة أن يزيد بن المهلب في أثناء بعض حروبه فكر أن يكتب

---

(١) تاريخ الطبري، القسم الثاني ص٢٧٠.
(٢) الجاحظ، البيان والتبيين ٢/ ٣١٠.
(٣) انظر الطبري في سنة ٦٦هـ.
(٤) الأخبار الطوال للدينوري (طبع ليدن) ص٣٢٣.

إلى الحجاج كتاباً، وكان يكتب له يحي بن يعمر، وهو عربي ومن أوائل من عُنوا بوضع قواعد العربية[١] فلما أمره يزيد بالكتابة إلى الحجاج وأن يعلمه بما صنعوا في الحرب كتب إليه هذه الرسالة القصيرة[٢]:

«إنا لقينا العدو، فمنحنا الله أكتافهم، فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة، ولحقتْ طائفة برؤوس الجبال وعرائر[٣] الأودية وأهْضام[٤] الغيطان، وبتنا بعرعرة[٥] الجبل، وبات العدو بحضيضه».

ولما قرأ الحجاج الرسالة أعجب بها إعجاباً شديداً. وأرسل إلى يحيي يطلبه على البريد، فلما جاء سأله؛ من أين لك هذه الفصاحة؟ وهي فصاحة كانت تعتمد على اللفظ الغريب. ونحن لا نُثني على الإغراب في الألفاظ ولكنا نستدل من هذه الرسالة الوجيزة على أن الكتَّاب في عصر الحجاج كانوا لا يزالون يفكرون في صنعة أساليبهم. فتارة يعمدون فيها إلى السجع، وتارة يعمدون فيها إلى الإغراب اللفظي. فالكاتب لا يفكر في أداء معانيه فحسب بل يفكر في تنميقها وتزيينها بضروب من الحلية، كل حسب ذوقه. وكان يحيى بن يعمر لغوياً، وكان ذوقه ذوق اللغويين فعمد إلى ألفاظ غير مألوفة كي يروع الحجاج ويملك عليه لُبَّه، ونفذ فعلاً إلى ما أراده، إذ كان الحجّاج يميل أحياناً إلى التفاصح بالغريب، على نحو ما مر بنا في خطبته بالكوفة التي بدأها بأرجاز تزخر باللفظ الحوشيّ.

ولم يكن الحجاج يعمد إلى السجع في كتبه ورسائله دائماً، بل كان يأتي ذلك إنما كان في القلة وفي الحين بعد الحين، أما الكثرة فتخلو من السجع. وليس معنى هذا أنه كان يتخفف من محاولة التأنق والتنميق، فقد كان يسعى إلى تحقيق ذلك دائماً، وكان يتخذ إليه الإغراب في اللفظ حيناً، وحيناً يتخذ ما سبق أن لاحظناه في خطابته من الصور والاستعارات الطريفة، ومن خير ما يصور ذلك عنده ما رواه الجاحظ في خاتمة بيانه من أنه كتب إلى عبد الملك بهذه الرسالة[٦].

---

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي (طبعةكرنكو) ص٢٢.
(٢) البيان والتبيين ١/٧٧٣.
(٣) عرائر الأودية: أسافلها.
(٤) أهضام الغيطان: مداخلها.
(٥) عرعرة الجبل: أعلاه
(٦) البيان والتبيين ٤/٩٩.

وروى الجاحظ في بيانه رسالتين متبادلتين بين عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد بن العاص حين ثار عليه، وليستا مسجوعتين، ولكن أثر الصنعة والتأنق باد عليهما[١]، ومعنى ذلك كله أن الكتّاب أصبحوا منذ هذه الحقبة من العصر يتفننون في رسائلهم، ويحاولون جاهدين أن تلمع عليها آثار من الجمال الفني.

وإذا مضينا إلى أوائل القرن الثاني للهجرة وإلى عصر هشام بن عبد الملك (١٠٤ ـ ١٢٤هـ) وجدنا على رأس ديوانه مولى له يسمى سالماً[٢] ينهض بكتابة هذه الرسائل السياسية نهضة واسعة، وكان يعرف اليونانية ويترجم منها بعض رسائل لأرسطاطليس[٣]، وقد عدّه صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأول في تاريخ العرب وأدبهم[٤]. ويقول إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة[٥]، غير أن هذه الرسائل لم تصلنا، ولولا أن الطبري احتفظ لنا براسلة كتبهاعن هشام إلى خالد القسري[٦] لم نكد نعرف شيئاً واضحاً عن فنه وبيانه، ومن يرجع إليها يلاحظ أنه عُني بأسلوبه عناية تشبه عناية الوعاظ من أمثال الحسن البصري بأسلوبهم وما كانوا يوفرون له من ازدواج والترادف الصوتي، وكان يتكىء على هذه الحال اتكاءً شديداً في صياغته.

وليس تحت أيدينا من النصوص ما نستطيع به أن نحكم على مدى التأثير اليوناني في كتابة سالم، وإن كان يُظنّ أن هذا التأثير كان عميقاً، وقد تخرَّج عليه عبد الحميد أنبه كتّاب العصر وأشهرهم.

ولم تكن الرسائل السياسية وحدها هي التي يطّرد لها النمو والازدهار، بل شاركتها في ذلك الرسائل الاجتماعية أو الشخصية، لسبب بسيط، وهو أن من كانوا يكتبونها كانوا يعيشون في تلك الحقب التي أخذ البلغاء يهتمون فيها بتنميق أساليبهم

(١) البيان والتبيين ٤/ ٨٧.
(٢) الوزراء والكتاب للجهشياري ص٦٢.
(٣) الفهرست ص١٨١.
(٤) الفهرست ص١٨٢.
(٥) الفهرست ص١٧١.
(٦) الطبري، القسم الثاني ص١٦٤٢.

وإيداعها ضروباً من البيان والفصاحة. ونسوق مثلاً لها رسالة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى رجل من إخوانه[١].

وإذا تركنا الرسائل الاجتماعية الشخصية والسياسية الرسمية إلى الرسائل الدينية والجدلية وجدنا أصحابها هم أنفسهم أرباب البيان والبلاغة من الخطباء المفوهين أمثال الحسن البصري وغيلان الدمشقي.

وكانت هذه الرسائل تستخدم الأسلوب المزدوج الذي يأخذ بأطراف من التصوير والطباق، والذي سبق أن لاحظناه في خطابة الحسن البصري وأضرابه.

ففي الرسالة كل الخصائص التي سبق أن تحدثنا عنها في خطابه الحسن، ففيها الازدواج والترادف الصوتي والتكرار، وفيها التقابل والطباق والتشبيهات وغير ذلك من حُلى بيانية. وقد مضى الحسن يقتبس فيها من آي الذكر الحكيم ما يصور به فكره ويوشي به تعبيره.

أما رسائل غيلان الدمشقي فهي تصور مدى احتفال الوعاظ برسائلهم وما كانوا يؤدون فيها من ضروب الجمال الفني، ويقول صاحب الفهرست إن رسائله كانت في ألفي ورقة[٢]. ولا نرتاب في أن هذه الرسائل وما يمثالها من مواعظ الحسن البصري وأضرابه هي التي استعار منها سالم وتلميذه عبد الحميد أسلوبهما الكتابي في الرسائل السياسية.

عبد الحميد الكاتب وفن الرسائل

هو عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب القرشي، يرجع إلى أصول فارسية[٣]، من أهل الأنبار، سكن الرقة[٤]، وكان في أول أمره يتنقل في البلدان معلماً في الكتاتيب، ثم التحق بديوان الرسائل في دمشق لعهد هشام بن عبد الملك، حيث خرَّجه ختنه سالم مولى هشام ورئيس هذا الديوان، واتصل بمروان بن محمد

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٨٤ ـ ٨٥ وزهر الآداب ١/ ٧٨.
(٢) الفهرست ص١٧١.
(٣) المسالك والممالك للإصطخرى (طبعة ليدن) ص١٤٥.
(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة المطبعة الميمنية ١٢/ ٣٠٧.

وكتب له أيام كان والياً، فلما صارت إليه الخلافة أقامه على ديوانه، فنهض بالعمل فيه خير نهوض.

ولما دارت الدوائر على مروان وانتصرت عليه الجيوش العباسية بقيادة أبي مسلم الخراساني في موقعة الزاب ظل مخلصاً له وفياً، ففر معه إلى مصر حيث قتلا معاً في موقعة بوصير[١].

وعبد الحميد أبلغ كتّاب الدواوين في العصر الأموي وأشهرهم، وقد ضُربت ببلاغته الأمثال، فقيل فُتحت الرسائل بعبد الحميد، وخُتمت بابن العميد[٢]، ويقول ابن النديم: «عنه أخذ المترسلون، ولطريقته لزموا، وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسل»[٣] ويزعم المسعودي أنه أول من استخدم التحميدات في فصول الكتب[٤]. وكانت كتابته القمة التي وصلت إليها الكتابة الفنية في العصر الأموي. إذ كان زعيم البلغاء في عصره غير مدافع.

وقد بقيت منثورات من رسائل عبد الحميد الكاتب تشهد بفصاحته ولسنه ومقدرته على التعبير والبيان مع الفخامة والطلاوة، من ذلك رسالة وجهها إلى عمّال مروان بن محمد بالأمصار يأمرهم بمحاربة لعبة الشطرنج، ورسالة ثانية يصف فيها رحلة صيد وقد تأثر فيها تأثراً شديداً بوصف شعراء الجاهلية للصيد وكلابه وجوارحه. ورسالة ثالثة تقدم بها إلى الكتّاب[٥]، ضمنها وصايا مختلفة لهم، وهي تدل على نمو طبقتهم وأنهم أصبحوا يؤلفون جماعة بارزة في حياة الدولة ووظائفها وأعمالها المتنوعة. ونراه يستهلها بأن صناعتهم أشرف الصناعات، إذ بهم ينتظم الملك وبتدبيرهم وسياستهم يستقيم الحكم، وينصحهم أن يتحلوا بخلال الخير وخصال الفضل، ويخوض فيما ينبغي أن يتقنوه من صنوف المعرفة والثقافة.

وكان الكاتب في عصر عبد الحميد لا يستطيع أن يحسن وظيفة الكتابة إلا إذا

(١) وفيات الأعيان ٣٠٧/١.
(٢) اليتيمة: للثعالبي (طبعة الصاوي) ١٣٧/٣.
(٣) الفهرست ص ١٧٠.
(٤) مروج الذهب ١٧٨/٣.
(٥) الوزراء والكتاب ص٧٣ وما بعدها.

ألم بالثقافة الإسلامية وثقافة العرب الأدبية من خطابة وغير خطابة ومن أيام وغير أيام، ومن أخبار الأمم الأجنبية ومعارفها. ولا بد أن يعرف الحساب وأن يروي الأشعار ويقف على غريبها ومعانيها، فيفيد منها كما أفاد عبد الحميد نفسه في رسالة الصيد إذ نثر فيها كثيراً من معاني الشعر القديم.

فالكتابة لم تعد عملاً سهلاً بسيطاً، بل أصبحت عملاً معقداً، لا بد فيه من إعداد ومن تثقف تام بالقرآن الكريم وأوامر الشريعة وبالأدب العربي وكنوزه النثرية والشعرية والآداب الأجنبية. وليس هذا كل ما يلفتنا في الرسالة، فقد تحدث عبد الحميد طويلاً عما ينبغي أن يأخذ به الكاتب نفسه في سياسة الناس وتدبير شؤونهم، كما تحدث عما يمكن أن نسميه آداب اللياقة بالقياس إلى الخلفاء. والرسالة في مجموعها تتصل مباشرة بما أثر من وصايا ملوك الفرس لكُتَّابهم، مما رواه الجهشياري في مقدمة كتابه الوزراء والكتاب، ولذلك كنا نظن ظناً أن عبد الحميد يتأثر فيها بتلك الوصايا، ولعل هذا هو الذي جعل صاحب الصناعتين يزعم أنه استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي، فحوَّلها إلى اللسان العربي»[١].

ونصّ الجاحظ في بيانه على أنه ترجم بعض الكتب من الفارسية[٢]، ولا بد أن تكون هذه الكتب متصلة بعمله من الكتابة الأدبية. وربما كان من أطرف ما نقرؤه في رسالته إلى الكُتَّاب الآنفة الذكر أننا نراه يدعوهم إلى تأليف ما يشبه النقابة في عصرنا، فقد طلب إليهم أن يعطفوا على من ينبُو به الزمان منهم، وأن يواسوه حتى يرجع إليه حاله ويثوب أمره. والرسالة بذلك دستور واسع للكُتَّاب يصور واجباتهم الخليقة والثقافية، وعلى هدْيها كُتبت فيما بعد كتب أدب الكاتب والكتَّاب لابن قتيبة والصولي وغيرهما.

وربما كانت أهم رسالة سياسية وصلتنا عنه رسالته، التي بعث بها عن مروان ابن محمد إلى ابنه وولي عهده عبد الله حين وجَّهه لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الذي ثار في العراق وامتدت ثورته إلى الموصل عام ١٢٨ للهجرة

---

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري (طبعة الحلبي) ص٦٩.
(٢) البيان والتبيين ٣/٢٩.

وهي رسالة كبيرة. وكأن عبد الحميد أراد بها أن يضع دستوراً لتنظيم قواد الدولة لجيوشهم من الوجهتين: المادية والحربية. والرسالة تقع في نحو أربعين صفحة، فهي أطول رسالة أثرت عن عصر بني أمية، إذ امتد فيها نفس عبد الحميد إلى كثرة واسعة من الصحف، فصَّل فيها الحديث عن آداب القادة وتصريفهم للمسائل الحربية، وأطال في بيان ذلك، حتى غدت الرسالة أشبه ما تكون بكتاب مستقل.

وهذا الطول المسرف في الرسالة جعل خصائص عبد الحميد في فنه الكتابي تبدو واضحة تمام الوضوح، إذ نرى الخاصة من خصائصه تنبسط تحت عين القارىء انبساطاً واسعاً. وقد قسمها ثلاثة أقسام كبيرة: قسم يصور القائد وما ينبغي أن يكون عليه من آداب في سلوكه مع نفسه ثم مع حاشيته ورؤساء جيشه. وقد كان أثرُ الثقافة الفارسية وما عرف من آداب الفرس في الملك والسياسة بيناً في هذا القسم. أما القسم الثاني فخاص بسياسة القائد لجيشه وما ينبغي أن يتخذ فيه من شرطة وقضاة ورجال مال. وأما القسم الثالث فقدتحدث فيه عن التنظيم الداخلي للجيش وكيفية إعداده في وحدات، كل وحدة مائة، وهو نفس النظام الحربي الذي كان متبعاً عند البيزنطيين[١].

وأغلب الظن أن عبد الحميد في ذلك كله إنما كان يقلد أستاذه سالماً في كتابته. فصلة سالم باليونانية مقررة. وقد كان يسرف في استخدام الحال كما تشهد بذلك إحدى رسائله، وقد أثرت عن ابنه عبد الله رسالة[٢] تسرف أيضاً في استخدام الحال وكأنها كانت لازمة من لوازم سالم، وتأثر به فيها تلميذان له، أحدهما من بيته وهو ابنه عبد الله وثانيهما من غير بيته وهو عبد الحميد. أما مسألة تنظيم الجيوش إلى وحدات كل وحدة مائة، فلعل عبد الحميد عرفها كما عرفها معاصروه عن طريق ما كانت تتبعه الجيوش البيزنطية في عصره من تنظيم حربي وكانت الحرب قائمة بينهم وبين العرب لا يهدأ أوارها.

كان عبد الحميد فارسياً وقد نقل عن الفرس بعض الرسائل الأدبية، فهو يتأثر بالفرس تأثراً مباشراً لا شك فيه، أما تأثره باليونان فلعله جاءه عن طريق أستاذه سالم

---

(١) من حديث الشعر والنثر لطه حسين ص ٤٠ وما بعدها.

(٢) الكامل للمبرد ص٧٩٣.

الذي كان يحذق اليونانية، وهي تظهر عنده في التزامه المنطق الدقيق في تقسيم كلامه إلى أجزاء متميزة وفقر متناسقة، لا يظهر فيها أي نُوبٍ، ولا يداخلها أدنى شيء من استطراد أو تشعث. أما أسلوبه الموسيقي الذي يقوم على الازدواج والترادف الصوتي، فهو أسلوب سبق إليه الوعاظ من أمثال غيلان الدمشقي والحسن البصري، ونقله عنهم سالم في كتاباته، وجاراه تلميذه عبد الحميد فيه، حتى أوفى به على غايته، فبهر معاصريه ومن خلفوهم[١].

وعبد الحيمد يعتمد على خاصة الترادف الموسيقي، فالفكرة تؤدَّى لا في عبارة واحدة، وإنما في عبارتين أو عبارات، حتى يكتسب الأسلوب ضرباً من التوقيع والتعادل الصوتي، فإذا العبارات تتلاحق متوازنة متعادلة تعادلاً موسيقياً رائعاً، يُرضي الأذن والشعور. وهو أثناء ذلك يعتمد على الحال اعتماداً مسرفاً لا نعرفه عند الوعاظ ولا عند من سبقوهم وعاصروهم من الخطباء، إنما نعرفه عند سالم وابنه عبد الله ثم عند صاحبنا، وكأنها أصبحت لازمة من لوازم تلك المدرسة.

ويوشي عبد الحميد أسلوبه بحلية التصوير وما يدمج فيه من استعارات، وبحلية الطباق والمقابلة، بالضبط على نحو ما كان يصنع الحسن البصري وغيلان الدمشقي وأضرابهما في رسائلهم ومواعظهم. ومن رسائله الطريفة التي تصور مهارته البيانية تصويراً دقيقاً رسالته الشخصية إلى أهله، وهو منهزم مع مروان يعزِّيهم عن نفسه[٢].

وخصائص رسائل عبد الحميد جميعها واضحة، ففيها لازمة الحال، وفيها جودة التقسيم ودقة المنطق، وفيها الطباق ومقابلاته والصور وألوانها وخاصة لون الاستعارة، وفيها الازدواج والترادف الموسيقي الذي يتيح لعباراته فنوناً مختلفة من الإيقاعات والموازنات الصوتية.

وإذا كان السابقون يقولون: إن الرسائل بُدئت بعبد الحميد، فلأنها كانت لا استطراد فيها ولا حشو ولا نبوّ بأي وجه من الوجوه. ناهيك عن الأسلوب

(١) صبح الأعشى للقلقشندي ١٠/ ١٩٥ وما بعدها.
(٢) الوزراء والكتاب للجهشياري، ص٧٢.

التصويري الموسيقي. ومن غير شك هيأت لذلك كله عنده بيئات الوعاظ، كما هيأت أداء معانيه كما يشاء. وكان يملك أسلوبه وينظِّمه تنظيماً تصويرياً وموسيقياً بديعاً، مما جعله ينفذ بصنعة الرسائل إلى كل ما كان يريده أصحابها من تنويع في معانيها المؤسسة على المنطق الدقيق والجمال في الأسلوب والتصوير الطريف والإيقاع الصوتي الذي يذوب ذوباً في النفس.

مختارات من الفن النثري

خطبة «البتراء»[١]

قال أبو الحسن المدائني وغيره، ذكر مسْلمة بن محارب، وعن أبي بكر الهُذلي قالا: قدم زيادٌ البصرة والياً لمعاوية بن أبي سفيان (وضم إليه خراسان وسجستان، والفسقُ بالبصرة كثير فاشٍ ظاهر).

قالا: فخطب خطبة بتراء، لم يحمَد الله، ولم يُصلِّ على النبي.

وقال غيره: بل قال:

«الحمد لله على إفضاله وإحسانه، ونسأله المزيدَ من نعمه وإكرامه. اللهُمَّ زِدْتنا نِعماً فألهمنا شُكراً».

«أمَّا بعدُ فإنَّ الجهالةَ الجهلاء[٢]، والضلالة العمياء[٣]، والغيَّ الموفي بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم[٤]، ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام ينبُتُ فيها الصغير، ولا ينحاشُ[٥] عنها الكبير، كأنكم لم تقرؤوُا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعدَّ الله من الثّواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السّرمد[٦] الذي لا يزول، أتكونون كمن طرفت عينَه الدُّنيا، وسدَّت مسامعه

---

(١) انظر: البيان والبتيين، ج٢، ص٦١، الأشتر، نصوص، ص١٤٥١٥١. وقالوا: إنما سميت خطبته هذه «البتراء» لعدم بدئها بحمد الله.

(٢) جهالة جهلاء: جهالة شديدة.

(٣) الضلالة العمياء: التي لا هدى معها.

(٤) السفيه: سيء الخلق.

(٥) انحاش عن الأمر: نفرمنه.

(٦) السرمد: الدائم.

الشهواتُ، واختار الفانيةَ على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدَثَ الذي لم تُسبقوا إليه: مَن تركَكُم الضعيف يُقهرَ ويؤخذ مالُه، وهذه المواخير[١] المنصوبة، والضعيفة المسلوبة في النهار المبْصر، والعدد غيرُ قليل.

ألم تكن منهم نُهاةٌ تمنعُ الغواةَ عن دَلَج الليل[٢] وغارة النهار؟ قرَّبتم القرابة، وباعدتم الدّين، تعتذرون بغير العُذْر، وتُغْضُون على المُخْتلس. ألَيْسَ كلُّ امرىءٍ منكم يذبُ عن سفيهه. صُنعَ من لا يخافُ عاقبةً ولا يرجو معاداً. ما أنتم بالحلماء، ولقد اتبعتم السُفهاء. فلم يزلْ بكم ما ترون من قيامكن دُونهم[٣] حتى انتهكوا حُرَمَ الإسلام. ثم أطرقوا وراءكم كُنُوساً[٤] في مكانس الرِّيب. حرامٌ عليَّ الطعامُ والشرابُ حتى أُسوِّيها بالأرض، هدماً وإحراقاً.

إني رأيتُ آخرَ هذا الأمر لا يصلحُ إلاّ بما صلُحَ به أوَّلُه: لينٌ في غير ضعف. وشدَّةٌ في غير عنّف. وإني أقسمُ بالله لآخذن الوليَّ بالمولى[٥]، والمقيمَ بالظّاعن، والمقبل بالمدبر، والمُطيع بالعاصي. والصحيح منكم في نفسه بالسّقيم، حتى يلقى الرَّجلُ منكم أخاه فيقول: انجُ سعدُ فقد هلك سُعيدٌ[٦]، أو تستقيم لي قناتُكم[٧].

إن كذبة المنبر بلقاءُ مشهورةٌ، فإذا تعلقتم عليَّ بكذبةٍ فقد حلّت لكم معصيتي، وإذا سمعتموها منّي فاغتمزوها فيّ[٨] واعلموا أن عندي أمثالها. من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه، فإيّاي ودلج الليل، فإني لا أُوتى بمُدلج إلا سفكت دمه. وقد أجّلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم. وإياي ودعوة الجاهلية[٩]. فأني لا أخذُ داعياً بها إلا قطعتُ لسانه.

وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكلِ ذنبٍ عُقوبة: فمنْ غرَّق قوماً

---

(١) المواخير: جمع ماخور: بيت الريبة والفحش.

(٢) دلج الليل: السير فيه، والمراد التلصص والفتك.

(٣) قيامكم دونهم: دفاعكم عنهم.

(٤) الكنوس: جمع كانس، وهو الظبي يدخل في كناسه أي مأواه. والمراد انهم عكفوا على المعاصي.

(٥) الولي: السيد. والمولى: العبد. والمراد أنه يأخذ السيد بذنب عبده. وكذا الباقي.

(٦) مثل يضرب لتتابع الشر. وأصله أن أخوين خرجا في طلب إبل لهما فرجع سعد ولم يرجع سعيد.

(٧) المراد حتى تستقيموا. وشبههم بالقناة، وهي عود الرمح.

(٨) اغتمزوها فيَّ: عدوها من عيوبي، واغتمز الشيء: استضعفه.

(٩) دعوة الجاهلية: كناية عن التناصر بتأثير العصبية سفها وجهالة، وأصلها يا لفلان استغاثة.

غرّفناه ومن أحرق قوماً أحرقناه، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبراً دفناه به حياً. فكُفّوا عني أيديكم وألسنتكم، أكفف عنكم يدي ولساني. ولا تظهرُ على أحد منكم ريبةٌ بخلاف ما عليه عامَّتُكم إلاّ ضربت عنقه. وقد كانت بيني وبين أقوام إحن[١] فجعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً، ومن كان منكم مسيئاً فلينزعْ عن إساءته. إنِّي والله لو علمتُ أن أحدكم قد قتله السُّلُ من بُغضي لم أكشفْ له قناعاً، ولم أهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته[٢]، فإذا فعل ذلك لم أناظره، فاستأنفوا أموركم، وأرْعوا[٣] على أنفسكم، فرُبَّ مسُوءٍ بقدومنا سنسُرُّه ومسرورٍ بقدومنا سنسوؤُه.

أيُّها الناس، إنّا أصبحنا لكن سادةً، وعنكم ذادةً[٤] نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذودُ عنكم بفيء الله[٥] الذي خوَّلنا. فلنا عليكم السّمعُ والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل والإنصاف فيما وُلينا، فاستوجبوا عدلنا وفئينا بمناصحتكم لنا، واعلموا أنّي مهما قصّرتُ عنه فلن أُقصِّر عن ثلاث: لستُ محتجباً عن طالب حاجةٍ منكم ولو أتاني طارقاً بليل، ولا حابساً عطاءً ولا رزقاً عن إبّانه، ولا مجُمِّراً لكم بعثاً[٦]. فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المُؤدِّبون، وكفهكم الذي إليه تؤون، ومتى يصلحوا تصلُحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتدَّ لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم ولا تُدركوا به حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم، أسأل الله أن يعين كلاً على كلّ. وإذا رأيتموني أُنفذُ فيكم الأمر فأنفذوه على أَذْلاله[٧]. وايْم الله[٨] إنّ لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاي».

---

(١) الاحن: جمع إحنة: الحقد.

(٢) صفحة الرجل: عرض وجهه، والمراد حتى يجهر بالعداوة.

(٣) الارعاء: الابقاء والرفق.

(٤) ذادة: حماة، جمع ذائد أي مدافع.

(٥) الفيء: مال الخراج أو الغنيمة.

(٦) تجمير الجند أو البعث: حبسهم في ارض العدو.

(٧) على أذلاله: أي على طرقه ووجوهه.

(٨) وأيمن الله: اسم وضع للقسم، وهو جمع يمين، وألفه ألف وصل عند أكثر النحوين. ولم يجىء في الأسماء ألف الوصل مفتوحة غيرها وربما حذفوا منه النون فقالوا أيم الله بفتح الهمزة وكسرها. وربما أبقوا الميم وحدها فقالوا م الله م الله.

خطبة الحجّاج[١]

حدَّثنا محمد بن يحيى بن علي بن عبد الحميد، عن عبد الله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمّار بن ياسر، قال:

خرج الحجاج يريد العراق والياً عليها، وفي اثني عشر راكباً على النَّجائب، حتى دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار، وقد كان بشر بن مروان بعث المهلب إلى الحرورية، فبدأ الحجّاج بالمسجد فدخله، ثم صعد المنبر، وهو متلثّم بعمامة خزٍّ حمراء، فقال: عليَّ بالناس! فحسبوه وأصحابه خوارج فهمُّوا به، حتى إذا اجتمع النّاسُ في المسجد قام فكشف عن وجهه، ثم قال:

أنـا ابـن جَـلاَ وطَـلاَّعُ الـثَّـنـايـا مَتَـى أضَـع الـعِـمـامـةَ تـعـرفـونـي[٢]

أمّا والله إني لأحتمل الشرّ بحمله، وأحذُوه بنعله، وأجزيه بمثله، وإني لأرى رؤوساً قد أينعتْ[٣] وحان قطافها، وإني لصاحبها. وإني لأنظرُ إلى الدِّماء ترقرقُ بين العمائم واللِّحَى.

ثـقـد شـمّـرت عـن سـاقـهـا فـشـمِّـرا

ثم قال[٤]:

هـذا أوانُ الـشـدِّ فـاشـتـدِّي زيـمْ قـد لـفّـهـا الـلّـيـلُ بـسـوَّاقٍ حُـطَـمْ[٥]

لـيـسَ بـراعـي إبـلٍ ولا غَـنَـمْ ولا بـجـزّارٍ عـلـى ظـهـر وَضَـمْ[٦]

وقال أيضاً:

---

(١) البيان والبيتين/ ج٢، ص٣٠٧ وما بعدها، الأشتر، نصوص، ص ١٥٢١٥٦.

(٢) ابن جلا: أي ابن رجل جلا الأمور وكشف الصعاب. الثنايا: جمع ثنية: وهي الطريق في الجبل أو الجبل نفسه، والمراد القادر الشجاع.

(٣) أينعت: أدركت ونضجت.

(٤) الرجل لرويشد (أو رشيد) بن رميض العنبري يقوله في الحطم القيسي، واسمه شريح بن ضبيعة، وكان شريح قد غزا اليمن، فغنم وسبى، ثم أخذ على طريق مفازة فضل بهم دليلهم ثم هرب منهم. وهلك منهم ناس كثير بالعطش. وجعل الحطم يسوق بأصحابه سوقاً عنيفاً حتى نجوا ووردوا الماء فقال فيهم رشيد الرجز مادحاً. فلقب «الحطم» بما في الرجز.

(٥) زيم: اسم ناقته أو فرسه. الضمير في «لفها» للابل. أي جمعها الليل بسائق شديد، عنى نفسه والرعية.

(٦) الوضم: كل ما قطع عليه اللحم.

قد لفّها الليلُ بعَصْلبيِّ أروعَ خرّاجٍ من الدَّوّيِّ[١]
مُهاجرٍ ليسَ بأعرابيِّ

إنّي والله يا أهل العراق، والشِّقاق والنِّفاق، ومساوي الأخلاق، ما أُغْمزُ تغمازَ التِّين، ولا يُقَعْقَع لي بالشنان[٢]، ولقد فُررتُ عن ذكاءٍ[٣]، وفُتِّشتُ عن تجربة، وجريتُ من الغاية[٤]. إنّ أمير المؤمنين كبَّ كنانته ثم عجم عيدانها[٥]، فوجدني أمرَّها عوداً، وأصلبها عموداً، فوجّهني إليكم، فإنّكم طالما أوضعتم في الفتن[٦]، واضطجعتم في مراقد الضَّلال، وسننتُم سُننَ الغيِّ. أما والله لألحونّكم لحو العصا، ولأعصبنّكم عصب السلمة[٧]، ولأضربنكم ضربَ غرائب الإبل[٨]، فإنّكم لكأهلِ قريةٍ كانتْ آمنة مطمئنةً يأتيها رزقها رغداً من كُلِّ مكان فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. إني والله لا أعدُ إلا وفيت، ولا أهم إلاّ أمضيْت، ولا أخلُق إلا فريت[٩]. فإياي وهذه الجماعات وقال وقيلَ، وما تقولون؟ وفيم أنتم وذاك؟ أما والله لتستقيمُنّ على طريق الحقِّ أو لأدعنّ لكلِّ رجل منكم شُغلاً في جسده. من وجدت بعد ثالثةٍ من بعث المهلّب سفكتُ دمه، وانتهبتُ ماله.

ثم دخل منزله.

---

(١) العصلبي: الشديد الباقي على المشي والعمل. الأروع: الكريم ذو الجسم والجهارة والفضل والسؤدد، وقيل هو الجميل الذي يروعك حسنه. الدوي: المفازة والصحراء المتسعة، والمراد الخراج من كل غماء شديدة.

(٢) الشنان: جمع شن، وهو القربة البالية، وكانوا يحركونها إذا استحثوا الابل للسير، لتفزع فتسرع، يضرب ذلك مثلاً لنفسه أي أنه لا يرهبه وعيد أو تخويف.

(٣) فرا الدابة: كشف عن أسنانها ليعرف بذلك عمرها. وفرا عن الأمر: بحث عنه الذكاء: نهاية الشباب وتمام السن، وهو في ذوات الحافر أن يجاوز القروح بسنة، وإنما يقرح حينما يستم الخامسة، ويدخل في السادسة. والمراد أن الخليفة اختاره حاكماً لحدة ذكائه وصحة تجاربه.

(٤) وجريت من الغاية: كأنه عنى أنه جاوز الغاية. والغاية: قصبة تنصب في الموضع الذي تكون المسابقة إليه ليأخذها السابق.

(٥) الكنانة: جعبة السهام. عجم السهام: عضه ليعرف صلابته، وهذا وما بعده كناية عن أنه اختبر أعوانه فوجدني أصلح لحكمكم.

(٦) أوضعتم في الفتن: أي اسرعتم في الشر.

(٧) السلمة: واحدة السلم، وهو شجر ذو شوك يدبغ بورقة وقشره، ويعسر خرط ورقة لكثرة شوكه فتعصب أغصانه ويشد بعضها ببعض بحبل، ثم يهصرها الخابط إليه، ويخطبها بعصاه، فيتناثر ورقها للماشية.

(٨) ولأضربكم ضرب غرائب الإبل: ذاك أن الابل إذا وردت الماء فدخل عليها غريبة من غيرها ضربت وطردت حتى تخرج منها.

(٩) خلق الأديم: قدره لما يريد قبل القطع وقاسه ليقطع منه. والفري: القطع.

رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن مروان إلى ابنه عبد الله بن مروان[(١)]

وكتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله بن مروان، حين وجّهه لمحاربة الضحّاك بن قيس الشّيباني الخارجي[(٢)]:

«أما بعدُ، فإن أمير المؤمنين ـ عندما اعتزم عليه، من توجيهك إلى عدوٍّ الله الجلْف الجافي الأعرابي المتسكِّع[(٣)] في حيرة الجهالة، وظُلم الفتنة، ومهاوي الهلكة، ورعاعه الذين عاثوا[(٤)] في أرض الله فساداً، وانتهكوا حرمة الإسلام استخفافاً، وبدلّوا نعمَ الله كفراً، واستحلّوا دماء أهل سلمه جهلاً ـ أحبَّ أن يعهد إليك في لطائف[(٥)] أمورك، وعوامِّ شؤونك، ودخائل أحوالك، ومُصطرف[(٦)] تنقلك، عهداً يحملك فيه أدبه، ويشرع لك به عظته، وإن كنت ـ والحمد لله ـ من دين الله وخلافته بحيث اصطنعك[(٧)] الله لولاية العهد مختصاً لك بذلك دون لُحمتك[(٨)] وبني أبيك.

ولولا ما أمر الله تعالى به دالاً عليه، وتقدّمت فيه الحكماءُ آمرين به: من تقديم العظة، والتذكير لأهل المعرفة، وإن كانواأُولى سابقةٍ في الفضل، وخصّيصاء

---

(١) جمهرة رسائل العرب، ج٢، ص٤٨٠-٤٧٣.

(٢) خرج الضحاك سنة١٢٧هـ وغلب على الكوفة، ثم استولى على الموصل وكورها سنة ١٢٨هـ، وبلغ مروان خبره وهو محاصر بحمص مشتغل بقتال أهلها، وكتب إلى ابنه عبد الله وهو خليفته بالجزيرة، يأمره أن يسير فيمن معه إلى نصيبين ليشغل الضحاك عن توسط الجزيرة، فشخص عبد الله إلى نصيبين وهو في نحو من سبعة آلاف أو ثمانية، وسار إليه الضحاك من الموصل فقاتله، فلم يكن لعبد الله قوة لكثرة من مع الضحاك، إذ قيل إنه كان في عشرين ومائة ألف، ثم إن مروان سار إليه فالتقيا بأرض كفر توثا من أهمال ماردين فقاتله، وأحدقت بهم خيول مروان فألحوا عليهم حتى قتلوهم، وبعث مروان برأس الضحاك إلى مدائن الجزيرة فطيف به فيها انظر تاريخ الطبري ٩:٧٦.

(٣) تسكع: مشى مشياً متعسفاً، وتمادى في الباطل.

(٤) عاثوا: أفسدوا.

(٥) جمع لطيف وهو الدقيق.

(٦) اصطرف: تصرف في طلب الكسب، وفي المنظوم والنثور «ومضطرب» من اضطرب: أي تحرك وهو افتعل من ضرب في الأرض: إذا خرج تاجراً أو غازياً، أو سار فيها في ابتغاء الرزق.

(٧) أي اختارك.

(٨) اللحمة: القرابة.

في العلم[١]، لاعتمد أمير المؤمنين منك على اصْطناع الله إياك، وتفضيله لك بما رآك أهْله في محَلك من أمير المؤمنين، وسبْقك إلى رغائب أخلاقه، وانتزاعك محمود شيمه، واستيلائك على مشابه تدبيره.

ولو كان المؤدَّبون أخذوا العلم من عند أنفسهم، ولقِّنوه إلهاماً من تلقائهم، ولم يتعلموا شيئاً من عند غيرهم، لنحلناهم[٢] علمَ الغيب، ووضعناهم بمنزلة خالقهم[٣] المسأْثِرِ بعلم الغيب عنهم بوحدانيته وفردانيته في إلهيّته، احتجاجاً منهم لتعقُّبٍ في حكمه، وتثبُّتٍ في سلطانه، وتنفيد إرادته على سابق مشيئته، ولكنّ العالم الموفق للخير، المخصوص بالفضل، المحبُوَّ بمزية العلم وصفوته، أدركه مُعاناً عليه بلطف بحثه، وإذلال كنفه، وصحّة فهمه، وهجر سآمته.

وقد تقدَّم أمير المؤمنين إليك، آخذاً بالحُجّة عليك، موِّدياً حقَّ الله الواجب عليه في إرشارك وقضاء حقك، وما ينظُر به الوالدُ المعنيُّ الشفيقُ لولده. وأمير المؤمنين يرجو أن ينزِّهك عن كل قبيح يهشُّ[٤] له طمعٌ، وأن يعصمك من كل مكروه حاق بأحد، وأن يحصنك من كل آفة استولت على امرىء في دين أو خلُق، وأن يبلِّغه فيك أحسن ما لم يزل يُعوِّدُهُ ويُريه من آثار نعمة الله عليك، ساميةً بك إلى ذُروة الشرف، مُتبحبحةً[٥] بك بسطة الكرم، لائحة بك في أزهر معالي الأدب، مُورثةً لك أنفس ذخائر العزِّ، والله يستخلف عليك أمير المؤمنين، ويسألُ حياطتك، وأن يعصمك من زيغ الهوى، ويحضرك داعي التوفيق، مُعاناً على الإرشاد فيه، فإنه لا يُعين على الخير، ولا يوفِّق له إلا هو.

---

(١) في المنظوم والمنثور (بعد إصلاح ما فيه(: «ولولا ما أمر الله به دالا عليه بتقدمة المعرفة لمن كانوا أول سابقة في الدين وخصيصي في العلم» وخصه بالشيء خصا (بالفتح) وخصوصاً وخصوصية (بالفتح والضم) وخصيصي (بالكسر والقصر ويمد).

(٢) أي لنسبنا إليهم.

(٣) في صبح الأعشى: «ووضعناهم بمنزلة قصر بها عنهم خالقهم المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيته في فردانيته وسابق لاهوتيته».

(٤) هش (من بابي تعب وضرب) هشاشة وهشاشا: إذا خف إليه وارتاح ونشط، وهو به هش بش، والطمع: الطامع.

(٥) تبحبح: تكمن في المقام والحلول، وتبحبح الدار: توسطها، وفي المنظوم والمنثور «ومنجحة لك بسطة الكرم».

اعلم أنَّ للحكمة مسالك تُفضي مضايق أوائلها - بمنْ أمّها سالكاً، وركب أخطارها[(١)] قاصداً - إلى سعة عاقبتها، وأمن سرحها[(٢)]، وشرف عزّها، وأنها لا تُعارُ بسُخف الخفة، ولا تُنشأ بتفريط الغفلة، ولا يُتعدّى فيها بامرىء حدُّه[(٣)]، وربما أظهرت بسطةُ الغي مستور العيب، وقد تلّقتك أخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها، من غير تعب البحث في طلبها، ولا تطاول لمنال ذورتها[(٤)] بل تأثلت[(٥)] منها أكرم نبعاتها، واستخلصت منها أعتق[(٦)] جواهرها، ثم سموت[(٧)] إلى لُباب مُصاصها، وأحرزتَ مُنفس[(٨)] ذخائرها، فاقتعد[(٩)] ما أحرزت، ونافسْ فيما أصبتَ.

واعلم أن احتواءك على ذلك، وسبقك إليه، بإخلاص تقوى الله في جميع أمورك مُؤثراً بها، وإضمار طاعته مُنطوياً عليها[(١٠)]، وإعظام ما أنعم الله به عليك شاكراً له، مرتبطاً فيه للمزيد، بحسن الحياطة له والذَّبَّ عنه من أن تدخلك منه سآمة ملال، أو غفلة ضياع، أو سنةُ تهاونُ، أو جهالةُ معرفة، فإن ذلك أحقُ ما بُدىء به ونُظر فيه، معتمداً عليه بالقوَّة والألة والعُدّة، والانفراد به من الأصحاب والحامّة[(١١)]، فتمسّك به لاجئاً إليه، واعتمدْ عليه مُؤثراً له، والتجىء إلى كنفه

---

(١) في المنظوم والمنثور: «وركب أخبارها».

(٢) السرح: فناء الدار.

(٣) وفي المنظوم والمنثور: «وأنها لا تعاف سخف الخفة، ولا تنسى بتفريط الغفلة، ولا يتعدى فيها بأمن حد؛ وهو تحريف».

(٤) في المنظوم والمنثور «لا متطاول المنال لذروتها» وفي صبح الأعشى «ولا متطاول لمناولة ذروتها» وقد ضبط «متطاول» بكسر الواو بصيغة اسم الفاعل، والأنسب أن يكون بفتح الواو على أنه مصدر ميمي، لعطفه على مصدر وهو «تعب» وربما كان الأصل «ولا تطاول» بصيغة المصدر.

(٥) تأثل المال: اكتسبه، والنبع: شجر تتخذ منه القسي، وتتخذ من أغصانه السهام، الواحدة نبعة، وفي المنظوم والمنثور «أكرم معانيها».

(٦) من العتق بالكسر، وهو الكرم والجمال.

(٧) في المنظوم والمنثور «ثم شمرت»، ولباب كل شيء وليه بالضم: خالصه، والمصاص: خالص كل شيء أيضاً.

(٨) نفس الشيء بالضم فهو نفيس ونافس: رفع وصار مرغوباً فيه، وأنفس فهو منفس: صار نفيساً، وأمر منفوس فيه: أي مرغوب فيه.

(٩) اقتعد الدابة: ركبها، والمعنى تمسك به واحرص عليه.

(١٠) وفي المنظوم والمنثور «واصطبار طاعته».

(١١) الحامة: خاصة الرجل من أهله وولده.

متحيزاً إليه[١]، فإنه أبلغ ما طُلبَ به رضا الله، وأنجحه مسألةً، وأجزله ثواباً، وأعوْدُه نفعاً[٢]، وأعّمه صلاحاً، أرشدك الله لحظّك، وفهّمك سداده، وأخذ بقلبك إلى محموده.

ثم اجعل لله في كل صباحٍ يُنعم عليك ببلوغه، ويظهر منك السلامةُ في إشراقه، من نفسك نصيباً تجعلهُ لله، شكراً على إبلاغه إياك يومك ذلك بصحة جوارح وعافية بدن، وسبوغ[٣] نعم، وظهور كرامة، وأن تقرأ فيه من كتاب الله عزّ وجل جزءاً تُردِّد رأيك في آيه[٤]، وتُزيِّن[٥] لفظك بقراءته، وتحضره عقلك ناظراً في محكمه، وتتفهمه متفكراً في متشابهه، فإن في القرآن شفاء القلوب من أمراضها، وجلاء وساوس الشيطان وسفاسفه[٦]، وضياء معالم النور، تبيناً لكلِّ شيءٍ وهُدًى ورحمةً لقومٍ يؤمنون. ثم تعهّد نفسك بمجاهدة هواك، فإنه مغلاق الحسنات، ومفتاح السيئات، وخصم العقل.

واعلم أن كلَّ أهوائك[٧] لك عدوٌ يحاولُ هلكتك، ويعترض غفلتك، لأنها خدُع إبليس، وحبائل[٨] مكره، ومصايد مكيدته، فاحذرها مجانباً لها، وتوقها محترساً منها، واستعذ بالله عزّ وجل من شرّها، وجاهدها إذا تناصرتْ عليك، بعزمٍ صادق لا ونية[٩] فيه، وحزم نافذ لا مثنويّة[١٠] لرأيك بعد إصداره عليك، وصدقٍ غالب لا مطمع في تكذيبه، ومضاءة صارمة لا أناة[١١] معها، ونيّةٍ صحيحة لا خلجة

---

(١) وفي المنظوم والمنثور «والتجئ إلى كنهه متحرزاً به».
(٢) وفيه «وأعوده سعياً» ويقال هذا أعود: أي أنفع، والعائدة: المنفعة.
(٣) أي اتساعها.
(٤) آي جمع آيى، وفي المنظوم والمنثور «في أدبه».
(٥) وفي صبح الأعشى «وترتل» والأولى أنسب.
(٦) السفساف بالفتح: الردئ من كل شيء، وفي صبح الأعشى «وصعاصعه»، وفي هامشه: «جمع صعصع» بالفتح، وهو طائر يصيد الجنادب، شبه وسوسة الشيطان به، والرواية الأولى أظهر.
(٧) في المنظوم والمنثور «كل أعدائك» وهو تحريف.
(٨) في صبح الأعشى «وخواتل مكره» أي وخوادع، من الختل وهو الخداع.
(٩) يقال: افعل ذلك بلا ونية: أي بلا توان.
(١٠) يقال: حلف فلان يميناً ليس فيها مثنوية ولا ثنياً «بالضم» ولا ثنوى «بالفتح» ولا ثنية «كبقية» أي استثناء.
(١١) أي لا تؤدة فيها، تأنى في الأمر: تمكث ولم يعجل، والاسم منه أناة، وخلجة: اسم من تخالج في صدري منه شيء أي شككت فيه، وأصل الاختلاج الحركة والاضطراب.

شكٍّ فيها، فإن ذلك ظهري[١] صدقٍ لك على ردعها عنك، وقمعها دون ما تتطلّع إليه منك، وهي واقية لك سخطة ربك، داعية إليك رضا العامة عنك، ساترة عليك عيب من دونك.

فازدن بها متحلياً[٢]، وأصبْ بأخلاقك مواضعها الحميدة منها، وتوقَّ عليها الآفة التي تقتطعك عن بلوغها، وتقصِّرُ بك دون شأوها[٣]، فإن المئونة[٤] إنما اشتدَّت مستصعبةً[٥] وفدحت باهظةً أهل الطّلب لأخلاق أهل الكرم، المنتحلين سُمُوَّ القدر، بجهالة مواضيع ذميم الأخلاق ومحمودها، حتى فرَّط أهلُ التقصير في بعض أمورهم، فدخلت عليهم آفاتُ من جهات أمنوها، فنسبوا إلى التفريط، ورصوا بذُلِّ المنزل، فأقاموا به جاهلين بموضع الفضل، عمهين[٦] عن درج الشرف، ساقطين دون منزلة أهل الحجا.

فحاولْ بلوغ غاياتها محرزاً لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع، محصناً أعمالك من العجب، فإنه رأس الهوى، وأوّل الغواية، ومقاد الهلكة. حارساً أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوىء العادات وذميم إيثارها[٧]، من حيث أتت الغفلة، وانتشر الضيّاعُ، ودخل الوهن. فتوقَّ غُلُوبَ[٨] الآفات على عقلك، فإنَّ شواهد الحقِّ ستُظهر بأماراتها تصديق رأيك عند ذوي النُّهى، وحال الرأي وفحص النظر، فاجتلب لنفسك محمود الذكر، وباقي لسان الصدق، بالحذر لما تقدَّم إليك فيه أمير المؤمنين، متحرِّزاً من دخول الآفات عليك، من حيثُ أمنك وقلةُ ثقتك بمحكمها.

من ذلك أن تملك أمورك القصد، وتُداري جندك بالإحسان، وتصون سرّك

---

(١) أصل ذلك البعير الظهري: وهو العدة للحاجة إن احتيج إليه، نسب إلى الظهر على غير قياس.
(٢) وفي المنظوم والمنثور «ملتحفاً».
(٣) الشأو: الغاية، وفي المنظوم والمنثور «عن ساميها».
(٤) من قوله «فإن المثونة...» إلى قوله «أهل الحجا» ساقط من المنظوم والمنثور.
(٥) استصعب الأمر: صار صعباً، وفدحه الأمر: أثقله، وكذا بهظه.
(٦) من العمه بالتحريك، وهو التحير والتردد.
(٧) وفي صبح الأعشى: «المتصلة بمساوئ الألقاب وذميم تنابزها» والتنابز: التعاير والتداعي بالأنباز، وهي الألقاب جمع نبز بالتحريك وهو اللقب.
(٨) لم يرد هذا المصدر في كتب اللغة.

بالكتمان، وتداوي حقدك بالإنصاف، وتذلل نفسك بالعدل، وتحصّن عيوبك بتقويم أودك[١]، وتمنع عقلك من دخول الآفات عليه بالعُجب المُردي، وأناتك فوقِّها الملال وفوت العمل، ومضاءتك[٢] فدرَّعها روية النظر وأكنفها بأناة الحلم، وخلواتك فاحرسها من الغفلة واعتماد الراحة، وصمتك فانف عنه عيَّ اللفظ، وخفْ فيه سُوء القالة[٣]، واستماعك فأرعه حُسن التفهُّم، وقوِّه بإشهاد الفكر، وعطاءك فامْهَدْ له [٤] بيوتات الشرف وذوي الحسب، وتحرز فيه من السّرف واستطالة البذخ[٥] وامتنان الصنيعة، وحياءك فامنعه من الخجل وبلادة الحصر[٦]، وحلمك فزعه[٧] عن التهاون، وأحضره قوة الشّكيمة، وعقُوبتك فقصّر بها عن الإفراط، وتعمّدْ بها أهل الاستحقاق، وعفوك فلا تُدخله تعطيل الحقُوق، وخذ به واجب المفترض، وأقمْ به أود الدين، واستئناسك فامنع منه البذاء وسوء المُثافنة[٨]، وتعهدَّك أمورك فحدَّه أوقاتاً، وقدِّره ساعات لا تستفرغ قوّتك، ولا تستدعي سآمتك، وعزماتك فانف عنها عجلة الرأي ولجاجة الإقدام، وفرحاتك فاشكُمها[٩] عن البطر، وقيّدها عن الزَّهوْ، وروعاتك فحطها من دهش الرأي، واستسلام الخضُوع، وحذراتك فاصرفها عن الجُبن، واعمد بها للحزم، ورجاءك فقيِّده بخوف الفائت: وامنعه من أمن الطّلب. . . . الخ.

رسالة عبد الحميد إلى الكتاب

وكتب عبد الحيمد رسالة إلى الكتَّاب يوصيهم فيها، قال:

---

(١) الأود: الاعوجاج.
(٢) في المنثور والمنظوم «ومصابك» وهو تحريف.
(٣) القول في الخير، والقال والقيل والقالة في الشر.
(٤) من مهد المهد للصبي إذا هيأه وبسطه، والمعنى: فضعه في بيوتات الشرف.
(٥) البذخ: الكبر.
(٦) الحصر: العي.
(٧) وزعه: كوضعه: كفه. والشكيمة: الأنفة.
(٨) بذؤ الرجل ويثلث بذاء وبذاءة: سفه وأفحش في منطقه، وثافنه: جالسه، وفي صبح الأعشى «وسوء المنافثة» نفث فلاناً بالكلام: آذاه.
(٩) شكم الفرس كنصر: وضع الشكيمة في فيه، والشكيمة من اللجام: الحديدة المعترضة في فم الفرس، والمعنى فامنعها.

«أما بعدُ، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفّقكم وأرشدكم، فإن الله عزّ وجل جعل النّاس بعد الأنبياء والمراسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجميعن، ومن بعد الملوك المكرَّمين، أنصافاً، وإن كانوا في الحقيقة سواءً، وصرَّفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات، إلى أسباب معايشهم(١)، وأبواب أرزاقهم، فجعلكم معشر الكُتّاب في أشرف الجهات، أهل الأدب والمُروءة(٢) والعلم والرواية(٣)، بكم تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمرُ بلادهم(٤)، لا يتسغنى الملك عنكم، ولا يوجد كافٍ إلا منكم، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون، فأمتعكم الله بما خصَّكم من فضل صناعتكم، ولا نزع عنكم ما أضفاه(٥) من النعمة عليكم.

وليس أحدٌ من أهل الصناعات كلِّها، أحوجّ إلى اجتماع خلال الخير المحمودة، وخصال الفضل المذكورة المعدودة، منكم أيها الكتّاب إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم. فإن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره، أن يكون حليماً في موضع الحلم، فهيماً في موضع الحكم، مقداماً في موضع الإقدام، محجاماً في موضع الإحجام، مؤثراً للعفاف، والعدل والإنصاف، كتوماً للأسرار، وفياً عند الشدائد، عالماً بما يأتي من النوازل، يضع الأمور مواضعها، والطوارق أماكنها. قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه، فإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به، يعرف بغريزة عقله، وحسن أدبه، وفضل تجربته، ما يرد عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره، فيعدُّ لكل أمر عدَّته وعتاده(٦)، ويهيىء لكل وجهٍ هيئته وعادته.

---

(١) في مقدمة ابن خلدون «معاشهم».
(٢) فيها «والمروءات».
(٣) فيها «والرزانة»
(٤) فيها «بلذاتهم».
(٥) ضفاه: أسبغه.
(٦) العتاد: العدة.

فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب، وتفقّهوا في الدين: وابدءوا بعلم كتاب الله عزّ وجل والفرائض، ثم العربية، فإنها ثقاف[١] ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط، فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معينٌ لكم على ما تسمو إليه هممكم، ولا تضيِّعوا النظر في الحساب، فإنه قوامُ كُتّاب الخراج. وارغبوا بأنفسكم عن المطامع: سنيّها[٢] ودنيّها، وسفساف[٣] الأمور ومحاقرها، فإنها مذلة للرّقاب، مفسدة للكُتّاب. ونزِّهوا صناعتكم عن الدنّاءات[٤]، واربئوا[٥] بأنفسكم عن السِّعاية والنميمة، وما فيه أهل الجهلات، وإياكم والكبر والصَّلف[٦] والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة. وتحابُّوا في الله عزّ وجل في صناعتكم، وتواصوا عليها بالذي هو أليقُ بأهل الفضل والعدل والنُّبل من سلفكم.

وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه، حتى يرجع إليه حالُه، ويثُوب[٧] إليه أمره، وأن أقعد أحدكم الكبرُ عن مكسبه ولقاء إخوانه، فزوروه وعظِّموه، وشاوروه، واستظهروا[٨] بفضل تجربته، وقدم[٩] معرفته، وليكن الرجل منكم على ما اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه، أحفظ[١٠] منه على ولده وأخيه، فإن عرضت في الشغل محمدة، فلا يضيفها[١١] إلا إلى صاحبه، وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه، وليحذر السّقطة والزَّلة، والملل عند تغير الحال، فإن العيب إليكم معشر الكتاب، أسرعُ منه إلى الفراء، وهو لكم أفسدُ منه لها.

---

(١) الثقاف في الأصل: ما تسوى به الرماح.
(٢) سنيها: أي رفيعها.
(٣) الردئ من كل شيء.
(٤) في المقدمة «الدناءة».
(٥) ربأ: علا وارتفع.
(٦) فيها «والسخف».
(٧) يرجع.
(٨) تقووا.
(٩) فيها «وقديم».
(١٠) فيها «أحوط».
(١١) فيها «فلا يصرفها».

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه الرجل(١) يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقِّه، فواجبٌ عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره، واحتماله وصبره(٢)، ونصيحته، وكتمان سره، وتدبير أمره، ما هو جزاء لحقه، ويصدِّق ذلك بفعاله(٣) عند الحاجة إليه، والإضطرار إلى ما لديه.

فاستشعروا ذلكم ـ وفقكم الله ـ من أنفسكم في حالة الرَّخاء والشدة، والحرمان والمُواساة والإحسان، والسّرَّاء والضَّرَّاء، فنعمت الشِّيمة هذه لمن وسم بها، من أهل هذه الصناعة الشريفة، فإذا وُلّيَ الرجل منكم، أو صُيِّر إليه من أمر خلق الله عياله أمرٌ، فليراقب الله عزّ وجل، وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقاً، وللمظلوم منصفاً، فإن الخلق عيال الله، وأحبُّهم إليه أرفقهم بعياله.

ثم ليكن بالعدل حاكماً، وللأشراف مكرماً، وللفيء موفراً، وللبلاد عامراً، وللرَّعية متألفاً، وعن إيذائهم متخلفاً، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً، وفي سجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقاً، وإذ صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلائقه، فإذا عرف حسنها وقبيحها، أعانه على ما يوافقه من الحسن، واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح، بألطف حيلة وأجمل وسيلة، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها، التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رموحاً(٤) لم يَهِجْهَا إذا ركبها، وإن كانت شبوباً(٥) اتّقاها من قبل يديها، وإن خاف منها شُروداً توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حروناً قمع برفقٍ هواها في طريقها، فإن استمرت عطفها يسيراً، فيسلس له قيادها، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم، وجرّبهم(٦) وداخلهم.

والكاتب بفضل أدبه، وشريف صنعته، ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره، ويفهم عنه أو يخاف سطوته، أولى بالرِّفق بصاحبه، ومداراته وتقويم

(١) فيها «إذا صحبه من يبذل له».
(٢) فيها «وخير».
(٣) فيها «تبعاً له» وهو تحريف.
(٤) رمحه الفرس كمنع: رفسه.
(٥) شب الفرس كضرب ونصر: رفع يديه، وفي المقدمة «من بين يديها».
(٦) وفي صبح الأعشى «وخدمهم».

أوده، من سائس البهيمة التي لا تحير[١] جواباً، ولا تعرف صواباً، ولا تفهم خطاباً، إلا بقدر ما يُصيِّرها إليه صاحبُها الراكب عليها، ألا فأمعنوا[٢] - رحمكم الله - في النظر، واعملوا فيه ما أمكنكم من الرويّة والفكر، تأمنوا[٣] بإذن الله ممن صحبتموه النّبوةَ، والاستثقال والجفوة، ويصير منكم إلى الموافقة، وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة، إن شاء الله تعالى.

ولا يجاوزن الرجل منكم - في هيئة مجلسه، وملبسه، ومركبه، ومطعمه ومشربه، وبنائه[٤]، وخدمه ويغر ذلك من فنون أمره - قدر حقه، فإنكم - مع ما فضّلكم الله به من شرف صنعتكم - خدمةٌ لا تُحملون في خدمتكم على التقصير، وحفظةٌ لا تحتمل منكم أفعالُ التضييع والتبذير، واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم، وقصصته عليكم، واحذروا متالف السّرف، وسوء عاقبة الترف، فإنهما يُعقبان الفقر، ويُذلاَّن الرقاب، ويفضحان أهلهما، ولا سيما الكتّاب وأرباب الآداب. وللأمور أشباه، وبعضها دليل على بعض، فاستدلُّوا على مؤتنف[٥] أعمالكم، بما سبقت إليه تجربتكم، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة، وأصدقها حُجّة، وأحمدها عاقبة.

واعلموا أن للتدبير آفةً مُتلفة، وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورؤيته[٦]، فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقه، وليوجز في ابتدائه وجوابه، وليأخذ بمجامع حججه، فإن ذلك مصلحة لفعله، مدفعة للتشغل عن إكثاره، وليضرع إلى الله في صلة توفيقه، وإمداده بتسديده، مخافة وقوعه في الغلط المضرّ ببدنه وعقله وأدبه، فإنه إن ظن منكم ظانٌ، أو قال قائل: إن الذي برز من

---

(١) أي لا ترد.

(٢) فيها «فارفقوا».

(٣) تأمنوا: مجزوم في جواب الأمر: أو بعبارة أخرى جواب لشرط محذوف مع فعل الشرط أي «إن تعملوا... تأمنوا» ومن ثم يجوز في «ويصير» ثلاثة أوجه: الجزم والنصب والرفع كما هو مشهور، فقول بعضهم: «ولعل ثبوت الياء قبل الراء من زيادة الناسخ» مردود.

(٤) قد يكون المراد به مسكنه الذي يبنيه، وقد يكون المراد زفافه، من بنى على أهله وبها بناء. وابتنى بها: أعرس بها.

(٥) متبدأ.

(٦) فيها «علمه ورويته».

جميل صنعته، وقوة حركته، إنما هو بفضل حيلته، وحُسن تدبيره، فقد ترعض بظنه[١] أو مقالته إلى أن يكله الله عزّ وجل إلى نفسه، فيصير منها إلى غير كاف، وذلك على من تأمله غيرُ خاف.

ولا يقلْ أحد منكم إنه أبصر بالأمور، وأحمل لعبء التدبير، من مُرافقه في صناعته، ومصاحبه في خدمته، فإن أعقل الرجلين عند ذوي الألباب، من رمى بالعجب وراء ظهره، ورأى أن صاحبه أعقلُ منه، وأحمدُ[٢] في طريقته، وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه، من غير اغترار برأيه، ولا تزكية لنفسه، ولا تكاثر على أخيه أو نظيره، وصاحبه وعشيره، وحمد الله واجب على الجميع، وذلك بالتواضع لعظمته، والتذلّل لعزّته، والتحدّث بنعمته.

وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل: «من يلزم النصيحة[٣] يلزمه العمل» وهو جوهر هذا الكتاب، وغُرّة كلامه، بعد الذي فيه من ذكر الله عزّ وجل، فلذلك جعلته آخره، وتمّمته به، تولاّنا الله وإياكم يا معشر الطّلبة والكتبة، بما يتوّلى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

(١) فيها «بحسن ظنه».

(٢) فيها «وأجمل».

(٣) في نسخة من صبح الأعشى «الصحة» وذكر الجاحظ في البيان والتبيين (٢: ٤٦) قال: ومن كلام الأحنف السائر في أيدي الناس «الزم الصحة يلزمك العمل».

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ المصادر والمراجع العربية

ـ أ ـ

ـ الآبي: نثر الدر، الهيئة المصرية، تحقيق: محمد علي قرنة مركز التراث ١٩٨١.

ـ الآمدي: المؤتلف والمختلف تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م.

ـ الأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، دار الفكر بيروت، لا طبعة لا تاريخ.

ـ الإبياري: معاوية، سلسلة أعلام العرب، المؤسسة المصرية العامة.

ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، دار بيروت ١٩٦٥.

ـ ابن حجة الحموي: ثمرات الأوراق فيما طاب من نوادر الأدب وراق. المطبعة الخيرية.

ـ ابن تيمية: سؤال في معاوية بن أبي سفيان، دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى ١٩٧٩، بيروت.

ـ سؤال في يزيد بن معاوية بن أبي سفيان: دار الكتاب الجديد، بيروت الطبعة الثالثة ١٩٧٦.

ـ ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب: تحقيق عبد السلام محمد هارون دار المعارف ١٩٧٧.

ـ ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون دار القلم بيروت، لبنان الطبعة الرابعة ١٩٨١.

ـ ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر، دار بيروت، ١٩٥٧ ـ ١٩٩٦.

ـ ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار الثقافة بيروت الطبعة الرابعة ١٩٨٠.

- كتاب عيون الأخبار دار الكتاب العربي، دار الكتب المصرية ١٩٢٥.
- الإمامة والسياسة تحقيق طه محمد الزيني، دار المعرفة بيروت ١٩٦٧.
- ابن قيم الجوزية: أخبار النساء، مصر الطبعة الأولى ١٣١٩هـ.
- ابن منقذ: لباب الألباب، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٠ لا طبعة.
- اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار الفكر، بيروت ١٩٥٦.
- أبو تمام: نقائض جرير والأخطل تعليق الأب صالحاني، بيروت ١٩٢٢.
- ديوان الحماسة شرح التبريزي بالخطيب. عالم الكتب بيروت.
- أبو حاقة: الالتزام في الشعر العربي دار العلم للملايين الطبعة الأولى ١٩٧٩.
- أبو حيان التوحيدي: كتاب الامتناع والمؤانسة وشرح غريبة أحمد أمين وأحمد الزين. دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٨٠.
- البصائر والذخائر (١، ٢، ٣). تحقيق إبراهيم الكيلاني مطبعة الإنشاء دمشق ١٩٦٤.
- أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد. دار الفكر ١٩٧٥.
- أبو صالح: الدكتور عبد القدوس. يزيد بن مفرغ الحميري، حياته وشعره. مؤسسة الرسالة ١٩٧٥ الطبعة الأولى.
- أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر. دار المعرفة للطباعة والنشر: بيروت ١٩٧٥.
- الأخطل: شعر الأخطل جمعة السكري تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة. منشورات دار الآفاق الجديدة. بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٩.
- الأخيلية، ليلى: الديوان تحقيق خليل وجليل إبراهيم العطية، دار الجمهورية بغداد ١٩٦٧.
- الأسدي: الكميت بن زيد. الروضة المختارة. شرح القصائد الهاشميات القصائد العلويات السبع لابن أبي المعتزل. مؤسسة النعمان بيروت، لبنان الطبعة الأولى ١٩٧٩.
- الأصفهاني: الأغاني، طبعة بولاق الأصلية ١٩٢٥.
- الأفغاني: سعيد. عائشة والسياسة. دار الفكر بيروت الطبعة الثانية ١٩٧١.
- أمين: أحمد. فجر الإسلام. دار الكتاب العربي الطبعة العاشرة، بيروت ١٩٦٩.

- ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي الطبعة العاشرة، بيروت لا تاريخ.
- ابن عبد ربه: العقد الفريد شرحه وضبطه. أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٨٥هـ.
- الأنصاري: حسان بن ثابت: الديوان ضبط الديوان وصححه عبد الرحمن البرقوقي. دار الأندلس ١٩٧٨.
- الأنصاري كعب بن مالك: الديوان: تحقيق سامي مكي الطائي منشورات مكتبة النهضة بغداد ١٩٦٦.
- الأنصاري النعمان بن بشير: شعر الأنصاري: تحقيق يحي الجبوري. مطبعة المعارف بغداد ١٩٦٨.

- ب -

- البستاني: بطرس. أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام. دار الجيل ١٩٧٨.
- بكار الدكتور: يوسف حسين. بناء القصيدة العربية. دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧٩م ١٣٧٩هـ.
- البلاذري: أنساب الأشراف، فرانش شتايز، بيروت ١٤٠٠هـ ١٩٧٩م.
- بنت الشاطىء: السيدة سكينة بنت الحسين: دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٩.
- بيضون إبراهيم: الحجاز في القرن الأول الهجري. المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٨١.

- ج -

- الجاحظ: البيان والتبيين: تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٧٥.

رسائل الجاحظ، نشرها حسن السندوبي. المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٥٢هـ ١٩٣٣م.

- جبري: شفيق. دراسة الأغاني، مطبعة الجامعة السورية، دمشق ١٩٥١.
- جبور: الدكتور جبرائيل.

الملوك الشعراء - منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨١ الطبعة الأولى.

عمر بن أبي ربيعة - المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٣٥.

- جرير: ديوان جرير. دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٧٨.

- ح -

- حاوي، إيليا: الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره. دار الثقافة بيروت ١٩٨١.
  فن الخطابة وتطوره عند العرب. دار الثقافة ١٩٨٠.
- حجاب: دكتور محمد نبيه. مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري مكتبة نهضة مصر بالفجالة ١٩٦١م ١٣٨٠هـ.
- حسن: الدكتور إبراهيم حسن. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي. مكتبة النهضة المصرية الطبعة السابعة ١٩٦٤.
- حسين، طه. علي وبنوه، الفتنة الكبرى. القاهرة ١٩٥٣. من تاريخ الأدب العربي - دار العلم للملايين، بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٥.
- حسين: الدكتور محمد محمد. الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام. دار النهضة العربية، الطبعة الثانية ١٩٧١.
- حلمي: الدكتور مصطفى. نظام الخلافة في الفكر الإسلامي. دار الأنصار ١٤٧٣هـ ١٩٧٧م.
- حمادة: محمد ماهر. الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي ٦٦١ - ٧٥٠م، دار النفائس ١٩٨١.
- حميدة: عبد الحسيب طه حميدة. أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري. مطبعة السعادة بمصر الطبعة الثانية ١٩٦٨.
- الحميري: يزيد بن مفرغ. ديوان، جمع وتحقيق الدكتور عبد القدوس أبو صالح. مؤسسة الرسالة ١٩٧٥.
- الحوفي: الدكتور أحمد محمد. أدب السياسة في العصر الأموي. مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٩٦٠.

- خ -

- الخزاعي: دعبل بن علي. الديوان، دار الكتاب اللبناني الطبعة الثانية ١٩٨١.
- الخضري: الشيخ محمد الخضري بك. محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية. الجزء الثاني، المكتبة التجارية بمصر لا طبعة ١٩٦٩.
- الخطيب: الدكتور محمد عجاج. السنة قبل التدوين، دار الفكر بيروت الطبعة الثانية ١٩٧١.

- خفاجي: محمد عبد المنعم. أعلام الأدب في عصر بني أمية الجزء الأولى، القاهرة ١٩٥٤. الحياة الأدبية في عصر بني أمية. دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٣.
- خلق: الدكتور يوسف. تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي. دار الثقافة، مصر ١٩٨٠.

- د -

- الدؤلي: أبو الأسود. الديوان صنعة أبي سعيد الحسن السكري. تحقيق محمد حسن آل ياسين، دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى ١٩٧٤ بيروت.
- درويش: دكتور محمد طاهر. فن النقد الأدبي عند العرب دار المعارف ١٩٧٩.
- دكن: الدكتور عبد الأمير عبد حسين. الخلافة الأموية. دار النهضة العربية، بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٣.
- الديار بكري: الإمام الشيخ حسين بن محمد بن الحسن. تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس. مؤسسة شعبان، بيروت ١٩٧٥.

- ذ -

- الذهبي: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، دار الكتب المصرية مكتبة القدس القاهرة ١٣٦٨هـ.

- ر -

- الراغب: الأصبهاني، دار الكتب، بيروت ١٩٨٠.
- الربيعي: أحمد. كثير عزة حياته وشعره دار المعارف بمصر ١٩٧٩.
- رومية: الدكتور وهب. قصيدة المديح وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق ١٩٨١.
- الرقيات: عبد الله بن قيس. الديوان تحقيق محمد يوسف نجم: دار صادر. دار بيروت، ١٩٥٨.

- ز -

- الزبيري: كتاب نسب قريش، تحقيق١. ليفي بروفنسال، دار المعارف بمصر ١٩٧٦.
- زكي: الدكتور أحمد كمال. الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، الدراسات الأدبية، دار المعارف بمصر ١٩٨١.

- الزيات: أحمد حسن. تاريخ الأدب العربي. دار نهضة مصر ١٩٧٥.
- زيدان: جرجي. تاريخ آداب اللغة العربية، مكتبة الحياة، بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٨.

- س -

- سركيس: إحسان. الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية. دار الطليعة للطباعة والنشر.
- أدونيس: مقدمة للشعر العربي. دار العودة بيروت الطبعة الثالثة ١٩٧٩.
  الثابت والمتحول: دار العودة ١٩٧٩.
- سليمان: كامل. الحسن بن علي دراسة وتحليل. دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري الطبعة الثالثة ١٩٧٩.
- السيوطي: تاريخ الخلفاء، مطبعة السعادة مصر الطبعة الأولى ١٩٥٢.

- ش -

- الشايب أحمد: تاريخ النقائض في الشعر العربي ١٩٦٦، مكتبة النهضة المصرية.
  تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦.
  أصول النقد الأدبي، دار الاتحاد العربي للطباعة، ١٩٧٣.
- الشرقاوي: عفت محمد. أدب التاريخ عند العرب، فكرة التاريخ نشأتها وتطورها، دار العودة، بيروت ١٩٨٠.
- الشريف: أحمد إبراهيم. دراسات في الحضارة الإسلامية، دار الفكرة العربي ١٩٧٦، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، دار الفكر العربي ١٩٧٧.
- شلبي: محمود. حياة عثمان، دار الجبل بيروت ١٩٨١.
- الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد. الملل والنحل تحقيق سيد كيلاني. دار المعرفة للطباعة، بيروت ١٩٨١.

- ض -

- ضرار: ضرار صالح. العرب من معين إلى الأمويين. الدار السودانية للكتب الطبعة الخامسة ١٩٨١.

ـ ضيف: الدكتور شوقي.

تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي دار المعارف لا تاريخ.

الفن ومذهبه في الشعر العربي دار المعارف بمصر، لا تاريخ.

التطور والتجديد في الشعر العربي مكتبة الأندلس، بيروت ١٩٥٦ لا تاريخ.

الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية دار المعارف بمصر ١٩٧٦.

في النقد الأدبي دار المعارف بمصر ١٩٦٦.

ـ ط ـ

ـ الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك المطبعة الحسينية بمصر ١٩٧٥.

ـ الطوماح: الحكم بن حكيم. الديوان، تحقيق الدكتور عزة حسن وزارة الثقافة والسياسة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٦٨.

ـ الطقطقي: بن طباطبا. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، المطبعة الرحبانية بمصر ١٩٧٥.

ـ طلس: محمد أسعد. عصر الاتساق، تاريخ بني أمية. دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٨.

ـ ع ـ

ـ عاصي: ميشال. الفن والأدب مؤسسة نوفل بيروت ١٩٨٠.

ـ عاقل: الدكتور نبيه. تاريخ خلافة بني أمية. دار الفكر ١٩٧٥.

ـ العامري: أبو الحسن محمد بن يوسف. كتاب الأعلام بمناقب الإسلام. تحقيق الدكتور أحمد عبد الحميد عراب، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧.

ـ عتيق: الدكتور عبد العزيز. ابن أبي عتيق ناقد الحجاز. جامعة بيروت العربية، بيروت ١٩٧٢.

ـ العجاج: الديوان رواية عبد الملك بن قريب الأحمصي شرح وتحقيق د. عبد الحفيظ الطلي. المطبعة التعاونية بدمشق ١٩٧١.

ـ عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب تحقيق علي محمد الهجاوي، مطبعة نهضة مصر ١٩٧٥.

- عباس: الدكتور إحسان. شعر الخوارج جمع وتقديم. دار الثقافة بيروت، ١٩٧٤.
- عزة: كثير. الديوان شرح وجمع الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة بيروت ١٩١٧.
- العقاد: عباس محمود.

معاوية بن أبي سفيان في الميزان، دار الهلال ١٩٨٠.

ذو النورين عثمان بن عفان، دار الهلال ١٩٨١.

- عطوان: الدكتور حسين.

الشعراء الصعاليك في العصر الأموي دار المعارف بمصر ١٩٧٠.

شعراء الدولتين الأموية والعباسية. دار الجيل بيروت ١٩٨١.

- عواد: محمد حسن. محرر الرقيق سليمان بن عبد الملك الأموي، نادي جدة الأدبي، السعودية ١٩٨٥.

- ف -

- الفاخوري: حنا تاريخ الأدبي العربي، المطبعة البوليسية بيروت ١٩٩١.
- الفرزدق: الديوان، دار صادر، دار بيروت ١٩٦٦م ١٣٨٥هـ.
- فروخ: عمر تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين بيروت ١٩٨١.
- فيصل: شكري. حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول للهجرة، دار العلم للملايين ١٩٨٥.

- ق -

- القاضي: الدكتور نعمان. الفرق الإسلامية في الشعر الأموي، دار المعارف بمصر ١٩٧٠.
- القالي: كتاب الأمالي وكتاب ذيل الأمالي والنوادر، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٨.
- قباوة: الدكتور فخر الدين. الأخطل الكبير حياته وشخصيته وقيمته الفنية، دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٧٩.
- القيرواني: بن رشيق. العمدة في محاسن الشعر، وآدابه ونقده تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر ١٩٦٣.

- ك -

- كحالة: عمر رضا. الأدب العربي في الجاهلية والإسلام، المطبعة التعاونية بدمشق ١٩٧٢.
- الكفراوي: محمد عبد العزيز. تاريخ الشعر العربي، دار نهضة مصر ١٩٨٥.
- كيلاني: محمد سيد. أثر التشيّع في الأدب العربي، دار الكتاب العربي بمصر ١٩٤٧.

- ل -

- الليثي: المتوكل بن عبد الله. شعر المتوكل الليثي. جمع وتحقيق الدكتور يحيى الجبوري مكتبة الأندلس، بغداد ١٩٧١.

- م -

- الماوردي: الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨.
- المبرد: الكامل في الأدب تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر ١٩٨٥.
- المحاسني: الدكتور زكي. شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة دار المعارف بمصر ١٩٦١.
- المرزباني: معجم الشعراء. تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مصر ١٩٨٥.
- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، السعادة بمصر ١٩٨٠.
- التنبيه والإشراف، دار التراث بيروت ١٩٦٨.
- المعتز عبد الله بن: كتاب البديع. اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس أغناطيوس كراتشقوفسكي، دار المسيرة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.
- معروف: الدكتور نايف. الخوارج في العصر الأموي، نشأتهم، تاريخهم وعقائدهم أدبهم، دار الطليعة بيروت ١٩٨١.
- مغنية: محمد جواد. الشيعة والحاكمون، دار مكتبة الهلال ودار العواد، بيروت ١٩٨١.
- المقدسي: أنيس. تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين ١٩٧٩.

- مندور: الدكتور محمد. النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة. مترجم عن الأستاذين لانسون ومابيه، دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧١.

- الموسوي: الإمام عبد الحسين شرف الدين. النص والاجتهاد، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٩٦٦م ١٣٨٦هـ.

- ن -

- النجار: محمد الطيب. الدولة الأموية في الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء، دار العلوم للطباعة.

- النص: إحسان.

العصيبة القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار الفكر ١٩٧٣.

نصوص من الشعر الإسلامي والأموي، دار الفكر ١٩٧٥.

- النصولي: أنيس زكريا. الدولة الأموية في الشام، مطبعة دار السلام بغداد ١٩٢٧.

- نوفل: الدكتور سيد. شعر الطبيعة في الأدب العربي، مطبعة مصر القاهرة ١٩٤٥.

- النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٥.

- هـ -

- الهاشمي: السيد أحمد. جواهر الأدب. مطبعة السعادة بمصر الطبعة السادسة والعشرون ١٩٦٥.

- هدارة: الدكتور محمد مصطفى. اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف مصر الطبعة الثانية ١٩٧٠.

- الهلالي: حميد بن ثور. الديوان، صنفه الأستاذ عبد العزيز، الدار القومية للطباعة والنشر للقاهرة، الجمهورية العربية السورية وزارة الثقافة والإرشاد القومي طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية ١٩٥١.

- هيكل: الدكتور محمد حسين. بين الخلافة والملك. عثمان بن عفان الطبعة الثالثة مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨.

- الهمذاني: أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب. كتاب الإكليل. الجزء الثاني حققه وعلق حواشيه محمد بن علي الأكوع الخوالي دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٨٠.

٢ ـ المراجع الأجنبية المترجمة

ـ بروكلمان: كارل. تاريخ الأدب العربي. دار المعارف مصر الطبعة الثالثة ١٩٧٤.

ـ بلاشير: راجيس. تاريخ الأدب العربي، المجلد الثالث. ترجمة إبراهيم الكيلاني منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق ١٩٧٤.

ـ حتي: الدكتور فليب. تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، دار الثقافة بيروت الطبعة الثانية ١٩٢٧.

ـ ستودارد: لو ثروب الأمريكي (ستودارد)، حاضر العالم الإسلامي ترجمة الأستاذ عجاج نويهض، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة ١٩٧٣.

ـ شيخو: الأب لويس.

المجاني الحديثة، عن مجاني الأب لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٥.

شعراء النصرانية بعد الإسلام، دار المشرق بيروت ١٩٧٢.

ـ فلهوزن: يوليوس. أحزاب المعارضة السياسية والدينية في صدر الإسلام، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٨.

ـ نالينو كارلو: تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية. نص المحاضرات التي ألقاها بالجامعة المصرية ١٩١٠.

٣ ـ المراجع باللغة الأجنبية

ENCYCLOPEDIE DE L'ESLAM

LEYDE - PARIS T: 1913 - T: 3: 1936 - T: 4: 1934

- NASRALLAH, JOSEFH: Saint jean de DAMAS Son époque sa vie son ceuvre. HARISSA (LIBAN) 1950.

- LAMMENS, HENRI: Etude sur le siècle des Omayyades, imprimerie Cath olique. Beyrouth 1930.

Le chantre des Omiades, Notes biographiques et litteraires sur le poete Arabe chretein AHTAL.

Extrait du Journal Asiatique, Paris imprimerie Nationale.

L'arabie occidentale avant l'hegire. Imprimerie catholique. beyrouth 1928.

Etudes sur le reigne du Calife Omayyade MOAWIA per. LEIZIG 1908.

Le Califat de YAZID per. Imprimeire Catholique Beyrouth 1921.

- PUBCH, HBNRI CHARLES:

Encyclopedie de la Pleiade, histoire des riligions T III.

RABBATH. EBMOND: Les chretiens dans l'islam des premiers temps, MAHOMET Prophete Arabe et Fondateur d'etat. Beyrouth 1981.

- TYAN, EMILB: Institution du droit Public Musulman (Sultanat et Califat) T. deusieme. Paris 1957.

الفهرس

مقدمة ٥

العاملان الاقتصادي والسياسي ٥

أحداث التاريخ ١٧

البيت السفياني/ المؤسس ٢٩

في مصادر الدراسة ٣١

■ الفصل الأول: العصر الأموي والمؤثرات العامة ٣٩

عثمان/الخليفة الأموي الأول ٤١

طموح البيت السفياني ٤٩

الخلافة الأموية ٥٩

معاوية بن أبي سفيان قبل الخلافة ٦٠

■ الفصل الثاني: معاوية أول الخلفاء الأمويين ٧٣

مبدأ الوراثة ٧٦

خلافة يزيد بن معاوية ٨٢

حادثة كربلاء ٨٥

وقعة الحرة ٨٧

حرق الكعبة ونهاية يزيد ٩٠

خلافة معاوية بن يزيد ٩١

خالد بن يزيد ونهاية البيت السفياني ٩٣
خصال السفيانيين السياسية ٩٤
■ الفصل الثالث: السياسة والمجتمع ١٠٥
١ - في تجديد المشروع الأموي ١٠٥
٢ - الحركة الأدبية عشية العصر الأموي ١١٧
الآثار السياسية ١١٨
الآثار الحضاريّة ١٢١
الآثار الثقافية ١٣٠
■ الفصل الرابع: بواعث النشاط الأدبي ١٣٧
تمهيد ١٣٧
الانبعاث السياسي ١٣٩
حزب الشيعة ١٤٣
الحزب الأموي ١٤٩
حزب الخوارج ١٥١
معتقدات نظريات الخوارج ١٥٢
حزب الزبيريين ١٥٤
تعاليم الزبيريين ١٥٩
المرجئة ١٦٤
القدرية والجبرية ١٧٢
المعتزلة ١٧٨
الصراع القيسي اليمني ١٨٤
ثراء الحجازيين وترفهم ١٨٨

المؤثرات الدينية ١٩٦
المؤثرات العقلية ١٩٩
■ الفصل الخامس: شعر الحزب الأموي وأغراضه ٢٠٥
حق الأمويين بالخلافة ٢١٠
الإشادة بالكرم ٢١٠
الحق الإلهي بالخلافة ٢١٢
توريث الخلافة ٢١٤
القول بولاية العهد ٢١٨
ولاة السفيانيين أئمة عدل ٢٢٤
هجاء الخصوم ٢٣٤
ذم الأنصار ٢٣٥
تكفير الخوارج ٢٣٩
هجاء الزبيريين ٢٤٠
محاربة الشيعة ٢٤٦
■ الفصل السادس: شعر الشيعة ومكابدته للأمويين ٢٤٩
السيرة والسيرورة ٢٤٩
النتائج والأغراض ٢٧٥
في حب آل البيت ٢٧٦
في الاحتجاج لعقيدة الشيعة ٢٧٧
هجاء الخصوم ٢٧٨
شعر البكاء ٢٧٩
نشدان الرجعة ٢٨١

تقرير عام ٢٨٢

■ الفصل السابع: شعر الخوارج وأغراضه ٢٨٥

السيرة والسيرورة ٢٨٥

سمات الشعر الخارجي ٢٩٧

١ ـ العاطفة الدينية ٢٩٧

٢ ـ تصوير عقيدتهم ٢٩٨

٣ ـ تصوير بطولاتهم الدينية ٣٠٠

٤ ـ هجاء الخصوم ٣٠٢

٥ ـ بكاء الشهداء ٣٠٣

تقويم عام ٣٠٤

■ الفصل الثامن: شعر الحزب الزبيري وأغراضه ٣٠٧

١ ـ سيرة وسيرورة ٣٠٧

٢ ـ أغراض الشعر الزبيري ٣١٦

الإشادة والتأييد ٣١٩

هجاء الخصوم ٣٢١

رثاء الفتى من الزبيريين ٣٢٣

في تقويم الشعر الزبيري ٣٢٣

■ الفصل التاسع: الشعر القبلي وموضوعاته ٣٢٧

حركة الشعر بين القبائل ٣٢٧

تمهيد ٣٢٧

١ ـ بين قيس وتميم ٣٢٩

٢ ـ بين قيس وبكر ٣٢٩

٣ ـ بين قيس وتغلب ٣٣٠
٤ ـ بين قيس واليمانية ٣٣١
٥ ـ بين العشائر ٣٣٢
٦ ـ بين الأنصار والأمويين ٣٣٤
أغراض الشعر القبلي ٣٤٦
١ ـ في المظاهر القبلية ٣٤٧
٢ ـ في أغراض الشعر القبلي ٣٥٠
■ الفصل العاشر: فن النقائض والمثلث الأموي جرير والفرزدق والأخطل ٣٥٥
تمهيد ٣٥٥
نقائض جرير والفرزدق ٣٥٧
الملاحظات الفنية ٣٦٣
نقائض جرير والأخطل ٣٦٤
تقويم فن النقائض ٣٧١
■ الفصل الحادي عشر: مدارس الغزل الأموي ٣٨١
الغزل الحضري/مدرسة ابن أبي ربيعة ٣٨١
الغزل البدوي/جميل وذو الرمّة ٣٨٩
الغزل البدوي جميل بثينة ٣٩٠
شعر الحب البدوي ذو الرمة ٣٩٤
الغزل السياسي/مدرسة ابن قيس الرقيّات ٤٠٠
■ الفصل الثاني عشر: شعر اللهو والخمر ٤٠٧
الخمر في شعر الأخطل نموذجاً ٤١٨
أوقات الشرب ٤٢٦

أمكنة الشرب ٤٢٧
أواني الخمر، وأسماء الخمر وتأثيرها ٤٢٨
أواني الخمرة ٤٢٩
تسميات الخمرة ٤٣١
■ الفصل الثالث عشر: فن الخطابة ٤٤١
خطب السلطة وخطباؤها ٤٤١
لغة الخطاب وجوهره ٤٤٢
أعلام الخطباء الأمويين ٤٤٤
سحبان وائل (ت: ٥٤هـ) ٤٤٥
زياد بن أبيه (ت: ٥٣هـ) ٤٤٦
الحجاج بن يوسف: (٤١ ـ ٩٥هـ) ٤٤٩
خطب المعارضة وخطباؤها ٤٥٣
خطب الشيعة ٤٥٣
خطب الخوارج ٤٥٥
خطب الثائرين الآخرين ٤٥٦
الإمام علي بن أبي طالب (ت ٤٠هـ) ٤٥٨
عبد الله بن الزبير ٤٦٠
■ الفصل الرابع عشر: من القصص والترسل ٤٦٣
القصص الديني ٤٦٣
القصص الإخباري ٤٦٧
الحكايات الغنائية نموذجاً ٤٦٨
الكتابة والرسالة ٤٧١

عبد الحميد الكاتب وفن الرسائل ٤٧٩
مختارات من الفن النثري ٤٨٥
خطبة «البتراء» ٤٨٥
خطبة الحجَّاج ٤٨٨
رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن مروان إلى ابنه عبد الله بن مروان .. ٤٩٠
رسالة عبد الحميد إلى الكتاب ٤٩٥
فهرس المصادر والمراجع ٥٠١
١ ـ المصادر والمراجع العربية ٥٠١
٢ ـ المراجع الأجنبية المترجمة ٥١١
٣ ـ المراجع باللغة الأجنبية ٥١١
الفهرس ٥١٣

صدر عن الدار للدكتور قصي الحسين

1 - الفنون الأدبية في العصر الأموي بالإشتراك مع د. سجيع الجبيلي .
2 - تاريخ الأدب العربي / العصر الأموي .
3 - المفضليات / المفضل محمد بن يعلى بن عامر - تحقيق د. قصي الحسين .
4 - الأصمعيات / ابو سعيد عبد الملك بن قريب - تحقيق د. قصي الحسين .
5 - جمهرة قصص العرب 4/1.
6 - كتاب الاغاني / لأبي الفرج الاصفهاني 24/1 - تحقيق د. قصي الحسين .

موسوعة امثال العرب وقد صدرت في اربعة عشر مجلداً :

1 - مجمع الامثال 2/1 / ابو الفضل الميداني - تحقيق د. قصي الحسين .
2 - فرائد اللآل 2/1 / ابراهيم الاحدب الطرابلسي - تحقيق د. قصي الحسين .
3 - زهر الاكم 3/1 / الحسن اليوسي - تحقيق د. قصي الحسين .
4 - امثال العرب / المفضل محمد الضبي - تحقيق د. قصي الحسين .
5 - تمثال الامثال / جمال الدين الشيبي - تحقيق د. قصي الحسين .
6 - التمثيل والمحاضرة / ابو منصور الثعالبي - تحقيق د. قصي الحسين .
7 - الفاخر في الامثال / ابو سلمة الكوفي الضبي - تحقيق د. قصي الحسين .
8 - ثمار القلوب / ابو منصور الثعالبي - تحقيق د. قصي الحسين .
9 - فصل المقال / ابو عبيدة البكري - تحقيق د. قصي الحسين .
10 - الدرة الفاخرة في الامثال / حمزة الاصفهاني - تحقيق د. قصي الحسين .

موسوعة الحضارة العربية وقد صدرت في سبع مجلدات :

1 - موسوعة الحضارة العربية / العصر الجاهلي .
2 - موسوعة الحضارة العربية / العصر الإسلامي .
3 - موسوعة الحضارة العربية / العصر الأموي .
4 - موسوعة الحضارة العربية /العصر العباسي .
5 - موسوعة الحضارة العربية / العصر الأندلسي .
6 - موسوعة الحضارة العربية / العصر الفاطمي والأيوبي .
7 - موسوعة الحضارة العربية / العصر المملوكي والعثماني .